

مكتبة أم الكتاب

مكتبة أم الكتاب

تتميز بجمعها من المخطوطات النادرة والكتب القيمة

والتي هي من

أهم المصادر في تاريخنا الحضاري والثقافي

وتراثنا

فكل من أراد

التحقيق

في تاريخنا الحضاري والثقافي

فليأتها ليطلع على ما فيها من كنوز

عظيمة

وتتميز بجمعها من المخطوطات النادرة

والتي هي من

أهم المصادر في تاريخنا الحضاري

والثقافي

وتراثنا

فكل من أراد

التحقيق في تاريخنا الحضاري والثقافي

فليأتها ليطلع على ما فيها من كنوز

عظيمة

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ





مَعَالِمُ الْإِيمَانِ

فِي

مَعْرِفَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ وَأَنْبَاءِ

تَأْلِيفُ

أَبِي زَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ الدِّبَاغِيِّ الْمُتَوَفَّى ٦٩٦ هـ

الْمَلِكُ وَعَلَاوُهُ عَلَيْهِ

أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ عِيسَى بْنِ نَاجِي الشُّوْخِيِّ الْمُتَوَفَّى ٨٣٩ هـ

وَفِي آخِرِهِ

ذَيْلُ مَعَالِمِ الْإِيمَانِ

المُسَكَّمُ

تَكْمِيلُ الصَّاحِجِ لِحَاوِ الْأَعْيَانِ

لِمَعَالِمِ الْإِيمَانِ فِي أَوْلِيَاءِ الْقُبُورِ وَأَنْبَاءِ

تَأْلِيفُ

مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ عِيسَى الْكِنَانِيِّ

الْمُتَوَفَّى ١٢٩٢ هـ

تَحْقِيقُ

الدُّكْتُورُ عَبْدِ الْمَجِيدِ ضِيَالِي

٣ - ٤



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Title: MA'ALIM AL-ĪMĀN

FĪ MA'RIFAT AHL AL-QAYRAWĀN

(The biographies of those who inhabited Al-Qayrawan)

Author: ʿAbdul-Rahmān Ben Muḥammad Al-Dabbāḡ

Editor: Dr. ʿAbdul-Majīd Al-Ḥayālī

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1248

Year: 2005

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان

المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدبّاع

المحقق: الدكتور عبد المجيد خيالي

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1248

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-4485-5



9 782745 144850

منشورات محمد رجاويته بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة

لسدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات صوتية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٥ م - ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد رجاويته بيروت

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٤٣٩٨ - ٣٤٤٣٥ (٩٦٦ ١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

ص.ب: ٩١٢٤ - بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٩٩٠

هاتف ٩٦٦ ٨٠٤٨١٢ - ٩٦٦ ٨٠٤٨١٣
فاكس ٩٦٦ ٨٠٤٨١٣

<http://www.al-ilmiyah.com>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم

181 - ومنهم أبو حبيب سعيد بن محمد بن سَحْنُون رضي الله تعالى عنه:

قال: كان رجلاً صالحاً من العبّاد المُبرِّزين، والزُّهّاد المجتهدين، سَمِعَ من أبيه محمد بن سحنون، وتوفي سنة عشر⁽¹⁾ وثلاثمائة، ودُفِنَ بمقبرة باب نافع إلى جانب أبيه رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين.

182 - ومنهم عروس المؤذن الشهيد المتعبّد المقتول على السنة رحمه الله:

قال: وسبب قتله؛ أنه كان يُؤذّن في مسجد عباس الفقيه صاحب سحنون، فشهد عليه بعض المشاركة أنه لم يقل في أذانه: «حَيَّ على خير العمل»^(*)، فقطع لِسَانُهُ وَعَمِلَ بين عينيه، وَطِيفَ به القيروان، ثم قتل بالمرضاخ وذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة رحمه الله. وكان زاهداً يطحنُ بيده، ويعيشُ من عمل الحلفاء.

قلت: وما أبركها عليه من قَتْلَةِ فقيرته مزاراً، بسببها يعرفه الخاصة والعامة، مع ما ادّخَرَ له في الآخرة من النعيم الذي لا يُبلى، رحمه الله تعالى.

183 - ومنهم أبو جعفر أحمد بن نصر بن زياد الهواري البربري⁽²⁾ رحمه الله:

قال: سمع من محمد بن سحنون.

(1) في ت: ستة عشرة وثلاثمائة.

(*) الذي أمر بزيادة: «حي على خير العمل» بعد حي على الصلاة، وأسقط من أذان الفجر: «الصلاة خير من النوم» هو: عبد الله الشيعي. انظر البيان المغرب: 1/ 151.

(2) ترجم له في الرياض: 2/ 183 - 186، طبقات الحُشني ص: 211 - 213 رقم 39، ص: 299 - 300 رقم 172، البيان المغرب 1/ 194 - 195، ترتيب المدارك 1/ 48، الديباج المذهب ص: 91 - 92، شجرة النور الزكية 1/ 122 رقم 190.

قلت: ظاهرة؛ أنه لَمْ يَسْمَعْ من غيره، وهذا في غاية القُصُور، بل سمع أيضاً من: محمد بن عبدوس، ويحيى⁽¹⁾ بن عمر، وحمّاس بن مروان، وربيع القطّان، وسمع منه ابن حارث⁽²⁾ وجمع كثير، وتفقّه به أكثر من القرويين.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان من العلّماء الرّاسخين، والحُفّاظ المعدودين، لَمْ يُرَ في زمانه أحفظ منه، ولا أحضر جواباً، لا سيّما في مذهب مالك، وكتب لحماس بن مروان.

قلت: وقال أبو العرب: «كان ثقةً ثبّتاً مأموناً فقيهاً، كتب لحماس أيام قضايته، وكان حافظاً كثيراً الدّرس»⁽³⁾ وقال ابن حارث: «كان عالماً متقدّماً بأصول العلم؛ حاذقاً بالمناظرة»⁽⁴⁾. جيّد القريحة، حسن الكلام في علم الفرائض، والوثائق، صحيح المذهب، شديد التّواضع، سليم القلب، بعيداً من التّصنع، وكان لا ينظر ولا يتصرّف في شيء من العلم، غير مذهب مالك ومسائله، فإذا تكلم فيها كان فائقاً⁽⁵⁾.

قلت: وما ذكر من كونه؛ أنّه كان لا يتصرّف في غير مذهبه، خلاف ما تقدم أنه لَمْ يُرَ في زمانه إلى آخره. وقال أبو بكر المالكي: «كان من الفقهاء المبرزين، والحُفّاظ المعدودين، لا يُدانيه في ذلك أحد في زمانه»⁽⁶⁾. وقال أبو القاسم السدري: وكان أول من أدخل كتاب ابن الموّاز إفريقية. حفظت منه مسائل جيّداً، وجئت إلى أبي جعفر فألقيتها عليه، فجعل يطأطئ رأسه كالمفكر، ثم أجابني عنها، ثم قال لي: يا أبا القاسم: جال فكري⁽⁷⁾ في دواوين أهل المغرب، فما وجدت

(1) في الديباج: يحيى بن عمرو المغمي ص: 91 وفي ترتيب المدارك: يحيى بن عمر بن يوسف الكنانى 234/3، وفي طبقات الخشني، والبيان المغرب: يوسف بن يحيى المغمي، وفي شجرة النور: يحيى بن عمر. كما في المعالم المطبوعة، ونسخة (ت) المخطوطة.

(2) قال ابن حارث في طبقاته: «حضرته يوماً ونحن عنده وجماعة من الناظرين في المسائل والمعنيين بالمناظرة، حتى دخل عليه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، فسلم وجلس جانباً وأنا لا أعرفه، ولا أحد من المجلس...» ص: 211 - 212.

(3) طبقات أبي العرب ص: 250. (4) طبقات الخشني ص: 211.

(5) ورد في طبقات الخشني بصيغة أخرى ص: 211 - 213.

(6) الرياض 183/2. (7) في ت: سري.

هذه المسائل في شيء منها، لعلك أتيت بكتاب ابن المَوَازِ؟ قلتُ: نعم، قال: قَطَّعُهُ أَخْمَاساً وَوَجَّهَهُ إِلَيَّ؟ ففعلتُ، وجئتُ بعد ذلك أزوَرُهُ فقال لي: يا أبا القاسم، الكتاب الذي كان في بيتك حصل في صَدْرِي.

قال: وله نَوَازِل كثيرة سُئِلَ عنها.

قلت: من ذلك سُئِلَ عن زوجين ادَّعَى كُلُّ منهما على صاحبه أنه عَضِيْوُطاً، فَأُتِيَ بِأَن يَطْعَم أَحدهما فُقُوساً، والآخر تِيناً، ثم يرسل عليهما في اليوم الآخر، فيحكم بالعيب ممن يوجد زَرْيَعَةً ما أكل في الحدث، ومن ذلك أنها نزلت بالقَيروان مسألة في امرأة سَقَتْ زَوْجَهَا سُماً فَاسْوَدَّ، [فَتَوَقَّفَ علماؤها]⁽¹⁾ فيها فقال لهم أحمد بن نصر: المسألة في المدونة في السن إذ ضَرَبَهَا رَجُلٌ فَاسْوَدَّتْ أو اخْضَرَّتْ، فقد تمَّ عقلها، ووجبَتِ الدِّيَّةُ فيها، لأنَّ السِّنَّ إنما يُرَادُ منها جَمَالُهَا وَبَيَاضُهَا، فكذلك الإنسان إذا اسْوَدَّ فقد ذهب حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ، فوجبَت فيه الدِّيَّةُ.

قلت: وَقَبِلَ قِيَاسُهُ أَهْلُ عَصْرِهِ ومن جاء بعدهم. وقال شَيْخُنَا أبو عبد الله محمد بن عرفة: قد يفرق بلزوم البياض للسن، وبعض مؤمني الأدميين أسود. ونقل عياض في المدارك عن أبي القاسم زياد السدري أنها سقته فَتَجَدَّمَ، وأنهم اضطربوا فيها فقال أحمد بن نصر: لَا تَضْطَرُّبُوا أَخْذاً من المدونة، وهي المرجوع إليها، وظاهر قوله: اضطربوا يَقْتَضِي⁽²⁾ اختلفوا على فرقتين بِالدِّيَّةِ وَنَفْيِهَا، وفيه المخالفة لما فوقه من وجهين في صورتها، وفي حكمها لما قد علمتُ من الفرق بين الوقف والاضطراب، ولذلك عبر من اختصر المدارك عن الاضطراب بأنهم اختلفوا فيها، وقد بَسَّطْنَا الكلامَ على المسألة في شرح كتاب «الجراح من المدونة» بأوعب منها فانظره.

ذكر بقية أخباره

قال أبو بكر المالكي: كان يَنْشُدُ في قِصَّةِ جرت لإنسانٍ وَهَبَ لولده دَاراً ثم احتاج إليها فَكَلَّمَهُ فَأَبَى عليه، وكان قد خَطَبَ عند قومٍ فلم يُزَوِّجُوهُ حتى وَهَبَهُ إِيَّاهَا حِفْظاً لِقَلْبِهِ وَأَنْشَدَ:

(1) في ت: «فوقف علماؤها فيها». (2) في ت: يعني.

إذا احتاجَ البَنُونُ إلى أبيهم أتوا بالبرِّ والفضلِ الجزيلِ⁽¹⁾
وإن احتاجَ والدُهُم إلىهم يُقَاسِي ألْهَمٌ في اللَّيْلِ الطويلِ
فأحسن والدٌ لم يعط شيئاً وعاش بماله حتى الرحيلِ

قال: واتفقت عليه محنة سجنه عبيد الله في المهدية وقيدته، وكان به إسهال في أكثر عُمره، فشُقَّ عليه أن يُتَكشَّفَ عليه في السجن فدعا الله في ذلك، فارتفع عنه الإسهال في السجن، فلما وصل إلى داره بالقبروان، عاد إليه، وكان مدة إقامته في السجن تسعة أشهر⁽²⁾.

قلت: هذا كلامٌ فيه بثرٌ، وبسطه كما ذكروه، امتحن على يدي إسحاق بن أبي المنهال القاضي من قضاة العراق، وكان رجل سوء، إمتحن على يديه جماعة من الصُّلَحَاءِ، والعلماء المدنيين، فضرب بعضهم، وحبس بعضهم، فدخل على عبيد الله الشيعي فقال له رجل من البربر وله ذكر: ونحن لا نأمن به، وكان يتوقع أمر أبي يزيد، وكان أبو جعفر يجتمع الناس إليه في مسجد رَحْبَةِ الْقُرَشِيِّينَ ويُفتي بمذهب مالك، فوجه إليه وسجنه بالمهدية وقيدته، وكان يَعْتَرِيهِ الإسهال في أكثر عُمره، فلما جعل القيد في رجله دعا الله سبحانه أن لا يبتليه في السجن بذلك، فارتفع عنه الإسهال طول إقامته في السجن، فلما تبين لعبيد الله أنه ليس قبله شيء مما رمي به، أمر بإخراجه، فلما وصل إلى داره عاد إليه الإسهال⁽³⁾. وكان حبسه في سنة ثمان وثلاثمائة، ولما أُطْلِقَ لزم بيته حتى مات. ففي داخل بيته كان يجتمع إليه من يقصده، وكان يقول: حُبِسْتُ في بيت الدم مع السُّرَّاقِ، وأصحابِ الدَّمَاءِ. وكنتُ أخرج في كل جمعة يتفقد قيدي، أقمت على هذا شهرين ثم أخرجت بعد ذلك من ذلك البيت إلى البيت⁽⁴⁾ الذي يحبس فيه جميع الناس. والله ما سرقت، ولا زنيْتُ، ولا جنيت، ولا كان ذلك إلا على محبة صاحب القبر والمنبر عليه السلام⁽⁵⁾.

(1) الرياض: 2/ 185.

(2) الخبر في الرياض: 2/ 184.

(3) الرياض: 2/ 184.

(4) في الرياض: الموضع 2/ 184.

(5) الخبر في الرياض: 2/ 184 - 185.

ذكر وفاته

قال: ولد سنة خمس وثلاثين ومائتين وتوفي في ربيع الآخر سنة سبع⁽¹⁾ عشرة وثلاثمائة.

قلت: وصلى عليه أبو ميسرة أحمد بن نزار، في جماعة أصحابه سرّاً في داره خوفاً من أن يصلى عليه أحدٌ من قضاة الوقت⁽²⁾. فلما أخرج به وكفاه الله تعالى ذلك، أعاد الصلاة ثانياً فصلى عليه خلق كثير، وقبله عياض.

فإن قلت: في قبوله نظر، لأن الميت إذا صلى عليه اثنان فأكثر فإنها لا تُعاد عليه⁽³⁾ بلا خلاف في المذهب؛ واختلف في الواحد.

قلت: لا نظر فيه، وصلاتهم أولاً هي الفرض أو السنة، وإنما أعاد أبو ميسرة الصلاة عليه للمصلحة العامة، لأنهم إذا لم يصلّوا عليه، تقع مفسدة عظيمة لا من العامة ولا من السلطان، ودائرتة إعادته إنما هو رعي لما ذكرناه والله أعلم.

قال: ودُفن بالرمادية.

قلت: وقبره غير ظاهر [رحمة الله عليه ورضوانه لديه]⁽⁴⁾.

184 - ومنهم أبو القاسم محمد بن محمد بن خالد القيسي⁽⁵⁾ المعروف بالطرزي⁽⁶⁾:

القاضي الزاهد مؤلى بني مَعْبِد؛ سمع من سَحْنُون بن سعيد كثيراً.

قال: ولأه عيسى بن مسكين على مظالم القيروان، ولأه حمّاس بعده عشر

سنين.

(1) في الرياض: ضَمَّنَهُ المالكي ضمن وفيات؛ أربع عشرة وثلاثمائة، وفي الديباج: تسع عشرة وثلاثمائة. وفي البيان المغرب كما في المعالم.

(2) الديباج المذهب ص: 92.

(3) سقطت من: ت.

(4) ما بين المعقوفتين لم يرد في: ت.

(5) ترجم له في: طبقات الخشني ص: 217 رقم 46، ص 298 رقم 168 وفيه أن اسمه: أبو القاسم الطوري، البيان المغرب 1/ 195 [وفيات 317]، وطبقات أبي العرب ص: 251، والرياض: 55/2.

(6) الطرزي: نسبة إلى طرزة من مدن إفريقية يُنسب إليها موسى بن عبد الله الطرزي، كان يؤدب أولاد السلاطين وكان شاعراً مجيداً عفيفاً. انظر: الروض المعطار ص: 387.

قلت: المراد بالمظالم؛ أحكام السوق. قال أبو العرب: «قد ولي لعيسى بن مسكين وحمّاس أسواق القيروان»⁽¹⁾. وإنما نَبَّهْتُ على ذلك، لأنه كان يتبادرُ لِذَهْنِي أَنَّهُ المحتسب في اللحم، والخبز، والإسفنج؛ ويحكم مع ذلك في الأسواق بحكم التبّع، والمراد بعشر سنين من ولاية عيسى له إلى آخر ولاية حمّاس [لأن ولاية حمّاس]⁽²⁾ كانت أقل من عشر سنين بكثير، ولذلك قال التّجيبّي: ولي حكومة القيروان عشر سنين. وذكر ابن الجزار أنه اعتذر حين وليها بأن فيه حياء، ولين جانب، وقلة فقه. فقال له الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب⁽³⁾: أما الحياء واللين فإذا أمرت ونهيت، فقد زالا، وأما قلة الفقه فشاور الفقهاء. قال: ثم ولي قضاء صقلية، ولاء عليها زيادة الله بن عبد الله فأقام عليها عشر سنين.

قلت: كانت ولايته في آخر دولة بني الأغلب.

قال: وكان شديد الضبط مُعَيَّرًا لِلْمُنْكَرِ.

قلت: في كلامه بتر لزيادة غيره لَمْ يَلِ أسواق القيروان قبله أضبط منه.

قال: روى أنه لما ولي مظالم القيروان؛ مَرَّ على قناة يخرج منها ماء من دار محمد بن زَرْقُون، أمام الجامع فسأله عنه؟ فقال: فَأُرِّقُ وقع في البئر، فقال: وماء فأر أيضاً. فَسَجَنَهُ، فلما حضرت صلاة الظهر، مضى إلى السجن فصاح به فأخرجه وقال له: والله لولا أنك إمام، والناس لا يَسْتَعْنُونَ عنك مَا أَخْرَجْتُكَ.

قلت: هذا وَشِبْهُهُ هو الذي يُقَالُ فيه: لا تأخذه في الله لَوْمَةٌ لَائِمٌ، ولقد ضَيَّعَ القضاة من أصحابنا هذا الباب تَضْييعاً، حتى كأنهم لم يسألوا عنه، ويرون ذلك بأبصارهم، ولا يقف فيه كل الوقوف وإن رفعت إليهم شهادة، فلا يعملون بها إلا عملاً ضعيفاً فيتجاسر⁽⁴⁾ النَّاسُ، وَيُكْثِرُ⁽⁵⁾ من رَدِّمِ الأزقة بفضلات بُنْيَانِهِمْ ونحو ذلك

(1) طبقات أبي العرب ص: 251.

(2) ما بين المعقوفتين سقط من: ط. الزيادة من: ت.

(3) ترجم للأمير أحمد بن إبراهيم الأغلب في البيان المغرب: 1/ 116 - 133. وقد أرخ ابن عذاري وفاته يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة 289 هـ. وكان عمره اثنين وخمسين سنة، ومُدَّة ولايته ثمانية وعشرين سنة وستة أشهر واثنين عشرة يوماً. لقد أتى بأمور لم يأت بها أحد غيره في سفك الدماء. انظر البيان المغرب 1/ 132 - 133.

(4) في ت: فتجاسر.

(5) في ت: ويكثروا.

من تخريج المياه الطاهرة والنجسة من ديارهم؛ وربما يوقفون رجلاً في ذلك، ولا يعضدون كل العضد فتكثر الجسارة⁽¹⁾ عليه، فيرفع يده وإن بقي بقي كالعدم، ولا يجوز هذا. ولقد كنت أبالغ فيه غاية المبالغة.

قال: وكان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

إِذَا خَانَ الْأَمِيرُ وَكَاتِبَاهُ وَقَاضِي الْأَرْضِ دَاهِنٌ فِي الْقَضَاءِ
فَوَيْلٌ لِلْأَمِيرِ وَكَاتِبَيْهِ وَقَاضِي الْأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

قلت: كان يتمثل بهما في مجلس أحكامه، إشارة لما قلناه من أن المطلوب من الحاكم؛ أن يسوي بين القوي والضعيف، والشريف والمشروف، بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال: وقد كانت له محنة ضربه القاضي المروزي⁽²⁾ هو وابن بطريق⁽³⁾ بالسياط عند الجامع، بغضاً منه في أهل السنة، وعداوة لعلماء المسلمين.

قلت: وزاد غيره وضربه أيضاً ابن سلمون القطان، والحلا في المحتسب، وقوماً مرابطين من أهل تونس، وكان قتل المروزي بسببهم وذلك أن عبید الله إمام الشيعة لما أتى إلى القيروان من سجلماسة⁽⁴⁾، وجده قاضياً ووجد في سجنه من ذكر، وأظهر أن سببه القدح في الدولة فعزله وعذبه ثم قتله.

قال: وتوفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

قلت: زاد غيره في شهر رمضان المعظم.

(1) الجسارة: الإقدام على فعل أمر.

(2) هو: محمد بن عمر المروزي أول قاض بإفريقية للشيعة توفي سنة 303 هـ. ترجم له في الرياض 55/2، البيان المغرب: 1/173، طبقات الخشني ص: 309.

(3) ابن بطريق هو: أبو العباس إسحاق بن إبراهيم الأزدي الصائغ قاضي طرابلس. ترجم له في الجزء الثاني من كتاب معالم الإيمان رقم ترجمته 162.

(4) في ط. سجلماسة وهو تحريف لكلمة: سجلماسة وهي بلدة مغربية على طرف الصحراء على نهر يبلغ طوله أزيد من 100 كلمتراً يقال له: «زيز» أقيم عليه سد سمي بسد الحسن الداخل، يبعد عن مدينة الراشدية بـ 12 كلمتراً ويصب في صحراء تافيلالت. للمزيد انظر: الروض المعطار ص: 305 - 307 مادة «سجلماسة»، وكتاب وصف إفريقيا ص: 120. كان ظهور عبید الله الشيعي بسجلماسة سنة 296 هـ، وتوفي سنة 322 هـ. انظر البيان المغرب 1/206.

قلت: وقال أبو العرب: «كان ثقة سميع منه الـ
«وغلِب عليه الحديث، وكان كثير الرواية، وكان
القاسم بن سُبُلون: «كُنَّا ونَحْنُ صبيان نلعب، إذ

(1) ورد ذكره في الرياض: 98/2.

(2) ترجم لأبي جعفر القصري في: طبقات الخشني ص:
199، ترتيب المدارك 138/5 - 139 طبعة فضالة المغير

قال الخشني: نُسب إلى القصر القديم، وهو قصر أبي

بدي حاضرة القيروان، من جهة قُبَلِهَا على مسيرة مِائَتَيْنِ،
الأغلب عنه. طبقات الخشني ص: 224.

(3) طبقات أبي العرب ص: 252. وقد ورد هنا مختصراً مقـ
العرب: «كان أبو جعفر بسمع معنا من مشايخنا ويكثر الكـ
197/2.

عبد الرحمن، نَشْرُكُ اللَّعِبَ، ونَهْرُبُ إِجْلَالاً لَهُ وَهَيْبَةً⁽¹⁾. وقال سعيد بن جُبَيْر: شهدتُ أبا بكر بن اللَّبَّاد يَأْتِي وَاجِلاً إِلَى أَبِي جَعْفَر بن أحمد، بن محمد، بن عبد الرحمن الْقَصْرِي يأخذ منه كتاباً ينقل منه سماعه من يحيى بن عمر وغيره؛ هذا لِثِقَتِهِ وَضَبْطِهِ.

قال: وكان له اعتناء كثير بجمع مُعْجَزَات النبي ﷺ تسليماً. قلت: وكان يقول: لَوْ سَبَقَنِي أَحَدٌ لِدْفِنِ كُتُبِهِ مَعَهُ، لأمرتهم أن يدفنوني بالمعجزات، حتى أَلْقَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تسليماً وكان يقول: ربما انتبهت من النوم فَأَرَى نُوراً يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى كِتَابِ الْمُعْجَزَاتِ. قال أبو بكر المالكي: وكان يقول: «إِنِّي لِأَشْتَهِيَ الشَّيْءَ مِنَ الطَّعَامِ [فَأَشْتَرِيهِ]⁽²⁾ فَعِنْدَ أَكْلِهِ لَا أَجِدُ لَذَّةً⁽³⁾، وما هو إِلَّا لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِلْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ: «تَرْفَعُ حَلَاوَةُ الدُّنْيَا [وَزِينَتُهَا]⁽⁴⁾»، أَوْ مِنْ كَسْبِ النَّاسِ الْيَوْمَ، وَلَقَدْ فَكَّرْتُ فِي قَوْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيَّهَا فَوْجُهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌ قَبِيحٌ⁽⁵⁾
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَقَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ

فهذا آدم يقول: تغير كل ذي طعم، ولون، فكيف بزماننا اليوم⁽⁶⁾؟

قال: وكان يقول لي: أربعون سنة ما جَفَّ لِي قَلَمٌ.

قلت: من كثرة كتبه للكتب وقصد المبالغة في قوله: ما جَفَّ لِي قَلَمٌ؛ كقوله ﷺ تسليماً: «لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ يَمِينِهِ»⁽⁷⁾. وكان ربما باع بعض ثيابه واشترى

(1) الخبر في الرياض: 198 / 2.

(2) ما بين المعقوفتين زيادة من الرياض 199 / 2.

(3) في الرياض أمام كلمة «لذة»: [ولقد تفكرت في ذلك، فما هو] 199 / 2.

(4) في ط: وحلاوتها. التصويب من الرياض 199 / 2.

(5) الرياض: 199 / 2. والشطر الأول ورد في يتيمة الدهر من [البحر الوافر] 159 / 4 وصبح الأعشى في صناعة الإنشا 256 / 1.

(6) في الرياض: هذا؟ 199 / 2.

(7) انظر الحديث بآتمه من رواية فاطمة بنت قيس، وهذا جزء منه لقوله ﷺ: «أما أبو جهنم فلا يضع عصاه عن يمينه»، وأما معاوية فُضِّلُوهُ لَا مَالَ لَهُ انكحى أسامة بن زيد» أخرجه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب الطلاق (6) باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها حديث 36 (1480) ص: 759 - 760، والنسائي في المجتبى، كتاب النكاح، باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم 75 / 6.

حتى مات. وله تأليف في الرقائق، وأحمية الحُصُون، وما يجب على سكانها أن يعملوا به، فكان أهل الحصون يؤذونه على ذلك، وكان يُصَلِّي كل يوم وليلة بختمة خمسمائة ركعة، يختم فيها القرآن، وصام حتى انقطع. قال أبو بكر الزويلي⁽¹⁾: خرج أبو الفضل من سوسة إلى قصر سهل، فَمَرَّ بِإِسْفَنْجِي يَعْمَلُ الزَّلَّابِيَّةَ، وَصَبِيٍّ مَعَ أُمِّهِ يَبْكِي، فَسَأَلَ الْمَرْأَةَ مَا لَهُ؟ فَقَالَتْ لَهُ: هُوَ يَتِيمٌ، وَأَنَا أُمُّهُ أَرْمَلَةٌ فَرَأَى هَذَا الْإِسْفَنْجِي⁽²⁾ فَاشْتَهَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخَذَ أَبُو الْفَضْلِ بِيَدِ الْوَلَدِ وَقَالَ لِصَاحِبِ الدَّكَانِ: خُذْ هَذَا الْمُنْدِيلَ، وَنَزَعَهُ عَنْ رَأْسِهِ، وَأَطْعِمْ هَذَا الصَّبِيَّ حَتَّى يَشْبَعَ، وَمَشَى حَاسِرَ الرَّأْسِ إِلَى قَصْرِ سَهْلٍ⁽³⁾.

قلت: شَبَعُ الصَّبِيِّ مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ كَمَا هُوَ مَعْلُومُ الْيَوْمِ عِنْدَنَا فِي الْعُرْفِ الْأَعْمِ الْأَغْلَبِ؛ فَلَيْسَ فِي شِرَائِهِ جَهَالَةٌ.

قلت: وقال أبو بكر الوراق⁽⁴⁾: كَانَ أَبُو الْفَضْلِ يَخْتَبِرُ⁽⁵⁾ قُوَّتَهُ وَيَبْرِدُهُ⁽⁶⁾ سَخْنًا بِالزَّيْتِ، وَيَجْعَلُهُ فِي إِنَاءٍ وَيَفْطِرُ كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ، [وَكَانَ]⁽⁷⁾ يَسْرُدُ الصِّيَامَ طَوْلَ عَمْرِهِ؛ [وَلَقَدْ بَقِيَ]⁽⁸⁾ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا طَبَخَ قِدْرًا، وَلَا أَوْقَدَ فِي بَيْتِهِ سِرَاجًا⁽⁹⁾. وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ؛ أَنَّهُ رَأَى خَادِمًا تُعَالِجُ الْقِدْرَ فِي يَوْمِ رِيحٍ، وَالْحَطْبُ أَخْضَرُ، وَدُمُوعُهَا تَسِيلُ، فَقَالَ: دَعُهَا وَاللَّهِ لَا أَطْلَعْتُ لِي قِدْرًا عَلَى نَارٍ مَا بَقِيَتْ فِي الدُّنْيَا.

قال: وقال يونس السَّقَّاءُ⁽¹⁰⁾: كُنْتُ مُلَازِمًا لَخِدْمَةِ أَبِي الْفَضْلِ، فَأَخْرَجَ إِلَيَّ دَقِيقًا وَأَمَرَنِي بِصَدَقَتِهِ وَقَالَ: ضَاقَتْ نَفْسِي مِنْ هَذِهِ الْوَيْبَةِ لِي سِتُونَ لَيْلَةً أَكَلْتُ مِنْهَا،

(1) هو أبو بكر أحمد بن أبي بكر الزويلي توفي سنة 395 هـ انظر ترجمته من هذا الجزء برقم (249).

(2) الإسفنج: يصنع من العجين على شكل دائري وَيُقْلَى فِي الزَّيْتِ.

(3) الخبر في الرياض: 237/2 - 238.

(4) في الرياض، الرواية من: يحيى بن عمر، من فراء بن محمد العبدي وغيرهما 235/2.

(5) في الرياض: يخبز 235/2.

(6) في الرياض: فَيَبْرِدُهُ. وهو سخن. أي يجعله ثريداً.

(7) الزيادة من الرياض: 235/2.

(8) في الرياض: وأقام 235/2.

(9) في الرياض: مصباحاً.

(10) هو يونس بن سليمان السَّقَّاءُ توفي سنة 371 هـ ودفن بالرمادية. انظر ترجمته في معالم الإيمان من هذا الجزء رقم ترجمته (230).

قال يونس: فأصببتُ فيها قدرُ ثُمْنَيْنِ من دقيق، فكان قوته في ستين ليلة ثُمْنَيْنِ من دقيق⁽¹⁾. وقال بعضهم: حملت إلى أبي الفضل هدية عسلاً وَسَمْنًا وَكَعُكًا وقلت: هذه هدية مِنِّي لك، فقال: أسأل الله العظيم أن يعظم ثوابك، اليوم لي ثلاثون سنة ما أكلتُ من هذه الطرف شيئاً، أنا وظيفتي من الشهر إلى الشهر بقيراط شعير وإنما ينعم الناس ويأكلون غداً، فَرَّقَهَا على الضُّعَفَاء، ففعلت وأخرجت له خريطة بدرهم فقلتُ له: فَرَّقْ هذه على من يستحقها؟ فقال: لا أفعل، إنما أَفَرَّقُ مالي، وأما مَالُكَ فَأَنْتَ تُسْأَلُ عنه. وروى أنه كان انتهى تيناً أخضر، فأمر من يشتريه له، فلما رأى الذي اشتراه له من بعيد قال: إِذْهَبْ عني فرأى الرجل ذلك وذهب إلى بائعه فسأله عنه، فإذا به من أرض مَغْصُوبَةٍ لِيَتَامَى، فرجع لأبي الفضل، وقال: رددت تيني فقال: والله ما تخيل لي إلا أَنَّكَ اشتريت لي خنزيراً⁽²⁾. وقال بعضهم⁽³⁾: كانت لي ابنة ابْيَضَّتْ عَيْنَاهَا من الجُدَرِي فَعَمَّيْنِي ذلك فجئتُ إلى أبي الفضل فوجدته معدولاً عن الطريق ورأسه بين رُكْبَتَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عليه وأخبرته بقضيتي فقال لي: إذا كان غداً هذا الوقت فأتني بها. فمضيتُ عنه فسمعتة يقول: أَخْطَأْنَا الطريق، ثم صاح بي وقال: لَا تُحَرِّكْهَا وَلَا تَأْتِنِي أَتَاهَا الله بالفرج من حيثُ لَا تَدْرِي، ولا تشعر، ثم أتيت إلى الدار، فوجدتها نائمة فأَيْقَظْتُهَا ففتحت عيناها فإذا هُمَا أَجْمَلُ مِمَّا كَانَا، ليس بهما شيء⁽⁴⁾، وقيل له: فلان يتكلم فيك فقال: إنما مثلي ومثله مثل رجل حمل لضرب عنقه، فقذفه رجل في الطريق فقال لنفسه: اسكت إنما تحمل للقتل، تسل عمن قذفك وأنا سائر إلى الموت لا أدري ما يأتيني أسأل من يتكلم مما لا يغني عن ذلك، وكان يقول: لو علمت أن أحداً تجاب دعوته في الموت لَسَأَلْتُهُ فيه، وكيف لا أحب الخروج من دار فيها إبليس والفتن، وكذا وكذا إلى دار أرجو فيها الاجتماع مع النبي ﷺ تسليماً. وذكر أنه دعا على نفسه بالموت.

قال: وحكي أنه خرج أبو القاسم بن راشد وصاحب له ومع كل واحد منهما ابن بالغ جميل فنزلوا بقصر سهل وبه أبو الفضل فثبت عنده أن الصبيين بيتان في

(1) ورد الخبر في الرياض مطولاً 235 / 2.

(2) الخبر ورد في الرياض بصيغة أخرى 238 / 2 - 239.

(3) ورد اسم القائل في الرياض باسم «عبد السلام» وهو شيخ معمر كان بالمُنَسْتِير 239 / 2.

(4) الخبر ورد في الرياض: 239 / 2 - 240.

لحاف واحد فقال لأبويهما أن النبي ﷺ تسليماً «أمر بالتفرقة بين البالغين في المضاجع». فأخذ الرجل بمجامع ثوب الفضل وتناوله فقال أبو الفضل: «اللهم أذهب عقله وأفجعه بابنه فأعتل الصبي في القصر فلم يحمله منه إلا ميتاً، ثم خولط الأب في عقله حتى مات.

قلت: وأراد أبو الفضل بقوله بين البالغين الذي هو على طريق الوجوب، وإلا فالنبي ﷺ تسليماً أمر بذلك قبل فقال: «مروا الصبيان بالصلاة لسبع سنين واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع»⁽¹⁾. فقيل: أراد لعشر سنين لأنه أقرب مذكور قاله: «ابن وهب»⁽²⁾. وقيل بالسبع سنين لتصدير الكلام به. قاله ابن القاسم⁽³⁾، ودعاء الشيخ بأن يفجعه بابنه صواب، لأن ابنه عاص بفعله وقد قال في المدونة: لا بأس بالدعاء على الظالم، فالولد قد ظلم، فدعاؤه عليه سائغ.

[يجوز الدعاء على الظالم]

قال: وتوفي أبو الفضل بقصر سهل ليلة الاثنين لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

قلت: وقال بعضهم: بل توفي في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ورثاه بعضهم فقال:

بقصر المُنِسْتِيرِ عَالِمٌ نَزِيلٌ غَرِيبُ الدَّارِ يُكْنَى أَبَا الْفَضْلِ

(1) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة حديث (495) 1/127، والحاكم في مستدركه حديث (708) 1/311 طبعة دار الكتب العلمية ط I س 1990 كلاهما من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: «مروا أولادكم» وقد أخرج من طرق أخرى. انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص: 447 رقم (1013).

(2) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري القرشي المصري درس على مالك وروى عنه. هو الوحيد الذي سماه مالك «فقيه مصر» توفي سنة 197هـ. وكان مولده سنة 124هـ. ترجم له في: الديباج المذهب ص: 214 - 217، إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك ص: 90، شذرات الذهب 1/347 - 348.

(3) هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي ولد بمصر سنة 132هـ ثم رحل بعد مدة إلى المدينة شرفها الله تعالى حيث سمع دروس مالك طيلة عشرين سنة وكان شيخاً لسحنون. توفي رحمه الله سنة 191هـ. ترجم له في الديباج ص: 239 - 241، شذرات الذهب 1/329، إتحاف السالك ص: 153 - 157.

أَنَارَ حُصُونِ الْغَرْبِ بِالْعِلْمِ فَاهْتَدَتْ رَجَالٌ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ فِي جَهْلِ
وَيَنْشُرُ دَرَسٌ⁽¹⁾ الْعِلْمِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ [وَيَنْصَحُ فِي الْإِسْلَامِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ]⁽²⁾

[زيادة التراب على قبر من قبر آخر تمنع الميت من سماع الآذان ورؤية زائريه]
قال أبو بكر المالكي: وقال لمن يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ وَيَتَوَلَّى خِدْمَتَهُ: «أَنَا إِذَا مِتُّ
فَسَنُوتُوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًا وَلَا تَزِيدُوا عَلَى تَرَابِ قَبْرِی شَيْئًا، فَإِنِّي رَأَيْتُ فِي بَعْضِ
الْأَخْبَارِ⁽³⁾: أَنَّهُ إِذَا زِيدَ عَلَى تُرَابِ الْقَبْرِ مِنْ تُرَابٍ غَيْرِهِ لَمْ يَسْمَعْ الْمَيِّتُ الْآذَانَ وَلَمْ
يَرِ الزُّوَّارَ»⁽⁴⁾.

187 - ومنهم الحسن بن محمد القلانسي الفقيه⁽⁵⁾:

قال: وهو معلم أبي الحسن الدباغ، له إدراك سمع من محمد بن يحيى بن
سلام، وأبيه يحيى، ويحيى بن عمر توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، ودفن
بِالْبَلَوِيَّةِ. قال أبو الحسن علي بن محمد الدباغ أنشدني الحسن بن محمد:

إِعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثٌ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ مُخَصِّي عَلَيْكَ وَمَا خَلَّفْتَ مَوْرُوثٌ

188 - ومنهم أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الله⁽⁶⁾ المتعبد⁽⁷⁾:

قال: كان من واحد زمانه عبادةً وَوَرَعاً وَفَضْلاً، مجاب الدعاء، وكان لَا يُرَى
فِي مَسْجِدٍ أَوْ فِي جَنَازَةٍ، إِلَّا وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي. روي أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُوسَةَ، فَكَانَ إِذَا
مَشَى مِيلِينَ⁽⁸⁾ أَوْ ثَلَاثَةً، عَدَلَ عَنِ الطَّرِيقِ فَصَلَّى، يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى يَصِلَ، وَكَذَلِكَ إِذَا
انْصَرَفَ وَخَرَجَ عَلَيْهِ يَوْمًا السُّودَانُ فَأَخَذُوا دُرَيْهَمَاتٍ كَانُوا مَعَهُ وَمَضُوا غَيْرَ بَعِيدٍ،
فَلَحِقَهُ أَحَدُهُمْ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُمْ حَبَسُوا تَحْتَ شَجَرَةٍ فَمَا اسْتَطَاعُوا الْقِيَامَ، وَقَالَ: عَلِمْنَا
أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ دُرَيْهَمَاتِهِ وَانْصَرَفَ عَنْهُ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَسَنَ الْخَلْقِ،

(1) في الرياض: نور 250 / 2.

(2) ورد هذا الشطر في الرياض مضافاً إلى الشطر الثاني من البيت الحادي عشر فالشطر المقابل
في الرياض لشطر البيت الأول هو: «فأصبح محموداً بريئاً من البخل» 250 / 2.

(3) في الرياض: الآثار 241 / 2. (4) الرياض: 241 / 2.

(5) ترجم له في الرياض: 263 / 2. (6) في الرياض: بن نصر 266 / 2.

(7) ترجم له في الرياض: 266 / 2. (8) الميل = 1506 متراً.

له ملاحه في العباد، وحلاوة في الزهاد، يخدم الأراذل، والفقراء، واليتامى ويسقي الماء للضعفاء، كثير السياحة والرباط، لا يمر بشرف، ولا بقعة ولا روضة حسنة، إلا ركع فيها؛ ولا يخرج من بيته حتى يختم ختمته، وفي الليل أخرى، قال أبو عبد الله اللباد الصامت: دخلت على عبد الوهاب وعليه قرؤ، وهو جالس وصوفه إلى خارج، وعلى رأسه دوحلة خوص. ورؤي أنه خرج مرة إلى الرباط بسوسة ومعه نصف درهم، فلما كان في وقت الإفطار، أراد أن يشتري به ما يفطر عليه فأخرجه فكل من في السوق يقول: هذا زائف فرجع وبات طاوياً، فلما رجع إلى بيته بالقيروان وجدته جيداً، فاعلم بعد ذلك أن السوق بسوسة كان في تلك الأيام متقبلاً، قال أبو الربيع: دخلت على مروان العابد وبيده جبة من كساء خلق يخطها فقال: هذه لعبد الوهاب يناجي الله فيها في سواد الليل، وروى أنه لما احتضر عبد الوهاب كان عند رأسه أبو بكر بن اللباد الفقيه، وأبو العرب بن تميم الفقيه، وأبو محمد بن فطيس الفقيه، وأبو القاسم بن تمام المتعبد، وأبو جعفر بن أبي خالد الفقيه، الدباغ، وأبو محمد بن أبي عيسى من الأبدال، وأبو الفضل الممسي الفقيه، وأبو محمد بن خيران، الفقيه، وحبيب بن نصر الفقيه، وأبو عبد الله العسال الفقيه، وأبو عبد الله الفتال المتعبد، وأبو أحمد الفوال المتعبد، وسالم بن عمران المتعبد، وسعيد بن السقلي المتعبد، وربيع القطان الفقيه المتعبد، وأبو القاسم بن خصيب المتعبد، وأحمد بن محمد أخي أبي حوال المتعبد، وأبو الحسن بن مسرور الدباغ العالم، وإبراهيم ابن أخي موسى القطان القاضي، وأبو سعيد ابن أخي هشام الفقيه، وأبو حفص ابن الإمام المتعبد، وأبو بكر بن أبي عقبة العالم، وعبد الله بن هشام القاضي، والعالم أبو الحسن الزعفراني، وأحمد بن إسماعيل الفقيه، وأحمد بن عبد الله، وخلف بن حمديس، وأبو جعفر، وأبو العباس إبننا أبي العرب بن تميم، كانوا في بيته عند وفاته فقال لابنه: ايتيني بتلك الدراعة فاتاه بجبة مرقعة صفراء، فقال: كفوني فيها فإني قد ختمت القرآن فيها ثلاثين ألف ختم، والاجتماع معكم غداً في حومة القيامة مع محمد النبي وأصحابه.

قلت: حضور هؤلاء المشيخة لاحتضار هذا الشيخ، يُنبئك على ما احتوت عليه القيروان من كثرة العلماء والزهاد في ذلك الزمان، والذي كان في زمن سحنون وقبله أكثر؛ وقد سأل عبد الله بن عمر بن غانم القاضي بعض ثقاته يوم الجمعة

فقال: هل حضرت للجامع اليوم؟ قال: نعم، قال: من رأيت به؟ قال: رأيت سبعين قَلَنْسُوَّةً يستحقون القضاء. ورأيت ثلاثمائة قَلَنْسُوَّةٍ فقيه، فاسترجع ابن غانم عندما سمع ذلك. وقال: ذهب الناس فَاسْتَرْجَاعُهُ يدلُّ على أنَّ علماء زمانه أقل مما كان عليه العلماء في القديم من الكثرة، وما زالت البركة فيها فكيف لا وقد دعا لأهلها عُقْبَةُ المستجاب، فما بعد مدينة تونس بلد السلطان بإفريقية أكثر طلبه منها اليوم، وبها تسعة مواعيد ومفتي تونس، وقاضي الجماعة منها، والأول هو شَيْخُنَا أَبُو الفضل بلقاسم بن أحمد البرزلي، والثاني هو: شَيْخُنَا يعقوب بن يوسف الزُّعْبِي.

قال: «وتوفي في المحرم من سنة ثلاثين وثلاثمائة وصلى عليه ابن أبي خالد الدباغ، ودفن بباب سَلَمٍ»⁽¹⁾، وأوصى أن يُسَنَّ عليه التراب سنًا، وكان سُكْنَاهُ بِرَحْبَةِ الأنصَار.

قلت: وقبره مَزَارٌ قُرْبَ قبر أبي بكر بن اللَّبَّاد.

189 - ومنهم أبو جعفر أحمد بن أبي خالد الدباغ الزاهد الفقيه واسم أبي خالد يزيد⁽²⁾.

قال: سمع من يحيى بن عمر، وأحمد بن بدو القراص.

قلت: وسليمان بن عِمْرَان.

قال: كان عالماً عاملاً، رقيق القلب، له في السَّمَاعِ فَهْمٌ وَإِشَارَةٌ إلى المحبة، مع سَمَتِ الْحَالِ، ذُو هِمَّةٍ ومعرفة، كثير السَّيَّاحَةِ والرباط على البحر في كل عام، مُحَبِّباً إلى الناس، يميل إلى الرقة. روى أنه قال: كنت بقصر الطُّوبِ، وأنا شاب فطراً علي ليلةٌ وَجَدْتُ فدخلتُ بعض الإِضْطِيبَلَاتِ وأنا أَصْلِي والدموعُ تنحدر علي، فجعلتُ أَمْسَحُهَا بِأَكْمَامِي، فلما أصبحتُ جعلتُ أنظر فإذا هي دم كلها.

(1) الرياض: 266 / 2.

(2) ترجم له في الرياض: 271 / 2 - 274، طبقات الخشني ص: 199 ضمن ترجمة أبي الأحوص المتعبد.

[التعجب من أكل طعام اليهود]

قلت: قال أبو بكر المالكي: قال عبد الله بن هاشم القاضي: حدثني أبو بكر هبة الله بن محمد بن أبي⁽¹⁾ عقبة قال: خرجنا مرة نريد الرباط، وفي جماعتنا أبو جعفر أحمد بن أبي خالد الدباغ فاشترينا من بعض القرى خُبْزاً فَلَمَّا قدمناه لناكله، نظر إليه ابن أبي خالد فقال: وَيَحْكُمُ كَيْفَ تَقْدِرُونَ عَلَى أَكْلِ هَذَا الْخُبْزِ؟ قلنا: وما له؟ فقال: أَوْ مَا تَرُونَهُ؟ فقلنا له: مَا نَرَى إِلَّا خُبْزاً. قال: فَكَأْنِي وَاللَّهِ أَرَاهُ أَسْوَدَ مُنْتِنًا. قال فَرَأَوْدَنَاهُ⁽²⁾ عَلَى الْأَكْلِ مِنْهُ فَأَبَى، وقال: وَاللَّهِ لَا أَقْدِرُ عَلَى أَكْلِهِ، فَلَمَّا سَمِعْنَا ذَلِكَ مِنْهُ دَاخِلْنَا [فِي أَمْرٍ]⁽³⁾ الْخُبْزِ شَيْءً فَانصَرَفْنَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي اشْتَرَيْنَاهُ⁽⁴⁾ مِنْهُ، فَسَأَلْنَا عَنْ خَبْرِهِ، وَكَشَفْنَا عَنْ أَمْرِهِ⁽⁵⁾، فَعَرَفْنَا أَنَّ الَّذِي [يَعْمَلُهُ يَهُودِي]⁽⁶⁾ وَأَنَّهُ تَقَبَّلَ سَوْقَ تِلْكَ الْقَرْيَةِ فَلَيْسَ يَعْمَلُ فِيهَا أَحَدٌ خُبْزاً غَيْرَهُ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الشَّيْخَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَحَدَّثَ عَنْهُ أَبُو الْحَسَنِ الدَّبَاغُ بِحِكَايَاتٍ وَأَخْبَارٍ جَرَتْ لَهُ مَعَ أَهْلِ النَّسْكِ وَالرَّقَةِ مِنْهَا: أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ بِمَكَّةَ شَاباً عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ وَقَدْ طَالَ شَعْرُهُ، وَعَلَاهُ شُحُوبٌ وَنُحُولٌ، فَقُلْتُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا صُوفِي، فَقَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ يَا قُطْنِي، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ لِبَاسَ الْقُطْنِ مَعَ وُجُودِ التُّقَى لَا يَضُرُّ، وَلِبَاسُ الصُّوفِ مَعَ عَدَمِ التُّقَى لَا يَنْفَعُ، فَقَالَ لِي: صَدَقْتَ. فَقُلْتُ لَهُ: مَا الَّذِي يُورِثُ النَّفُوسَ الْهُمُومَ؟ قَالَ لِي: ثَلَاثَةٌ، تَذْكَارُ مَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَذْكَرُ الْحَالَاتِ، وَخُوفُ الْخَاتِمَاتِ⁽⁷⁾. قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ أَبِي خَالِدٍ: نَظَرْتُ إِلَى سُودَاءٍ فِي الطَّوَافِ وَهِيَ تَبْكِي وَتَقُولُ: وَأَوْحَشِي بَعْدَ الْأَنْسِ، وَاذْلِي بَعْدَ الْعِزِّ، وَافْقِرِي بَعْدَ الْغِنَى! فَقِيلَ لَهَا: مَا لَكَ أَمَاتَ لَكَ أَحَدٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ لِي قَلْبٌ فَفَقَدْتُهُ ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ	ضَاعَ مِنِّي فِي تَقَلُّبِهِ
رَبِّ فَارْدُدْهُ عَلَيَّ فَقَدْ	ضَاقَ صَدْرِي مِنْ تَغَيُّبِهِ
وَأَغِثْ مَا دَامَ بِي رَمَقٌ	يَا غِيَاثُ الْمُسْتَغِيثِ بِهِ

(1) زيادة من الرياض: 272/2.

(2) في الرياض: فاردناه 272/2.

(3) في الرياض: من 273/2.

(4) في الرياض: أصله.

(5) في الرياض: «يعمل الخبز هناك رجل يهودي» 273/2.

(6) في الرياض: 272/2.

قال أبو الحسن الدبّاغ: سمعتُ أبا جعفر أحمد بن أبي خالد يقول: مَنْ زعم أن الرزق لا يأتي إلا مع الاضطرار فقد أخطأ، ومن زعم أن التوكل لا يكون إلا بترك الاضطرار فقد أخطأ، يريد أن الإنسان يسلم أمره إلى الله، ولا يجعل للتوكل في شيء معين.

قال: توفي في جمادى الأخيرة سنة ثلاثين وثلاثمائة وهو ابن تسعين سنة، ودفن بباب أبي الربيع.

قلت: قال ربيع القطّان: ورأى بعض الصّالحين في منامه أبا جعفر بن أبي خالد، كأنه مع راكبين أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، فقيل له: ما هذا يا ابن أبي خالد؟ فقال: هذا جعفر ذو الجناحين، وهذا الآخر عبد الله بن رَوَاحَة، فقال له: أتى لك هذا؟ فقال: هذان مُجاهدان من الشهداء، وكنت مُجاهداً فألحقني الله بهما.

190 - ومنهم أبو عبد الله محمد⁽¹⁾ بن سهل⁽²⁾ الصوفي:

قال: كان صالحاً فاضلاً خيراً؛ تَنَسَّكَ بعد حادثه.

قلت: أراد بعد فترة لقول المالكي: «تَنَسَّكَ بعد فترة»⁽³⁾. ثم اتخذ نوالاً⁽⁴⁾ في المقبرة يأوي إليها، فحفر يوماً حُفْرَةً كَسَرَ فيها سَاقَ مَيِّتٍ⁽⁵⁾ فوَقَفْتُ إليه امرأة في النوم فقالت له: ما كفاك أن تكشفنا وتؤذينا بالنَّجَاسَاتِ حتى كَسَرْتَ عَظْمَ سَاقِي، لي معك موقف بين يدي الله تعالى، فاستيقظ مذعوراً فنقض النوال، ومحى رَسْمَهَا ولزم بَيْتَهُ وهو خائفٌ إلى أن مَاتَ.

(1) ترجم له في: الرياض 305 / 2.

(2) في الرياض: ابن أبي سهل.

(3) الرياض: 305 / 2.

(4) نوالاً. باللهجة المغربية هي «النوّالة» المبنية من القصب وتسمى أيضاً بالعُشَّة. وَتَبْلُطُ حِيْطَانُهَا بالطين.

(5) الوارد في هذا حديث: «كَسَرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِ عَظْمِ الْحَيِّ» أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز، باب في الحَقَّارِ يجد العظم هل يتكَبَّرُ ذلك المكان؟ حديث (3307) 89 / 2، وابن ماجه في السنن في كتاب الجنائز (63) باب في النهي عن كسر عظام الميت، حديث (1616) 516 / 1. كلاهما من حديث عائشة مرفوعاً، وحسنه ابن القطان، وقال ابن دقيق العيد: إنه على شرط مسلم. انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص: 374.

[حرمة المسلم ميتاً كحرمة حياً]

قلت: أراد بقوله: اتخذ نوالاً في المقبرة أي بقرب المقبرة، ولا يمكن حمل الكلام على ظاهره، لأنه لا يجوز ولا يُخَلَّى وأراد بقوله: حَفَرَ حُفْرَةً كَسَرَ فِيهَا سَاقَ مَيِّتٍ أي حفر حُفْرَةً بِقُرْبِ النَّوَالِ لِيَأْخُذَ ثُرَاباً يَصْلِحُهَا بِهِ كَمَا صَرَحَ بِهِ الْمَالَكِيُّ. وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَكَانَ لَا قَبْرَ فِيهِ، إِذَا أَصَابَتْ الْمِسْحَاةُ سَاقَ مَيِّتٍ فَكَسَرَتْهُ فِي اثْنَيْنِ وَإِذَا كَانَ هَكَذَا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ خَطَأً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِمَقْبَرَةٍ مِنَ الْقُبُورِ جَدًّا فَتَكُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الرَّائِعُ حَوْلَ الْحِمَا يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»⁽¹⁾.

قال: ودخلت يوماً على أبي جعفر بن أبي خالد بالقصر الكبير من المُنَسْتِيرِ قال: فقال لي: يا أبا عبد الله هَاتِ مِنْ رَفَائِقِكَ فَأَنْشُدْتَهُ:

يَا مَنْ أَذَابَ فُؤَادِي فِي مَحَبَّتِهِ وَأَضْرَمَ النَّارَ فِي قَلْبِي وَأَحْشَائِي
مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا كُنْتُ فِي كَيْدِي بِمَوْضِعِ الْمَاءِ مِنْ قَلْبِي وَأَعْضَائِي
وَلَا ذَكَرْتُكَ فِي قَوْمٍ أَسْرُبُهُمْ إِلَّا وَجَدْتُ لَهِيباً بَيْنَ أَحْشَائِي

فقام أحمد بن أبي خالد يصيحُ وينوح، وقد أخذ بيده وقام معه وهو يقول: هكذا قلوب المؤمنين! فلما قال قلت: يعني بإثر ذلك:

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ إِلَّا وَجَدْتُ خَيْالاً مِنْكَ فِي الْمَاءِ

قلت: زاد غيره ووقع أحمد بن أبي خالد مَغْشِيًّا عَلَيْهِ وَلَمْ يَبْقَ فِي وَجْهِهِ نَقْطَةٌ دَمٍ. وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ لَوْ ذَكَرَهَا الشَّيْخُ فِي فَضْلِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، كَانَتْ أَحْسَنَ عِنْدِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَتَوَفَّى فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ.

191 - وَمِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ اللَّبَادِ⁽²⁾ الْفَقِيهَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال: سَمِعَ مِنْ يَحْيَى بْنِ عَمْرٍو، وَعَلَيْهِ كَانَ مَعُولُهُ، وَابْنُ طَالِبِ الْقَاضِي، وَعَبْدُ الْجَبَّارِ بْنِ خَالِدٍ، وَحَمَّاسُ بْنُ مَرْوَانَ، وَسَعِيدُ بْنُ الْحَدَّادِ، وَحَمْدِيسُ الْقَطَّانِ،

(1) انظر الحديث بآتمه في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب الحلال بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٍ، حديث (2051) من رواية النعمان بن بشير. وأول الحديث: «الحلال بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشَبَّهَةٌ...».

(2) ترجم له في الرياض: 283 / 2 - 292، طبقات الخشني ص: 300 رقم 173.

وغيرهم. وسمع منه خلق كثير وعليه تخرج أبو محمد بن أبي زيد، وقرأ عليه ابن القطان أيضاً.

قلت: وألّف «كتاب الطهارة»، وكتاب «إثبات الحجّة في إثبات العِصمة»، وكتاب «فضائل مالك بن أنس»، وكتاب «الإيثار والفوائد» عشرة أجزاء.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان رحمه الله فقيهاً فاضلاً، جليلَ القدر، عالماً صالحاً، ضُرِبَتْ إِلَيْهِ أَكْبَادُ الْإِبِلِ⁽¹⁾؛ لأنه كان إماماً في الدين، وعالماً في مذهب مالك مع صحبة الصّالحين، كثير البكاء والخشية، مجاب الدُّعَاءِ. وقال محمد بن إدريس: ما رأيتُ أَعْلَمَ وَلَا أَجْمَلَ وَلَا أَعْلَى هِمَّةً من أبي بكر بن اللباد، وأبي الفضل بن الممسي، وأبي إسحاق بن شعبان بمصر.

قلت: وقال أبو عبد الله الخراط: كان أبو بكر⁽²⁾ جليل القدر، عالماً باختلاف أهل المدينة وإجماعهم، مُفْتِياً⁽³⁾ مُطَاعاً. وقال غيره: كان من أهل الحِفْظِ والذِّكَاةِ والفهم، بحرّاً من بُحُورِ الْعِلْمِ، وكان لا نظيرَ له في علم القرآن، قراءته، وإغرابه، وأحكامه، وناسخه، ومنسوخه، مع بسطة في الفصاحة وحفظ الغريب واللغة ومُشاركة في علم الأنساب، وبصر بأسماء الروايات ومعرفة الضعفاء منهم والثقات، وَضُرِبَتْ إِلَيْهِ أَكْبَادُ الْإِبِلِ. وقال أبو العباس الألباني: إنما انتفعت بِصُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ بن اللباد ودرست معه عشرين سنة، يعني والله أعلم قراءتهما معاً على الأشياخ كيحيى بن عمر، وإنما كان يجتمع معه بعد في فلتات.

(1) مثل هذه القولة وردت حديثاً في شأن مالك من رواية أبي هريرة بلفظ «يوشك أن يضرب الناسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أَعْلَمَ من عالم المدينة». أخرجه الترمذي في السنن في كتاب العلم (18) باب ما جاء في عالم المدينة حديث (2680) ص: 604 وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو حديث ابن عيينة، وقد روي عن ابن عُيينة أنه قال في هذا: سُئِلَ مَنْ عَالِمُ الْمَدِينَةِ؟ فقال: إنه مالك بن أنس. وقد ضعفه الألباني في كتاب ضعيف سنن الترمذي ص: 318، وفي السلسلة الضعيفة (4833).

(2) في الرياض: زيادة: «ابن اللباد رجلاً صالحاً، فقيهاً» 283/2.

(3) في الرياض: مهياً 283/2.

ذكر جملة من أخباره

رُوي أنه دعا على ثلاثة فأجيب دعاءه فيهم؛ دعا على واحد منهم بالجُنُون، وعلى الآخر بالعمى، وعلى الآخر بالجلأ. فَجُنَّ الأول، وَعَمِيَ الثاني، ومات الثالث في بلاد السودان⁽¹⁾. ودخل على عبيد الله صاحب إفريقية فأقبل عليه وقال: يا محمد أنت ملاذ بلدك في كم من العيال أنت؟ فأخبره فقال: نَفَرَضُ لك في بيت المال ما يكفيك من النفقة والكسوة وغيرهما فقال: قبلت ولكن اترك ذلك في بيت المال حتى نحتاج إليه.

قلت: هذه مُسَايَسَةٌ حَسَنَةٌ، ومحاولة برفق، إذ هو خير من رَدِّه بلا محاولة.

قال: «وَحُكِي أَنَّهُ شاور رجل ابنته بشوار كثير، فعجب الناس منه، وحضر أبو بكر بن اللَّبَّاد فانصرف النَّاسُ يهنؤون صاحب الشوار، فقال له أبو بكر: لا خلف والله عليك بخير فقد أكمدت جارك، وأعضلت ابنته، وَخَالَفَتْ سُنَّةَ رسول الله ﷺ تسليماً»⁽²⁾.

قلت: المنقول فيها عن ابن إدريس بلفظ حسن عجيب كثير؛ وهذا أخص من اللَّفْظِ الذي نقل الشيخ بأنه قد يكون كثيراً ولا يكون حَسَنًا ولا عَجِيبًا، كما إذا كانت حوائج قديمة ورفع لعبيد الله إلى المهدية ليوليه قضاء صقلية، فاعتذر وقال: صِرْتُ في حَدٍّ لو كنت على القضاء لوجب إلَّا إِلَيَّ، فكيف ابتدائي وقد كَبِرَ سِنِّي، ودخلتني زَمَانَةٌ فَأَعَفَاهُ. وهذا أيضاً من لطائف شَمَائِلِهِ وإلا فالشَّيْخُ الكبير هو أَوْلَى بالقضاء ممن هو دونه، لأنه يعلم من نفسه أنه ما بقي إلا على شَفَا حُفْرَةٍ، فيكون الخوف عليه أغلب. وقال ابن إدريس: كُنْتُ يوماً جالساً معه على باب داره إذ خرج من جيرانه رجل ولم يسلم عليه فجعلت أنظر إليه فقال لي: يا أبا عبد الله إِنَّ أَرْهَدَ النَّاسَ في الْعَالَمِ قَرَابَتُهُ وَجِيرَانُهُ. وقال مرة أخرى في مثلها: ما قرب الخير قط من قوم إلَّا زَهَدُوا فيه وذكر الأجدابي أَنَّ أبا بكر جلس يوماً عند أبي إسماعيل المؤدَّب جاره لينفرج، ويرى الناس فكان النَّاسُ إذا جازوا من ذلك الموضع، رجعوا من طريق آخر هيبة له فقال: ما بالهم؟ فقال: من أجلك، فقال: إنما جَلَسْنَا في هذا الموضع، لتفرج لا لِتَضُرَّ بالناس في طريقهم ثم قام.

(1) الخبر في الرياض: 284 / 2.

(2) الخبر في الرياض: 286 / 2.

قلت: وكثير ما يجري مثل هذا في مدة قضائي؛ تضيقُ نفسي من لزوم الدار، فربما أجلسُ فوق دُكَّانَةِ العلو، قريب باب الدار فأرى بعض من هو راكب ينزل، وبعضهم يرجع، وبعضهم يجوز على حاله وهو محتشم، فأقوم من مكاني ذلك وأدخل الدار. قال أبو بكر المالكي: «قال أبو بكر بن اللَّبَّاد يوماً لبعض أصحابه: أدركتُ رجالاً بالقيروان املياء افتَقَرُوا ما دخلوا فتناً ولا أغرمهم سلطان⁽¹⁾، إلا اتجروا في الحِنْطَةِ⁽²⁾ في أيام الشدائد⁽³⁾».

قلت: يريدُ أنهم اشتروا الطعام في الرَّخَاء ليبيعوه في أيام الشَّدائد؛ وهذا مُجَرَّبٌ حتى في زماننا، حتى أن الناس يقولون على طريق المُبالغة: «ما احتَكَرَ أَحَدٌ طَعَاماً إلا مات فقيراً». وسببه أنه يتمنى غلاء الطعام الذي فيه حياة الأنفس لأمة النبي ﷺ ولذلك منعة مطرف، وابن الماجشون وغيرهما؛ وأجازه مالك في المدونة وعليه العمل قال أبو الحسن اللخمي: وفيه مُرتَفَقٌ وقت الشدائد، ولولاه لم يجد الناس عيشاً في الشَّدة ولو قيل: إنه مستحسن لم أعبه، ولا خصوصية لِلْحِنْطَةِ، وفي المسألة غير هذا وقد ذكرناه في شرح التهذيب⁽⁴⁾.

قال: قال أبو الحسن علي بن عبد الله القَطَّان المعروف بابن الحلاف، اجتمعت إلي جماعة في حانوتي بالقَطَّانين، بعد وفاة والدي يَقْسِمُونَ قُطْناً بَيْنَهُمْ. فنفضتُ الموضوع الذي قَسَمُوا فيه القطن، فاجتمع فيه من القُطن نحو وزن أربعة دراهم، فذهبتُ إلى أبي بكر محمد بن اللَّبَّاد فسألته ما الذي أصنع بالقطن؟ فانتَهَرَنِي وقال: يا هذا سَلْ عن وُضُوئِكَ وَصَلَاتِكَ وَدِينِكَ، فإن هذا وَسْوَاسٌ! قال أبو الحسن: فضاقتُ صدري ولم أطق صبراً فغلبنى البُكَاءُ وَالْعَبْرَةُ، فوثب إلي وجذبني إلى نفسه، وَقَبَّلَ بين عيني وقال: أحسنت يا بني ما عرفتكَ، فقد قيل: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ

(1) في الرياض زيادة: «مالاً ولكنهم» 292/2.

(2) لفظة: الحِنْطَةُ لغة كوفيَّة، والقمح لغة شامية، وأفصح كلمة منها هو لغة: «الْبُرُّ» فهي أفصح لغة من قال: «قمح أو حنطة». وفي رواية قالت عائشة رضي الله عنها: «مَا شَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْبُرَّةِ السَّمَاءِ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا». وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «أَتَرُونَ إِنِّي لَا أَعْرِفُ رَقِيقَ الْعَيْشِ؟ لُبَّابُ الْبُرِّ بِصَغَارِ الْمِعْزَى» للمزيد انظر البيان والتبيين للجاحظ 1/ 17 - 18.

(3) الرياض: 292/2.

(4) المراد به شرح تهذيب المدونة للبراذعي حكى فيه عمل أهل بلاد تونس.

قبل أن تُحاسبوا، وَزِنُوهَا قبل أن توزنَ عليكم، وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ: ﴿يَوْمَذِ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]. ثم أمرني بما أصنع في القطن، وكان لا يتخلف عن مسجد السبت، ولقد كان يصلُ إليه وهو يخوضُ في الطين والمطر، وَلَقِيَهُ رجلٌ وهو يخوضُ في الطين متوجهاً إليه، فسلم عليه وقال: أصلحك الله في هذا الطين؟ يعزُّ على يحيى بن عمر لو رآك! فقال له أبو بكر: ليس أنا غلام ابن عمر قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَطْثُوكَ مَوَظِنًا يَغِيْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120]. وحضور هذا المسجد يغیظ بني عبید!

قلت: وقد تقدم أن مسجد السبت الذي يُسمَّى عندنا بمسجد العربي لرجل يقال له: محمد العربي، كان يقومُ به ينشد فيه شعر بني معدان في الزُّهد، ويقرأ في فيه آيات من كتاب الله تعالى وحكايات وهو الذي يُسمَّى عندنا اليوم الرقائق، فكان جميع المشيخة يبيحون حضوره ويحضره من يحضره معهم من الصالحين والزُّهاد، وأهل الخير من يوم السبت إلى يوم السبت إلا ثلاثة: يحيى بن عمر في زمانه، فكان لا يحضره وَأَلْفَ تَأْلِيفاً في عدم حضوره، لكونه يرى ذلك بدعةً وإلى هذا أشار القائل يعز علي يحيى بن عمر لو رآك، وكان شيخه المعنى وأنت تتكلف هذا وكذلك القابسي وأبو عمران في زمانهما، ولما كان هذا المسجد يحضره الجَم الغفير من العلماء والصالحين، كان حضورهم يغیظ بني عبید، لأنهم يخافون من اجتماعهم أن يتفقوا على القيام عليهم، فلهذا أجاب الشيخ بالآية.

قال: وكانت له امرأة سليطة⁽¹⁾ تؤذيه بِلِسَانِهَا وَيُقَاسِي مِنْهَا أمراً عظيماً، فقال له الطَّلَبَةُ: طَلَّقْهَا ونحن نُؤدِّي⁽²⁾ صَدَاقَهَا؟ فقال لهم: إنما حَفَظْتُهَا من أَجْلِ وَالِدِهَا وذلك أني خطبت إلى جماعة من النَّاسِ فَرَدُّوني وقالوا لي: لَا تُزَوِّجْ صَاحِبَ مَخْبَرَةٍ وَقَلَمٍ، ثم خَطَبْتُ إلى أبي هذه فزوجني ابنته لله عز وجل، وكان يفعلُ معي جميلاً ويرفقني بما قدر عليه، أف تكون مكافأتي طلاق ابنته؟ وقيل له في ذلك أيضاً قال: أَخْشَى إِنْ طَلَّقْتُهَا أَنْ يُبْتَلَى بِهَا مُسْلِمٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دفع عني بمقاساتها بلاءً عظيماً. وكان يقول: كل مؤمن له محنة وهذه محنتي.

(1) سليطة اللسان: حادة اللسان.

(2) في الرياض: نُؤدِّي «عنك» 285/2.

قلت: قال أبو بكر المالكي وذكر أنها قالت له يوماً: يا زاني فقال لهم: سَلُّوها بمن زَنَيْتُ فسألوها فقالت لهم: بالخادم، فقال لهم: سَلُّوها لمن الخادم لي أو لَهَا؟ فقالت لهم: له⁽¹⁾.

قال: واتفقت عليه محنة من قَبْلِ أَشْيَاعِ بني عبيد، وَسُجِنَ أَيَّاماً ثم أُظْلِقَ، وَمُنِعَ الْفَتَوَى والإسْماع، واجتماع الطلبة عليه حتى توفي. وكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان يأتیان إليه في خفية، وربما جعلاً الكتب في أوساطهما وحجزتهما حتى تبطل بأعراقهما خوفاً من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه⁽²⁾.

قلت: كان أصل محنته أَنَّهُ صَلَّى على جنازة استؤذن لها، وقد حضر ابن أبي المنهال القاضي بجنازة أخرى كلم عليها، فصلَّى أبو بكر وصلَّى وراءه ابن أبي المنهال، ثم قدمت الجنازة الأخرى، وَصَلَّى عليها ابن أبي المنهال فجلس أبو بكر ومدَّ رجله واستدبر القبلة ولم يُصَلِّ وراءه فشق ذلك على ابن أبي المنهال، فبعث وراءه ودار بينهما كلام في ذلك فأمر بسجنه، فجاء الغلام ليأخذ بيده فانتَهَرَهُ وقال: دَعْ أشهدكم إني مسجون، ومضى إلى السَّجْن، فذهب محمد ابن أخيه إلى المهدية فأخبر بذلك البغدادي وكان يحبه فسعى له عند عبيد الله حتى أمره أن يكتب إلى ابن أبي المنهال بإخراجه من السجن على أن لا يفتي ولا يجتمع إليه أحد، ولا يفتي إلا بمذهب السلطان، وكتب في رقعة داخل الكتاب مِمَّا هذا الذي فعلت عمدت إلى عمدة بلده فأحدثت فيه هذه الأحدث، وهذا مما كرهه أمير المؤمنين، فَلَا تُعْذِرْ إلى مثلي هذا، فلما وصل الكتاب، أخرجه وقال له: هذا كتاب أمير المؤمنين نجد فيه أن لا تفتي ولا يجتمع إليك أحد، وإن مرضت فلا تعاد، فقال له أبو بكر: هذه مسألة لم تنزل بعد، وبقي أبو بكر لا يسمع إلا خفية، فإذا اجتمعوا فتحت لهم الخادم الباب فيدخلون، وتغلَّق عليهم فيقرؤون، وكان منهم أبو محمد بن أبي زيد وأبو محمد بن التبان.

قال: وأصابه في آخر عمره فالج سنة ثلاثين وثلاثمائة. وَحُكِيَ أَنَّهُ مَدَّ رِجْلَيْهِ ثم نظر إليهما وقد تَغَيَّرَتَا، ودخلتهما نفخة فبكى وَجَرَتْ دُمُوعُهُ على شيبته ثم قال: اللهم ثَبِّتْهُمَا على جواز الصَّراطِ يوم تَزُلُّ الأقدامُ، أنت العالمُ بهما والشاهد عليهما أنهما ما مشيا لك في معصية.

(1) الرياض: 285/2.

(2) الخبر ورد في الرياض بصيغة الجمع: 287/2 - 288.

قلت: ومثل هذا قال أبو عمرّان الفاسي وذلك أنه لما حضرته الوفاة جَعَلَتْ زوجته تُمرِّغُ خَدَّيْهَا على رجليه فقال لها: مرِّغي أو لا تُمرِّغي فوالله ما مَشَيْتُ بهما إلى مَعْصِيَةٍ قَطُّ.

ذكر وفاته رحمه الله تعالى

قال: توفي يوم السبت الرابع عشر من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وَصَلَّى عليه محمد بن أبي الفتح المرجي بوصيته له بذلك، وحضر جَنَازَتُهُ خَلَقٌ كثير، وَدُفِنَ بباب سَلَمَ على شفير الحفير الكبير، وحمل نعشه والناس يقولون: النبي وصاحبه، وذلك عند توقع وصول أبي يزيد إلى القيروان، وضعف حال بني عبيد ورثاه أبو محمد بن أبي زيد بقصيدة منها:

يا طول شوقي إلى من غابَ مَنْظَرُهُ وذكره في جوى الأحشاء قد سكنا
لهفي على ميت ماتت به سُبُلُ⁽¹⁾ قد كان أحيا رسومَ الدين والسُّنَنَا
كم محنة طرقت في الإله فلم يحزن لذلك إذ في ربه امتحنا
قلت: ومنها أيضاً:

حتى استنار به الإسلامُ⁽²⁾ في بلد لولاه مات به الإسلامُ⁽²⁾ واندفنا
الفقه⁽³⁾ حلت به والعلم حليته والدين زينته⁽⁴⁾ والله شاهدا
أب لأصغرنا كهف لأكبرنا وفي النوازل ملجأنا ومفرعنا

وقبره عندنا مزار يعلمه الخاصة والعامة رحمه الله ورضي عنه.

192 - ومنهم أبو الفضل عباس بن عيسى بن محمد بن عيسى الممسي⁽⁵⁾:

وممس⁽⁶⁾ قرية هناك، سمع من: جَبَلَةَ بن حَمُود وغيره؛ وأخذ عنه أبو

- (1) في الرياض: سُبُلُ الخيرات 289/2. (2) في الرياض: الإيمان.
(3) في الرياض: الصدق 290/2. (4) في الرياض: رتبته 290/2.
(5) ترجم له في الرياض: 292/2 - 305، طبقات الخشني ص: 234 رقم 80، ص: 285
رقم 128، ترتيب المدارك 313/3 - 323، الديباج المذهب ص: 310 - 311، شجرة
النور الزكية 124/1 رقم 198.
(6) ممس: بالفتح ثم السكون والسين مهملة مقصورة، قرية بالمغرب. راجع معجم البلدان
للحموي 198/5.

محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن بن الحلاف، وأبو الأزهر بن مغيث، وابن حارث؛ وخرج إلى الحج سنة سبع عشرة وثلاثمائة. قال الشيخ أبو إسحاق السبائي: حفظ القرآن أبو الفضل الممسي وهو ابن ثمان سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن خمس عشرة سنة.

قال: جمع الفقه البارع، والورع الحاجز، والسمت الحسن، وحسن الإشارة والهدى والسكينة، وحكى أن مشيئة كانت تشبه مشيئة عمر بن عبد العزيز، وبه كان أبو محمد بن أبي زيد يتشبه في أحواله، وكان شديد الورع، قال أبو الحسن بن الحلاف: لما جعل على الملح القبالة⁽¹⁾، قال لي أبو الفضل: يا أبا الحسن قيل لي: إن قرناً عند باب أبي الربيع نُقِضَتْ قَرَامِيدُهُ. وأنَّ المِلْحَ الذي تحتها من أيام سحنون، فَنَحِبُّ منك أن تشتريه لي، فمضيتُ واشتريته له، قال: فبعد مُدَّة كانت عنده مَرْمَةٌ فجعل يشتري لِلْأَجْرَاءِ خُبْزاً من السُّوقِ فقلتُ له: أصلحك الله في هذا الخبز من ذلك الملح الذي كرهته أنت لنفسك فينبغي أن تحب لهم ما تحب لنفسك، فقال لي: يا أخي يا أبا الحسن وهل أخذنا بكل الورع هذا ومثله من السَّقَطَاتِ التي تخرج من وصايانا؟

قلت: زاد أبو بكر المالكي: «فينبغي لمن⁽²⁾ يعصدق بِثُلْثِ ماله أن ينوي به⁽³⁾ أداء التَّبَاعَاتِ التي عليه التي لا يعلم أهلها، ويقدم النية [وهو خير]⁽⁴⁾ من إخراجها مطلقاً»⁽⁵⁾. قال أبو الحسن المذكور: «وقلت أنا وكذلك من أراد صلاة نافلة ينبغي أن يُصَلِّيَ صَلَاةَ يوم وينوي بذلك الصلوات الخمس، فيكون هذا قضاء صلاة فائتة، أو صلاة صَلَاةً بتخفيف لا تجزي به، أو يكون قد نسيها»⁽⁶⁾.

قال: قال أبو الحسن: وسألت أبا الفضل أيضاً فقلت له: رجل من طائفة السلطان أراد يودع عندي مائة دينار فقال لي: إذا أودعك إياها ثم أخذها منك،

(1) القبالة: الأداء. كما جاء في هامش ط.

(2) في الرياض: «لمن أراد أن» 295/2.

(3) في الرياض: بذلك.

(4) في الرياض: فإنه أولى.

(5) الخبر في الرياض: 295/2. وهذه القولة لأبي الفضل الفقيه رحمه الله تعالى.

(6) الخبر في الرياض: 295/2.

لزمك أن تتصدق بمائة دينار من مالك. فقلت: ولم ذلك؟ فقال: لأن هذا الرجل غاصبٌ وماله ينبغي أن يردّه إلى من غصبه، فإن لم يعرفه، تصدّق به، فقلتُ له: ما دليل ذلك؟ قال: جرى في تونس نهب، فأتى رجل إلى السوق يَلْتَمِسُ ثوباً يشبه ما نهب لزوجته، فوجد ثوباً ينادي عليه لبيعه رجل جندي فاشتراه منه بسبعة دنانير ظاناً أنه ثوب زوجته، فأخذ الجندي الدنانير وخلطها مع دنانيره، ثم مضى الرجل بالثوب إلى زوجته فقالت: ليس هو ثوبي، فسأل الجندي أن يقيه فيه ففعل وأعطاه سبعة دنانير من خلط الدنانير قال: فأتى الرجل فسأل جماعة من رجال سحنون وهم يومئذ متوافرون بالقيروان، فما اختلف منهم واحد أنه يتصدّق بهذه الدنانير الذي أخذها وبقيمة الثوب، لأنه كان يسوّى أكثر، وقال ابن الحلاف: كنتُ أعملُ القُطْنَ فتتفرغ من العمل بالعشيّ فيضيّق علي الوقت، وكانت نوالات بُنِيَتْ غَضَباً على وادي القَصَّارين، فنشتري منها بحبة بَقْلاً فوقع في نفسي من ذلك فسألتُ أبا الفضل بن الممسي وأبا حفص بن العَسَّال رحمهما الله عن ذلك فقالا لي: تتصدق بقيمة الكراء من حين عقدت البيع إلى أن قبضته؟ فقلت لهم: كراء النوال درهم في الشهر وهو يبيع باثني عشر درهماً كل يوم، فقالا لي: تصدق بربع درهم في السَّنة، فإن الحُبُوب إذا اجتمعت كثرت. وروي: أنه وصل إليه حديد فأدخله السوق فقيل له: قد سوى على فلان بعشرة دنانير القنطار وعلى فلان بأربعة عشر ديناراً القنطار قال: هذا تفاوت فما السبب في ذلك؟ فقيل: إنّ فلاناً يعني الثاني لا يبقى عنده عمل يجيء إليه أبو فلان فيأخذ ما عنده من العمل، فباعه بعشرة دنانير للأول، وكان أبو الفضل أحسن خلق الله وضوءاً، وكان له مرحاضٌ لا يدخله غيره، مفتاحه في وسطه، وكان يكاد أن يُصَلِّي في هذا المرحاضِ لأنه نقي وفيه أواني الوضوء مُعْطَاة، وفيه نعلٌ لا يخرجُ بها، ونعلٌ يمشي بها إلى مُصَلَّاهُ، فلما أُصِيبَ سمعوا في المرحاض قعقة عظيمة فأرخوا ذلك فوجدوه يوم مات بالمهدية ففتحوا المرحاض فوجدوا أواني الوضوء قد كسر بعضها بعضاً ساعة مات بالوادي المالح.

قلت: وكان شيخنا أبو الفضل البرزلي ينقلُ أن أمّه لما سمعت القعقة المذكورة قالت لمن حضرها: عزّوني في ولدي فإنّ هذه القعقة تدلُّ على موته.

قال: وكان أبو الفضل ممن خرج لقتال بني عُبيد مع أهل القيروان لما كان يعتقد من كفرهم.

قلت: قال أبو بكر المالكي: «رأى أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد؛ فرضاً لأنَّ الحَوَارِجَ من أهل القبلة لا يزول عنهم الإسلام»⁽¹⁾ وَيَرِثُونَ، وَيُورَثُونَ، وبنو عُبَيْدٍ لَيْسُوا كذلك، لأنهم مجوس، زال عنهم اسم المسلمين فلا يتوارثون معهم ولا ينتسبون إليهم»⁽²⁾.

قال: فمات بالوادي المالح قُرْبَ المهديّة ولم توجد له جُثَّة ولا بغلة حماه الله منهم حياً وميتاً، وروى أن بعض أقاربه وَجَدَهُ في القتلى وبه رمق، فقال: يا بني حول وجهي إلى المهديّة لئلا أموت وأنا مُوَلٌّ ظهري إلى هؤلاء القوم، فلما مات هدم عليه جرف فأخفاه عنهم وكانوا في غاية الطلبِ لِرَأْسِهِ.

قلت: وأراد بقوله: وبه رمق من جراحات وقعت له في القتال، وهو كذلك في أحد القولين وقيل: إنه سقط من على دَابَّتِهِ لما وقعت الهزيمة فدرسته البهائم حتى مات، وهذا لا يُنَافِي ما قاله أنه وقعت به جراحات فهو رحمه الله مات شهيداً لقول أبي الحسن بن الحلاف سمعته يقول: قتالهم أفضل من قتال المشركين. قال أبو عبد الله الفقيه الأجدابي لأبي الحسن: «أنت سمعت هذا من أبي الفضل؟ فقال: نعم»⁽³⁾. وَقَبْلَهُ المالكي وهو بَيِّنٌ لَأَنَّهُمْ كُفَّارٌ متصلون بمبلاد الإسلام ويحكمون فيهم بما يريدون من قتل أو ضَرْبٍ أو سِجْنٍ أو غير ذلك، بخلاف كُفَّار منفصلين عن بلاد الإسلام. وقال أبو محمد بن أبي زيد: وددت أن القبروان تُسَبَّى، ولم يقتل أبو الفضل. وهذا منه رحمه الله مبالغة لأنها لا تُسَبَّى حتى يموت خلق كثير.

قال: وكانت وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من رجب سنة ثلاث وثلثين وثلثمائة، ورثاه الفقيه أبو محمد بن أبي زيد بمراث تركتها لِطُولِهَا⁽⁴⁾.

(1) في الرياض: اسم الإسلام 297/2.

(2) الخبر في الرياض: 297/2 - 298.

(3) الرياض: 297/2.

(4) راجع لأبي محمد بن أبي يزيد مريّة مطولة يُرثي بها أبا الفضل الممسي هذا مطلعها في الرياض: 300/2.

يا ناصراً للدين قُفْمَتْ مُسَارِعاً وَبَذَلْتَ نَفْسَكَ مُخْلِصاً ومريداً
وذبيبت عن دين الإله مُجَاهِداً وَابْتِغَيْتَ بَيْعاً رَابِحاً محموداً

193 - ومنهم ربيع القطان هو أبو سليمان⁽¹⁾ ربيع بن سليمان بن عطاء الله :

لقي بمصر أبا الحسن الدينوري، وبمكة أبا يعقوب الجوهري، وأبا سعيد بن الأعرابي، وأبا علي ابن الكاتب؛ فرجع إلى القيروان وقد تَذَكَّى عَقْلُهُ وَرَقَّ فَهْمُهُ.

قلت: وسمع بالقيروان من أبي بكر بن اللَّبَّاد وأبي العرب وغيرهما؛ وكانت له حلقة بجامع القيروان يحضرها أبو القاسم بن شَبْلُون وغيره أيام أبي يزيد؛ وكان تَفَقَّهَ عليه أحمد بن نصر ولازمه وكان من كبار أصحابه.

قال: وجمع بين العلم والعمل والإنس والانبساط.

قلت: وكان يُؤَلِّفُ الْخُطَبَ والرسائل ويقول الشعر، وكان لسان إفريقية في وقته في الزُّهْد والرقائق، وكان محمد بن التَّبَّان يُحِبُّهُ كثيراً، ويشني عليه، ويكرمه، وحجَّ سنة أربع وعشرين وكان جعل على نفسه أن لا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد، وكان مع ذلك ملتزماً في حانوته يبيع فيه القطن وفيه يأتيه من يطلبه ويسأله.

قال: وكان ربيع يقول: ألا أخبركم بالحازم العازم الذي يقول: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ [الحاقة: 19، 20].

قلت: ومن كلامه أيضاً الدُّنْيَا أَمَلٌ وَوَجَلٌ. والآخرة جزاء وعمل. والتوسط بينهما أجل. قال أبو بكر المالكي: يُقال إِنَّهُ يتكلم على الأحوال، ذكر أبو علي حسن بن فتحون الْخَرَّاز قال: كنت كثيراً ما أغشى مجلس أبي سليمان ربيع القطان أريد سؤاله عن أشياء تختلج في صَدْرِي، فانصرف عنه بعلم ما أردت منه دون مسألة، ولقد كنت عنده يوماً حتى ذكر من بعض كرامات الأولياء ما هَالَنِي ذكره وتلذذ في قلبي خطره وعظمه، فنظر إلي وقال لي: أَتَعْجَبُ من أمر الله؟ فأزال الله ما كان في نفسي فقلت: نعم الملك واسع والقدرة أعظم ونقله غيره بلفظ فنظر إلي وقال: قالوا: أتعجبين من أمر الله؟ وقال أخوه أحمد: دخلت عليه يوماً وهو متفكر فسألته عن فكرته؟ فقال: تفكرت في أمر فقلت له: فيم؟ قال: رأيت في رؤيا الحق

(1) ترجم له في الرياض: 2/ 323 - 346، طبقات الخشني ص: 234 رقم 81، ترتيب المدارك 3/ 323 - 331، شجرة النور الزكية 1/ 125 رقم 199.

سبحانه، فأمرني فدنوتُ منه فشرفَ موضعاً مني وعَظَّمَهُ ما بين صَدْغِي وَأُذُنِي من الجانبِ الأيسر، فكانت وَالِدَتُهُ تأمرُهُ إذا حلق أن تأخذ شعر ذلك الموضع فجمعت منه كثيراً، وأوصت حين موتها أن يدفن معها، فضرب حين قتل في ذلك الموضع. قال المالكي: «وكان سليمان والد ربيع يجلس في الليل مع أولاده وكانوا خمسة كلهم صالحون، فإذا خطر في نفسه شيء يسأل عنه من العلم يقوم من مكانه ويجثو على ركبتيه بين يدي ولده ربيع فيقوم إليه ربيع فيقول: يا والدي لم فعلت هذا؟ فيقول: إنما أردتُ أن أعطي العلمَ حَقَّهُ فيسأله عما يحب، فيجيبه ثم يرجع إلى مكانه رحمة الله عليه»⁽¹⁾.

قال: وظهرت لربيع إجابات روي أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14] فغشي عليه.

قلت: قال أبو بكر المالكي: وَغَوِيبَ ربيع في خروجه مع أبي يزيد إلى حرب بني عبيد، فقال: وكيف لا أفعل⁽²⁾ وقد سمعتُ الكُفْرَ بأُذُنِي؟ فمن ذلك أني حضرتُ إشهاداً، وكان فيه جمعٌ كثير، أهل سنة ومشاركة وكان بالقرب مني أبو قُضَاعَةَ الدَّاعِي فأتى رجل مَشْرِقِيٌّ من أهل الشَّرْقِ ومن أعظم المَشَارِقَةِ، فقام إليه رجلٌ مَشْرِقِيٌّ وقال: إلى هاهنا يا سيدي إلى جانب رسول الله ﷺ يعني أبا قُضَاعَةَ الدَّاعِي ويُشِيرُ بيده إليه فما أنكر أحدٌ⁽³⁾ شيئاً من ذلك فكيف ينبغي⁽⁴⁾ أن أترك القِيَامَ عليهم؟ ووجد بخطه قال: لما كان في رجب سنة إحدى وثلاثين، قام الصبي المكوكب يقذف الصَّحَابَةَ وَيَطْعَنُ على النبي ﷺ، وَعُلِقَتْ عِظَامُ رُؤُوسِ أَكْبَاشٍ وَحَمِيرٍ وَغَيْرِهَا على أبواب الحوانيت والدُّرُوبِ، فإذا عليها قراطيس مُعَلَّقة فيها أسماء يعنون بها رؤوس الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عليهم، فَلَمَّا رَأَى ذلك ربيع لم يسعه التأخر عن الخروج عليهم⁽⁵⁾. وكذلك كان جميع الشيوخ يتناولون أبا إسحاق السبائي وغيره ولما اجتمعوا للخروج عليهم قال ربيع القطان: أنا أول من يَشْرَعُ في هذا الأمر ويخرج فيه ويندب المسلمين وَيَحْضُهُمْ عليه وتسارع جميع الفقهاء والعباد لذلك؛ فلما كان بالغد خرج ربيع وجماعة الفقهاء ووجوه التُّجَّارِ إلى المصلى بالسلاح الشاك والعُدَّة

(1) الرياض: 325/2.

(2) في الرياض: لا أخرج 338/2.

(3) في الرياض: «أحد منهم» 338/2.

(4) في الرياض: يسعني 338/2.

(5) الخبر في الرياض: 338/2.

العجبية التي لم يرَ مثلها وضاق بهم الفضاء وتواعد الناس أن ينظروا في الزَّادِ وآلة السفر إلى يوم السبت، وذلك يوم الاثنين وركب بعض الشيوخ من الموضع إلى الجامع بالسلاح وشقوا السماط بالقيروان وزادوا في استِنهَاض النَّاس فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا في الجامع وركبوا بالسَّلاح الكامل، وعملوا البنود والطُّبُولِ وأتوا بالبنود فركزوها قُبَالَةَ المسجد⁽¹⁾ المعروف بالحدَّادين، وكانت سبعة بنود:

الأول: أصفر لربيع القَطَّان مكتوب عليه البسملة ومعها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي الثاني: وهو لربيع أصفر أيضاً: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصَّف: 13] على يد أبي يزيد: «اللهم انصره على من سبَّ نبيك»⁽²⁾.

وفي الثالث: وهو أصفر، أيضاً لأبي الربيع: بعد البسملة: ﴿فَقَلِيلُوا أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: 12].

وفي الرابع: وهو بُنْدٌ أحمر لأبي الفضل عباس الممسي: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي الخامس: وهو بُنْدٌ أخضر، لمروان العابد⁽³⁾ بعد البسملة: ﴿فَتَلَوْتُمُ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

وفي السادس: وهو بُنْدٌ أبيض بعد البسملة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق.

وفي السابع: وهو لإبراهيم بن العشا وكان أكبر البنود لونه أبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله: ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] فلما اجتمع النَّاسُ وحضرت صلاة الجمعة، طلع الإمام على المنبر، وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد، وكان أبو الفضل الممسي هو الذي أشار به وخطبَ خُطْبَةً أُبْلَغَ فيها، حَرَّضَ النَّاسَ على الجهادِ وأعلمهم بما لهم فيه من الثوب وتلا هذه الآية: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95] الآية، وقال: يا أيها

(1) في الرياض: باب المسجد 341/2. (2) الرياض: 341/2.

(3) في الرياض: المتزه 342/2.

الناس جَاهِدُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَزَعَمَ أَنَّهُ رَبٌّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَغَيَّرَ أَحْكَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَبَّ نَبِيَّهٖ وَأَصْحَابَ نَبِيَّهٖ وَأَزْوَاجَ نَبِيَّهٖ، فَبَكَى النَّاسُ بَكَاءً شَدِيداً وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا الْقِرْمِطِيُّ⁽¹⁾ الْكَافِرُ الصَّنْعَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْمَدْعَى الرَّبُّوبِيَّةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ جَاحِداً لِنِعْمَتِكَ كَافِراً بِرَبُّوبِيَّتِكَ⁽²⁾ طَاعِناً عَلَى أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، مَكْذِباً لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّكَ وَخَيْرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ سَابِّاً لِأَصْحَابِ نَبِيِّكَ وَأَزْوَاجِ نَبِيِّكَ أُمَهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، سَافِكاً لِدِمَاءِ أُمَّتِهِ، مُنْتَهِكاً لِمَحَارِمِ أَهْلِ مِلَّتِهِ، إِفْتِرَاءً عَلَيْكَ، وَاعْتِرَاراً بِحِلْمِكَ «اللَّهُمَّ فَالْعَنُوهُ لَعْناً وَبِيلاً، وَاخْزِرْهُ خَزِيراً طَوِيلاً، وَاغْضِبْ عَلَيْهِ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلاً، وَاضْلِلْهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا»⁽³⁾ بعد أن جعله في دُنْيَاهُ عِبْرَةً لِلْسَّائِلِينَ، وَأَحَادِيثَ لِلْغَابِرِينَ، وَاهْلَكَ اللَّهُمَّ مُتْبِعَهُ وَشَتَّتْ كَلِمَتَهُ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَهُ وَانْحَسِرَ شَوْكَتُهُ «وَاشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ مِنْهُ»⁽⁴⁾. وَنَزَلَ، فَجَمَعَ الْجُمُعَةَ رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمْ وَقَالَ: إِنَّ الْخُرُوجَ غَدًا يَوْمَ السَّبْتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَرَكِبَ رُبِيعَ الْقَطَّانِ فَرَسَهُ وَعَلَيْهِ آلَةُ الْحَرْبِ، وَفِي عُنُقِهِ الْمُضْخَفُ، وَحَوْلَهُ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْقَيْرَوَانِ مُتَأَهِّبُونَ لَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، عَلَيْهِمْ آلَةُ الْحَرْبِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رُبِيعُ الْقَطَّانِ فَسُرَّ بِهِمْ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانِي حَتَّى أَدْرِكْتُ عِصَابَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اجْتَمَعُوا لَجِهَادِ أَعْدَائِكَ، وَأَعْدَاءِ نَبِيِّكَ، يَا رَبِّ بِأَيِّ عَمَلٍ، بِأَيِّ شَيْءٍ وَصَلْتُ إِلَى هَذَا؟ ثُمَّ أَخَفَ فِي الْبُكَاءِ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُهُ عَلَى لَحْيَتِهِ ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ كَثِيراً لَسُرَّ بِكُمْ⁽⁵⁾. قَالَ: وَكَانَ مِمَّنْ

(1) نسبة للقرامطة وهي حركة دينية سياسية منقرضة، تنسب إلى حمدان قرمط من دعاة الإسماعيلية، ظهر في العراق سنة 258هـ، انتشروا لا سيما في البحرين واليمن، واستولوا على مكة سنة 317هـ، ونقلوا منها الحجر الأسود ثم ردّوه بعد اثنتين وعشرين سنة. وجاء في البيان المغرب: أن الحجر الأسود أُرْسِلَ اللّعين الجَنَابِي إلى عبيد الله بالمهدية فلم يلبث إلا أياماً وهلك كما ذكرنا، فلما دُفِنَ طَرَحَتْهُ الْأَرْضُ، ثُمَّ دُفِنَ فطرحته الأرض ثلاثاً، فقيل لابنه أبي القاسم: «إِنَّ هَذَا لِأَجْلِ هَذَا الْحَجَرِ فَارْذُدْهُ حَيْثُ كَانَ» فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَرَدَّهِ إِلَى مَوْضِعِهِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَقَرَّ عِبِيدُ اللَّهِ فِي قَبْرِهِ 285/1.

(2) جاء في البيان بعد هذا: «فَانصَرْنَا اللَّهُمَّ عَلَيْهِ، وَأَرْحَنَا مِنْهُ وَمِنْ دَوْلَتِهِ وَاضْلِلْهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» بعد أن جعله في دُنْيَاهُ عِبْرَةً لِلْسَّائِلِينَ، وَأَحَادِيثَ فِي الْغَابِرِينَ، وَاهْلَكَ اللَّهُمَّ شِيعَتَهُ، وَشَتَّتْ كَلِمَتَهُ 285/1.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿تَوَلَّيْهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

(5) انظر الخبر في الرياض 2/ 343 - 344.

خرج على بني عبيد فقتل بقرب المهديّة بالوادي المالح وقطع رأسه وأتى به إلى أبي القاسم بن عبيد الله في طُسْتٍ فلما كشف عنه فتح الرأس عينية وفمه فقال أبو القاسم: بَعْدُوهُ عني، وتوفي في رجب سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

قلت: وقال أبو بكر المالكي استشهد ربيع القطان رحمه الله يوم الاثنين في صفر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقيل: إن الممسي استشهد معه في يوم واحد وقيل: بينهما مدة ستة أشهر، فكان غرض المجوس بني عبيد أخذ ربيع حياً ليشتفي⁽¹⁾ منه، قال الشيخ أبو الحسن القابسي: فلما تلاقوا للقتال أقبل ربيع وهو يطعن فيهم ويضرب وهم يتوقفون عن طعنه طمعاً أن يأخذوه حياً، فلما أئخَنَهُم بالضرب وَالطَّعْنِ عَمَدَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فقتلوه [وما تولوا دفنه]⁽²⁾ رحمة الله عليه. واستشهد معه أئمة، وَعُبَادٌ وَصَالِحُونَ، وذلك خمسة وثمانون رجلاً، ذكر هذا في تكلمه على أبي الفضل الممسي، وقال أبو الحسن القابسي عن شيوخه الذين أدركهم: إن الذين ماتوا في دار البحر بالمهديّة من حين دخل عُبيدُ الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد، وعالم، ورجل صالح، ولذلك يقول سهل الوراق⁽³⁾:

وَأَحَلَّ دَارَ الْبَحْرِ فِي أَغْلَالِهِ مَنْ كَانَ ذَا تَقْوَى وَذَا صَلَوَاتٍ⁽⁴⁾

قلت: وكان القرويون غلبوا مَنْ كَانَ بِالْمَهْدِيَّةِ، وطمعوا في أخذها فمَكَرَ بِهِمْ أبو يزيد الخارجي فقال لجيشه: القرويون إذا حكموا على بني عَمْنَا وَاسْتَأْصَلُوهُمْ، يرجعون علينا فلا تقدر عليهم، فإذا كان من الغد والتحم الناس في القتال انعزلوا عنهم حتى تقع الكسرة عليهم فترتاح من شوكتهم أو نحو هذا الكلام ففعلوا ذلك فوَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ لما سبق في سابق علم الله تعالى باستشهاد من استشهد كأبي الفضل الممسي وربيع القطان. قال أبو محمد بن التبان: رأيتُ ربيع القطان في

(1) في الرياض: لينشفوا 345/2. (2) الرياض: «وَمَا وَلَّى دُبْرًا» 345/2.

(3) سهل بن إبراهيم الوراق. انظر عنه: الرياض 112/2 - 345 - 495، والبيان المغرب 2/

293 عندما نَوَّه بأهل سوسة وشجاعتهم حين تصدوا للخوارج قوله:

إِنَّ الْخَوَارِجَ خَدَّهَا عَنْ سُوسَةٍ أَبْدَأَ طِعَانُ السُّنَمِرِ وَالْإِقْدَامِ

[الكامل]

(4) الرياض: 346/2.

المنام بعد أن قتل فسألته عن حاله فقال لي: تارة يُزَخَرَفُ لنا الجنان، وتارة تشرف علينا الحور، والولدان، وتارة تُبَسَطُ لنا الحُجُبُ. فقلت له: من أعلا درجة أنت أم الممسي؟ فقال: جمعنا في حديقة واحدة. وقال أبو بكر المالكي: وكان يُكثِرُ من الإشارة بأنه يستشهد⁽¹⁾، فكان ذلك في قتال بني عبيد، وكان يقول: والله لَيُذَارَنَ بهذا الرأس، فقد والله أُدِيرَ برأسه بِطَرَابُلُسَ⁽²⁾.

194 - ومنهم أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي المؤرخ⁽³⁾:

وكان جَدُّهُ تميم بن تمام من أَمْرَاءِ إفريقية، وكان أبوه أحمد ممن سمع من شجرة، وسليمان بن عمران، وبكر بن حماد. قال: وبلغت عدة شيوخه مائة وخمسة وعشرين شيخاً⁽⁴⁾، منهم عيسى بن مسكين، ويحيى بن عمر، وعبد الله بن أحمد بن طالب القاضي، وسليمان بن سالم، وسعيد بن محمد بن الحداد، وأحمد بن معتب، وعبد الجبار بن خالد، وحمديس القطان، وجبله بن حمود الصدفي وأخذ عنه أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن بن زياد، والحسن بن سعيد الخراط وأمم لا يحصون.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان فقيهاً صالحاً متواضعاً، كثير الإيثار، من عسر ثقة ثبناً صحيح التقيد، ضابط الرواية، كثير التأليف والمشايخ.

قلت: وقال غيره: كان أبو العرب إمام عصره، وواحد دهره دأب في طلب العلم، وبرع فيه براعة فاق فيه من تقدمه من رجال إفريقية، وألّف كُتُباً مفيدة كثيرة،

(1) جاء في الرياض: «قد تحقق عنده أنه لا بد له من الشهادة، فكان ذلك يجري على لسانه، وإنما ذلك لرؤيا رآها» 336/2.

(2) جاء في الرياض: «قال حسن بن فتحون الخراز، قال لي ربيع: يا حسن لَيُذَارَنَ بهذا الرأس، وأشار إلى رأسه، فشاء الله تعالى أن دِيرَ برأسه بطرابلس 337/2 - 338.

(3) ترجم له في: الرياض: 306/2 - 312، طبقات الخشني ص: 226 رقم 62، ترتيب المدارك 334/3 - 336، مقدمة طبقات علماء إفريقية وتونس ص: 23 - 31، الديباج المذهب ص: 347 - 348، شجرة النور الزكية 125/1 رقم 200.

(4) في الديباج المذهب: «وشيوخه ثَيِّفٌ وعشرون ومائة شيخ» ص: 347.

وكان مُؤَفِّقاً في التأليف مُعَاناً عليه، وهو رافع لواء التاريخ بإفريقية مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث. وقال ابن أبي دليم: كان حافظاً للمذهب مفتياً وغلب [عليه]⁽¹⁾ الحديث والرجال، وتصنيف الكتب والرواية والإسماع، وألف طبقات علماء إفريقية، وكتاب عُباد إفريقية، وَسَنَدُ حديث مالك، وكتاب التاريخ سبعة عشر جزءاً^(*)، وكتاب مناقب بني تميم، وجزئين في موت العلماء، وكتاب المحن، وكتاب فضائل مالك، وكتاب فضائل سحنون، وكتاب الطهارة والوضوء، وكتاب الجنائز وذكر الموت، وعذاب القبر، وكتاباً في الصلاة وغير ذلك؛ وقال أبو بكر المالكي: «كانت أَوْصَافُهُ أَوْسَع من أن يحملها كتاب»⁽²⁾.

قال: وبلغت كتبه ثلاثة آلاف وخمسمائة⁽³⁾ كلها بِحَظِّ يَدِهِ. واحتاج النَّاسُ إليه، وإلى علومِهِ وكتبِهِ.

قلت: وسألت في حال صِغَرِي شيخنا أبا الفضل البُرْزُلي هل أراد بالكتب المفسرة الكتب المجلدة؟ أو إنما أراد مثل كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب الجنائز، ونحو ذلك؟ فأجابني بأن المراد الثاني لا الأول. وكان رحمه الله تعالى شاعراً. قال أبو بكر المالكي: ومن قوله رحمه الله تعالى هذه الأبيات:

إذا انقطع⁽⁴⁾ الصديق بغير⁽⁵⁾ عذر
إلى يوم التَّنَادِي بِلَا رُجُوعٍ
[إذا وَلَّى أَخُوكَ قَوْلٌ عَنْهُ
فَزَادَ اللَّهُ خُلَّتَهُ انْقِطَاعًا
وَإِنْ⁽⁶⁾ رَامَ الرُّجُوعَ فَلَا اسْتِطَاعًا
وَزِدَّهُ وَرَاءَ مَا وَلَّاكَ بَاعًا]⁽⁷⁾

(1) سقط من: ت.

(*) في الديباج: سبعة أجزاء. ص: 348.

(2) الرياض: 306/2.

(3) في الرياض: أكثر من ثلاثة آلاف كتاب 309/2، وفي الديباج كما في معالم الإيمان وفي الرياض صفحة 310 قال: كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب... .

(4) في ترتيب المدارك، والديباج: «إذا ولي».

(5) في ترتيب المدارك، والديباج: «بغير».

(6) في الرياض، وترتيب المدارك، والديباج: «فإن».

(7) ما بين المعقوفتين في ترتيب المدارك، والرياض، والديباج ورد بلفظ تالي:

إذا وَلَّى أَخُوكَ قَوْلٌ عَنْهُ فَإِنْ رَامَ الرُّجُوعَ فَلَا اسْتِطَاعًا

وَنَادِ وِرَاءَهُ يَا رَبِّ تَمِّمْ وَلَا تَجْعَلْ لِفُرْقَتِنَا⁽¹⁾ اجْتِمَاعًا

قلت: وكان له ابن اسمه تَمَام سكن إفريقية، وأبو جعفر تميم سكن الأندلس، وروى بها كتب أبيه وغيره؛ وهو الذي أنشد عن أبيه ما تقدم.

قال: قال أبو الحسن بن سعيد الخراط الفقيه: لَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ الْفُقَهَاءَ قَدْ تَجَمَّعُوا فِي الْجَامِعِ فِي تَدْبِيرِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَهْدِيَةِ فِي أَيَّامِ أَبِي يَزِيدَ، بَكَرْتُ إِلَى الْجَامِعِ فَأَصْبَحْتُ أَبَا الْعَرَبِ ابْنَ تَمِيمٍ، وَأَبَا الْفَضْلِ الْمَمْسِيِّ، وَرَبِيعَ الْقَطَّانِ، وَأَبَا إِسْحَاقَ السَّبَائِيَّ وَمُرْوَانَ بْنَ نَصْرٍ، وَغَيْرَهُمْ جُلُوسًا عِنْدَ الْمَنْبَرِ فَتَكَلَّمُوا فِي الْخُرُوجِ عَلَى بَنِي عُبَيْدٍ، فَاخْتَلَفُوا وَتَنَازَلُوا حَتَّى قَالَ أَبُو الْعَرَبِ ابْنَ تَمِيمٍ: اسْكُتُوا⁽²⁾ فَسَكَتَ النَّاسُ فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَيْسَى بْنُ مَسْكِينٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَرَجَانِيِّ بِإِسْنَادِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَكُونُ [فِي]»⁽³⁾ آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمُ الرَّاغِضَةُ⁽⁴⁾ فَلِذَا أَدْرَكْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ كَفَّارٌ»⁽⁵⁾. فَلَمَّا تَمَّ⁽⁶⁾ الْحَدِيثُ كَبَّرَ النَّاسُ وَعَلَّتْ أَصْوَاتُهُمْ

(1) في الرياض، والديباج: لفرقة.

(2) كلمة اسكتوا وردت مرتين في الرياض: 309 / 2.

(3) ساقط من: ط. الزيادة من: ت، والرياض.

(4) الرافضة: جنود تركوا قائدهم، وانصرفوا فكل طائفة منهم رافضة، والنسبة إليهم رافضي، والروافض: قوم من الشيعة، سُمُّوا بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي؛ قال الأصمعي: كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابرأ من الشيخين نقاتل معك، فأبى وقال: كانا وزيرَي جَدِّي فلا أبرأ منهما فرفضوه. والمراد بالشيخين: أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم. راجع لسان العرب لابن منظور مادة «رفض» 157 / 7.

(5) الحديث أخرجه أحمد في مسنده من رواية علي بن أبي طالب بلفظ: «يظهر في آخر الزمان قوم يُسَمُّونَ الرَّاغِضَةَ، يرفضون الإسلام» في سنده: «كثير بن إسماعيل أو ابن نافع النَّوَّاء كوفي «ضعيف» تقريب التهذيب (5622)، 37 / 2، وفي المعجم الكبير من رواية ابن عباس بلفظ: «ثم يكون قوم في آخر الزمان، يسمون الرافضة يرفضون الإسلام ويلفظونه فاقتلوهم فإنهم مشركون» حديث (12997) 242 / 12 وفي سنده: الحجاج بن تميم الجزري قال الحافظ ابن حجر «ضعيف» تقريب التهذيب (1123) 188 / 1. وفي كتاب الضعفاء والمتروكين لأبي الفرج: «حجاج بن تميم الواسطي عن ميمون بن مهران قال الأزدي: «ضعيف» 192 / 1 وهذه الرواية مروية من طريق الحجاج بن تميم عن ميمون بن مهران، وابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال برواية فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «أما إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي طَالِبٍ وَشِيعَتَكَ فِي الْجَنَّةِ وَسَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَنْتَحِلُونَ حَبِكَ، ثُمَّ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَهُمْ نَبْزٌ يُقَالُ لَهُمُ الرَّاغِضَةُ فَإِنْ لَقِيتَهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ مشركون» (625) 82 / 3.

(6) في ط: أتم. التصويب من: ت، والرياض 309 / 2.

في الجامع حتى ارتجَّ، ثُمَّ خرجوا لِقِتَالِ بني عبيد وهذا يدلُّك على كمال عدالته، وَصِحَّة نَقْلِهِ، ولولا ذلك ما اتَّفَقُوا بعد الاختِلَافِ على الخُرُوجِ على من ذكر، ولم يتخلف من الفُقَهَاءِ والصُّلَحَاءِ أَحَدٌ.

قلت: قال أبو بكر المالكي: وقيل لأبي الحسن بن الحلاف ما الذي أعاق أبا مَيْسَرَةَ عما فعل أضْحَابُهُ؟ قال: ذهابُ بَصَرِهِ، وَلَكِنَّهُ قد أخرج ابنه محمد وقال: أَدْخَلَنِي الله في شَفَاعَةِ أَسْوَدٍ رمى على هؤلاء القوم صَخْرًا وشَهَقَ الشَّيْخُ أبو الحسن بالبكاء. وقيل: لأبي الحسن إن أبا سعيد بن أخي هاشم لم يخرج فقال: قد شهر أبو سعيد السيف وحمله على عاتقه مصلتاً، وهذا غاية في أنه يقول بقول الشيوخ في الخروج عليهم فقال له بعض من حضر: أبو سعيد يذكر أن الجُبْنَ منعه من حضور الحرب، ولما خرج أبو العرب لِقِتَالِ من ذكر، سمع النَّاسُ منه كتابي الإمامة لمحمد بن سحنون فكان يقول: واللَّهِ لَسَمَاعُ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ على هنا، أفضل من كُلِّ مَا كَتَبْتُ⁽¹⁾.

قلت: يريد لكثرة من سمعه من الخلق الذين اجتمعوا إليه في سماع ذلك من علماء وغيرهم؛ ومن سبق له شيء في الأزل، لا بد أن يناله، فكان جدُّه أبو الجَهْمِ والي إفريقية والذي نال أحسن دنيا وأخرى. قال أبو بكر المالكي وسبب طلب أبي العرب العلم وملازمته له وتركه ما كان عليه آباؤه قال: أتيت يوماً وأنا حدث إلى دار محمد بن يحيى بن السلام، فرأيت عند الطَّلَبَةِ ورأيت أمراً أعجبنى وَرَكَنْتُ إليه نفسي فعاودتُ الموضع، وكنت آتي إليه وَالطَّرْطُورُ على رأسي، ونعلي أحمر في رجلي في زي أبناء السَّلاطِينِ، وكان الطلبة ينقبضون مِنِّي من أجل ذلك الزِّيِّ، فقال لي رجل يوماً بجواري: لَا تَتَزَيَّ بهذا الزِّيِّ، فَلَيْسَ هُوَ زِيَّ طلبة العلم، وأهله وزهدني فرجعت إلى أُمِّي فَقُلْتُ نلبس الرداء وثياباً تُشَاكِلُ لِبَاسَ [أهل]⁽²⁾ العلم والتجار، فَأَبَتْ عَلَيَّ وقالت: إنما تكون مثل آبائك وأعمامك، فَاخْتَلْتُ حتى اشتريت ثياباً وجعلتها عند صَبَّاغٍ في باب أبي الربيع، فكنْتُ إذا أتيتُ من القصرِ الْقَدِيمِ أتيتُ بذلك الزِّيَّ الذي تُحِبُّ أُمِّي ووالدي، فإذا وصلتُ إلى باب أبي الربيع ودخلتُ حانوتَ الصَّبَّاغِ خَلَعْتُهَا ولبستُ الثِّيَابَ الأخرى، فكنْتُ كلما تَرَدَّدْتُ فعلتُ ذلك، ثم

(1) الرياض بصيغة مختلفة بعض الشيء 310/2.

(2) سقط من: ت.

قال لي رجل من أصحابي: أراك تأتي هذا المَجْلِسَ فتسمع فيه العلم ولا تكتب شيئاً مما تسمع، يكون عندك ما هذا حقيقة طالب العلم فقلت له: وَالِدِي رَاغِبٌ عَنْ هَذَا وَعَنِ الْمَعُونَةِ عَلَيْهِ، وَمَا مَكَّنَنِي مِنْ شَيْءٍ اشْتَرِي بِهِ الرَّقَّ⁽¹⁾. فقال لي: أَنَا أُعْطِيكَ جِلْدًا تَكْتُبُ لِنَفْسِكَ وَتَكْتُبُ لِي جِلْدًا عَوْضًا مِنْهُ فَرَضِيْتُ لَهُ بِذَلِكَ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لِنَفْسِي مَا شِئْتُ، وَأَكْتُبُ لَهُ فِي جُلُودِهِ مَا يُحِبُّ حَتَّى يَسِرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا اشْتَرَيْتَ بِهِ الرَّقَّ وَمَا قَوَيْتَ بِهِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ⁽²⁾.

قال: وتوفي أبو العرب في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ودفن بباب سَلَمٍ عِنْدَ قَبْرِ شَقْرَانَ.

قلت: وقبره مَزَارٌ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ الْمَالَكِيُّ: وَصَلَّى عَلَيْهِ [أحمد]⁽³⁾ بن أبي الوليد [صاحب الصلاة والخطبة]⁽⁴⁾ بعد أن قال لابنه أبي العباس⁽⁵⁾: تقدم صلي على أبيك فقال⁽⁶⁾: مَا أَفْعَلُ هُوَ أَوْصَى أَنْ تَصْلِيَ عَلَيْهِ، فَتَحُولُ إِلَى مَرْوَانَ⁽⁷⁾ وَإِلَى أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَائِيِّ فَقَالَ لِهَمَّا: تَقْدَمَا فَصْلِيَا فَقَالَا: أَنْتَ أَحَقُّ فَصَلِّ عَلَيْهِ جَمْعٌ عَظِيمٌ، وَقِيلَ إِنْ وَلَدَهُ صَلِّ عَلَيْهِ⁽⁸⁾.

قلت: محمل قولهما أنت أحق لأجل الوصية كما هو السِّيَاقُ بكونه عرض عليهما أَنْ يُصَلِّيَ أَحَدُهُمَا⁽⁹⁾ خلاف المذهب، ويحتمل عموماً لأنه الإمام للجمعة وغيرها في الجامع، ويحتمل إشارة منهما لكَمَالِ مُفْضَلِهِ إِذْ لَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأُولَى الْفَضْلِ، إِلَّا أَوْلُو الْفَضْلِ وَمِنْهُ ابْتِدَاءٌ.

(1) الرَّقُّ: جِلْدٌ رَقِيقٌ لَيْنٌ يَكْتُبُ فِيهِ، مِثْلُ الصَّحِيفَةِ الْوَرَقِيَّةِ.

(2) ورد هذا الخبر في الرياض: 307/2 - 309.

(3) في ت وط، وكتاب المعالم 38/3 بتحقيق محمد ماخور: «إسحاق»، التصويب من: الرياض، 306/2، وانظر ترجمته في هذا الجزء رقم ترجمته (212) من كتاب معالم الإيمان اسمه: أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن أبي الوليد توفي سنة 345هـ.

(4) انظر إلى ما ورد ما بين المعقوفتين في ترجمة (212) قوله: «يتولى الصلاة والخطبة بالجامع الأعظم بالقبروان».

(5) أبو العباس تميم بن أبي العرب توفي سنة 371هـ. ترجم له في هذا الجزء رقم ترجمته (227) من كتاب معالم الإيمان.

(6) في الرياض: لا أفعل 306/2.

(7) هو أبو عبد الملك مروان بن نصر توفي سنة 340هـ. انظر ترجمته في رقم (199) من كتاب معالم الإيمان.

(8) الخبر في الرياض: 306/2. (9) في ت: عليها.

195 - ومنهم محمد ابن الفتح المؤدب المرجي⁽¹⁾:

كذا قال. وزاد العواني المعروف بابن الصَّوَّاف، يُكْنَى أبا بكر. وقال المالكي: أبو عبد الله ابن الفتح.

قال: سمع من يحيى بن عمر، وأحمد يزيدي، وغيرهما؛ وله رِخْلَةٌ قديمة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وسمع منه أبو بكر ابن اللَّبَّاد وابن زياد، وكان من أهل العلم والفضل، والعبادة والفقر والإيثار على قلة الأسباب، وكان مُحَقِّقاً في مقامات الصديقين.

قلت: وقال المالكي: كانت له أوصاف جليلة حسنة معروفة صلى وراءه عيسى بن مسكين ورضيه إماماً، وكان موصوفاً بِرُخْلَةٍ⁽²⁾.

قال: وهو أحد من عَقَدَ الخروجَ على بني عبيد، لكنه لم يخرج لِضَعْفِهِ⁽³⁾.

قلت: يعني لِكِبَرِ سِنِّهِ كما صَرَّحَ به غيره، وكان يخرج إلى مقبرة باب سلم فَيَسْتَتِرُ بِحَائِطٍ⁽⁴⁾ يقرأ على أصحابه هناك⁽⁵⁾ للخوف من بني عبيد، لأنهم منعوا من بَثِّ العلم، وسجنوا العلماء⁽⁶⁾ في دُورِهِمْ.

قال: وكان من دعائه: اللهم إني أسألك الهدى، والتَّقْوَى، وَالْفِقهَ، والبُشْرَى عند انقطاع الدنيا، وأسألك إيماناً لا يَرْتَدُّ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لا تنفد، وفرحاً لا ينقطع، وتوفيق الحمد، ولباس التقوى، وزينة الإيمان ومرافقة نبيك في أعلى درجات الخُلْدِ. وتوفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة⁽⁷⁾.

(1) ترجم له في الرياض: 313/2 - 316.

(2) في الرياض: بِالرَّجْلَةِ 313/2 وهي القوة على المشي كما في القاموس المحيط مادة «رجل» ص: 903. «الرُّخْلَةُ» بالضم: القوة والجودة، ويروى بالكسر بمعنى الارتحال. لسان العرب مادة «رحل» 279/11. وقيل الرُّحْلَةُ أيضاً الجهة التي يقصد إليها المسافر. نقول عَالِمٌ رُخْلَةٌ: أي عَالِمٌ يُرْتَحَلُ إليه من الآفاق.

(3) في الرياض: «لزمانته وضعفه» 313/2. (4) في الرياض: «خلف حائط».

(5) في الرياض: «هنالك».

(6) في ت، والرياض: العلم. والمراد: ضربوا حصاراً على العلماء في بيوتهم، ومنعواهم من الالتقاء بالعامّة والطلبة لكي لا تحصل الاستفادة منهم.

(7) هذا التاريخ الذي أرخ به الدباغ وفاة المترجم موافق لما جاء في الرياض، ومخالف لتعقيب ابن ناجي.

قلت: وقيل: بل توفي سنة خمس [وثلاثين وثلاثمائة]⁽¹⁾ قال: ودفن بباب سلم رحمه الله تعالى.

196 - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد القصري⁽²⁾ المؤدّب⁽³⁾:

قال: هو إبراهيم بن الحسن، بن محمد بن عيسى بن سفيان بن سَوَادَةَ التَّمِيمِي من أهل العلم والقرآن، والكَدُّ والجهد والاجتهاد، وكان حَسَنَ العبارة بالرؤيا، وكان له حزن وخشية، وورع وإشفاق، مبسوطاً بالحق، مقبوضاً عن غير أبناء جنسه أعطي حسن الصوت بالقرآن وَرِقَّةَ قَلْب، فكان إذا قرأ بكى، وإن صلى بكى، وإن سَكَتَ بكى. وروي عنه أنه قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تسليماً في المنام سِتِينَ مَرَّةً»⁽⁴⁾.

قلت: ناقلُ هذا عنه أبو محمد بن التبان.

قال: وقال أبو الحسن الزعفراني: بَشْنَا لَيْلَةً وَمَعَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْقَصْرِي فَقَالَ الْقَوَال:

مَنْ كَانَ يَرْجُو بِأَنْ يَلْقَى سَلَامَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ وَلَا يَفْزَعُهُ⁽⁵⁾ مَوْرِدُهُ
فَلْيَحْفَظِ اللَّهَ فِي أَسْرَارِ خَلْوَتِهِ وَلَا يَغِيبَ عَنِ الْإِجْلَالِ مَشْهَدُهُ

فَجَنَى أَبُو إِسْحَاقَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْهِ يَبْكِي وَيَنْتَحِبُ وَيَنُوحُ حَتَّى هَجَمَ الصُّبْحُ⁽⁶⁾.

قلت: هذا الكلام فيه بَثْرٌ، وَبَسْطُهُ أَنَّ الزَّعْفَرَانِي قَالَ: بَشْنَا مَعَ أَصْحَابِ لَنَا وَمَعَنَا مِنْ ذِكْرَتِهِ، وَأَنَّ الْقَارِيءَ لَمْ يَقْرَأْ هَذَا، قَالَ: بَلْ قَرَأَ أَوَّلًا، ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَامَ أَبُو إِسْحَاقَ فَجَنَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ الْقَارِيءِ وَقَالَ لَهُ: أَعِذْ. فَوَاللَّهِ مَا زَالَ ذَلِكَ الْقَوَالُ يُرَدِّدُهَا، وَأَبُو إِسْحَاقَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَنُوحُ وَيَبْكِي حَتَّى هَجَمَ الصُّبْحُ، هَكَذَا ذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْمَالِكِيُّ عَنِ الزَّعْفَرَانِي.

(1) سقط من: ت. (2) ترجم له في الرياض: 316/2.

(3) في الرياض: المتعبد 316/2. (4) الرياض: 316/2.

(5) قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل: 89)، وفي سورة الأنبياء آية 103 قوله تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّيْنَاهُمْ أَلْتَّيَكَّةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٣).

(6) الرياض 319/2.

قال: ولما توفي الشيخ أبو سَوَادَةَ المتعبدُ لَمْ يَبْقَ بالقيروان أحدٌ إلا شهد جنازته، وكان إبراهيم القُضْرِي جالساً عنده وحوله خلقٌ كثير، فنظر إلى النَّعْشِ، وازدحام الناس⁽¹⁾ عليه فصاح: وأعزهم⁽²⁾ في سواد الليل، إذا قاموا من مَضَاجِعِهِمْ إلى محاربهم وأعزهم إذا انصدع الفَجْرُ فَرِحِينَ، بما وَهَبَ لَهُمْ من المُنَاجَاتِ، وقد أَشْرَقَ نُورُهُ في وجوه القومِ يُحِبُّونَ اللَّهَ وَهُوَ يُحِبُّهُمْ، وَأَعَزَّهُمْ إذا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ وهم صائمون مُتَبَتِّلُونَ، وَأَعَزَّهُمْ «إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُوا الْجَنَّةَ»⁽³⁾ وَأَعَزَّهُمْ إذا أُلْحِدُوا، وَصَارَتْ تِلْكَ اللَّحُودُ رِيَاضاً، وَأَعَزَّهُمْ إذا انشَقَّتِ الْأَرْضُ عَنْهُمْ، قاموا من قُبُورِهِمْ وقالت لهم الملائكة: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ [الحجر: 46].

قلت: زاد العواني قَلَّمَ نَرَاكِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

قال: مات أبو إسحاق في السجن بدار البحر من أجل كلمة حق في دين الله قالها وذلك سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان يُنَادِي إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ: «اللهم أنزل بقلبي منك فرحاً لا ينقضي لله ومحبة لا تنجلي * إليك أَسْنَدْتُ ظَهْرِي * وبك تَتِمُّ آمَالِي، رَفَعْتُ خَبْرِي إِلَيْكَ * وَقَصَّرْتُ آمَالِي كُلَّهَا عَلَيْكَ * مَاذَا عَادَيْتُ فَيْكَ * وَمَاذَا أَبْغَضْتُ فَيْكَ * وَمَاذَا أَحْبَبْتُ فَيْكَ، وَمَاذَا وَالَيْتُ فَيْكَ» ثم يندفع لِلنِّيَاحَةِ.

قلت: ذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي رَبَّهُ فِي اللَّيْلِ قَبْلَ قَوْلِهِ: مات. فظاهره أنه كان ديدنه قبل أن يسجن. وقال العواني: كَانَ إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ يُنَادِي وَهُوَ فِي السَّجْنِ: «اللهم» إلى آخره فظاهره إنما سمع منه لما كَانَ مَسْجُوناً لَا قَبْلَ ذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

197 - وَمِنْهُمْ أَبُو مَيْسِرَةَ أَحْمَدُ بْنُ نَزَارٍ⁽⁴⁾:

قال: سمع من أحمد بن أبي سليمان، وفُرات بن محمد، وسعيد بن إسحاق، وموسى القَطَّان القَاضِي، وسعيد بن حكمون، ومحمد بن عُبَادَةَ، وأبي الغُصْنِ السُوسِي.

(1) في ت: الأمم.

(2) في ت: أعز.

(3) هذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 28].

(4) ترجم له في الرياض: 2/ 361 - 367، ترتيب المدارك: 3/ 358 - 362، شجرة النور الزكية 126/ 1 رقم 203.

قلت: وَحَمْدِيسَ الْقَطَّانِ.

قال: وسمع منه جماعة كثيرة منهم: أبو محمد بن أبي زيد، وحسن الخراط.

قلت: وأبو القاسم اللبيدي، وأبو الحسن بن الحلاف.

قال: «كان أبو ميسرة رجلاً صالحاً عالماً مشهوراً بالفقه، ثقة، حسن الاتباع لا يخالف في فتواه ابن القاسم، مُجَانِباً لأهل الأهواء، كثير الصلاة والذكر»⁽¹⁾. وكان يَخْتِمُ كُلَّ لَيْلَةٍ خَتْمَةً في مسجده روى أنه كان ذات ليلة يَتَهَجَّدُ وَيَبْكِي، وقد أتى على صلاته وإذا بنور عظيم قد خرج له من حائط البيت كأنه محراب⁽²⁾، ثم قال له: تَمَلَّأْ مِنْ وَجْهِ يَا أبا ميسرة فَأَنَا رَبُّكَ الْأَعْلَى، فَبَصَقَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ: إِذْهَبْ يَا مَلْعُون، فعليك لعنة الله فَطَفِيَءَ ذَلِكَ النُّورُ مِنْ سَاعَتِهِ كَسَرَابٍ بَقِيعَةٍ، وإذا به إبليسُ أراد أن يفتنه فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهُ»⁽³⁾.

قلت: أراد بقوله: «وقد أتى على صلاته، أي فرغ منها» ولو كان في صلاته. فالواجب إعراضه عنه، وإنكاره بقلبه، خاصة عليه يحمل نقل عيَّاض، فبينما هو يَتَهَجَّدُ⁽⁴⁾ ذات ليلة من الليالي ويبكي ويدعو، فإذا بنور عظيم، وذكر ما تقدم. قال الأجدابي⁽⁵⁾: إِشْتَهَى أَبُو مَيْسِرَةَ مَدَّةً طَوِيلَةً فَقُوساً، فَلَمَّا غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ، أَمَرَ رَجُلًا فَاشْتَرَاهُ لَهُ فَأَكَلَ مِنْهُ عِنْدَ إِفْطَارِهِ، وَجَلَسَ سَاعَةً، ثُمَّ بَصَقَ فَوْقَ بُصَاقِهِ عَلَى لَحِيَّتِهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا لِذَنْبٍ فَعَلْتُهُ، ثُمَّ بَحَثَ عَنِ الْفَقُّوسِ، وَإِذَا بِهِ مِنْ أَرْضِ السُّلْطَانِ فَتَقَيَّأَهُ، وَحَلَفَ أَنْ لَا يَأْكَلَ فَقُوساً أَبَداً.

قلت: واعجابه هكذا تكون العلماء! منع نفسه من أكله مع قُدْرَتِهِ عَلَى شِرَائِهِ مَدَّةً طَوِيلَةً، ثُمَّ لَمَّا اشْتَرَاهُ وَظَهَرَ لَهُ مَا ظَهَرَ، حَلَفَ أَنْ لَا يَأْكُلَهُ بَقِيَّةَ عَمْرِهِ، فَهَمَّ أَذْبَوْا أَنْفُسَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَتَأَدَّبَتْ وَأَنْشَدُوا:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت نأقت وإلا تسلت

(1) ترتيب المدارك: 358 / 3 (2) في الرياض: «كأنه البدر» 362 / 2.

(3) الخبر في الرياض: 361 / 2 - 362.

(4) في ت و ط: يتجهد. والصواب يَتَهَجَّدُ كما أثبتنا، لأن التهجد صلاة الليل، والمتجهد هو القائم من النوم إلى الصلاة. وَتَهَجَّدُ: استيقظ. راجع القاموس المحيط مادة «هجد» ص: 296.

(5) في ت و ط: الأجدابي. والصواب ما أثبتناه.

ونحن وافقنا أنفسنا وهي مؤنثة، وطاعة النساء ندامة «وَلَا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ إِمْرَأَةٌ»⁽¹⁾.

قال: روي عنه أنه قال لبعض أصحابه يحضهم على العمل: إني لأعرف مَنْ خَتَمَ في هذا الشَّهْرِ يعني رمضان مائة وعشرين ختمة، وأكل فيه سبع⁽²⁾ خبزات ونصفاً، وما أردت بهذا السُّمعة؛ وإنما أردتُ أَنْ أَحْضَكُمْ على العمل، وكان أَبُو مَيْسَرَةَ مُجَابِ الدُّعَاءِ، روي أنه كان في جَوَارِهِ رجلٌ أسود يسرق وينقب⁽³⁾، لا يُبَالِي⁽⁴⁾ ما يعمل؛ وكلما قيل له في ذلك، تناول الناس بلسانه فقيل لأبي ميسرة ذلك وشكوا إليه وسألوه أَنْ يدعو عليه فقال: اَللَّهُمَّ إِنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِكَ، وَنَحْنُ نَخَافُهُ لِأَنَّهُ لَا يَخَافُكَ، فَأَصْلِحْهُ، وَإِنْ لَمْ يَسْبِقْ فِي عِلْمِكَ إِصْلَاحُهُ فَخُذْهُ بِعِلْمِكَ فِيهِ وَأَزِلْ عَنْهُ حِلْمَكَ، وَفَاجِئْهُ بِسَطَوَتِكَ، وَنِقْمَتِكَ، فلما أَصْبَحَ أَتَى الشَّرْطَ إِلَى الرَّجُلِ فمضوا به، فَضْرِبَتْ عَنْقَهُ⁽⁵⁾. وقال الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ بن [عبد الرحمن]⁽⁶⁾ خرج أَبُو مَيْسَرَةَ لِيُصَلِّيَ على جنازةِ بِيَابِ سَلَمٍ، فَشَقَّ الْجَبَانَةَ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ مَعَ رَجُلٍ فِي مِحْنَتِهِ وَقَدْ أَمَكَّنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا وَهُوَ يَحِلُّ سَرَاوِيلَهُ، فَصَاحَ أَبُو مَيْسَرَةَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَأَقْبَلَ وَهُوَ يَرِيدُ السَّيْرَ إِلَى نَاحِيَّتِهِمَا فَتَرَكَهَا الرَّجُلُ وَهَرَبَ، وَأَقْبَلَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى أَبِي مَيْسَرَةَ فَضْرِبَتْ بِيَدِهَا فِي أَطْوَاقِهِ وَصَاحَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا: مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا الرَّجُلُ رَاوَدَنِي عَنْ نَفْسِي، وَأَبُو مَيْسَرَةَ سَاكِتٌ؛ فَلَمَّا رَأَتْ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْقُدْرَةِ، تَرَكَّتُهُ وَقَالَتْ لَهُ: إِيَّاكَ أَنْ تُغَيِّرَ الْمُنْكَرَ إِلَّا وَمَعَكَ غَيْرُكَ. فانصرف أَبُو مَيْسَرَةَ وَهُوَ يَقُولُ: بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَكْرُرُ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَنْزِلِهِ⁽⁷⁾.

(1) هذا حديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المغازي 83، باب كتاب النبي ﷺ إلى كِسْرَى وَقَيْصَرَ حديث (4425) ص: 1082 من رواية أبي بكرة، وأخرجه أيضاً في كتاب الفتن، باب 18 حديث (7099) كلاهما بلفظ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ».

(2) سقط من: ت.

(3) في ترتيب المدارك: وينهب 360/3 طبعة بيروت.

(4) في ترتيب المدارك: ولا يبالي 360/3، كذا في الرياض 362/2.

(5) ورد الخبر في الرياض: 363/2، وترتيب المدارك 360/3.

(6) في ت و ط: عبد السلام. التصويب من الرياض، ومن كتاب معالم الإيمان ترجمة (284) واسمه: «أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني» توفي سنة 432هـ، كذا أشار محقق الجزء الثالث من كتاب معالم الإيمان في الهامش؛ أن المخطوطة المشار إليها بحرف «ق» ورد فيها اسم «عبد الرحمن».

و«كان يقول رحمه الله تعالى: مَعْرِفَةُ الصَّالِحِينَ تُورِثُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى. وَشَكَى لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بَعْدَ عَهْدِهِ بِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي إِنَّمَا فَائِدَةُ الْاجْتِمَاعِ الدُّعَاءُ، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي دَعَوْتَ لِي⁽¹⁾ وَإِذَا ذَكَرْتَكَ دَعَوْتُ لَكَ، فَتَكُونُ كَأَنَا التَّقَيْنَا وَإِنْ لَمْ نَلْتَقِ⁽²⁾. وَكَانَ أَبُو مَيْسِرَةَ يَدْفَعُ الْكَرَامَاتِ، حَتَّى سَأَلَهُ سَائِلٌ فَأَعْطَاهُ رَغِيفاً كَانَ فِي طَلْقٍ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَأَغْلَقَهُ ثُمَّ فَتَحَ الْمَسْجِدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَوَجَدَ الرَّغِيفَ بِعَيْنِهِ فِي الطَّاقِ.

قلت: وَحَمَلَ مَرَّةً خُبْزَتَهُ إِلَى الْفُرْنِ، فَخَرَجَ مِنَ الْفُرْنِ خُبْزاً لِلْبَيْعِ وَإِذَا بِسَائِلٍ يَسْأَلُ فَلَمْ يَعْطِهِ أَصْحَابُ الْخَبْزِ شَيْئاً فَاشْتَرَى مِنْهُمْ أَبُو مَيْسِرَةَ خُبْزَةً وَدَفَعَهَا إِلَى السَّائِلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ إِلَى مَسْجِدِهِ وَقْتُ الصَّلَاةِ، وَجَدَ الْخُبْزَةَ فِيهِ.

قال: قال أبو الحسن بن الحلاف: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي مَيْسِرَةَ فَوَقَفَ بِالْبَابِ سَائِلٌ فَقُلْتُ لَهُ: فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَقَالَ لِي أَبُو مَيْسِرَةَ: قُلْ فَتَحَ اللَّهُ لَنَا وَلَكَ، فَلَعَلَّ سَاعَتَهُ تَوَافِقُ إِجَابَةً، وَكَانَ أَبُو مَيْسِرَةَ يَجْعَلُ مَائِدَتَهُ إِذَا تَعَشَّى خَلْفَ الْبَابِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: إِذَا جَاءَ السَّائِلُ يُعْطَى لَهُ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِذَا كُنَّا فِي الْبَيْتِ وَجَاءَ سَائِلٌ يَخْرُجُ إِلَيْهِ الْخَادِمُ فَلَا يَنْتَظِرُهَا الْعِيَالُ⁽³⁾، وَأَرَادَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ [أَبِي] الْقَاسِمِ أَنْ يُؤَلِّيه الْقَضَاءَ فَأَبَى، وَقَالَ: كَيْفَ يَلِي الْقَضَاءَ رَجُلٌ أَعْمَى يَبُولُ تَحْتَهُ؟ وَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ أَنَّهُ أَعْمَى إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَقَالَ لَهُ: مِنْذُ كَمْ عَمِيتَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ؟ قَالَ: مِنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ انْقَطَعْتُ إِلَيْكَ، وَأَنَا ابْنُ ثَمَانِ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَا تُمَكِّنْهُمْ مِنِّي فَمَا جَاءَ الْعَصْرَ، إِلَّا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ»⁽⁵⁾.

قلت: ظاهر قوله، فقال له: إِنْ الْقَائِلَ لَهُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ، فَهُوَ قَدْ ذَكَرَ عُذْرَهُ لِإِسْمَاعِيلَ مَبَاشَرَةً وَذَكَرَ عِيَاضَ: إِنْ الرُّسُولَ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: مُوَلَايَ يَقْرُئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: لَا بُدَّ أَنْ تَلِيَ الْقَضَاءَ! فَقَالَ كَيْفَ يَلِي الْقَضَاءَ رَجُلٌ أَعْمَى يَبُولُ تَحْتَهُ؟ فَقَالَ: مِنْذُ كَمْ عَمِيتَ الْخَ وَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ، وَإِنَّمَا قَالَهُ لِرَسُولِهِ، وَلَا يَنْبَغُ أَنْ يَتَّفِقَ الثَّقَلَانِ. قَالَه أَوَّلاً لَهُ، ثُمَّ قَالَهُ لِرَسُولِهِ [لِقَوْلِهِ]⁽⁶⁾: لَا بُدَّ

(1) الخبر ورد في الرياض: 2/ 363 - 364، وترتيب المدارك 3/ 360 - 361.

(2) في ت: له. (3) الرياض: 2/ 365.

(4) في ت: للعيال. (5) إسقاط، أبي من: ت.

(6) الخبر في الرياض: 2/ 362. (7) سقط من: ت.

أن تلي، فإن لفظة لا بُدَّ تقتضي أنه سَبَقُ كَلَامٍ معه في ذلك والله أعلم. وكونه لم يعلم أحد بَعَمَائِهِ مع كَوْنِهِ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، ويقرأ عليه الناس كرامة عظيمة في حقه، وإلا فَالْعَمَى يظهر على صَاحِبِهِ من سَاعَتِهِ، وَاَنْظُرْ قوله: فلا تمكنهم مني، ما ظهر لي سبب دُعَائِهِ على نفسه فتأمله.

قال: ومسجد أبي مَيْسَرَةَ مشهورٌ بالقيروانِ إلى اليوم، وهو أحد المساجد السبعة القديمة الفاضلة.

قلت: وَيُعْرَفُ الآنَ بمسجد ابن غَلَّابٍ، وهو عن يسار الداخل للقيروان من باب تونس، وداره هي التي تعرف بدار الشيخ العدل أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن غلاب المَسْرَاتِي.

قال: وتوفي يوم الاثنين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

قلت: يعني منتصف ربيع الآخر كما صرح به غيره.

قال: وَدُفِنَ بباب سَلَمٍ قُرْبَ شُقْرَان. وقبره معروف، يعني يُزار وَيُتَبَرَّكُ به رحمة الله عليه ونفعنا به آمين.

198 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي [المنظور]⁽¹⁾ رحمه الله⁽²⁾:

وهو محمد بن عبد الله بن [حَسَّان]⁽³⁾ الأنصاري القاضي «أصله من الأندلس قاله المالكي»⁽⁴⁾.

(1) في ت و ط: ابن أبي المنصور. كذا في 44/3 من كتاب معالم الإيمان بتحقيق ماخور التصويب من: الرياض، وترتيب المدارك، وطبقات الخشنى، كما أشار محقق الجزء الثالث الأستاذ ماخور بأن في نسخة (ق): ابن أبي المنظور بظاء مُشالة معجمة، وسير أعلام النبلاء.

(2) ترجم له في طبقات الخشنى ص: 227 رقم 63، الرياض 357/2 - 361، ترتيب المدارك 339/3 - 340، سير أعلام النبلاء: 157/15.

(3) في ت و ط، والجزء 44/3 من كتاب معالم الإيمان المحقق من طرف الأستاذ ماخور: «حسن» والصواب ما أثبتناه من كتاب: الرياض، وترتيب المدارك، وأشار إليه الأستاذ ماخور في الهامش بأن جده سمي حسناً باسم: حسان.

(4) الوارد في الرياض للمالكي أن القائل هو: أبو عبد الله بن سعيد الخراط قال: «أصله من الأندلس، له رحلة إلى العراق وإلى اليمن...» 357/2.

قال: وكانت رِخْلَتُهُ إلى المشرقِ، وَسَمَاعُهُ من القاضي إسماعيل بن إسحاق، ومن علي بن عبد العزيز، عن [أبي]⁽¹⁾ عبيد القاسم بن سلام، ومن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن قُتَيْبَةَ، والحارث بن أبي أسامة، وأبي يعقوب حَدَّثَهُ بِمُصَنَّفِ عبد الرزاق⁽²⁾ عنه وغيرهم؛ سمع منه أحمد بن عبد الرحمن القصري، وأبو محمد بن التَّبَّان، وجعفر بن نظيف، وعبد الله بن هاشم وغيرهم.

قلت: وأغلق على نفسه باب السماع واعتذر بأنه لزمته يمين غليظة أن لا يُسَمِعَ أَحَدًا⁽³⁾ من أهل القيروان، وربما أسمع الرجل القريب⁽⁴⁾.

قلت: يعني أنه لم يتعين عليه الإسماع، ولو تعين عليه لوجب عليه تحنيث نَفْسِهِ، والمراد بعد أن أسمع من تقدم، وكان عالماً ثقة، فاضلاً صالحاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، وله جلاله وَسَمْتُ وخشوعٌ وَتَقَى وَقَبُولٌ، عند الناس وعدالة ظاهرة وجبره إسماعيل المنصور على القضاء.

قلت: هو إسماعيل بن أبي القاسم بن [عبيد الله]⁽⁵⁾.

قال: فاشترط عليه أن لا يأخذ لهم صلة، ولا يركبُ لَهُمْ دابة، ولا يقبلُ شهادة مَنْ طاف بهم أو قَارَبَهُمْ، ولا يركبُ إليهم مهنيًا، ولا معزيًا، فأجابه إلى هذا إسماعيل وقبل شرطه. وقال له: إذا لم تأخذ صلة فمن أين تعيش؟ قال: بما أعيش به الآن قال: فما تركب وأنت شيخ كبير؟ قال: الجامع قريب من داري أستطيع المسير إليه، فسار بالعدل في جميع أقضيته وكان لا تأخذه في الله لَوْمَةٌ لَائِمٌ⁽⁶⁾. وله مع القوم أخبار جليلة، تدلُّ على قوة إيمانه وَتَقَدُّمِهِ في الدين.

قلت: من ذلك ما ذكره أبو بكر المالكي عن الشيخ أبي الحسن القابسي أن يَهُودِيًّا سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ فرفع إليه وشهدت عنده⁽⁷⁾ البَيِّنَةُ فقال: ما الذي أعمل؟ لم

(1) محو في: ت.

(2) هو: عبد الرزاق بن هَمَّام العلامة ابن نافع الجَمَيرِي مولاهم أبو بكر الصنعاني صاحب المصنفات توفي سنة 211 هـ. انظر ترجمته في طبقات الحفاظ للسيوطي ص: 173 - 174 رقم 337، شذرات الذهب 27/2.

(3) في ت و ط: أحد. والصواب ما أثبتناه.

(4) الخبر في الرياض: 358/2. (5) في ت: عبد الله.

(6) الخبر في الرياض: 358/2. (7) في الرياض: عليه 359/2.

أعط السيف، فأخرج من داره منبراً وَقَعَدَ عليه على باب داره في الشارع الأعظم، وأحضر اليهودي فعرض عليه الإسلام، فأبى أن يسلم، فأجلسه وَمَدَّ رِجْلَيْهِ وقال لرجاله⁽¹⁾: خُذُوا يَدَيْهِ وَأَجْذِبُوهُ إِلَى أَنْفُسِكُمْ حَتَّى يَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ، وأمر حاجبه رَاشِداً وكان ذا قوة في الضَّرْبِ، أَنْ يَضْرِبَ ظَهْرَهُ مِنْ حَذْوِ قَلْبِهِ، فضربه⁽²⁾ حتى غشي عليه، ثم أمر غيره فانتهى في ضربه، فلم يزل يضربه حتى مات. فقالوا له: مات أصلحك الله، فقال لهم: الحق قتله ثم أمر بدفعه إلى أهل دينه، وإنما فعل ذلك والله أعلم، لأنه لو رفع أمره [إليه]⁽³⁾ لم يقتله بسبب السب فأظهر، وإنما يضربه ضرب الأدب ليصل بذلك إلى قتله، فإذا قيل له لِمَ قتلته؟ قال: مات من الضرب. وذكر عنه أيضاً القابسي رحمه الله أنه قال: قام القاضي ابن أبي المنظور⁽⁴⁾ من مجلسه من الجامع منصرفاً إلى داره، فلما دخل من باب داره أحسَّ في الدار حركة، وشَمَّ في الدار رائحة طيبة، فلما دخل إلى بيته، وجلس قال له أهله: سلاف جارية السلطان جاءت إليك وكانت سلاف هذه لم يكن عند إسماعيل أعز منها، فجعلوا لها منبراً على باب البيت وكان القاضي قد حبس نائحة قد اشتهرت بالفسق ومخالطة السُّفَهَاءِ، وشهد عليها عنده بأنواع الفسق فضربها وسجنها في الفلقة فقالت له: سلام على القاضي فقال لها: ما لك يا هذه؟ قالت⁽⁵⁾: [له]⁽⁶⁾ قضيب جارية السلطان فقال لها: ما لها؟ فقالت: تقول لك: مشتاقة⁽⁷⁾ المسكينة قد انتهت منها إلى ضربها وسجنها، وانتهيتُ منها إلى ما رأيتُ أنه الحق عندك، فأحبُّ أن تُخْرِجَهَا وَتُطْلِقَ سَبِيلَهَا فقال [لها القاضي أعني لسلاف]⁽⁸⁾: والله يا مُنَيِّنَةَ لولا (...)⁽⁹⁾

(1) في ت: لرجاله. (2) في ت: فضربه راشد.

(3) سقط من: ت، والرياض.

(4) في ت و ط: ابن أبي المنصور. وقد تقدم تصحيحه.

(5) في ت، والرياض: فقالت. (6) سقط من: ت.

(7) في الرياض: مشتاق.

(8) في ت، والرياض: «فقال القاضي لسلاف».

(9) ورد في هامش المطبوعة: أن هذا البياض موجود بعدة نسخ من الأصل، وهو محل الشرط «لولا» وحذفه صاحب الترجمة للتهويل وتوكيد الردع. وهذا الفراغ عينه ورد في كتاب الرياض للمالكي، وعلق عليه محقق الكتاب بقول: كذا في الأصول لم يذكر جواب «لولا» ولم يترك الشَّائِخُ له بياضاً. كذا في (ت) لم يذكر له بياضاً.

لَأَوْجَعْتُكَ ضَرْباً وَلَجَعَلْتُكَ⁽¹⁾ مكانها أليس⁽²⁾ تحبون أن ظهر الشيخ السوء قنطرة اذهبي لعنك الله ولعن من أرسلك فولت وشقت ثيابها وكشفت رأسها، وذهبت إلى قضيب وكانت قضيب ليس عند السلطان⁽³⁾ أعز منها، حتى أنه كان يقول⁽⁴⁾: الناس كلهم عبيدي وأنا عبدك وكان قد شغف بها، فذكرت لها ما قال القاضي، فدخلت بها على إسماعيل، فقال⁽⁵⁾: مَا لَكَ؟ وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا رَأَاهُ مِنْهَا، لَأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّهَا⁽⁶⁾، فذكرت له ما جرى، فقال إيش نعمل له ما أخذ منا⁽⁷⁾ صلة ولا ركب لنا دابة ولا نقدر على عزله، ونحن نحب صلاح البلد فانصرفت مخزية هي وقضيب⁽⁸⁾.

قلت: إنما لم يرد عليها السلام لوجهين أحدهما لأجل مذهبها. والثاني إنما يسلم على المتجالة، وكذلك ما سبها به من قوله يا مُنَيَّتَةَ، وبقوله: لعنك الله ولعن من أرسلك حقاً لأنها أذته ألا ترى إلى قولها المسكينة. وإلى قولها انتهت من ضربها، فأشارت إلى جوره. وإن كانت إنما نقلت عن قضيب فكأنها إنما قالت برأيها.

قال: وكان عالماً بأصول الفقه، وتوفي وهو قاضي القيروان يوم السبت لعشر بقين من المحرم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وقد نيف على التسعين سنة ولم تشب له شعرة.

قلت: قال أبو بكر المالكي: كان غرابياً⁽⁹⁾. وصلى عليه عبد الله بن هاشم⁽¹⁰⁾.

199 - ومنهم مَرْوَان بن نَصْر بن حَبِيب بن نَصْر بن مَرْوَان بن عُلْقَمَةَ الأنصاري العابد أبو عبد الملك رحمه الله تعالى⁽¹¹⁾:

قال: سمع من عيسى بن مسكين، وابن عون، والحفري، وكان من أهل

(1) في ط: ولأجعلتك وفي ت: لأجعلتك. والصواب ما أثبتناه من الرياض 360/2.

(2) في الرياض: أيش تحبوا أن تجعلوا ظهر 360/2.

(3) في الرياض: السلطان «إسماعيل» 360/2.

(4) في الرياض: يقول لها: 360/2. (5) في الرياض: فقال لها.

(6) في الرياض: يُجْلَهَا 360/2. (7) في الرياض: لنا 361/2.

(8) الخبر في الرياض: 360/2 - 361.

(9) ورد مبتعداً ومتقطعاً في الرياض: 358/2 والمراد بِغُرَابِيّاً أسود لَوْنِ الشَّعْرِ.

(10) الرياض: 357/2.

(11) ورد ذكره في الرياض في أكثر من موضع منها: 313/1 - 128/2 - 130 - 175...

الاجتهاد في العبادة والزهد، ظهرت له إجابات حلي بالحق وتخلي عن الخلق، وتحلى بالصّدق، وكان إذا أُخْبِرَ بشيء من الدين يبول الدّم من الخوف، وكان حَضُوراً ما اغتسل من جنابة قط. وبه كان يضربُ المثل في عِبَادَتِهِ؛ قال حماس⁽¹⁾ القاضي: لا يعدم الناس خيراً⁽²⁾، وهذا الشَّابُّ مروان في الدنيا وكذلك كان سعيد ابن الحداد يقول: كان في غاية الزُّهْدِ والتَّقْشِفِ، روي أنه لم يكن في عُرفَتِهِ التي ينامُ فيها غير سَدَّةٍ قَصَبٍ، وتَلَّيسٍ خَشِنٍ، وَوَسَادَةٍ مَحْشُوءَةٍ بِالتَّبَنِ، وكان يقول إذا قيل له في ذلك إنما الراحة في القبر، وليتنا كان لنا في القبور مثل هذا قدر قد أصحاب رسول الله ﷺ [على دون من هذا وأثر الحَصِيرِ في جنب رسول الله ﷺ]⁽³⁾ النعيم غدا والدنيا سجن المؤمن، قال سليمان بن عبد الله: دخلتُ إلى مروان فقلتُ له: عرض علي ابن القاضي حجة يعني أن يعطيه أجرة على أن يحج عنه فقال لي: إن أنت أخذت الأجرة اشتريت منها جملاً بعشرة دنانير، وأنفقت الباقي فيموت الجمل في قابس، وتمرض أنت في طرابلس فيردونك ويرمونك في السجن تترك الله عز وجل، تحج له وتُلَبِّي له وتأخذ من الناس فَتَحُجَّ لهم، لقد خرجتُ من هذه الغرفة إلى مَكَّةَ بَعْصَا في يدي إلى أن وصلتُ إلى سُقْيَا يزيد وليس معي غير قيراط فاشتريتُ به تمرأ ورفعنا من سقى يزيد فمات رجلٌ من أهلِ بَرْقَةٍ فأوصاني بأربعة عشر دينار وبغلته وثيابه فقالوا: خُذْهَا، فقلتُ: أنا في غِنَى وليس معي من الدنيا حَبَّةٌ، فوصلنا إلى المدينة فدخلنا مسجد رسول الله ﷺ تسليماً كثيراً فقعدتُ حتى صليتُ الظُّهْرَ والعَصْرَ، والناس في حوائجهم وليس معي ما نرهن ولا ما نبيع، ثم خرجتُ أريدُ الرُّفْقَةَ وإذا برجلٍ مبيض فعنقني وقال: مرحباً ثم أخرجَ صَرَّةً فجعلها في يدي فلا أنسى طيب رائحته فالتفت إليه ودعوتُ له فأنفقت منها حتى وصلتُ إلى هذه الغرفة وتصدقْتُ بالباقي. قال سُليمان: فخرجت من عنده إلى أبي ميسرة فشاورته في أخذ الحجة فقال لي: إن رجلاً أتى إلى ابن المنكدر يسأله في أخذ حجة فقال له: أما تستحي من الله تبيع⁽⁴⁾ الناس أمتعتهم وتبيع أنت لَبَيْكَ اللَّهُمَّ لَبَيْكَ. وَرُوي: أن مروان أشرف ذات ليلة من سطح داره على حارس وهو يراود حدثاً عن نفسه،

(1) في ت: حمديس. (2) في ت: خبراً.

(3) ما بين المعقوفتين سقط من: ط، الزيادة من: ت.

(4) في ت: أن تبيع.

والحدث ممتنع عليه، والحارس يقول: لو نَزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا خَلَصَكَ مِنِّي فسقط مروان من قَامَتِهِ إلى الأرض، وهو يدعو على نفسه، فلما كان في الليلة الثانية؛ تنازع ذلك الحارسُ مع قوم من الحَرَسِ، فضربه أحدهم بسكين فقتله. وروى أبو بكر بن عبد الرحمن عن الشيخ أبي الحسن القابسي أن مُغْنِيَةً بالقيروان كانت مشهورةً بالغناء في الأعراسِ فحضرت يوماً في دار بجوار مروان العابد، فقام في الليل يُصَلِّي على عَادَتِهِ فما قدر من علو صوتها أن يصلي فقال: اللهم أَرْخِ مِنْهَا حتى سَمِعَ الجيران صَوْتَهُ فلما خرجت هذه الكلمة من فيه، وقعت المرأة مَيِّتَةً. وقال أبو عبد الله ابن أخي مروان: بينما أنا ليلة نائم إذ سَمِعْنَا باب الدَّارِ يَفْتَحُ يعني دار مروان، فخرجت فوجدته مفتوحاً فصعدت إلى الغُرْفَةِ التي فيها عَمِّي فلم أجده، فأعلمتُ وَالِدِي، فلما كان بَعْدَ هُدُوءٍ مِنَ اللَّيْلِ، سمعتُ الباب [بفتح] ⁽¹⁾ فصعدنا إلى الغُرْفَةِ، وإذا بالشيخ جالس فأقسمتُ عليه مراراً لتخبرنا القضية فقال لنا: كان عندي بسر فحملتُ منه إلى فلان الأسود المقيم بهذا الجبل، وهذا كراءه ⁽²⁾ أعطانيه، وكان لمروان اجتماعات بالخَضِرِ عليه السلام وَمَنَاقِبُهُ كثيرة.

قلت: تقدمت حكاية رؤياه له في فضل حَمَّاس بن مروان.

قال: وتوفي لعشرة خَلَوْنٍ من رجب سنة أربعين وثلاثمائة، وصلى عليه القاضي عبد الله بن هاشم وَدُفِنَ بِبَابِ سَلَمٍ وقبره معروف. خرج لجنازته ⁽³⁾ عند الظهر فلم يدفن إلا اصفرار الشمس لزدحام الناس عليه رحمة الله عليه.

200 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق الجَبَلِي ⁽⁴⁾ [بجيم مفتوحة قاضي مدينة بَرَقَة] ⁽⁵⁾.

قال: كان رحمه الله فقيهاً صالحاً فاضلاً.

(1) سقط من ط، وزيادة من: ت.

(2) في ت: كرانا.

(3) في ط: لجازته. التصويب من: ت.

(4) ترجم له في الرياض: 404/2 - 405، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا من المالكية ص: 66 - 68 وفيهما نسبته «الجبلي» بحاء بعدها باء موحدة تحتية.

(5) ما بين المعقوفتين زيادة من: ت، والرياض. إلا أن الرياض لم يذكر لفظة: «بجيم مفتوحة».

قلت: زاد غيره عالماً⁽¹⁾ نظاراً حسن الأخلاق سمحاً.

قال: ولي قضاء بركة لإسماعيل، وكان ابن الكافي عاملاً عليها، فأتى إليه ابن الكافي فقال له: إن غداً العيد فقال القاضي: إن رئي الهلال الليلة كان ما قلت، وإلا فلا يمكنني أن أمر الناس بالفطر في يوم رمضان، وأتقلد ذنوبهم؛ فقال له: بهذا وصل إلي كتاب مولاي، يعني إسماعيل، فالتمس الناس الهلال فلم يروه فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول، والبنود، وهيئة العيد. فقال القاضي: والله لا أخرج ولا أصلي ولا أفطر في يوم من أيام رمضان ولو علقت بيدي، فمضى العامل فجعل من خطب وصلّى وكتب بما جرى إلى مولاه، فلما وصل إليه الخبر أمر برفع القاضي، فلما وصل إلى القيروان قال له: إما أن تتصل بنا ونعفو عنك أو نفعل بك ما قلت، فامتنع من الدخول في دعوته وقال: إفعل ما شئت، فنصب له صارياً عند الباب الأخير⁽²⁾ من أبواب الجامع الذي يلي درب الهذلي، وعلق بيده إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحياً⁽³⁾ في شدة الحر يومه وليلته، فلما كان [بالغد]⁽⁴⁾ مات. وَلِسَانُهُ خَارِجٌ مِنَ الْعَطَشِ وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْ يَسْقِيهِ الْمَاءَ فَلَمْ يُسَقَّ خَوْفاً مِنْ عَامِلِ الْبَلَدِ، فَلَمَّا مَاتَ أَخَذُوهُ وَصَلَبُوهُ بَبَابِ أَبِي الرَّبِيعِ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثُمِائَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَضِيَ عَنْهُ.

201 - ومنهم أبو علي الحسن بن علي المؤدب⁽⁵⁾ المكفوف الفقيه الزاهد^(*):

قال: سمع من محمد بن بسطام، وكان ذا علم وأدب، وشكرٍ وذكورٍ، وجدّ واجتهاد، وإيثار من فاقةٍ وعقل وذكاء. وكان حسن التعبير للرؤيا، كثير العبادة.

(1) في ت: عاملاً. (2) في ت: الآخر.

(3) في ط: ضامياً، وفي ت: صاحياً. والصواب ما أثبتناه من: الرياض: 405/2. والمراد بضاحياً: «علانية» انظر القاموس المحيط مادة «ضحو» ص: 1174.

(4) في ت، والرياض، ونسخة (ق) المعتمدة في تحقيق الجزء 49/3 للأستاذ محمد ماحور: «العشي».

(5) ترجم له في الرياض: 406/2 - 410، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي 516/1 رقم (1068) ط I س 1964 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

(*) في الرياض: «أبو علي المكفوف وهو الحسن بن علي النحوي الزاهد» 406/2 كذا في بغية الوعاة 516/1، ونسخة (ت). أما في النسخة «المطبوعة أبو الحسن علي المؤدب المكفوف» فالتصحيح وقع من: ت، والرياض، وبغية الوعاة.

قلت: وقال أبو بكر المالكي: كان ذا أوصاف جميلة، معروفاً بالإجابة، مُتَقَلِّلاً من الدنيا، «من المؤثرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»⁽¹⁾. وكان عالماً باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بالنحو، واللغة، وعلوم القرآن، وكان حسن التَّعبير، وُلِدَ أَعْمَى، انتفع به خلقٌ من الناس. وكان يُقال⁽²⁾: إنه يَعْرِفُ اسم الله الأعظم. قال بعض⁽³⁾ أصحابه: كنت أسأله أن يعلمني إياه فيأبى فلما ألححت عليه قال: إنك لا تقوى على حمله، علمته مرة لإنسان، ومات وهو شاب وله كرامات مشهورة، وأحواله بها مذكورة.

قال: كان لا يدخر شيئاً لِعَدٍ يأخذ القوامَ وَيَجُودُ بِالْفَاضِلِ. قال أبو عبد الله الحنَّاط: كنت أخدمه فأقام ثلاثاً لم يطعم فأردت الانصراف فقال: أجلس حتى تتغدى، فما كان بأوشك من أن دخل أبو عبد الله السرغيني⁽⁴⁾ المتعبد بِسَكْبَاجٍ وخبز فُرْنٍ، فأكلنا فقلتُ له: أكنُت مع الشيخ في وعد؟ قال: لا والله إلا إن عجلة جاءت من القرية فعمدنا منها للشيخ وقال الحنَّاط⁽⁵⁾ أيضاً: تصدق الشيخ بِجُبَّتِهِ يوماً، وبقي عَرِياناً فقلتُ: هذا أمر مرفوع عنك لأنك في فاقة. فقال: اجلس، فليس نُصَلِّيَ حتى يأتي ما هو خير إن شاء الله، فدخل ابن كندوس المقدم، ومعه غلامه يحمل رزمة فيها جُبَّةٌ شرفي⁽⁶⁾ دقيقة، ومنديل مهلبى، وكساء وانصرف فقال: يا حنَّاط⁽⁷⁾ أعطيناه جُبَّةً خلق، فعوضنا جبة جديدة وزيادة منديل ومئزر ونفقة كبيرة⁽⁸⁾. وتوفي يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، وصلى عليه عبد الله بن هاشم ودفن بباب سلَّم رحمة الله عليه.

(1) هذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9].

(2) القول ورد مُسْنَداً في الرياض في قول: ذكر الأجدابي الفقيه عن أبي محمد عبد الله بن نصر الخياط أنه كان يقال: إن أبا علي المكفوف يعرف... 407/2.

(3) في الرياض: «قال عبد الله فكنت إذا سأله...» 407/2.

(4) في الرياض: الرعيني.

(5) اسم الحنَّاط ورد في الرياض: أبو محمد الخياط.

(6) في الرياض: شرب ربيعة مستعملة 408/2.

(7) في الرياض: يا خياط.

(8) الخبر في الرياض: 408/2.

202 - ومنهم أبو حفص عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَسْرُورِ الْعَسَّالِ⁽¹⁾:

سمع من أبيه، وأبي بكر بن اللباد. وبمصر من أبي بكر بن العلاء.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان عالماً، خيراً، فاضلاً، فقيهاً، ثقة، جيد الحفظ، مُفْتِي أهل زمانه، ذَا سَمْتٍ وَصِيَانَةٍ، لم يغمض عليه أمر في حَدَائِثِهِ، ولا في كبره، وكان الشيخ أبو إسحاق السبائي يُجِبُّهُ وَيُعَظِّمُهُ، ويقوم له دون غيره. وكان أيضاً يقول: مَا يَطِيبُ عَلَى قَلْبِي فِتْيَا أَحَدٍ مِثْلَ فِتْيَا أَبِي حَفْصٍ، لأنه كان يشوب^(*) فِتْوَاهُ بَوَرَعٌ وَخَوْفٌ وَشِدَّةٌ مِرَاقِبَةٌ، وإشفاقٌ وَحَذَرٌ؛ وكان يقول: إذا أردت أن ترى العالمَ العاملَ فعليك بأبي حفص، جمع الله فيه خصالَ الخير كلها.

قلت: ودخل على أبي إسحاق يوماً فقام إليه وتلقَّاهُ وصافحه وقال له: ما الَّذِي أَتَى بِكَ؟ فقال: ضاقت^(**) نفسي وَأَظُنُّ أَجَلِي قَدْ قَرُبَ، فأردتُ أَنْ أُجَدِّدَ⁽²⁾ عَهْدَكَ، فقال له أبو إسحاق: جمع الله شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ بِكَ وَأَبْقَاكَ لَهُمْ⁽³⁾. وكان أبو القاسم بن شَبْلُون يقول: أبو حفص أفقه من أبي سعيد بن أخي هشام، وكان أبو جعفر الأجدابي يقول: أبو سعيد أحفظ وأفقه.

ذكر موته رحمه الله وما يتعلق بذلك

قال: ولما مات أبو حفص، كان أبوه يقرأُ حزبه في المصحف فقال: رحمك الله يا ولدي، فلقد كنت صَوَّاماً، قَوَّاماً، حافظاً لكتاب الله؛ عالماً بسنة رسول الله ﷺ، ولقد طمعتُ أَنْ أَكُونَ فِي صَحِيفَتِكَ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كُنْتُ فِي صَحِيفَتِي، ثم أقبل على قراءته.

(1) ترجم له في الرياض: 411/2 - 413، ترتيب المدارك: 390/3 - 392.

(*) في ت: يشرب.

(**) محو في: ت.

(2) في الرياض: «أن أحدث بك عهداً» 411/2.

(3) الخبر في الرياض: 411/2.

قلت: أصل هذا الكلام عن الشيخ أبي الحسن القابسي. وفي نقل الشيخ له بتر؛ قال القابسي: دخلت على أبي عبد الله محمد العسال وابنه أبو حفص في النزع، وهو جالس وفي يده جزء من القرآن، وفي المجلس أبو سعيد بن أخي هشام، وابن التبان، وابن أبي زيد⁽¹⁾، والشيخ على حاله يقرأ حزبه بهذا طاق في داره، ثم يحول وجهه إليهم فيقول: كيف رأيتم أبا حفص؟ فتقول الجماعة بخير إن شاء الله، إلى أن مات فرحموا وسكتوا فحول الشيخ وجهه وقال: مات أبو حفص⁽²⁾. قلنا: نعم أصلحك الله وجبر مصابك فثنى الجزء ولم يطبقه ثم حول وجهه إليه وهو جالس في مكانه فقال: رحمك الله يا بني، فلقد كنت صواماً إلى آخر ما تقدم وزاد قبل قوله، ثم أقبل على قراءته، خذوا في غسله وشأنيه، وهذا غاية الامتثال في الصبر لقضاء الله تعالى وقدره. وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصبر عند الصدمة الأولى»⁽³⁾ وقال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 155، 157] وقال أبو القاسم بن سبلون لما مات أبو حفص وغسل وكفن، وأبوه أبو عبد الله حاضر، ومن تقدم ذكره وأبو الأزهر بن معتب وغيرهم من أهل العلم؛ قال قائل لأبيه ما أعظمها من مصيبة قال له: لا تفعل ثواب الله خير منه، ولقيه المهدي فقال: عظم الله المصاب بأبي حفص، فقال: ثواب الله خير منه، ثم قال أبوه: رحمك الله يا أبا حفص، فلقد كنت مباركاً علينا في دنيانا وفي أخرانا؛ أما دنيانا فكان يجري قوتنا على يديك^(*) وأما أخرانا فكنت أقول: لعلي أكون في صحيفتك، فقد صرت في صحيفتي.

(1) لم يرد تسمية هؤلاء الأعلام في الرياض، فالوارد: «وكان في المجلس جماعة من الفقهاء» 412/2.

(2) الخبر في الرياض: 412/2.

(3) الحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجنائز (31) باب زيارة القبور حديث (1283) برواية أنس بن مالك بلفظ أطول، قوله ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى». وبنفس لفظ الموضوع ورد في نفس الكتاب، باب الصبر عند الصدمة الأولى حديث (1302)، وأخرجه أيضاً في كتاب الأحكام، باب ما ذكر أن النبي ﷺ لم يكن له بواب، حديث (7154).

- ومسلم في الصحيح، كتاب الجنائز (8) باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى حديث 14 - (926) ص: 439.

(*) في ط: يديه. التصويب من: ت.

قال: ولما مات كتب أبو إسحاق السَّبَّائِي لأبيه: أنت كنت تريد للدين، وأنا كنت أريده للآخرة، فأنا أحقُّ مِنْكَ بالتَّعْزِيَةِ فيه. وتوفي نصف شعبان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وَصَلَّى عليه أبوه ودفن بباب أبي الربيع وهو ابن ست وأربعين سنة.

قلت: وقال أبو بكر المالكي: توفي وسنه نحو من أربعين سنة⁽¹⁾ ولم يذكر عياض غيره.

203 - ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون⁽²⁾ التميمي⁽³⁾ إمام الجامع بالقيروان:

قال: سمع من جبلة بن حمود وغيره؛ ورحل إلى المشرق فسمع من جعفر بن محمد بن عبد السلام البزار وغيره؛ وسمع منه جماعة من الناس، وكان فقيهاً صالحاً عابداً، ذَا حَجٍّ وَرِبَاطٍ وَسِيَّاحَةٍ، كريم الأخلاق، له مروءة وتواضع، طلب العلم، وَجَوَّدَ الْقِرَاءَاتِ، وكتب الحديث، ولقي الناس بالمشرق والمغرب وسكن قَصْرَ أَبِي الْجَعْدِ وكان يُقِيمُ به ثلاثة أشهر، ويرجع إلى أهله بالقيروان فيقيم عندهم ثلاثة أشهر، قال سعيد الأندلسي الفقيه: وكان فاضلاً كُنْتُ مع أبي هارون الأندلسي، وأبي العلاء الأندلسي، وأبي بكر بن سَعْدُون في قَصْرِ لَمْطَةَ في بيتٍ فخرج ابن سعدون في ليلة مظلمة وخرجت بعده، وإذا به قائمٌ في وسط القصر يدعو، ونورٌ سَاطِعٌ قد جَلَّلَهُ من أعلاه إلى أسفله، ورأيتُه قد رفع يديه بالدُّعَاءِ، والنُّورُ يخرجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ومن أطراف أنامله كالمصاييح، وكان رحمه الله يتمثل ويقول:

إِذَا الْقَوْتُ تَأْتَى لَكَ وَالصُّحَّةُ وَالْأَمْنُ
وَأَضْبَحْتَ ذَا⁽⁴⁾ حُزْنٍ فَلَا فَارَقَكَ الْحُزْنُ

(1) الرياض: 411/2.

(2) في ط: مسعود، التصويب من الرياض، ولقد أشار الأستاذ ماخور في هامش الكتاب 52/3 أن نسخة «ق» التي يقابل عليها ورد باسم: «سعدون»، وكذا في نسخة: ت «سعدون». قال: وهو الصواب لذكره بذلك كثيراً في هذه الترجمة وغيرها، معالم الإيمان طبعة المكتبة العتيقة بتونس.

(3) ترجم له في الرياض: 414/2 - 418.

(4) في الرياض: أ خا 418/2.

ومن قوله :

سِجْنُ اللِّسَانِ هُوَ السَّلَامَةُ لِلْفَتَى مِنْ كُلِّ نَازِلَةٍ لَهَا اسْتِثْصَالُ
إِنَّ اللِّسَانَ إِذَا حَلَلْتَ عِقَالَهُ أَلْقَاكَ فِي شَنْعَاءٍ لَيْسَ تُقَالُ⁽¹⁾

ومن قوله رحمه الله :

الْخَيْرُ أَجْمَعُ فِي السُّكُوتِ وَفِي مَلَاذِمَةِ الْبَيْتِ
فَإِذَا تَهَيَّأَ ذَا وَذَا فَاقْنَعْ إِذَا بِأَقْلٍ قُوتِ

قال : قال أبو الحسن الزعفراني : حضرت⁽²⁾ مسجد السبت ومعنا فيه أبو بكر بن اللباد الفقيه، وأبو بكر بن سعدون الإمام فقال بعض القوالة⁽³⁾ :

لَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْ حَبِيبِكَ شَاغِلٌ فَإِذَا فَعَلْتَ فَإِنْ حُبَّكَ بَاطِلٌ

فتحرك محمد بن أبي سهل الصوفي، وكان خيراً واستغرقه الحال، فما بقي أحد بالمسجد إلا بَكَى لِصِدْقِهِ فِي حَرَكَتِهِ، ونظرتُ إلى أبي بكر بن اللباد وإن دُمُوعَهُ لَتَنَحْدِرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وإلى ابن سعدون وقد عَلَا نَجِيبُهُ⁽⁴⁾. توفي أبو بكر سنة أربع وأربعين وثلاثمائة.

قلت : وقيل : سنة خمس .

قال : وهو ابن ست وسبعين سنة وَدُفِنَ بِبَابِ سَلَمٍ رحمه الله .
قلت : وكان أبوه سعدون رجلاً صالحاً غزاً سِرْدَانِيَّةً⁽⁵⁾ وَشَقَّ سِمَاطَ الْقَيْرَوَانِ رَاكِباً فَرَساً يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ؛ وَاسْتُشْهِدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِسِرْدَانِيَّةٍ .

(1) الأبيات في الرياض : 418 / 2 . (2) في الرياض : حضرنا 417 / 2 .

(3) في الرياض : فافتتح بعض القوالين فقال 417 / 2 .

(4) الخبر في الرياض : 417 / 2 .

(5) سردانية : جزيرة على طرف من البحر الشامي، كبيرة النظر، كثير الجبال، قليلة المياه، طولها مائتان وثلاثون ميلاً، وعرضها من الغرب إلى الشرق مائة وثمانون ميلاً، وأهلها في الأصل من الروم، قيل سميت سردانية باسم ساردوس بن هرقل. الروض المعطار ص: 314 مادة «سردانية». وقال عبد الله البكري في كتابه المسالك والممالك: ويقرب جلولاً (مدينة تبعد عن القيروان 24 ميلاً) مُتَنَزَّةٌ يُعْرَفُ بِسِرْدَانِيَّةٍ لَيْسَ بِإَفْرِيقِيَّةٍ مَوْضِعٌ أَجْمَلُ مِنْهُ... 205 / 2 . وهي اليوم جزيرة إيطالية في البحر التيراني يفصلها مضيق بونيفاسيو عن كورسيكا غزاها العرب سنة 710 م.

204 - ومنهم أبو بكر محمد ابن الفتح المؤدب⁽¹⁾ المعروف بابن الصَّوَّاف:

المقرئ. قال: سمع من فُرات بن محمد، وأبي الفصل السوسي وغيرهما.
قال أبو بكر المالكي: «وكان على هدى وَسُنَّة، مجانباً لأهل البدع، فاضلاً صالحاً
حافظاً مُجَوِّداً للقرآن، حَسَنُ اللَّفْظِ به جداً»⁽²⁾.

قال: وَأَمَّ النَّاسَ بجامع القيروان، وتوفي في ذي الحجة سنة أربع وأربعين
وثلاثمائة، وقيل⁽³⁾ بل توفي سنة خمس.

قال: وصلى عليه عبد الله بن هاشم القاضي وَدُفِنَ ببابِ سَلَمَ رحمه الله تعالى.

205 - ومنهم أبو جعفر أحمد بن إسماعيل الخطيب إمام جامع القيروان:

قال: كان فاضلاً.

قلت: زاد غيره رجلاً صالحاً.

قال: عرض له بَلْغَمٌ⁽⁴⁾ وهو يخطبُ على المنبر، وقد بلغ من الخطبة إلى
قوله: «أوصيكم عبادَ الله بِتَقْوَى الله». فسكت وَأُنْزِلَ من أعلى المنبر محمولاً فمات
ليلة السبت بعد صلاة المغرب.

قلت: وأتم الخطبة أبو الحسن بن شعبان الإمام وصلى بالناس، وظاهرُ هذا
اللفظ يقتضي أنه بنى على ما مضى من خُطْبَتِهِ الأولى، وهذا واضح ولا يختلف فيه
وإنما الخلافُ إذا عزل هل الحكم كذلك أو يبتدي القادم على قَوْلَيْنِ، وَدُفِنَ أبو
جعفر يوم السبت عند صلاة الظهر في الوقت الذي كان يَخُطُبُ [فيه بالناس]^(*).

قال: وكانت وفاته في رمضان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وصلى عليه
عبد الله بن هاشم وَدُفِنَ بباب أبي الربيع رحمة الله عليه ورضوانه لديه.

(1) ترجم له في الرياض: 418 / 2 - 419 وفيه اسمه «أبو بكر ابن الفتح المؤدب» وشجرة النور
الزكية 126 / 1 رقم 204.

(2) لم يرد لهذا النص ذكر في الرياض للمالكي.

(3) في ت: «قلت» وقيل.

(4) بَلْغَمٌ: خِلْطٌ من أخلاطِ الْبَدَنِ. القاموس المحيط مادة «بلغم» ص: 975.

(*) ما بين المعقوفتين سقط من: ت.

206 - ومنهم أبو العباس الفضل بن نصر الباهي⁽¹⁾ المعروف بابن الرئيس⁽²⁾:

قال: كان فقيهاً صالحاً، يميلُ إلى مذهب الشافعي، وإلى النظر والحُجَّة.

قلت: وقال أبو بكر المالكي: «كان عالماً بمذهب الشافعي»⁽³⁾. وهذه العبارة ليس فيها ما يدلُّ على أنه يميلُ إلى مذهب الشافعي، فهو عالم بمذهبه فقط. ولا يلزم من ذلك أن يميلَ إليه، فهو خلاف ما ذكر الشيخ والله أعلم. وقد كان الشيخ أبو بكر الباقلاني⁽⁴⁾ مالكي المذهب، وكان يقرئ الأربعة مذاهب، ويذكر كل مذهب وحُجَّتَه، ثم يُرجِّحُ مذهب مالك.

قال: سكن سُوسَة ثم انتقل منها إلى القيروان، وكان له حظٌّ من قيام الليل، كان يُصَلِّي كُلَّ لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، يَخْتِمُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَكَانَتْ لَهُ هِمَّةٌ وَرِثَاسَةٌ بِالْقَيْرَوَانِ، وَحُسْنُ هَيْئَةٍ، وَلَهُ شِعْرٌ رَائِقٌ، وَأَدَبٌ عَظِيمٌ، وَلَهُ مَرَاثِي رَثِي بِهَا وَلَدُهُ، وَكَانَ فَقْدَ بِالْجَزِيرَةِ وَلَهُ مُحَاطَبَاتٌ.

قلت: وقال أبو بكر المالكي: وكتب له بعض إخوانه يُعَزِّيهِ فِي ابْنٍ لَهُ قُتِلَ فِي نَاحِيَةِ الْجَزِيرَةِ، فَكَانَ فِي بَعْضِ جَوَابِهِ: وَصَلَ كِتَابُكَ يُحَرِّكُ⁽⁵⁾ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِكَ، وَيُهِيجُ⁽⁶⁾ صَبَابَةً إِلَى الْاجْتِمَاعِ بِكَ، وَأَعْلَنَ إِلَى عَذْرِ الدَّارِ، وَبُعْدِ الْمَزَارِ شَخْصَكَ، وَصَوَّرَ لِي عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَمَثَّالَكَ، وَقَفْتُ عَلَى مَا وَعَظْتَ وَعَزَّيْتَ عَلَيْهِ، فَتَبَّهَ مَنِي⁽⁷⁾ غَفْلَةً، وَأَيْقَظَ مَنِي رَقْدَةً، وَذَكَرَ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ بَنِ حَمَادٍ:

وَهَوْنٌ وَجَدِي أَنَّنِي بِكَ لِأَحَقُّ وَإِنْ بَقَائِي فِي الْحَيَاةِ قَلِيلُ
وَأَنْ لَيْسَ يَبْقَى لِلْحَبِيبِ حَبِيبُهُ وَلَيْسَ بَبَاقٍ لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ
وَلَوْ أَنَّ طَوْلَ الْحَزَنِ مِمَّا يَرْدُهُ لَلَا زَمَنِي حَزَنٌ عَلَيْهِ طَوِيلُ

(1) في الرياض: التاهرتي 419 / 2، وفي ت: الباهلي.

(2) ترجم له في الرياض: 419 / 2 - 421.

(3) الرياض: 419 / 2.

(4) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني القاضي، أصله من البصرة، وعاش في بغداد مُلقَّبَ بِشَيْخِ السُّنَّةِ، وَلِسَانِ الْأُمَّةِ، يُعَدُّ أُنْبَى مُتَكَلِّمِي الْمَدْرَسَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ. تُوْفِيَ سَنَةَ 403 هـ / 1013 م. ترجم له في الديباج المذهب ص: 363. للمزيد انظر مصادر ترجمته في كتاب: تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين 384 / 2 - 385.

(5) في الرياض: فَجَدَّدَ 420 / 2، وفي ت: فجد.

(6) في الرياض: وَهَيَّجَ 420 / 2. (7) في ت: في.

وما ذكره المالكي من كون ولده قتل، هو أخص من قول الشيخ فقد قال: وله معاتبات بينه وبين الفقيه أبي العباس الأبياني منها:

مَاذَا تُرِيكَ حَوَادِثُ الْأَزْمَانِ
وَالجَارِيَّاتِ السَّبْعِ فِي الْفُلْكِ الَّذِي
مِنْ خَفَضِ أَعْلَامٍ وَرَفَعِ مَعَاشِرِ
وَأَشَدَّ مَا أَلْقَى وَأَنْضَجَ لِلْحَشَا
أَمَّا الزَّمَانُ فَوَاعِظٌ لَكَ صَرْفُهُ
هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ وَاحِدَ عَضْرِهِ
انْبَتَ بِهِ أَخْلَاقُهُ عَنْ وَصْلِنَا
إِنِّي أَتَيْتُكَ شَاكِيًا وَمُخْبِرًا
قُلْتُ: وَمِنْ شَعْرِهِ أَيْضًا:

بَلِّغِ الْوُشَاةَ عَلَيَّ حَيْثُ أَرَادُوا
وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي مَا قُلْتُ مَا
فَهَبِ الْوُشَاةَ أَتَوْا بِأَمْرِ بَيِّنٍ
عَفُوُ الْمُلُوكِ عَنِ الذُّنُوبِ مَدَائِحُ
وَاللَّهُ يَسْأَلُهُمْ وَمَا قَدْ كَادُوا
قَالَ الْوُشَاةُ تَافِكًا وَأَعْتَادُوا
أَيْنَ الْكِرَامِ أَبْدَلُوا أَمْ عَادُوا
مَدَحُوا بِهَا فِي نَفْسِهِمْ وَأَجَادُوا

قال: توفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وصلى عليه القاضي عبد الله بن هاشم ودفن بباب سلم رحمة الله عليه.

قلت: وقال غيره توفي يوم الاثنين لست بقين من شهر رمضان سنة خمس والصحيح هو الأول لقول المالكي توفي سنة أربع.

207 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن هاشم بن مسرور⁽¹⁾ الثَّجِيبِي المَعْرُوفُ بِابْنِ الْحَجَّامِ⁽²⁾:

قال: سمع من محمد بن سحنون، وعيسى بن مسكين، وأحمد بن أبي

(1) ترجم له في طبقات الخُشَنِيِّ ص: 231 رقم 73، الرياض: 2/ 422 - 424، الديباج المذهب ص: 220، شجرة النور الزكية 1/ 127 رقم 209.

(2) في ط و ت: وترتيب المدارك: الحجاج. التصويب من كتب مترجميه.

سُلَيْمَان، ومحمد بن بسطام، وسعيد بن إسحاق، وفُرات بن محمد وغيرهم؛ وسمع منه أهل مصر، والإسكندرية، وطرابلس، والأندلس وإفريقية.

قلت: منهم أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القابسي.

قال: كان عالماً صالحاً ورعاً، ذَا سَمْتٍ وَخَشْيَةٍ، غَزِيرَ الدَّمْعَةِ، فَاضِلاً مُجَانِباً لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ⁽¹⁾ وَالْبِدْعِ، لَا يَرُدُّ السَّلَامَ عَلَيْهِمْ، مُهَاباً فِي نَفْسِهِ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يَنْطِقُ فِي مَجْلِسِهِ بِغَيْرِ الصَّوَابِ، امْتَحَنَ فِي شَبَابِهِ عَلَى يَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْمُرُودِيِّ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ فَنَجَّاهُ اللَّهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ لَصِرَامَتِهِ فِي الْحَقِّ. رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ إِخْوَانِهِ اشْتَرَى لَهُ جَارِيَةً وَأَدْخَلُوهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ أَخَذَ فِي الْكُتُبِ فَكَتَبَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ثُمَّ كَذَلِكَ نَحْواً مِنْ شَهْرٍ⁽²⁾ فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهَا قَالَتْ لَهُ: إِنْ كُنْتُ لَا تَصِلُ إِلَيَّ، وَلَيْسَ لَكَ فِي غَرَضٍ فَبِعْنِي فَقَالَ: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: جَارِيَتُكَ فُلَانَةُ، فَقَالَ لَهَا: أَنَا مَا اشْتَرَيْتُ جَارِيَةً وَلَكِنْ امْضِي إِلَى الَّذِينَ اشْتَرَوْكَ بِبِعُونِكَ ففعلت. قلت: نَاقِلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ⁽³⁾. فَذَكَرَ أَنَّ أَهْلَهُ اشْتَرَوْا لَهُ جَارِيَةً، وَأَنَّهُمْ زَيَّنُوهَا [لَهُ]⁽⁴⁾ وَهَذَا أَخْصَصَ مِنْ إِسْقَاطِ الشَّيْخِ تَزْيِينَهَا، وَمَحَلَّ تَدْخِيلِهَا عَلَيْهِ، إِنَّهُمْ وَهَبُوهَا لَهُ، وَعَرَفُوهُ بِذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال: وربما كان يصنع له مطر من الحبر من كثرة كُتْبِهِ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْ وَلَمْ يَتَسَرَّ حَتَّى مَاتَ شَهِيداً بِحَرَقِ النَّارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ اصْطَلَى وَنَعَسَ فَالْتَهَبَ النَّارُ فِي ثِيَابِهِ حَتَّى احْتَرَقَ جَسَدُهُ كُلَّهُ إِلَّا مَوْضِعَ السَّجُودِ مِنْهُ، وَلَهُ تَأْلِيفٌ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَاقْتَنَى كُتُباً كَثِيرَةً مِنْ جَمِيعِ الْعُلُومِ وَزُنُّهَا سَبْعَةُ قَنَاطِيرَ، كُلُّهَا بِخَطِّهِ حَاشَا كِتَابِينَ.

قلت: قال الشيخ أبو الحسن القابسي: فكان لا يحتمل أن يراها من أجل أنهما ليسا بخط يده.

قال: وحبس جميعها فلما توفي أخذ أكثرها السلطان إذ لم يكن له عاصب، ولم ينتفع الناس منها إلا بما كان وهبه لأبي محمد بن أبي زيد وذلك مقدار الثلث.

(1) في ط: الهواء. والصواب ما أثبتناه من: ت.

(2) في ت: أشهر.

(3) الخبر في الرياض: 324/2.

(4) سقط من: ت.

قلت: هذا كلام فيه إجمال وبسطه كما قال المالكي: إنه كان أشير عليه أن يحبسها وأن يبعث بثلاثها إلى أبي محمد بن أبي زيد، وبثلاثها إلى فلان، وبثلاثها إلى آخر، خوفاً من السلطان أن يأخذها ففعل، ثم أصبح فقال: ما نمت البارحة لما فقدت كُتبي رُدُّوها علي فردوا عليه الثلاثين، ولم يبق إلا ما أخذ منه ابن أبي زيد انتفع الناس به، وأخذ الأمير الثلاثين الذين كانا عنده حين موته⁽¹⁾.

قلت: ومحملة أنه لم يبت بتحبيس الثلاثين، وإنما بعث بذلك ليشهد بتحبيسهما فلم يعزم على ذلك، وردهما وبتل ما حبسه على ابن أبي زيد، وتعبير الشيخ بالهبة مغاير للفظ التَّحْيِيس، لأن الهبة يجوز له معها⁽²⁾ [أن يبيعها وينتفع بثمنها بخلاف التحبيس وذكر عنه أنه انتظر يوماً]⁽³⁾ في حضور السماع فطال الانتظار، فقال أبو القاسم الفيزاري الشاعر: أصلحك الله حضرني بيت من الشعرِ تسمعه إن شئت فقال: نعم، فأنشده:

مَثَلُ جَرَى فِي النَّاسِ لَيْسَ بِقَاصِرٍ⁽⁴⁾ جُوعُ الْجَمَاعَةِ فِي انْتِظَارِ الْوَاحِدِ

فأمر بالقراءة، وقد كان نبذ جماعة من أصحابه لأشياء اطلع عليهم فيها وكتب عليهم سجلاً يقول فيه: يشهد من يَتَسَمَّى في هذا الكتاب أن عبد الله بن مسرور، أشهدهم أن فلاناً وفلاناً كانوا يأخذون عني شيئاً من العلم، وسألوني أن أجير لهم كُتبي ففعلت، فاشهدوا علي أنني رجعتُ فيما رَوَوْا عَنِّي، وعن إجازتي لهم كُتبي لما ظهر فيهم من سوء حالهم، وكذا وكذا، قال عياض: «مثل هذا لَا يَضُرُّ الرواية، وقد فعله بعض من لقيناه ببعض من سخطه من أصحابه، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَخَفَ عليهم أن الرجوع فيه لَا يَصِحُّ، لَكِنَّهُ كَالرَّدِّعِ والتجريح لهم بمثل هذا»⁽⁵⁾.

قال: وتوفي ليلة الجمعة لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة⁽⁶⁾. ودفن بباب سلم قرب شُقْرَانِ وأبي مَيْسَرَةَ رحمة الله عليه.

(1) انظر الخبر في الرياض: 2 / 423. (2) في ت: منعها.

(3) ما بين المعقوفتين سقط من: ت. (4) في الرياض: بقاصد 2 / 424.

(5) ترتيب المدارك 3 / 343 (طبعة بيروت).

لقد بيّن القاضي عياض هذا الفشل في كتابه «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقبيد السماع».

(6) لقد زاد القاضي عياض في قوله: وسنه سبع وثمانون سنة. مولده سنة ثلاث وستين ومائتين وكان سبب موته، أنه اصطلى ونعس، فالتهمت النار بشيابه، واحترق إلا موضع سجوده. ترتيب المدارك 3 / 343.

208 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن مسرور العَسَّال رحمه الله⁽¹⁾ :

قال: سمع من يحيى بن عمر، وأحمد بن مُعْتَب، وعبد الجبار بن خالد، ومن أخيه عمر بن العَسَّال وغيرهم؛ وأخذ عنه الناس.

قلت: منهم الشيخان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القابسي.

قال: وكان من أهل العلم والعبادة كثير الصوم، يختم كل ليلة ختمة، وكان فاضلاً جليلاً.

قلت: وقال غيره: كان زاهداً وشهر بالخير والصلاح وإجابة الدعاء⁽²⁾، وكان الناس يقصدون إليه ويطلبون منه الدعاء ويتبركون ببلقائه ورؤيته.

قلت: وتقدم كمال صبره في موت ولده مفتي الوقت أبي حفص عمر وفي ذلك كفاية في كمال فضله ودينه.

قال: وكان جميع أهل داره عبّاداً كُلُّهُمْ لهم صلاة بالليل.

قلت: ظاهر هذا اللفظ يقتضي أنّ أهل داره يقومون بعض الليل لا كُلّه، ويأتي من نقله ما يَرُدُّه وهو خلاف قول عياض: «كان يقوم الليل كله، وكل مَنْ في داره»⁽³⁾.

قال: قال الشيخ أبو الحسن القابسي: باع الشيخ خادماً أعجمياً فهربت من دارٍ مُشْتَرِيها إليه وقالت: بِعْتَنِي من قوم لا يُصَلُّون بالليل! أَضُنُّهُمْ يهوداً إذ كان كل من بداره يقومون بالليل قوم بعد قوم، لا تهدأ لهم جَرَّارَةٌ⁽⁴⁾ بالليل أجمع⁽⁵⁾.

قال: وتوفي ليلة السبت لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

قلت: وهو ابن ست وتسعين سنة.

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك: 389 / 3 - 390، شجرة النور الزكية 1 / 127 رقم 205.

(2) في ت: الدعوة.

(3) ترتيب المدارك 390 / 3 (طبعة بيروت).

(4) جَرَّارَةٌ: دَوْلَبٌ مصنوع من حديد يُطَوَّقُ بخيط غليظ طويل لجذب الماء من البئر.

(5) انظر الخبر في ترتيب المدارك 390 / 3.

قال: وصلى عليه عبد الله بن هاشم، ودفن بباب أبي الربيع وقبره مزارٌ معلومٌ، وعرفني من نثق به عن المرابط أبي سعيد الكنائسي وكان جَيِّداً أَنَّهُ قال: بينما أنا بقرب حُوطة الشيخ أبي عبد الله محمد العَسَّال إذ غارت على خيل فبادرت الخيل إليّ فلم يروني وأنا أراهم، فقال بعضهم: رأيتَه في هذا المكان، وعمل بركيز مزاولة فجاء على خدي وأنصرفوا عني ولم يروني.

209 - ومنهم عمرون بن مَسْرُور العَسَّال أخو أبي عبد الله:

قال: كان شيخاً مُتَعَبِّداً، فاضلاً، سَمِعَ من يونس بن عبد العلاء ومحمد [بن عبد الله]⁽¹⁾ بن عبد الحكم، وسمع منه أخوه أبو عبد الله توفي قديماً.

210 - ومنهم هاشم بن مسرور العَسَّال أخو أبي عبد الله وعمرون:

قال: كان ثقة، كثير الصلاة، ملازماً للمسجد، وكان من أجل ذلك يُسَمَّى حَمَامَةَ المسجد، وهو الأوسط من إخوته، سمع من أحمد بن يزيد، وعبد الرحمن بن محمد التزري^(*)، وكان يميلُ إلى الحديث. سمع منه أبو محمد بن الحَجَّام. وتوفي قبل إخوته رحمة الله عليه.

211 - ومنهم أبو حفص عمرون بن خيرون رحمه الله:

قال: كان رجلاً صالحاً ثقة، من أهل العلم والتقى، له أفعال جميلة وأحوال سُنية، كثير المعروف والصدقة، له إشارة، سمع من موسى القَطَّان، ومحمد بن بَسْطَام وغيرهما؛ تفوي ليلة الأحد السادس من رمضان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وصلى عليه عبد الله بن هاشم القاضي ودُفِنَ بالرَّمَادِيَةِ رحمه الله.

212 - ومنهم أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن أبي الوليد⁽²⁾:

قال: كان صاحب مظالم القيروان والحاكم بها أيام، أبي يزيد وذلك أَنَّ أبا يزيد خير أهل القيروان من ينصبون لأحكامهم الشرعية فاتفقوا على ابن أبي

(1) ما بين المعقوفتين سقط من: ط. التصويب من: ت، وترتيب المدارك. ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم له ترجمة وافية فيه ترتيب المدارك 62/3 - 70.

(*) في ت: التوزري.

(2) ورد ذكره في الرياض: 306/2 و342، البيان المغرب: 285/1.

الوليد لدينه وفضله، وكان أيضاً يتولّى الصَّلَاةَ والخطبة بالجامع الأعظم بالقبروان، وكان خطيباً بليغاً ورجلاً صالحاً عدلاً في أحكامه.

قلت: وتقدّم ما خطب به حيث حثّ النَّاسَ على جهاد من كان بالمهدية وذلك يكفي في معرفته وفصاحته وكونه، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال: وكان أبوه رجلاً صالحاً، عدلاً، إمامَ الجامع في زمان إبراهيم بن إبراهيم، توفي أبو إبراهيم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ودفن بباب سلّم، وكان يلبس السَّوَادَ وَيَخْضُبُ⁽¹⁾ بِالْحَنَاءِ.

213 - ومنهم أبو يوسف حجاج بن أبي يعقوب السرتي⁽²⁾ رحمه الله:

قال: عَمَلُهُ الْفَقْرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالنَّصِيحَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَمَوْتَ النَّفْسِ وَاسْتِصْغَارِ الدُّنْيَا، ظَهَرَتْ لَهُ إِجَابَاتٌ وَكَرَامَاتٌ، انْتَقَلَ مِنَ الْقَبْرَوَانِ إِلَى مِصْرَ، فَمَاتَ بِهَا وَدُفِنَ بِالْمَقْطَمِ⁽³⁾، وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ أَنَّهُ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا وَهُوَ يَبْكِي حَتَّى حُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ ففَاضَتْ نَفْسُهُ وَقَالَ ابْنُ حَبَانَ: مَا كُنَّا نَظُنُّ إِفْرِيقِيَّةَ أَخْرَجَتْ مِثْلَ حَجَّاجٍ فِي يَقِينِهِ وَثِقَتِهِ وَتَصَحُّيحِ مَعَامِلَتِهِ. وَقَالَ: شَهِدْتُ حَجَّاجًا [وَقَدْ]⁽⁴⁾ قَدِمَ بِشَابٍ وَهُوَ مَرِيضٌ يَزْحَفُ مِنْ شِدَّةِ الْعِلَّةِ، لَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: مَهْنُ أَيْنَ أَنْتَ يَا شَاب؟ قَالَ: مِنْ مَدِينَةِ الْقَبْرَوَانِ اعْتَلَلْتُ فَأَقْعَدْتُ وَأَنَا كَمَا نَرَى فِي فَاقَةِ فَمَسَحَ وَجْهَهُ بِطَرَفِ رِدَائِهِ وَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَحَظَ السَّمَاءَ بِطَرَفِهِ وَقَدْ بَدَرَتْهُ عِبْرَةٌ وَقَالَ: إِلَهِي مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ يَا مُصَرِّفَ الدُّهُورِ بِمَشِيَّتِهِ، ثُمَّ أَشَارَ حَجَّاجٌ إِلَى الشَّابِّ فَقَالَ لَهُ: جِئْتَنِي بِقَصْبَةٍ فَأَتَاهَا بِهَا فَقَالَ لِلشَّابِّ الْمَقْعَدِ: قُمْ عَلَى رِجْلَيْكَ؟ وَأَخَذَ بِضَبْعِيهِ فَأَقَامَهُ عَلَى رِجْلَيْهِ وَأَعْطَاهُ دِرَاهِمَ كَانَتْ مَعَهُ وَقَالَ لَهُ: امشِ فَمَشَى وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الْقَطَّانِ: إِنَّ حَجَّاجًا قِيلَ لَهُ فِي عِلَّتِهِ الَّتِي مَاتَ بِهَا مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: اللَّهُ، وَخَرَجَتْ رُوحُهُ⁽⁵⁾ فَرَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا يُوسُفَ كَيْفَ حَالُكَ وَعَلَى مَا قَدِمْتَ؟ فَضَحَكَ وَقَالَ لِي: مَا الْأَمْرُ الْأَسْهَلُ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا مِمَّا كُنْتُ أَخَافُهُ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَقَالَ

(1) خَضِبَ الشَّيْءُ: لَوَّنَهُ. انظر القاموس المحيط مادة: «خضب» ص: 76.

(2) في ت: الرقاق القبرواني من خيار عباد الله.

(3) في ت: بالمعظم. (4) سقط من: ت.

(5) في ت: نفسه.

غازي المتعبد حججت وأنا شاب، فلما وصلت إلى مصر، دخلت جامع عمرو بن العاص وأنا جائع، فركعت ركعتين فقلت في نفسي والله ما اشتهيئت إلا جُرْدُقاً⁽¹⁾ وَجُبْنًا أكل منه حتى أشبع. قال: وأنا جالس حتى دخل حجاج فركع إلى جانبي فلما سلم أقبل عليّ وسلم فرددت عليه السلام فقال: تحب تأكل شيئاً؟ فلم أجبه، فقام مُبَادِرًا فأتاني بِجُرْدُقٍ وَجُبْنٍ، فوضعه بين يدي وقال لي في أذني: كُلْ شَهْوَتَكَ، وقام إلى عمود يُصَلِّي رحمة الله عليه.

قلت: سلامه عليه وهو جالس بحذائه فيه نظر، وقد حدثني من أثق به أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن الرماح أفتى بأنه بدعة وأن السلام على من يمشي يمر بغيره إلا أن يحمل قوله، فسلم أي قال له: على السَّلَامَة فرد عليه بما جرت به العادة⁽²⁾ والله أعلم.

214 - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السبائي الزاهد⁽³⁾:

قال: سمع من أبي جعفر أحمد بن عبد الرحمن القصري وعليه كان مُعْتَمَدُهُ، ومن أحمد بن نصر، ومن محمد بن مرزوق الطَّيَّار⁽⁴⁾، ومن أبي البشر التونسي.

قلت: واسمه مطر بن بشار.

(1) الجردق: رغيف (بالفارسية).

(2) هذه ليست بعادة بل سُنَّة ورد فيها حديث من الصحيحين من رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف» أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الاستئذان، باب السلامة للمعرفة وغير المعرفة حديث (6236)، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، حديث 63 - (39). وفي رواية: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير» متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان حديث (6232)، (6233)، (6234) برواية أبي هريرة، ومسلم في كتاب السلام، باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير حديث 1 - (2160). وفي هذا بيان واضح من الشريعة؛ كأن ابن ناجي رحمه الله يغيب عنه هذا الأمر.

(3) ترجم له في الرياض: 2 / 469 - 506، ترتيب المدارك 3 / 376، الديباج المذهب ص: 141 - 142، شجرة النور الزكية 1 / 140 رقم 253.

(4) في ت: الطيارة.

ذِكْرُ ثَنَاءِ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ

قال: كان أَوْحَدَ زَمَانِهِ وَرِعًا، وَزُهْدًا، وَعَقْلًا، يُوَالِي فِي اللَّهِ، وَيُعَادِي فِي اللَّهِ، قَوِيًّا فِي إِيمَانِهِ، جَلَدًا فِي نَفْسِهِ، نَزِيهٌ⁽¹⁾ النَّفْسِ، كَثِيرُ الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ، سَرِيعُ الْفَهْمِ فِيمَا يَظْهَرُ مِنَ الْعِلْمِ، لَهُ كِرَامَاتٌ كَثِيرَةٌ وَاسْتِجَابَاتٌ.

قلت: هذا كلام أبي بكر عتيق بن خلف صاحب الافتخار. وقال أبو عبد الله الخَرَّاط: كان من أولياء الله المعدودين الذين ينزل من دعائهم القَطْرُ، وتظهر عليهم البراهين. وقال أبو بكر المالكي: كان رجلاً صالحاً، فاضلاً مشهوراً بالعبادة والاجتهاد، كثير الورع، وَقَافاً عَنِ الشُّبُهَاتِ، رَقِيقَ الْقَلْبِ، غَزِيرَ الدَّمْعَةِ، مُجَابَ الدَّعْوَةِ، حَسَنَ الْأَخْلَاقِ، جَمِيلَ الْأَدَبِ، طَلَّقَ الْوَجْهَ، مَبَايِنًا لِأَهْلِ الْبِدْعِ، شَدِيدَ الْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، قَلِيلَ الْمَدَارَاةِ لَهُمْ، وَلَقَدْ كَانَ مِنَ بِالْقَيْرَوَانِ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، إِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِذَا نَزَلَتْ الْمُعْضِلَاتُ إِلَى مَا يَفْعَلُ، فَإِنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَعَلُوا مِثْلَهُ، وَإِنْ فَتَحَ بَابَهُ فَتَحُوا، وَإِنْ نَطَقَ وَتَكَلَّمَ تَكَلَّمُوا مِثْلَ كَلَامِهِ لِتَقَدُّمِهِ عِنْدَهُمْ وَمَكَانِهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِمَحَنَةِ الْوَقْتِ، وَكَيْفَ تُلْقَى الْحَوَادِثُ. وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ يَصِفُهُ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، وَيَقُولُ: مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ إِلَّا مِنْ بَرَكَتِهِ. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابَسِي مَا انْتَفَعْتُ إِلَّا بِدَعَاءِ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ لِي: أَعَلَا اللَّهُ قَدْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ نَصْرِ لَا تُعَارِضُوا أَبَا إِسْحَاقَ السَّبَّائِي فَلَوْ وَزَنَ إِيمَانُهُ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ لَرَجَحَهُمْ، وَسُئِلَ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فَقِيلَ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ هَلْ تَعْرِفُ أَحَدًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ يُشَبِّهُ أَبَا إِسْحَاقَ السَّبَّائِي؟ فَقَالَ: أَمَّا فِي إِيمَانِهِ فَمَا عَلِمْتُ أَحَدًا يُشَبِّهُهُ فِيهِ، يَعْنِي فِي وَقْتِهِ. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَطَّارُ⁽²⁾: مَا قَلَّدْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ حَتَّى رَأَيْتُ السَّبَّائِي يُقَلِّدُهُ. وَقَالَ الْأَجْدَابِيُّ: بَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: بِالْقَيْرَوَانِ رَجُلَانِ يُدْعَى كُلُّهُمَا بِاسْمِ صَاحِبِهِ، وَهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الدَّبَاغُ، وَأَبُو إِسْحَاقَ السَّبَّائِي يَقُولُونَ: إِنَّ الدَّبَاغَ عَالِمٌ وَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُسَمَّى عَابِدًا لِكَثْرَةِ حَنَانِهِ⁽³⁾، وَصَمْتِهِ، وَسُكُوتِهِ، وَلِينِهِ، وَوُطْأَتِهِ، وَعِلْمِهِ، وَأَبُو إِسْحَاقَ يُسَمَّى عَابِدًا، وَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يُسَمَّى عَالِمًا، لِأَنَّهُ كَانَ يَدْرِي الْعِلْمَ وَيَعْرِفُهُ،

(2) فِي الرِّيَاضِ: الْقَطَانُ 2 / 471.

(1) فِي ت: قَوِي.

(3) فِي الرِّيَاضِ: حَيَاةُ 2 / 472.

ويتذاكر العلماء بحضرته، وفي مجلسه ابن أبي زيد وهو الملقى عليهم، وأبو القاسم بن شبلون، وأبو الحسن القابسي، وسعيد بن إبراهيم وغيرهم؛ كل من يعرف مسألة كان يحضر مجلسه، وذلك لما منعوا من المواعيد والفتوى، فإذا تنازعوا فصل بينهم بأمر يرجعون كلهم إليه.

فإن قلت: قد تقدم أن أبا إسحاق يُقَلَّدُ أبا محمد بن أبي زيد، وإلى ذلك أشار فيما تقدم من كتبه⁽¹⁾ إلى أبي عبد الله محمد العسال لما مات ولده أبو حفص عمر أنا أحق بالعزاء منك فيه، لأنني كنت أريده للآخرة، وأنت كنت تُريده للدنيا، وهذا يُنافي ما تقدّم الآن من كون أهل درسه إذا وقفوا في أمر فصل بينهم بما يرجع جميعهم إليه. وفيهم أبو محمد بن أبي زيد.

قلت: لا منافاة، والأصل هو الثاني واستفتاءه من ذكر فيما ينزل به إنما هو على طريق الورع، وذلك أن الإنسان في خاصّة نفسه قد لا تطيب نفسه بما يظهر له حتى يسأل عنه غيره، وهذا يجري لي كثيراً ولا أبلغ معشار معشار السبائي لا في الورع، ولا في غيره؛ والله سبحانه أعلم.

ذكر ورعه ومكاشفته

قال أبو الحسن علي بن محمد الدباغ: ما جعل الورع إلا لرجلين؛ أبي إسحاق السبائي، وأبي الحسن بن الحلاف، ودخل أبو إسحاق حمام الجزارين ثلاث مرّات، ثم ذكر أن فيه سهماً مُحَبَّساً على قصر سهل، فقال لأبي القاسم الشواذكي: إذا مضيت فخذ نصف درهم واشتر به زيتاً للقصر، وقال أبو الحسن القابسي: كنت جالساً في يوم عيد بين يدي أبي إسحاق السبائي مع أصحابنا والناس يزدحمون فوجاً بعد فوج، يُصَافِحُونَهُ وَيَتَبَرَّكُونَ بدعائه، فقلت في نفسي: ترى إن كان في قلب الشيخ شيء من كثرة الناس؟ فقال في فوره: ما كان ذلك إلا مرّة واحدة من الشيطان، فزال والحمد لله، قال: فقلت في نفسي: الشيخ يتكلم على خاطر كما يذكر عن الأولياء، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4]. قال: فدخل بعضي في بعض، ووددت أني لم أخلق حياءً وحشمةً، واعتقدت توبةً وقلت:

(1) في ت: بكتبه.

والله لا ظننتُ بالشيخ سوءاً أبداً، فقال: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى»⁽¹⁾.

قلت: في كلامه بتر لأن السَّبَّائِي ما أجابه أولاً لما وقع في خاطره ما وَقَعَ، حتى حَوَّلَ وجهه إليه وقال: يا أبا الحسن ما أرى دخول من يدخل إلا كدخولهم إلى المسجد، يُصَلُّونَ ويخرجون، ثم عاوده ذلك الخاطر. وقال: يا أبا الحسن، ما كان ذلك إلا مَرَّةً واحدةً، فتحويل وجهه إليه ومناداته بِكُنْيَتِهِ، أَخَصُّ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ.

قال: وقال أبو محمد بن أبي زيد: كُنَّا إِذَا أَرَدْنَا الدُّخُولَ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّائِي يَقُولُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: تَعَالَوْا نُجَدِّدُ تَوْبَةَ قَبْلِ الدُّخُولِ إِلَيْهِ خَوْفاً أَنْ يُنْطِقَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا.

قلت: ودخل عليه رجلٌ في جُمْلَةِ النَّاسِ مِنَ الْمَشَارِقَةِ، فلما دخل وسَلَّمَ رَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ وَقَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ وَقَامَ شَعْرُهُ وَقَالَ: الشَّيْطَانُ فِي دَارِي ثَلَاثَ مَرَاتٍ فَفَرَّ الْمَشْرِقِيُّ.

ذكر عبادته رضي الله تعالى عنه

قال: قال أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن أخي مروان: أقام الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ ثَلَاثِينَ سَنَةً يُصَلِّي الصُّبْحَ بوضوء العَتَمَةِ^(*)، وَكُنَّا نَأْتِي إِلَى الْمَسْجِدِ الَّذِي عِنْدَ دَارِهِ فَنَجِدُهُ وَقَدْ أَرَبَدَ وَجْهَهُ مِنَ الْقِيَامِ؛ وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي زَيْدٍ: دَخَلْنَا عَلَى أَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَدَخَلْنَا الْبَيْتَ، فَبَعْدَ بُرْهَةٍ دَخَلَ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَجَلَسَ فَقَالَ لَنَا: أَيُّ وَقْتٍ جِئْتُمْ؟ فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ مِنْذُ سَاعَةٍ وَقَدْ سَلَّمْنَا عَلَيْكَ وَأَنْتَ تَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا شَعَرْتُ بِكُمْ، تَفَكَّرْتُ فِي الطَّهَارَةِ، وَمَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ⁽²⁾.

قلت: ودخول أبي محمد ومن معه بالإذن العادي إذ داره في بعض الأوقات كالمسجد، وأشار بقوله: وما خاطب الله به المؤمنين يعني بذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6] الآية، فكان إذا أراد أن يتوضأ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82].

(*) العتمة: صلاة العشاء.

(2) الخبر ورد بصيغة مختلفة في الرياض: 474 / 2.

يتلو الآية ثم يقول: نعم يا رب ويكرّر ذلك واعجابه! إذا كانت هذه حالته في وضوئه لم يشعُر بجماعة وقفوا عليه وَسَلَّمُوا عليه، فكيف يكون حاله في صلاته وهو يتلو القرآن العزيز؟ فصلاّته وصلاة أمثاله؛ هي التي قال الله عزّ وجل فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] وأما صلاتي أنا وصلاة أمثالي فهي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا»⁽¹⁾. فنسأل الله عزّ وجل أن يرزقنا التذلل والخضوع بين يديه، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

ذكر إجابة دعائه بالرقى

قال أبو بكر المالكي: يدعو لمن عمي فيبصر، وعلى مَنْ ظَلَمَهُ وآذَاهُ فيهلك من يومه، ومن⁽²⁾ ضغطه أمر فيفرج عليه، ويدعو على من سبَّ رسول الله ﷺ وأصحابه فيهلك.

قلت: وشاهدنا هذا منه في زماننا على صِفَةٍ ما نذكره، فكان عندنا رجلٌ يُقال له: سَاسِي الزَّوَّارِ، يزورُ الناسَ لقبور الصّالحين من الغُرباء وغيرهم؛ وَيُعَرِّفُهُمْ بفضائلهم، وهو الذي عرفني بقبورهم، وكان غير مخاطب، فلا يصلي وما له تحت يد القضاة، ومع هذا أوقفه الله في هذه الطريقة وكان لا يقرأ، وعنده تأليف الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الدباغ الذي جعلته أصلاً لهذا التأليف في سفرٍ، فإذا أخذه إنسان ممن يحضره ويقرأ منه فضل شيخ أو أكثر، يبقى هو يقرأ معه من التكرار على سماعه، وإذا وقف في حرف ردّ عليه، فعمي الرجل في آخر عمره، ودَاوَاهُ الحاج أبو إسحاق إبراهيم بن مزغيش الطبيب بما يعرف، فلم ينتفع بشيء، وكذلك دَاوَاهُ غيره من العَامَّةِ لمحبة الناس فيه، لأنه خديم المشيخة رضي الله تعالى عنهم، فلما طال أمرُهُ، وَفَّقَهُ الله إلى أن قال لهم: دَلُّوني على قبر الشيخ أبي إسحاق

(1) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير حديث (11025) - 54/11 من رواية ابن عباس بسند فيه يحيى بن زكرياء المعلم عن أبي معاوية عن ليث عن طاوس، وفي الجامع الصغير للسيوطي رقم متنه (9014) وأسند تخريجه للطبراني في معجمه الكبير ورمز له بحرف (ض) أي (ضعيف). وأورده العجلوني في كتابه كشف الخفا رقم (2602) 364/2 وقال: رواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفاً، ورواه ابن جرير عنه مرفوعاً.

(2) في ت: وإذا.

السَّبَائِي فَقَالَ: مَا مَعْنَاهُ يَا أَبَا إِسْحَاقَ أَلَيْسَ أَنِي خَدِيمُكُمْ؟ وَأَزُورُ النَّاسَ إِلَيْكُمْ؟ وَمَنْ فَضَائِلُكَ أَنْكَ تَدْعُو لِمَنْ عَمِيَ فَبَصُرَ، وَأَنَا عَمِيتُ وَرَدَدْتُهُ إِلَى الْقَيْرَوَانِ يُقَادُ^(*) كَمَا كَانَ، ثُمَّ أَبْصَرَ مِنَ الْغَدِ وَصَارَ لَا يُقَادُ، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ: كَانَ السَّبَائِي مُسْتَجَابَ الدَّعَاءِ، وَذَكَرَ^(**) أَنَّهُ كَانَتْ [لَهُ]^(***) بِنْتُ أَصَابَهَا فِي عَيْنِهَا شَيْءٌ فَكَرِهَتْ الْمَشْيَ بِهَا إِلَى ابْنِ أَعِينِ الطَّبِيبِ فَأَخْبَرَتْ الشَّيْخَ بِذَلِكَ فَقَالَ لِي: اتْرَكْهَا وَأَنَا أَرْقِيهَا مِنْ هَاهُنَا، فَمَا زَالَ يُرَقِّيَهَا وَهُوَ فِي دَارِهِ وَهِيَ فِي دَارِهَا حَتَّى ذَهَبَ مَا كَانَ فِي بَصَرِهَا.

قُلْتُ: زَادَ غَيْرُهُ فِي ثَلَاثٍ، وَأَرَادَ كِرَاهَةَ السَّيْرِ بِهَا لَا طَّلَاعَهُ عَلَيْهَا كَمَا صَرَحَ بِهِ فِي نَقْلِ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ أَوَّلًا: ابْعَثْ بِهَا أَرْقِيَهَا ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: مِنْ هَاهُنَا أَرْقِيهَا وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَكَانَتْ عِنْدِي طِفْلَةٌ اسْتَرْخَى وَرَكُّهَا فَمَضَتْ بِهَا امْرَأَةٌ إِلَيْهِ فَرَقَّاهَا فَرَجَعْتُ صَحِيحَةً. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَالِكِيُّ قَبْلَ: كَانَ مُوسَى الْيَهُودِيُّ عِنْدَ مَعْدٍ وَعِنْدَهُ وَجُوهُ⁽¹⁾ رَجَالَهُ، فَقَالَ لَهُ مَعْدٌ: رَجُلٌ فِي بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ بِقَرَبِ الْفَحْصِ يَشْتُمُنَا، وَمَا قَدَرْنَا لَهُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ [رَجُلٌ]:⁽²⁾ مَنْ هُوَ يَا مَوْلَانَا تَقْطَعُ رَأْسَهُ⁽³⁾، فَقَالَ مَعْدٌ: أَسْكُتْ يَا عَبْدَ السُّوءِ، فَقَالَ مُوسَى الْيَهُودِيُّ لِمَعْدٍ: إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَهُ، فَسَكَتَ عَنْهُ مَعْدٌ، فَلَمَّا خَلَا بِهِمُ الْمَجْلِسُ قَالَ مَعْدٌ لِمُوسَى الْيَهُودِيِّ: مَاذَا الْخَطَابُ الَّذِي خَاطَبْتَنِي بِهِ؟ فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ أَنَا أَخْبِرُكَ، إِنَّهُ كَانَ عِنْدِي ابْنَةٌ، وَكَانَ بَعَيْنُهَا بَيَاضٌ، فَمَا بَقِيَ شَيْءٌ مِمَّا أَمَرَ بِهِ الْأَوَائِلُ إِلَّا وَقَدْ عَمَلْتَهُ لَهَا فَلَمْ تَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي وَجَّهْتُ إِلَى مِضْرَ فَاشْتَرَيْتُ مِثْقَالًا تَوْتِيَا⁽⁴⁾ بِمِائَةِ مِثْقَالِ ذَهَبًا، وَعَمَلْتُهَا⁽⁵⁾ لَهَا، فَكَانَتْ لَا تُبْصِرُ، وَكَانَتْ تَدْخُلُ إِلَيْنَا امْرَأَةً⁽⁶⁾ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ فَقَالَتْ: أَعْطُونِي هَذِهِ الصَّبِيَّةَ أَمْضِي بِهَا عِنْدَ

(*) فِي ت: بِقَائِد.

(**) فِي ط: وَذَلِكَ.

(***) فِي ط: لِي. التَّصْوِيبُ مِنْ: ت.

(1) فِي ط: وَجُودَةٌ. التَّصْوِيبُ مِنَ الرِّيَاضِ 501/2، وَت.

(2) فِي الرِّيَاضِ: ابْنُ الْفَرَنْجِيَّةِ 502/2 وَهُوَ سَاقِطٌ مِنْ: ت.

(3) فِي الرِّيَاضِ: نَقَطَ رَأْسَهُ «وَنَفَعْلُ بِهِ كَذَا وَكَذَا».

(4) فِي الرِّيَاضِ: تَوْتِيَّةٌ، وَفِي الْقَامُوسِ الْمَحِيطِ، التَّوْتِيَاءُ: حَجَرٌ. مَادَّةُ «تَوْت» ص: 137، وَفِي

ط: تَوْتَا. التَّصْوِيبُ مِنْ: ت.

(5) فِي الرِّيَاضِ: [وَعَمَلْتُهَا لَهَا، فَمَا نَفَعَهَا شَيْءٌ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهَا] 502/2.

(6) فِي الرِّيَاضِ: امْرَأَةٌ فَقِيرَةٌ 502/2.

السَّبَائِي، فمضت بها إليه فَرَقَّاهَا فِي جُمْلَةٍ مِّنْ يُرْقِي، فَجَاءَتْ وَهِيَ تَبْصُرُ وَزَالَ مَا بِهَا فِي الْوَقْتِ⁽¹⁾.

قلت: وَدَخَلَتْ عُلْقَةً⁽²⁾ فِي فَمِ صَبِيٍّ بَدَوِيٍّ فَعَانَاهَا الطَّبِيبُ بِمَا قَدَرُ لَعَلَّهَا أَنْ تَخْرُجَ، فَلَمَّا أَغْيَاهُ قَالَ لَهُ: مَا هَذِهِ فِي اسْتَطَاعَتِي فَامْضِ بَابِنِكَ إِلَى السَّبَائِي لَعَلَّهُ يَدْعُو لَهُ فَيَفْرِجُ اللَّهُ عَنْهُ. فَسَارَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ وَالنَّاسُ وَرَاءَهُ، ثُمَّ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ وَقَالَ لِلصَّبِيِّ: تَقَدَّمْ، وَقَرَأْ عَلَى فِيهِ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْعُلْقَةِ فَسَقَطَتْ مِنْ فِيهِ، وَكَانَ يُرْقِي النَّاسَ الَّذِينَ يَأْتُونَ إِلَيْهِ جُمْلَةً، وَيَجِدُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بَرءَ نَفْسِهِ عَلَى وَجْهِهِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ شَبْلُونٍ كَانَتْ رُقِيَّتُهُ «بِالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وَ«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وَ«الْمُعَوِّذَتَيْنِ» كُلَّ ذَلِكَ سَبْعًا⁽³⁾، ثُمَّ يَقُولُ فِي آخِرِ دَعَائِهِ: بِبُغْضِي فِي عُبَيْدٍ وَذُرِّيَّتِهِ، وَحُبِّي فِي نَبِيِّكَ وَأَصْحَابِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، «اشْفِ كُلَّ مَنْ رُقِيَّتُهُ»⁽⁴⁾.

ذكر إجابة دعائه بغير الرقي

قال: قال أبو محمد بن أبي زيد: وَقَعَ قِطٌّ فِي بئرِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَائِي فَقَالَ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي مَنْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْبئرِ، فَنَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا رَجُلٌ عَرِيَانٌ فِي وَسْطِهِ مِثْرٌ فَنَزَلَ فِي الْبئرِ فَرَفَعَ الْقِطَّ حَيًّا. قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ قُلْتُ لِأَبِي إِسْحَاقَ: مَنْ أَيْنَ هَذَا الرَّجُلُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي وَمَا أُرْسَلْتُ وَرَاءَهُ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ النَّعَالِي الْفَقِيهَ بِمِصْرَ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَنْزِلُ بِي الْهَمُّ فَيَمْنَعُنِي النَّوْمَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ التَّهَجُّدِ فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَسْكُنُ عَنِّي مَا أَجْدُهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ دُعَاءِ السَّبَائِي لِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَقَدَ لِي عَلَى نَفْسِهِ وَرَاسَلَنِي أَنَّهُ يَدْعُو لِي وَيَذْكُرُنِي فِي كُلِّ لَيْلَةٍ.

قلت: ظَاهِرُ قَوْلِهِ يَنْزِلُ بِي الْهَمُّ^(*)، إِنَّهُ غَيَّارٌ مِنَ السُّلْطَانِ أَوْ غَيْرِهِ لَا زِيَادَةَ، فَفِي كَلَامِهِ بئرٌ لِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الْمَالِكِيِّ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: لَقَدْ كَانَ يَطْرُقُنِي مَا يَمْنَعُنِي النَّوْمَ، فَأَشْهَرُ عَامَّةً لَيْلِي إِمَّا لَهُمْ وَغَمٌّ، أَوْ لَوْجَعٌ، وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ مَا أَجْدُهُ وَأَنَامُ وَذَكَرَ أَنَّ حَلْقَةَ النَّعَالِيِّ كَانَتْ تَدُورُ عَلَى تِسْعَةِ عَشَرَ عُمُودًا لِعَظْمِهَا وَكِبَرِهَا.

(1) راجع الخبر في الرياض: 501/2 - 502.

(2) عُلْقَةٌ: الْعَلَقُ دُوَيْبَةٌ صَغِيرَةٌ سَوْدَاءُ اللَّوْنِ تَعِيشُ فِي الْمَاءِ، إِذَا دَخَلَتْ جِسْمَ الْإِنْسَانِ تَمَصُّ دَمَهُ فَيَضْفَرُ لَوْنُهُ وَيَصِيرُ نَحِيلًا.

(3) بِمَعْنَى يَقْرَأُ كُلَّ سُورَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

(4) الخبر في الرياض: 506/2.

(*) فِي ط: اللَّهُمَّ. التَّصْوِيبُ مِنْ: ت.

قلت: وسمعت شيخنا أبا الفضل أبا القاسم البرزلي ينقل غير ما مرة أنه قيل للشيخ النعالي هذا: لم لا تكون لأهل مصر كأبي إسحاق السبائي لأهل القبروان؟ قال: ذلك الشيخ يغضب لغضبه منها^(*) اثني عشر ألف سيف، وأنا لا يغضب لي ولا واحد، وقال محمد بن إدريس: خرجت أريد الحانوت فلقيني أبو العباس بن غانم فقال لي: وأنتم هاهنا والله لا أسكتكم معي، فاعملوا على الانتقال لأنكم من حزب السبائي فجئت إلى السبائي فأخبرته فقال: ما عليك منه شيء، إنما هو كلبٌ يَنْبَحُ: اللَّهُمَّ عَاجِلُهُ وَلَا تُمְهِلُهُ. فلما خرجت من عنده وقربت من داري؛ إذا به قد أوتي به مَيْتاً من الحمام. قال أبو بكر المالكي⁽¹⁾: دخل عليه أبو العباس بن أبي ثوبان صاحب المظالم فنهجه الشيخ فخرج من عنده فلقه بعض أصحاب الشيخ فذكر له قصته معه ثم قال له: سوف ترى [أنت]⁽²⁾ فخاف الرجل على أبي إسحاق فأعلمه فقال له: قل له سوف ترى أنت. قال الحَاكِي: فخرجت من عنده إلى داري، فبعد ساعة خرجت فإذا الناس يقولون: مات فلان، فجئت إلى الشيخ فأخبرته فقال: قد كفيْنَا^(**) ما نجده والحمد لله.

ومن إجابته: أن أبا القاسم الفزاري الشاعر، كان قد هَجَا بَنِي عُبَيْدٍ فِي أَيَّامِ أَبِي يَزِيدَ، فطلبه السلطان إسماعيل ليقتله، فلجأ إلى السبائي وهو فَرَّغَ خَائِفٌ، وقال له: أنت تعلم ما يُرَادُ بي، فقام الشيخ أبو إسحاق فدخل خزانة⁽³⁾ وأقبل يدعو ويقول كلاماً بَعْضُهُ يُفْهَمُ، وَبَعْضُهُ لَا يُفْهَمُ؛ ثم قال لأبي القاسم: امضِ اشْتَرِ غَدَاءَكَ وادخل الحمام، وامض إليه، فلن ترى شيئاً تَخَافُهُ. قال أبو القاسم: فخرجت من عنده ففعلت ما أمرني به من الغداء ودخول الحمام، وَوَقَّعْتُ نَفْسِي بِقَوْلِهِ وَدُعَائِهِ، ثم مضيت إلى السلطان فدخلت عليه فقال بعض مَنْ فِي مَجْلِسِهِ: يَأْمُرُكَ السُّلْطَانُ بِأَنْ تَنْشُدَ مَا قُلْتَ فِي أَيَّامِ أَبِي يَزِيدَ، فتوقفت عن ذلك وخفت، فقال: أَنْشُدْ وَلَكِ الْأَمَانَ، فَأَنْشُدْتُهُ الْقَصِيدَةَ الرَّائِيَةَ⁽⁴⁾. فلما فرغ من إنشادها لم يعرض له إسماعيل

(*) في ت: من أهلها.

(1) راجع قول المالكي في الرياض: 499 / 2.

(2) سقط من: ت.

(**) في ت: كفيت.

(3) في الرياض: خزانته 489 / 2.

(4) انظر هذه القصيدة الرائية في الرياض 490 / 2 - 494 عدد أبياتها (67) بيتاً.

بسوء، فلما خرج من بين يديه قام أَحَدُ الْجُنْدِ من بين يدي إسماعيل، فاخترط سيفه ليقتل أبا القاسم فقال له إسماعيل: ما لك؟ قال: أَضْرِبْ عُقَّةُ، فقال: قَدْ أَمَّنَّاهُ وَإِلَّا كَانَ هَذَا فِي حِينِ أَتَانَا، فلما قام عَنَّا وانصرف قُمْتُ إِلَيْهِ فَعَاْفَاهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِ بِدَعَاءِ السَّبَائِيِّ⁽¹⁾. وقال بعض أصحابه: كُنْتُ لَيْلَةً عِنْدَ الشَّيْخِ فَجَعَلَ يَحْدِثُنِي وَتَلَذَّذْتُ بِحَدِيثِهِ حَتَّى انْقَطَعَ مَشْيُ النَّاسِ مِنَ الْأَزَقَّةِ، وَضُرِبَ الْبُوقُ، فَكْرَهْتُ أَنْ أَقْطَعَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ، وَكَانَ الْبُوقُ إِذَا ضُرِبَ وَمَشَى أَحَدٌ بَعْدَ ضَرْبِهِ، ضَرَبُوا عُقَّةُ لِأَنَّهُ لَا يَمْشِي حِينَئِذٍ إِلَّا مَنْ يَسْرِقُ أَوْ يَخْرُجُ لِضَرْبٍ مِنَ الْفَسَادِ، [فَكَانَ مَعَدُّ قَدْ ثَقَفَ الْبَلَدَ تَثْقِيفًا شَدِيدًا بِالْعُسَّاسِ وَالْحُرَّاسِ وَالرَّصْدِ الشَّدِيدِ]^(*)، فلما فرغ الشيخ وسلمت عليه لَأَخْرَجَ قَالَتْ امْرَأَتُهُ لِي: أَيْنَ تَخْرُجُ؟ فَقُلْتُ: إِلَى الدَّارِ، فَقَالَتْ: الْبُوقُ قَدْ ضُرِبَ مِنْذُ سَاعَةٍ، فَقَالَ لِي الشَّيْخُ: أَقْعُدْ تَبِيتُ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَضْلَحَكَ اللَّهُ تَتَحَنَّنُ⁽²⁾ تِلْكَ الْوَالِدَةُ وَتَظُنُّ أَنِّي قَدْ أَصِبتُ بِمُصِيبَةٍ أَوْ دُهِيتُ بِدَاهِيَةٍ، فَقَالَ لِي الشَّيْخُ: اصْبِرْ يَا أَخِي، يَا أَبَا سَعِيدٍ فَوَقَفْنِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَقْبَلَ يَشِيرُ عَنْ شِمَالِي، وَعَنْ يَمِينِي، فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخَيِّ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا [يس: 78، 79] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَإِذَا بِهِ إِنَّمَا قَرَأَ عَلَيَّ وَعَوَّذَنِي «بِيسٍ» ثُمَّ أَخَذَ فِي الدُّعَاءِ فَدَعَا بِدُعَاءٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ قَالَ لِي: مُرْ يَا أَخِي يَا أَبَا سَعِيدٍ حَفِظَكَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ، وَعَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ فَوْقِكَ، وَمِنْ تَحْتِكَ. قَالَ: فَخَرَجْتُ مِنْ دَارِهِ فَمَرَرْتُ بِرَحْبَةِ أَبِي دَاوُدَ، فَإِذَا رَابِطَةٌ وَعَسَّاسَةٌ⁽³⁾ وَكَلَابٌ، فَمَا كَلَّمَنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا نَبَحَ عَلَيَّ كَلْبٌ؛ فَتَمَادَيْتُ فِي طَرِيقِي فَمَرَرْتُ بِالسَّمَاطِ عَلَى دَارِ ابْنِ أَسْوَدَ الدَّاعِي، فَوَجَدْتُ عِنْدَهَا رَابِطَةً وَعَسَّاسَةً وَكَلَابًا، فَمَا كَلَّمَنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا نَبَحَ عَلَيَّ كَلْبٌ، فَتَمَادَيْتُ إِلَى نَاحِيَةِ سُوقِ ابْنِ هِشَامٍ وَعِنْدَهُ رُصْدٌ وَكَلَابٌ، فَمَا كَلَّمَنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى بَيْتِ أُمِّ عِيَّاضٍ وَجَدْتُ أَيْضًا عِنْدَهُ رَابِطَةً مِثْلَ ذَلِكَ، فَتَمَادَيْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الدَّرْبِ فَدَاخَلَنِي الْهَمُّ وَالْفَزَعُ وَقُلْتُ: هُمْ⁽⁴⁾ صَلُّوا وَأَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ فَمَنْ يَفْتَحُ لِي؟ فَهَزَزْتُ الْبَابَ فَانْفَتَحَ لِي فَأَصِبتُ أُمِّي وَاقِفَةً خَلْفَ

(1) الرياض: 494/2.

(*) ما بين المعقوفتين سقط من: ت، وذكرت لفظة البلد «وحدها» فقط.

(2) في الرياض: تنحير 487/2.

(3) عساسة: الحُرَّاسُ.

(4) في ط: لهم.

البَاب، فلما رَأَيْتَنِي قَالَتْ: خَلْفُ، قُلْتُ: خَلْفُ، فَدَخَلْتُ وَحَمِدْتُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى السَّلَامَةِ. قَالَ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدَاةَ وَمَضَيْتُ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَا قَالَ لِي كَيْفَ كَانَ وَصَوْلِكَ؟ وَلَا سَأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، ثِقَةً مِنْهُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يُضَيِّعُنِي وَلَا يُسَلِّمُنِي⁽¹⁾.

قَالَ: وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِبَنِي عُبَيْدٍ مُجَاهِرًا لَهُمْ بِالسَّبِّ وَالتَّكْفِيرِ، وَسُكْنَاهُ بِخَارِجِ بَابِ الرِّيحِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَحْصِ إِلَّا نِصْفَ طُوبَةِ وَقَصَبٍ، وَيَبْلُغُ بَنِي عُبَيْدٍ عَنْ ذَلِكَ، فَلَا يَقْدِرُونَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانَ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ بِالْوَادِي الْمَالِحِ وَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

قُلْتُ: قَالَ الْمَالِكِيُّ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّبْعِيُّ عَنْ أَبِيهِ: كَانَ أَبُو إِسْحَاقَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَدْ سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُنْسِيَ مَعَدًّا اسْمَهُ؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ الْقَاضِي: فَكَانَ مَعَدًّا إِذَا اجْتَمَعَتْ بِهِ يَقُولُ لِي: ذَلِكَ الشَّيْخُ الَّذِي يَسْكُنُ بِيَابِ الرِّيحِ قَالَ: فَأَقُولُ لَهُ السَّبَائِي؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ⁽²⁾.

قُلْتُ: وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ: مَشَيْتُ إِلَى ابْنِ أَبِي الْمَهْزُولِ فَعَلَّمَنِي اسْمَ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ، ثُمَّ أَنْسَيْتُهُ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لِي.

ذكر بقية أخباره

قَالَ: قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: وَقَفْتُ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ مَعَ عَمِّي أَبِي الْحَكَمِ، فَجَعَلْتُ يَدِي عَلَى الْحَايِطِ فَلَدَغَتْهُنِي عَقْرَبٌ، وَإِذَا بِشَخْصٍ أَقْبَلَ إِلَيَّ فَقَالَ لِي: افْتَحْ فَالْكَ؟ فَجَعَلَ فِيهِ خَرَزَةً⁽³⁾ ثُمَّ قَالَ لِي: مُصَّهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا وَدَخَلَ فِي زُقَاقِي فَسَكَنَ الْوَجْعُ. قَالَ يُونُسُ بْنُ سَلِيمَانَ السَّقَّاءُ قُلْتُ لِأَبِي إِسْحَاقَ: أَضْلَحَكَ اللَّهُ إِنْ أَنَا سَأَلْتُ يَقُولُونَ: إِنَّ مَرْوَانَ يَجْتَمِعُ بِالْخَضِرِ؟ فَنَشَرِيدهُ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ: مِنْ دُونِ مَرْوَانَ يَرَى الْخَضِرَ، فَكَيْفَ بِمَرْوَانَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنَ الْأَبْدَالِ.

(1) الخبر ورد في الرياض: 487 / 2 - 489.

(2) الرياض: 489 / 2.

(3) الخرزة: الجوهر. ويكون حبًّا مُدَوَّرًا. القاموس مادة «خرز» والخرزة أيضاً تكون عبارة عن حبة مصنوعة من الخشب أو الزجاج أو مادة «البلاستيك» وفي وسطها ثقب يمر بها خيط لتنظّم منها المسابح والقلائد ونحوها.

قلت: قال أبو عبد الله بن هبة الله: ذبح لأبي إسحاق كبش في عيد الأضحى فشوي له من زائدة⁽¹⁾ كبده، فدخل البيت ليأكل، فخرج وهو يقول: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فقال له خديمه أبو سعيد: مَا لَكَ؟ فقال له: لَمَّا مَضَعْتُ لُقْمَةً أَحْسَسْتُ أَنَّ الشَّوْكَ فِي حَلْقِي، فَمَا قِصَّةُ هَذِهِ الشَّاةِ؟ فقال له خديمه: وَاللَّهِ مَا جِئْتُ بِهَا إِلَّا مِمَّنْ أَرْسَلْتَنِي إِلَيْهِ، فقال له: أَوْقَعَ لَكَ فِي الطَّرِيقِ شَيْءٌ؟ فقال: فَرَّتْ [مِنْ يَدَيَّ وَدَخَلَتْ قَطِيعَ⁽²⁾ غَنَمٍ] كَانَ هُنَاكَ، فَأَخْرَجَ الرَّاعِي مِنْهَا شَاةً وَقَالَ [لِي]⁽³⁾: هَذِهِ شَاتُكَ فَاسْتَقْصِ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا بِهَا قَدْ أُبْدِلَتْ بِغَيْرِهَا. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابَسِي: أَتَاهُ رَجُلٌ يَوْمًا [بِبَطِيخٍ]⁽⁴⁾ وَكَانَ يُحِبُّهُ فَقَالَ لَهُ: هَذَا جِئْتُ بِهِ إِلَيْكَ مِنَ الْبَحِيرَةِ الَّتِي كَانَ أَبِي يُهْدِي إِلَيْكَ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ: كَمْ ثَمَنُهُ؟ فَقَالَ لَهُ: وَكَمْ عَسَى ثَمَنُهُ؟ فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ تَأْخُذُ ثَمَنَهُ وَإِلَّا فَاْمُضْ بِهِ، فَأَخَذَ ثَمَنَهُ، وَقَالَ: خُذْ بَطِيخَكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَعُودَ، فَدَهَشَ الرَّجُلُ وَأَخَذَ الْبَطِيخَ وَالثَّمَنَ، فَكَشَفَ عَنْهُ وَإِذَا بِهِ إِشْتَرَاهُ مِنَ السُّوقِ. وَقَالَ خَدِيمُهُ أَبُو سَعِيدٍ: بَعَثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ أَشْتَرِي لَهُ فَقُوسًا، فَاشْتَرَيْتُهُ مِمَّنْ [أَتَقُ]⁽⁵⁾ بِهِ وَأَوْصَلْتُهُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي قَلَّدَنِي وَلَمْ أَسْأَلْ بَايِعَهُ مِنْ أَيْنَ هُوَ؟ فَجِئْتُهُ مِنَ الْغَدِ وَاعْتَذَرْتُ لَهُ، فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: لَوْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مَا جَازَ لِي أَكْلُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مَا عَلِمَ طَيِّبَهُ وَطَيِّبَ أَصْلِهِ، وَتَصَرَّفَ الْمَوَارِيثَ فِيهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ عَتِيقُ بْنُ خَلْفٍ: وَاتَى أَبُو إِسْحَاقَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِتَيْنٍ أَخْضَرَ إِشْتَهَاهُ وَاسْتَخْلَصَ لَهُ أَصْلَهُ فِي بَاكُورَةِ التِّينِ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَا يَطِيبُ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا أَنْ يُذَهَنَ بِالزَّيْتِ، فَهَلْ يُعْرِفُ أَصْلَ الزَّيْتِ الَّذِي دُهِنَ بِهِ، فَتَرَكَهُ وَلَمْ يَأْكُلْهُ⁽⁶⁾. قَالَ الْمَالِكِيُّ: وَكَانَ قَدْ سَدَّ قَبُولَ الْهَدِيَّةِ فَعُوتِبَ عَلَى ذَلِكَ وَقِيلَ لَهُ: إِنْ النَّبِيُّ ﷺ تَسْلِمًا كَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ فغضب لذلك وقال: لَسْنَا كَالنَّبِيِّ ﷺ لَوْ فَعَلْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ لَتَمَنَدَلُونَا⁽⁷⁾.

(1) في ت: زائد.

(2) في ت: «فَرَّتْ شاة مني ودخلت غنماً».

(3) زيادة من: ت.

(4) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

(6) الخبر ورد في الرياض: 479 / 2 - 480.

(7) ابتعد من قبولها خوفاً من تقلبها رشوة. والمراد به: لَتَمَنَدَلُونَا أَي لَجَعَلُونَا كَالْمَنْدِيلِ لَا قِيَمَةَ لَنَا، يَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ بِصَمْتِنَا نَتِيجَةً مَا أَعْطُونَا.

قلت: كان لا يقبل من أحد شيئاً إلا بشفاعة، ويكافىء بضغف ثمنه. وقال أبو سعدون: وكان خبز السبائي السמיד. ف قيل له في ذلك فقال: والله لو قد رثت على الجوهر وعلمت أنه يزيد في عقلي لسحقته وأكلته، فإني لا أجد نفسي تصلح إلا إذا أكلت طيباً، وكان رحمه الله لا يزال سلاحه في بيته معتداً لقتال بني عبيد مع كل بر وفاجر من المسلمين، وأقام ملأزماً لداره ثلاثاً وعشرين سنة، وقد كان معد بن إسماعيل، قرب من داره فأراد لقائه فبعث إليه من يأتيه به، فتعذر أبو إسحاق بعذر فألح عليه الرسول، فلما لم يمكنه من الجلوس، دخل فتحزم بسلاحه ولبس منطقته وتلثم وأخذ سيفه وخرج إليه فقال له: ما هذه الحالة؟ فقال له الشيخ: عاهدت الله على أن لا ألقى أعداءه إلا مُحارباً، فقال له: اجلس في مكانك واعتذر الرسول عنه.

قلت: لهذا قال أحمد بن نصر كما تقدم: لو وزن إيمان أبي إسحاق بإيمان أهل المغرب لرجحهم. وذكره معد يوماً فقال: أعد لنا السلاح، وتربص بنا الدوائر وكفرنا وشتمنا وعلم الناس الجراءة علينا، حتى تناكر الكبير والصغير، وأعان عليه قوم في المجلس، وتكلم قوم له، فاعلم بذلك فزاد أبو إسحاق حينئذ في السلاح، وتقدم أن أهل القبروان ينظرون إليه فيما يفعله فعلوا مثله، فليس المراد ريادته في السلاح وحده فقط والله أعلم. وأستاذن عليه يوماً صاحب المحرس فهرب كل من كان معه ومنهم: أبو محمد بن أبي زيد، ولم يبق معه غير القابسي فقال الشيخ: من هذا؟ فقال: أنا فلان، قال: أدخل ما يريد الشيطان أخو الشيطان فلم يكلمه يومئذ إلا الشيطان، فلما خرج رجع من هرب فقال لهم: ما هذا حق الصُّحبة تهربون وتركوني ولأمهم على فعلهم.

ذكر وفاته وما يتعلق بذلك

قال: توفي يوم الثلاثاء النصف من رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة.

قلت: وقيل توفي لثمان بقين من رجب وهو ابن خمس وثمانين سنة، ودُفن يوم الأربعاء.

قلت: يعني في وقت الضحى كما صرح به غيره.

قال: وصلى عليه عبد الله بن هاشم.

قلت: وتبعه العواني. وقال أبو بكر المالكي: صَلَّى عليه أبو الحسن الدَّبَّاغُ، والناس يقولون: صَلَّى عليه عبد الله بن هاشم، وهو وَهَمٌ⁽¹⁾.

قال: وحضر على جنازته من الخلق من لم يحضر على جنازة قط.

قلت: يعني في زمانه.

قال: وَدُفِنَ إلى جانب قبر سحنون بن سعيد وَتَبَعَهُ العواني وَظَاهِرُهُ: أَنَّهُ ليس بينهما قبر، وليس كذلك، بل بينهما قبر ظاهر كقبرهما.

قال: فقبراهما مشهوران بباب نافع. قال أبو القاسم بن شَبْلُون: رأيتُ السَّبَائِي رحمة الله بعد غَسْلِهِ والنُّورُ⁽²⁾ يَخْرُجُ من بين أَصَابِعِهِ كالمصابيح. وقال الحسن بن سعد الخراط: وكان فقيهاً عالماً من نُظَرَاءِ ابن أبي زيد قال: أَتَيْتُ بَعْدَ الْفَرَاغِ من غَسْلِ أَبِي إِسْحَاقِ السَّبَائِي، فأخذ بيدي علي بن حمود، فجلست فغَشِينَا نُورٌ حَتَّى غَلَبَ على أَبْصَارِنَا.

قلت: وقال أبو الحسن القَابِسي: لما اخْتَضَرَ أبو إِسْحَاقَ، رأى من حَضَرَ نُوراً دخل من باب البيت حتى أَتَى وَجْهَهُ ثم زال عن وجهه، وَمَرَّ على صدره ثم إلى رجله ثم خرج من البيت فَقَبِضَ الشَّيْخُ، وقال أبو محمد بن التبان: لما توفي رجعت إلى الدار فلما تحينت وقت غسله خرجت لحضوره فإذا بشيخ لَقِينِي فَسَأَلَنِي عن مسيري؟ فأخبرته فقال: قد صلينا عليه، وكما جئت فغَمَمَنِي ذلك. وقلت: أمضي لِأَكْمَلِ أَجْرِي، فَوَصَلْتُ إلى دَارِهِ فإذا به لَمْ يُغَسَّلْ فعلمتُ أنه إبليس أراد أن يَفُوتَنِي ذلك. قال أبو الحسن القَابِسي: نعي إلينا أبو إِسْحَاقِ السَّبَائِي وأنا بمصر بعد سبعة عشر يوماً من وفاته، فجميع من بمصر من العلماء والفقهاء والفقراء والصالحين والمحدثين؛ كلهم عَزَانِي فيه رحمة الله عليه [ورضوانه لديه]⁽³⁾.

215 - ومنهم أبو عبد الله محمد البرانسي اللبّاد الصّامِت رحمه الله⁽⁴⁾:

قال: كَانَ عَابِداً فَاضِلاً صَامِتاً، وَكَانَ يُقِيمُ رَجَباً، وَشَعْبَانَ، وَرَمَضَانَ، لَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ وَيَرُدُّ السَّلَامَ إِشَارَةً، وَكَانَ مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ، وَلَهُ مُعَامَلَاتٌ مع الحقِّ.

(1) الرياض: 469/2.

(2) في ت: ونور.

(3) سقط من: ت.

(4) في ت، زيادة: «الساكن بمسجد الزيتون».

قلت: ما ذكره من كونه يَرُدُّ السَّلَامَ إشارةً لَيْسَ بِصَوَابٍ، وَلَا يُقْتَدَى به في هذا، لأن السَّلَامَ لا يكون إلا بالنُّطْقِ، وكذلك الرَّدُّ، وَلَعَلَّ هذا الشيخ لم يكن عالماً، لأنهم لم يذكروا على من قرأ، وإن كان عالماً فما ذَكَرَهُ ضعيف، والخير كُلُّهُ في الاتِّبَاعِ، والشرُّ كُلُّهُ في الابتداع، فمسك اللسان حسن فيما لا يخالف فيه سُنَّةٌ، وسكوت الشيخ والعواني عليه غَفْلَةٌ.

قال: وتوفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وَدُفِنَ بباب سَلَمَ رحمه الله تعالى.

216 - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن مَسْرُور العَبْدِي الدَّبَّاع رحمه الله⁽¹⁾:

قال: سَمِعَ من أحمد بن أبي سليمان، وسعيد بن إسحاق الكلبي، وجبله بن حمود، ومحمد بن بسطام، وجريير بن محمد الفاسي⁽²⁾ وغيرهم؛ ولقي بمصر محمد بن رمضان، ومحمد بن زيان، وأخذ عنه جماعة كثيرة، وعليه كان اعتمادُ الشيخ أبي الحسن القابسي. وأخذ النَّاسُ عنه من بعد سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة إلى سنة ست وخمسين، ثم رفع السماع تَوَرُّعاً [لِمَا]⁽³⁾ دَخَلَهُ مِنَ السَّنِّ.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان من أهل العلم والورع، والعبادة والخشوع، حسن التقييد ثقةً لَمْ يُرَ أعقل منه، ولا أكثر حياءً منه، قد اجتمعَ لَهُ مع الْعِلْمِ الْوَرَعُ وَالْعِبَادَةُ وَالتَّوَاضُّعُ، وسرعة الدَّمْعَةِ وَقِلَّةُ الْكَلَامِ، والرَّفْقُ بِالطَّالِبِ، وكان عبد الله بن هاشم يُثْنِي عليه ويأمر بالسَّماعِ عنه.

قلت: وكان أبو إسحاق الجبنياني⁽⁴⁾ يُحِبُّهُ وَيُثْنِي عليه، وقال أيضاً للقابسي:

(1) ترجم لأبي الحسن علي في: ترتيب المدارك 6/ 258 - 262 طبعة وزارة الأوقاف الرباط، وورد ذكره في الرياض: 1/ 506 - 2/ 263 - 264 - 472، الديباج المذهب ص: 295، شجرة النور الزكية 1/ 141 رقم 255.

(2) في ت: القابسي. (3) فراغ في: ت.

(4) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن علي الجبنياني الفقيه العابد، كان من أعلم الناس باختلاف العلماء، عالماً بعبارة الرؤيا. توفي سنة 369 هـ. ترجم له في الديباج المذهب ص: 142، ترتيب المدارك 6/ 222 (طبعة وزارة الأوقاف) و4/ 497 - 516 (طبعة بيروت)، شجرة النور الزكية 1/ 142 رقم 260.

أَوْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ أَبُو الْحَسَنِ؟ وَدَدْتُ أَنْ وَسَادَتِي عَتَبَةُ أَبِي الْحَسَنِ الدَّبَاغُ! مَا يَكْلِمُهُ أَحَدٌ إِلَّا إِحْمَرَ وَجْهُهُ، وَلَقَدْ كَانَ أَحْيَى مِنَ الْأَبْكَارِ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، فَسَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَبُو الْحَسَنِ الدَّبَاغُ الْفَقِيهَ، وَأَبُو إِسْحَاقَ السَّبَائِي الْعَابِدَ، فَقَالَ لَهُمْ: بَلِ الْعَابِدُ أَبُو الْحَسَنِ، وَالْعَالِمُ النَّحْرِيرُ أَبُو إِسْحَاقَ.

قال: وقال أبو الحسن بن الحلاف: يُخَيَّلُ لِي أَنَّ صَاحِبَ الشُّمَالِ⁽¹⁾ لَا يَكْتُبُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ لَطَهَارَةَ قَلْبِهِ، وَعِفَّةَ بَطْنِهِ، وَحِفْظَ لِسَانِهِ، وَرِعَايَةَ جَوَارِحِهِ.

ذكر بقية أخباره

قال: كان أبو الحسن قَدْ وَرِثَ مَالاً حَلَالاً؛ فَأَقَامَ نَفْسَهُ فِيهِ مَقَامَ الْفُقَرَاءِ وَأَسْوَتِهِمْ، وَكَانَ يَغْتَلُ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَرْبَعَةَ دنانير، اثْنَيْنِ لِصَدَقَتِهِ، وَاثْنَيْنِ لِنَفَقَتِهِ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابِسي: كَانَ لِأَبِي الْحَسَنِ الدَّبَاغِ فُنْدُقٌ لَهُ غَلَّةٌ كَثِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَكَانَ النَّاسُ يَقْصِدُونَهُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ، فَشَرَبَ فِيهِ رَجُلٌ مَسْكُراً، فَأَخْبَرَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ: عِشْتُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَكُونَ لِي فُنْدُقٌ يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ، وَبَكَى بِكَاءٍ عَظِيمًا. وَقَالَ اللَّهُ عَلَيَّ إِنْ بَتُّ وَهَذَا الْفُنْدُقُ فِي مِلْكِي، وَوَجَّهَ فِي الْحَيْنِ رَجُلًا وَقَالَ لَهُ: بِعُهُ مِمَّنْ وَجَدْتَ، فَبِيعَ فِي الْوَقْتِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ ثَمَنِهِ وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَصَابَهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ بُلْغَمٌ فَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ حُمِلَ إِلَيْهَا أَوْ زَحَفَ فِي الْبَيْتِ، فَإِذَا تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ، أَخَذَ بِيَدِهِ فَاسْتَوَى قَائِمًا فَأَحْرَمَ وَقَرَأَ⁽²⁾ وَرَكَعَ، وَسَجَدَ، وَلَا أَحَدٌ يَمْسُكُهُ، وَلَا يَسْتَنْدِ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْتَمِدُ حَتَّى يَتِمَّ الصَّلَاةَ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ عَادَ إِلَيْهِ الضَّعْفُ إِلَى وَقْتِ دُخُولِ الصَّلَاةِ الْآخِرِ.

(1) المراد بصاحب الشُّمَالِ؛ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يَكْتُبُ سَيِّئَاتِ ابْنِ آدَمَ، وَهُوَ عَكْسُ مَلِكِ الْيَمَنِ الَّذِي يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ. أَمَّا قَوْلُ الْمَصْنِفِ: أَنَّ صَاحِبَ الشُّمَالِ لَا يَكْتُبُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ، فِي هَذَا الْقَوْلِ مَبَالِغَةٌ؛ لِأَنَّ الْعِصْمَةَ مِنَ الْخَطَايَا لِلْأَنْبِيَاءِ وَحَدَثَهُمْ فَقَطْ، أَمَّا عِدَاهُمْ يَصِيبُ تَارَةً وَيَخْطِئُ أُخْرَى؛ وَفِي هَذَا دَلِيلٌ مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ» أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي السُّنَنِ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ فِي التَّوْبَةِ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ، كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ (38) بَابُ 49 حَدِيثُ (2499)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي السُّنَنِ، كِتَابُ الزُّهْدِ (37)، بَابُ ذِكْرِ التَّوْبَةِ حَدِيثُ (4251) وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ. وَقَدْ حَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ.

(2) زيادة من: ت.

قلت: هذا من نقل ابن الحلاّف عنه. وقال غيره: بِثُّ عنده ليلةً فسمعتُ حِسَّ ماءٍ يقطرُ، فظننته آنيةً انكسرتُ، فقمْتُ لأَنْظُرَ ذلك، فإذا به قائماً يُصَلِّي وَيَبْكِي، وإذا الذي سمعته دُمُوعُهُ تَقْطُرُ على الحَصِيرِ. وكان أيام بني عُبَيْد لا يؤذن إلا على سُنَّةِ الأذان ولا يقول: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ»، فحمأه الله منهم، ولقد كان أَدَنَ مَرَّةً فخاطبته نَفْسُهُ بقولها وإن لم يقلها يُقْتَلُ، فقالها فلما فرغ إذا أَسْوَدُ نَاصِبٌ حَرَبَتُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ إِنْ لَمْ يَقُلْهَا طَعَنَهُ بِهَا، فعافاه الله وكان يقول للناس: تمالوا على الأذان على سُنَّةِ فِي أَنْفُسِكُمْ، فإذا فَرَعْتُمْ فقولوا حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ فإنما أراد بَنُو عُبَيْدِ خَلَاءَ الْمَسَاجِدِ لِفِعْلِكُمْ هذا، وأنتم مَعْدُورُونَ، خَيْرٌ مِنْ خَلَاءِ الْمَسَاجِدِ.

قلت: قف على هذا فإنه كان اعتقادي أنهم إنما كانوا يقولونها بعد حَيَّ على الفلاح في أضعاف الأذان، حتى وقفتُ على كلامه هذا من أنها بعد فراغ الأذان ليسهل أمرها حينئذ لضرورتهم. وقد تَقَدَّمَ أَنَّ عَرُوساً الْمُؤَدَّنَ قتلوه بسبب تركه لها وقبره مَزَارٌ عندنا. فكيف لا وقد مات شهيداً.

قال: وكان رحمه الله تعالى يقول: إِنَّ الثَّوَابَ هَاهُنَا قَلِيلٌ، إِنْ طَالَ عُمُرُكَ فُجِعْتَ بِأَحْبَابِكَ، وَإِنْ قَصُرَ عُمُرُكَ فُجِعْتَ بِنَفْسِكَ، وكان رحمه الله تعالى إذا كان يوم الجمعة تَطَهَّرَ ولبس أحسن ثيابه وتردى وتطَيَّبَ وراح إلى الجامع، فإذا انتهى إلى باب الجامع رفع عينيه إلى السَّمَاءِ وقال: «اللهم اشهد ورجع إلى بيته».

قلت: هذا منه رحمه الله ورع مبالغته في كمال الامتثال، وكان ينهي على الكلام في مسألة: «أنا مؤمن إن شاء الله» ويقول: إِنْ أَصَبْنَا فِيهَا لَمْ نُؤْجَرْ، وَإِنْ أَخْطَأْنَا فِيهَا أَثْمَنَّا. ويقول لأبي الحكم الزِّيَّات: ذهبتُ إلى العراقِ فأتينا بهذه البِدْعَةِ وهو الذي جاء بها وألقاها في القيروان، فرأى رحمه الله أَنَّ الْخَوْضَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَرَعٌ مِنْهَا، فَكَانَ الْكَلَامُ فِيهَا مِنْ أَيَّامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَحْنُونٍ، وَابْنِ عَبْدِوَسٍّ، إِلَى زَمَانِهِ، فَرَأَى أَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِغَيْرِهَا أَوْلَى وَإِلَّا فَالْأُضْلُ «إِنَّ الْعَالَمَ الْمَجْتَهِدَ إِذَا أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»⁽¹⁾. وكان بينه وبين الشيخ أبي إسحاق السَّبَّائِي

(1) هذه الرواية أخرجها الإمام البخاري في الصحيح في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ حديث (7352) ص: 1841، والإمام مسلم في كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث 15 - (1716) ص: 913. كلاهما من رواية عمرو بن العاص بلفظ: «إِذَا حَكَّمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَّمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» (متفق عليه).

صُحْبَةً، فلما أُخْبِرَ بموته بكى بكاءً شديداً وقال: وَاكْشَفَتَاه الْيَوْمَ انْكَشَفْتُ، ولما خرج للصلاة عليه ازدحم الناسُ عليه يسألونه الدعاءَ وَيُسَلِّمُونَ عليه حتى كاد أن يموت لكثرة ازدحامهم، فألزم نفسه أن لا يخرج من داره فلزمها حتى مات.

ذكر موته رحمه الله

قال: توفي يوم السبت للنصف من رمضان سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وأوصى أن لا يعلم بخبره حتى تخرج جنازته، فلم يكن يصل إلى القبر إلا بعد المغرب بجهد جهيد، وَسِنَّهُ ثمان وثمانون سنة ودفن بباب أبي الربيع. قلت: وإنما أوصى بما ذكر لثلا يبعث له الأمير كَفَنًا وحنوطاً وهو لا يريد ذلك رحمه الله.

217 - ومنهم أبو مالك سعد بن مالك الدَّبَّاغ⁽¹⁾ الصُّوفي رحمه الله تعالى:

قال: كان من العلماء بالله، العارفين به، ذا أمانة وَصِدْقٍ وَتَوَاضُعٍ مع فهمٍ دقيقٍ في القرآن، وإشارة لطيفة في⁽²⁾ الحقيقة، وكان دينوري المغرب قال أبو عبد الرحمن محمد السُّلَمي في كتاب تاريخ الصوفية: أبو مالك الدَّبَّاغ من أهل القيروان، صحب أبا سعيد الخراز، وكان أستاذه ولم يكن يُطَاوِقُهُ أَحَدٌ في علم الحقيقة، وكان أبو محمد بن التَّبَّان يُجِلُّهُ وَيُبَجِّلُهُ وَيَتَحَرَّكُ لَهُ إذا أراد الانصراف، وكان يقول لأبي محمد: ما أَتَيْتُكَ إِلَّا مُودَّعاً؛ لأنني قد بلغتُ أُمْنِيَّتِي من العمر أربعاً وثمانين سنة وزاد عليها بعد ذلك ثلاثاً، وكان الغالبُ عليه الإجلالُ، والتَّعْظِيمُ للحق⁽³⁾ تعالى، شاهده الوقار، وَالْهَيْبَةُ، وكان يتكلم على الحقيقة بشرط الاتباع والديانة، كلام عقل وصيانة. قال أبو سعيد خلف الزويلي: دخلتُ على أبي مالك الدَّبَّاغ وهو يَجُودُ بنفسه فقال لي قل:

وَمَا رَاعَنِي إِلَّا الرَّحِيلُ وَذَكَرَهُ وَقَدْ هَتَفَ الْحَادِي سَلامٌ عَلَيْكُمْ

فَقُلْتُهَا وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، ومات آخر نهار ذلك اليوم وذلك سنة إحدى وستين وثلاثمائة ودفن بباب نافع رحمة الله عليه.

(1) ترجم له في الرياض: 322 / 2 - 323.

(2) في ت: إلى. (3) في ت: لله.

218 - ومنهم أبو القاسم زيّاد بن يونس اليخضبي السدري⁽¹⁾:

قال: سمع من موسى بن عبد الرحمن القَطّان، ودحمان بن المعافي، وأبي الغصن السوسي، ومحمد بن عُبّادة، وكان يحدث بالإجازة عن عيسى بن مسكين وغيره؛ وسمع بمصر من محمد بن الربيع الجريري، وأحمد بن مروان، وابن رمضان، واحتاج الناس إليه، فَسَمِعَ منه أهل إفريقية، وطرابلس، والأندلس. وعنه أخذ أبو الحسن القَابِسي، وكان عالماً فقيهاً من أبهى المشايخ وأنورهم وجهاً، وأحسنهم بهجاً، وكان من الصُّلَحَاءِ وذوي الحِجَى والنُّهى، ثقة كثير الكتب، عارفاً بالرجال، طَلِبَ لِلْقَضَاءِ فامتنع، وهو أول من أدخل كتاب محمد بن المَوّاز إفريقية وكان ينشد:

لَمْ يَبْقَ مِمَّا فَاتَنِي كَسْبُهُ إِلَّا أَخَ يَسْلَمُ لِي قَلْبُهُ
يُنَايَ فَلَا يُفْسِدُهُ نَايُهُ عَنِّي وَلَا يَصْلَحُهُ قَرْبُهُ
يَكُونُ حَسْبِي مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى فِي كُلِّ حَالٍ وَأَنَا حَسْبُهُ

توفي يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة⁽²⁾ خلت من شعبان سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ومولده سنة اثنتين وثمانين ومائتين وصلى عليه عبد الله بن هاشم، ودُفِنَ بباب أبي الربيع رحمة الله عليه.

219 - ومنهم جعفر بن نصيف رحمه الله ورضي عنه:

قال: كان من أهل العلم والحديث، يختم القرآن على أقدامه، بوجهه آثار من كثرة السجود، قد كُسي وجهه نوراً من قيام الليل، توفي في اليوم الثامن من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ودُفِنَ بباب سلم على قارعة الطريق، خَلَفَ الْمُصَلَّى مع صهره ابن محرز، وأحمد بن عبد الرحمن القصري⁽³⁾ رحمهم الله تعالى.

220 - ومنهم أبو الحسن بن نصر الزعفراني رحمه الله⁽⁴⁾:

قال: كان جامعاً لخصال كثيرة من الخير، منها: العلم، والتعبّد، ومحبة

(1) ورد ذكره في الرياض: 1/ 227 - 262، شجرة النور الزكية 1/ 141 رقم 257.

(2) سقطت من: ت. (3) في ت: اليخضبي.

(4) ورد ذكره في الرياض: 2/ 318 - 417 - 455.

الصَّالِحِينَ، والعلماء، والورع، وكانت له آثار جميلة، وهيئة حسنة. توفي يوم الثلاثاء، وَدُفِنَ يوم الأربعاء ضُحَى يوم الأضحى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وَدُفِنَ بباب سَلَم وهو ابن أربع وسبعين سنة رحمة الله عليه.

221 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن هاشم بن مَرْوَر القاضي⁽¹⁾:

كان من أهل العلم، والعدل، والتَّقَشُّفِ، والإيثَارِ، والصَّدَقَةِ، والمجاهدة، وحسنِ الْمُعَامَلَةِ، أُوْذِيَ فِي الله فصبر، ونصرَ الإسلام والمسلمين فشكر، وكان كثيرَ الصدقات، وصلة أهل البيوتات، روي أنه وَصَلَ إبراهيم بن مسلم بنحو سبعمائة دينار، وكان يُعْطِي فِي كل جُمعة المائة من الدراهم للضعفاء، والفقراء، وكانت له عبادة بختم القرآن على أَقْدَامِهِ، وله حِطٌّ من التَّهَجُّدِ والبُكَاءِ. قال أبو الحسن الزعفراني: جاء القاضي عبد الله بن هاشم بمسجدنا ليلة فقال: أردتُ أنْ أُبَيِّتَ اللَّيْلَةَ هَاهُنَا، فأردتُ أنْ أُبَيِّتَ معه فَأَبَى فجعلتُ صاحباً لنا يقال له: أحمد المؤدب يبيتُ معه، فلما كان آخر الليل دخلت المسجد فوجدتُ القاضي قائماً يُصَلِّي فسألتُ المؤدب عنه فقال لي: ما زال قائماً منذ تركته إلى الآن في ذلك المكان، ولقد ختمَ القرآن في هذه الليلة خَتْمَتَيْنِ ونصفاً إلى طلوع الفجر. قال أبو الحسن: ورأيتُ بمسجدنا نوراً يزهر⁽²⁾ ما حوله من الأزقة مملوءة ناساً، وإذا بمروان العابد في جُمْلَتِهِمْ فقال: ما بال الناسِ اجتمعوا إِلَيْنَا فقال: أَوْ مَا عِنْدَكُمْ خَبَرٌ؟ قُلْنَا: لا. قال: فإن رسول الله ﷺ صَلَّى الْيَوْمَ في مسجدكم، قلت: في أي موضع منه؟ فأشار إلى الموضع الَّذِي كان يُصَلِّي فِيهِ القاضي فيما بين القبلة والغرب. توفي يوم الاثنين لِسِتِّ بَقِيْنَ من شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وَصَلَّى عَلَيْهِ وَلَدُهُ القاضي محمد، وَدُفِنَ بباب سَلَم وَقَبْرُهُ مشهورٌ.

قلت: وعند رأسه لوحٌ من رُخَامٍ فِيهِ مكتوب اسمه، واسم والده، وتاريخ وفاته، وغير ذلك بِحِطِّ حَسَنِ ما عندنا بجبايين القيروان مثله، ومكتوب من الجهتين، والذي في هذه، في هذه. فقلت: لِشَيْخِنَا أَبِي الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيِّ ونحن عند قبره ووقع في نفسي أنهم إنما فعلوا ذلك لِإِعْزَازِهِ عِنْدَهُمْ خوفاً أن يسقط اللوح على إحدى

(1) ورد ذكره في الرياض: 7/2 - 148 - 168 - 272 - 273...

(2) في ط: «يزهو وما» التصويب من: ت.

الجهتين فيعتقد من يأتي بعد أنه لا كتب فيه فيردم⁽¹⁾ ويدثر قبره كما دثر كثير من قبور المشيخة، لعدم الكتب عليهم.

222 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني⁽²⁾ :

تَفَقَّه بالقيروان على أحمد بن نصر، وأبي بكر بن اللباد، وأبي الفضل عباس الممسي وغيرهم؛ وقدم الأندلس حدثاً سنة إحدى عشرة وقيل: سنة اثنتي عشرة فسمع من ابن أيمن، وقاسم بن أضرغ، وأحمد بن زياد، والحسن بن سعد، وأحمد بن عبادة الرعيني، واستوطن بعد ذلك قرطبة، ودخل سبته قبل العشرين وثلاثمائة فحبسه أهلها عندهم، وتَفَقَّه عليه قوم منهم؛ وذكر ابن فروخ^(*) الجياني في تاريخه؛ أنه حَقَّقَ قِبْلَةَ جَامِعِهِمْ إذ ذاك، فوجد فيها تحريفاً فامْتَثَلُوا رَأْيَهُ وَشَرَقُوهَا، ثم دخل الأندلس وتكور في كور الثُغُور فاستقر آخرها بقرطبة، وولاه الحكم المواريث بجيانة وولي الشورى بِقُرْطَبَة، وتمكن من ولي عهدا الحكم، وألف له تواليف حسنة منها؛ كتابه في الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتابه في تاريخ علماء الأندلس، وتاريخ قضاة الأندلس وتاريخ الإفريقيين، قال ابن الفرضي: «بلغني أنه ألف له مائة ديوان وكان حكيماً يعمل الأدهان، ويتصرف في الأعمال اللطيفة، شاعراً بليغاً إلا أنه يَلْحَنُ»⁽³⁾، وآلَتْ به الحال بعد موت الحكم وتقصير ابن أبي عامر في صنائع الحكم إلى الجلوس في حانوت لبيع الأدهان.

(1) في ت: فيترك فيدثر.

(2) ترجم له في تاريخ قضاة الأندلس في أكثر من موضع، جذوة المقتبس ص: 47 رقم 41، بغية الملتبس ص: 61 رقم 96، سير أعلام النبلاء 16/165، في الرياض في أكثر من موضع، شجرة النور الزكية 1/141 رقم 256، الفكر السامي 2/135، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ص: 383 - 384، شذرات الذهب 3/39، طبقات الحفاظ للسيوطي ص: 414 رقم 901.

سُمِّي بالخشني نسبةً إلى خشن قرية بإفريقية (تونس).

(*) في ت: ابن فروج.

(3) يلحن: من اللحن، هو الخطأ في الإعراب والبناء، كرفع المنسوب أو فتح المضموم. انظر إلى قول ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس ص: 384 بتصرف من صاحب كتاب معالم الإيمان «الدباغ».

قلت: بلغني عن شيخنا أبي مهدي عيسى بن أحمد الغبريني رحمه الله أنه قال: حسدوه لمكانه من العلم، فلم يقدموه في خُطّة تقوم به، فاحتاج لصناعته. قال ابن الفَرَضِي «وكان يتعاطى صناعة الكيمياء»⁽¹⁾.

قلت: وظاهرُ هذا يقتضي أنه ينفق من دراهمها. ونقله عَيَّاض، والعواني وسكتا، وأخذ بعضهم جواز فعلها من قول المدونة في كتاب الصَّرْف حيث قال (.....)⁽²⁾ ففهم من قولها ذهب العمل، أي ذهب الكيمياء وليس بصواب وإنما قَصَدَ بذلك لاستعمال الناس له لرخصه، وقيل: للنية لأنه يَتَأَتَّى منه الصِّيَاغَةُ، بخلاف الإبريز لأنه يَنْكَسِرُ على ما يزعم الصُّنَّاعُ، مع أن أصول المذهب تدل على تحريمها. قال الشيخ أبو محمد في رسالته: ولا يجوزُ في البيوع التَّدْلِيسُ، ولا الغش، ولا الخلابة، ولا أن يكتُم من أمر سلعته ما إذا ذَكَرَهُ كَرِهَهُ الْمُتَبَّاعُ، أو كان ذكره أبخس له في الثمن، فأخذ منه بعض المغاربة أن عملها لا يجوز، لأن من يَدْفَعُ لَهُ من ذهبها شيء لو عَلِمَهُ مَا قَبْلَهُ، ولا يمكنه أن يبينه لكونه يخاف على نفسه من السلطان⁽³⁾. قال شَيْخُنَا أبو عبد الله محمد بن عرفة: وأيضاً فإنه لا يقدر على وجوب المواساة، وَارْتِضَاءُ شَيْخُنَا أبو الفضل البرزلي وَأَجَبْتُهُ بأنه يُوَاسِي من يأمن منه على نَفْسِهِ، ويسقط ما زاد فلم يقبله. قال شيخنا أبو مهدي: عيسى الغبريني رحمه الله، وأيضاً فَلَصِيْرُورَتِهَا لأصلها، وإن بعد أمدّها، وقد كان رجلاً من أصحاب المازري يطلب تعليمها فسافر بقصد ذلك ثم جاء بِدُنْيَا وافرة، وأتى بشيء من صنعته فأمر المازري باستخباره فنظره أهل المعرفة فكل من رآه يقول: طَيِّب فقال: أبقى أحد ممن يعرف الطيب؟ فقالوا: نعم فلان، وقد لزم داره من كِبَرِ سِنِّهِ. فقال: اسألوه؟ فسألوه فَعَرَفَهُمْ بما يختبر به ذلك، فآل الأمر لتلاشيها فأمر أن يتصدق بما اكتسب من السَّلْع وغيرها منها، وفيما ذَكَرَهُ نَظَر، وقد وجد في تَرْكَةِ أَبِي عَمْرَانَ الفاسي الكبريت الأحمر، واشتراه السلطان المُعِزُّ بن باديس أمير إفريقية فَرَدَّهُ لبيت المال، فهذا مما يَدُلُّ على أنه ليس كل كيمياء ترجعُ إلى أصلها والله أعلم. فلو

(1) هذه القولة لم ترد في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي خاصة بالنسبة للنسخة التي بين أيدينا طبعة دار الكتب العلمية 1997 ط I.

(2) بياض بالأصل. هكذا ورد في: ط، وفي ت أيضاً: فراغ.

(3) في ت: السلطنة.

كانت كل كيمياء ترجع إلى أضليها، لما أمر المازري باختبار ما صنع منها، وكذلك سمعت من شيخنا أبي محمد عبد الله الشيباني: أنه لما مات أبو محمد عبد الله بن أبي زيد؛ وجد في تركته آلتها، ولكن وجود ما ذكر مما وجد في تركة أبي عمران عزيز الوجود، فالصواب الجزم بحرمتها، وسئل شيخنا أبو محمد المذكور أيجوز البحث عن عمل الكيمياء والنفقة على طلبها على أن الإصابة فيها في حكم النادر؟ وهل يؤجر على النفقة وعلى نصبه وتعبه أم لا؟ وهل يسوغ إطلاق اللفظ بالكناية عن فائدتها بالماء إلا لأهي؟ أم هذا اللفظ موهم لا يحل النطق به؟ فأجاب: الذي يظهر لي أن طلب ذلك من السفة والنفقة عليه من إضاعة المال لعدم الإصابة في ذلك والله أعلم. ومثل ذلك سمعت من شيخنا أبي عبد الله محمد السكوني مفتي تونس وذكره عن والده، وأما ما ذكرتم من تسميتها فإن كان قصد قائل هذا كما يقال سر رباني، وسر إلهي، وعطاء رباني، فذلك جائز لنسبتها إلى الله تعالى، إذ لا فاعل إلا هو تعالى. وتوفي ابن حارث بقرطبة لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة أربع وستين وثلاثمائة في نقل ابن عفيف. وقال ابن الفرضي: سنة إحدى وستين⁽¹⁾ ولم يذكره الشيخ الدباغ. كما لم يذكر أبا محمد مكي بن أبي طالب، وشيخه أبا محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي وغيرهما؛ فترك جماعة كثيرة تواترت عنهم الأخبار بالصفات الجليلة، والأفعال الجميلة. وذكر من هو دونهم في الشهرة أو مثليهم، أو قريباً منهم. وسبق إلى الاعتراض بهذا عليه أبو إسحاق إبراهيم العواني رحمه الله تعالى.

223 - ومنهم أبو القاسم بن سعيد العابد قريب أحمد بن نصر من أهل القرآن والتَّهَجُّد:

قال: أبو بكر بن عمرو⁽²⁾: حجَّ أبو القاسم أربعون حجة، واغتمَرَ ألفَ غُمرَةٍ، وأقامَ يخدمُ قبر إبراهيم الخليل سنةً كاملةً. قال أبو بكر: صحبته وشاهدته فكان يوتر الفقير ويكتمه، ويصبر على مرارته، وسأخ⁽³⁾ في الجبال، ودخل جبل

(1) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وفيه زيادة: «ودفن بمقبرة مومرة» ص 384.

(2) أبو بكر بن عمرو السوسي ورد ذكره في الرياض: 209/2.

(3) في ت: سَيَّاح.

الأكام، ورأى فيه الأبدال، وتعبَّد في الغيران، وكان حُصُوراً لا يأتي النساء. وقال أبو بكر عتيق بن خلف التُّجيبِي: أخبرني أبو القاسم قريب أحمد بن نصر قال: مرَّرتُ في يوم شديد الحرِّ بالحجاز، وإذا بشيخ جالس تحت أمِّ غَيْلان⁽¹⁾، فسَلَّمْتُ عليه فَرَدَّ علي السلام. قلت: ما أفعَدَكَ هاهنا؟ قال: أطلبُ العيش. قلت: ليس [هذا]⁽²⁾ موضعه هاهنا، إن أردتَ العيشَ فعليك بالأزْياف، فقال لي: أخطأتُ الطَّرِيق. قلتُ: وما العيش عندك؟ قال: أن تكون جالساً ليس فيك جارحة إلا وهي مُتعلِّقةُ بالله تعالى. قال أبو القاسم: اشتَهِيتُ إسْفَنَجَةً بِعَسَلٍ فأَقَمْتُ سنة وقد تاقَت نفسي إليها، فمررتُ بسماط القيروان، وإذا بشابٍّ جالس على بابه، فلما رآني سَلَّمَ عَلَيَّ وقال: أحب أن تدخل عندي، فدخلتُ وَقَدَّمْ إلي سَفَنَجَةً وَعَسَلاً جلولياً أبيض في مشرد، فأكلتُ حتى تمليت ثم طَيَّبَنِي وخرجت من عنده وأنا واللَّهِ ما أعْرِفُهُ، فمررت بِصَبِيٍّ يلعبُ فرفعَ بَصْرَهُ⁽³⁾ إِلَيَّ وقال: يا عم، «سبحان من يَجُودُ بالنَّعمِ على من يَسْتَحِقُّ النَّعم». وتوفي أبو القاسم سنة ست وستين وثلاثمائة وصَلَّى عليه أبو بكر الزويلي، وَدُفِنَ بِالرَّمَادِيَّةِ إِلَى جانب أحمد بن نصر الفقيه رحمهم الله أجمعين.

224 - ومنهم أبو السرا وَاصِلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَابِدِ رحمه الله:

قال: كان من أهل الفقر، والتَّقَشُّفِ، والجِدِّ والاجتهاد، ولُزُومِ الأسفار، والتَّغَرُّبِ عن الأوطان، وكان يأوي إلى مسجدِ السُّدْرَةِ بالقيروان يركعُ ويسجدُ فيه، إلى صلاة العصر، فإذا قيل له: ارفق بنفسك قال: أنا رجلٌ مُطالبٌ مِديانٌ. أنشد بعضُ القُرَّاءِ وهو جالس هذه الأبيات:

كأن رقيباً منك يدعو خواطري	وآخرٌ يدعو ناظري ولساني
فما نظرتُ عَيْنَايَ بعدك مَنْظراً	يسوءك إلا قلت قد رمقاني
ولا خطرت في السر دونك خطرة	دراك إلا عرجاً بفناني
وأخوان صدق قد سمعت حديثهم	فأمسكت عنهم ناظري ولساني
وما الذَّهْرُ أسلى عنهم غير أنني	وجدتك مشهوداً بكل مكاني

(1) نوع من الشجر قصير يكون عادة في الصحراء.

(2) زيادة من: ت.

(3) في ت: رأسه.

فبكى وصاح وفارق الدنيا. توفي سنة ست وسبعين⁽¹⁾ وثلاثمائة ودُفِنَ بباب سَلَمَ خَلَفَ مَرْوَانَ الْعَابِدَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

225 - ومنهم أبو بكر هبة الله بن محمد بن أبي عُقْبَةَ التَّمِيمِي⁽²⁾:

قال: قرأ على جبلة بن حمود، وأخذ النَّاسُ عنه المدونة، والمختلطة والموطأ.

قلت: منهم؛ أبو سعيد خلف بن بلقاسم الأزدي المعروف بالبراذعي أخذ عنه المدونة.

قال: كان من أهل العلم والتقوى، والتعب، والصدقة، والإيثار، ثقة، صحيح الكتب، صَوَّاماً⁽³⁾ بالنهار، بَكَّاءً بالليل، حَزِينُ القلب، من أروع المشايخ وأحسنهم استقامة، واحد وقته في فَنِّه وطريقته، وله فضائل جميلة، وآثَارُ مستفيضة. قال أبو بكر بن عبد الرحمن: حَدَّثَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّهُ قَالَ: حَجَجْتُ سَنَةً مِنَ السَّنِينَ، فَأَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ وَإِذَا بِإِنْسَانٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُ: يَا رَبِّ إِفْعَلْ بِابْنِ عُقْبَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَقْبَلَ يَدْعُو لَهُ دَعَاءً عَظِيماً فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ رَجُلًا فَقِيرًا وَكَانَتْ عِنْدِي زَوْجَةٌ وَعِيَالٌ، فَقَدَرْتُ أَنْ وَلَدْتُ زَوْجَتِي وَلَيْسَ فِي الدَّارِ⁽⁴⁾ غَطَاءٌ وَلَا وَطَاءٌ، فَخَرَجْتُ مِنْ دَارِي وَأَنَا تَحْتَ حِيرَةٍ فَمَرَرْتُ بِمَسْجِدِ أَبِي بَكْرٍ بَنِ أَبِي عُقْبَةَ فَأَلْفَيْتُهُ خَارِجاً مِنَ الْمَسْجِدِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ثُمَّ أَخَذَتْ بِيَدِهِ وَقُلْتُ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَحِبُّ أَنْ تَمْضِيَ مَعِيَ [إِلَى الدَّارِ]⁽⁵⁾ فَقَالَ⁽⁶⁾: نَعَمْ وَكَرَامَةً، فَتَوَجَّهْتُ بِهِ وَيَدِي فِي يَدِهِ فَأَدْخَلْتُهُ الدَّارَ فَوَجَدَ الْمَوْلُودَ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ، فَأَقْبَلَ الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْبُكَاءِ فَقَالَ: هَذَا وَأَنَا فِي الدُّنْيَا حَيٌّ! فَتَوَجَّهَ فِي الْوَقْتِ إِلَى دَارِهِ فَأَتَنِي بِأَكْسِيَّةٍ، وَغِطَاءٍ، وَوَطَاءٍ، وَخُبْزٍ، وَلَحْمٍ، وَحَطَبٍ⁽⁷⁾، وَقَمَحٍ⁽⁸⁾ وَأَوْقَدَ النَّارَ بِيَدِهِ⁽⁹⁾، وَقَطَّعَ اللَّحْمَ وَشَوَّاهُ، وَأَقْبَلَ يَلْقُمُ الْأَطْفَالَ بِيَدِهِ وَهُوَ يَبْكِي؛ فَلَمَّا شَبِعُوا مَدَّ يَدَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ

(1) في ت: سبع وستين وثلاثمائة.

(2) ورد ذكره في الرياض: 35/2 - 196 - 272 - 450، شجرة النور الزكية 1/ 141 رقم 258.

(3) في ط: بَسَّاماً، وفي ت: حَيَّاماً. والصواب ما أثبتناه.

(4) في ت: في البيت. (5) سقط من: ت.

(6) في ت: فقال لي. (7) في ت: وفحم.

(8) سقط من: ت. (9) في ت: وبنفسه.

ديناراً عَيْنًا فقال لي: خُذْ هذه فَوَسَّعْ بها على نَفْسِكَ وعلى أولادِكَ. فَأَخَذْتُهَا منه ثم خرج، فلما كان بعد ذلك، وَجَّهَ وَرَائِي وقال: هل تَعَوَّدْتَ السَّفَرَ والتَّجَارَةَ؟ فقلتُ: نعم فَمَدَّ يَدَهُ إلى مائة دينار ودفعها لي وقال: خذ هذه البِضَاعَةَ واخرج بها إلى مِصْرَ لَعَلَّ الله تعالى يفتحُ [فيها] ⁽¹⁾ بخير منها، فخرجتُ بها فَرَبِحْتُ فقلتُ له: خذ مالك فقال [لي] ⁽²⁾ وكأني إنما دفعْتُها لك لَأَخْذِهَا منك؟ أنا بحمد الله غَنِيٌّ عنها، فأنا أَتَقَلَّبُ فيها إلى الساعة ⁽³⁾. وَرُوِيَ أَنَّ الشَّيْخَ أبا الفضل الغدامسي أقام نحواً من عشرين سنة يشتهي الغسانية فقال يوماً لخادمه: خُذْ هذين الدِّينَارَيْنِ فاشترِ لنا بهما من سُوسَةٍ عَسَلًا وَسَمِيداً وَزَعْفَرَاناً وَحَوَائِجَ الغَسَّانِيَّةِ، فَإِنِّي وَزَنْتُهُمَا من أُمِّي وأنا لا أَكُلُ شَهْوَتِي دون أهل القصر، يعني قصر أبي الجعدي بالمنستير، ففعل الخادم ذلك، ووضع ⁽⁴⁾ الغسانية فلما كملت لم يبقَ صحيفة لأحد من أهل الرباط إلا وقد جعل سهمه فيها وصحفته بينهم، فلما صارت كل صحيفة لِصَاحِبِهَا نسي بينهم شيخاً صالحاً لم يوجه له فقال لخادمه: اذهب إليه بسهمي في هذه الصحيفة فقال: أنا أمضي إليه بسهمي في هذه الصحيفة وتأكل أنت سهمك، فأنت لك مدة تَشْتَهِيهَا فقال: لا أفعل، فقال: وأنا أمضي بسهمي وسهمك إن شِئْتَ فقال: افعل فَمَضَى بهما معاً فَلَقِي غُلَاماً لأبي بكر هبة الله بن أبي عُقبَةَ أَقْبَلَ من القَيْرَوَانِ وعلى عَاتِقِهِ خرج مملوء بالغسانية وأنواع الحلالات، وأنواع ⁽⁵⁾ الكَعْكَ، فقال له: قال لي مولاي: إن [أنت] ⁽⁶⁾ أَوْصَلْتَ هذا الخرج إلى أبي الفضل، فأنت حُرٌّ لوجه الله، وزوجتك وبنوك، فوضع الخرج بين يديه وعاد إلى مولاه ونقلَت الكَافَّةُ عن الكَافَةِ؛ أَنَّ أبا بكر بن أبي عُقبَةَ هذا لما خرج إلى الحج مات جَمَلُهُ وفَاتَهُ أَصْحَابُهُ، فَحَمَلَ زَادَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ وإذا بِجَمَلٍ يقول له: احمل زَادَكَ عَلَيَّ فقال له: مَا يَجِلُّ لي، ظَهَرُكَ لِمَوْلَاكَ. فقال له: احمله على رَقَبَتِي، قال له: لَا يَجِلُّ لي، فقال له الجمل: رقتبي ليست لمولاي، ولا له عليها حمل. قال: لا يجوز لي تَثْقِيلُكَ، وإذا برجل قد أخذ الزَّادَ مِنْ عَلَى ظَهْرِ ابن أبي عُقبَةَ وسار به حتى أوصله إلى بطحاء مَكَّةَ. توفي ليلة الجمعة الثامن عشر من المحرم سنة تسع وستين وثلاثمائة، وَصَلَّى عليه القاضي محمد بن

(1) في ط: له، التصويب من: ت.

(2) زيادة من: ت.

(3) في ت: إلى الآن.

(4) في ت: وضع.

(5) في ت: واللوان.

(6) سقط من: ت.

عبد الله بن هاشم وهو ابن ست وثمانين سنة، وَدُفِنَ بباب سَلَمٍ قُرْبَ شُقْرَانِ وَأَبِي مَيْسَرَةَ، وَمَرْوَانَ الْعَابِدَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْرُورِ الْحَجَامِ.

قال: وَقَبْرُهُ مَزَارٌ مَعْرُوفٌ. قال الشيخ أبو الحسن القابسي: حكى لي من أثق به، أَنَّهُ رَأَى عَلَى نَعْشِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي عَقْبَةَ طَيْراً أبيض يُرْفَرُ عَلَيْهِ مِنْ دَارِهِ إِلَى أَنْ أُنْزِلَ فِي قَبْرِهِ. وقال أبو بكر التُّجَيْبِيُّ نَعِيَّ إِلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي عَقْبَةَ وَأَنَا بِمِصْرَ، فَرَأَيْتُ أبا بكر النعالي، وأبا القاسم بن الجوهري، وابن أبي الشريف، والحسن بن علي بن شعبان بفضاء القُسْطَاطِ لما بلغهم موته استرجعوا وَتَوَجَّعُوا لِمُصَابِهِ وَذَكَرُوا فَضْلَهُ وَأَخْلَاقَهُ.

قلت: الْعَجَبُ مِنْ عِيَّاضٍ⁽¹⁾! كَيْفَ غَفَلَ عَنْ هَذَا الشَّيْخِ وَأَمثالِهِ؛ كَالشَّيْخِ أَبِي الْقَاسِمِ ابْنِ شَبْلُونٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ، وَوَالِدِهِ هَاشِمٍ، وَلَمَّا قَرِئَ عَلَى شَيْخِنَا أَبِي الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيِّ قَوْلَ الشَّيْخِ أبا سعيد البراذعي فِي خُطْبَتِهِ قَالَ: وَصَحَّحْتُهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي عَقْبَةَ عَنْ جَبَلَةَ بْنِ حَمُودٍ عَنْ سَحْنُونٍ فَعَرَفَ بِأَبِي سَعِيدٍ، وَبِجَبَلَةَ، وَسَحْنُونٍ.

قال: وَأَمَّا هِبَةُ اللَّهِ، فَلَمْ يَذْكُرْهُ عِيَّاضٌ، وَلَا أَعْرِفُ مَنْ عَرَفَ بِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: ذَكَرَهُ الدَّبَّاعُ وَذَكَرْتُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِعْطَائِهِ لَذَلِكَ الرَّجُلِ مَا تَقَدَّمَ، وَمَا نَقَلْتُهُ الْكَافَّةَ عَنْ الْكَافَّةِ بِاخْتِصَارٍ، فَأَمَرَنِي أَنْ نُوَقِّفَهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَوْقَفْتُهُ عَلَيْهِ وَأَمْسَكَتُهُ إِيَّاهُ، وَأَعْطَانِي إِيَّاهُ فَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ نَسَخَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

226 - وَمِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ التَّبَّانِ⁽²⁾ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ اللَّبَّادِ، وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أَوَّلَ ابْتِدَائِي أَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَكَانَتْ أُمِّي تَنْهَانِي عَنْ الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ فَكُنْتُ أَخَذُ الْمِضْبَاحَ وَأَجْعَلُهُ تَحْتَ الْجَفْنَةِ وَأَتَعَمَّدُ النَّوْمَ، فَإِذَا رَقَدْتُ أَخْرَجْتُ الْمِضْبَاحَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى

(1) بمعنى لم يخص له بترجمة في كتابه «ترتيب المدارك» ضمن أعلام مذهب مالك وتَعَجَّبُ ابْنُ نَاجِي هُنَا، لِأَنَّهُ وَجَدَ عِيَّاضٌ قَدْ تَرَجَّمَ لِمَنْ هُمْ أَقْلُ شَأْنًا مِنَ الْمُتَرَجِّمِ.

(2) وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي الرِّيَاضِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ، تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ 6/ 248 - 258 (طبعة وزارة الأوقاف المغرب)، الدِّيْبَاجُ الْمَذْهَبِ ص: 223 - 224، شَذَرَاتُ الذَّهَبِ 3/ 76، شَجَرَةُ النُّورِ الزُّكِّيَّةِ 1/ 143 رَقْم 263، كِتَابُ الْعُمَرِ فِي الْمَصْنُفَاتِ وَالْمُؤَلِّفِينَ التُّونِسِيِّينَ 2/ 641 - 642، سِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ 16/ 319.

الدرس، وكان كثير الدرس. ذكر أنه درّس المَدَوْنَةَ ألف مرة، وقال: قال لي أبي ذات يوم يا بني ما يكون منك لا تعرف صنعة واشتغلت بالعلماء ولا شيء عندك، فلما كانت ليلة سمعته يقول لوالدتي: عرفت اليوم أني عرفت بابني وذلك أني حضرت أملاًكاً في مسجد سَمَاءُ فوجدته مملوءاً بالناس ولم أجد مجلساً، فقام لي رجل من مجلسه وأجلَسَنِي فيه فسأله إنسان عني فقال له: أَسْكُتْ هذا والدُ الشيخ أبي محمد، وقال آخر: خرج والدُ الشيخ أبي محمد بن التبان يوماً من مسجد السَّبْتِ فزلق في طين فبادر إليه رجل وأخذ بيده وقال لصاحبه: هذا والد الشيخ أبي محمد الفقيه، فرجع وَحَرَضَ ابنه على طلب العلم، والتزم القيام بِشَأْنِهِ من يومئذ.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان من العلماء الرّاسخين، والفقهاء المبرزين، ضُرِبَتْ إِلَيْهِ أَكْبَادُ الْإِبِلِ مِنَ الْأَمْصَارِ لِعِلْمِهِ، بِالذَّبِّ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَكَانَ فَصِيحَ اللِّسَانِ، رَقِيقَ الْقَلْبِ، غَزِيرَ الدَّمْعَةِ، وَلَهُ عُلُومٌ شَتَّى مِنْهَا: علوم القرآن، والفقه، والرقائق، والنحو، واللغة، والنجوم، والطب، والشعر الرقيق، وله مع ذلك وَرَعٌ شديد.

قلت: زاد غيره وكان مُسْتَجَابَ الدُّعَاءِ، وقال أبو العباس الأبياني: يكاد أن كل شعرة في جسده تنطق بالحكمة سيكون له في الفقه باع.

ذكر ما يدلُّ على كمال فضله وورعه

قال الأجدابي: رأى أبو محمد بن التبان رب العِزَّةِ في النَّوْمِ فقال له: «يَا عَبْدِي تَكُونُ فِي الْمَغْرِبِ فَتَنْزِلُ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا مَنْ بِسُوسَةِ وَالْمُنِشْتِيرِ، وَمَا وَالْأَهْمَا، وَكَانَ إِذَا حَدَّثَ بِالْقِيَرَوَانِ أَمْرٌ فَرَّ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ التَّبَّانِ إِلَى سُوسَةِ وَالْمُنِشْتِيرِ حَتَّى يَنْكَشِفَ ذَلِكَ الْأَمْرُ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِإِخْوَانِهِ مِيعَاداً فِي الرَّقَائِقِ فَقَطَعَهُ أَيَّاماً فَعَاتَبُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاعْتَذَرَ فَضَيَّقُوا عَلَيْهِ فَقَالَ: إِذَا كَانَ غَدٌ تَأْتُونِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَاتَوْهُ مِنَ الْغَدِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شَيْءٌ مُغَطَّى، فَقَالَ لَهُمْ: أَكْشِفُوهُ، فَوَجَدُوا طَبَقَيْنِ صَغِيرَيْنِ أَحَدَهُمَا مَمْلُوءٌ دَنَانِيرَ، وَالْآخَرُ مَمْلُوءٌ دِرَاهِمَ، فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا مِنْعِي لِأَن مِّنْ مَّلَكٍ مِنَ الدُّنْيَا هَذَا يَقْبَحُ بِهِ أَنْ يَزْهَدَ النَّاسُ فِيهَا، فَيَدْخُلَ فِي ذِمِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44] الآية.

قال: وذكر عبد الحق بن هارون الصَّقْلِي في كتابه: إن أبا محمد بن التبان وقعت يده على ساق ابنته وهو يظنُّها أنَّها زوجته، ففارق الزوجة أم البنت، ورأى أنَّها حُرِّمَتْ عليه بهذا القَدَرِ، وكان يُفتي بذلك وهذا غاية الورع.

قلت: ما ذكره من قوله: وهذا غاية الورع فيه نظر، لأنَّه لا يكون غاية الورع إلا لو كان يُفتي بعدم التحريم لغيره، ويأخذ هو في خاصة نفسه بالتحريم عملاً بقول غيره ليخرج من الخلاف هذا الذي يقال فيه، وهذا غاية الورع، وما ذكر من تحريمها عليه به قال أكثر القرويين. وقيل: إن لمسه وإن التذُّ بذلك لا أثر له. قاله: أبو القاسم الطَّاسِي، وأبو سعيد بن أخي هشام، وأبو القاسم بن شبلون، وأبو محمد بن أبي زيد، في أحد قَوْلَيْهِ وهو مُقْتَضَى قول سَحْنُون، واختاره الشيخ أبو القاسم بن محرز، وألَّفَ تَأْلِيْفاً فيه، واختاره المَازِرِيُّ أيضاً، وألَّفَ فيه تَأْلِيْفاً واعتمد على تأليف ابن مَحْرَزٍ وسماه «كَشْفُ الْغِطَاءِ عَنْ لَمْسِ الْخَطَا». ورأى الشيخ أبو الحسن القَابِسِي: أنَّ الاجْتِنَابَ في ذلك على طريق الاستحباب لا على الإيجاب، وهو مذهب أبي الطَّيِّب عبد المنعم، فإنه أَمَرَ بِالْفِرَاقِ وَتَوَقَّفَ فِي الْإِجْبَارِ. وكل هذا الخلاف إنما هو إذا التذُّ بقلبه. وذهب بعض الصَّقْلِيِّين إلى أنَّ لَمْسَ الْبِنْتِ يَنْشُرُ الْحَرَمَةَ وَإِنْ لَمْ يَلْتَذِ إِذَا كَانَ أَهْمِلَ لَمْسِهِ اللَّذَّةَ. قال المازري: وهو ضعيف لا يتخرج على أصل. وما ذكره فيه نظر، بل أصله نَقْضُ الطَّهَّارَةِ بِهِ، وَإِنْ كَانَتْ الطَّهَّارَةُ أَيْسَرُ.

ذكر ما يدل على حفظه وحسن مناظرته

قال: وَرُوِيَ أَنَّهُ خَرَجَ مَرَّةً إِلَى الْمَنْسْتِيرِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْبَوَادِي، وَالْقُرَى، وَالْمَهْدِيَّة، وَسُوسَةَ، وَالْحُصُونِ يَسْأَلُونَهُ عَنْ نَوَازِلِهِمْ فَسَأَلُوهُ إِلَى وَقْتِ الظَّهْرِ فَأَغْلَقَ بَابَهُ ثُمَّ قَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ: أَفْتَيْتَ الْيَوْمَ فِي أَلْفِ مَسْأَلَةٍ.

قلت: وَهَذَا غَايَةُ الْحِفْظِ لِجَوَابِهِ عَنْ هَذَا الْعَدَدِ لِحَضَرِيَّ وَبَدَوِيَّ إِشَارَةً مِنْهُ لِمَسَائِلِ صَعْبَةٍ وَسَهْلَةٍ وَلَمْ يَقُلْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا لَا أَدْرِي، وَفِي زَمَانِنَا الْيَوْمَ يَصْنَعُ مِثْلَ هَذَا شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيُّ لَا ثَانِي لَهُ فِي سَائِرِ بِلَادِ إِفْرِيقِيَّةٍ وَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمِفْتَاحُ الْأَكْبَرُ بِالْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ فِي بَلَدِ السُّلْطَانِ مَدِينَةِ تُونِسَ وَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ.

قال: وَرُويَ أَن نَضْرَانِيًّا وَقَدْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْكَاتِبِ صَاحِبِ الْقَيْرَوَانِ وَكَانَ النَّضْرَانِيُّ رَأْسًا فِي مَذْهَبِهِ، فَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ الْكَاتِبَ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ التَّبَانِ لِيُناظِرَهُ، فَلَمَّا جَلَسَ مَعَهُ مَجْلِسَ الْمُنَازَعَةِ قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ التَّبَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ الْكَاتِبِ: إِنْ اخْتَرْتَ أَنْ أَطِيلَ مَعَهُ أَطْلَتَ وَإِلَّا أُوجِزْتُ فَقَالَ لَهُ: أُوجِزْ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ لِرُجْمَانِهِ قُلْ لَهُ: أَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ ثَلَاثَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي الْوَاحِدَ مُفْتَقِرًا إِلَى اثْنَيْنِ، أَوْ مُسْتَعْنٍ عَنْهُمَا؟ فَضَرَبَ النَّضْرَانِيُّ عَلَى وَجْهِهِ وَأَطْرَقَ وَعَلَيْهِ كَأَبَةُ الْانْقِطَاعِ.

ذكر أخباره مع بني عبيد وحسن مقامه في الدين

كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ التَّبَانِ شَدِيدَ الْبَغْضِ لَهُمْ، قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: كُنْتُ مَعَهُ يَوْمًا بِالْمُنَسْتِيرِ فِي يَوْمٍ عَاشُورَاءَ، فَلَمَّا رَأَى جَمْعَهُمْ بَكَى، فَقِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّنُوبِ لِأَنَّ مَوْلَاهُمْ كَرِيمٌ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُوا فِي كُفْرِ بَنِي عَبِيدٍ فَيَدْخُلُوا النَّارَ.

قال: وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مِثْلَ أَبِي عُثْمَانَ الْحَدَّادِ.

قُلْتُ: كَانَ عَبْدُ اللَّهِ الْمَعْرُوفُ بِالْمُخْتَالِ صَاحِبِ الْقَيْرَوَانِ شَدِيدَ فِي طَلَبِ الْعُلَمَاءِ لِيُشْرِقَهُمْ⁽¹⁾، فَطَلَبَ الشَّيْخَ أَبَا سَعِيدٍ بْنَ أَخِي هِشَامٍ، وَأَبَا مُحَمَّدٍ بْنَ التَّبَانِ، وَأَبَا الْقَاسِمِ بْنَ شَبْلُونَ، وَأَبَا مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي زَيْدٍ، وَأَبَا الْحَسَنِ الْقَابِسي، فَاجْتَمَعُوا فِي مَسْجِدِ ابْنِ اللَّجَّامِ، وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا أَبَا الْفَضْلِ الْبُرْزُلِي يَنْقُلُ غَيْرَ مَا مَرَّةً؛ أَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ كَانَ بِدَارِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي زَيْدٍ، فَقَالَ لَهُمْ ابْنُ التَّبَانِ: أَنَا أَمْضِي إِلَيْهِ وَأَكْفِيكُمْ مَوْوَنَةَ الْجَمَاعَةِ بِهِ، وَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي دَارِهِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ أَرَادُوا الْمَسِيرَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا أَمْضِي إِلَيْهِ أَبِيعَ رُوحِي مِنَ اللَّهِ دُونَكُمْ، لِأَنَّهُ إِنْ أَتَى عَلَيْكُمْ وَقَعَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَهَنٌ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ هَذَا لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ: جِئْتُكَ مِنْ قَوْمٍ إِيْمَانُهُمْ مِثْلُ الْجِبَالِ، أَقْلَهُمْ يَقِينًا أَنَا، فَحَدَّثَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَقَدْ احْتَفَلَ مَجْلِسُهُ بِأَصْحَابِهِ وَفِيهِمُ الدَّاعِيَانِ أَبُو طَالِبٍ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ لَعْنُهُمَا اللَّهُ،

(1) لِيُشْرِقَهُمْ: لِيَكُونُوا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الشَّيْعَةِ الَّذِي كَانَ مُنْتَشِرًا آنَ ذَاكَ بِالْمَشْرِقِ، وَيُحْمَلُ عَلَى التَّمَذُّبِ بِالْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ «جِبْرًا» لَا اخْتِيَارًا.

وقد وَجَّه في ابن التبان فإذا به داخل وعيناهُ تتوقدان كأنهما عينا شُجَاع⁽¹⁾، فدخل وسَلَّمَ وقال له: أَبْطَأْتُ عَنَّا يَا أبا محمد، فقال: فِي شُغْلِكَ كُنْتُ، أَلَفْتُ كِتَاباً فِي فُضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ أَتَانِي بِهِ الْمَسْفَرُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ كُمِّهِ وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أبا محمد نَاطِرٌ هَؤُلَاءِ الدُّعَاةِ، قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: فِي فُضَائِلِ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَقَالَ لَهُمَا: مَا تَحْفَظَان فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ: أَنَا أَحْفَظُ حَدِيثَانِ وَلَحَنَ، ثُمَّ سَأَلَ الْآخَرَ فَقَالَ لَهُ: وَأَنَا أَحْفَظُ حَدِيثَانِ أَيْضاً فَقَالَ لَهُ: هَذَانِ الْحَدِيثَانِ اللَّذَانِ تَحْفَظُ أَنْتَ، هُمَا الْحَدِيثَانِ اللَّذَانِ يَحْفَظُ هَذَا، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هُمَا يَحْفَظَانِ حَدِيثَانِ وَنُطْقَ بِلَحْنِهِمَا، وَأَنَا أَحْفَظُ مِنْ ذَلِكَ تَسْعِينَ حَدِيثاً، فَالْأُولَى بِهِمَا الرَّجُوعُ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا أبا مُحَمَّدٍ مَنْ أَفْضَلُ أَبُو بَكْرٍ أَوْ عَلِيٌّ؟ قَالَ: لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ، فَقَالَ: لَا بَدَ، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَكُونُ أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسَةِ جَبْرِيلَ سَادِسِهِمْ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: يَكُونُ عَلِيٌّ أَفْضَلُ مِنْ اثْنَيْنِ، اللَّهُ ثَالِثُهُمَا، أَقُولُ لَكَ: مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ وَتَقُولُ لِي أَخْبَارُ الْآحَادِ، فَضَاقَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: مَنْ أَفْضَلُ عَائِشَةُ أَوْ فَاطِمَةُ؟ فَقَالَ: أَحَدٌ مِنْ سَوَالِكَ أَوَّلًا فَقَالَ: لَا بَدَ، فَقَالَ: عَائِشَةُ وَسَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ فَاطِمَةَ، قَالَ: فَمَنْ أَيْنَ؟ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الْأَحْزَابُ: 32]. فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ الدُّعَاةِ فَقَالَ لَهُ: أَيُّمَا أَفْضَلُ امْرَأَةُ أَبِوْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأُمُّهَا خَدِيجَةُ الْكُبْرَى، وَزَوْجُهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَلَدَاهَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَوْ امْرَأَةُ أُمِّهَا رُومَانُ، وَأَبِوْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: أَيُّمَا أَفْضَلُ عِنْدَكَ امْرَأَةٌ إِذَا طَلَّقَهَا زَوْجُهَا أَوْ مَاتَ عَنْهَا تَزَوَّجْتَ عَشْرِينَ زَوْجاً أَوْ امْرَأَةً إِذَا مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ طَلَّقَهَا لَمْ تَحِلْ لِمُسْلِمٍ؟ فَسَكَتَ. وَمَا زِلْتُ أَسْمَعُ مِنْ شَيْخِنَا أَبِي الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيِّ يَنْقُلُ غَيْرَ مَا مَرَّةً أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ عَشْرَةِ أَوْجِهٍ؛

(1) قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ: وَالشُّجَاعُ وَالشُّجَاعُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ: الْحَيَّةُ الذَّكَرُ، وَقِيلَ الْحَيَّةُ مَطْلَقاً، وَقِيلَ: هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، وَقِيلَ: هُوَ ضَرْبٌ مِنْهَا صَغِيرٌ، وَالْجَمْعُ أَشْجَعَةٌ، وَشُجْعَانٌ، وَشُجْعَانٌ. انْظُرْ مَادَّةَ «شَجَع» لِسَانِ الْعَرَبِ 8/ 174.

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَنَاهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَلَمْ يَوْذَ زَكَاتُهُ مِثْلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَفْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي شَدْقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ، كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ حَدِيثُ (1402) ص: 333 مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

أحدها ما تقدم، الثاني: أن عائشة رضي الله تعالى عنها مع النبي ﷺ في درجته، وفاطمة مع علي بن أبي طالب في درجته ودرجة علي لا تساوي درجة النبي ﷺ، وأنه سرد عليهم بقية الأجوبة. فيحكى أن عبد الله قال له: يا أبا محمد أنت شيخ المدنيين أدخل العهد وخذ البيعة، فعطف عليه أبو محمد وقال له: شيخ له سِتُون سنة يعرف حلال الله وحرامه، وَيَرُدُّ على اثنتين وسبعين فرقة، يقال له هذا؟ لَوْ نَشَرْتَنِي في اثنين ما فارقت مذهب مالك فلم يعارضه، وقال لمن حوله: امضوا معه، وخرجوا ومعهم سيوف مصلية فمرّ بجماعة من الناس ممن حضر لأخذ الدعوة وقال لهم: تثبتوا ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام فإن فارقتموه هلكتم، فترك عبد الله بقية الشيوخ واعجباه! هكذا يكون الذبُّ عن الدين، ولما كان القوم الأصل عندهم حفظ دينهم، والدنيا عندهم كالعدم، ابتلوا رضي الله عنهم في دينهم فصبروا وقالوا: لا نَبْرَحْ ونحن لما كانت الدنيا عندنا أكبر همنا إذا وقعت أذية من الغير لنا، إنما نُؤْذِي فيها خاصة.

ذكر جملة من أخباره

قال أبو محمد بن التَّبَّان يوماً: لا شيء أفضل من العلم، فبلغ خبره أبا إسحاق الجبنياني فقال: العمل به أفضل، فلما بلغه كلامه قال: صَدَقَ، إذا لم يعمل به صاحبه فهو وَبَالٌ عليه، وإذا عمل به كان حُجَّةً له ونوراً يوم القيامة. رُوِيَ أَنَّهُ سَارَ لزيارة أبي إسحاق الجبنياني فلما قرب من جبنيانة هابه وقال: أَخْشَى أَن يَجْرِي اللهُ عَلَى لِسَانِهِ شَيْئاً يَعْزِ علي، فنكون ممن عادى ولياً من أولياء الله تعالى فوجه إليه بالسلام وانصرف.

قال: وله كتب في النوازل. وقال أبو محمد: لو أن رجلاً مَرَّ بِأَرْضٍ مَغْصُوبَةٍ وحضرت الصَّلَاةُ، وخافَ إِنْ صَبَرَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْهَا، ذهب الوقت صلى ولا إعادة عليه، ولا يأكل منها بَقْلًا، ولا يشرب منها مَاءً، ولا يتوضأ إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ، سواء كانت بها عَيْنٌ تجري، أو ماءٌ مطر، وماء المطر أخف من ماء العيون.

قلت: ما ذكر من عدم إعادة الصلاة في الأرض المغصوبة هو الصَّوَابُ ويأتي خلافه عن أبي سعيد بن أخي هشام، وأبي بكر بن عبد الرحمن، ويأتي الكلام عليه هناك بأوفى من هذا إن شاء الله تعالى. وقال أبو محمد بن التبان: إذا اشترى

رجلان عِنْباً فاقْتَسَمَاهُ بِالْوِزْنِ فَكَانَ أَحَدُ الْقَسْمَيْنِ أَطْيَبَ مِنَ الْآخَرِ جَازَتْ الْقِسْمَةُ عَلَى التَّرَاضِي، وَأَمَّا بِالسَّهْمِ فَلَا، وَإِنْ اخْتَلَفَا فِي الْوِزْنِ وَاتَّفَقَا فِي الْجَوْدَةِ لَمْ يَجْزِ الْقِسْمُ بِالتَّرَاضِي وَلَا بِالسَّهْمِ.

قلت: وقال أبو محمد لبعض من تعلم عليه: «خُذْ مِنَ النَّخْوِ وَدَعْ، وَخُذْ مِنَ الشَّعْرِ وَأَقِلْ، وَخُذْ مِنَ الْعِلْمِ وَأَكْثِرْ». فما أكثر أخذ من النَّخْوِ إِلَّا أْخَمَقَهُ، وَلَا مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا أَذَلَّهُ، وَلَا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا شَرَّفَهُ». وقال يوماً في انجرار الكلام له: الإجماع على أن إلقاء المسائل بدعة، فبلغ كلامه الشيخ أبا إسحاق السبائي فشق عليه.

قلت: إلقاء المسائل هو كون الناس يجتمعون على رجل واحد يعلمهم العلم بتكلمه عليهم كما تقدم، أن أبا محمد عبد الله بن أبي زيد كان هو الملقى على الجماعة بدار الشيخ أبي إسحاق السبائي، وإذا كان هكذا فكان هذا في زمن الصَّحَابَةِ يَحْلِقُ النَّاسَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا فَكَيْفَ يَقُولُ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ بَدْعَةٌ وَلَا أَعْرِفُهُ لغيره ولا لواحد، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: شَقَّ عَلَى السَّبَائِيِّ، أَيْ كَيْفَ يَقُولُ هَذَا وَفَعَلَ الصَّحَابَةُ عَلَى خِلَافِهِ، وَتَقْدِمُ الْخِلَافُ عَنْ ابْنِ عَبْدِوَسٍّ، وَابْنِ سَحْنُونٍ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْ لَا؟ ثُمَّ وَقَعَ خِلَافٌ فِي زَمَنِ هَذَا الشَّيْخِ، وَهُوَ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ أَنَا مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ فَجَوَّزَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ التَّبَّانِ وَقَالَ بِقَوْلِهِ جَمَاعَةٌ، وَخَالَفَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ إِنَّمَا يَقَالُ: إِنْ كَانَتْ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ عِلَانِيَتِكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ، وَوَافَقَهُ عَلَى هَذَا أَكْثَرُ الْقُرُوبِيِّينَ.

ذكر إجابة دعائه رضي الله عنه

قال: أبو القاسم اللبيدي: ذكر أبو محمد بالمنستير كراهة مالك بن أنس الاجتماع على قراءة القرآن وأن ذلك بدعة! فقال له رجل: كيف تقول إن قراءة القرآن بدعة؟ فقال: لم أقل هذا، فخرج الرجل وصاح إن ابن التبان قال: إن قراءة القرآن بدعة، فزحف الناس من كل جهة مُنْكَرِينَ هَذَا، وَأَتَوْا حُجْرَتَهُ فَبَيَّنَ لَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَهِمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ، ثُمَّ حَوَّلَ وَجْهَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ لِلَّذِي شَنَّ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: أَفْجَعْتَ قَلْبِي أَفْجَعَ اللَّهُ قَلْبَكَ أَفْجَعَكَ اللَّهُ بِنَفْسِكَ وَوَلَدِكَ وَمَالِكَ، فَأَجِيبْتُ دَعْوَةَ الشَّيْخِ فِيهِ فَتَهَوَّسَ وَلَدُهُ، فَكَانَ مِنَ الْمَجَانِينِ، وَذَهَبَ مَالُهُ وَابْتُلِيَ بِدَاءِ الْبَطْنِ فَكَانَ

منها موته، وَقَبْلَهُ عَيَّاضٌ، وفي دُعَائِهِ بأن يفجعه في نفسه، وولده نظر لأنه لم يظلمه وإنما يدعى على الظالم وحده. وقد قال الشيخ شهاب الدين القَرَافِي: الدعاء عليه له أحوالٌ فذكر منها الدعاء عليه بذهاب ولده ونحوه نُهِيَ عنه لأنه مما يتعلق به حق الغير⁽¹⁾. ولما جرت له المسألة التي تكلم فيها في الإيمان المتقدم ذكرها وخالفه فيها من تقدم ذكره، وحدث بينه وبين بعضهم وحشة بسببها جعل موعداً للإلقاء فألقى عليهم كتاب الوضوء فخالفوه في مسألة فقال لهم: اسمعوا ما أقول درست هذا الكتاب ألف مرة، فأبوا إلا مخالفته فقام بهم إلى داره فأخرج الكتاب وأراهم المسألة كما قال، ثم دعا على نفسه وقال: اللهم لا تقضي علي حتى ألقى عليهم شيئاً، اللهم أَقْبِضْنِي إِلَيْكَ وَأَرِحْنِي مِنْهُمْ فَمَا أَقَامَ إِلَّا يَسِيراً حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قلت: في دُعَائِهِ بالموت نَظَرٌ، والصَّوَابُ؛ أنه لا يجوز إلا إذا خاف على نَفْسِهِ فتنّة⁽²⁾.

ذكر موته رحمه الله تعالى

قال: توفي ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ودفن بالرمادية وخرج الناس لجنائزته من ثلث الليل الأخير وقد ضاقت الشوارع والموارد حتى فاض النَّاسُ في الصحراء غداة يوم الثلاثاء.

(1) النهي عن الدعاء على رجل بذهاب ماله وولده (الهامش) ط.

(2) أخرج الإمام مسلم في الصحيح من رواية أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنَّياً فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ! أَحْبِبْنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْراً لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي» كتاب الذكر والدعاء (4) باب كراهة تمنى الموت لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ حديث 10 - (2680).

وفي رواية قيس بن حازم قال: «دخلنا على خَبَّابٍ وقد اكْتَوَى سَبْعَ كَيَّاتٍ فِي بَطْنِهِ، فَقَالَ: لَوْ مَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ، لَدَعَوْتُ بِهِ» صحيح مسلم الباب والكتاب السابق 12 - (2681).

وفي رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنُ عُمرُهُ إِلَّا خَيْراً» صحيح مسلم حديث 13 - (2682).

قلت: وقبره غير ظاهر، فجرت عَادَتِي إذا وصلت إلى ذلك المكان وَتَوَسَّطُ المقبرة نُنَادِي بصوتٍ عَالٍ رَحِمَكَ اللَّهُ يا أبا محمد بن التَّبَّان، وغالب الحال، لا يحفظ القبر إلا الكتابة على مشهده، ومع عدم الكتابة يكون مشهوراً، ثم بموت كثير من الخلق بوباء فلا يبقى إلا من لا يعرف قبره ومع الكتابة وإن جهله جاهلٌ فيأتي بعد من يجوز ذلك المشهد فإذا قرأه أعلم الغير بذلك فينشر معرفة الناس له ولقد قال لي أخي لأبي: أبو عبد الله محمد رحمه الله ونحن في الزيارة بجبانة باب سَلَم وهي الجبانة الغربية بمقربة من قبر الشيخ عتيق السوسي يا أخي: أنت تزعم أنه لا أحد اليوم بالقيروان أعرف منك بقبور مشيختنا فأين قبر سليمان بن عمران القاضي؟ فقلت له: قبره غير معروف فقال: إن قبره وَجَدْنَاهُ وهو الذي بين يديك فنظرت مشهده، فإذا فيه مكتوب هذا قبر سليمان بن عمران القاضي توفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر سنة سبع وسبعين ومائتين فأشهرت معرفة قبره شهرة تامة.

227 - ومنهم أبو العباس تميم بن أبي⁽¹⁾ العرب بن محمد بن أحمد بن تميم:

قال: لقي عيسى بن مسكين وأخذ حديثه عن أبيه أبي العرب، وذكر أنه لقي جبلة بن حمود وأخذ عنه، ولقي موسى بن عبد الرحمن وأخذ عنه كتاب الإمامة لمحمد بن سحنون وأجاز له كتاب محمد بن المواز، ولقي حَمَّاس بن مروان وسمع منه كتاب ابن المعزل، وكتاب أنس بن عياض، ولقي محمد بن عمر أخا يحيى بن عمر وأخذ عنه الدَّمِيَّاطِيَّة، والبرقية، ومنتخباته، وكان من أهل العلم، والعبادة، والتقشف، والزهادة، والورع، والرقعة، وسرد الصيام، وكان شديد الورع، كان إذا أراد أن يطر⁽²⁾ داره وسقوفه احتفر في وسط داره حفرة وَطَّرَ من تراب الحفرة ويقول: إن السُّلْطَانَ يغرم على التراب! وكان حائط حُجْرَتِهِ من قصب، فكان كلما خرج في الليل أو دخل ينظر إليه فعوتب في ذلك فَسَدَهُ بالقُشُورِ والصُّوفِ والخِرْقِ لِتَوَرُّعِهِ عن التراب وغرمة لقبالة السلطان وكان غالب أحواله الإيثار والسَّخَاء؛ مات

(1) ورد ذكره في الرياض: 190 / 1 - 306 / 2، ترتيب المدارك: 621 / 4 - 622 - 710 - (طبعة بيروت)، شجرة النور الزكية 142 / 1 رقم 261.

(2) يطر داره: يجدد بناءها (هامش ط).

بمدينة سُرت⁽¹⁾ وهو مُتَوَجِّهٌ إلى مكة وذلك سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ودفن هناك رحمه الله.

228 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن سعد الصَّائغ⁽²⁾ المعروف بابن التفاحي رحمه الله:

قال: لقي جماعة من رجال سحنون، منهم جبلة بن حمود وسمع منه الموطأ وأحاديث يسيرة، وكان شيخاً متواضعاً، شديد الاتباع لِلسُّنَّةِ، صُلْباً في الدين، ثِقَّة، توفي في شعبان سنة سبعين وثلاثمائة وهو ابن تسع وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

229 - ومنهم أبو الأزهر عبد الوارث بن حسن بن أحمد⁽³⁾ بن مُعْتَبِ ابن أخي الأزهر عبد الوارث:

تَقَدَّمَ ذَكَرُ جَدِّهِ فِي أَصْحَابِ سَحْنُونٍ، وَصَحْبِ أَبُو الْأَزْهَرِ أَبَا بَكْرٍ بْنِ اللَّبَّادِ وَغَيْرِهِ. قَالَ: كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الدِّينِ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، ذَا عِلْمٍ بَارِعٍ، وَمَعْرِفَةٍ بِالْأَصُولِ وَالْفَقْهِ وَالْقَضَاءِ وَالنَّوَازِلِ، كَثِيرِ التَّوَاضُعِ، حَسَنِ السَّمْتِ، وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَيْدٍ يَقُولُ: «مَا بِإِفْرِيقِيَةِ أَفْقِهِ مِنْ أَبِي الْأَزْهَرِ بْنِ مُعْتَبٍ؛ وَإِنَّمَا قَطَعَ بِهِ قَلَّةٌ دُنْيَاهُ»⁽⁴⁾.

قال: وكان عَيْشُهُ مِنْ كُتُبِ الْوُثَائِقِ، وَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ الْقَاضِي اسْتِكْتَابَهُ فَاسْتَشَارَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي زَيْدٍ فَرَدَّهُ عَنْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا الْأَزْهَرِ فَجَلَسَ بِالْقُرْبِ مِنْ دَرَبِ السَّكَّةِ فَإِذَا خَرَجَتْ مَسْأَلَةٌ مِنْ عِنْدِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ كَتَبَ تَحْتَهَا الْجَوَابَ غَيْرَ هَذَا، فَضَاقَ مِنْ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ وَوَجَّهَ إِلَيْهِ مُعْتَذِراً لَهُ وَقَالَ: إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِجْلَالاً لَكَ، إِذْ أَنْتَ مِنْ شُيُوخِنَا.

(1) سُرت: مدينة ليبية تبعد عن طرابلس مائتا ميل وثلاثون ميلاً، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. للمزيد انظر المسالك والممالك للبكري 177/2 - 178، والروض المعطار ص: 312.

(2) ورد ذكره في الرياض: 1/362 - 2/29 - 4 - 97 - 118.

(3) ترجم له في ترتيب المدارك 4/529 (ط بيروت)، الديباج المذهب ص: 269 - 270، شجرة النور الزكية 1/142 رقم 262.

(4) الديباج المذهب ص: 269.

قال: قال الشيخ أبو الحسن القاسبي: اختلف أصحابنا فيمن صلى بامرأته المكتوبة هل يُصَلِّي تلك الصلاة في جماعة؟ فقال أبو سعيد ابن أخي هشام وغيره: لا يَفْعَل، وجعلوا صلاة الرجل مع زوجته جماعة. وقال أبو الأزهر: لا بأس بذلك.

قال: توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

قلت: وقال غيره: توفي سنة اثنتين وسبعين ويقال: سنة ثمان رحمه الله تعالى.

230 - ومنهم يونس بن سليمان السَّقَاء⁽¹⁾:

قال: كان لسان أهل السُّنَّة في الرد على المخالفين من أهل البدع، فصيح اللِّسان، حُلُو المناظرة، حكى عبد الوارث الزاهد، قال: جمعتني مجلس فيه مكي بن يوسف، ويونس بن سليمان، فغلبتني عيناى فرأيت كأن بين يدي مكي شجرة ورْد لا يزال يَنْثُرُ منها الورد ويسقط، وشجرة ورد أخرى بين يدي يونس لا يسقط منها إلا واحدة بعد واحدة، ولما احتضر يونس غمض إحدى عينيه بيده ثم فاضت نفسه فَعَمَضَ بعض الحاضرين عينه الأخرى. توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، ودُفِنَ بِالرَّمَادِيَّةِ بِإِزَاءِ قَبْرِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ التَّبَانِ رحمه الله تعالى.

231 - ومنهم أبو سعيد ابن أخي هشام⁽²⁾:

قال: هو أبو سعيد خلف بن عمر ابن أخي هشام.

قلت: كذا قال ابن الرقيق، وقال أبو بكر عثمان بن عمر، وقال أبو عبد الله الخراط⁽³⁾: عثمان بن خلف المعروف بابن أخي هشام الرُّبَيعِي الخياط⁽⁴⁾، قرأ على أحمد بن نصر وعليه تفقه، وعلى أبي بكر بن اللَّبَّاد وأبي القاسم الطرزي وغيرهم؛ وعليه تَفَقَّهَ أَكْثَرُ الْقُرُوبِيِّينَ.

(1) ذُكِرَ فِي الرِّيَاضِ: 350 / 2.

(2) تَرْجَمَ لَهُ فِي الدِّيْبَاجِ الْمَذْهَبِ ص: 181 - 182، شَجَرَةُ النُّورِ الزُّكِّيَّةِ 143 / 1 رَقْم 264، تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ 488 / 4 - 492.

(3) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ حُرِّفَ إِلَى اسْمِ «الْخَوَاصِّ» 488 / 4.

(4) فِي ط «الْحَنَاطُ»: التَّصْوِيبُ مِنْ: ت، وَتَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان إمام الزمان وأحد الفقهاء في عصره، وأعلمهم بمذاهب أهل المدينة، ما اختلف فيه، وما اتفق عليه، وقال أبو القاسم بن شبلون: ما أخذ على أبي سعيد مسألة واحدة خطأ قط، وذلك لعلمه باختلاف العلماء ونوازل الأحكام والقضاة مع تَوَاضُعِ وَرَقَّةِ قَلْبٍ، وسرعة دَمْعَةٍ، وملاحة إشارة، وتقريب معنى، وخلاص نية، وجميل طوية.

قلت: وقال أبو بكر المالكي: كان عارفاً بعلم الفقهاء، لم يكن في زمانه أحفظ منه، اختلط علم الحلال والحرام بلحمه ودمه، وما اختلف الناس فيه وما اتفقوا عليه، حافظاً بارعاً فرّاجاً للكرب وما ذكره من اختلاف الناس يشمل الأربعة مذاهب، وأوسع من ذلك فهو أخص مما تقدّم أولاً من أعلمهم بمذاهب أهل المدينة، ومساو لما قال ابن شبلون.

قال: قال أبو محمد بن أبي زيد: سألتني عبد الله بن محمد ابن الكاتب صاحب البلد من أفقه أصحابكم؟ فقلت: أبو سعيد ابن أخي هشام، قال: فمن أحفظكم باختلاف الناس؟ قلت: أبو سعيد ابن أخي هشام، وقال أبو محمد أيضاً: إن أبا سعيد ليس يلقى الله تعالى بمثقال ذرة رياء.

قلت: قال: هذا أبو محمد المألف أبو سعيد في أكفانه.

قال: وقيل لأبي العباس عبد الله بن أحمد الأيباني الفقيه من أجل من رأيت بالقيروان بعد ابن اللباد وابن العسال؟ قال: دخل علي ثلاثة نفر أحدهم أكبر من الاثنين فقال: جواب هذه المسألة فظننت أنها نازلة، فأجبت عنها حتى ألقى علي نحواً من مائتي مسألة فقلت: فرغت محفوظاتك؟ قال: هكذا إلى قابل ألقى عليك من حفظي، فرأيت رجلاً كالبحر الذي لا تُكدره الدلاء يقال له: أبو سعيد ابن أخي هشام، وأما الثاني من الاثنين فإني رأيت شاباً عاقلاً كاملاً فاضلاً لو وزنت الجبال الرواسي بعقله لرجحها يقال له: عبد الله بن أبي زيد، والثالث يقال له: عبد الله بن التبان، تكاد كل شجرة في جسده تنطق بالحكمة يكون لهما في الفقه باع.

قلت: ولما ورد دارس بن إسماعيل أبو ميمونة من مدينة فاس وعجب من حفظه، سمع أبو سعيد تقصيره بعلماء القرويين وإضافته قلة الحفظ إليهم فقال لأصحابه: اعملوا على أن تجمعوا بيني وبينه لثلا يقول: دخلت القيروان ولم أر بها

عالمًا، فما زالوا حتى أتوا به إلى أبي سعيد في مَجْلِسِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَأَلْقَى عَلَيْهِ أَبُو مَيْمُونَةَ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً مِنَ الْمَسْتَخْرَجَةِ، وَالْوَاضِحَةِ، فَأَجَابَهُ عَنْهَا أَبُو سَعِيدٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ عَشْرَ مَسَائِلَ مِنْ دِيْوَانِ ابْنِ سَحْنُونٍ فَأَخْطَأَ فِيهَا أَبُو مَيْمُونَةَ كُلَّهَا فَعَطَفَ عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ وَقَالَ لَهُ: لَا تَغْفُلْ عَنِ الدَّرَاسَةِ فَإِنِّي أَرَى لَكَ فَهْمًا فَإِنْ وَاطَبْتَ كُنْتَ شَيْئًا، فَلَمَّا قَامَ أَبُو مَيْمُونَةَ لِيُخْرِجَ لَمْ يَعْرِفِ الْبَابَ مِنَ الْحِيرَةِ، وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَجْدَابِيُّ: كَانَ أَبُو سَعِيدٍ مِنْ أَجْلِ مَنْ يَعْرِفُ طَرِيقَ الصُّوفِيَةِ وَيُحِبُّهَا، وَكَانَ إِذَا قَالَ: اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ لَمْ يَوْجَدْ خِلَافَ لِقَوْلِهِ.

قال: قال أبو سعيد خلف بن تميم الهواري: سألتُ الشيخَ أبا سعيدٍ فقلت: ما تقول في كراماتِ الأولياء؟ قال: ما ينكرها إلا صاحب بدعة، قلت له: فانقلاب الأعيان؟ فقال: ما جاء من طُرُقٍ صَحِيحَةٍ فَأَنَا أَقُولُ بِهِ، قلت له: أَيُّمَا أَفْضَلُ الْفَقْرُ أَوْ الْغِنَى؟ فقال: ااخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ. فقلت له: أَيُّمَا أَفْضَلُ عِنْدَكَ؟ فقال: قال سحنون: «الْفَقْرُ أَفْضَلُ»⁽¹⁾.

قلت: وذكر أنه كان يمشي مع بعض طلبته في فُحُوصِ صَبْرَةِ فَحَضَرْتَهُمُ الصَّلَاةَ، فَأَرَادَ الشَّيْخُ الصَّلَاةَ فَقَالَ الطَّالِبُ: اصْبِرْ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ أَرْضِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الشُّوْءَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَعِيدٍ: هَذَا جَهْلٌ مِنْكَ، أَيُّ ضَرَرٍ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَلَاتِنَا وَلَوْ لَزِمَ تَرْكُ الصَّلَاةِ فِي الْفُحُوصِ الْمَغْصُوبَةِ وَجِبَ عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يَسْتَأْذِنَ أَرْبَابَهَا إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مَغْصُوبَةٍ. فقال أبو بكر بن عبد الرحمن: قال ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا»⁽²⁾. وَأَنَّ الصَّلَاةَ فِي أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ جَائِزَةٌ بِلَا خِلَافٍ، وَقَبْلُهُ عِيَّاضٌ، وَالصَّوَابُ عِنْدِي أَنَّهُ لَا يُصَلَّى فِي أَرْضٍ بِالْإِطْلَاقِ إِذَا كَانَتْ مَمْلُوكَةً

(1) لقد كان نبينا ﷺ يتعوذ من الفقر ويعتبره آفة اجتماعية فكان من دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم» أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة حديث (1544) من رواية أبي هريرة واللفظ له، وأخرجه النسائي في المجتبى من السنن 261/8 كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من القلة، وابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ حديث (3842) - 1263/2، والحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء، باب التعوذ من زوال النعمة... وقال: صحيح الإسناد 531/1.

(2) مطلع الحديث: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصْرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا طَهْرًا...» الحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التيمم (7) باب (1) حديث (335)، ومسلم في الصحيح، كتاب المساجد (5) حديث 3 - (521). متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

للغير إلا برضى ربّها، إمّا نُظَقاً وإمّا بعلمه بطيب نفسه بذلك، إلا إذا خاف خروج الوقت، وقوله عليه السلام: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً» عَامٌّ يَتَخَصَّصُ بما ذكرناه، لأن الأصل مَنْعُ تَصَرُّفِ الْإِنْسَانِ فِي غَيْرِ مَلِكِهِ إِلَّا بِإِذْنٍ؛ ويدل على هذا ما تقدّم عن قرب عن أبي محمد بن التبان أنه لَا يُصَلِّي فِي أَرْضٍ مَغْصُوبَةٍ إِلَّا إِذَا خَافَ خُرُوجَ الْوَقْتِ وَلَا إِعَادَةَ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ، ولما ورد شيخنا أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزعبي من تونس وكان قاضي الأنكحة بها حينئذ إلى القيروان وَزُرْنَا معه قبر الشيخ أبي زمعة صاحب رسول الله ﷺ وأخذ في الرجوع للبلد شقّ بنا خرائب في ربضها، فأردت الرجوع عنه، وتوهم الاعتراض عليه مني وكنا جماعة، فقال: أهذا جائز أم لا؟ فقلت: الصواب أنه لا يجوز، وهذا المكان الذي أنت به الآن مار به دار جدي ناجي رحمه الله تعالى، فأنا وإن رضيتُ بمرورك ومرور أصحابنا وأمثالهم فلا أرضاه من غيرهم، لأنها تصير طريقاً وقد شاهدت شيخنا أبا محمد عبد الله الشيببي بالقيروان إذا مرّ بالمكان الفلاني منها وعينته له، لا يمشي منه لمراده لأنّه مملوك للغير وقد اتخذته الناس طريقاً ويدور من مكان أبعد من ذلك، وذلك يدل على أنه لا يجوز عنده فقال لي ما ذكرته عنه صحيح، وكنت أراه يفعل ذلك ولكن الصواب جواز ذلك مشي أبي سعيد ابن أخي هشام في فحوص صبرة وصَلَّى بها وأشار إلى هذا وأجبتّه بما تقدم إلا ما ذكرته عن ابن التبان، فإني كنتُ لم أقف عليه فتحصل في جواز الصلاة في الأرض المغصوبة قولان؛ أحدهما جواز ذلك قاله أبو سعيد ابن أخي هشام وأبو بكر بن عبد الرحمن. والثاني عدم جوازه إلا مع خوفه خروج الوقت قاله أبو محمد بن التبان وبه أقول وكذلك القولان في جواز المرور فيها فلازم قول ابن التبان أنّه لا يجوز إلا من ضرورة وهو الذي اخترناه، وفعل أبي سعيد وهو مشيه فيها يقتضي الجواز، لأنه لم يذكر أنه لم يجد طريقاً، وهو الذي فهم منه شيخنا أبو يوسف يعقوب وعمل عليه، وفعل شيخنا أبي محمد الشيببي ظاهر في الأول، إلا أن يكون منه على جهة الورع، والأصل خلافه.

قلت: قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد: كان بين أبي سعيد ابن أخي هشام وأخيه مُشَاجِرَةً فِي رُبْعٍ⁽¹⁾ فرفعه إلى النُّعْمَانِ قَاضِي الْقَيْرَوَانِ لِلْبَيْعِ⁽²⁾، فأخبر

(1) الرُّبْعُ = الإبل. ويطلق الربع على الدار وما حولها، وعلى المكان أيضاً.

(2) في ترتيب المدارك = للشعبة 4/490.

القاضي بمكانه، فأمر بإدخاله، ومن معه. وقال: هاهنا جوارى، قال: جثت مُخَاصِمًا! قال: جوارى ولو خَاصَمَكَ أهل القيروان، فذكر له خبر أخيه فَهَمَّ النُّعْمَانُ⁽¹⁾ بضربه وَسَجْنِهِ. فقال له: لم أرد هذا! وإنما أريد أن تأخذ على يده وتزجره. وقبله عياض⁽²⁾ لسكوته عنه. وفيه عندي نَظَرٌ، والحقُّ التَّسْوِيَةُ بينه وبين أخيه، وأما جلوسه بجواره دون أخيه على ظاهر الكلام فلا يجوزُ عندي، ولا أفعله ولو كان أمير المؤمنين، وليس له إلا المساواة، وإما أن يُوكَّلَ غيره وينصرف، وأُخْرَى أن لا يَسْمَعَ كلامه مجرداً على أخيه دون بَيِّنَةٍ، وَعَادَتِي نتَحَفَّظُ في هذا كُلِّ التَّحَفُّظِ، حتى أَسْوِي بين الغَرِيَمَيْنِ في النَّظَرِ إذا لم ننظر لِلْمُدَّعِي وهو يتكلم لأمر ما، كَضُرٍّ، وَوَجَعَ بعيني اشتغلتُ بِحَكِّهَا لا أَنْظُرُ لِلْمُدَّعَى عَلَيْهِ وقد زال وجع عيني، ونسمع كلامه كما سمعته من الأول ومن شرط القاضي العدل أن يسوي بين القوي والضعيف، والشريف والمشروف، بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم، وأكثر قضاة الوقت بالقيروان وغيرها لا يحافظون على هذا ومثله، وذلك لا يجوزُ لهم وهو من جورهم، وصرع إنسان بجانب أبي سعيد فقال له الجان على لسان المصروع: أنت تُنكر هذا يا أبا سعيد فأنا أخبرك إن أردت بما في بيتك وما جرى لك مع خادمك البارحة! فقال له أبو سعيد: اسكت يا مشؤوم وكان أبو سعيد يُنكرُ مثل هذا قبل هذا، فَصَارَ يُصَدِّقُ بمثل هذا ونحوه، وذلك أنه دَخَلَ على امرأة من قَرَابَتِهِ ضَرَعَتْ فقال له الجَنِيُّ: كنت البارحة جالساً تحت الميزاب وأنت تأكلُ التمر، ولقد رَمَيْتَنِي بِنَوَاةٍ تحب آتيك الليلة، فقلت: لا يَا مَشْؤُومَ⁽³⁾.

قال: وقال أحمد ابن القاضي النُّعْمَانُ: يا أبا سعيد لِمَ تَقُولُونَ أَنَّ مَنْ قَذَفَ عَائِشَةً يُقْتَلُ⁽⁴⁾، وإنما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: 4]. وَجَلَدَ رسول الله ﷺ تسليماً أهلَ الإفكِ ثمانين جلدَةً، فَلِمَ لَمْ تَأْخُذُوا بالقرآن ولا بما فعل النبي ﷺ تسليماً؟ فقال أبو سعيد: قال

(1) في ترتيب المدارك: السلطان 4/ 491.

(2) انظر الخبر في ترتيب المدارك 4/ 491.

(3) ورد الخبر في ترتيب المدارك: 4/ 491.

(4) في ترتيب المدارك: «وناظره بعض العراقيين فقال لهم: أنتم تقولون من سَبَّ عائشة قتل» 4/

الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: 26]. وقال: ﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ﴾ [النور: 26] فجلد مَنْ قَذَفَهَا قَبْلَ الْبَرَاءَةِ بِالْقُرْآنِ، وَبَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ قَذَفِهَا، فَقَدْ رَدَّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ رَدَّ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ فَقَدْ وَجِبَ قَتْلُهُ بِإِجْمَاعٍ.

قلت: السائل له كان عراقي المذهب⁽¹⁾ وكان رحمه الله أولاً يبيع الحِنْطَةَ⁽²⁾، ثم رجع يَكْتُبُ الْوَثَائِقَ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهَا الْأُجْرَةَ لِقَلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ.

قال: توفي أبو سعيد يوم الجمعة السابع من صفر سنة ثلاث⁽³⁾ وسبعين وثلاثمائة.

قلت: كذا قال أبو بكر المالكي وابن الرقيق. وقال غيرهم: بل توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

قال: وحضر جنازته أهلُ المدينتين المخالف والموافق، وحضر السلطانُ في موكبه.

قلت: المراد بالمدينتين: القيروان، وصَبْرَةَ⁽⁴⁾، والسلطان هو عبد الله بن زيد الصَّنْهَاجِي ورثي بمرات كثيرة.

قال: وصلى عليه ابن الكوفي القاضي، وَدُفِنَ جَوَارَ الْقَاضِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ فِي صَحْنِهِ عَلَى طَرَفِ الْحُفْرَةِ.

قلت: وقبره مَزَارٌ، وعند قبره بويقات لطاف، تقول العامة نَسْمَعُ أَنَّهُ كَانَ فِي الْقَدِيمِ، إِذَا اسْتَنْقَعَ فِيهَا مَاءُ الْمَطَرِ، فَيَسْتَشْفَى بِذَلِكَ الْمَاءِ مَنْ وَجَعَ الْعَيْنَ بِأَنْ يَمْسَحَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ مِنْ فَوْقَ، ثُمَّ تَرَكَ النَّاسُ ذَلِكَ.

(1) هذا ما أشار إليه عياض في قوله: «وناظره بعض العراقيين» ولم يُسمِّيه.

(2) الحِنْطَةُ: هي البُرُّ. والحِنْطَةُ لغة كوفية، والقمح لغة شامية، ولفظة بُرُّ أفصح من لغة من قال: «قمح أو حنطة». وقال أبو ذؤيب الهذلي:

لَا دَرَّ ذَرِّيَ إِنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ قِرْفَ الْجَنِيِّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُورٌ

راجع البيان والتبيين للجاحظ: 17/1 دار الجيل تحقيق عبد السلام هارون.

(3) في ترتيب المدارك: إحدى وسبعين وثلاثمائة، وقال الرقيق، والمالكي: سنة ثلاث وسبعين 491/4.

(4) صَبْرَةَ: مدينة بالقيروان كبيرة بناها إسماعيل العُبَيْدِي وسماها: المنصورية سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة. انظر الروض المعطار ص: 354، المسالك والممالك للبكري 198/2.

232 - ومنهم أبو بكر عمرو المتعبد:

قال: سمع من أبي عبد الله العَسَّال، وأبي محمد بن الحجام، وكان يختلف إلى أبي محمد بن التبان، ثم لزم دَارَهُ فكان يُزار، وكان ذا تَقَشُّفٍ وَعِبَادَةٍ وَحُسْنِ حَالٍ، ولم يرَ في العباد أجمل منه، كان يلبسُ الأَسْمَاطَ والشُّرُوفَ، وتصدق بثلاثة آلاف دينار عيناً ذهباً من مالٍ وَرِثَةٍ من أبيه، توفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة رحمه الله تعالى.

233 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن حسن الزويلي السرتي رحمه الله:

قال: سمع بإفريقية من أبي عبد الله محمد بن مسرور العَسَّال، وأبي محمد بن الحجام، وأحمد بن نصر، وابن اللَّبَّاد، ومحمد بن أبي المنظور القاضي، وأبي العرب بن تميم وأحمد بن عبد الرحمن القَصْرِي، وغيرهم؛ ورحلَ إلى المشرق فسمع من أبي إسحاق بن شعبان وغيره؛ وكان من أهلِ العِلْمِ والقرآن والفرائض، وكان يجلسُ في مؤخر الجامع وتجتمع إليه الناسُ، وَيُفْتَى في المسائلِ وَمَا تَزَوَّجَ قَطُّ وَلَا تَسَرَّى، صَحِبَ مروان العابدَ وكان مروان يُقَدِّمُهُ للصلاة به وكان يَسْرُدُ الصَّوْمَ حتى ذَهَبَ بَصَرُهُ، وكان فقيراً صابراً على البأساء والضَّرَاءِ وَلَمَّا اخْتَضَرَ رأى بعضَ الجيرانِ في داره جوارِي يَتَلَاعَبْنَ فقال: لِمَنْ أَنْتُنَّ؟ قُلْنَ لِهَذَا الشَّيْخِ نُؤْنِسُهُ حتى يَخْرُجَ من هذه الدَّارِ، توفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وقد بلغ خمساً وثمانين سنة، وَدُفِنَ بباب سَلَمٍ رحمه الله تعالى.

234 - ومنهم أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي سعيد ابن أخي هشام:

قال: كان أوحَدَ العبادِ في وقته، من أهلِ مُكَابَدَةِ اللَّيْلِ والتَّهَجُّدِ بالقرآن، وَسَرْدِ الصِّيَامِ، رقيق القلب، غزير الدَّمْعَةِ، كثير الخشوع، ممن يمشي على الأرضِ هَوْنًا، وإذا نظرَ النَّاطِرُ إلى وجهه كأنه ثَكْلَى، ذُو سَكِينَةٍ.

قلت: زاد غيره: وكان زاهداً ورعاً عَفِيفاً.

قال: وكان يَخْتِمُ القرآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ حَثْمَةً. قال أبو بكر التجيبي: أنشدني

لعمران بن حطان:

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت ساء ترتع
أفقد رضىيت بأن تعلل بالمنى وإلى المشيئة كل يوم تدفع

أحلام نوم أو كَظِلُّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّسِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
فَتَزَوَّدَنَّ مِنْ قَبْلِ يَوْمِكَ دَائِمًا أَمْ هَلْ لَغَيْرِكَ لَا أَبَا لَكَ تَجْمَعُ

توفي رحمه الله سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ودفن بباب سلم مع والده.

235 - ومنهم أبو القاسم بن حمديس القَطَّان رحمه الله تعالى ورضي عنه :

كان من أزهد الناس في الدنيا، وأحسنهم حالاً مع الله، يُوالي في الله، وَيُعَادِي في الله، وَيَغْضَبُ لَهُ، لَا يَخَافُ وَلَا يَرْهَبُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ذُو حَنِينٍ، وَزَفِيرٍ، وَأَنِينٍ بجراحات من الذنوب دامية قدمها، وميدان لهو جرَّ فيه أذياله ثم تاب وارعوى، وعطف من عنانه فشهراً، وَتَخَلَّى عن الدنيا وَرَفَضَهَا، وَلَبَسَ المنبوذ وَرَضِيَ بِالتَّافِهِ حَتَّى فَارَقَهَا. قال عبدُ اللَّهِ بن التَّبَّانِ قَالَ لِي أَبُو الْقَاسِمِ: رَكَعْتُ لَيْلَةً مَا قَدَرْتُ وَنَمْتُ، فَبَرَزَ لِي كَفٌّ وَقِيلَ: اقْرَأْ فَقَرَأْتُ ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39]. وكانت إشارته إلى الْمَحَبَّةِ وَالشَّوْقِ مع خَوْفٍ، وَحُزْنٍ، وَأَسْفٍ، وَإِنَابَةٍ، توفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وَدُفِنَ بِالرَّمَادِيَةِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَقَبْرُهُ مَعْلُومٌ رحمه الله.

236 - ومنهم أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المؤرخ :

قال: كان عالماً فاضلاً عارفاً بالتاريخ، وكان في كُلِّ فَنٍّ وَاحِدَ وَقْتِهِ مع صُحْبَةٍ لِلصَّالِحِينَ، وكان ثِقَةً توفي في السابع عشر من جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وَدُفِنَ بباب سَلَمٍ وَقَبْرُهُ معروف رحمه الله تعالى.

237 - ومنهم أبو بكر بن علي بن نصر الزَّعْفَرَانِي رحمه الله :

قال: كان صالحاً، صَاحِبَ نُسْكِ، وَتَقَشُّفٍ، وَعِبَادَةٍ، وَمُجَاهِدَةٍ، وَكَرَمِ أَخْلَاقٍ، وَمُعَاشَرَةٍ مُحَقِّقاً في مَقَامَاتِ الصَّادِقِينَ، وَمَنَازِلِ الْعَارِفِينَ.

قلت: زَادَ غَيْرُهُ: وكان وَرِعاً، زَاهِداً في الدنيا، رَاغِباً فيما عند الله، مَنْ رَأَاهُ فَكَأَنَّمَا رَأَى السَّلَفَ الصَّالِحَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، رَدَّ كَثِيراً مِنَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِعَذُوبَةِ الْفَاطِظِ، وَرِقَّةِ طَبْعِهِ، وَحُسْنِ هَدْيِهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ وَلَا يَهَابُ أَحَدًا فِي قَوْلٍ يَقُولُهُ وَلَا يَتْرَكُ شَيْئًا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ فَعَلَهُ، أَوْ يَنْدُبُ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ سُلْطَانًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

قال: قال أبو بكر التَّجِيبِي: حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْرُورٍ الْعَسَّالُ، عَنْ الْمُقْدَامِ قَالَ: لَمَّا حَجَّ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ أَشْخَصَ الْحَسَنَ بْنَ زَيْدٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ ابْنُ شَبْرَمَةَ الْقَاضِي، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَابْنُ أَبِي ذُئْبٍ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ جَرِيحٍ، فَسَأَلَ ابْنَ أَبِي ذُئْبٍ عَنْهُ فَأَسَاءَ الْقَوْلَ فِيهِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا قَوْلُهُ فِينَا أَهْلَ الْبَيْتِ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ عَنْكَ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: وَمَا تَقُولُ فِي؟ فَقَالَ لَهُ: وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ؟ وَمَعْنَى بَنٍ زَائِدَةٍ خَطِيبَةٍ مِنْ خَطَايَاكَ، فَأَطْرَقَ أَبُو جَعْفَرٍ، قَالَ ابْنُ جَرِيحٍ: فَقَبِضْتَ ثِيَابِي وَجَمَعْتُهَا إِلَيَّ لِكَلِّ لِيُصِيبَنِي دَمُهُ، فَوَضَعَ الْمَنْصُورُ يَدَهُ إِلَى قَفَاهُ وَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَا لَأَخَذْتُ أَبْنَاءَ فَارَسَ، وَالرُّومَ، وَالتُّرْكَ، وَالدَّيْلَمَ هَذَا الْمَكَانَ مِنْكَ. قَالَ ابْنُ أَبِي ذُئْبٍ: قَدْ وَلِيَ أَبُو بَكْرٍ، وَعَمْرٌ، فَأَخَذَا بِالْحَقِّ وَقَسَمَا بِالسَّوِيَّةِ، وَأَخَذَا أَبْنَاءَ فَارَسَ، وَالرُّومَ فَأَزَالَ أَبُو جَعْفَرٍ يَدَهُ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ لَقَتَلْتُكَ.

قلت: في كلامه بتر، لأنه بقي منه وكان لأبي جعفر خادم كريم فجعل يمسح صدر ابن أبي ذئب وهو يقول: هَذَا رَجُلٌ لَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لُومَةٌ لِأَيِّمٍ. قال: توفي أبو بكر سنة تسع وثمانين وثلاثمائة رحمه الله تعالى.

238 - وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ الْخَيَّاطُ الْوَاعِظُ، وَيَعْرِفُ بِابْنِ نَمِرَةَ⁽¹⁾ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

قال: لَقِيَ بِمَكَّةَ ابْنَ الْجَلَاءِ وَأَبَا يَعْقُوبَ النَّهْرَجُورِي، وَلَقِيَ الدِّينُورِي وَابْنَ الْكَاتِبِ، وَابْنَ جَابَانَ، وَعَتْبَةَ، وَكَانَ ذَا تَقَشُّفٍ وَعِبَادَةٍ، مُتَّصِفًا تَصَوُّفًا مَشُوبًا بِتَقْوَى رَقِيقًا شَدِيدًا، رَدَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعَذُوبَةِ أَلْفَاظِهِ، وَرِقَّةِ طَبْعِهِ، يَضَعُ دَوَاءَهُ عَلَى دَاءِ الْقُلُوبِ وَجِرَاحِ الذُّنُوبِ، حَتَّى كَثُرَ الْخَيْرُ بِمَجَالِسَتِهِ، وَالنَّسْكَ فِي أَهْلِ عَصْرِهِ بِرِقَّةِ حِكَايَاتِهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ التَّجِيبِي أَنَشِدَنِي:

ماذا تقول وليس عندك حجة	لوفد أتاك منغص اللذات؟
ماذا تقول إذا دعيت فلم تجب	وإذا سئلت وأنت في غمرات؟
ماذا تقول وليس حكمك جائزاً	فيما تخلفه من التريكات؟
ماذا تقول إذا حللت محلة	ليس البغات من أهلها بثقات؟

(1) في ت: ابن قمره.

قال أبو بكر: شهدتُ بمسجد السبت وقد قال بعض القُرَّاء:

أمن بعد سِتِّينَ تبكي الطلولا وتندب ربعاً ويباباً⁽¹⁾ محيلاً
وقد ضحك الشَّيبُ في عارضيكَ وجَرَّ على مفرقك الذيولا

فقام وهو مستغرق في حاله ثم قال: من لم يصلح الماضي بالآتي أخذ بالوقتَيْن، ودخلت عليه حين موته، وقد سجي بثوب، وإنه لمتبسم على سريرهِ حتى غسل، ولم يوجد له كَفَنٌ، ولا ما يحفر به قبره، فَكَفَّنَهُ أبو محمد بن أبي زيد. توفي يوم السبت السابع عشر من شعبان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وتوفي أبو محمد ابن أبي زيد بعده بثلاثة أيام يوم الاثنين.

239 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد واسم أبي زيد عبد الرحمن النفزاوي⁽²⁾
نَسَباً القيرواني مولداً وَمَنْشَأً وَمَدْفَناً⁽³⁾:

قال: سمع بإفريقية من أبي بكر محمد بن محمد بن اللَّبَّاد وعليه كان اعتماده في الفقه، وسمع من عبد الله بن مسرور بن الحجام، وأبي عبد الله محمد بن العسال، وحبيب بن الرُّبيع، ودارس بن إسماعيل الفاسي الجراوي، والحسن بن نصر التوزري، وأبي الحسن حسن بن محمد الخولاني، وأبي الفضل العباس بن الممسي، وأبي ميسرة أحمد بن نزار، وأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم، وعبد الله بن سعيد الحداد، والحسن بن بدر، وحبيب بن أبي حبيب الجزري⁽⁴⁾، ومحمد بن موسى القطان، وسعدون الخولاني، وأبي الحسن الكنايسي، وأبي عبد الله محمد بن الفتح المرجي، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وأبي بكر بن سعدون؛

(1) في ت: وآبا.

(2) النفزاوي = نسبة إلى نفزة تقع شمال تونس قرب باجة، تبعد عن البحر المتوسط بـ 100 ميل. راجع في هذا المسالك والممالك للبكري 2/ 224، الروض المعطار ص: 578، وصف إفريقيا: 2/ 145، وفي ت: النفزي.

(3) ترجم له في: فهرست ابن النديم ص: 283 - 284، فهرسة ابن خير الإشبيلي ص: 446 - 454 - 463 - 1285 هذه أرقام التراجم، ترتيب المدارك 6/ 215 - 222 طبعة فضالة وزارة الأوقاف المغرب، 4/ 492 - 497 (طبعة بيروت) الديباج المذهب ص: 222 - 223، شذرات الذهب 3/ 131، شجرة النور الزكية 1/ 143 - 144 رقم 265، كتاب العُمُر 2/ 643 - 649. للمزيد انظر مصادر ترجمته في كتاب العمر 2/ 649.

(4) في ترتيب المدارك: الجزولي 4/ 493.

وأجازه من أهل المشرق: أبو سعيد بن الأعرابي، وإبراهيم بن أبي بكر بن المنذر، عن أبيه، وأبي بكر الأبهري وجماعة من البغداديين.

قلت: وَتَفَقَّهَ عَلَيْهِ جُلَّةٌ مِنَ الْقُرُوبِيِّينَ، وَالْأَنْدَلُسِيِّينَ، وَأَهْلَ الْمَغْرِبِ. فَمِنَ الْقُرُوبِيِّينَ: أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو الْقَاسِمِ خَلْفُ الْبِرَازَعِيِّ، وَأَبُو الْقَاسِمِ اللَّبِيدِي، وَغَيْرُهُمْ.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْعِبَادَةِ، وَالْوَرَعِ، وَالْفَضْلِ، وَالْإِحْسَانِ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، انْتَشَرَتْ إِمَامَتُهُ فِي الْعِلْمِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَظَهَرَتْ فَضَائِلُهُ وَفَوَاضِلُهُ بُعْدًا وَقُرْبًا، وَاحِدَ الزَّمَانِ، جَلَالَةً وَعِلْمًا، فَرِيدَ الْعَصْرِ عَقْلًا وَفَهْمًا، مَعَ وَرَعٍ حَاجِزٍ، وَحَسَنِ سَمْتٍ وَوَقَارٍ وَارْتِفَاعِ هِمَّةٍ وَعَذُوبَةِ أَلْفَاظٍ، وَمَلَا حَةَ إِيرَادٍ، وَجَزَالَةٍ مَعَانٍ ضَرَبَتْ إِلَيْهِ الْأَكْبَادُ مِنْ سَائِرِ الْبُلْدَانِ.

قلت: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ إِمَامَ الْمَالِكِيَّةِ فِي وَقْتِهِ، وَقَدَوْتُهُمْ، وَجَامِعَ مَذْهَبِ مَالِكٍ وَشَارِحَ أَقْوَالِهِ وَكَانَ وَاسِعَ الْعِلْمِ، كَثِيرَ الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ، كُتِبَتْ لَهُ بِذَلِكَ، فَصِيحَ اللِّسَانِ⁽¹⁾ ذَا بَيَانٍ وَمَعْرِفَةٍ بِمَا يَقُولُهُ، ذَاتًا عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ، قَائِمًا بِالْحُجَّةِ عَلَيْهِ، بِصِيرَةٍ بِالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، يَقُولُ الشَّعْرُ⁽²⁾ وَيُجِيدُهُ، وَيَجْمَعُ إِلَى ذَلِكَ صِلَاحًا تَامًا، وَوَرَعًا وَعِفَّةً، وَحَازَ رِئَاسَةَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَإِلَيْهِ كَانَتِ الرَّحْلَةُ فِي الْأَقْطَارِ، وَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِي: كَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ إِمَامًا مُؤَيَّدًا مُوثِقًا بِهِ فِي دِرَايَتِهِ وَرِوَايَتِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ⁽³⁾: اجْتَمَعَ فِي أَبِي مُحَمَّدٍ الْعِلْمُ، وَالْوَرَعُ، وَالْفَضْلُ، وَالْعَقْلُ وَشُهْرَتُهُ⁽⁴⁾ تُغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ⁽⁵⁾. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَطَّانُ: «مَا قَلَّدْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ حَتَّى رَأَيْتُ السَّبَائِي يُقَلِّدُهُ»⁽⁶⁾. وَقَالَ الشِّيرَازِيُّ: «كَانَ يُعْرَفُ بِمَالِكٍ

(1) في ترتيب المدارك، والديباج نقلاً عن الترتيب، وشجرة النور: فصيح «القلم»، وفي ت: فصيح العلم.

(2) في ط: الشرع، ولعله خطأ مطبعي، التصويب من: ت.

(3) في ترتيب المدارك القائل هو: أبو عبد الله الميوزقي 493/4.

(4) في ط و ت سيرته. التصويب من ترتيب المدارك، والديباج.

(5) الخبر في ترتيب المدارك: 493/4، والديباج ص: 222.

(6) ترتيب المدارك: 493/4، والديباج ص: 222.

الأصغر»⁽¹⁾. وَزَادَ غَيْرُهُ وَبَقِطَبِ الْمَذْهَبِ وَكَانَ إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ يَرَى بَيَانَهُ فِي النَّوْمِ، وَيُقَالُ: لَوْلَا الشَّيْخَانِ، وَالْمُحَمَّدَانِ، وَالْقَاضِيَانِ، لَذَهَبَ الْمَذْهَبُ، فَالشَّيْخَانِ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ وَأَبُو بَكْرٍ الْأَبْهَرِيُّ، وَالْمُحَمَّدَانِ مُحَمَّدُ بْنُ سَحْنُونٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمَوَازِ، وَالْقَاضِيَانِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْقَضَّارِ وَكَانَ مُؤَيِّدًا فِي فِتَاوِيهِ وَتَوَالِيْفِهِ مِنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَرِيزَةَ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1] قَالَ: سَمِعْتُ بَعْضَ شُيُوخِنَا يَحْكِي، أَنَّهُ تُوْفِيَتْ امْرَأَةٌ بِالْقَيْرَوَانِ كَانَتْ مَشْهُورَةً بِالزَّنى، فَلَمَّا جَاءَتْ الْغَاسِلَةَ لِتَغْسِلَهَا وَهِيَ مَيِّتَةٌ ضَرَبَتْ بِيَدِهَا عَلَى فَرْجِهَا وَقَالَتْ: قَدْ طَالَ مَا عَصَيْتِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِهَذَا الْفَرْجِ! فَالْتَصَقَتْ يَدُ الْغَاسِلَةِ بِفَرْجِ الزَّانِيَةِ، فَجَاءَ النَّاسُ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فَأَخْبَرُوهُ بِالْقَضِيَةِ فَأَمَرَ بِأَنْ يُقَامَ عَلَى الْغَاسِلَةِ حَدُّ الْقَذْفِ ففعل ذلك فزالَت يَدُهَا.

قلت: ويعني بعد طلب الوارث ماله.

قال: وله تَوَالِيْفٌ كُلُّهَا نَبِيْلَةٌ مِنْهَا: كِتَابُ «النَّوَادِر»⁽²⁾، وَكِتَابُ «المَخْتَصَرِ لِلْمَدُونَةِ»⁽³⁾، وَكِتَابُ «الرِّسَالَةِ»⁽⁴⁾، وَكِتَابُ «الْاِقْتِدَاءِ»⁽⁵⁾، وَكِتَابُ «الذَّبُّ عَنْ مَذْهَبِ مَالِكٍ»⁽⁶⁾، وَرِسَالَتُهُ فِي «رَدِّ الْمَسَائِلِ»⁽⁷⁾، وَكِتَابُ «الْمُضْمُونُ مِنَ الرِّزْقِ»⁽⁸⁾ وَكِتَابُ

(1) ترتيب المدارك: الصغير.

(2) اسمه الكامل: «النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات» تم طبعه في 15 مجلد بدار الغرب الإسلامي بيروت لبنان سنة (2000)، شارك في تحقيقه الدكتور عبد الفتاح الحلو، والدكتور المرحوم محمد حجي، ومحمد عبد العزيز الدباغ، ومحمد الأمين بوخبزة، وأحمد الخطابي، والدكتور عبد الله المرابط الترغي.

(3) «مختصر المدونة» قال ابن النديم في الفهرست ص: 284 «يحتوي على نحو خمسين ألف مسألة» توجد منه نسخة بالخزانة العامة الرباط تحت عدد 1781 د ونسخة مخطوطة أيضاً بخزانة ابن يوسف بمراكش تحت عدد (803) تاريخ نسخها 530 هـ بتلمسان وهي مبنية الأولى. ولقد طبع منه الجزير الأخير باسم «الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ»، بتحقيق الدكتور عبد المجيد تركي في مجلد عدد صفحاته 640 صفحة. الطبعة الأولى، 1990. دار الغرب الإسلامي بيروت.

(4) الرسالة: متن فقهي مختصر ومفيد طبعت عدة طبعات، وعليها عدة شروح.

(5) ورد اسمه في ترتيب المدارك باسم «الاقتداء بأهل السنة» وفي الديباج: «الاقتداء بأهل المدينة». وفي فهرسة ابن خير «الأمر والاقتداء» ص: 213 رقم 456.

(6) ترتيب المدارك: 4/494، فهرسة ابن خير ص: 213 رقم 463، الديباج ص: 226.

(7) في الديباج: «رد السائل»، وفي ترتيب المدارك كما في «ط». ولعل الصواب ما في الديباج.

(8) ترتيب المدارك: 4/494، الديباج 223.

«المعرفة واليقين» و«التوكل»⁽¹⁾ وكتاب «المناسك»، وكتاب شرح «مسألة الحبس»⁽²⁾ وكتاب «إعجاز القرآن»⁽³⁾ وكتاب «التنبيه»⁽⁴⁾، وكتاب «رَدُّ الْخَاطِرِ مِنَ الْوَسْوَاسِ»⁽⁵⁾، وكتاب «قيام رمضان والاعتكاف»، وكتاب «إعطاء الزكاة للقرابة» وكتاب «كشف التُّلَيْسِ»، وكتاب «الرد على ابن مَسْرَّة»⁽⁶⁾ المارق»، وكتاب «حماية عرض المؤمن»، ورسالة «وَعَظٌ» وَوَعَظَ بِهَا مُحَمَّدُ بْنُ الطَّاهِرِ الْقَائِدِ، وكتاب فيه «حكايات عن ابن الحداد»، وَأَوَّلُ تَوَالِيْفِهِ: «الرَّسَالَةُ» كَانَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبَائِي سَأَلَهُ وَهُوَ فِي سِنِّ الْحَدَاثَةِ أَنْ يُؤَلِّفَ لَهُ كِتَابًا مُخْتَصَرًا فِي اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ مَعَ فِقْهِهِ وَأَدَابِ لِيَتَعَلَّمَ ذَلِكَ أَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ، فَأَلَّفَ الرِّسَالَةَ وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةً، وَسِنُّهُ إِذْ ذَاكَ سَبْعٌ عَشْرَةَ سَنَةً.

قلت: وقال أبو عبد الله محمد بن سلامة التونسي، وأبو علي ناصر الدين البجائي: إنما سألته تأليفها الشيخ المؤدب محرز بن خلف التونسي، وهذا هو الصَّحِيحُ عِنْدِي، لَأَنَّ قَوْلَ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ كَمَا تَعَلَّمَهُمْ حُرُوفَ الْقُرْآنِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا مِمَّنْ تَعَرَّضَ إِلَى مَنَاقِبِ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَائِي ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ مُؤَدِّبًا، وَلَا يُقَالُ: لَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ مَعًا، سَأَلَاهُ وَأَسْعَفَهُمَا؛ لِأَنَّ إِفْرَادَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَيَّاكَ» يَأْبَاهُ.

(1) في ترتيب المدارك، والديباج: «الثقة بالله والتوكل على الله» وزيادة سبحانه في ترتيب المدارك.

(2) في الترتيب، والديباج: «مسألة الحبس على ولد الأعيان».

(3) في الترتيب، والديباج: «البيان عن إعجاز القرآن».

(4) في الترتيب، والديباج: «التنبيه على القول في أولاد المرتدين».

(5) في الترتيب، والديباج: «كتاب الوسواس».

(6) في ت و ط، وكذا في معالم الإيمان الجزء الثالث ص: 111 المحقق للأستاذ ماضور:

اسمه: «أبي مَسْرَّة» والصواب ما أثبتناه من: كتب مترجميه. اسمه الكامل: محمد بن عبد الله بن مَسْرَّة بن نجيج من أهل قرطبة، يُكْنَى أبا عبد الله. اتهم بالزندقة فخرج قَارًا، وَتَرَدَّدَ بِالْمَشْرِقِ فَاشْتَغَلَ بِمَلَاقَاةِ أَهْلِ الْجَدَلِ، وَأَصْحَابِ الْكَلَامِ وَالْمَعْتَزَلَةِ، وَكَانَ يُحَرِّفُ النَّأْوِيلَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقُرْآنِ تَوَفِيَ سَنَةَ 319 هـ، وَهُوَ ابْنُ خَمْسِينَ سَنَةً. ترجم له في: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ص: 323 - 324 رقم 1204، جذوة المقبس في ذكر وُلاة الأندلس للحميدي ص: 56 رقم 83، بغية الملتبس للضبي ص: 76 رقم 163، أخبار الفقهاء والمحدثين للخُشْنِي ص: 134 - 135 رقم 209.

قال: فانتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين، حتى بلغت العراق، واليمن، والحجاز، والشام، ومصر، وبلاد الثوبة، وصقلية، وجميع بلاد إفريقية، والأندلس، والمغرب، وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً.

قلت: ولما فرغ من تأليفها كتب منها نسختين وبعث بواحدة إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، فوصلت إليه فأظهر الفرح بها، وأشاع خبرها بين الناس، وأثنى عليها وعلى مؤلفها، وأمر ببيعها ليحسن بثمنها إلى الواصل بها فبيعت بمائتي دينار دراهم، فقال: لا تباع إلا وزناً بوزن، ففعل ذلك، فجاء وزنها ثلاثمائة دينار، ونيفاً، وبعث بالأخرى إلى أبي بكر بن أبي زرب بقرطبة فوصلت إليه فأخفاها، وأخذ في تأليف كتاب «الخصال» عوضها، فبعد ذلك، أظهرها فقال لسان الحال: «وطئوا ووطأنا وسيظهر ما كان(*) لله». فكتب أبو محمد إلى الأبهري يخبره بما فعل ابن زرب فراجع الأبهري برسالة يقول فيها:

[أعجب ما في الأمور عندي	إظهار ما تدعي القلوب ⁽¹⁾
تأبى نفوس نفوس قوم	ما لهم عندهم ذنوب
وتصطفى أنفس نفوساً	ومالها عندهم غيوب
ما ذاك إلا لمضمرات	يعلمها الشاهد الرقيب

ومدحها القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي فقال:

رسالة علم صاغها العلم النهدي ⁽²⁾	قد اجتمعت فيها الفرائض والرؤد
أصول أضأت بالهدى فكأنما	بدى لعيون الناظرين بها الرشد

(*) هذه الكلمة: «وسيطر ما كان لله» تذكر بقوله مالك لما صنف «الموطأ»، وأخبر بأن عبد الله بن وهب المصري رحمه الله صنف كتاباً سماه «الموطأ» فقال مالك: «يبقى ما كان لله»، فصار كتاب مالك مثل الشمس في الشهرة وكثرة النسخ، وكتاب ابن وهب قل من يعرفه.

(1) هذا البيت ساقط من ترتيب المدارك. والأبيات وردت في هذا المرجع على الشكل التالي:

تأبى قلوب قلوب قوم	ومالها عندها ذنوب
وتصطفى أنفس نفوساً	ومالها عندها نصيب
ما ذاك إلا لمضمرات	أضمرها الشاهد الرقيب

(2) النهدي: المرتفع. أي: ينهد إلى معالي الأمور.

وفي صدرها علم الديانة واضحاً وأدبُ خير الخلق ليس لها نَدُّ⁽¹⁾
لقد أمّ بانيها السداد فذكره بها خالد ما حج واعتمر الوَفْدُ

وشرحها القاضي أبو محمد⁽²⁾ هذا في نحو من ألف ورقة منصوري، وأول نسخة من هذا الشرح بيعت بمائة مثقال ذهباً، ولما كان القصد بها أن تُعَلِّمَ لأولاد المسلمين، لم يبقَ بلدٌ من بلاد الإسلام إلا بلغت إليه، ولم يكن أحدٌ من الفقهاء إلا وهو يُثني على أبي محمد ويصفُ كماله في العلم. وذكر أن القاضي أبا بكر بن الطيب الباقِلَانِي، ذكر أبا محمد في بعض تواليه واعتذر عنه فيما نسب إليه من إنكار الكرامات، ولم يكن مذهبه إنكار سائرهما، وإنما كان يبلغه عن ابن الصقلي أشياء الله أعلم بها وبصحتها، كأنها عنده من جنس المحالات، فكان يُنكر ذلك، وكيف وهو يحكي كثيراً من الكرامات عن أبي إسحاق السبائي، ومنها ما جرى له معه في قصة ابنته، حيث مرضت عيناها فَرَقَّاهَا أبو إسحاق من داره وهي في دارها فبرئت من حينها.

قلت: وتقدم عند التعريف بالسبائي عن أبي محمد أنها برئت في ثلاث.

قال: ولأبي محمد جزء في إثبات كرامات الأولياء، وكان رحمه الله تعالى مُتَفَنّاً في علوم كثيرة منها: علوم القراءات، وتفهم القرآن، وحديث رسول الله ﷺ تسليماً، ومعرفة رجاله، وأسانيده، وغريبه، والفقهاء البارِع، وآثار العلماء وكتب الرقائق المواعظ والآداب.

ذكر جوده وسخائه

قال: كان رحمه الله من الأجواد، وأهل الإيثار والصدقة، كثير البذل للفقراء والغرباء، وطلبة العلم، كان يُنفق عليهم، وَيَكْسُوهُمْ، وَيَزُوْدُهُمْ، وقد ذكر أنه بعث إلى القاضي أبي محمد عبد الوهاب بألف دينار عيئاً.

(1) نَدُّ: شريك، ونظير.

(2) هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي الحافظ الحجة له شرح على رسالة ابن أبي زيد. توفي رحمه الله تعالى سنة 422هـ/1030م. ترجم له في ترتيب المدارك 4/691 - 695، فهرسة ابن خير ص: 210 رقم 444، وص: 211 رقم 447..، الديباج المذهب ص: 261 - 262، شذرات الذهب 3/223، شجرة النور الزكية 1/154 - 155 رقم 302.

قلت: وكان شَيْخُنَا أبو الفضل أبو القاسم بن أحمد البُرْزُلي يزيد فلما بلغته قال: هذا رجلٌ وَجَبْتُ علي مكافأته فَشَرَحَ الرِّسَالَةَ.

قال: ووصل يحيى بن عبد الله المغربي حين قدم القيروان بمائة وخمسين ديناراً ذهباً، وَجَهَّزَ ابنة الشيخ أبي الحسن القاسمي بأربعمائة دينار عَيْناً. وقال: كنتُ أَغْدِذْتُهَا من حين إِمْلَاكها لثلاثين يشتغل قلب أبيها من قبلها، وبعث إلى الفقيه أبي القاسم بن شَبْلُون في مَرْضَةٍ مرضها بخمسين ديناراً ذهباً، وذكر الفقيه أبو بكر بن أبي العباس الصقلي يوماً أبا محمد في مجلس فتاويه وذكر فضائله فبكى وقال: كان أعطاني أيام طلبي عليه بالقيروان جارية، وَأَنَّ وَلَدِي هذا منها، وأشار إلى وَلَدِهِ، وله صَنَائِعُ مشكورة، ولقد حَدَّثَنِي الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن سَيِّدِ النَّاسِ اليَعْمُري، عن أبيه، عن الحافظ أبي الربيع سُلَيْمَان بن محمد المقرِّي، عن ثقة شيوخه؛ أن بعض طلبة الأندلس، وصل إلى الفقيه أبي محمد للقراءة عليه فأكرمه وأنزله وأجرى عليه ما يحتاج إليه مِنْ نفقة، وجعله إمام مسجده فبينما هو ذات يوم خارج من داره إلى الصلاة وكانت دَارُهُ التي أنزله فيها، مجاورة للمسجد في قُبَالَةِ حَمَّام أبي محمد، إِذْ نَظَرَ إلى امرأة خارجة من الحمام، وقد كَشَفَتْ عَنْ وَجْهِهَا لِمَا نَالَهَا مِنْ حَرِّ الْحَمَامِ، ولم تظن أن أحداً ينظر إليها، فَلَمَّا رَأَتْهُ سَتَرَتْ وَجْهَهَا وانصرفت فَقَيَّدَتْ بَصَرَهُ، وأخذت مِنْ نَفْسِهِ مأخذاً عظيماً فَتَبِعَهَا إلى أن دخلت دار الفقيه أبي محمد بن أبي زيد، والفقيه أبو محمد ينظر إليه في تلك الحالة، فلما رآه ينظر إليه، سقط ما في يده، وداخله من الحياءِ وَالْخَجَلِ، ما لا مَزِيدَ عَلَيْهِ، ورجع إلى دَارِهِ حزيناً كَثِيباً، فلما تَأَخَّرَ عن الصَّلَاةِ أتاه المؤذن يؤذنه بها، وأعلمه أَنَّ الشيخ أبا محمد بعث إليه فَاتَى فَصَلَّى بالناسِ ثم أخذ الفقيه معه في المَذَاكِرَةِ والمُؤَانَسَةِ، إلى أن صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ، فقال له أبو محمد: إِنصَرِفْ إلى دارك حَتَّى أَصِلَ إِلَيْكَ، فلم يشك أنه يقول له في ذلك، وَظَنَّ سُوءاً، وعاد إليه حزنه وكآبته، فَلَمَّا وَصَلَ إلى دَارِهِ، لم يجلس إلا وأبو محمد في إثره، فقال له: يا بني إنما جئتكَ مُعْتَذِراً من تَقْصِيرِي في حَقِّكَ إِذْ لَمْ أَقُمْ بِجَمِيعِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وذلك أَنِّي لَمْ أَتَفَقَّدْ أَنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى النِّسَاءِ، فَإِنَّكَ شَابٌّ، وها أنا شيخٌ أحتاجُ إلى الزيادة من ذلك فكيف أنت؟ وَأَمَّا الصَّبِيَّةُ التي رأيتها خارجة من الحَمَّامِ، فَإِنِّي رَيَّيْتُهَا صَغِيرَةً لِنَفْسِي وَهِيَ لَكَ، وما آخرتها لهذا الْوَقْتِ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الدَّارِ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ يَصْلَحُونَ مِنْ شَأْنِهَا،

فلم يَبْرَحْ حتى وصلتِ الصَّبِيَّةُ بجميع ما تحتاجُ إليه من ثيابٍ وحلي، وفرش، وتركها في منزله وأنصرفت.

قلت: يعني بعد أن عقدَ له النِّكاحَ عليها، وإنما سَكَنُوا عنه لوضوحه وَاَعْجَبَاهُ! هكذا كان خَوَاصُّ العُلَمَاءِ في أخلاقهم وإنصافهم وإعانتهم، ولو وقع اليوم أقل من هذا لتلميذ مع شَيْخِهِ، لما نظر له في وجهه، وَلَا صَلَّى وَرَاءَهُ أَبَدًا، ولا يقدمه في خطة شرعية، ولا يقبلُ له تَوْبَةً أَبَدًا، وكان شَيْخُنَا أبو الفضل البُرْزُلي حَفِظَهُ اللهُ تعالى إذا نقل هذه الحكاية يقول إنما تبعها ليعرف دَارَهَا حتى يَسْأَلَ عَنْهَا هل لها زوج أم لا، فإن لم يكن لها زَوْجٌ خَطَبَهَا، فَتَبِعَهَا حَتَّى دَخَلَتْ دَارَ الشَّيْخِ، فَخَجَلَ فَرَفَعَ بَصَرَهُ وإذا بالشَّيْخِ ينظره وهو جالس من طاقَةٍ في عُلوِّ داره، وكان شَيْخُنَا المذكور ينقلُ غيرَ مَرَّةٍ حكاية أخرى وهي أن ابنة الشَّيْخِ أبي محمد دخلت حَمَّامًا في أول الليل، فأطالت الإقامة وهي معتقدة أن أول اللَّيْلِ لم يزل، فَلَمَّا خَرَجَتْ لَمْ تَجِدْ أَحَدًا يمشي فَخَافَتْ إِنَّ هِيَ مَشَتْ إِلَى دَارِ أَبِيهَا قَدْ يَقَعُ بِهَا مِنْ يُوْذِيهَا، فَضَرَبَتْ بَابَ عُلُوِّ، فخرج لها منه رجلٌ فقال لها: ما تُريدين؟ فقالت: كنتُ في الحَمَّامِ، واعتقادي أن أول اللَّيْلِ لم يزل، وخفتُ إنْ مَشَيْتُ إِلَى دَارِي يضرني من يجдени، فأحببتُ أنْ أُبَيِّتَ عندكم حتى يطلع النهار، فقال: إفعلي فوجدتُ رجلاً من طلبة العلم وكتبه بين يديه، فأخذ ينظرها وليس معه في الموضع أحدٌ فخافت منه، فلما كان بعد سَاعَةٍ وَسَوْسَهُ الشَّيْطَانُ لَعَنَهُ اللهُ تعالى وقال له: هذه طفلةٌ جميلة الصورة، جاءت لمكانك. فقال: لا أفعل فإنَّ النَّارَ عَظِيمَةٌ، وَطَرَدَ ذَلِكَ عَنْهُ فَعَاوَدَتْهُ الْوَسْوَسةُ فَأَخَذَ يَعْطُ نَفْسَهُ بِالنَّارِ، فلم تَنْتَهِ فَأَخَذَ أَصْبَعَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى ذُبَالَةِ الْمَصْبَاحِ، وقال لنفسه: نَارُ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ، فهل لك صبراً عليها؟ وجعلَ ينقلُ أَصَابِعَهُ الْعَشْرَةَ عَلَى الذُّبَالَةِ، وَالنَّارُ تَشُوْطُهَا وَهِيَ تَنْظُرُ، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ، حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فقال لها: سَلِّمِي اللهُ وَإِيَّاكَ، وإن الفجر قد طلع، فامشي إلى داركِ فمشت فوجدت أمها خلف الباب وهي تلتهبُ عليها فقالت لها: يا بنية لعلك سالمة قالت: سالمة، وأعلمتها كيف جرى لها، وأعلمت والدتها والدها أبا محمد فجعل الشَّيْخُ ينظر في طلبته لعله يعرف الرجل، فلما جاءت الدولة إليه أخذ الْكِتَابَ ليقْرَأَ فيه بيديه وهما مغطياتان في كفه، فعلم أنه هو، فلما فرغ الميعاد وأخذ الناس في الخروج، وأراد الرجل الخروج كغيره، أشار إليه الشَّيْخُ بالجلوس فسأله عن كونه لم يخرج يديه؟ فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ علم أنه صاحبه، فعرفه أنها

ابنته وزوجه إِيَّاهَا. واعجباه! هكذا، كان خوف العلماء من النَّارِ، فَغَلَبَ نَفْسَهُ رَحِمَهُ
الله تعالى وصبر فربح خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ذكر كراماته وبقية أخباره

كان رحمه الله تعالى يفتتح مجلسه بجواب سؤال السائلين عن غوامض
المسائل ودقائقها وربما قال: حَدَّثَنِي نَفْسِي أَنَّ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ كَذَا، وَكَذَا سُؤَالاً
فَأَيْكُمْ صَاحِبُ سُؤَالِ كَذَا؟ فيقول بعض الحاضرين: أَنَا، فَيُجِيبُهُ، قَالَ: ذَكَرَ أَنَّ
المؤدب محرز بن خلف التونسي رحمه الله قصد إلى زيارة أبي محمد، فلما دخل
إلى داره أتوه بابنة الفقيه أبي محمد ليدعو لها، وكانت قد أقعدت فِدْعَا لَهَا، فَقَامَتْ
عَلَى قَدَمَيْهَا وَمَشَتْ مِنْ سَاعَتِهَا، فكثر التعجب من ذلك! فقال المؤدب محرز: وَالله
مَا قُلْتُ إِلَّا «اللَّهُمَّ بِحُرْمَةِ أَبِيهَا عِنْدَكَ أَكْشِفْ مَا نَزَلَ بِهَا» فشفاه الله ببركة أبيها.

قلت: ومثل هذه سمعتُ ممن يُوثَقُ به؛ أَنَّ مؤدب أولاد الشيخ أبي محمد،
ضرب واحداً منهم بِسَوْطٍ فَأَخْطَأَ السَّوْطَ، فجاء على عينه فسالت، فبادر وَرَدَّ الْعَيْنَ
لموضعها، ورمق ببصره إلى السَّمَاءِ وَدَعَا بِدُعَاءٍ خَفِيٍّ وَأَزَالَ يَدَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ
الْعَيْنَ كَمَا كَانَتْ، وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَنْظُرُ مِنْ طَاقٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي عُلوٍّ لَهُ شَارِفٌ عَلَى
المكتب، فوقع بَصَرُهُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ، فبادر إلى دَوَاةٍ، وَقَلَمٍ، وَوَرَقٍ، وَأَتَى إِلَى
المؤدب، فَأَخَذَ الْمُؤَدَّبُ يَعْتَذِرُ فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: كُلْ ذَلِكَ رَأَيْتَهُ، وَلَكِنْ أَمَلْ عَلَيَّ
الدُّعَاءَ الَّذِي دَعَوْتَ بِهِ لثَلَا تَنْسَاهُ لِأَدْعُو بِهِ لِنَفْسِي فَقَالَ: يَا شَيْخُ لِمَا رَأَيْتَ مُصِيبَتِي
عَظُمَتْ، دَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ بِبَرَكَةِ وَالِدِهِ رُدِّ عَيْنَهُ كَمَا كَانَتْ.

قال: رُوِيَ أَنَّ الْمُؤَدَّبَ مُحْرَزاً، زَارَ الشَّيْخَ أَبَا مُحَمَّدٍ بِالْقَيْرَوَانِ عَلَى عَادَتِهِ
فَبَاتَ عِنْدَهُ لَيْلَةً، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَهَابِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ قَامَ الشَّيْخُ مُحْرَزُ
لِحَزْبِهِ، فَطَلَبَ الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدْهُ فَقَالَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ: قُلْ لِلْخَادِمِ تَكُنْسُ السَّطْحَ، وَتَفْتَحُ
الْمِيزَابَ ففعل، ورقى محرز السَّطْحَ ودعا ما شاء الله فأقبلت سحابة بماءٍ غزيرٍ وامتلاً
ماجل الدار، ثم نزل محرز واستقى الماء وتوضأ جميعاً وقضيا، وردهما فلما أصبح
خرج أبو محمد لمجلسه فأخبر أصحابه بما نزل من المطر، فقالوا: مَا نَزَلَ عِنْدَنَا
مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَطَرُ إِلَّا بِمَقْدَارِ دَارِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ، وَلَمْ يَنْزِلْ بِالْأَدَارِ
الْمُلَاصِقَةِ لَهَا شَيْءٌ.

قلت: هذه الكرامة إنما هي مختصة بالشيخ مُحَرِّز، فليس لأبي محمد فيها شيء، فتذكر في كرامات المؤدب محرز.

قال: حَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَرِّزِ بْنِ السَّراج، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ خَلْفُ ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ الصَّدْفِي، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَعْدُونَ، أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَابَسِي، أَنَّ رَجُلًا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ تَسْلِيمًا فِي الْمَنَامِ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَى ابْنِ أَبِي زَيْدٍ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: جَزَاكَ اللَّهُ عَنْ نَبِيِّكَ خَيْرًا.

قلت: وكان بعض الثقات من أصحابنا يزيد في هذا الحديث، لأنك حفظت على أمتي دينهم في قولك، ويسترخي قليلاً ويذكر أن أبا محمد لم يسبقه أحد إلى هذا التنبيه.

قال: وكان رحمه الله تعالى كثير الإشفاق على ما كان عليه من الاجتهاد في الخير، قال أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد اللبيدي: اجتمع عيسى بن ثابت بالشيخ أبي محمد بن أبي زيد فجرى بينهما بُكَاءٌ عظيم، فلما أراد فراقه قال له عيسى: أَحِبُّ أَنْ أَكْتُبَ إِسْمِي عَلَى الْبَسَاطِ الَّذِي تَحْتَكَ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ دَعَوْتَ لِي، فبكى أبو محمد وقال له: قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]. فهب أني دعوت لك فأين عمل صالح يرفعه⁽¹⁾؟

قلت: وذكر عن أبي محمد أنه قام ليلة للوضوء فصب الماء من القلة في الإناء فانهرق، ثم صبه ثانياً فانهرق، ثم جرى له ذلك ثالثاً، فاستراب، وقال: يَتَمَرَّدُ عَلَيْنَا، فسمع من يقول له ولا يراه: إِنَّ الصَّبِيَّ بَالٍ، فَرَشَّ الْقُلَّةَ فَكَرِهْنَا وَضُوءَكَ مِنْهَا.

ذكر وفاته وما يتعلق بذلك

قال: توفي أبو محمد يوم الاثنين عند الزوال الموفي ثلاثين من شهر شعبان سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

قلت: وعاش ستاً وسبعين سنة.

(1) ورد الخبر في ترتيب المدارك: 496/4 مختصراً.

قال: وَصَلَّى عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابِسِيُّ بِالرَّيْحَانِيَةِ عِنْدَ بَابِ أَصْرَمَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ فِي جَمْعٍ لَا يَحْصُونَ، وَدَفَنَ بَدَارِهِ. وَرُوي عَنْهُ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ بَوْفَاتِهِ سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ وَقَالَ: الْآنَ انْكَشَفَتْ عَوْرَتِي لِمَا كَانَ يَنْوِبُ عَنْهُ فِي الْفَتْوَى؛ وَبَكَى عَلَيْهِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَعْمَى.

قال: ظاهر هذا أنه لم يُخْلَقْ أَعْمَى وَلَا عَمِيَ قَبْلَ مَوْتِ أَبِي مُحَمَّدٍ. وهو خلاف ما يَأْتِي لِعِيَّاضٍ فِي قَوْلِهِ كَانَ الْقَابِسِيُّ: «فَقِيهَا، أَصُولِيًّا، مُتَكَلِّمًا، مُؤَلِّفًا، مُجِيدًا، وَكَانَ أَعْمَى لَا يَرَى شَيْئًا»⁽¹⁾. وذكر أبو محمد أَنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ بَابَ دَارِهِ سَقَطَ فَمَاتَ عَنْ قَرِيبٍ.

قال: وقد رثى بمراث كثيرة تركتها لشرط الاختصار منها مرثية أبي زكرياء يحيى بن علي الفقيه الشقراطي يقول فيها:

وَحَادِثٌ حَلَّ أَنْسَى الْحَادِثَ الْجَلَدَا	خَطْبُ أَلَمٍ فَعَمَّ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
أَشْمُسْنَا كَسَفَتْ، أَمْ بَدَرُنَا أَفَلَا	نَاعٍ نَعَى ابْنَ أَبِي زَيْدٍ فَقَلْتُ لَهُ
أَمْ الْجِمَامُ بَعْدَ اللَّهِ قَدْ نَزَلَا	أَمْ مَادَتِ الْأَرْضُ وَارْتَجَّتْ بِسَاكِنِهَا
فَالصَّدْرُ صَادٍ وَمِنْ نَارِ الْأَسَى شِعْلَا	فَإِنْ يَكُنْ صَدْرُنَا حَامَ الْجِمَامِ بِهِ
أَبْكِي؟ وَهَلْ سَلَوَةٌ، وَالْبَدْرُ قَدْ أَفَلَا	رَزِيَّةٌ عَظُمَتْ أَتْرَاحُهَا أَفَلَا
وَزُلْزَلَتْ لِضَجِيجِ الْعَوِيلِ عِلَا	رُجَّتْ لِمَوْقِعِهَا الْأَرْجَاءُ وَارْتَجَفَتْ
وَكُلُّهُمْ كَلَّهُمْ خَطْبٌ بِهِ ذَهَلَا	وَالنَّاسُ مِنْ فِرْقٍ سَكْرَى عَلَى فِرْقٍ
وَمِنْ مَآثِرِهِ أَضَحَتْ لَنَا جَمَلَا	عَلَى الْجَلِيلِ الَّذِي جَلَّتْ مَفَاخِرُهُ
وَقَبْرُهُ بَسْنَا أَنْوَارَهُ ابْتِهَلَا	كُلَّ الْبَسِيطَةِ بَسَطَ الْحُزْنَ قَدْ بَسَطَتْ
قُطِبُ الْمَشَائِخِ نَوْرٌ لِلْهَدَى اكْتَمَلَا	وَكَيْفَ لَا وَوَلِيَّ اللَّهِ حَلَّ بِهِ
لَوْ كَانَ هَذَا الْمَكَانُ الْأَمْرُ قَدْ سَهَلَا	مَا بِالصَّلَاةِ وَلَا بِالصَّوْمِ فَاتِهِمْ
بَصْدَرُهُ فَلْيَهْنِ الصَّدْرُ مَا حَمَلَا	لَكِنْ بِسِرٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ أَوْقَرَهُ

قلت: وكنت كثير الزيارَةَ لقبره والجلوس بداره، وحفظتُ فيها كثيراً من ابن الحاجب، ويغلبُ على ظنِّي أن ما فتح اللَّهُ عَلَيَّ إِلَّا بِمَلازِمَتِي لِلدُّعَاءِ عِنْدَ قَبْرِهِ، وَقَبْرِ

(1) انظر هذا القول في: ترتيب المدارك ضمن ترجمة: «أبو الحسن علي القابسي» 4/ 616 -

617. وقد رواه الدباج هنا مختصراً.

الشيخ أبي الحسن القابسي ونحوهما، وكنت نويت في صغري إن كان مني شيء، أضع على رسالتي تأليفاً⁽¹⁾ فوفَّقني الله لذلك فألفته وأنا بتونس في حال القراءة بها، وفرغت منه في زمن قريب، خشية حضور أجلي، إذ ألفتُهُ في زمن الوباء، ووصل الموت وأنا أولف فيه ثلاثمائة كل يوم، فإذا وجدت في هذا التأليف بعض تقصير مني في حفظ المذهب فطالعه في شرح التهذيب⁽²⁾ تجده على أكمل وجه، ولما فرغت منه، رأيت في منامي أبا محمد بن أبي زيد وكأنه أعطاني قلنسوة وفيها أسطار مكتوبة في بعضها بعض مخو، فأخذت أجدد ذلك المحو وعملتها على رأسي فقدمت قاضياً بجزيرة جربة⁽³⁾ بأثر ذلك، وأقبل أشياخي وغيرهم على التأليف المذكور، فكان ينقل منه بحضرتي وغيبتي على شيخنا أبي مهدي عيسى الغبريني قاضي الجماعة بتونس، وشيخنا أبي الفضل أبي القاسم البرزلي وغيرهما، وله منذ الفتن ما يزيد على سبع وثلاثين عاماً ووضعت بعده شرحاً على تأليف الشيخ أبي القاسم ابن الجلاب⁽⁴⁾ وذلك في ثلاثة أسفار في القالب الصغير في شرح الرسالة، ووضعت على التهذيب تأليف الشيخ أبي سعيد البراذعي⁽⁵⁾، فشرحت منه على أكثره، وكل ذلك ينقله طلبتي بين يدي وينقل في مواعيد أصحابنا والله سبحانه قال:

(1) طبع شرح الرسالة لابن ناجي بمطبعة السعادة القاهرة سنة 1325 هـ مع شرح أحمد زروق الفاسي المتوفى سنة 899 هـ على الرسالة أيضاً.

(2) وهو شرح على تهذيب المدونة للبراذعي شرح كبير يوجد منه الجزء الخامس وهو الجزء الأخير بخزانة جامع القرويين بفاس تحت عدد 1120. ومنه عدة نسخ. راجع كتاب العمر 2/ 778 - 779.

(3) جزيرة جربة: جزيرة تونسية في خليج قابس، كلها منبسطة رملية يكثُر فيها النخل والكرم والزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة. للمزيد انظر: الروض المعطار ص: 158 - 159، وصف إفريقية 2/ 93 - 96، المسالك والممالك للبكري 2/ 271.

وقد قال عنها أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني في رحلته: وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً، وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرأ، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً... وأما عرضها فمختلف، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً وهو الطرف الواسع... ص: 121 - 122.

(4) شرح التفريع لابن الجلاب، ألفه قبل شرحه الكبير على التهذيب، توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية رقم 5808. للمزيد انظر كتاب: «العمر» 2/ 780.

وابن الجلاب هو عبيد الله بن الحسن أبو القاسم توفي سنة 378 هـ. ترجم له في: الديباج المذهب ص: 237.

(5) انظر نسخه في كتاب «العمر» كما أشرت إلى ذلك سابقاً: 2/ 778 - 779.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]. ونسأل الله عز وجل أن لا يُميتني حتى أكمله ليكون رحمة لي وللناس. ولما مشيت لتونس للقراءة مكثت خمسة أعوام ولم أزر القيروان وفيها والدتي ووالدي وإخوتي مع قرب الموضع، فحاسبت نفسي يوماً من أجل والدتي، وقلت: من محبتها في لا تبعث لي بالوصول إليها، لأنني قد لا نريد ذلك، فمن طريق البر إني أمشي إليها فمشيت فلما سلمت علي قالت لي: يا ولدي ما سبب وصولك وما بعثت وراءك؟ فأعلمتها بما تقدم فقالت لي: كذلك كنت أقول، فلما لم تنصف من نفسك بغير بعث مشيت إلى قبر الشيخ أبي محمد بن أبي زيد وقلت: يا شيخ ولدي الذي كان يقرأ عندك ابن الحاجب غاب عني يقرأ بتونس فله اليوم خمسة أعوام لم يزرني، اللهم يا رب بحرمة هذا الشيخ قلب قلب ولدي للوصول إلي فغلب على ظني أنه الوقت الذي تحرك فيه قلبي فأقمت عندها سبعة أيام، خاصة وأذنت لي في الرجوع فرجعت وكان رجل من أصحابنا عنده ابنة فعرضها علي للتزويج فأبيت، فأخذ يشكرها شكراً تاماً، وكنت صغير السن فتعلق بي مدي وصار يلأزمي وكنت إماماً فشق ذلك علي لأجل الصلاة بالناس لما قد عرفت من الخلاف في إمامة صاحب السلس فأتيت قبر الشيخ أبي محمد وبسطت له المسألة وتوسلت إلى الله تعالى بما قرأ وما قرىء عليه أن يرفعه عني، فرفعه الله فوراً وما رأيته إلى الآن، ولذلك نحو من أربعين سنة، وما أتيت قبر الشيخ أبي محمد ودعوت الله عنده في شيء إلا جعل الله من أمري فيه فرجاً ومخرجاً، وإذا كنت خائفاً من شيء ونقل نصل لقبره ندعو ثم نزاهد ولا نصل ننتكب في غالب الحال، ككوني أعزل عن قضاء بلدة أكون فيها، وقد عزلني السلطان أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز من بعض ولاياتي وامتلاً علي غيظاً لكثرة ما سمع، وما علم ما عندي، ووصلت إلى القيروان بأهلي فكننت أعمل فيها الميعاد كعادتي، فأكثر عند قبره بالدعاء والتضرع إلى الله عز وجل بما قرأ الشيخ وقرىء عليه، أن يعرف السلطان حالي وما أنا عليه، فقدمني شيخنا أبو مهدي عيسى رحمه الله تعالى قاضياً ببلد الأربص⁽¹⁾، وأمرني بالوصول لتونس لأخذ الظهير بها، فحضرت مجلس

(1) الأربص: في كتاب وصف إفريقيا كتبت الصاد «سيناً» أوربص وهي مدينة عتيقة بناها الرومان كما يدل اسمها على ذلك، تقع في سهل جميل جداً أرضها خصبة تزود بلاد تونس بالقمح والشعير تبعد عن تونس نحو تسعين ميلاً تكثر فيها الآثار الرومانية. للمزيد انظر: وصف إفريقيا ص: 65.

السلطان يوم توديع مشيخة تونس له لِسَفَرِهِ وهو في مَحَلَّتِهِ خارج تونس فقال الكاتب: اكتب في ظهير ابن ناجي أنه يعملُ الميعاد. فقال له شيخنا أبو مهدي: هو مُدَرِّسٌ مَلِيحٌ، وطالبٌ على ذلك، فما يفتقرُ لِلْكُتُبِ. وقال آخر: إِنَّهُ أَلَفَ على رِسَالَةِ ابن أبي زيد. وقال شيخنا البُرْزَلِي: وَأَلَفَ على غَيْرِهَا ويخطُبُ في خُطْبِهِ، فقال السلطانُ وإذا كان هكذا إذا مَلَّه أهلُ بلدٍ فليُنقل لبلدٍ آخر، فَإِنَّ عَزَلَ هذا أو مثله عجيب⁽¹⁾.

240 - ومنهم أبو عبد الله محمد صاحب الأرشاني المتعبد:

قال: كانت له سِيَّاحَاتٌ ورياضات ورباط وعزلة، وانْفِرَادٌ، وَحَجٌّ فوق العشرين حَجَّةً، وَصَامَ حتى نحل، وغارث عيناه وعلاه شُحُوبٌ. قال أبو بكر التجيبي أنشدني:

ارض بقوت تسعش عزيزا	سقيالحر كفاه قُوتُ
كم يرغبُ الرَّاغِبُ المعني	حَسْبُكَ فالرُّزْقُ لا يفوتُ
أَحْسَنْتُ ظَنِّي فَطَابَ عَيْشِي	عِلْمًا بِأَنِّي غَدًا أُمُوتُ

توفي رحمه الله سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وَصَلَّى عليه أبو الحسن القاسبي في جمع كثير وَدُفِنَ بباب نافع رحمة الله عليه ورضوانه لديه.

241 - ومنهم أبو بكر بن يوسف الخُزَاعِي المُتَعَبِّدُ:

قال: كان حسنَ البيان، رقيقَ الكلام، ذا عِبَادَةٍ وتلاوة، وصلاة طَوِيلَةٍ، وله لسانٌ في علم القرآن والمعاملة يُظْهِرُ الغِنَى ولا شيءٌ عِنْدَهُ، كثير الإيثار، صاحب كَرَامَاتٍ كثيرة مشهورة، ومعرفةً بالله وإخلاصٍ في معاملته، وَرُويَ أَنَّ سائلاً وقف ببابه في مَجَاعَةٍ ولم يكن عنده إلا ثمتان من قمح، فأراد صرفهما للسائل فاعترضته زوجته فقال لها: خُذِي أنتِ ثمنة، وأنا ثمنة، وحلف أن لا يأكل من ثمنتها شيئاً وأعطى ثمنته للسائل فصَلَّى العِشَاءَ الأخيرة ودخل دَارَهُ، فوجد فيها قفيزاً قمحاً وذلك أَنَّ بعض الناس قال له: قالت لي نفسي: ادفع قفيزاً قمحاً لِلشَّيْخِ أبي بكر في الحين، وإلا تموتُ في هذه الليلة، ثم عَاوَدَهُ الخاطرُ بما لم يقدر على دَفْعِهِ، فقام

(1) في ت: عجيب.

فحمل القفيز إلى دار الشيخ أبي بكر، فقال الشيخ أبو بكر لزوجته: لو دفعنا الثمتين للسائل لجاءنا قفيزان. وَحَكِي أَنَّهُ إِشْتَهَى يَوْمًا فُقَاعِيَّةً، فوقفَ على الجزارِ ليشتري لحماً بسببها فسأله سائل، فدفع إليه ما كان معه من الدراهم ولم يترك ما يأخذ به اللحم فتركه ومضى، فلما كان عند الفِطْرِ، قدمت له زوجته فُقَاعِيَّةً محكمة وخبزاً سميداً، فسألها عن ذلك؟ فقالت: وصل فلان بها، فلقيه بعد ذلك، وسأله فقال: اشتيتُ ذلك اللَّوْنُ فلما حَضَرَ وأعجبني، خَطَرَ بِيَالِي أَنْ أَبْعَثَهُ لَكَ، فبعثته. وَحَكِي موفق الحجام وكان يخدم الصالحين، وَيَخْلُقُ رُؤُوسَهُمْ قال: أصبحتُ يوماً في حانوتي فلم يأتني أحدٌ، فقلت: أَتَفَقَّدُ الشَّيْخَ أَبَا بَكْرٍ لعله يحتاجُ إلى خَلْقٍ رَأْسِهِ، فَأَخَذْتُ مَاعُونِي وقصدتُ إلى داره فلم أجده؛ وقيل لي: في دار أُخْتِهِ، فَلَمَّا وُصِلْتُ إلى الدار، نظرتُ من خلل الباب، وإذا بالشيخ أبي بكر جالسٌ على كرسي وأخته تَصُبُّ المَاءَ على رأسِهِ ليحلقه، فضربتُ البابَ، فقال لي الشيخُ: ادخلُ، فدخلتُ فحلقتُ رأسه. قال أبو بكر التَّجِيبِي أنشدنا الشيخ أبو بكر:

ذهبَ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ وَجْدِي وبقيتُ بعدَ فِرَاقِهِمْ وَخَدِي
سلفٌ مضوا وبقيتُ بَعْدَهُمْ وكذلك يمضي من بقي بعدي

قلت: وقال أبو بكر التَّجِيبِي أيضاً شهدته والقارىء يقول:

إن لأهلِ الخلودِ منزلة من ربهم في الجنانِ إذ نزلوا
يقولُ يا صَفْوَتِي رَضِيْتُ لَكُمْ داري ففِرْدَوْسُهَا لَكُمْ نُزُلُ
فلو رأيتهُم وهو يكلمهم وقد جزي القوم بالذي عملوا
يا لَكَ من مَشْهَدٍ ومن ملا يحضره الأنبياءُ والرسلُ

فبكى واضْطَرَبَ وخلته فارق الدنيا.

قال: وكان الشيخُ أبو الحسن القابسي يعظم الشيخُ أبا بكر ويصبُّ الماء على يديه عند الطعام وكان من دعاء الشيخ أبي بكر: «اللهم آمِني ميتةً هنيئةً ولا تحوجني إلى القصرية». فأجاب الله دُعَاءَهُ فَوُجِدَ جالساً مستقبل القبلة وهو مَيِّتٌ. ولم يحتج إلى قصرية ولا غيرها، وَصَلَّى عليه الشيخ أبو الحسن القابسي، وَدُفِنَ بِسُدُسِ اللَّيْلِ، وخرج العاملُ على القيروان إلى قبره بالمشاعل، ولما أصبح الصبحُ من ليلة دَفْنِهِ، أخبر أبو حفص عمر بن حسين المفسر. قال: رأيت البارحة في المنام أشخاصاً لم

أَرَّ مَثْلَهُمْ مَرُّوا عَلَى دُكَاكِينِ الْجَامِعِ، وَفِي أَيْدِيهِمْ بَطَائِقُ وَهُمْ يَكْتُبُونَ فَقَالَ لِي قَائِلٌ مِنْهُمْ: لَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِكُلِّ مَنْ حَضَرَ هَذَا الْجَنَازَةَ حَتَّى عَبْدِي أَبِي حَبُوسٍ، وَكَانَا مِمَّنْ حَضَرَهَا وَدَفِنَ بِيَابِ نَافِعِ جَوَارِ قَبْرِ السَّبَائِيِّ، وَسَحَنُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قُلْتُ: قَبْرُهُ عِنْدَ رِجْلَيْ السَّبَائِيِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ جَوَارُ لَهَا وَهُوَ مَزَارُ رَحِمِهِ اللَّهُ تَعَالَى.

242 - وَمِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدِ الْخَالِقِ بْنِ خَلْفٍ⁽¹⁾ بْنُ شَبْلُونٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ: جَمَعَ الْفَقْهَ الْحَسَنَ، وَالْأَحْوَالَ السُّنِّيَّةَ، وَسُرْعَةَ الْإِجَابَةِ وَالتَّوَاضُعَ، وَعِلْمَ الْأَحْكَامِ، وَالنَّوَازِلِ، وَالْوَثَائِقِ، وَكَانَ مُفْتِيَّ الْحَاضِرَةِ وَالْبَادِيَةِ مَعَ نَزَاهَةٍ، وَقَلَّةِ رَغْبَةٍ، وَعِفَّةٍ وَطَهَارَةٍ صَدْرٍ، وَحَسَنِ خُلُقٍ، سَرِيرَتُهُ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِعِلَانِيَتِهِ، مِنْ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ الْمُقْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ، وَلَهُ مَسَائِلُ فِي نَوَازِلٍ كَثِيرَةٍ.

قُلْتُ: وَمَعْلُومٌ اخْتِلَافُهُ مَعَ صَاحِبِهِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي زَيْدٍ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الْمُدَوَّنَةِ، فَكَانَ هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَتَأَوَّلُهَا وَيَجْمَلُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، وَرَأَى أَنَّ ذَلِكَ أَسْلَمَ لَهُ، وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ يُفَسِّرُهَا عَلَى الْمَعْنَى، فَيَتَأَوَّلُهَا كَقَوْلِ الْمَدَوَّنَةِ فِي مَسْحِ الْخُفَّيْنِ، أَرَانَا مَالِكٌ فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى ظَاهِرِ أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلِهِ الْيُمْنَى وَالْيُسْرَى تَحْتَهَا مِنْ بَاطِنِ خُفِّهِ فَأَمَرَهُمَا إِلَى حَذْوِ الْكَعْبَيْنِ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ صِفَةَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى. فَقَالَ ابْنُ شَبْلُونٍ: صِفَةُ مَسْحِهَا كَالْيُمْنَى، وَلَوْ كَانَتْ مُخَالَفَةً لَهَا لَبَيَّنَّهَا مَالِكٌ. وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: بَلْ صِفَةُ مَسْحِهَا عَلَى الْعَكْسِ، لِأَنَّهُ أَمَكَنَ فِي التَّنَاولِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَبَيِّنْهُ مَالِكٌ لَوْضُوحِهِ.

قَالَ: وَكَانَ يُفْتِي كُلَّ يَوْمٍ فِي مِائَةِ مَسْأَلَةٍ وَأَقْلَ وَأَكْثَرِ.

قُلْتُ: وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيُّ يَحْمِلُهُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ فِيهَا بِلْسَانِهِ، لَا أَنَّهُ بِالْكِتَابِ لِأَنَّهُ لَا يَطِيقُ ذَلِكَ، مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ إِقْرَاءِ الْعِلْمِ، وَكَنْتُ أَقُولُ لَهُ: الصَّوَابُ أَنَّهُ يَجِبُ فِيهَا بِخَطِّهِ لَا بِلَفْظِهِ لِأَهْلِ الْبُلْدَانِ بِسَائِرِ إِفْرِيقِيَّةٍ، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ لَهُ

(1) تَرْجَمَ لَهُ فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: 4/ 528، الدِّيْبَاجُ الْمَذْهَبِ ص: 259، شَجَرَةُ النُّورِ الزُّكِّيَّةِ 1/

144 رَقْمَ 266، مَعْجَمُ الْمُؤَلِّفِينَ 5/ 109، كِتَابُ الْعُمَرِ فِي الْمَصْنُفَاتِ وَالْمُؤَلِّفِينَ التُّونِسِيِّينَ

2/ 656 - 657.

هذا وإلا فأنا اليوم مع صِغَرِي أَجِيبُ في مثلِ هذا بلفظي فيما تعرفه إذا سئلت عنه، ولا يقطعني عما أنا فيه، فالغربةُ إنما هو إجابته فيما ذكر بخطه لا بلفظه، ولم يقبله مني والله أعلم بما كان منه.

قال: وكان الشيخُ أبو إسحاق السبائي يُحِبُّهُ. وقال مَرَّةً لَوْ قَاسَمْتُهِ في كُلِّ ما أملكه. فقال له خادمه أبو سعيد القلال: وهلْ عندك غير مُصَحَّفٍ، وجلدٌ مُصَوَّفٌ؟ فقال نُعطيه نُصَفَ دُعائي، والنصف لسائر المسلمين. توفي ليلة الأربعاء الثامن عشر من ربيع الأول سنة تسعين وثلاثمائة، ودُفِنَ يوم الخميس في داره، ثم نقل إلى باب سَلَمٍ وَصَلِيَ عليه في جمع لم يجتمع على غيره. روي أنه لما احتضر شَخْصٌ ببصره نحو الباب وقال: هذا ملكُ الموتِ أَذْخُلُ يا ملكَ الموتِ، سألتك بالله إلا ما رَفَقْتَ بي، ثم قَضَى. كذا حكى ابن ابنته عبد الله.

قلت: وقبره مَزَارٌ ومما رثى به رحمه الله تعالى:

مَا لِي أَرَى ⁽¹⁾ الدُّنْيَا تَغَيَّرَ حَالُهَا	والنورُ في المُقَلِّ النواظرِ يظلم
وأرى نفوسَ الخلقِ ذابتْ حَسْرَةً	فجرى بها دمع يمازجه دم
عَرَّجَ ببلَدِنَا تَرَى لَفَقِيهِنَا	مَنْعَى ⁽²⁾ له في كل دار مَأْتَم
وانظر إلى العلماء حول سريرهِ	تنظر إلى شمس حوتها أنجم
شقت عليه يد العلوم جيوبها	وبكت بكاء مذلة ⁽³⁾ لا يسأم
ذهب المحامي عن شريعة أحمد	وسراجها بحر العلوم المفعم
أودى بحفظ الخلق طود رعاية	وانفل للإسلام سيف مخدم
سكن العلوم صيب فهي ثواكل	ركن المعالي انقض فهي تهدم
يفشاه طلاب العلوم كأنما	بفنائهِ ⁽⁴⁾ للحنج عاد الموسم
في برده تقوى وبين ضلوعه	قلب معني بالعبادة مغرم

243 - ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الله القطان المعروف بابن الحلاف:

قال: كان من أهل العلم، والفضل، والورع، والزهد، والعقل الرصين، والتَّهَجُّدِ بالقرآن، وسَرْدِ الصَّيَامِ، فَتَّاشاً عن مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ؛ مُرَاعِياً لِلْفِظَةِ

(1) ت: إلى.

(2) ت: معنا.

(3) ت: معدل.

(4) ت: يفنا به.

ولحظه، متفقداً لِحَوَاطِرِهِ وسرائره ووسواسِ نَفْسِهِ، عامل الله بالصُّدُقِ، وَعَرَفَ النَّاسَ فَأَنْزَوَى عَنْهُمْ ثُمَّ انبسط في آخر عمره لم يرَ في وقته أكبر همة ولا أصدق حالاً منه، وله سؤالات سأل عنها أبا محمد بن أبي زيد تَدُلُّ على تَدَقُّيقِهِ فِي الْوَرَعِ وَتَحَفُّظِهِ لِدِينِهِ.

قلت: وكان سؤاله لأبي بكر بن اللباد قبله حَسَبَما تقدم وهو قول أبي الحسن، اجتمع إلي جماعة في حَانُوتِي بِالْقَطَّانِينَ، بعد وفاة والدي، فَقَسَمُوا قُطْناً بَيْنَهُمْ فَتَقَضَّتْ الْمَوْضِعَ الَّذِي قُسِمَ فِيهِ الْقُطْنُ فَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْقُطْنِ نَحْوُ مِنْ وَزْنِ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ، فَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِنِ اللِّبَادِ فَسَأَلْتُهُ مَا الَّذِي أَصْنَعُ بِالْقُطْنِ، فَاَنْتَهَرَنِي وَقَالَ لِي: يَا هَذَا سَلْ عَنْ وُضُوءِكَ وَصَلَاتِكَ وَدِينِكَ، فَإِنْ هَذَا وَسْوَاسٌ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: فَضَاقَ صَدْرِي وَلَمْ أَطِقْ صَبْراً فَعَلَبَنِي الْبُكَاءُ وَالْعَبْرَةُ، فَوُثِبَ إِلَيَّ وَجَدَبَنِي إِلَى نَفْسِهِ وَقَبَّلَنِي بَيْنَ عَيْنِي، وَقَالَ لِي: أَحْسَنْتَ يَا بَنِي مَا عَرَفْتُكَ، فَقَدْ قِيلَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا وَزَنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ عَلَيْكُمْ وَتَجَهَّزُوا لِلْعَرَضِ عَلَى اللَّهِ»⁽¹⁾. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّةُ: 18] قَالَ: ثُمَّ أَمَرَنِي بِمَا أَصْنَعُ بِالْقُطْنِ.

قال: قيل: إنه لم يخلق الورع في الدنيا إلا لِرَجُلَيْنِ: أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَائِي، وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ الْحَلَّافِ. رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ لِسَلِيمَانَ الْخَوَاصِ: أَلَا تَغْزُو مَعَنَا؟ قَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَغْزُو مَعَكُمْ إِنِّي لَفِي جَمْعٍ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ مِنْ حَلِّهَا مِنْذُ سَنَةٍ! فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: لَوْ كَانَ النَّاسُ هَكَذَا مَا غَزَى الرَّجُلُ أَحَدًا، فَقَالَ لَهُ سَلِيمَانُ: لَوْ كَانَ النَّاسُ هَذَا لَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ تَكْبِيرَةً يَنْهَدُمُ لَهَا سُورَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ. وَقَالَ فِي وَصِيَّتِهِ إِنَّ ابْنَ أَخِي يَبِيعُ الدَّارَ فَأَعْلَمُوا الْمُشْتَرِي أَنَّ النَّمْلَ فِي سُقُوفِهَا، وَأَنَّ الْجِنَّاسَ⁽²⁾ سَكَنَتْهَا فَإِذَا ظَهَرَتْ لَهُ فليؤذنها، فَكَانَ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ، وَاشْتَرَى الدَّارَ الصَّنُوبَرِي، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ، آذَنَهَا فَلَمْ تَعُدْ⁽³⁾ لِلْخُرُوجِ وَكَانَ مَوْلَدُهُ سَنَةَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَتَوَفَّى يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَصَلَّى عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ الْقَاسِي وَكَثُرَ النَّاسُ حَتَّى سَدُّوا الْفَضَاءَ، وَكَانَ يَوْمًا صَاحِبِيًّا، وَالنَّهَارُ قَدْ ارْتَفَعَ، وَإِذَا بِشَيْءٍ يَسْقُطُ

(1) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الْحِجَّاجِ قَالَ: قَالَ عُمَرُ (أَيُّ ابْنِ الْخَطَّابِ): حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزَنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا، أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، تَزَيَّنُوا لِلْعَرَضِ الْأَكْبَرِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّةُ: 18] انظر هذا فِي كِتَابِ صِفَةِ الصَّفْوَةِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو الْفَرَجِ: 119/1 الْمَكْتَبَةُ التِّجَارِيَّةُ مَكَّةُ الْمَكْرَمَةُ.

(2) الْجِنَّاسُ: نَوْعٌ مِنَ الْحَيَّاتِ.

(3) ط، ت: تَعُودُوا. وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَاهُ.

على النعش من السماء كأنه اللؤلؤ، وقبره بباب سَلَم مشهور يَتَبَرَّكُ النَّاسُ به ويدعون عنده رحمه الله تعالى.

244 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الأنصاري ابن أخي مروان:

قال: كان كثير القيام، ذا تَهَجُّدٍ وَجِدٍّ وتلاوة للقرآن، مع نُسْكٍ وفقير، وَصِدْقٍ أحوالٍ، وله حج وآداب ورقة. كَفَّ بَصْرُهُ في آخر عمره نفعه الله بصحبة عمِّه، وبصحبة أبي إسحاق السبائي قال أبو عبد الله: سَمِعْتُ عَمِّي رحمه الله يقول: العازم بين هوى يوقفه وحزم يطلقه. وكان من أهل الأدب والمروءة وَغَزَارَةِ الدَّمْعِ، والكَدِّ والذكر بالمحل الرفيع. توفي ليلة الجمعة وَدُفِنَ يوم الجمعة الثالث عشر لذي الحِجَّةِ سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ودفن بباب تونس رحمه الله ونفعنا به آمين.

245 - ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني الجزيري والد الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن:

قال: كان من أهل الدين والعبادة والزُّهْدِ والورع، صحب جماعة من العلماء والعُبَادِ، وكان مُخْتَصِّصًا بِصُحْبَةِ مَرْوَانَ بن نصر⁽¹⁾ العابد كثير الزيارة للعباد، في الساحل، وكان يشتري الشواشي للأطفال الفقراء ويكسوهم إِيَّاهَا، وكان كل غزل ضعيف يوصي العمالين عنده أن لا يغشوا به المسلمين ويترك ناحية حتى يجتمع فيعمل منه، مقاطعاً للعبادات والفقراء، كانت وفاته في ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وثلاثمائة وَدُفِنَ بباب تونس وقبره مشهور، ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فكان في هذه السنة قحط شديد وموت ذريع حتى خلت البوادي وأكثر الحواضر وخلت الأسواق والمساجد وعمت البهائم فمات في هذه السنة عدد كثير من العلماء والصُّلَحَاءِ.

قلت: زاد غيره وتحول كثير من وجوه الناس فضلاً عن عامتهم وسوقتهم وأهل البوادي إلى جزيرة صقلية لرخاء سعرها وأمن سبيلها وعدل سلطانها.

246 - ومنهم جابر بن عبد الله بن هاشم:

قال: كان شَيْخاً جَوَاداً، كثير الصدقة، والرفق بالضعفاء، مع معرفة وحياء، وسلامة، وَعِفَّةٍ، وَدِيَانَةٍ. توفي في ربيع الأول وصلى عليه أخوه محمد بن عبد الله بن هاشم القاضي، وَدُفِنَ بباب سَلَم رحمه الله تعالى.

(1) في ط، ت: بصرون، والصواب ما أثبتناه.

247 - ومنهم أبو موسى عيسى بن مناس⁽¹⁾:

قال: كان فقيهاً مُفتياً بارعاً، له فصاحة وجزالة، له لسان وجميل لقاء، وقديم طلب، وعناية بالعلم.

قلت: [قال الشيرازي: وتفقه بآبن هشام^(*)، وكان الاعتماد عليه في القيروان في الفتوى والتدريس بعد أبي محمد بن أبي زيد⁽²⁾].

قلت: وَلَا يُقَالُ في هذا نظر، مع وجود الشيخ أبي الحسن القابسي لأنه لا مانع أن يكون كل منهما مفتياً، وكان شيخنا أبو الفضل البرزلي يقول: إنما تولى بعد أبي بكر في طبقة الدلفيون. وألف ابن مناس [كتاب «القصص»⁽³⁾ وكان يفتي في اللازمة بطلقة⁽⁴⁾].

قال: وتوفي في ربيع الآخر.

قلت: [وبخط أبي عمران الفاسي توفي في ربيع الأول سنة تسعين وقال غيره توفي سنة إحدى وتسعين⁽⁵⁾].

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك ترجمة جد مختصرة 4/ 624 (طبعة بيروت).

(*) الصواب هو: «بابن أخي هشام» كما في ترجمة عبد الخالق بن خلف. ترتيب المدارك 4/ 528.

(2) ملاحظة: ما بين قوسين عبارة مقتبسة من ترجمة: «أبي القاسم عبد الخالق بن خلف بن شبلون» راجع ترتيب المدارك: 4/ 528.

(3) في ط: «القصر»، وفي ت: «القعد» هو لأبي القاسم عبد الخالق بن خلف بن شبلون.

(4) ما بين المعقوفتين هي نفس العبارة الواردة في ترجمة «عبد الخالق بن خلف...» راجع ترتيب المدارك 4/ 528.

(5) هذا التاريخ توفي فيه عبد الخالق بن خلف بن شبلون. نفس العبارة وردت في ترتيب المدارك 4/ 528.

لعل وفاة ابن مناس وقعت سنة 395 هـ وهي السنة التي أشار إليها الدباغ عند ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني رقم (245) في قوله: «ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فكان في هذه السنة قحط شديد وموت ذريع... فمات في هذه السنة عدد كثير من العلماء والصلحاء».

فالملاحظ: أن هذه الترجمة ليس فيها ما يتصل بأبي موسى عيسى بن مناس، بقدر ما هو مترجم لابن شبلون بلفظه في ترتيب المدارك: 4/ 528.

وهذا الخلط هو نفسه وارد في المطبوعة (ط) والنسخة المخطوطة (ت)، والجزء الثالث 3/ 128 من كتاب معالم الإيمان الذي حققه الأستاذ «محمد ماخور».

248 - ومنهم عبد الواحد ابن الشيخ أبي الحسن القاسبي :

قال : كان من أكرم الناس وأنضرهم وجهاً، وأحلامهم معنى، نشأ على طهارة، ورَبِّي في حجرِ إمام هُدَى، وكان دَرَّاساً حافظاً للقرآن، والفقه، ووصل إلى المشرق فَحَجَّ، توفي في ربيع الآخر من السنة المذكورة وَصَلَّى عليه والدُّهُ. ودفن بباب تونس.

قلت : وقبره في حُوطة أبيه من جهة القبلة معروف، وكان عِيْنُهُ لِي شَيْخُنَا أبو الفضل البرزلي لما كان يزورنا.

249 - ومنهم أبو بكر أحمد بن أبي بكر الزويلي :

قال : كان من العلماء العُبادِ الزُّهادِ المُتَبَيِّلِينَ، المجتهدين المبرزين مع حفظ للقرآن، ومعرفة بتفسيره، وَوَرَعَ، وَرِقَّةً، وَكَدَّ، وَجَدَّ، صَلَّى حَتَّى أَقْعَدَ، وصارت مَبَارِكُهُ كَمَبَارِكِ الْإِبْلِ، وكانت له إشارة في المعاملات، سالم الصدر قليل المثل.

قلت : وفي قوله ومعرفة بتفسيره بتر، لقول غيره عارفاً بِنَاسِخِهِ، وَمَنْسُوخِهِ، وَقِرَاءَتِهِ، وتفسيره، مقدماً في ذلك على غيره في أهل عصره، إذ ليس في كلامه مَا يَدُلُّ أَنَّهُ مُقَدِّمٌ عَلَى غَيْرِهِ فِي عَصْرِهِ، وأما معرفته بقراءته فيدخل في كلامه.

قال : توفي ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الأولى من السنة المذكورة. وَدُفِنَ بباب سلم رحمه الله.

250 - ومنهم أبو جعفر أحمد بن خلف الأجدابي :

قال : وكان ذا فقهٍ بارع، وجدلٍ، وأدب، وكرم نفس، وطلاقة وَجْهِ، وجميل خلائق محبباً في الناس مع تهذيب.

قلت : زاد غيره : صالحاً فاضلاً جليلاً، صاحب أحوال سُنيَّة وَهِمَّةٍ عَالِيَةٍ.

قال : توفي يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

251 - ومنهم عبد الله ابن بنت أبي القاسم ابن شبلون :

قال : كان من أهل العلم والمروءة وعلم الأقضية والأحكام والوثائق والأدب والشعر توفي مع الأجدابي ودفن بدار جدّه.

252 - ومنهم أبو القاسم عبد الله ابن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم:

قال: نسيج وحده، وفريد وقته، لا يعرف أحد سيرته وطريقته في سمو نفسه ورقة طبعه، وجميل فعله، وشرف أخلاقه، وجلالة قدره، وسماحته، وكثرة صدقه، توفي ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى من هذه السنة وصلى عليه والداه القاضي ودفن بباب سلم.

253 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المهدي:

قال: كان جميل المنظر حسن المخبر، كريم النفس وطى الخلق من جلة طلبة الشيخ أبي الحسن القابسي والمقدم فيهم لحفظه وصيانه وأدبه، وورثته، ونفاسته نفسه وكان أوصى عند موته للشيخ أبي الحسن القابسي بمائة دينار ذهباً توفي لسبع بقين من جمادى الأولى قبل موت أبي بكر الزويلي ليلة رحمه الله تعالى في السنة المذكورة.

254 - ومنهم أبو سعيد خلف بن منصور القلال المعتبد خديم الشيخ أبي إسحاق السبائي رحمه الله:

قال: كان رحمه الله رجلاً صالحاً، فقيراً، زاهداً، حريصاً على الخير، وطى الخلق، نزية النفس، فاضلاً، نفعه الله بصحبة الشيخ أبي إسحاق وخدمته. توفي في هذه السنة ودفن بباب نافع بالقرب من قبر الشيخ أبي إسحاق السبائي رحمه الله.

255 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن التبان أخو أبي محمد:

قال: كان من المتعبدين، ذا رقة، وبكاء، وتلاوة، متقناً في كل علم، ختم أربعة آلاف ختمة، وقيل خمسة آلاف وبكى حتى غمي وكان رقيق القلب، كثير الخشية على وجهه نور، وعليه قبول. قال أبو بكر التيجي أنشدني أبو عبد الله بن التبان:

الموت لا بُدَّ آتٍ فَاسْتَعِذْ لَهُ إِنَّ اللَّيْبَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ مَشْغُولُ
وَكَيْفَ يَلْهُو بَعِيشٍ أَوْ يَلْدُ بِهِ مِنَ التُّرَابِ عَلَى خَدَّيْهِ مَجْبُولُ

توفي يوم الخميس ودفن عصر الجمعة السابع من المحرم سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، وصلى عليه القاضي عبد الرحمن بن محمد بن هاشم ودفن بالرماذية.

256 - ومنهم أحمد بن محمد النُّجَّار:

قال: سَمَّاهُ أَبُو إِسْحَاقَ السَّبَائِي؛ أَحْمَدَيْنِ بِلَفْظِ التَّثْنِيَةِ لِجِفْظِهِ الْحَدِيثَ، وَالرَّقَائِقَ، وَكَانَ يُحَدِّثُ وَيَعِظُ وَيَحْكِي أَخْبَارَ الْعُبَادِ وَالْأَبْدَالِ مِنْ صَدْرِهِ، وَكَانَ طَوِيلَ اللِّسَانِ، حَسَنَ الْبَيَانِ، يَسْرُدُ الصِّيَامَ وَيَتَهَجَّدُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامًا، قَدْ كُسِّيَ وَجْهَهُ نُورًا، تَوَفَّى فِي لَيْلَةِ الثَّلَاثَاءِ وَصَلَّى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَلَالِ لِاحْدَى عَشْرَةَ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ، وَدُفِنَ بِيَابِ نَافِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

257 - ومنهم أَبُو الْحَسَنِ بْنِ السَّاحِلِيِّ غَاسِلِ الْمَوْتَى:

قال: كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقَشُّفِ وَسَرْدِ الصِّيَامِ وَالْجَدِّ، وَالْكَدِّ، وَالصَّلَاةِ فِي جُنْحِ اللَّيْلِ. وَأَقَامَ يَحْضُرُ مَصْلَى الْجَنَائِزِ بِيَابِ سَلَمٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً ذُو نُسُكٍ، وَزُهْدٍ وَعِبَادَةٍ تَوَفَّى فِي الثَّامِنِ مِنَ الْمَحْرَمِ سَنَةَ سَبْعٍ وَتَسْعِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ، وَصَلَّى عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ الْكَاتِبِ الْفَقِيهَ وَدُفِنَ بِيَابِ سَلَمٍ وَقَبْرِهِ مَعْرُوفٌ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

258 - ومنهم أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الزِّيَّاتِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

قال: كَانَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَتَصْنِيفِ الْكُتُبِ وَالْآدَابِ وَالْأَخْبَارِ. قُلْتُ: قَالَ غَيْرُهُ: كَانَ خَيْرًا فَاضِلًا ثِقَةً، صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ وَالْفَهْمِ، عَارِفًا بِالْحَدِيثِ وَوُجُوهِهِ مَشْهُورًا بِذَلِكَ، نَشَأَ فِي الْعِلْمِ، وَمَاتَ عَلَيْهِ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ فِي الْمَحْدَثِينَ، وَقَارَأَ وَسَمِعَ كَثِيرَ الْانْقِبَاضِ وَالتَّصَاوُنِ حَسَنَ التَّصْنِيفِ، إِمَامًا فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالْآدَابِ، وَالْأَخْبَارِ.

قال: تَوَفَّى يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي رَجَبٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، يَعْنِي سَنَةَ سَبْعٍ قَالَ: وَصَلَّى عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ الْحَرْفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

259 - ومنهم الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ:

قال: كُنِّيْتُه أَبُو بَكْرٍ.

قلت: وَقَالَ الْعَوَانِي: كُنِّيْتُه أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا وَهَمًا مِنْهُ.

قال: كَانَ مِنْ دَعَائِمِ الْكَرَمِ، وَقَوَاعِدِ الْجُودِ الْمَأْثُورِ مِنَ السَّلَفِ، ذُو عَقْلِ وَصِيَانَةٍ وَتَوَاضُعٍ وَاتِّبَاعٍ لِسُنَنِ أَهْلِ الدِّينِ، مَعَ فِقْهِ وَوَرَعٍ وَإِثَارٍ وَخَشْيَةٍ، كَثِيرِ الذَّبِّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، تَصَدَّقَ بِأَمْوَالٍ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ، وَبِهَا جَادَ، وَلَمْ يُرَ أَحَدٌ عَلَى مِثْلِ

جوده في زمانه، جمع العلم والقرآن، وقام به، توفي في نصف شعبان وصلى عليه ولده القاضي عبد الرحمن غداة يوم الجمعة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ودفن بباب سلم رحمه الله تعالى.

260 - ومنهم أبو الفضل العراقي المتعبد رحمه الله:

قال: كان كثير الفضل والإيثار، وكانت له ضيعة ورثها من أجداده، يأكل منها حلالاً ويبعث من طعامه وصابته إلى العلماء والمتعبدين بقدر ما يكفي كل واحد منهم في سنته، وكان كثير العبادة، صام ستين سنة حتى ضعف بصره، فقيل له: ألا أفطرت فإن الصيام يضر ببصرك؟ فقال: لا والله لا أفطرت إلا بين يدي الله تعالى، توفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وصلى عليه أبو عبد الله الخواص ودفن بباب سلم خلف المصلى رحمه الله تعالى.

261 - ومنهم أبو بكر الحذاء الزاهد المتعبد:

قال: كان ذا حج وأسفار، وتغرب عن الأوطان، من أهل الجد والاجتهاد، والانزواء، وله رياضة حسنة، وأحوال شريفة، وكنث إذا نظرت إليه ذكرت الله، قد غارت عيناه ونحل جسمه، وجف جلدُه على عظمه، أقام مُلَازِمًا لِلصَّيَامِ، والقيام سبعين سنة لأنه تعبد وهو مناهز الاحتلام، يحذو النعال في داره، رحل إلى المشرق فصحب أبا الحسن بن العزا في خمس عشرة سنة بمصر، يحج في كل سنة حجة. قلت: في كلامه بتر لزيادة غيره؛ ويزور زورة.

قلت: ثم رجع بعد ذلك إلى إفريقية فسكن زغوان⁽¹⁾ وكان يأتي إلى القبروان مستتراً للزيارة، له بنات كن متزوجات لأولاد أخيه خوفاً أن يراه الناس، ولم يزل بزغوان متعبداً إلى أن مات بها سنة أربعمائة في نصف جمادى الأولى رحمه الله.

قلت: قال أبو بكر التجيبي حدثني أبو بكر الحذاء قال: حدثني أبو الحسن بن العراقي بدمياط⁽²⁾، قال: حدثني عمرو بن علي الدينوري بالمسجد الحرام، قال إبراهيم التيمي: بينما أنا في الجبانة أعتبر بالموتى وأذكر هول البلاء، إذ رأيت شاباً

(1) زغوان: بزغوان قرى كثيرة أهلة كثيرة المياه والثمار والبساتين من أعمال تونس. انظر: المسالك والممالك 2/ 222، والروض المعطار ص: 294.

(2) دمياط: محافظة مصرية قاعدة صيد تقع شمالاً، بها حرف وصناعات.

قد استغرقة الولة فسَلَّمْتُ عليه وقلتُ له: من أين أقبلت؟ قال: من هذا العسكر وأشار إلى المقابر فقلت: وأي شيء قلت لهم؟ قال: قلت لهم⁽¹⁾: متى تَرْحَلُونَ؟ قالوا: حتى تقدموا قلت: إني أراك حَكِيماً فأخبرني من أين سلوكك الطريق في كبد فجاج المضيق؟ قال: من ضُغْفِ دَعَائِمِ التَّضْدِيقِ. قلت: أخبرني عن الصَّادِقِ لله في حُبِّهِ متى يَشْتَأِقُ إلى قربه؟ قال: إذا نَزَعَ حُبَّ الدنيا من قلبه وَتَبَرَّمَ ببقائه، واشتاق إلى لِقَائِهِ.

قلت: متى النجاة من الناس؟ قال: عليك بِالْفِرَارِ فِي الْبَرَارِي وَالْقِفَارِ، فقد⁽²⁾ اشتدت مؤونة الزمان فالتق نفسك مع القَدَرِ حيثُ أَلْقَاكَ وانعم لعيشك وأقلل لفناك.

262 - ومنهم أبو محمد عبدون ابن الشيخ أبي محمد التبان رحمه الله تعالى:

قال: كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالرِّقَّةِ وَالْأَدَبِ، وَغَزَارَةِ الدَّمْعِ مَعَ كَرَمٍ وَمُرُوءَةٍ، وَصِدْقِ نِيَّةٍ وَمَعُونَةٍ وَمَعْرِفَةٍ بِالْكَلَامِ وَالْفِقْهِ، تَوَفَّى يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ السَّادِسِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَحَمَلَ لِدَارِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْقَابَسِيِّ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَدُفِنَ بِالرَّمَادِيَةِ مَعَ أَبِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

263 - ومنهم أبو الحسن علي بن حَمْدِيسِ الْمُتَعَبِدِ الْمُؤَدَّبِ الْفَاضِلُ:

قال: كَانَ مِنَ الْعُبَّادِ الْمُجْتَهِدِينَ الْمُحْزُونِينَ يَخْتَمُ كُلُّ لَيْلَةٍ خَتْمَةً وَلَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ تِسْعُونَ خَتْمَةً وَإِذَا قَرَأَ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ بَكَى بُكَاءَ النَّائِحَةِ التَّكْلِيَّ الَّتِي لَا تَرْفِي لَهَا دَمْعَةً، وَكَانَ قُوَّتُهُ فِي الشَّهْرِ اثْنَيْ عَشَرَ مُدًّا وَصَامَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ سَنَةً وَلَمْ يَأْكُلِ اللَّحْمَ قَرِيباً مِنْهَا، وَخَتَمَ نِيْفًا وَثَلَاثِينَ أَلْفَ خَتْمَةٍ تَوَفَّى يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ وَدُفِنَ غَدَاةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ بَابَ سَلَمٍ لِعَشْرِ بَقِيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَصَلَّى عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابَسِيُّ بِوَصِيَّتِهِ لَهُ بِذَلِكَ فِي عَدَدٍ لَا يَحْصُونَ، وَاتَّصَلَ بِالتَّكْبِيرِ فِي الْمَوَارِدِ بِالتَّكْبِيرِ عَلَى الْمَنَارِ لِضَيْقِ الشَّارِعِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(1) كلمة «لهم» ساقطة زدناها ليتم السياق.

(2) لعل الصواب: فإذا.

264 - ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن خَلَف المَعَاوِي المعروف بابن القابسي رحمه الله⁽¹⁾ :

قال عِيَّاض : «ولم يكن قَابِسِيًّا وإنما كان له عَمَّ يَشُدُّ عَمَامَتَهُ بِشَدِّ⁽²⁾ قَابَسٍ فَسَمِّيَ بذلك وهو قَيْرَوَانِي الْأَصْلُ»⁽³⁾.

قلت : وهذا فيه نظر، وظاهرُ قَوْلِهِمْ : المعروف بابن القابسي، يقتضي أن والدَهُ كان من أهل قَابَس، فإمّا أن يكون أتى للقيروان وَتَزَوَّجَ بها وَتَزَايَدَ لَهُ بِهَا، وإما أن يكون أتى به صغيراً. ولما وُلِّيتُ⁽⁴⁾ قَضَاءَ قَابَسٍ وجدتُ بقربها قرية خالية تُسَمَّى بالمعافرين⁽⁵⁾، وفيها مسجدٌ يقصد الناس الصَّلَاةَ فيه تَبَرُّكاً بِهِ، وَيَقْصِدُونَهُ بِالْوَعْدَاتِ، يقال له : مسجد سيدي علي وَلَا يَذْرُؤُونَ مَنْ يَكُونُ عَلِيًّا، فلما خطبتُ خُطْبَةَ العيد انجر في كلامي؛ أنه ينبغي للإنسان أن يُكْثِرَ من زيارة قُبُورِ الصَّالِحِينَ⁽⁶⁾، وأن يُوصِي

(1) ترجم له في فهرست ابن خير الإشبيلي ص: 78 - 215 - 263، ترتيب المدارك 4/ 616 - 621 (طبعة بيروت)، الديباج المذهب ص: 296 - 297، النجوم الزاهرة 4/ 233 - 234، شذرات الذهب 3/ 168، تذكرة الحفاظ 3/ 1079، طبقات الحفاظ ص: 437 رقم 949، شرف الطالب في أسنى المطالب لابن قنفذ ص: 52، شجرة النور الزكية 1/ 145 رقم 268، الفكر السامي 1/ 148 - 149 رقم 437، كتاب العُمر 1/ 274 - 284، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين 2/ 162 - 163.

(2) في ترتيب المدارك: «مثل القابسين» فسمي بذلك.

(3) ترتيب المدارك: 4/ 621 (طبعة بيروت).

(4) الكلام هنا لابن ناجي. كان قاضياً باختيار من شيخه قاضي الجماعة أبو عيسى الغبريني لولاية القضاء بعدة مواضع كجربة، وباجة ثم قابس، وسوسة...

(5) جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي أن مَعَاوِي بالفتح وهو اسم قبيلة من اليمن وهو مَعَاوِي بن يعفر، بن مالك، بن الحارث بن مرة بن أدد... 5/ 153 دار الفكر بيروت.

(6) لقد كثر الكلام واختلف الفقهاء في مسألة زيارة قبور الصالحين بين مؤيد وناقد. فابن تيمية رحمه الله تعالى ذهب في كتابه «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» أن زيارة قبور المسلمين على وجهين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية. فالشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت، والبدعية هي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوبُّ للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك، وأسباب الشرك... باختصار ص: 19 - 20. دار الكتب العلمية بيروت ط1 س 1998.

وفي الصحيحين: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» من رواية أبي هريرة أخرجه البخاري في الصحيح، في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة حديث (1189). واللفظ له، ومسلم في الصحيح في كتاب الحج، باب لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ حديث 511 - (1397).

بِالدَّفْنِ فِي جَوَارِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْحِكَايَةَ الْآتِيَةَ، وَهِيَ: أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا الْحَسَنِ الْقَاسِي لَمَّا دُفِنَ بِالْقَيْرَوَانِ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ فَقَالَ: لِي الْيَوْمَ فِي الْعَذَابِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا دُفِنَ هَذَا الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عِنْدَنَا غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلِجَمِيعِ مَنْ فِي الْمَقْبَرَةِ، فَسَأَلَنِي بَعْضُهُمْ مِنْ أَيِّ بَلَدَةٍ هُوَ؟ قُلْتُ: هُوَ يُنْسَبُ لِلْمَعَاظِرِينَ، فَجَزَمُوا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَفَرَحَهُمْ بِالْحِكَايَةِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّهُ صَاحِبُ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، فَزَادَ تَبَرُّكَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ بِهِ، وَجَدَّدُوا مَا اخْتَلَّ مِنْ بَنَائِهِ، وَقَالُوا: لَمَّا كَانَ الشَّيْخُ اسْمُهُ عَلِي وَيُعْرَفُ بِابْنِ الْقَاسِي وَبِلَدَةِ الْمَعَاظِرِينَ، وَهَذَا الْمَسْجِدُ بِالْمَعَاظِرِينَ، وَسُمِّيَ عِنْدَنَا بِالتَّوَاتُرِ مَسْجِدَ سَيِّدِي عَلِيٍّ، فَهُوَ الْمَرَادُ لَا غَيْرُهُ، وَنَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَحْشُرَهُمْ فِي زُمْرَتِهِ. وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا حُشِرَ مَعَهُمْ»⁽¹⁾.

قَالَ: سَمِعَ بِإِفْرِيقِيَّةٍ مِنْ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْأَبْيَانِي، وَأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْرُورِ التُّجِيبِي، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْرُورِ الْعَسَّالِ، وَأَبِي الْحَسَنِ عَلِي بْنِ بَدْرِ بْنِ هَلَالٍ، عَنْ السَّبَائِي، وَأَبِي الْقَاسِمِ زِيَادِ بْنِ يُونُسَ الْيَحْصُوبِيِّ السِّدْرِيِّ، وَأَبِي الْحَسَنِ عَلِي بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْرُورِ الْعَبْدِيِّ الدِّبَاغِ، وَأَبِي الْحَسَنِ عَلِي بْنِ مُحَمَّدِ الْخَوْلَانِي.

قُلْتُ: وَتَقَدَّمَ أَنَّ اعْتِمَادَهُ كَانَ عَلَى الدِّبَاغِ، وَظَاهِرُ تَعْيِينِ مَنْ ذَكَرَ دُونَ غَيْرِهِ، يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ عَلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ اللَّبَّادِ.

قَالَ: ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثُمِائَةً، وَحَجَّ سَنَةَ ثَلَاثِ وَخَمْسِينَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ فَأَقَامَ بِهَا يَسْمَعُ الْحَدِيثَ، فَسَمِعَ بِالإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِي بْنِ جَعْفَرِ الثَّابِيَانِي، وَسَمِعَ بِمِصْرَ، وَبِمَكَّةَ، مِنْ جَمَاعَةٍ وَعَدَدَهُمْ.

قَالَ: ثُمَّ عَادَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ سَنَةَ سَبْعِ وَخَمْسِينَ.

قُلْتُ: وَسَمِعَ مِنْهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ: أَبُو عِمْرَانَ الْفَاسِي، وَأَبُو بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو الْقَاسِمِ اللَّيْثِيِّ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَالِكِي، وَأَبُو عَلِيٍّ حَسَنُ بْنُ

= وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَاخْتَلَفَ فِي شِدِّ الرِّحَالِ إِلَى غَيْرِهَا كَالذَّهَابِ إِلَى زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، وَإِلَى الْمَوَاضِعِ الْفَاضِلَةِ لِقَصْدِ التَّبَرُّكِ بِهَا، وَالصَّلَاةِ فِيهَا... لِلْمَزِيدِ انْظُرْ فَتْحَ الْبَارِي 84/3 دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ بَيْرُوتِ ط 1 س 1989.

(1) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ جَازِمًا بِهِ بِلا سِنْدٍ 19/3 دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ ط 1 س 1990 بِتَحْقِيقِ عَبْدِ الْقَادِرِ عَطَا، وَالطَّبْرَانِيِّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ (6450) - 293/6 مِنْ رَوَايَةِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بَلْفِظٍ آخَرَ، وَانْظُرْهُ أَيْضًا فِي الْمَعْجَمِ الصَّغِيرِ 114/2 - (874). وَفِي شُعْبِ الْإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ (9387) - 43/7 مِنْ رَوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بَلْفِظٍ آخَرَ أَيْضًا.

خلدون، وأبو القاسم بن الكاتب، وأبو عبد الله محمد بن أبي موسى بن عيسى بن مناس، وأبو عمرو الداني.

قال: وله تواليف منها: الكتاب «الممهّد»⁽¹⁾ بلغ فيه إلى ستين جزءاً ومات ولم يكمله وهو كتاب كبير كثير الفائدة مَبَوَّبٌ على أبواب الفقه جمع فيه بين الحديث، والأثر، والفقه، أجازته لجماعة منهم: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المقرئ، وله كتاب «المُلَخَّص»⁽²⁾، وكتاب «الْمُنْبَه لِلْفِطْن»⁽³⁾، و«الْمُبْعَدُ مِنْ شُبّه التَّأْوِيل»⁽⁴⁾، ورسالة في «الاعتقادات»⁽⁵⁾، و«الرسالة النَّاصِرَة»⁽⁶⁾، ورسالة في الذكر والدعاء⁽⁷⁾، ورسالة «أحمية الحُصُون» و«كتاب المناسك»⁽⁸⁾، و«الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين»⁽⁹⁾ وغير ذلك من تواليفه؛ وقد أشغلته العبادة عن التأليف، فإن أوقاته كلها كانت عامرة بالخير.

(1) ذكره عياض باسم «المهذب في الفقه وأحكام الديانة» ترتيب المدارك 4/ 618، وفي الديباج: «الممهّد في الفقه» ص: 297، وفي شجرة النور «الممهّد في الفقه وأحكام الديانة» 1/ 145. والملاحظ أن صاحب الديباج جعلهما كتابين في قوله: كتاب «الممهّد في الفقه»، وكتاب «أحكام الديانة». قال مؤلف كتاب العمر: منه بعض الأجزاء كتبت على الرُّقْ بخط أخيه في عصر المؤلف محفوظة بمكتبة جامع عقبة بالقيروان 1/ 278.

(2) في فهرسة ابن خير سمي بـ «كتاب المُلَخَّص لمسند موطأ مالك بن أنس» ص: 78 رقم (145)، وفي ترتيب المدارك، والديباج، وشجرة النور «ملخص الموطأ». ولقد اختلفت الروايات في ضبط اسم الملخص هل يقرأ بكسر الخاء، أم بفتحها. وقد ذكر فؤاد سزكين أن الكتاب يحتوي على 250 حديثاً 2/ 163 من كتاب تاريخ التراث العربي. بينما في كتاب «العمر» ذكر جملة ما به 520 حديثاً 1/ 278 وهو أشهر تأليفه في الحديث وأجلها. توجد منها نسخة بخزانة القرويين بفاس برقم (805) و(1391).

(3) ورد في ترتيب المدارك، والديباج باسم «المنبه للفتن من غوائل الفتن».

(4) ورد ذكره في المدارك باسم: «المنقذ من شُبّه التَّأْوِيل» كذا في الديباج.

(5) سماها ابن خير «بالنافعة» ص: 263.

(6) ورد ذكرها في فهرسة ابن خير بنفس الاسم، وفي الديباج: «الرسالة الناصرية في الرد على البكرية»، ولم يرد اسمها في ترتيب المدارك.

(7) ورد ذكرها عند ابن خير باسم «رسالة الذكر والدعاء مما فيه للسائل مكتفى» ص: 263.

(8) من مرويات ابن خير ص: 215 الفهرسة، وذكره: عياض، وابن فرحون في الديباج.

(9) في ترتيب المدارك سمي «بالرسالة المعظمة لأحوال المتقين وأحكام المتعلمين والمعلمين»

وفي الديباج جزء الكتاب إلى كتابين في قوله: «وكتاب الرسالة المفصلة لأحوال المتقين»

وكتاب «المعلمين والمتعلمين» ومنه نسخة خطية بخزانة ابن يوسف مراکش يرجع نسخها

بتاريخ 19 شعبان يوم الخميس سنة 799 هـ. رقمها (549) والكتاب طبع سنة 1364 هـ/

1945 م منشورات الخانجي، وطبع سنة 1968 بدار المعارف. راجع كتاب العمر 1/ 282.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان عالماً عاملاً، جمع العلم، والعبادة، والورع، والزهد، والإشفاق، والخشية، ورِقَّة القلب، ونزاهة النفس، ومحبة الفقراء، حافظاً لكتاب الله ومعانيه وأحكامه، حافظاً للسنة، عالماً بعلوم الحديث، والفقه، واختلاف الناس، سَلَّمَ له أهل عصره ونُظَرَائه في العلم، والدين، والفضل، كثير الصيام والتَّهَجُّد بالليل والناس نيام، مع كثرة التَّلاوة، وكانت فيه خِصَالٌ لَمْ تَكْمُلْ إلا فيه، منها القناعة، والرَّفْقُ بأهل الذُّنوب، وَكِثْمَانِ المصائب والشَّدَائِدِ، والصَّبْرُ على الأذى وخدمة الإخوان، والتَّواضُعُ لهم، والإنفاق عليهم، وصلتهم بما عنده، قد نشر الله له لواء الولاية وَحَلَاهُ بِحُسْنِ النِّيَّةِ.

قلت: وكان أبو سعيد ابن أخي هشام يُعَظَّمُ أبا الحسن القابسي ويقول: «أبو الحسن لا يحاسب على مكيال ولا ميزان، وإن كان لا يدخل الجنة إلا مثل أبي الحسن فما يدخلها مِنَّا أحد. وقال الشَّيرَازي جلس مجلس ابن شبلون بعد وفاته»⁽¹⁾. وقال ابن سَعْدُون: لما طُلِبَ لِلْفَتْوَى وعزَمَ النَّاسُ عليه، تَأَبَّى وَسَدَّ بَابَهُ دون النَّاسِ فقال لهم: أَكْسِرُوا عليه بَابَهُ لأنه قد وجب عليه فرض الفُتْيَا، هو أعلم ممن بقي من القيروان، فَلَمَّا رَأَى ذلك، خرج إليهم يَنْشُدُ:

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا نَسِبَ المَعْلَى إلى كَرَمٍ وفي الدنيا كَرِيمٌ⁽²⁾
وَلَكِنَّ البِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ وَصَوَّحَ نَجْبُهَا رُعي الهَشِيمِ

وقال أبو الحسن القابسي: «لما رَحَلْتُ لِثُونَسَ إلى أبي العباس الأبياني أنا وأبو محمد الأصيلي، وسعيد بن سعادة الفاسي، كُنَّا نَسْمَعُ عليه، فإذا كان بعد العصر ذَاكِرْنَا في المشكل فتذاكرنا يوماً وَطَالَ الذِّكْرُ فَخَصَّنِي بأن قال لي: يا أبا الحسن لتضربنَّ إليك آباط الإبل من أقصى المغرب، فقلت له: ببركتك إن شاء الله، ولما نرجوه من النفع»⁽³⁾ ثم جرى لي [معه مرة أخرى كذلك]⁽⁴⁾ ثم ذاكروني يوماً

(1) الخبر ورد في ترتيب المدارك بنفس اللفظ 4/ 617.

(2) ترتيب المدارك، والديباج.

(3) في ترتيب المدارك: النفع «بك إن شاء الله» 4/ 618.

(4) في ترتيب المدارك: «منه ذلك يوماً آخر» 4/ 618.

فاستحسن فهمي في ذلك فقال لي مثل ذلك فقلت: ببركتك إن شاء الله، فقال لي: والله لَتَضْرِبَنَّ إِلَيْكَ آبَاطُ الْإِبِلِ مِنْ أَقْصَى الْمَغْرِبِ⁽¹⁾.

قلت: في حلف^(*) الشيخ الأبياني دليل على أنه يجوزُ عنده اليمين على غلبة الظن وليس بغموس. وفي النوادر⁽²⁾ عن محمد بن المواز أنه غموس⁽³⁾ كَالشَّكِّ، وعلى هذا القول فاختلف فيه، وفي الشك إذا وافق ما حلف عليه، فالأكثرُ على أنه آثم. وقال محمد: لا شيء عليه، وهو بعيدٌ، لأنَّ كون الحلف والحالة كما ذكر غموسٌ يقتضي الإثم لجرائته، وإن وافق ودعا له الشيخ أبو إسحاق الجبنياني عند رجوعه عنه أول ما زاره بما دعا له به أبو إسحاق السبائي، وهو أعلا الله قدرك في الدنيا والآخرة، ولما قدمت إليه دابته ليركبها أمسك الجبنياني بركابه كعادته لمن قبله من علم أو خير.

ذكر عبادته وتعظيمه للنبي ﷺ لأصحابه وورعه

قال: قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكي: كان يُحْيِي ليلة الجمعة فلا ينام فيها البتة وربما أُحْيِيَ غيرها من الليالي، وأما شهر رمضان فكان يقوم ليله كله يَتَهَجَّدُ فيه بالقرآن مع قطع نهاره بالتلاوة، والذكر، والصلاة، وكان إذا مرَّ بآية في تَهَجُّدِهِ فَرُبَّمَا رَدَّدَهَا بَاكِياً إِلَى الصَّبَاحِ، وَقَدْ صَلَّى لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي بِخُتْمَةٍ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ

(1) الخبر ورد في ترتيب المدارك: 618/4.

(*) قَسَمُ الشَّيْخِ هُنَا لِمَا عَلِمَ مِنْ نَبَاهَةٍ وَعِلْمِ الْمُقَسَمِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ الْقَسَمَ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْغَيْبِيِّ يَجِبُ أَنْ يَتَحَرَّى مِنْهُ الْمَرءُ، فَالْعَبْدُ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ فَاعِلٌ غَدًا. فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: 26]، ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [هود: 31]، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْغَيْرِ﴾ [الأعراف: 188].

(2) «النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات» لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبي زيد القيرواني ت (386هـ) كتاب محقق ومطبوع في 15 مجلد طبع سنة 2000 بدار الغرب الإسلامي بيروت لبنان.

(3) سميت يمين الغموس لأنها تغمس صاحبها في النار. وفي رواية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يَفْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ» أخرجه البخاري في الصحيح كتاب استتابة المرتدين والمُعَانِدِينَ وَقِتَالَهُمْ، بَابُ إِثْمِ مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَعَقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، حَدِيثُ (6920).

إلى آخره، فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ جَلَسَ لِلِقَاءِ الْمَسَائِلِ إِلَى الظَّهْرِ، وَلَمَّا تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ إِعْمَلْ فَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا الضُّعْفَ يُذَرِّكُنِي عِنْدَ كِبَرِي لَأَسْتَغْنَمْتُ أَيَّامَ شَبَابِي، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ وَفَاتِهِ بِنَحْوِ الْعَامَيْنِ، وَكَانَ يَصُومُ وَيُفْطِرُ، إِلَّا فِي رَجَبٍ وَشَعْبَانَ فَمَا رُئِيَ فِيهِمَا مُفْطِراً قَطُّ، وَكَانَ يَصُومُ أَيْضاً فِي شَوَالٍ، وَذِي الْقَعْدَةِ، وَعَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَصُومُ الْمُحَرَّمَ، وَلَقَدْ صَامَ سَنَةً كَامِلَةً، وَأَرَادَ التَّمَادِي عَلَى الصَّوْمِ فَضَعُفَ جِسْمُهُ وَضَاقَ خُلُقُهُ، وَلَقَدْ خَتَمَ الْقُرْآنَ بِقَصْرِ أَبِي الْجَعْدِ مِنَ الظُّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَفَهَّمُ الْقُرْآنَ، وَأَمَّا تَعْظِيمُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَشَيْءٌ كَثِيرٌ، كَانَ إِذَا اسْتَدْعَانِي لِعِلْمٍ أَوْ لِعِبَادَةٍ أَوْ لِقُرْبَةٍ قَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، وَإِذَا اسْتَدْعَانِي لِقَضَاءِ حَاجَةٍ يَقُولُ لِي: يَا مَالِكِي، إِعْظَاماً لِاسْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُنَادِيَ بِهِ فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي خِدْمَتِهِ رَجُلٌ عُثْمَانِي⁽¹⁾، وَلَمْ يَعْلَمْ بِنَسَبِهِ، فَلَمَّا عَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ اسْتَدْعَاهُ وَقَالَ: يَا بَنِي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ عُثْمَانِي مَا صَرَفْتُكَ، وَأَمَّا وَرَعُهُ فَشَيْءٌ لَا يُطَاقُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ احْتِاجَ إِلَى غَسْلِ يَدَيْهِ فَأَوْتِي بِمَاءٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَامْتَنَعَ مِنَ الْغَسْلِ بِهِ، وَقَالَ: إِنَّمَا جُعِلَ لِلشُّرْبِ وَلَمْ يُجْعَلْ لِيُغْسَلَ الْيَدُ.

قلت: فِي هَذَا نَظَرٌ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ الْوَرَعِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الْوَاجِبِ إِذَا كَانَ مَأْوُهُ مُحَبَساً عَلَى مَنْ يَشْرِبُهُ فَقَطُّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لَفْظُهُ، قَالَ: وَظَاهِرٌ نَقْلُهُ عَنِ الْمَالِكِيِّ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ مَا يُبَاعُ بِصَبْرَةٍ، وَلَا مَا يُشْتَرَى مِنْهَا، وَلَا يَشْرِبُ مِنْ مَاءِ الْعَيْنِ الَّذِي يَأْتِي صَبْرَةً⁽²⁾. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ كَانَ فِي صِغَرِهِ أَخَذَ سُنبْلَةً مِنْ زَرْعٍ فَتَصَدَّقَ عَنْ صَاحِبِهَا بِقَمْحٍ كَثِيرٍ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ.

قلت: وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْفَضْلِ الْبُرْزُلِيُّ إِذَا نَقَلَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ يَقُولُ عَنْهُ: أَخَذْتُ سُنبْلَةً مِنْ حَدٍّ بَيْنَ زَرْعَيْنِ وَرَمَيْتُ بِهَا عَلَى أَحَدِهِمَا وَتَصَدَّقْتُ عَنْهُ بِأَقْفَرَةٍ قَمْحاً، وَلَا أَزَالُ أَخَافُهَا.

قال: وَقَدْ كَانَ بَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْكَاتِبِ صَاحِبُ الْقَيْرَوَانِ لِيَسْأَلَهُ عَنْ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى قَالَ لَهُ أَخُوهُ أَبُو سَعِيدٍ: يَا أَخِي إِنِّي أَخَافُ مِنْهُ عَلَى نَفْسِي إِنْ لَمْ تُجِبْهُ فَسَارَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ إِلَيْهِ فَلَمَّا دَخَلَ أَخَذَ يَعْلَمُ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ فَلَمَّا

(1) لعله نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

(2) صَبْرَةٌ: مَدِينَةٌ بِالْقَيْرَوَانِ كَبِيرَةٌ بَنَاهَا إِسْمَاعِيلُ الْعَبِيدِيُّ وَسَمَاهَا الْمَنْصُورِيَّةَ سَنَةَ 337 هـ وَكَانَ لَهَا قَائِدٌ كَبِيرٌ. رَاجِعِ الرُّوضُ الْمَعْطَارُ ص: 354.

دخل عليه لَمْ يُسَلِّمْ وجلس فُسِّلَ عَنِ الْحَرْفِ الَّذِي أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ فلم يجب بشيء، فقرأ القاري ذلك الحَرْفَ مَرَّةً بعد أُخْرَى وهو ساكِتٌ حتى قرأه بالصَّوَابِ فأشارَ إليه، أي نعم، ثم خرج من عنده وما وفاه بكلمة تَوَرُّعاً، فَلَمَّا رَجَعَ أخذ يتبع آثار قَدَمَيْهِ في السير فيضع فيها قدميه لِئَلَّا يُكْثِرَ الْخُطَا في الأرضِ الْمَغْصُوبَةِ.

قلت: ظَاهِرُ هذا يقتضي أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا عَمِيَ في آخِرِ عُمرِهِ، ومثله قوله فيما تقدم لما مات ابن أبي زيد بكى عليه القابسي حتى كاد أن يعمى، وهو خلاف ظاهر قول عِيَّاض فإن كلامه يقتضي أحد أمرين إما أنه خُلِقَ أَعْمَى وإما أنه عَمِيَ في صِغَرِهِ في قوله: كان فقيهاً أَصُولِيّاً مُتَكَلِّماً مُؤَلِّفاً مجيزاً، وكان أَعْمَى لا يرى شيئاً وهو مع ذلك مِنْ أَصَحِّ النَّاسِ كُتُباً وَأَجْوَدُهُمْ ضَبْطاً وَتَقْيِيداً، يضبط كتبه بين يديه ثقات أَصْحَابِهِ، وَالَّذِي ضَبَطَ لَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَمَاعِهِ عَلَى ابن أبي زيد بمكة أبو محمد الأصيلي بخط يده⁽¹⁾. وسمعتُ ممن نَثِقُ بنقله أَنَّ الشَّيْخَ أبا محمد بن أبي زيد أتاه راعي غنمه بشاة فأمر ببيعها إلى الشيخ أبي الحسن، فأمر بذبحها فلما دُبِحَتْ وَسُلِّخَتْ رَمَى بِطَرْفٍ مِنْهَا إِلَى قِطْعَتِهِ فَسَمَّتْهَا وَلَمْ تَأْكُلْهَا، فأمر بردها إلى أبي محمد، فسأل ابن أبي زيد الرَّاعِي فقال له: إنها اختلطت علي غنم ولم يأت لها طالب! فعجب أبو محمد وقال: أَفِي غَنَمِي الْحَرَامَ قِطْعَةُ أَبِي الْحَسَنِ الْقَابَسِيِّ أَوْرَعَ مِنْكَ يَا ابن أبي زيد!

ذكر إجابة دُعَائِهِ

كان الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ معروفًا بِالْإِجَابَةِ فَكَانَ إِذَا دَخَلَ مِحْرَابَهُ وَانْتَفَخَتْ عَيْنَاهُ وَاحْمَرَّتْ، وَلَجَأَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرُئِيَ ذَلِكَ مِنْهُ، انتظرت إجابة دعوته وَمُنْتَهَاهَا ثلاثة أيام، وكان بالمهدية نصراني ابن أخي حاضنة باديس صاحب القبروان، فَافْتَضَّ⁽²⁾ هَذَا النَّصْرَانِيَّ صَبِيَّةً شَرِيفَةً، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَامَّةُ قَتَلُوهُ⁽³⁾، فبلغ ذلك باديساً، فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَأَرْسَلَ قَائِداً بِعَسْكَرٍ إِلَى الْمَهْدِيَةِ وَأَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ بَلَغَ، فبلغ ذلك أبا الحسن، فدخل المحراب وأقبل على الدعاء في كشف هذا، فلما وَصَلَ الْقَائِدُ إِلَى قَصْرِ مُسَوَّرٍ قُرْبَ الْمَهْدِيَةِ، بات فيه فقام بِاللَّيْلِ وَهُوَ سَكْرَانٌ يَمْشِي

(1) الخبر في ترتيب المدارك: 617/4.

(2) أي ختم بكرتها وهتك عرضها واغتصبها.

(3) في ترتيب المدارك: «رجعوا إليه فقتلوه» 619/4.

على السَّطْحِ، فَمَشَى فِي الْهَوَاءِ فَسَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ وَانْتَثَرَ دِمَاغُهُ، وَجَاءَ الْبَرِيدُ بِذَلِكَ إِلَى بَادِيسٍ وَأَعْلَمَ بِدُعَاءِ أَبِي الْحَسَنِ فَرُعِبَ لَذَلِكَ، وَقَالَ لِأَبِي الْعَرَبِ وَكُبَرَاءِ رَجَالِهِ: تَمْشُونَ لِلشَّيْخِ. فَلَمَّا ضَرَبُوا عَلَيْهِ⁽¹⁾ وَأَعْلَمَ بِهِمْ، قَالَ لَهُمْ: تَمْضُونَ إِلَى الْجَامِعِ حَتَّى يَأْتِيَكُمُ الْعُلَمَاءُ، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ إِلَى دَارِهِ، وَوَجَّهَ إِلَى⁽²⁾ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَبِي عِمْرَانَ الْفَاسِي، وَأَبِي الْقَاسِمِ ابْنِ الْكَاتِبِ، وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمَالَكِيِّ، وَمَكِيِّ الْقُدْسِيِّ⁽³⁾، وَأَبِي عَمْرٍ⁽⁴⁾ بْنِ الْعَتَابِ، وَالْخَوَاصِ، وَابْنِ سُفْيَانَ وَغَيْرِهِمْ؛ وَأَمْلَى عَلَيْهِمْ رِسَالَةً فِيهَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بِاللَّهِ أَسْتَعِينُ وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ الْغُوثُ، الْغُوثُ⁽⁵⁾ بِمَا حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْإِفْتِيَاتِ عَلَيْهِمْ، وَفِي فِصْلٍ مِنْهَا: كَيْفَ يَحِلُّ لِمَنْ يَعْتَقِدُ الْإِسْلَامَ أَنْ يَقُومَ فِي دَمِّ كَافِرٍ إِفْتَضَّ⁽⁶⁾ صَبِيَّةً مِنْ سُلَالَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، لَوْ انْطَبَقَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْفِعْلِ لَكَانَ قَلِيلًا، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى الْجَامِعِ فَلْيَقْرَأْهَا وَاجِدْ مِنْكُمْ عَلَى الْمَنْبَرِ مِمَّنْ لَهُ صَوْتٌ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَجَعَلَ الْقَوَادُّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: وَاللَّهِ مَا السُّلْطَانُ إِلَّا هَذَا الشَّيْخُ⁽⁷⁾.

قُلْتُ: هَكَذَا كَانَتْ هِمَّةُ الْعُلَمَاءِ لَمَّا لَمْ يَحْضُرِ السُّلْطَانُ بَادِيسَ⁽⁸⁾ لَمْ يَحْضُرِ الشَّيْخَ مَعَهُمْ، فَأَبْقَى نَفْسَهُ إِشَارَةً إِلَى هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ذِكْرُ بَقِيَّةِ أَخْبَارِهِ

قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ غَرَّهُ الْقَمَرُ لَيْلَةً فَأَخَذَهُ الْحَرَسُ بِالْقَيْرَوَانِ فَاسْتَعَاذَ⁽⁹⁾ بِهِمْ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ ضَيِّفٌ. وَمِنْ أَصْحَابِ الْقَابِسِيِّ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ وَحَمَلُوهُ إِلَى السَّجْنِ وَأَوْدَعُوهُ الْحَرَسَ، فَاطْلَعَ رَجُلٌ مِنْ غُرْفَةٍ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ

(1) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: عَلَيْهِ «بَابُهُ» 619 / 4.

(2) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: «إِلَى أَصْحَابِهِ» 619 / 4.

(3) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: مَكِيُّ الْفَارِسِيِّ 620 / 4.

(4) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: وَأَبِي عَمْرٍ. بِالْوَاوِ.

(5) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: وَرَدَتْ كَلِمَةُ «الْغُوثُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ 620 / 4.

(6) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: اغْتَصَبَ 620 / 4.

(7) الْخَبَرُ وَرَدَ فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: 620 / 4.

(8) بَادِيسُ: مَدِينَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ كَثِيرَةُ الْمِيَاهِ وَهِيَ مَدِينَةٌ مَبْنِيَّةٌ بِالصَّخْرِ عَامِرَةٌ أَهْلَةٌ. انْظُرْ عَنْهَا الْبَكْرِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمَسَالِكِ 257 / 2، وَصَفَ إِفْرِيقِيَا 325 / 1 - 327.

(9) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: فَاسْتَعَاذَ 620 / 4.

أعلم الشيخ أبا الحسن بذلك فقال له: اذهب فأخرجه من السّجن وثقّ بالله، أو كما قال، فذهب الرَّجُلُ فدخل السّجنَ حتى وصل إلى الرجل دون أن يَغْتَرِضَهُ أَحَدٌ فوجد الرَّجُلَ في ثَقْلِ الحديد، فلم يَقْدِرِ الرجل على الخروج في حديدته، فرجع الرَّجُلُ⁽¹⁾ إلى أبي الحسن فأخبره، فقال له: اذهب بِحَدَّادٍ يَحُلُّ عَنْهُ، فأخذ الرجل معه حَدَّاداً حتى حَلَّ عنه حديدته في السجن، وخرج ثلاثتهم، وَحُرَّاسُ السّجنِ ينظرون إليهم فلا يُنْكِرُونَ عليهم شيئاً مما صَنَعُوهُ، أو كأنهم لم يروهم، أو كأنهم ألقى عليهم⁽²⁾ النَّسيان⁽³⁾.

قال: قال أبو عبد الله بن سَعْدُون عن شيوخه، أن أبا الحسن جاءه سائل فسأله فلم يجد ما يُعْطِيهِ فقال له: اقلع هذا الْفَرْدَ باب وخذه ففعل ذلك السائل.

قلت: كانت عجوز بالقيروان صالحة، وبلغ من حَالِهَا أنها أتمت يوماً وهو في ميعاد، فقالت له: يا علي يا بني تعال، فقام إليها الطلبة ينكرون عليها فقال: خلوها فإنها عجوز الْحَارَّةُ فقام إليها فقالت: يا بني فإني أخرج في الليل إلى الجامع لصلاة الْعَتَمَةِ وعرضت لي طريقان: طريق قريب فيها ضوء مصابيح أهل السوق وفي أموالهم اشتباه، وطريق بعيد ليس فيها ضوءهم فهل أتجنب الطريق الأولى أم لا؟ فقال لها: تجنبي ذلك، فإن في أموالهم اشتباهاً، ورجع الشيخ أبو الحسن عنها وهو يبكي ويقول: أي والله على علوش والله ما خطر لي هذا الورع قط، وهذا يَدُلُّ على أنه لم يُخْلَقْ أَعْمَى، وأنت إليه رضي الله عنه يوماً آخر فقالت له: يا علي، ذلك الرجل الطويل الذي كان البارحة يُحَدِّثُكَ من الطَّاقِ من هو؟ فقال لها: هو الْخَصِرُ، وأنت إليه يوماً آخر فصاحت له وأسَرَّتْ له شيئاً فرجع إلى أصحابه وهو حزين يبكي وقال: ما بقي اليوم ميعاد، فخرجوا إلى العجوز وهم يَذْمُونَهَا ومضوا إليها وقالوا: ما الَّذِي قلت له حتى قطع عَلَيْنَا الميعاد؟ فقالت لهم: فإنه حلفني أن لا أذكره في شيء من هذا الوقت، فلما كان بعد أيام مات الشيخ أبو الحسن فمضى أصحابه إلى العجوز فسألوها ما الذي قالت له؟ فقالت لهم: فإني رأيت النبي ﷺ فقال لي أتقرأ

(1) في ترتيب المدارك: الرسول.

(2) في ترتيب المدارك: إليهم 621/4.

(3) الخبر بأتمه في المدارك: 620/4.

للشيخ أبا الحسن السلام وقل له: تأهب فإنك عندنا ليلة الاثنين، فحلفني أن لا أذكره حتى يموت، فهذا الَّذِي منَعني من ذِكْرِهِ.

قلت: ولما كان قوله عليه السلام: «تأهب» يشعر بأنه يجدد عملاً صالحاً حزن وبكى لا أنه لفراقه للدنيا والله أعلم.

ذكر موته وما يتعلق بذلك

قال: وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء، وَدُفِنَ يوم الخميس، صلاة الظهر لثلاث خَلَوْنَ من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمئة وما ذكره مثله نقل غيره وهو خلاف ما فوقه.

قال: وله من العُمُر ثمانون سنة إلا خمسة أشهر، وذكر بعد هذا أن الَّذِي غَسَّلَهُ هو مكي بن عبد الرحمن الأنصاري.

قال: وَصَلَّى عليه أبو عمران الفاسي فيما بين الماغل ومقبرة باب تونس في أمم لا تُحصى وَدُفِنَ باب تونس وَضُرِبَتِ الْأَخْبِيَّةُ⁽¹⁾ على قَبْرِهِ، وبات عليه عَالَمٌ كثيرٌ، وَرَثَاهُ الشُّعْرَاءُ بنحو المائة مرثية، وأقيم المبيت على قبره، وأنشدت المراثي سنة كاملة. وقال المالكي: رأى رجل صالح ممن كان احتسب نفسه للمبيت على قبره والقراءة عليه، كأن رجلاً خرج من قبره، فقال لي اليوم في العذاب أربعون سنة، فلما دُفِنَ هذا الشيخ أبو الحسن بَيْنَنَا غُفِرَ لي ولجميع المَوْتَى. قال المالكي: وقنط الناس بالقيروان سنة تسع أو سنة ثلاث عشرة وأربعمئة فرأى رجل صالح كان قَائِلاً يقول له في منامه: استسقوا بهذا البرموس قال: قلت: ومن هو؟ قال: أبو الحسن القَابِسي، فأصبح الرجل فأتاه إلى قبره وَتَوَسَّلَ إلى اللَّهِ بِهِ فسقى الناس مَضْراً وابلاً، وما من أحد تنزل به مهمه أو ملمة أو فاقة في معيشة فيتوضأ ويأتي قبره

(1) الْأَخْبِيَّةُ: ما يعمل من وَبَرٍ أو صوف لِلسَّكَنِ (الْخِيَام).

وضرب الخيام وقيام المواسم على قبور الصالحين حرمه الإسلام تحريماً قَطْعاً. انظر: كتاب الجواب الباهر في زَوَارِ المقابر لشيخ الإسلام رحمه الله تعالى تقي الدين أحمد بن تيمية، وكتاب تحذير السَّاجِدِ من اتخاذ القبور مساجد للعالم المرحوم محمد ناصر الدين الألباني، وكتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النَّجْدِي الحَنْبَلِي رحمه الله تعالى.

وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ وَيَتَوَسَّلُ⁽¹⁾ إِلَى اللَّهِ بِهِ، إِلَّا وَيُخْرِجُ مِنْ عَسْرِهِ ذَلِكَ، هَذَا مُجَرَّبٌ صَحِيحٌ.

قلت: والصلاة في هذا هو أن لا يجعل القبرَ بَيْنَ يَدَيْهِ بل يصلي عن يمين القبر أو عن يساره كما هو موجود في قبر الشيخ بمحراب خارج عن قبره عن يمينه يُصَلِّي فِيهِ مِنْ شَاءَ وَعَلَى هَذَا يَحْمِلُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِكَ»⁽²⁾. وكان شيخنا أبو الفضل البرزلي ينقل: أن أبا عمران الفاسي ممن أقام على قبره مدة السنة مع من أقام، وأن أبا الحسن القابسي وقف له في المنام وقال: يا أبا عمران ادخل القبروان وَفَقَّهُ أَهْلَهَا فِي الدِّينِ نَوَّرَتْ قَبْرِي نَوَّرَ اللَّهُ قَبْرَكَ وَعَوَّامُ الْقَبْرَانِ عِنْدَنَا يَقُولُونَ: إِنْ مِنْ يُدْفَنُ بِمَقْبَرَةِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْقَابَسِيِّ فَإِنَّهُ

(1) التوسل لغة: المنزلة عند الملك والدرجة والقربة. ووصل إلى الله تعالى توسيلاً، عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل، والواصل الواجب والراغب إلى الله تعالى. القاموس مادة «وسل» ص 962.

وقال أحمد بن فارس في معجم مقاييس اللغة، وسل: إذا رغب، والواصل: الراغب إلى الله عز وجل وهو في قول لبيد: «بلى كُلُّ ذِي دِينٍ اللَّهُ وَاسِلٌ» مادة وسل 110/6 وفي القرآن: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35] والتوسل لا يجوز إلا بإحدى ثلاث:

النوع الأول: بأسماء الله الحُسنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180] قال ابن قيم الجوزية: «توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم» الفوائد ص: 34. النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح كما ورد في حديث الثلاثة الذي أووا إلى غار فانطبقت عليهم الصخرة. انظره في صحيح البخاري حديث (2215)، (2272)، (3465) ومسلم في صحيحه (2743).

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح نبياً كان أو ولياً. انظر حديث الاستسقاء بالنبي وهو يخطب صحيح البخاري كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة حديث (933)، وانظر رواية أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فاسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون» أخرجه البخاري في الصحيح كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ (3710) وهذا يدل أن الاستسقاء يكون بالحي، لا بالميت.

(2) أخرجه مالك في موطئه من رواية عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعْبَدُ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» كتاب صلاة الجماعة، باب جامع الصلاة حديث (91) ص 157 (طبعة فضالة المغرب)، ومصنف ابن أبي شيبة (7544) 150/2 من رواية زيد بن أسلم، وعبد الرزاق في مصنفه (1587) - 406/1 من رواية زيد بن أسلم أيضاً.

يحتاج عنه مُنْكَرًا وَنَكِيرًا⁽¹⁾، وإن أبا يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني رآه في المنام فقال: يا أبا الحسن ما يُقالُ عنك إنَّكَ تُحَاجُّ عَنْ كُلِّ مَنْ يُدْفَنُ بِمَقْبَرَتِكَ مُنْكَرًا وَنَكِيرًا أَصَحِّحُ هُوَ؟ فقال له: نعم حتى عنك يا أبا يوسف وإنه السبب في دَفْنِ الشَّيْخِ أَبِي يَوْسُفٍ تَحْتَ رَجُلِي أَبِي الْحَسَنِ الْقَابِسِيِّ وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ لَا تَدْفَعُهُ النَّصُوصُ، وَلَعَلَّهُ مِنْ نَقْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ سَمِعُوهُ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَذَكُّرَتِهِ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَرَى مُنْكَرًا وَنَكِيرًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهُمَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَكَلِّمُهُ أَحَدُهُمَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكَلِّمَانِهِ مَعًا، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ أَخَصُّ مِنَ الْمُحَاجَّةِ، فَإِنَّ الْمُحَاجَّةَ تَقْتَضِي أَنْ مَنْ فِي مَقْبَرَتِهِ يَرَاهُمَا وَلَكِنَّهُ يَحَاجُّ عَنْ الْمَيِّتِ.

قال: وفصائل أبي الحسن لا يفي بها هذا الكتاب⁽²⁾ المختصر، وَقَدْ أَلَفَ فِيهَا تَلْمِيزَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْمَالِكِيُّ كِتَابًا اقْتَضَيْتُ مِنْهُ نُبْذًا يَسِيرَةً.

265 - وَمِنْهُمْ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ اللَّمَائِيِّ:

قال: لقي عبد الله بن جعفر بن الورد البغدادي بمصر وَحَدَّثَهُ بِاخْتِصَارِ السَّيْرَةِ لِابْنِ هِشَامٍ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْهُ، وَلَقِيَ أَبَا بَكْرَ بْنَ أَبِي الْمَوْتِ، وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَجَلَةِ، ذَا خُلُقٍ حَسَنِ، وَإِشَارَةٍ جَمِيلَةٍ وَسَمْتٍ، وَسَكِينَةٍ، وَمَنْطِقٍ بَلِيغٍ، وَكَانَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْقَابِسِيُّ يَكْرُمُهُ وَيُصَلِّهِ وَكَانَتْ لَهُ دُنْيَا وَافِرَةٌ فَزَالَتْ عَنْهُ فِي آخِرِ عَمْرِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ التُّجَيْبِيُّ أَنَشِدَنِي أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ اللَّمَائِيِّ:

الْمَالُ لِلْمَرْءِ فِي مَعِيشَتِهِ	خَيْرٌ مِنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْوَلَدِ
وَمَنْ يَطْلُ سَقَمَهُ عَلَيْهِ يَجِدُ	خَيْرًا مِنَ الْمَالِ صِحَّةَ الْجَسَدِ
وَمَا لِمَنْ نَالَ فَضْلَ عَافِيَةٍ	وَقَوِيَ يَوْمَ فَقْرٍ إِلَى أَحَدٍ

266 - وَمِنْهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ ابْنُ اللَّحَامِ إِمَامُ الْجَامِعِ بِالْقَيْرَوَانِ:

قال: كَانَ مُنَوَّرَ الْوَجْهِ، جَمِيلَ الْهَيْئَةِ ذَا تَقْوَى وَوَقَارٍ وَهَيْبَةٍ تُوْفِي يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَدُفِنَ بِبَابِ سَلَمٍ عِنْدَ الْعَصْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

(1) مَلَكَانٍ يَسْأَلَانِ الْعَبْدَ فِي قَبْرِهِ هَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ أَمْ كَافِرٌ؟.

(2) فِي ط: الْكُتُبُ وَالصُّوَابُ مَا أُثْبِتَ مِنْهُ ت.

267 - ومنهم الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن⁽¹⁾ بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة رضي الله عنه:

قال: سمع بالقبروان على أبي الحسن علي بن محمد بن مسرور الدباغ، وحبيب بن نصر الجزري، وابن العرب محمد بن أحمد بن تميم، وزباد بن يونس اليخضبي، وأبي إسحاق بن إبراهيم بن أحمد السبائي، وسعد بن مالك بن عبادة، وأبي بكر بن سعدون صاحب أبي عقّال، وجماعة كثيرة، ورحل إلى المشرق فلقي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم البلخي، وأبا الحسن علي بن أحمد بن زكرياء الهاشمي، وعلي بن الحسين بن فندار القاضي وأبا بكر بن عتيق بن موسى بن هارون الخاتمي، وسمع بمكة على أبي بكر محمد بن الحسين الأخوي سنة خمسين وثلاثمائة، وجمع الحديث، والفقه، وأصول الفقه، والتصوف، والصلاح، والزّهادة. وله تواليف أبدع فيها وبرع، منها كتابه المسمى «بأنوار الصقلي»⁽²⁾ أتى فيه بأنوار المعارف وأسرار التصوف، ما أربى فيه على غيره، وفيه المعاني الجليلة بأبدع عبارة وألطف إشارة وبني قواعد التصوف على الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الأول وترك الآراء والاستحسان. وله كتاب «صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء». وله أيضاً كتاب «كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان»⁽³⁾. ونحن نورد من هذا الكتاب نبذاً. قال الشيخ أبو القاسم رضي الله عنه: أخبرني الشيخ الإمام أبو بكر بن سعدون التميمي، قال: نزل بي ضيف وليس في بيتي شيء فالتفت فإذا قطعة فالودج وأقبل يصف حسنهما، قال: فناولنها للضيف وسمعتة يقول: قال لي أبو عقّال يوم خروجي من مكة، وقد ذهبت نفقتي: استودعتك لمن لا تخيب ودائعه، فوالله ما خرجت من حيطان مكة، إلا وأنا في محملي، ولم أزل كذلك إلى أن وصلت القبروان. قال أبو القاسم: وسمعت عبد الله بن سعيد بن الحداد، سمعت أبا العدل يقول: سمعت واصلاً للخمي

(1) ترجم له في: هدية العارفين 514/1، معجم المؤلفين 181/5، شجرة النور الزكية 146/1

رقم 271، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين 487/2، كتاب العمر 455/2 - 457.

(2) اسمه الكامل: «الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار» قام بتحقيق هذا الكتاب أحمد فريد المزيدي، وقد تم طبعه بدار الكتب العلمية بيروت سنة 2000 في 232 صفحة.

(3) في ط: بأحسن، والصواب ما أثبتناه من: ت. والمتداول على الألسن «بإحسان إلى يوم الدين».

يقول: أقمت ستة أشهر لم أشرب ماءً قلت: ولم ذلك؟ قال: رَضْتُ نفسي فَسَاعَدْتَنِي، قال أبو القاسم وحدثني أبو مالك عن التاهرتي قال: شهدتُ محمد بن أبي حميد وقد احتضر، فذكروا عنده الموت فقال: وما الموت؟ ادخل يا ملك الموت! فنظروا فإذا به قد توفي رحمه الله. وكان أبو محمد بن أبي زيد، كثيراً ما يُنكر عليه كرامات الأولياء^(*) لمعنى قلب الأعيان، وذلك قصورٌ منه رحمه الله عن إدراك ما وهب الله أوليائه من الكرامات، وما أفاض على قلوبهم من الأنوار والبركات، فلذلك كان يُشير الشيخ أبو القاسم في كتبه إلى قُصورِ الفقهاء الذين يُنكرون القُدرةَ وما وهب الحق لأوليائه، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

قلت: سبب إنكاره الكرامات وذلك عند أكثر المُريدين في عصره من ادّعائهم رُؤية⁽¹⁾ الله سبحانه في اليَقظة. قال ابن بزيمة: فألف كتاباً يقتضي إنكار الكرامات وإنكار الرؤية، وسمعتُ الشيوخ يحكمون أن علماء زمانه أنكروا ذلك عليه، وأرسلوا الجواب من القيروان إلى بغداد، فوصلوا إليها على الصَّحراء بعد أربعين يوماً فاجتمعوا بالقاضي أبي بكر ابن الطيب ودفَعوا له السؤال فأجابهم بجواز ذلك، وألَّف كتاباً في ذكر جواز الكرامات، وفيه فضل الشيخ أبي محمد بن أبي زيد ومعرفة بعلم الفقه ذكر هذا في تفسير قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

قال: ولم أقف له على تاريخ وفاته إلا أنه مات قبل أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله تعالى.

(*) عن مسألة الأولياء وكراماتهم انظر كتاب: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية، وكتاب قطر الولي على حديث الولي للشوكاني، والقول الجلي في حديث الولي مجموعة رسائل للسيوطي.

(1) مسألة رؤية الله في الدنيا يقظة قال بها غلاة المتصوفة، ولم يقل بها أحد من الرعيل الأول من السلف الصالح رضوان الله عليهم مقتدين بذلك بما جاء في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَحَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143] وستكون الرؤية يوم القيامة كما ورد في الصحيحين. انظر صحيح البخاري، كتاب الآذان باب فضل السجود، حديث (806)، وكتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، حديث (6573) وكتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء [هود 7] حديث (7437)، ومسلم في الصحيح في كتاب الإيمان (81) باب معرفة طريق الرؤية حديث 299 - (182).

268 - ومنهم أبو القاسم خَلَف بن أبي القاسم الأزدي⁽¹⁾ المعروف بِالْبَرَادُعي⁽²⁾ :

وَيُكْنَى أَيْضاً عند بعضهم «بأبي سعيد» كذا قال عياض⁽³⁾ . وفي زماننا غَلَبَتْ كُنْيَتُهُ «بأبي سعيد» من جميع شيوخنا، وأصحابنا بإفريقية القيروان وغيرها؛ فإذا أُريدَ النقل عنه بِكُنْيَتِهِ يقال: وظاهر كلام أبي سعيد البرادعي يقتضي كذا. قال عِيَّاض «وكان من كبار أصحاب أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وَحُفَّاطِ المذهب المؤلفين فيه»⁽⁴⁾ له «كتاب التهذيب في اختصار المدونة»⁽⁵⁾ «أتبع به اختصار أبي محمد بن زيد، إلا أنه جاء به على نسق المدونة وحذف ما زاده أبو محمد»⁽⁶⁾ .

قلت: ما ذكر من كونه تبعه غير صحيح، وكثيراً ما يختصر خلاف ما في مختصر أبي محمد مما هو معروف، وإنما هو مبين لاختصاره، ألا ترى إلى قوله: وَصَحَّحْتُهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ بن أبي عقبة، عن جبلة، عن سحنون. قال عياض: «وقد ظهرت بَرَكَةُ هذا الكتاب على طلبة الفقه، وَتَيَمَّنُوا بِدَرْسِهِ وَحِفْظِهِ، وعليه مَعَوَّلُ أكثرهم بالمغرب والأندلس»⁽⁷⁾ .

قلت: يعني في زمانه، وأما في زَمَانِنَا فما المَعَوَّلُ إلا عليه شرقاً وغرباً، ومن ينظر مدونة سحنون الذي هو اختصارها يعلم فضيلة البرادعي في اختصاره. قال

(1) تُرجم البرادعي في: ترتيب المدارك 708/4 - 709، الديباج المذهب ص: 182 - 183، سير أعلام النبلاء 116/11، شجرة النور الزكية 156/1 - 157، تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين 164/2، كتاب العمر 650/2 - 655.

(2) في ط و ت: ابن البرادعي. التصويب من كتب مترجميه وفيما نقله المصنف بنفسه في موضوع الترجمة بدون ذكر «ابن».

(3) ترتيب المدارك: 708/4.

(4) ترتيب المدارك: 708/4.

(5) يوجد من هذا الكتاب نسخة بخزانة ابن يوسف مراكش (المغرب) مسجلة بعدد (35) (الجزء الثاني) نسخها الحسن بن عطية بن موسى التيجاني سنة 762هـ ومنه نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد 834ك وعدة نسخ بخزانة القرويين بفاس.

(6) الديباج ص: 182.

(7) ترتيب المدارك: 708/4.

عياض: «وأنا أقول إن البراذعي عن انتقاد عبد الحق بريء، فإن جميع ما انتقد عليه لفظ أبي محمد رحمه الله»⁽¹⁾.

قلت: وَرَدَّه ابن عبد السلام بما كتبه على ظهر تَهْذِيبِهِ أثر كلام عياض هذا بأنه لا ينبغي البراذعي كون غيره سبقه إلى اختيار ما اختار، فَكُلُّ من رَضِيَ قَوْلًا تَوَجَّهَ عليه ما يعترض به على ذلك القول، لأن التصويب والتخطئة، إنما هُما على ذلك القول من حيث هو قول، وَكُلُّ مَنْ رَضِيَ عمل قوم فهو منهم، و«المرء مع مَنْ أَحَبَّ»⁽²⁾. وألف عقيل بن أبي طالب كتاباً سماه «بموازنات الأعمال»، ضَمَّنَهُ الرد على كتاب الحميدي.

قال: وهو رَدُّ على ابن حزم لأنه أقر بصوابه، قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن عرفة: وهذا كما قال أبو عبد السلام لا سيما إذا أقام الثاني نفسه مقام المنشئ المستقل كما فعل أبو سعيد، لأنه ذكر في خطبته: أنه مُنْشِئٌ مُسْتَقِلٌّ لَا تَابِعٌ لغيره، يعني به قوله: وَصَحَّحْتُ ذلك عَلَى رِوَايَتِي عن أبي بكر بن أبي عُقْبَةَ، عن جبلة عن سحنون قال: وأبو الحسن بن القطان⁽³⁾ حافظ المغرب ألف كتاباً سماه «الوهم

(1) اللفظ الوارد في ترتيب المدارك هو قول عياض: «على أن أبا محمد عبد الحق ألف عليه جزءاً فيما وهم فيه على المدونة، وأنا أقول: إن البراذعي ما أدخل ما أخذ عليه فيه، إلا كما نقله أبو محمد بن أبي زيد» هـ 708/4.

(2) «المرء مع من أحب» هو حديث متفق عليه من رواية ابن مسعود، أخرجه البخاري في الصحيح في كتاب الأدب، باب علامة حُبِّ الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] حديث (6169) (6168) ومن رواية أبي موسى حديث (6170)، ومن رواية أنس بن مالك بلفظ «أنت مع من أحببت» حديث (6171)، ومسلم في كتاب البرِّ والصَّلة (50) باب المرء مع من أحب حديث (2639) برواية أنس بن مالك بعدة طرق، ومن رواية عبد الله بن مسعود حديث (2640) وللحسن البصري رحمه الله تعالى في هذا تعليق قوله: لا تغتر يا ابن آدم بقوله «أنت مع من أحببت»، فإنه من أحب قوماً تبع آثارهم، واعلم أنك لا تلحق بالخيار حتى تتبع آثارهم، وحتى تأخذ بهديهم، وتقتدي بستمهم، وتُضْبِحُ وتُمسي على منهاجهم، حرصاً على أن تكون منهم. وما أحسن ما قيل: تعصي الإله وأنت تُظهر حُبَّهُ هذا لَعَمْرِي في القياس بديع لو كان حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إن الحُبَّ لمن يُحِبُّ مُطِيعٌ انظر: كتاب كشف الخفاء للعجلوني 2/ 265 مؤسسة الرسالة.

(3) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكُتَّامِيُّ الأصل، الفاسي المولد والمنشأ، نزيل مراكش، عرف بابن القَطَّان أصل أجداده من قُرطبة بالأندلس توفي سنة 628 هـ. ترجم له في جذوة الاقتباس 2/ 470 - 471 رقم (519)، نيل الابتهاج ص: 317.

والإيهام»⁽¹⁾ تَعَقَّبَ فِيهِ «الْأَحْكَامَ الْكُبْرَى» لعبد الحق الإشبيلي⁽²⁾ فمما تعقب عليه أحاديث أوردها عبد الحق على أنها مُتَّصِلَةٌ وهي مُنْقَطِعَةٌ فَتَعَقَّبَ مِنْهَا أَحَادِيثَ ذَكَرَهَا عبد الحق من صحيح مسلم، فلم يجعل النَّاسَ أَتْبَاعَهُ فِيهَا لِمُسْلِمٍ، مَخْرَجاً لَهُ مِنَ التَّعْقِيبِ. قال ابن عبد السلام: واختصر البراذعي المدونة ثلاثة اختصارات، أحدها أطول من التهذيب، وثانيها أصغر منه، ولم تثبت فيه رواية الشيخ. قال شيخنا ابن عرفة: وما ذكره من الاختصار لم أره لغيره بعد البحث عنه، وما ذكره من كونه لم تثبت فيه رواية لقيت من عُذُولٍ بَلَدِنَا الْمُتَثَقِّقِ بِثُبُوتِ رِوَايَتِهِ بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ. قال عياض: ولأبي سعيد «كتاب تمهيد مسائل المدونة»، وكتاب «الشرح والتامات»، و«اختصار الواضحة»⁽³⁾، ولم تحصل له رِئَاسَةٌ بِالْقَيْرَوَانِ، وَكَانَ مُبْعَظاً لِأَصْحَابِهِ⁽⁴⁾ [الصحبة سلطانها فكان مريض القلب]⁽⁵⁾ لديهم، ثَقِيلُ الْمَكَانِ عَلَيْهِمْ، وَيُقَالُ: إِنْ فُقِّهَاءُ الْقَيْرَوَانِ أَفْتَوْا بِرَفْضِ كُتُبِهِ، وَتَرَكَ قِرَاءَتَهَا لِتُهْمَتِهِ لَدَيْهِمْ، وَسَهَّلَ⁽⁶⁾ بَعْضُهُمْ فِي اخْتِصَارِ الْمَدُونَةِ وَحْدَهُ لِشُهْرَةِ مَسَائِلِهِ. وَيُقَالُ: إِنَّ الَّذِي مَكَّنَ غِيظَهُمْ⁽⁷⁾ عَلَيْهِ، أَنَّهُ وَجَدَ بِخَطِّهِ فِي [ذِكْر]⁽⁸⁾ بَعْضِ بَنِي عُبَيْدٍ تَعْرِيزُ بِهَذَا الْبَيْتِ الْمَشْهُورُ:

- (1) اسمه الكامل: «بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام» لقد حقق منه النصف الأول الأستاذ الحسين آيت سعيد قدمه أطروحة لنيل دكتوراه الدولة بكلية الآداب بمراكش سنة 22/3/1994 بإشراف الدكتور فاروق حمادة، كما حقق من الكتاب ج 1 من ق 1 عبد الفتاح الزنيخي سنة 1992 بكلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، وج 2 من ق 1 إسماعيل حنيوي سنة 1992 بنفس الكلية بإشراف زين العابدين بلا فريج، وللمزيد انظر كتاب علم «علل الحديث» من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام للأستاذ المرحوم إبراهيم بن الصديق طبع الكتاب في جزئين بإشراف وزارة الأوقاف المغرب طبعة فضالة المحمدية سنة 1995م.
- (2) هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله يعرف بابن الخراط من أهل إشبيلية ولد بها سنة 510هـ كان فقيهاً حافظاً عالماً بالحديث ورجاله وعلله. مات ببجاية سنة 581هـ. انظر ترجمته في: بغية الملتبس ص: 341، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص: 505.
- (3) كتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب الأندلسي توفي سنة 238هـ. انظر ترجمته في ترتيب المدارك 3/30 - 48، والديباج المذهب ص: 252 - 256. وكتاب الواضحة يوجد جزء منه في خزانة القرويين بفاس عدد (809) قسم الطهارة وحده فقط، أما الباقي فمفقود ولقد حقق هذا الجزء بدار الحديث على يد عزيزة الإدريسي طبع على الحاسوب عدد 5 (102).
- (4) في ترتيب المدارك: «عند» أصحابه 4/709.
- (5) في ترتيب المدارك: «بصحبة سَلَاطِينِهَا الَّذِينَ تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ، فَكَانَ مَرْفُوضُ الْقَوْلِ».
- (6) فِي ط وَ ت: وَسْطَل. التصويب من: ترتيب المدارك. وكلمة سَهَّلَ من التسهيل.
- (7) في ترتيب المدارك: «تغيرهم» عليه 4/709.
- (8) ما بين المعقوفتين زيادة من: ترتيب المدارك، والديباج ليتم بذلك سياق الكلام.

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا لَبِئْنَا وَإِنْ وَعَدُوا أَوْفَوْا، وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا⁽¹⁾

وَيُقَالُ: بَلْ لَحِقَهُ فِي هَذَا دَعَاءُ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ بَنِ أَبِي زَيْدٍ، إِذْ كَانَ الْبِرَازَعِيُّ فِي أَيَّامِ قِرَاءَتِهِ عَلَيْهِ، يَتَسَبَّبُ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَوْهَامِهِ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَى بَعْضِ كَلَامِهِ، فَعَزَّ ذَلِكَ عَلَى الشَّيْخِ، وَتَفَرَّغَ إِلَى الدَّعَاءِ عَلَيْهِ، فَكَانُوا يَرُونَ أَنَّ ذَلِكَ لَحِقَهُ فَلَفَظَتْهُ⁽²⁾ الْقَيَرَوَانُ وَلَمْ يَسْتَقِرْ بِهَا فَخَرَجَ إِلَى صَقْلِيَّةٍ وَقَصَدَ أَمِيرَهَا فَحَصَلَتْ لَهُ عِنْدَهُ مَكَانَةٌ؛ وَعِنْدَهُ أَلْفُ كُتُبٍ الْمَذْكُورَةِ⁽³⁾.

قُلْتُ: مَا ذَكَرَهُ مِنْ دَعَاءِ الشَّيْخِ عَلَيْهِ، يَحْذَرُ التَّلْمِيزَ مِنْ أَنَّ يَوْقَعُ نَفْسَهُ فِي إِسَاءَةِ الْأَدَبِ عَلَى شَيْخِهِ وَعَلَى قَدَرٍ مَا يَعْظُمُ شَيْخُهُ يَعْظُمُهُ هُوَ تَلَامُذَتُهُ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِنَا عَمِلَ هَذَا وَجَاءَ مِنْهُ شَيْءٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ، لَا يَكُونُ بَعْدَ شَيْخِهِ إِلَّا وَهُوَ، وَقَدْ كَانَ يُقَالُ فِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ بَنِ أَبِي الْفَرَجِ الْمَازِرِيِّ يَعْرِفُ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ أَفْقَهُ مِنْ أَبِي عِمْرَانَ وَغَيْرِهِ فِي زَمَانِهِ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ يُسَيِّئُ الْأَدَبَ عَلَى شَيْخِهِ أَبِي الْقَاسِمِ السِّيُورِيِّ وَيَتَّبِعُ سَقَطَاتِهِ حَتَّى جُمِعَ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِينَ مَسْأَلَةً مِنْ سَقَطَاتِهِ فَدَعَا الشَّيْخَ عَلَيْهِ بِأَنْ لَا يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَسْكُنَ الْقَيَرَوَانَ وَغَيْرَهَا حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَصْبَهَانَ، فَكَانَ يَدْرُسُ فِيهَا الْأَدَبَ، وَذَهَبَ عِلْمُهُ بِالسَّنَةِ هُنَاكَ ضَيَاعًا، وَتَوَفَّى هُنَاكَ، قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بَنِ عَرَفَةَ وَمَا ذَكَرَهُ عِيَاضٌ مِنْ كَوْنِهِ كَانَ مَبْغُضًا إِلَى آخِرِهِ نَحْوَهُ مَا أَخْبَرَنِي بِهِ شَيْخُنَا الْفَقِيهَ الشَّهِيرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بَنِ الْحَبَابِ أَنَّهُ رَأَى بِخَطِّ الْكَاتِبِ الْأَدِيبِ الْمُؤَرِّخِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ [الْعِيسِيِّ]⁽⁴⁾ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْبِرَازَعِيَّ، كَانَ غَيْرَ مُسَالِمٍ فِي حَالِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ فَكَانَ يُنْشِدُ مِنْ يَأْتِيهِ مِنَ الطَّلَبَةِ الْبَيْتَ الْمَشْهُورَ:

فَخُذْ بِعِلْمِي وَلَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِي كُلِّ الثُّمَارِ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ⁽⁵⁾

(1) الْبَيْتُ وَرَدَ فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ، وَالِدِيَّاجِ. وَفِي تِ وَرَدَ بِاللَّفْظِ التَّالِي:

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا لَبِئْنَا وَإِنْ أَوْدَعُوا أَوْفَوْا وَإِنْ غَفَرُوا نَشَدُوا

(2) لَفْظَتُهُ: رَمَتْ بِهِ خَارِجَهَا وَقَذَفَتْهُ.

(3) الْخَبَرُ بِأَتَمِّهِ وَرَدَ ذَكَرَهُ فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ، وَالِدِيَّاجِ.

(4) الصَّوَابُ: الْمَغْرِبِيُّ تَوَفَّى سَنَةَ 685 هـ. وَهُوَ سَاقِطٌ مِنْ: ت.

(5) الْبَيْتُ لِأَبِي نَوَاسٍ فِي قَوْلِهِ:

خُذِ الْعُلُومَ وَلَا تَعْبَأْ بِنَاقِلِهَا
وَاقْصِدْ بِذَلِكَ وَجْهَ الْخَالِقِ الْبَارِ
إِنَّ الرُّجَالَ كَأَشْجَارٍ لَهَا ثَمَرٌ
فَاجْنِ الثُّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ

قال: وإنه حضر جنازة الشيخ أبي محمد بن أبي زيد أو بلغه وفاته فقال له بعض أصحابه: مات لك ابن أبي زيد يشير إلى راحته منه فقال له: هيهات وإن مات لي ابن أبي زيد فلم يمت كتابه لكتابي. قال ابن سعيد: ف ضرب الدهر بضرباته إلى أن هَجَرَ النَّاسُ مختصر ابن أبي زيد وأقبلوا على مختصر البراذعي.

قلت: وعلى كُلِّ حَالٍ فخروجه من القيروان ولم يكن شيخاً بها كاف في إجابة دعاء الشيخ أبي محمد، فَحَذَارٍ من ذلك، قال عياض: وَيُقَالُ بَلْ سَبَّهُ أَنَّهُ أَلْفَ كِتَاباً فِي تَصْحِيحِ نَسَبِ بَنِي عُبَيْدٍ، وأنه كانت [تأتيه هداياهم]⁽¹⁾.

قلت: قال شَيْخُنَا ابن عرفة: هذا لما شَاعَ عند الناس من انقطاع نسب بني عُبيد، قال صاحب «كتاب الزيجة»: جمع العباس أبو العباس القادر علماء النسب، والعلويين، والقرشيين، فأجمعوا على أَنَّ الْعَبِيدِيَّينَ لَيْسُوا من قريش، ولا من غيرهم من العرب؛ وإنما هم من ذُرِّيَّةِ ميمون ابن القداح الأنصاري من يهود سليمة، وكتبوا بذلك عقوداً مشهودة، وأدركت من بلدنا من كان ينسب إليهم، فكان شيخنا ابن عبد السلام يشير أو يصرح بهذا الطعن في نسبهم.

قلت: مع أَنَّ المطلوب سد هذا الباب حينئذ ولو كان صحيحاً حتى تهرب العامة والخاصة من قربهم، وسمعت شيخنا أبا الفضل البرزلي ينقل غير ما مرَّ أن البراذعي لَمَّا أَلَفَ «اختصاره للمدونة» أتى به إلى الشيخ أبي محمد بن أبي زيد فأمر بحرقه أو محوه لما تقدم من أحواله، فمشى أبو سعيد وعأوده وأتى به إليه وأنشده:

خُذِ الْعُلُومَ وَلَا تَغْبَأْ بِنَاقِلِهَا وَأَقْصِدْ بِذَلِكَ وَجْهَ الْخَالِقِ الْبَارِي
أصل الرواية كالأشجارِ مثمرة اجنِ الثَّمَارَ وَخَلِّ الْعُودَ لِلنَّارِ

فتركه أبو محمد ولم يعرض له. قال عياض: [وكانت]⁽²⁾ له دنيا ولم يبلغني وَقْتُ وَفَاتِهِ.

قلت: وسياق ما تقدم، يقتضي أنه مات بصقلية من غير تحقيق، وَكَانَ شَيْخُنَا أبو الفضل المذكور، إذا زارَ بنا جُبَانَةَ الشيخ أبي الحسن القابسي يقف عند قبرين، عند رأس كل واحد منهما لَوْحٌ فيه كُتِبَ خَفِيٌّ لا يجاز قبلة قبر الشيخ أبي داود الرهداني،

(1) في ترتيب المدارك: «تأنيهم إمامة» 709 / 4.

(2) في ترتيب المدارك: «وكان ممن».

ويذكر أن قبراً منهما هو قبر أبي سعيد البراذعي ويدعو عندهما كغيرهما فقلت له: سياق كلام عياض، يقتضي أن الغالب أنه إنما مات بصقلية فقال: ليس فيه تحقيق، ولعله رجع إلى القيروان ولو زائراً ومات بها، وما زلت أسمعُ أن قبرَهُ أحدهما.

269 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن بهلول رحمه الله:

قال: كان من أهل الفقه، والفُتْيَا، والعلم، والعمل، والورع الحاجز، والكلام على الرِّقَائِقِ، والمواعظ، وله مجلس يوم الجمعة يجتمع الناس إليه يُذَكِّرُهُمْ وَيُخَوِّفُهُمْ، فكان يختم آخر مجلسه بالفقه، والوعظ، والدعاء، وتوفي في رجب سنة سبع وأربعمئة.

270 - ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن الغافقي:

قال: كان فقيهاً، عالماً بالقراءات، أخذ ذلك عن أبي بكر الهواري، وأبي بكر محمد بن الفتح ابن الصواف، وسمع الحديث وأخذ المدونة، وكان مشهوراً بالدين، والورع، والفضل. توفي يوم الجمعة لسبعة عشر خَلَوْنَ من صفر سنة سبع وأربعمئة، وعمره تسعون سنة وَدُفِنَ بباب سَلَم وقبرُهُ معروف رحمه الله تعالى.

271 - ومنهم أبو علي حسن بن خلدون البَلَوِي⁽¹⁾:

قد تَقَدَّمَ أنه قرأ على الشيخ أبي الحسن القابسي.

قال: كان رُكْنًا من أركان أهل السُّنَّةِ مع فِقْهِ كثير، وَصَدَقَةٍ ومعروف، وَهِمَّةٍ عالية، وإحسان إلى العلماء والمعارف، وَأَخْبَارُهُ في ذلك كثيرة.

قلت: وقال غيره: كان رأساً في إفريقية، جليل القدر في فقهاؤها، مُطَاعاً، وكانت العَامَّةُ تَتَّبِعُهُ، وكان شديداً على أهل البدع والروافض، مغرباً بهم⁽²⁾.

قال: حُكِيَ أَنَّهُ سَافَرَ مَرَّةً إِلَى السَّاحِلِ هو والفقيه أبو بكر عبد الله اللُّوبِي، فنزل في ليلة باردة كثيرة الريح والمطر، في قرية أريانة⁽³⁾، فاستضافا فتى فأنزلهما

(1) ترجم له في ترتيب المدارك: 4/ 624، 625، شجرة النور الزكية 1/ 157 رقم 307.

(2) الخبر في ترتيب المدارك: 4/ 624.

(3) في ط و ت والكتاب المحقق 3/ 151 من معالم الإيمان: فريانة. التصويب من: الروض المعطار، وكتاب وصف إفريقيا. وهي مدينة صغيرة قديمة بناها القوط (الوندال) على بُعد نحو ثمانية أميال من تونس. انظر: الروض المعطار ص: 25، وصف إفريقيا 2/ 82.

وذبح لهما بعض دجاجه، وباعت أمه غزلاً لها في علف دوابهما، فلما أضحى عرض أبو علي الفتى دراهم كثيرة فأبى من قبولها، ثم لما كان بعد ذلك بزمان، وصل الفتى إلى القيروان مخلصاً في فرخين من البقر، فعرفه الفقيه أبو علي ولم يعرفه الفتى، فدفع له أبو علي ثمن الفرخين ثم قال له: شاركني، قال له: نعم فاشترى له أبو علي ثورين لم ير أحسن منهما بإحدى وأربعين مثقالاً ذهباً، وأعطاه زريعة قمح وشعير، ما طلب وأوصى عليه من ينظر في أمور مكانه، فلما كان حين الفراغ من الدرس أتى الفتى إلى أبي علي فقال: قد أصبنا مائتي قفيز قمحاً وشعيراً، وكان ذلك بائر عام خمسة وتسعين وثلاثمائة، سنة الشدة العظيمة التي قدمنا ذكرها فقال له أبو علي بعد أن عرفه بنفسه الزرع: كُله لك، وما جعلت اسمي مع اسمك في الشراكة إلا سيراً عليك، ولم يأخذ له حبة واحدة.

وحكي أيضاً أن أبا علي قاسم الفقيه أبا عبد الله الخواص في شدة سنة تسعين في جميع ما عنده من طعام وكسوة وفاكهة، حتى الفستق ونحوه، وأعطاه مائة دينار ذهباً، وقد كان أحمد بن عوانة الفقيه نسخ للفقيه أبي علي جزءاً من كلام الأشعري يساوي أربعة دراهم، فدفع له أجرة ذلك فلم يقبل. ثم إن أحمد بن عوانة ذهب إلى تونس في زيارة المؤدب محرز فأتى إلى القيروان وقد أصابه رمّد شديد في شدة الحر، فأنزله أبو علي معه في الدار واستدعى الطبيب ابن أعين يُداوي عينيه فداواه حتى برىء، وكان يجري عليه النفقة، فلما أراد السفر أعطاه رزمة فيها جامع ابن وهب يساوي نحو ثلاثمائة درهم، فسار به إلى باديته وكان يجري النفقة على جماعة من أهل العلم والطلب، ويحضر مائتته جماعة من العلماء والطلبة ويصلهم بالدراهم الكثيرة، وكان إذا سافر أعد أنواعاً من الأطعمة وصنوف الحلواء، فيفرق ذلك على أهل رفيقته، وكانت هديته تصل أقصى أهل محلته وتعم جيرانه.

وحكي: أيضاً أنه انتهى مرة بالمنستير تناً⁽¹⁾ مقلّواً، فاشترى حبة فيها أزيد من قنطارين وقلّى ذلك كله وفرقه على المرابطين بالقصر، ولم يأكل منه إلا أكلة واحدة، وأعطى ليحيى بن عبد الله العمري الوافد على القيروان مالاً جليلاً، وفضائله كثيرة، ختم الله أعماله بالشهادة دخل إليه قوم من المشاركة، والشرط مع محمد بن لصوية عامل محمد بن حسن على القيروان بعد صلاة العصر يوم الخميس الثاني عشر

(1) التين جمع تنانين، وهو الحوت، ويطلق أيضاً على الحية العظيمة.

من شوال سنة سبع وأربعمائة، وهو في مسجده ومعه جماعة من الناس، فقتلوا أبا محمد الغرياني الفقيه، وآخر بدوياً ظانين أنه أبو علي، فلما عرفوا مالوا على أبي علي بِسَكَكِينِهِمْ وَجَرَّدُوا جماعة مَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ فحملوا أبا علي إلى دَارِهِ وَقَدْ وَقَعَتْ فِيهِ ثَلَاثُ جَرَاحَاتٍ، إِحْدَاهَا فِي صَدْغِهِ أَخَذَتْ إِلَى قَفَاهُ، وَاثْنَتَانِ فِي جَانِبِهِ الْأَيْسَرِ أَنْفَذَتَا مَقَاتِلَةً. تَوَفَّى فِي دَارِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَبَقِيَ دَمُهُ بِالْمَحْرَابِ إِلَى قَرِيبِ زَمَانِنَا هَذَا.

قلت: سبب قَتْلِهِ، أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الْمُعِزُّ بْنُ بَادِيسٍ الْقَيْرَوَانِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ وَاسْتِفْتَا حَولَ وَلَايَتِهِ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُنْتَصَفَ مُحَرَّمٍ سَبْعَةٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قَتَلَتِ الْعَامَّةُ الرَّاغِبَةَ بِالْقَيْرَوَانِ أَقْبَحَ قَتْلٍ، وَحَرَقُوهُمْ، وَانْتَهَبُوا أَمْوَالَهُمْ، وَهَدَّمُوا دِيَارَهُمْ وَقَتَلُوا نِسَاءَهُمْ وَصِبْيَانَهُمْ، وَجَرَحُوهُمْ بِالْأَرْجُلِ، وَكَانَتْ صِيْحَةٌ مِنْ اللَّهِ سَلَّطَهَا عَلَيْهِمْ، وَخَرَجَ الْأَمْرُ مِنَ الْقَيْرَوَانِ إِلَى الْمَهْدِيَةِ وَسَائِرِ بِلَادِهِمْ فَقَتَلُوا حَيْثُ وَجَدُوا، وَأَحْرَقُوا بِالنَّارِ، فَلَمْ يَتَبَرَّكْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَدَائِنِ إِفْرِيقِيَّةٍ إِلَّا مِنْ اخْتَفَى، وَلَجَأَتْ^(١) الرَّاغِبَةُ إِلَى مَسَاجِدِ الْمَهْدِيَةِ فَقَتَلُوا فِيهَا وَهَدَّمُوا دَارَ الْإِمَارَةِ، وَتَقَدَّمَتِ الْعَامَّةُ ذَلِكَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَلَقَدْ حَكَى أَنَّ الْعَامَّةَ جَاءَتْ مُتَعَلِّقَةً بِرَجُلٍ اتَّهَمُوهُ بِرَأْيِهِمْ فَمَرَوْا بِهِ عَلَى شَيْخٍ مِنَ الْعَامَّةِ فَسَأَلُوهُ عَنْ تَعَلُّقِهِمْ بِهِ، فَقَالُوا: نَسِيرُ بِهِ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ خَلْدُونٍ فَيَنْظُرُوا مَا يَأْمُرُنَا بِهِ. فَقَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ الْعَامِي: لَا اقْتُلُوهُ الْآنَ، فَإِنْ كَانَ رَافِضِيًّا أَصَبْتُمْ، وَإِنْ كَانَ سُنيًّا عَجَلْتُمْ بِرُوحِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْآنَ، أَوْ كَمَا قَالَ. فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ عَلَى أَيْدِي عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَتَلُوهُمْ كُلَّ مَقْتَلٍ، فَرُعِبَ الْمُعِزُّ مِنْهُمْ، وَأَرَادَ كَسْرَ شَوْكَتِهِمْ فَذَبَرَ قَتْلَ زَعِيمِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَشَيْخِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَوَالٍ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ أَتَى عَامِلُ الْقَيْرَوَانِ إِلَى مَسْجِدِ الشَّيْخِ وَمَعَهُ خَيْلٌ وَرِجَالٌ، فَفَعَلُوا مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَلَمَّا تَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ ارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ وَثَارَتِ الصَّيْحَةُ مِنَ نَوَاحِي الْقَيْرَوَانِ، فَمَالَ أَهْلُ الْمَنْصُورَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالْعَبِيدِ، فَنَهَبُوا جَمِيعَ مَا فِي حَوَائِثِهَا، حَتَّى لَمْ يَدْعُوا حَانُوتًا وَأُلْقِيَتِ النَّارُ فِي كِبَارِ الْأَسْوَاقِ وَنُهَبَتْ أَمْوَالُ التُّجَّارِ، فَذَهَبَ النَّاسُ وَاشْتَغَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مَقْتَلِ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ وَخَبْرِهِ، وَأَرَادَ عَامِلُ الْقَيْرَوَانِ اسْتَرْضَاءَ النَّاسِ، فَجَاءَ بِرَجُلَيْنِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا اللَّذَانِ قَتَلَاهُ فَقَتَلَهُمَا.

(١) ط، ت: لَجَّت. والصواب ما أثبتناه.

قلت: وما تقدم من قولنا خرج الأمر من القيروان إلى المهدية، وسائر بلادهم خلاف ما كان يقول شيخنا أبو الفضل البُرْزُلي: أن الوقت الذي قام عليهم فيه أهل القيروان، قام كل شيخ على من في بلده كالشيخ محرز على أهل تونس من غير أن لا يكون اتفاق منهم على ذلك، بل هي كرامة في حق جميعهم.

قال: وصلى على أبي علي أبو بكر بن عبد الرحمن.

قلت: الصواب عدم الصلاة عليه لقوله خَتَمَ اللَّهُ أَعْمَالَهُ بِالشَّهَادَةِ.

قال: وَدُفِنَ بِدَارِهِ وَقَبْرُهُ الْآنَ بَبَابِ سَلَمِ مَشْهُورٍ، وَقَدْ رُئِيَ بِمَرَاثٍ كَثِيرَةٍ لَمْ أَحْكِمَهَا لَطُولُهَا رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

272 - ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن محمد الكِنَانِي⁽¹⁾ المعروف بابن الْكَاتِبِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ:

قال: أَخَذَ عَنْ ابْنِ شَبْلُونٍ، وَسَمِعَ مِنَ الْقَابَسِيِّ، وَكَانَ أَحَدَ الْفُقَهَاءِ الْمُسْتَنْبِطِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَكَانَتْ لَهُ قُتُبًا مَشْهُورَةٌ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَلَقِيَ النَّاسَ وَعَادَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ.

قلت: قال ابن سعدون: «كان موصوفاً بالعلم، والفقه، والنظر، وَفَضْلُهُ مَشْهُورٌ»⁽²⁾. وَرَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَحَجَّ وَسَأَلَهُ الطَّائِي⁽³⁾ بِمَصْرٍ عَنْ فُرُوقِ أَجُوبَةٍ فِي مَسَائِلَ مُشْتَبِهَةٍ مِنَ الْمَذْهَبِ، فَقَالَ الطَّائِي⁽³⁾: وَقَدْ كَانَ أَعْضَلَ، جَوَابُهَا كُلٌّ مِنْ لَقِيتَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعِرَاقِ⁽⁴⁾، فَأَجَابَنِي أَبُو الْقَاسِمِ فِيهَا ارْتِجَالاً عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شُغْلِ الْبَالِ بِالسَّفَرِ، وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى جَوَابِهِ فِي جُزْءٍ مُنْظَوٍّ عَلَى أَحَدِ وَأَرْبَعِينَ فَرْقاً، وَكَانَ قَوِيّاً فِي الْمُنَاطَرَةِ، وَنَاطَرَ أَبَا عِمْرَانَ الْفَاسِي^(*) مَرَّةً وَطَالَتْ بَيْنَهُمَا الْمُنَاطَرَةُ حَتَّى عَلَا الْعِرْقُ أَبَا عِمْرَانَ وَبَلَ قَمِيصَهُ، وَرَدَّاهُ، وَصَارَ كَمَنْ غَسَلَهُ⁽⁵⁾ فِي مَاءٍ وَبَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك: 4/ 706 - 707، شجرة النور الزكية 1/ 157 رقم 309، كتاب العُمَر 2/ 663 - 664.

(2) ترتيب المدارك: 4/ 406.

(3) في ط، ت: الطائِي. التصويب من ترتيب المدارك: 4/ 406.

(4) في ترتيب المدارك: القيروان 4/ 707.

(*) أبو عمران الفاسي واسمه موسى بن عيسى بن أبي حاج الغَفْجُومِي. انظر رقم ترجمته (282).

(5) في ترتيب المدارك: «غمس».

نزاع وخلاف ومراجعات في مسائل مشهورة نقلت عنهما. ولأبي القاسم كتاب كبير في الفقه نحو مائة وخمسين جزءاً⁽¹⁾.

قال: ولما عاد بعد رَحْلَتِهِ من المشرق إلى القيروان ركب البحر هو وأبو عبد الله المالكي، فحين أشرفوا على مدينة صفاقس توفي أبو القاسم فأدخل المدينة فغسل وكفن وصلى عليه في جمعٍ كثيرٍ، ثم حُمِلَ إلى القيروان، فوصل إليها ليلة الخميس من صفر سنة ثمان وأربعمائة، وكانت وفاته ليلة الاثنين لِسِتِّ بقين من صفر سنة ثمان وأربعمائة ودفن في داره.

قلت: وَدَارُهُ هي اليوم خارج القَيْرَوَان قِبْلَتُهَا، وليس معه أحدٌ، وعلى قبره نورٌ ما رأيته على قَبْرِ أَحَدٍ رحمه الله تعالى.

273 - ومنهم أبو سعيد خلف بن محمد الخولاني:

قال: قرأ على أبي محمد بن أبي زيد، وزكرياء بن يحيى بن سلام جَمَعَ العِلْمَ، والزُّهْدَ، والقناعة، والنزاهة، وَكَتَمَ الفَاقَةَ وكان حافظاً، وكان رأس ماله مِقْصَافاً بنصف درهم، وَحَلَقَةً بربع، وإبرة بِخَرْوَبَةٍ، وكان إذا خَاطَ بدرهمين لا يخيظ شيئاً حتى ينفقهما في اثنين وثلاثين يوماً، كل يوم خَرْوَبَةٍ، فإذا فرغ ذلك عاد فخاط كذلك بدرهمين، ولو قيل لَهُ تُخَيِّطُ ثوباً بمائة دينار، لم يفعل حتى تفرغ الدرهمان، وكان يدرس الشهر كله، وانصرف يوماً من مجلس أبي محمد بن أبي زيد وعليه أطمارٌ كأنما نُفِشتُ⁽²⁾ مِنَ الْقُبُورِ، فنظر إليه أبو محمد وإلى ثيابه وسأل عنه فقيل له: والله ما يلبس هذه إلا يتجمل بها في الميعاد، وأما ما يقطع به الأيام فَفَرَّوْ يُساوي درهمين، فبعث إليه أبو محمد بن أبي زيد بِصُرَّةٍ فيها خمسون ديناراً ذهباً فأبى أن يقبلها على شِدَّةِ فَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ. وقال: إِنَّمَا قُوتِي كل يوم خروبة آخذاً بها خبزاً تصب عليه الوالدة مرق بقل أو ما تيسر وَتَهَيَّأَ رحمه الله تعالى.

(1) الخبر في ترتيب المدارك: 707 / 4.

(2) نفشت: نَفَسَ، نَفَسًا، نقول نَفَسَ القطن أو الصوف: شَعَثَهُ وفرقه.

274 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سُفيان المُقرئ الفقيه⁽¹⁾:

قال: كان من أوحدِ زَمَانِهِ في القراءات، وألَّفَ في ذلك كتابه «الهادي»⁽²⁾ أخذ القراءات على أبي الطيب بن غلبون⁽³⁾ المقرئ^(*) وتفقه على أبي الحسن القابسي أخذ عنه القراءات كثير من الناس.

قلت: زاد غيره وكان حسن الصوت بالقرآن.

قال: وكان أبو الحسن القابسي يحبه ويدعو له ويقول: من أراد أن ينظر إلى زهرة من زهرات الدنيا فليُنظر إلى أبي عبد الله محمد بن سُفيان.

قلت: وتوفي سنة [ثمان وأربعمائة]⁽⁴⁾.

275 - ومنهم حربون⁽⁵⁾ بن خلفون القُرشي وهو خادم الشيخ أبي الحسن القابسي رحمه الله:

قال: كان رجلاً صالحاً فاضلاً، وكان الشيخ أبو الحسن يقول: لم أعلم أنه عُثماني إلا من قريب بعدما اختلط بنا، ولو علمت ذلك من قبل، لم أستخدمه

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك: 712/4، فهرسة ابن خير الإشبيلي ص: 24 رقم 5، وص: 36 رقم 54، الديباج المذهب ص: 366 - 367، شذرات الذهب 3/ 203 - 204، الوافي بالوفيات 3/ 114، وفيه أن وفاته كانت سنة 415هـ، شجرة النور الزكية 1/ 157 رقم 308، كتاب العمر: 1/ 119 - 121.

(2) ذكره عياض في ترتيب المدارك: 712/4، وابن خير في فهرسته وأسند روايته له ص: 24 رقم 5، وفي كتاب العمر أن منه نسخة خطية في مكتبة الفاتح بإسطنبول رقم 61.

(3) هو عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون المقرئ الحلبي الشافعي أبو الطيب ولد بحلب وانتقل إلى مصر وسكنها وتوفي سنة 389هـ. ترجم له في حسن المحاضرة 1/ 405 رقم 34، وشذرات الذهب 3/ 131، وانظر فهرسة ابن خير وسند روايته له في القراءات السبع ص: 25.

(*) فالملاحظ هنا أن محمد بن سُفيان رحل إلى مصر وأخذ عن ابن غلبون هناك.

(4) هذا التاريخ في المعالم وحده فقط، أما في كتب مترجميه أن وفاته كانت سنة خمس عشرة وأربعمائة (415هـ). قال عياض في ترتيب المدارك: وخرج من القبروان لأداء الفريضة، سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، فَحَجَّ وجاور بمكة، ثم أتى المدينة فتوفي بها سنة خمس عشرة أي (415هـ).

وفي فهرسة ابن خير قال: قال شريح بن محمد: وحدثني به أيضاً (أي كتاب الهادي في القراءات لمحمد بن سُفيان المقرئ) الفقيه أبو محمد عبد الله بن إسماعيل بن خزرج اللخمي إجازة، قال: حدثنا به أبو عبد الله محمد بن سُفيان مؤلفه رحمه الله إجازة منه له بخط يده في شعبان سنة 415هـ. ص: 25.

(5) في ط: حرفون وهو تحريف لكلمة حربون.

احتراماً لنسبه توفي يوم الخميس الخامس من شوال سنة خمس عشرة وأربعمائة ودفن بباب تونس وقبره معروف.

276 - ومنهم أبو عبد الله بن أبي صُفْرَةَ بن أسير التميمي الأندلسي من أهل المهدية رحمه الله:

قال: وهو أخو المهلب بن أبي صفرة.

قلت: وهو بالفضل مذكور كأبي عبد الله.

قال: كان أبو عبد الله عالماً، فاضلاً، جليلاً، أخذ بالأندلس على أبي محمد الأصيلي وصحبه وأخذ بالقيروان عن أبي الحسن القابسي وغيره.

قلت: وكان له مع ذلك حَظٌّ وافر من علم العربية، وآداب، وحسن هدى واستقامة، وظهور نُسْكِ، وَصِدْقُ لَهْجَةٍ، وطيب أخلاق، وكان من البكّائين الخاشعين الورعين. قال الحميدي: توفي قبل العشرين وأربعمائة.

قلت: ونقله العواني وتكرر التعريف به مرة أخرى.

قال: ولم يعزه توفي سنة ست عشرة وأربعمائة.

277 - ومنهم أبو العرب محمد بن تميم بن أبي العرب بن تميم الفقيه رحمه الله تعالى:

قال: كان من أهل العلم، والفضل، والثقة، وَاسِعَ الرِّوَايَةِ، عارفاً بالتاريخ، صحيح النُّقْلِ، كثير التَّحَرِّي، معروفاً بالصُّدْقِ، يَرْوِي عن أبيه وغيره؛ ورحل إلى المشرق سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، ولقي العُلَمَاءَ بمصر، والشَّام، والحِجَاز، ودخل الأندلس ثم عاد إلى القَيْرَوَان فمات في أحوالها سنة سبع عشرة وأربعمائة، وكان مولده سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

278 - ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن خلدون البَلَوِي الفقيه المفتي:

قال: كانت له عناية بالفقه، والدين، اشتهرت إمامته بالقيروان، وانتشر فضله وعنايته بالعلم، وأقواله معتبرة في مذهب مالك، وهو أحدُ أشياخ القيروان الفقهاء توفي بالقيروان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

279 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي موسى بن عيسى بن مناس اللواتي:

قال: كان فقيهاً جليلاً حافظاً أخذ عن أبي الحسن القابسي وانتفع به، أخذ عنه حاتم الطرابلسي وغيره من العلماء رحمة الله عليه.

280 - ومنهم أبو بكر عتيق بن خلف التُّجيبِي الواعظ المؤرخ⁽¹⁾:

قال: أَلَفَ كتاب «الافتخار»، وكتاب «الطبقات». كانت له عناية بالعلم، والفقه، ومناقب الصالحين، سمع من أبي محمد بن أبي زيد، وأبي محمد بن التبان، وأبي سعيد ابن أخي هشام، وَمَيْسَرَةَ بن مُسْلَم، وأبي العباس بن تميم، وأبي الحسن القابسي، وكانت له رحلة إلى المشرق، وأخذ فيها عن جماعة من العُلَمَاء ومشايخ كثيرة. روى عنه ولده عبد الملك. وكانت وفاته في الثاني والعشرين لجمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وأربعمئة وَدُفِنَ بِبَابِ سَلَمٍ قُرْبَ شُقْرَانِ رحمه الله تعالى.

281 - ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن الأصفى الزَّاهِد العَابِد:

قال: كان رحمه الله من الفقراء المتجربين، المتقشفين، الْمُقْلِينَ، كان الشيخ أبو الحسن القابسي يُعَظِّمُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ، ويرغب في صُحْبَتِهِ؛ روى أنه قال يوماً للشيخ أبي الحسن: والله إني لأشح على الفقر أن يَزُولَ عني كما يشح صاحب الغنى على غناه، وكان من فضلاء المؤمنين، ذَا وَرَعٍ وَمُوَالَاةٍ عَلَى الدِّينِ، وله كرامات رحمه الله تعالى.

282 - ومنهم أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي⁽²⁾ الفاسي نزيل القيروان⁽³⁾:

أَصْلُهُ مِنْ فَاسٍ، وَبَيْتُهُ بِهَا بَيْتٌ مَشْهُورٌ، يُعْرَفُونَ بِهَا بِبَنِي الْحَاجِ⁽⁴⁾.

- (1) ترجم له في: شجرة النور الزكية 1/ 158 رقم 311.
- (2) في ط: العجفوني. والصواب ما أثبتناه من ترتيب المدارك، وفي ت: الغفجوقي. وَغَفْجُوم، بالغين المعجومة، والفاء المفتوحة، والجيم المضمومة. وهي بطن من زناتة قبيلة من البربر بالمغرب من هُوَّارَة.
- (3) ترجم له في: جذوة المقتبس ص: 303 رقم (791)، الصلة لابن بشكوال ص: 475 رقم (1340)، بغية الملتبس ص: 399 رقم (1332)، ترتيب المدارك: 4/ 702 - 706، الديباج المذهب ص: 422 - 423، شذرات الذهب 3/ 247 - 248، شرف الطالب ص: 54، شجرة النور الزكية 1/ 158 رقم (312)، الفكر السامي 2/ 238 - 239 طبعة دار الكتب العلمية البيان المغرب 1/ 275 [حوادث 430].
- (4) في ط و ت: الحجاج، والصواب ما أثبتناه كما في المدارك، والفكر السامي، بينما في الديباج: الحجاج كما في: ط و ت.

قال: تَفَقَّهَ بالقيروان على الشيخ أبي الحسن القابسي وغيره؛ يعني أبا بكر الزويلي⁽¹⁾، وعلي بن أحمد اللواتي السوسي.

قال: ثم رحلَ إلى قُرطبة فقرأ على أبي محمد الأصيلي، وسعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم الأبرزاري، ثم رحل إلى المشرق وأخذ بمصر القراءات على أبي الحسن عبد الكريم بن أحمد بن أبي جدار، وأخذ بمكة عن أبي إسحاق عبيد الله بن محمد بن أحمد السرقسطي، ثُمَّ حَجَّ حَجَّاتٍ كثيرة، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وحضر مجلس أبي بكر بن الطيب بن الباقلاني القاضي وسمع منه ومن غيره وعينهم، ثم انصرف إلى القيروان فأقرأ بها القرآن مُدَّةً ثُمَّ دَرَسَ الفِقهَ وَأَسْمَعَ الحديثَ، واشتهر بها الشُّهرة الثَّامَّةَ ورحلت إليه طلبة العلم من البلاد وظهرت إماماته.

قلت: وَتَفَقَّهَ عليه جماعة كثيرة كعتيق السيوري، وأبي القاسم السيوري، وجماعة من الفاسيين الأندلسيين، وطارت فتاواه في المشرق والمغرب وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدوة إلى الظهر فلا يتكلم بشيء إلا كَتَبَ عنه إلى أن مات.

ذِكْرُ ثَنَاءِ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ وَهَيْبَتِهِ

قال: كان فقيهاً عالماً بِفُنُونِ الْعِلْمِ، منها القرآن وعلومه، والحديث وَعِلَلُهُ ورجاله، والفقه البارع مع الْوَرَعِ التام، والهيبة والِرَقَّارِ والسكينة، قليل الضحك. قيل: إنه مَا رَئِيَ ضاحكاً قَطُّ إِلَّا مَرَّةً واحدةً، عَارِفاً بِأُصُولِ الدين.

قلت: وكان أبو بكر الباقلاني يُعْجِبُهُ حفظه ويقول: لو اجتمعت في مدرسة أنت، وعبد الوهاب بن نصر، لاجتمع فيكما علم مَالِكٍ أنت تحفظه وهو ينصرد، لو رَأَكُمَا مَالِكٌ لَسُرَّ بِكُمَا⁽²⁾. ولما وصل إلى بغداد، شَاعَ أَنَّ فقيهاً مَالِكِيًّا من أهل المغرب، قَدِمَ فقال الناس: لَسْنَا نَرَاهُ إِلَّا عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ⁽³⁾ وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق، وإمام الناس، فنهض من أهل بغداد جماعة لمسجد أبي بكر ومعه

(1) في ترتيب المدارك: الدويلي 702 / 4.

(2) الخبر في ترتيب المدارك: 704 / 4.

(3) في ترتيب المدارك زيادة: الباقلاني.

أصحابه وأبو عمران فجرت مسائل، وأجاب أبو عمران عنها، ثم سأل رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مجرد عن الدليل، فطلبه السائل بالحجة عليه، فأطرق الشيخ أبو عمران، فقام شاب من أهل بغداد من المالكية فقال للسائل: أصلحك الله، هذا شيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تُكَلِّفَهُ المُنَاطَرَةَ من أول وهلة، ولكن أخدمه أنا في نظرة⁽¹⁾ هذه المسألة، وأنوب عنه فيها، الدليل على صحة ما أجاب به الشيخ حفظه⁽²⁾ الله كذا وكذا، فاعترضه⁽³⁾ الشافعي فيه، ثم انفصل المالكي من اعتراضه، حتى خلاص الدليل، فلما أكمل⁽⁴⁾ الكلام على المسألة، قام إليه الشافعي فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وقال: أحسنت يا سيدي وحبيبي، أنت والله شيخ المذهب حين نَصَرْتَهُ. وَجَرَتْ في ذلك المجلس مسائل⁽⁵⁾. ولما ورد القبروان وجلس بها وَبَانَ عِلْمُهُ⁽⁶⁾. قال أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمن: نسيرُ إليه، وقالوا: إنه يعزّ على شيخنا ذلك. وَتَرَوُّضُوا⁽⁷⁾ في الحضورِ عنده، ثم عزموا على ذلك وقالوا: إِنَّهُ لَا يَجِلُّ⁽⁸⁾ لَنَا التَّخَلُّفَ عن مثله، فَأَسْخَطُوا شَيْخَهُمْ حتى يحكى أنه دعى عليهم، وَهَجَرَهُمْ قال: وكانت له هَيِّبَةٌ قال أبو عبد الله محمد بن المازري عن بعض شيوخه: إن الْمُعِزَّ بن باديس، بعث ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته إلى أبي عمران يَسْتَفْتِيهِ في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره، ظنه الشيخ بعض رجال الدولة، إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيار أهل مِلَّتِهِ، فقال الشيخ: وما مِلَّتُهُ؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فَغَضِبَ أبو عمران، وقال لابن عطاء: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ دَارِي كَمَسْجِدِي، فكيف اجْتَرَأْتَ عَلَى دُخُولِهَا؟ وأمره بالخروج فخرج وهو يردد، وكان غير معلم فأمر الشيخ بِصَبْغِ طرفِ عَمَامَتِهِ لِشُهْرَتِهِ، وقال: انصرف إلى مرسلتك فقل له: يبعث إلي برجل من المسلمين يأخذ جواب

(1) في ترتيب المدارك: نصرة 4/ 704.

(2) في ترتيب المدارك: حرسه.

(3) في ترتيب المدارك: ما اعترفه.

(4) في ترتيب المدارك: أجمل.

(5) الخبر ورد في ترتيب المدارك: 4/ 704.

(6) في ط: عمله. التصويب من ترتيب المدارك، وت.

(7) في ط و ت: وتراضوا. والصواب ما أثبتناه من المدارك.

(8) في ترتيب المدارك: لا يجمل 4/ 705.

مسألته، فإني لأستحيي أن أحملك أسماء الله وحكماً من أحكامه، فلما دخل اليهودي على المعز، ذكر له القضية وقال: والله يا سيدي ما ظننت أن بإفريقية ملكاً غيرك إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما أدركني الفزع ولا أصابني من الرُّعب ما أصابني في يومي هذا؟ فقال له المعز: إنما فعلت ذلك لأريك عزَّ الإسلام، وهَيِّبَةَ علماء المسلمين، وما أَلْبَسَهُمُ اللَّهُ من شَعَائِرِ الأولياءِ، لَعَلَّكَ تَسْلَمَ.

ذكر بقية أخباره

قال أبو العباس الجعفري الأندلسي: قال رَجُلٌ بالقيروان: أنا خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. فَهَمَّتْ بِهِ الْعَامَّةُ، ثُمَّ لَبِثَ فَحُمِلَ إِلَى دَارِ أَبِي عِمْرَانَ فَقِيلَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ مُؤْمِنٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تُصَلِّي وَتَصُومُ وَتَفْعَلُ الْخَيْرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اذْهَبْ بِسَلَامٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ [البَيِّنَةُ: 7]. فَانْفَضَّ النَّاسُ عَنْهُ.

قلت: وأبو العباس المذكور من أهل بِيَّاسَةَ^(*)، وَجَرَتْ بِالْقَيْرَوَانِ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى فِي الْكُفَّارِ، هَلْ يَعْرِفُونَ اللَّهَ أَمْ لَا؟ وَوَقَعَ فِيهَا تَنَازُعٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَتَجَاوَزَ ذَلِكَ لِلْعَامَةِ، وَكَثُرَ التَّنَازُعُ بَيْنَهُمْ فِيهَا، حَتَّى كَادَ يَقُومُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ حَدِّ الْعَدَالَةِ إِلَى الْقِتَالِ، وَكَانَ الْقَائِمُ⁽¹⁾ بِذَلِكَ، رَجُلٌ مُؤَدَّبٌ يَرْكَبُ حِمَارَهُ وَيَذْهَبُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرَ، فَلَا يَتْرَكُ مُتَكَلِّمًا وَلَا فَقِيهًا إِلَّا سَأَلَهُ فِيهَا وَنَظَرَهُ، فَقَالَ قَائِلٌ: لَوْ ذَهَبْتُمْ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي عِمْرَانَ لَشَفَّانَا مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَقَامَ أَهْلُ السُّوقِ بِجَمَاعَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا بَابَ دَارِهِ وَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ، فَأُذِنَ لَهُمْ فَقَالُوا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْعَامَّةَ إِذَا حَدَّثَ بِهَا حَدِيثٌ إِنَّمَا تَفْرَعُ إِلَى عُلَمَائِهَا، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَدْ جَرَى فِيهَا مَا بَلَغَكَ، وَمَا لَنَا فِي الْأَسْوَاقِ شُغْلٌ إِلَّا الْكَلَامَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ أَنْصَحْتُمْ وَأَخَسَنْتُمْ الْإِسْتِمَاعَ، أَخْبِرُكُمْ⁽²⁾ بِمَا عِنْدِي، قَالُوا: مَا نَحِبُ إِلَّا جَوَاباً بَيِّنًا

(*) ذكر البكري «بِيَّاسَةَ» ضمن أشهر مدن الأندلس قاعدتها طَلَيْطِلَةُ 380/2 وفي الروض المعطار: بِيَّاسَةُ عَلَى كَدِيَّةٍ مِنْ تَرَابِ مُطْلَةِ عَلَى النِّهْرِ الْكَبِيرِ الْمُنْحَدِرِ إِلَى قَرْطَبَةِ وَهِيَ مَدِينَةُ ذَاتِ أَسْوَاقٍ وَمَتَاجِرٍ وَحَوْلَهَا زَرَاعَاتٌ ص: 121 - 122.

(1) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: الْمُتَهَجُّمُ 705/4، وَفِي ت: الْمَقِيمُ.

(2) فِي تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ: أَجَبْتَكُمْ 705/4.

على قَدْرِ أَفْهَامِنَا، فقال لهم: وبالله التَّوْفِيقُ، ثم أَطْرَقَ سَاعَةً وقال: لَا يُكَلِّمُنِي مِنْكُمْ إِلَّا وَاحِدٌ، ويسمع الباؤون، فقصد وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فقال له: أَرَأَيْتَ لَوْ لَقِيتَ رَجُلًا فَقُلْتَ لَهُ أَتَعْرِفُ أَبَا عِمْرَانَ الْفَاسِي؟ فقال: أَعْرِفُهُ، فَقُلْتُ: صِفْهُ لِي، فقال: هُوَ رَجُلٌ يَبِيعُ الْبَقْلَ وَالْحِنْطَةَ وَالزَّيْتَ فِي سَوَاقِ ابْنِ هِشَامٍ، وَيَسْكُنُ صَبْرَةَ، أَكَانَ يَعْرِفُنِي؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَوْ لَقِيتَ آخَرَ فَقُلْتَ لَهُ: أَتَعْرِفُ الشَّيْخَ أَبَا عِمْرَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: صِفْهُ لِي، فقال: نَعَمْ، رَجُلٌ يُدْرَسُ الْعِلْمَ وَيُفْتِي النَّاسَ وَيَسْكُنُ بِقُرْبِ السَّمَاطِ أَكَانَ يَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَالْأَوَّلُ مَا كَانَ يَعْرِفُنِي؟ قَالَ: لَا، قَالَ لَهُمُ الشَّيْخُ: فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ إِذَا قَالَ لِمَعْبُودِهِ لَهُ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ وَأَنَّهُ جِسْمٌ وَعَبْدٌ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ فَلَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ، وَلَمْ يَصِفْهُ بِصِفَةٍ، وَلَمْ يَقْصِدْ بِعِبَادَتِهِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ، وَهُوَ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّ مَعْبُودَهُ الَّذِي ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾ [الإخلاص: 3، 4]. فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته (١).

فقامت الجماعة وقالوا: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْ عَالِمٍ فَقَدْ شَفِيتَ مَا فِي قُلُوبِنَا، ودعوا له ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس.

قال: ورحل إلى المشرق مَرَّةً ثَانِيَةً سَنَةً سِتْ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةَ فَلَقِيَ بِمَكَّةَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَحْمَدَ الْهَرَوِيَّ وَأَخَذَ عَنْهُ، ثُمَّ قَدِمَ الْقَيْرَوَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِسِيرٍ.

ذكر وفاته وما يتعلق بذلك

قال: وَلَمَّا حَضَرَتْ أَبَا عِمْرَانَ الْوَفَاةُ، جَعَلَتْ زَوْجَتُهُ تُمَرِّغُ خَدَّيْهَا عَلَى رِجْلَيْهِ فَقَالَ لَهَا: مَرِّغِي أَوْ لَا تُمَرِّغِي، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي مَا مَشَيْتُ بِهِمَا إِلَى مَعْصِيَةٍ قَطُّ.

قلت: لو لم يكن في فضل أبي عمران إلا هذا، مع ما تقدم من كونه ما رُئِيَ ضَاحِكًا قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً لَكَانَ كَافِيًا فِي ذَلِكَ.

قال: وتوفي في الثالث عشر من رمضان سنة ثلاثين وأربعمئة، ومولده سنة ثمان وستين وثلاثمئة (٢).

(١) انظر الخبر في ترتيب المدارك: 705 / 4.

(٢) قال أبو عمرو بن عبد البر: وَلِذَلِكَ مَعَ أَبِي عِمْرَانَ فِي عَامٍ وَاحِدٍ سَنَةً ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةَ.

انظر الصلة لابن بشكوال ص: 476.

قلت: كذا قال أبو عمرو بن عبد البر⁽¹⁾ وقال أبو عمرو الداني: مولده سنة خمس وستين، قال: وحضر للصلاة عليه جميع أهل القيروان والسلطان في موكبه وتَجَادَبَتِ الْعَامَّةُ نَعْشَهُ وهو على رؤوسهم، إلى أن كَسَرُوا تحته نَعْشَيْنِ من بُكَرَةٍ إلى قرب الزَّوَالِ، وَصَلَّى عليه أبو بكر عتيق السوسي الفقيه الزاهد بوصيته له بذلك، وَدُفِنَ بِدَارِهِ، وَقَبْرُهُ مشهورٌ بالقيروان يُتَبَرَّكُ به.

قلت: وما زلتُ أسمعُ ممن نَشِقُ بقوله: إنه وَرَثَ زوجته وابنته وعصبه بيت المال، وأنه وَجِدَ في تركته الْكِبْرِيثُ الْأَحْمَرُ، فَاسْتَرَدَّهُ السلطان المعز بن باديس لبيت المال، وهذا غير صحيح لقول المازري في شرح الجوزقي لما أفاق أبو عمران من إغمائه في مَرَضِهِ الذي مات فيه؛ سمع أم ولده عيسى تبكي وتقول: وَاشْمَاتَةَ أعداء عيسى بعيسى، فقال لها: قولي لأعداء عيسى لا يموتون وجعلت تُمرِّغُ خَدَّيْهَا على رجليه فقال لها ما تقدم؛ ولو نقله الشيخ الدباغ على نحو ما قلناه لكان أتم فائدة، وقد تقدم أنه لما مات الشيخ أبو الحسن القابسي، مكث أبو عمران على قبره سنةً كَامِلَةً، وأن أبا الحسن القابسي وقف له في المنام وقال له: نَوَّرْتَ قَبْرِي نَوَّرَ اللَّهُ قَبْرَكَ، أدخل القيروان وَفَقَّةً أَهْلَهَا في الدِّينِ، فَجَرَّتِ الْعَادَةُ في زماننا وقبله أكثر ما يؤتى له بالزيت فَيُشْعَلُ على قبره منه ويباع ما يفضل منه بالدنانير، وتصلح منه داره المدفون فيها، ويأخذ منه الواقف في الموضع، ومن يكن في سفرٍ وخاف من أخذِ الْأَغْرَابِ لَهُ، يَعِدُ الشيخ أبا عمران بصاع من الزيت، أو أقل أو أكثر إن سَلَّمَهُ الله، فيسلمه الله عزَّ وجلَّ، ويوصل ذلك لداره فيفرغه في جُرَّةٍ مُعَدَّةٍ لذلك وينصرف، وكذلك إن مَرِضَ إنسان، أو مرض له ولد، أو ما أَشْبَهَ ذلك، وكل من نزلت به نازلة بالقيروان من سرقة ماله أو غير ذلك؛ يُكْثِرُ من الزيارة للشيخ والدعاء عند قبره يُفَرِّجُ اللَّهُ عنه ما نزل به في غالب الحال.

(1) هو يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد وغيرها من الكتب توفي سنة 463 هـ. ترجم له في جذوة المقتبس ص: 332 رقم 874، بغية الملتبس ص: 427 رقم 1443، الديباج ص: 440.

283 - ومنهم أبو حفص عمر بن محمد العطار⁽¹⁾:

قال: كان من المجتهدين المبرزين، من أئمة القيروان المعدودين، انتفع به خلق كثير من الناس.

قلت: منهم عبد الحميد المهدوي⁽²⁾ [المعروف بابن الصائغ]⁽³⁾، وابن سعدون.

قال: حتى كان الذُّكْرُ لأبي بكر بن عبد الرحمن، والعلم لأبي حفص العطار، لأن أبا بكر بن عبد الرحمن هو شيخ أبي حفص هذا، لكنه برع فناهز شيخه أو كاد، وكان مُوَفَّقاً في أجوبته، لم يرَ معلماً بالقيروان أحسن منه تعليماً، ومات قبل وفاة الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن فقال الشيخ أبو بكر: رحمك الله يا أبا حفص، فلقد كنت تنصرتني وتكفيني أموراً كثيرة من الفتيا. ووبي حفص تعليقاً على المَدَوَّنة أملاه سنة سبع وعشرين، أو ثمان وعشرين وأربعمئة، وهو كتاب نبيلٌ جداً.

قلت: وَدُفِنَ بِبَابِ سَلَمٍ وَقَبْرِهِ [مشهور]⁽⁴⁾ مزار وعلى مشهده مكتوب:

الموت بحرٌ عامقٌ مَوْجُهُ	تَحَارُّ فِيهِ حِيلَةُ السَّابِحِ
يا نفسُ إني واعِظُ فَاَسْمَعِي	مَقَالَةً مِنْ مُشْفِقٍ نَاصِحِ
ما يصحب المَيِّتَ في قبره	غيرُ التُّقَى والعملِ الصَّالِحِ

وَبِقُرْبِهِ حُوطَةٌ فِيهَا مَشَاهِدٌ عَلَى قُبُورٍ مُتَعَدَّةٍ، يَقُولُ الْعَامَّةُ: إِنَّهُمْ قُبُورُ حَنَّاطِينَ، كَانُوا صُلَحَاءَ فَقَحَطِ النَّاسِ، وَاسْتَسْقُوا أَيَّاماً فَلَمْ يَجَابُوا، فَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْحَنَّاطُونَ وَبَأْيَدِيهِمُ الْوِيَّاتُ وَالصَّيْعَانُ، وَخَرَجُوا يَطْلُبُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِالدُّعَاءِ، فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ أَنْ يَقَالُوا: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَا لَا نَكْتَالُ إِلَّا حَقًّا وَلَا نَغْشُ فِي بَيْعِ طَعَامِنَا - أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ - فَأَمْطِرْنَا». فَأَمْطَرُوا مِنَ الْفُورِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ بِمَطَرٍ وَابِلٍ، فَكَانَ مِمَّا عَلِمَ لَهُمْ ذَلِكَ فَجَرَتْ عَادَةُ الْعَامَةِ يَتَبَرَكُونَ بِقُبُورِهِمْ، وَيَزُورُونَهُمْ وَيَدْعُونَ عِنْدَهُمْ، وَلَا أَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ ذَكَرَهُمْ.

(1) ترجم له في ترتيب المدارك: 4/ 772.

(2) في ط و ت: المهديم، وفي المدارك: المهدي، والصواب المهدوي كما أثبتناه نسبة إلى المهدية بتونس، حيث إنه لزمها ودارت عليه فتاويها. انظر ترجمته من كتاب معالم الإيمان رقم (318).

(3) سقط من: ت. (4) سقط من: ت.

284 - ومنهم أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله⁽¹⁾ الخولاني رحمه الله ورضي عنه:

قال: قرأ على الشيخ أبي سعيد ابن أخي هشام، ثم على الشيخ أبي محمد بن أبي زيد، ثم لزم الشيخ أبا الحسن القابسي وانقطع إليه حتى لم يكن في أصحابه مثله، وأباح له أبو الحسن الفتيا في حياته، وعرض عليه أن يُقاسمه في جميع ما يملكه فامتنع، وسمع أيضاً من أبي بكر الزويلي⁽²⁾، وأبي محمد عبد الله بن أحمد الصدفي، وأبي جعفر بن عبد الله الكاتب، وأبي الحسن بن أبي بكر، وأبي محمد بن البادسي، ثم رحل إلى المشرق سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، فلقي أبا بكر عتيق بن موسى الحاتمي المصري، وأبا بكر محمد بن بكر النعالي⁽³⁾، وأبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الجوهري وغيرهم؛ وكلهم أجازوه إجازة عامة وانتفع به الناس، وكان أصحابه نحو المائة والعشرين كلهم يُقْتَدَى بهم.

قلت: منهم أبو القاسم بن محرز، وأبو حفص العطار، وعبد الواحد الكفيف، وأبو إسحاق التونسي، وأبو القاسم السيوري، وأبو الفضل ابن بنت خلدون، وأبو عبد الله محمد بن سعدون، وأبو محمد عبد الحق، وأبو حفص عمر بن طيبون، وأبو بكر عبد الله بن محمد المالكي.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال: كان أحد الفقهاء المبرزين، والحفاظ المعهودين، أجمع أهل عصره على أنه لم يكن في وقته أحفظ منه، مع اجتهاد في العبادة، وقيام الليل، وصيام النهار، ورقة القلب، وغزارة الدمع، وكثرة الصدقة، وإجابة الدعاء. وقال أبو الحسن القابسي: إن ذكر العابدون فأبو بكر بن عبد الرحمن أولهم، وإن ذكر المجتهدون فأبو بكر أولهم، وإن ذكر المتفقهون فأبو بكر أولهم. وقال أبو القاسم السيوري: ما

(1) ترجم له في ترتيب المدارك: 700/4 - 702، الديباج المذهب ص: 101، شرف الطالب لابن قنفذ ص: 55، شجرة النور الزكية 159/1 - 160 رقم 315.

(2) في ترتيب المدارك: الدويلي.

(3) في ط: العالي. التصويب من: المدارك: 701/4، وت.

واسمه محمد بن سليمان أبو بكر النعالي، إمام المالكية بمصر في وقته مات سنة 380 هـ.

ترجم له في حسن المحاضرة 376/1 رقم 38 دار الكتب العلمية ط، س 1997.

رأيتُ أبا بكر بن عبد الرحمن أخطأ في مسألة واحدة من المدونة. وقال أبو بكر: «لو عدت المدونة لكتبتها من صدري».

قلت: وكذلك قال في كتاب ابن المَوَازِ حسبما تقف عليه. وقال بعضهم: ما زال الذكر ورئاسة الدين في وقته مع صاحبه أبي عمران الفاسي في المغرب، حتى لم يكن لأحدٍ معهما اسم يُعرف.

ذكر عبادته وصدقته وإجابة دعائه وقلة هيبته للسلطان

قال: كان يمشي لِلْمُنَسْتِيرِ كل سنة في رمضان، فكان طول رمضان لا ينام الليل، وكان يصومُ الدَّهْرَ فلا يفطر إلا الأيام المُحَرَّمَةَ الصوم، وكان كثير الصدقة، لا يخلو ميعاده من صدقة أبداً، وَرُوِيَ أَنَّ رجلاً تكلم في عَرْضِ الشيخ أبي بكر، فقال: «اللهم أره في فَمِهِ الْعِبْرَةَ» فأصاب الرجل انفالج فَنُعُوجَ منه فمه، ودعا على جعفر بن الكوفي فقال: «اللهم لا تمهله»، فمات تلك الليلة. ودعا على رَجُلٍ ظَالِمٍ كان يغضب النَّاسَ فأصابه إِسْفَجُونٌ فَمَاتَ من الغد.

قلت: وحكى الشيخ الفقيه الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطَّرْطُوشِي⁽¹⁾ في كتابه المُسَمَّى «بِسِرَاجِ الْمُلُوكِ» قال: أخبرني شيخ قديم كان يصحب العلماء بالقيروان يقال له جرير، قال: أخبرني عبد الكافي الدِّيْبَاجِي، قال: رأيتُ بالقيروان آية عظيمة، وذلك أَنَّ رجلاً جاء بِصَبِيٍّ قد أسكت ولم يتكلم، فدخل به إلى الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن وأخبره أنه لا يتكلم منذ أيام، وسأله أن يدعو الله أن يفرج ما به، قال: فدعا له ساعة، ثم مُسَحَ على وجهه فاستفاق فقال له قل: «لا إله إلا الله». فقال الصبي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». ثم التفت إلى أبيه وقال له: أَكُتِّمَهَا حتى أموت، فلما كان عند وفاة الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن واحتفل الناس بجنائزته قام الرجل وساق لهم القصة كما ذكرنا.

قال: رُوِيَ أَنَّهُ قال يوماً لِلْمُعِزِّ بن بَادِيس - وقد أراد أن يبعثه رسولاً إلى صقلية -: والله إن أَقْلَامَنَا لَأَمْضَى عند الله من رِمَاحِكَ! وَدَسَّ إِلَيْهِ الْمُعِزُّ يوماً من

(1) نسبة لطرطوشة، مدينة أندلسية على ساحل البحر. للمزيد انظر الروض المعطار ص: 391.

وأبو بكر الطرطوشي توفي سنة 520هـ. ترجم له في الصلة لابن بشكوال ص: 449 - 450، والديباج المذهب ص: 371 - 373.

كتب سؤالاً نصّه: ما يقول الفقيه في هذا الطرز التي فيها أسماء بني عبيد مثل الظاهر، والحاكم، وغيرهما مما يلبس أَيْصَلَى فيها؟ فكتب الشيخ أبو بكر جواباً: هذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفة، وكتب الشيخ أبو عمران الفاسي جواباً عن هذا السؤال: إنما يجب على من بَسَطَ الله يده أن يمنع من ذلك! فَشَقَّ على السلطان جواب الشيخ أبي بكر، فأرسل إليه وإلى الشيخ أبي عمران فقال للشيخ أبي بكر: لِمَ أَجَبْتَ بهذا؟ فقال: لأن السَّكَّةَ تُضْرَبُ بأسمائهم وبنودهم تخفق على رأسك فقال السلطان: ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حُجَّاج بيت الله الحرام والمُسافرين، ثم قال السلطان: ألم أقتل المشاركة؟ ألم أفعل كذا؟ ألم أفعل كذا؟ فقال الشيخ أبو بكر: فعلت وبقي عليك! أتأذن لي أن أتكلم؟ قال له السلطان: لا، ثُمَّ عَطَفَ عليه الشيخ أبو عمران فقال له: لِمَ لم تكتب بمنع ذلك؟

قلت: فالشيخ أبو عمران أعان بكلامه هذا أبا بكر، ولذلك قيل: كان ما بينهما تباعد جداً، حتى طمع بذلك المُعِزُّ فيهما ليجري الحُجَّة على العامة بشهادة أحدهما على الآخر إذا كانت العامة طوعهما، فلما اختبرهما بذلك، لم يجد عندهما ما يوافقه ووجد دينهما أمتن مما يظن.

قال: وبعث إليه المُعِزُّ يوماً رسولاً فقال له: يقول لك المُعِزُّ: هل أنا عندك مسلم أم كافر؟ فقال للرسول قل له: تتبع العلماء هذا التبع، وتستقصي عليهم، والله لئن لم تتركني لأعرضنك على الله عز وجل! فلم يعرض له بعد ذلك بشيء.

ذكر بقية أخباره

يُذكر أن أصحاب أبي بكر تَعَجَّبُوا من حفظه فاتفقوا على اختباره، فلما كان من الغد أخذوا غير الكتاب الذي يتذاكرون فيه، وكانت مذاكرتهم إياه في كتاب ابن المَوَازِ - فلما قرؤوا الكتاب قال لهم الشيخ: ليس كتابنا هذا فجمعوا عليه وأروه أنه هو الذي حضروا للمذاكرة فيه أولاً، ففطن الشيخ لِمُرَادِهِمْ، وأخذ الكتاب في يده ونظر فيه، ثم طواه وألقاه عليهم من حفظه، وقال: علمت ما أردتم لو عدتم هذا الكتاب لأمليتُ عليكم من حِفْظِي!

قال: ورأت أمه وهي حامل به كأنها حامله بالنبي ﷺ. ورأى الشيخ أبو بكر كأن مالك بن أنس خلق في داره. وقال أبو عبد الله بن سعدون: رأيت في المنام

كأن قائلاً: بين السماء والأرض أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول: ألا أن ابن عبد الرحمن قد ورث جد رسول الله ﷺ، كَرَّرَهَا مرتين أو ثلاثاً - وأنه من أهل الجنة، فذكرتها للشيخ فذَمَعَتْ عَيْنَاهُ.

قلت: وقال ابن سعدون أيضاً أخبرنا الشيخ أبو بكر أنه كان رأى في المنام كأن قائلاً يقول له: اكتب اسمك في ذلك اللوح الذي فيه أسماء العلماء فانظر فيه إلى اسم مالك، فاكتب اسمك تحته أو بجواره.

قال: وقال أبو حفص ابن الشامي المتعبد كان بيني وبين الشيخ أبي عمران الفاسي اختصاص ومودة، وكان له في قلبي موضع عظم من الجلالة لعلمه وفضله ودينه، ثم نظرتُ إلى الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن فرأيتُه شيخاً جليلاً القدرِ فبقيتُ مُتَعَجِّباً من اختلافهما! فرأيت ليلة من الليالي في المنام قائلاً يقول: ابن عبد الرحمن من الموفقين، ابن عبد الرحمن من الأبرار، ابن عبد الرحمن من المجتهدين.

ذكر وفاته رحمه الله

قال: توفي يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

قلت: كذا قال أبو عبد الله محمد بن سعدون، وأبو إسحاق الشيرازي، وقال غيرهما توفي سنة خمس وثلاثين.

قال: وَصَلَّى عَلَيْهِ وَلَدُهُ بِالرَّيْحَانِيَةِ فِي جَمْعٍ لَا يَحْصُونَ، وَكَسَرَتْ تَحْتَهُ نُعُوشٌ كَثِيرَةٌ، وَقَطَعَ السُّلْطَانُ بَعْضَ الْأَيْدِي لِعَدَمِ تَسْلِيمِهِمُ لِلنَّعْشِ وَعَصْيَانِهِمْ لِأَمْرِهِ، وَدَفَنَ بِيَابِ تُونِسَ إِلَى جَانِبِ أَبِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

قلت: فقبر الشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن من جهة الْقِبْلَةِ وَالسَّارِيَةِ التي عند رأسه مكتوب فيها اسمه، ووالده عند رأسه سارية أيضاً مكتوب عليها، وكلاهما مزار.

قال: وكان الناس يخرجون إلى قبره بالمشاعل والشموع ليالي عِدَّة حتى منعهم السلطان من ذلك.

قلت: ومسجده مسجد كبير قرب سور البلد بِحَارَةِ الْغَرَانِظَةِ، إِذَا دَخَلْتَهُ تَرَى فِيهِ أَنْوَاراً وَهَيْئَةً تَعْرِفُ أَنَّهُ مَسْجِدُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

285 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن العباس الأنصاري الخواص:

قال: سمع من أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي وغيرهما؛ اشتهر بالعلم والعبادة والفضل والزَّهَادَة، سمع عليه عَالَمٌ كثير، منهم: عبد الله بن محمد المالكي، وعمر بن أبي محمد بن أبي زيد، وتوفي بعد عام ستة وعشرين وأربعمائة رحمه الله تعالى.

286 - ومنهم أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المؤرخ:

قال: كان واحد زمانه عِلْماً وفضلاً، وكان ثقة ثباتاً، يروي عن أبي بكر بن أبي عُقْبَة، عن جبلة بن حمود، وعن أبي الحسن القابسي، وأبي العباس بن أبي العرب، وعنه أخذ أبو بكر بن محمد المالكي وغيره توفي يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، ودفن بباب سلم قرب البُهلُول ابن راشد رحمه الله تعالى.

287 - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد ابن أخي مروان الأنصاري الفقيه:

قال: كان من أهل الدين والفضل، توفي ليلة السبت لثلاث بقين من شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ودفن بباب سَلَم جَوَارَ قَبْرِ عَمِّهِ مروان العابد رحمه الله تعالى.

288 - ومنهم الشيخ الفاضل أبو طاعة بن أحمد بن طُولُون:

قال: هكذا وَجَدْتُهُ مكتوباً على قبره، يُحْتَمَلُ أن يكون من ولد أحمد بن طولون أمير مصر المشهور بالفضل، وفعل المعروف، وهو الذي يُنسَبُ إليه جامع⁽¹⁾ ابن طولون بمصر، وَيُحْتَمَلُ أن يكون غير ذلك، توفي أبو طاعة هذا ليلة الأحد لعشر بقين من ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ودفن بباب تونس وقبره معلوم رحمه الله تعالى.

(1) بنى هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، وكان ابتداء بنائه في سنة ثلاث وستين ومائتين، وفرغ منه سنة ست وستين ومائتين هجرية. انظر: حسن المحاضرة 1/ 218، والخطّط المقرئ ص: 101، طبعة قديمة منشورات مكتبة العرفان لبنان.

289 - ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله القصري:

قال: كان من أهل العلم، والقرآن، وأتباع السنة، وخدمة الصالحين، صحب الشيخ أبا الحسن القابسي توفي في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة ودفن بباب نافع رحمه الله تعالى.

290 - ومنهم أبو علي الحسن بن محمد ابن الجدود اللواتي الفقيه القاضي رحمه الله تعالى:

قال: كان أحد فقهاء القيروان، وذوي العلم والدين والنِّبَاهَةِ. توفي يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة وقبره مشهور رحمه الله تعالى.

291 - ومنهم أبو محمد مكي بن أبي طالب واسمه محمد ويقال حموش بن محمد بن مختار القَيْسِي اللغوي النحوي⁽¹⁾:

قال: سمع من أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وغيرهما؛ كان فقيهاً مقرئاً أديباً متفنناً وغلب عليه حكم القرآن، وكان من الراسخين فيه، ورحل إلى المشرق سنة سبع وسبعين، فلقي ابن غلبون بمصر وغيره؛ وَحَجَّ عَامَهُ ثم عاود مكة سنة سبع وثمانين، فأقام بمكة أربعة أعوام وتجوّل في رحلته فلقي جملة من المحدثين والفقهاء⁽²⁾، وانصرف إلى القيروان سنة اثنتين وتسعين⁽³⁾ وثلاثمائة ودخل قرطبة أيام المظفر بن أبي [عامر]⁽⁴⁾ من سنة ثلاث وتسعين فأجلسه ابن ذكوان القاضي في المسجد الجامع، فنشر علمه وعلا ذكره ورحل إليه⁽⁵⁾، ثم ولي الخطبة

(1) ترجم لأبي محمد مكي في: بغية الملتبس ص: 410 رقم 1368، جذوة المقتبس ص: 318 رقم (820)، الصلة لابن بشكوال ص: 488 رقم 1393، ترتيب المدارك: 737/4 - 738، الديباج المذهب ص: 424 - 425، شرف الطالب ص: 55، شذرات الذهب 3/ 260 - 261، طبقات المفسرين للداودي ص: 521 - 522 رقم 643، شجرة النور الزكية 1/ 160 رقم 317 كتاب العمر 1/ 128 - 146، الفكر السامي: 2/ 242 رقم (562) طبعة دار الكتب العلمية 1995.

(2) لقد ذكر بعضهم عياض في ترتيب المدارك: 738/4، وابن فرحون في الديباج ص: 425.

(3) في ترتيب المدارك: (اثنتين وسبعين) وهو خطأ. والصواب هو المثبت في المعالم، والصلة، طبعة بيروت، والوارد في ترتيب المدارك بتحقيق سعيد أغراب طبعة المغرب كما في المعالم.

(4) في ط: أبي زيد. التصويب من ترتيب المدارك، والديباج، والصلة، وت.

(5) في ترتيب المدارك: «ورحل إليه الناس» 738/4، وفي الديباج: «ورحل الناس إليه من كل قُطر».

والصلاة مدة إلى أن أقعده عنها الحرب⁽¹⁾. وصنّف تصانيف جليّة في «علوم القرآن»⁽²⁾ وغير ذلك، ومن أشهر تصانيفه كتاب «الهداية في التفسير»⁽³⁾، وكتاب «الكشف في وجوه القراءات»⁽⁴⁾، وكتاب «إعراب القرآن»⁽⁵⁾، وكتاب «الإيضاح في ناسخه ومنسوخه»⁽⁶⁾ وهو كتاب حسن⁽⁷⁾، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر أنه له تصنيفاً في الفقه.

قلت: وهو كتاب معروف سماه «الهداية»⁽⁸⁾، روى عنه جلة الناس كأبي عبد الله بن عتاب، وأبي الوليد الباجي وغيرهما؛ وكان معروفاً بالصلاح وإجابة الدعوة إلى أن توفي بها صدر محرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة⁽⁹⁾ وقد أناف على الثمانين سنة رحمه الله تعالى.

- (1) في ترتيب المدارك: «أقعه عنها الخوف»، وفي الديباج: «إلى أن قعد عنها زمن الفتنة».
- (2) لقد ذكرها ابن خير في فهرسته سنداً عن أخذها منها كالتالي: «كتاب التبصرة في القراءات السبع» ص 28 رقم 17 انظر أماكن وجود هذا المصنف في كتاب العمر 130 / 1 و 137 هامش 8، وكتاب «الرعاية لتجويد القراءة، وتحقيق لفظ التلاوة» فهرست ابن خير ص: 38 رقم (61) منه عدة نسخ خطية. راجع كتاب العمر 137 / 1 - 138، «الإبانة عن معاني القراءات» فهرست ابن خير ص: 39 رقم (70) وهو كتاب مطبوع ومحقق، حققه الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي مطبعة نهضة مصر الفجالة القاهرة طبع سنة 1978، وكتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها... فهرست ابن خير ص: 40 رقم 75... إلى غيرها من الكتب.
- (3) سماه ابن خير في فهرسته «بكتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه» سبعون جزءاً، ص: 41 رقم (76).
- (4) انظر آخر هامش (3).
- (5) سماه ابن خير «كتاب مشكل إعراب القرآن» الفهرست ص: 60 رقم (110) الكتاب مطبوع ومحقق، حققه حاتم الضامن سنة 1975 وطبع في مجلدين أشرف على نشره وزارة الإعلام العراقية.
- (6) ورد عند ابن خير في فهرسته باسم «ناسخ القرآن ومنسوخه» منه نسخة بخزانة جامع القرويين بفاس تم نسخها سنة (510هـ) رقمها 939.
- (7) كذا قال عياض في ترتيب المدارك: 737 / 4.
- (8) لم يرد ذكره في المدارك، والديباج وغيرهما، وهو دون كتاب الهداية المصنف في التفسير.
- (9) في ترتيب المدارك: (خمسة وخمسين وثلاثمائة) وهذا تاريخ ولادته. نقلاً عن المدارك المطبوعة ببيروت، بينما المطبوعة في المغرب بتحقيق الأستاذ أعراب الوارد فيها توفي رحمه الله صدر محرم سنة «سبع وثلاثين وأربعمائة» وقد نيف على الثمانين سنة، مولده سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وهذا هو الصواب.

292 - ومنهم أبو بكر بن أبي طاعة⁽¹⁾:

قال: سمع من أبي الحسن القابسي، وجمع الفقه والدين والفضل، وكان إمام جامع القبروان.

قلت: وقال غيره: وكان رجلاً صالحاً، فقيهاً، ورعاً، فاضلاً، زاهداً، وكان له حظ من الناس وقبول، وكان يَنْتَحِلُ مذهب الصوفية ويقول بالإيثار، ولا يمسك شيئاً، وكان لا يضع جنبه على الأرض غالباً، وإنما ينام مُخْتَبِياً، وكان من الإيثار، والسَّخَاءِ، والجود، بما معه على أمر عظيم، ويقتصر من لباسه على ما خشن، ويؤثر بما سوى ذلك، وكان من أهل المعرفة بالقراءات وطرقها في غاية التجويد للتلاوة، وكان صاحب الصلاة، والخطبة، بالجامع الأعظم بالقبروان، موصوفاً بالدين والخير والفضل والحلم والوقار وحسن النقل، وضعف عن الإمامة في آخر عمره فتركها ولزم داره إلى أن مات على خيار عمله.

قال: وذلك يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، ودفن بباب تونس قرب أبيه.

قلت: وهو مزار بعرفه الخاص والعام، قرب حُوطَة الشيخ أبي الحسن القابسي من جهة الشرق ومكتوب في مَشْهَدِهِ اسمه، واسم أبيه، وتاريخ وفاته على جري العادة في ذلك رحمه الله تعالى.

293 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكي⁽²⁾ رحمه الله تعالى:

قال: هو صاحب الشيخ أبي الحسن القابسي المُلَازِم له، وكان فقيهاً صالحاً فاضلاً، كثير الخِدمة لِلصَّالِحِينَ، والمحبة لهم.

قلت: زاد غيره مشكوراً بالألسنة، محبوباً بالقلوب، وقدمه الشيخ أبو الحسن للإمامة، فكان يُصَلِّي به.

قال: وهو الذي جمع مناقب شيخه أبي الحسن، وأبو الحسن هو الذي سَمَّاهُ المالكي، وكان يقال له: ابن الشافعي - فقال أبو الحسن: هو المالكي ابن المالكي

(1) ترجم له في ترتيب المدارك في نصف سطر 4 / 799.

(2) ترجم له في: شجرة النور الزكية 1 / 161 رقم 318.

فاشتهر بذلك، وابنه أبو بكر المالكي⁽¹⁾ صاحب كتاب تاريخ صلحاء إفريقية⁽²⁾ ورحل أبو عبد الله بعد وفاة الشيخ أبي الحسن إلى مكة ولقي أبا ذر الهروي وسمع عليه البخاري، وقدم القيروان ضحبة أبي القاسم ابن الكاتب في صدر ثمانية وأربعمئة، وروى عنه أنه قال: كان الشيخ أبو الحسن إذا دعاني لقراءة علم أو قرّة يقول لي: يا محمد، وإذا استدعاني لخدمة أو لقضاء حاجة يقول لي يا مالكي، احتراماً منه لاسم محمد، وكان أعلم الناس بباطن أحوال الشيخ أبي الحسن والمطلع على عبادته وخفي أمره، توفي بالقيروان سنة أربع وأربعين وأربعمئة.

قلت: وقال غيره: توفي ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شعبان سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة، وقد أناف على السبعين.

قال: ودفن بباب تونس جوار قبر الشيخ أبي الحسن القابسي.

قلت: وتبعه العواني، وكذلك كان شيخنا أبو الفضل البرزلي يقول ويعينه إنه من جهة الجوف من قبر الشيخ الملائقي له، وعند رأسه عمود لطيف ليس فيه كُتُب، وإذا زار بنا جُبَانَة باب نافع، وهي التي فيها قبر عبد الله بن غانم، وسحنون بن سعيد، وابنه محمد، ومحمد بن عبدوس، وحماس بن مروان، وأبي إسحاق السبائي وغيرهم؛ يقف على قبر ويقول: هذا قبر أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي، وعليه مشهدٌ مكتوب بخط معتبر، فكنتُ نعتمد كلامه، ونُعرّفُ به من يزور معي كذلك، وإذا زرتُ والدَه عند القابسي أقول: هذا قبر أبي عبد الله متبعاً له، فلما خرجت لتونس للقراءة على شيخنا هذا بعد انصرافه من عندنا، قمت فيها أربعة عشر عاماً ثم تغربت في البلاد للقضاء من بلدة إلى بلدة نحو سبعة عشر عاماً لا أسكن القيروان إذا انصرفت من بعض البلاد إلا قليلاً حتى أتولى ببعض البلاد، فكانت زيارتي لِقُبُور المشيخة قليلة، فلما زرتُ قبورهم بعد توطن الإقامة ورفعت

(1) انظر ترجمته رقم (311) من كتاب معالم الإيمان.

(2) هو الكتاب المسمى «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية» طبع سنة 1951 بمصر مكتبة النهضة، وتم تحقيقه بعد على يد الأستاذ بشير البكوشي بمراجعة محمد العروسي المطوي، طبع سنة 1984 في ثلاث مجلدات بدار الغرب الإسلامي، ثم طبع ثانية بنفس الدار في مجلدين سنة 1994 وهي طبعة مزيّدة ومنقّحة اعتمدناها في بحثنا هذا.

يُدي عن القضاء باختياري جئت إلى زيارتهم باجتهاد ووقفت على قبر المالكي الذي بجبانة سحنون فوجدت في مَشْهَدِهِ مكتوباً ما نَصُّهُ: هذا قبرُ الشيخ الفاضل الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله المالكي رحمة الله عليه. توفي ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من شهر شعبان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فبان بهذا أن الأمر بالعكس، وأنَّ الَّذِي عند القابسي، إنما هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي لأنه ليس على قبره كتب، وسمعوا هذا قبر المالكي فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ قبر أبي عبد الله محمد، لأنه خديمه، وهذا لا يلزم والكتب في المشهد مُقَدَّم على غيره، ويبعد غلط الكاتب لأنه كان يعاود بكتبه في آخر والله أعلم.

294 - ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن⁽¹⁾ بن محمد الحَضْرَمِي⁽²⁾ المعروف بالليدي⁽³⁾:

وقال بعضهم: المعروف بابن الليدي - ولادة قرية من قرى الساحل⁽⁴⁾.

قال: سمع على الشيخ أبي الحسن القابسي، وأبي محمد بن أبي زيد وغيرهما.

(1) تُرجم في ترتيب المدارك: 707 / 4 - 708، رحلة لتجاني ص: 83 طبعة ليبيا، الدباج المذهب ص: 248 - 249، الروض المعطار ص: 508، كتاب العمر 671 / 2 - 673، شجرة النور الزكية: 162 / 1 - 163 رقم 323، هدية العارفين 516 / 1، معجم المؤلفين 5 / 173، الأعلام: 326 / 3، الفكر السامي: 242 / 2 رقم 563، طبعة دار الكتب العلمية ط1 س 1995.

(2) في شجرة النور الزكية «المصري» وهو خطأ، كذا محقق الجزء 3 / 175 من كتاب معالم الإيمان أبدل الحضرمي بالمصري استناداً على الشجرة، مع أن كل من ترجم له نَسَبُهُ «بالحَضْرَمِي» وفي ت: الحصري، بالحاء.

(3) الليدي نسبة إلى: لَبِيدَة قرية في جهة القيروان. الروض المعطار ص: 508 وعدها التجاني في رحلته «من منازل ضَفَّاقُس» قال: وسماها الرُّشَاطِي «لَبِيدَة ينسب إليها الفقيه الصالح أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الليدي» ص: 83، وفي وصف إفريقيا: لبيدة من بناء الرومان محاطة بأسوار عالية مبنية بالحجر الضخم، خُرِبَتْ في الزمان الغابر، غير أنها عمرت من جديد لما دخلت جيوش المسلمين إلى البلاد، وبقيت عامرة إلى هجوم الأعراب، حيث خربت مرة أخرى وتحولت إلى الوضعية التي هي عليها الآن، وقد استعملت أحجارها وأعمدتها لتشييد طرابلس. ص: 96.

(4) المراد به الساحل الليبي لأن لبدة تقع هناك، ما بين مصراته وزليطن شمال مدينة طرابلس. راجع خريطة الجماهيرية الليبية.

قلت: وسمع منه أبو عبد الله محمد بن سعدون وغيره من القرويين والأندلسيين، ووجهه أبو الحسن القابسي لتفقيه أهل المهدية، وامتد عمره بعد أقرانه، فحاز رئاسة العلم والتشيوخ به بالقيروان.

قال: وكان فقيهاً، فاضلاً، زكياً، ومحباً في الصالحين، ويزورهم في السواحل، ويبحث عن مناقبهم وأحوالهم، وهو الذي ألف «مناقب الشيخ أبي إسحاق الجبنياني»⁽¹⁾. ونفعه الله تعالى بخدمة الصالحين، وله كتاب في «الفقه كبير جمع فيه بين النوادر لأبي محمد بن أبي زيد، وموطأ مالك وغيره، فجمع فيه مذهب مالك كله»⁽²⁾.

قلت: وألف كتاباً في اختصار المدونة سماه «الملخص»⁽³⁾، وكان ينشد الشعر ويحسن القول فيه⁽⁴⁾.

قال: توفي بالقيروان - فيما أخبرني ثقة من شيوخنا - سنة أربعين وأربعمائة لليلتين بقيتا من شوال منها، وسنه ثمانون سنة وصلى عليه ابنه أبو بكر، وكان من أهل العلم؛ وحضر جنازته صاحب إفريقية وجميع رجاله، ودفن في داره، ورثي بمراث كثيرة.

قلت: قبره ليس بظاهر ولا تعلم داره.

295 - ومنهم أبو محمد عبد الباري بن حسن التميمي العابد المؤدب رحمه الله تعالى:

قال: توفي في صفر سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، ودفن بباب تونس وقبره مشهور رحمه الله تعالى.

-
- (1) طبع الكتاب سنة 1959 بإشراف منشورات كلية الآداب في الجزائر.
- (2) سماه الرُّشَاطِي «بالشرح والتفصيل لمسائل المدونة» رحلة التجاني ص: 83. وقال عنه «كتاب كبير» وفي ترتيب المدارك حَدَّدَ عِيَاضُ مُحْتَوَاهُ في قوله: «وَألف كتاباً جامعاً في المذهب كبيراً، أزيد من مائتي جزء كبار، في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها وزيادات الأمهات ونوادر الروايات» 707/4. كذا في الديباج بنفس التسمية نقلاً عن عياض. ص: 249.
- (3) المدارك: 707/4، الديباج ص: 249.
- (4) مما أنشده لنفسه قوله:

أنت العليُّ وأنت الخالقُ الباري أنت العالمُ بِمَا تخفيه أسراري
أنت العلِيمُ بما في الخلق مقدرة في وَسْعِ عيش وفي بؤس وإقتارِ

296 - ومنهم أبو عبد الله مكي بن عبد الرحمن الأنصاري الفقيه الصالح⁽¹⁾:

قال: سمع من يحيى بن محمد بن سلام، كان من خَوَاصِّ أصحاب الشيخ أبي الحسن القابسي، وكان هو الذي [يُصَلِّي]⁽²⁾ بالشيخ أبي الحسن ويُملي عليه أبو الحسن تواليفه، وهو أيضاً الذي غَسَّلَهُ، وله فضلٌ، وعلمٌ، ودينٌ، توفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة نفعا الله به آمين.

297 - ومنهم أبو عمر عثمان بن أبي بكر بن رشيق رحمه الله تعالى:

قال: كان صالحاً، فاضلاً، ولياً من أولياء الله تعالى، سمع من أبي الحسن الجوهري، كلمة وعظ - وهو على المنبر في جامع القيروان - فصاح صيحة خرجت فيها روحه في الجامع، وذلك في جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، ودفن بباب سَلَم، وقبره معروف رحمه الله تعالى ورضي عنه.

298 - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى⁽³⁾ المَعَاوِي التونسي رحمه الله:

قال: صاحب «كتاب التعليقة».

قلت: يعني على المدونة⁽⁴⁾، وله تعليق أيضاً على كتاب «ابن المواز»⁽⁵⁾.

قال: وهو من طلبة أبي بكر بن عبد الرحمن.

(1) ترجم له ترجمة جد مختصرة في ترتيب المدارك: 4 / 711، شجرة النور الزكية 1 / 145 رقم (269).

(2) سقط من: ت.

(3) ترجم له في ترتيب المدارك: 4 / 766 - 769، الديباج المذهب ص: 144، الوفيات لابن قنفذ ص: 244، شرف الطالب ص: 55، الفكر السامي 2 / 240 رقم (558) طبعة دار الكتب العلمية ط1 س 1995، شجرة النور الزكية 1 / 161 - 162 رقم 321، كتاب العمر 2 / 66 - 670.

(4) هذا التعليق أي تعليق أبو إسحاق التونسي وردت منه نقول عدة في كتاب المعيار المُعَرَّب للشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة 914 هـ. راجع فهرس الكتاب الجزء (13) فالكتاب مطبوع في 13 مجلداً.

(5) ورد ذكره في ترتيب المدارك: 4 / 766، والديباج ص: 144.

قال عياض في المدارك: «وله شروح حسنة، وتعليق مستحسنة مستعملة متنافس فيها على كتاب ابن المواز، وعلى كتاب المدونة» 4 / 766.

قلت: ظاهر هذا أنه لم يقرأ على غيره، وليس كذلك، بل تَفَقَّه عليه وعلى أبي عمران الفاسي وطبقتهما، وأخذ عنه عبد الحق، وابن سعدون، وعبد العزيز التونسي وابن أبي الحاج⁽¹⁾ وغيرهم.

قال: كان فقيهاً، صالحاً، موصوفاً بالفهم، مقدماً في أجوبته، من أهل النسك والإرادة، وصحبة الصالحين، مستجاب الدعاء، وله براهين ومناقب حسنة، قرأ القراءات وأجاز بها وقرأ الفقه البارع والنحو.

قلت: وفي كلامه بتر لكونه كان متكلماً في أصول الدين يميل إلى النظر عارفاً بالحديث ووجوه مشهوراً بذلك، وكان نشأ في العلم ومات عليه، لم يُرَ مثله في الفقهاء وقاراً وسمتاً، وفيه يقول عبد الحميد⁽²⁾ الديباجي رحمه الله تعالى:

حَازَ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ عَمَلٍ وَقَلَّمَا يَتَأَتَّى الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ

قال: وكان أبو حفص العطار يقول: إذا وافقني أبو إسحاق التونسي وعبد الواحد الكفيف، ما أبالي بمن خالفني.

قلت: وذكره أبو عمار الميرقي في رسالته، هو وأبو القاسم السيوري فقال: لحقا من تقدمهما في العلم والورع وأعجزا من يأتي بعد آخر علماء المغرب.
قال: وطرأت عليه محنة.

قلت: كان حقه أن يزيد كما قال غيره: عظيمة، وسببها أنه ورد عليه سؤال من مدينة باغاية⁽³⁾ استفتى فيها، وكانت المسألة مسألة طلاق ومُراجعة، وذكر السائل: إنَّ وليَّ النكاح كان من الفرقة المعروفة بإفريقية «بالمشاركة»، وهم أهل دعوة بني عبيد - فأجاب الشيخ أبو إسحاق رحمه الله: إن هذه الفرقة على قسمين: أحدهما كافرٌ مُباح الدم، والقسم الآخر وهم الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصَّحابة، لا يلزمهم القتل⁽⁴⁾، ولا يبطل نكاحهم، فأنكر عليه

(1) ابن أبي الحاج هو أبو عمران الفاسي، وقد تكرر اسمه مرتين، مرة بأبي عمران الفاسي، ومرة بابن أبي الحاج، والوارد عند عياض: ابن أبي جامع.

(2) في ترتيب المدارك، والديباج، والفكر السامي: «عبد الجليل» وفي الشجرة «عبد الحميد».

(3) مدينة باغاية: هي جِصْنُ صَخْرٍ قديم حوله رِبْضٌ كبير من ثلاث نواح. انظر: المسالك والممالك للبكري 338/2.

(4) في المدارك: الكفر 767/4.

جميع فقهاء إفريقية بالقيروان وغيرها، واحتجوا عليه بأن جماعة من أهل الزهد، والعلم، والعبادة بالقيروان، كانوا أشد الناس مباينة بالعداوة والتكفير لبني عبّيد وأتباعهم. منهم أبو إسحاق السبائي، ومَرْوَان العابد، وربيع القطان وأضرابهم، وأرسلوا إليه أن يعاود النَّظَرَ، وأن يرجع عن هذا القول فأبى عن ذلك، وانتهت القضية إلى الْمُعِز بن باديس فجمع بعض الجمع عنده في المَقْصُورَة وَنَاطَرُوهُ، فأظهر الإنابة إلى قولهم والرجوع، ثم خلا بأصحابه فأنكروا عليه رجوعه إلى قولهم، وأنه الحق الذي لا يجب سواه، وكان رأي الفقهاء سد هذا الباب لِلْعَامَّةِ على هؤلاء الكَفَرَة بني عبّيد الزنادقة، وَإِنَّ الدَّاحِلَ في دعوتهم - وإن لَمْ يقل بقولهم كافر، لتولية الكُفْر، فأظهر أبو إسحاق التَّمَادِي على قوله وإنكار الرجوع عنه، فأطلق الفقهاء الفُتْيَا على مقاله هذا بالتضليل والتَّبْدِيع، وقال فيها الشعراء قصائد كثيرة تَضَمَّنَتْ أبا إسحاق والتبري منه؛ وأنشدها الشعراء والطلبة عند الفقهاء في دورهم، وأمر السلطان بسجل في القضية من التبري من قوله، وقيل فيه ما يعظم به أجره، وأمر بقرائه يوم الجمعة على المنبر قبل الصلاة مستهل صفر عام ثمانية وثلاثين وأربعمائة ثم أمر السلطان بإحضاره بالمقصورة في ذلك اليوم إثر الصلاة، وأحضر معه الفقهاء أبا القاسم الليدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم، والفقيه أبا الحسن، والقاضي أبا بكر بن أبي محمد بن أبي زيد خاصة من بين سائر الفقهاء، وكان هذان الفقيهان من أشد الناس مَيْلاً إلى مذهب الجماعة، - وحكم في المسألة الليدي، فحكم بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس وأن يقول: كُنْتُ ضَالاً فيما رأيته ورجعتُ عن ذلك إلى مذهب الجماعة، فَاسْتَعْظَمَ الأمر على المنبر وقال: ها أنا أقول هذا بينكم، فساعدوه وقنعوا منه بقول ذلك بمحضر السلطان والجماعة، وأن يقوله بمجلسه ويُشيعه عنه، فاقترفوا⁽¹⁾ على ذلك، وحصلت على الشيخ منه غضاضة فخرج في صبيحة يومه متوجهاً إلى مُنَسْتِيرِ الرِّبَاط، وهو المراد بقول من قال: خرج إلى قصر الرِّبَاط، ولا يحملُ على ظاهره، وهو أنه خرج إلى قصر الرِّبَاطِ الكائن بِسُوسَة، إذ هو مُعَدُّ للعبادة كقصر المُنَسْتِير، لأنه يكون خلافاً، وعلى ما حملناه عليه يكون وفاقاً، وكان ذلك في يوم السبت الثاني من صَفَر من السنة المذكورة، وإنما خرج من الفور مُسَكِّتاً للقضية ومُنْسِيّاً لها فَتَغَيَّبَ بشخصه ثم عاد إلى القيروان.

(1) فاقترفوا: أي عَيَّوا على ذلك. وفي المدارك: فاقترفوا (طبعة بيروت).

قال عياض: ولا متراء عند كل مُنْصِفٍ، أَنَّ الحق فيما قاله أبو إسحاق، ولا امتراء أن مخالفته أولاً لرأي أصحابه في حَسْمِ الباب لمصلحة العامة لُجَاجٌ⁽¹⁾، وإنَّ رَأْيَ الْجَمَاعَةِ كان أسد للحال وأولى، وفتواه هذه جري على العلم وطريق الحكم، ومع هذا فما نَقَضُهُ هذا عند أهل التحقيق، ولا حط منصبه عند أهل التوفيق، وقد حكى أبو عبد الله بن سعدون قال: رأيتُ أبا القاسم الليدي بعد موته فسألته من هو على الحق أنت أو أبو إسحاق؟ فسكت بقصده فكأنه يقول لي بصوت خفي؛ التونسي⁽²⁾. وقال الشيخ أبو عبد الله محمد السطحي: يُحكى أَنَّ الشيخ أبا إسحاق التونسي، بلغت منه الحاجة إلى أن وَاجَرَ نفسه في طرح الميتة. قلت: لعله في سفره لَمَّا حَجَّ والله أعلم.

ذكر وفاته وما يتعلق بذلك

قال: توفي يوم الاثنين الثاني من ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وحضر جنازته المُعِزُّ بن باديس^(*) في جمع عظيم، وَدُفِنَ بباب سلم وقبره معلوم. قلت: وعند رأسه سارية كبيرة، وعلى قبره نور وإشراق.

قال: ولأبي الحسن علي بن رشيق القيرواني مرثية يرثي بها أبا إسحاق:

يَا لِلرَّزِيَةِ فِي أَبِي إِسْحَاقَ	ذهب الجِمَامُ ⁽³⁾ بأنفس الأعلاقِ
ذهب الجِمَامُ ⁽⁴⁾ بخاشع مُتَبَتِّلٍ	تبكي العيون عليه باستحقاقِ
ذهب الجِمَامُ بِبَذْرِ تَمَّ لَمْ يَدْعِ	منه الرَّدَى إِلَّا هَلَالُ مُحَاقِ
[وَحَوَتْ جَنُوبَ اللَّحْدِ بَحْرًا زَاخِرًا	ترك البحار الخضر وهي سواقِي ⁽⁵⁾
فَالْيَوْمَ أَغْلَقَ كُلَّ فَهْمٍ بَابَهُ	لما فقدنا فاتح الأغلاقِ
مَا الْقَيْرَوَانُ أَذَقَتْ ثُكْلَكَ وَحْدَهَا	قد ذاق ثُكْلَكَ سَائِرُ الْآفَاقِ ⁽⁶⁾

-
- (1) لَجَّ لُجْجًا وَلُجْجَةً: عَنَدَ فِي الْخُصُومَةِ، وَتَمَادَى فِي الْعِنَادِ.
(2) انظر الخبر في ترتيب المدارك: 4 / 768 - 769.
(*) انظر ولاية المُعِزِّ بن باديس لإفريقية في كتاب البيان المغرب 1 / 267، تولى الولاية بالمهدية وسنه ثمانية أعوام وذلك سنة 406 هـ.
(3) الجِمَامُ: الموت. وفي المدارك: «الزمان».
(4) هذا البيت سقط من ترتيب المدارك: 4 / 769.
(5) عدد الأبيات الواردة في ترتيب المدارك: «عشرة أبيات» 4 / 769.
(6) ترجم له في ترتيب المدارك في ربع سطر 4 / 715، شجرة النور الزكية 1 / 159 رقم 313.

قلت: ورثي بمراث كثيرة تركتها خشية الإطالة وظهرت للشيخ أبي إسحاق بركات في زماننا.

299 - ومنهم أبو بكر عتيق بن أحمد بن إسحاق التميمي المعروف بالقصري رحمه الله تعالى:

قال: كان إمام جامع القيروان، وكان من أهل العلم، والدين، والفضل، والعبادة، وقيام الليل، وَقَلَّةُ الكلام، لا يكاد يتكلم في أحد، مشغولاً بعبادته، وكان عالماً بعلوم القرآن، انتفع على يديه خلق كثير، لأنه كان يُقرأ عليه من سُدُسِ الليل الآخر إلى الضُّحَى، ومن العصر إلى الليل، وهو معدودٌ في جُمْلَةِ العباد، مُجْمَعٌ على دينه وفضله، وهو من أصحاب أبي عبد الله بن سفيان المغربي، توفي في الخامس من شعبان سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وَدُفِنَ بباب سَلَمٍ وَقَبْرُهُ معلوم رحمه الله تعالى.

300 - ومنهم أبو بكر عتيق السوسي رحمه الله تعالى:

قال: جمع العلم، والعبادة، والزُّهْدَ، والورعَ، والتَّقَشُّفَ، وكبر الهمة من الفقهاء المبرزين، والحُفَاطِ المَعْدُودِينَ، وكان حَافِظاً للفقهِ، والحديثِ، عارفاً بمعانيه، عالماً بالنحو، واللغة، مع دين متين، وَوَرَعَ حَاجِزٌ، وهو الذي صَلَّى عَلَى أَبِي عِمْرَانَ الفاسي فأعلم المُعِزُّ بمكانه من الدين والعلم، وأخبر بفقره، وأنه لا مسكن له، فبعث إليه بمال يشتري به داراً فقال أبو بكر للرسول: ما كان أغناني عن الصلاة على أبي عِمْرَانَ التي عرفت بيني وبينك! وقال رَدَّهَا عليه وقل له: يدفعها لأربابها فإن لم يعلم أربابها تصدق بها على الفقراء، فأعلم الرسول المُعِزُّ بما قال، فبعث إليه كُتُباً جليلة مثل المَدُونَةِ، والنوادر، والمُوازِيَةِ، وغيرهما مما له قيمة كثيرة عن رؤوس الحمالين، فلما وصل إليه الرسول أغلق الباب في وجهه، فلم يزل يلاطفه وقال له: يقول لك المُعِزُّ: هذه الكتب في خزانتنا ضائعة وبقاؤها عندنا مما يزيدنا ضياعاً وأنت أولى باقْتِنَائِهَا، فقال له: اكتب على كل جزء منها «حبس على طلبه العلم». فكتب ذلك، فلما بلغ المُعِزُّ ذلك، قال: أردنا أمراً فغلبنا فيه، وكان رحمه الله مرة يفتي، ومرة لا يفتي، وذلك من شدة وَرَعِهِ، لأنه كان مرة يعتقد وجوب الفتوى عليه ومرة لا يعتقد وجوبها عليه فلا يفتي.

301 - ومنهم أبو القاسم عبد الخالق⁽¹⁾ بن عبد الوارث⁽²⁾ التميمي المعروف بالسيوري رحمه الله آخر طبقة من علماء إفريقية وخاتمة أئمة القرويين :

قال: أخذ الفقه على أبي بكر بن عبد الرحمن.

قلت: هذا قصور، بل أخذ أيضاً على أبي عمران الفاسي وطبقتهما.

قال: وكانت له عناية بالحديث والقراءات، وأخذها على أبي عبد الله بن سفيان المقرئ، وقرأ النحو، والكلام، وأصول الدين وأصول الفقه، لكن كان الغالب عليه الفقه، وانتفع به خلق كثير لأنه كان أفرد نفسه للدرس فانتفع به الناس.

قلت: منهم عبد الحميد المهدي⁽³⁾ وأبو الحسن اللخمي، وأخذ عنه قديماً عبد الحق، وابن سعدون، وغيرهما؛ وبعدهم حسان البربري⁽⁴⁾، وأبو القاسم المهاري⁽⁵⁾.

قال: وكان من الحفاظ المعدودين، والفقهاء المبرزين، وكان يحفظ المدونة من صدره.

قلت: هذا أيضاً فيه بتر، لأنه كما كان يحفظ المدونة، كان يحفظ دواوين المذهب الحفظ الجيد وغيرها من أمهات كتب الخلاف، حتى أنه كان يقول لمن ينقل شيئاً غريباً: أين وقع هذا؟ ليس هو في كتاب كذا ولا في كتاب كذا يعدد أكثر الدواوين المستعملة من كتب المذهب والمخالفين والجامعين فكان في ذلك آية، وعرفني من نثق به، عن نقل شيخنا أبي محمد الشيباني، أن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتهم في المدونة، أكثروا في ثمنها فاشتروا ما بالقيروان منها حتى

(1) في ط: «عبد الحق» والصواب ما أثبتناه من كتب مترجميه، وت.

(2) ترجم له في ترتيب المدارك: 4/ 770 - 771 (طبعة بيروت)، و8/ 65 - 66 (طبعة وزارة الأوقاف المغرب)، الديباج المذهب ص: 259، شرف الطالب ص: 56 وفيه أنه توفي سنة (462)، شجرة النور الزكية 1/ 172 رقم (359)، كتاب العمر 2/ 679 - 681.

(3) في ترتيب المدارك (طبعة بيروت): عبد الحميد، والمهدي. وفي (طبعة وزارة الأوقاف المغرب) كما في المعالم، باستثناء المعالم المحققة للأستاذ ماخور فقد كتبها: عبد الحميد المهدي.

(4) في ترتيب المدارك في كلا الطبعتين: «حسان بن البربري».

(5) في ترتيب المدارك (طبعة بيروت): المنهاري، وفي طبعة وزارة الأوقاف: المهاري. كما في: ت. وفي ط: الماهري.

عدمت منها، فأتوا إلى الشيخ أبي القاسم السيوري وعرفوه، فأملاها عليهم من رأسه، ثم وجدت نسخة بالقيروان فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها فوجدتا سواء.

قال: وكان مع ذلك عاقلاً معلوماً بالدين، والورع، والفضل، وبلغ من ورعه أنه لما اختلطت أموال الناس بالفتنة، امتنع من أكل اللحوم، فكان لا يأكل منها إلا ما تحقق طيب كسبه، وكان لا يلبس الفرو، ولا النعال، ولا الخفاف، إلا من جلود الوحش، ولا يكتب جواب مسألة، ولا غير ذلك إلا في رق قديم، أو ما كان من جلود الوحش، وكان مع ذلك شديد الورع في كل ما يحاوله.

قلت: قال عياض: «وله تعليق على نكت من المدونة أخذه عنه صحابه»⁽¹⁾. يريد والله أعلم أنه لم يؤلفه، وإنما أصحابه قيدوا عنه ذلك مما يسمعون منه في درسه، لقول المازري في تعليقه على المدونة: لم يؤلف السيوري إلا كراسة وليس له تأليف، وسببها أنه بلغ من ورعه ما تقدم، وقد بنى داراً لذبج الجلود يكرها، فقام عليه من عاصره من المفتين حينئذ فأنكروا عليه، فأخذ يستقرئ من المذهب قولاً لمالك: بأن أولاد الماشية المغصوبة غلة تطيب للغاصب كمذهب الشافعي الذي يشتري جلود الخرفان ليدبغها، فقد قلّد مالكا في أنها غلة تطيب للغاصب فهو مباح لهم، قال: فأنا إنما أخذت منهم في إجارة داري ما كان مباحاً لهم بتقليدهم لمالك في ذلك، وإنما يحرم علي ما حرم عليهم.

قلت: حاصل جوابه أنه يكتسب بالشرع، ويأكل، ويلبس، بالورع وهو مذهب سحنون سعيد، فقد كان يملك من الزيتون بالسّاحل اثني عشر ألف زيتونة، ويعمد إلى شجرة منها فيخدمها ويقوم بها ويقول: أنا فيها مساقى! فيأخذ نصف ما يخرج منها يأتدم به وينتفع به، والنصف الآخر مع بقية الزيتون يخرج للفقراء والمساكين، وقال أحمد بن نصر الداودي: «العكس أولى وهو الأكل بالشرع، والكسب بالورع، لأن الأكل ضروري لا بد منه، والكسب اختياري».

قال عياض: «ويقال إنه مال أخيراً إلى مذهب الشافعي»⁽²⁾.

(1) ترتيب المدارك 770/4 (طبعة بيروت)، 65/8 (طبعة وزارة الأوقاف المغرب).

(2) ترتيب المدارك: 770/4 (طبعة بيروت).

قلت: ليس هو بتقليد، ولا خلاف في أكثر المسائل؛ وإنما يخالف في قليل كقوله: القمح والشعير جنسان، وما زلت نسمع أنه رمى لقطة لقمة من شعير، وأخرى من قمح، فشمت اللقمة الأولى وانصرفت عنها، ثم شمت الأخرى فأكلتها، ولم تعد إلى الأخرى فقال: هذا الحيوان البهيمي فرّق بينهما، وكذلك خالف المذهب في التذمية، وقال: لا يعول عليها، وكذلك قال بخيار المجلس كما قال المخالف، وهو قول ابن حبيب من أصحابنا للدلائل الدالة على رجحان مذهب من خالف مالكا فيها، قال ابن المواز في كتاب الخيار من تعليقاته: وحلف السيوري بالمشي إلى مكة لا يفتي بقول مالك في هذه الثلاث مسائل.

قال: وبقي أبو القاسم بعد خراب القيروان مدة، وكانت وفاته سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

قلت: وقال غيره توفي سنة ستين.

قال: ودُفن بداره وقبره مشهور يزَارُ وَيُتَبَرَّكُ به.

قلت: وداره المشار إليها ما زلت نسمع سماعاً مستفيضاً أنه لما أخذ الناس في بناء القيروان اختصاراً عما كانت عليه، أراد الشيخ أن يدخلوا داره في البلد، فاختلفوا، فغلب من أراد خروجها، فدعا عليهم بأن لا تتفق لهم كلمة، فيقال إن دعوته أجبت فيهم إلى الآن لا يتفقون، فليست ببلد مشيخة وإنما يذب عن الناس المفتي الذي يكون بها، وجرت العادة أن يقبل كلامه عند السلطنة في الأعم الأغلب، فإذا كتب في قائد أنه ظلم الناس يُعزل وإن كان بقرب ولايته وإن كان من أعز الناس عنده.

302 - ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي رحمه الله تعالى:

قال: كان فقيهاً، عالماً بفنون من العلم منها: الفقه، والحديث، والنحو، واللغة، والغريب، وعلم الكلام، والحساب، والهندسة؛ قرأ القرآن على أبي عبد الله ابن سفيان، والفقه على أبي بكر بن عبد الرحمن، وكان مع هذا زاهداً ورعاً مُتَهَجِّداً بالليل، كثير الحياء، ما يكاد يرفع رأسه من الحياء، وكان عالماً باختلاف الناس. وله تَوَالِيفٌ عِدَّةٌ في فنون من العلم، إلا أنه مات ولم يُهَذَّبْ تَوَالِيفُهُ، توفي سنة

خمس وثلاثين وأربعمئة، وَرَثَاهُ الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى الشقراطسي⁽¹⁾ فقال:

بِأَيِّ سِلَاحٍ وَالْجِمَامِ مُحَارِبُ أَطَاعِنُ فِي نَخْرِ الرَّدَى وَأُضَارِبُ
سَلُونِي عَنِ الْأَرْزَاءِ إِنِّي شَقِيقُهَا وَعِنْدِي مِنْ أَنْبَائِهِنَّ غَرَائِبُ
أَحَاطْتُ بِبِ الْأَرْزَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَأَنِّي فِي الْقُرْبَى أَخُوهَا الْمُنَاسِبُ
وَقُلْتُ لِعَبْدِ الْمُنْعِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ تَنَالُ جَسِيمَاتٍ وَتُقْضَى مَآرِبُ
فَمَنْ لِّلْمَوْطِأِ وَالْبُخَارِيِّ بَعْدَهُ إِذَا بَهَرَتْ مِنْهَا الرُّجَالُ لِلْغَرَائِبِ
وَمَنْ لِّلْأُصُولِ الْفَقْهِ يَنْظُمُ سَلَكُهَا إِذَا اشْتَبَهَتْ أَعْجَازُهَا وَالْغَوَارِبِ

303 - ومنهم أبو القاسم بن مُحَرِّز⁽²⁾:

قال: كان معلوماً بالفقه والفهم والعناية بالحديث ورجاله، رحل إلى الشرق ولقي المشايخ الجلّة وأخذ عنهم الحديث، وكان مليح المناظرة حتى قال ابن علاق المصري: ما رأيت من أهل المغرب من يُحَسِّنُ طريقَ المُنَاطَرَةِ مثل أبي القاسم بن محرز، وكان أبو الطاهر البسكري يفضلُه على جميع مَنْ بِالْقَيْرَوَانِ في طريق المناظرة والكلام على مسائل الخلاف، وله تواليِفٌ عِدَّةٌ كُلُّهَا نَبِيلَةٌ مِنْهَا «التبصرة»⁽³⁾ وغيرها⁽⁴⁾.

304 - ومنهم عبد الواحد بن تميم التجيبي الكفيف رحمه الله تعالى:

قال: كانت له عناية كبيرة بالفقه، وكان حافظاً ذَا فَهْمٍ، وكان أبو القاسم السيوري يقول: ما في أصحابنا أكثر من عبد الواحد عناية بالعلم، وكان كثير الدّرسِ

(1) هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن علي بن زكرياء الشقراطسي، كان له الباع الطويل في العلوم الدينية، وفنون الآداب، واشتهر ذِكْرُهُ في الآفاق بقصيدة فريدة في مدح النبي ﷺ، وفي سيرة الصحابة وهي المعروفة «بالشقراطيسية» توفي سنة 466هـ/1073م. انظر ترجمته في: شجرة النور الزكية 1/ 173 رقم 361.

(2) ترجم له في ترتيب المدارك: 4/ 772 (طبعة بيروت). 8/ 68 (طبعة المغرب)، الديباج المذهب ص: 325، كتاب العمر 2/ 674 - 675.

(3) التبصرة هو كتاب تعليق على المدونة. ترتيب المدارك، الديباج.

(4) ورد ذكر كتاب آخر في ترتيب المدارك اسمه «القصد والإيجاز» وهو كتاب كبير.

ولقد سجل عياض وفاته نحو «الخمسین وأربعمئة».

يُدْرَسُ مع رجل فإذا أُعْيِيَ ذلك الرجل، قام إلى آخر، وقال أبو حفص عمر بن محمد العطار: إذا وافقني أبو إسحاق التونسي، وعبد الواحد الكفيف في مسألة ما أبالي مَنْ خَالَفَنِي فيها، هذا في حياة الشيخ أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمن، وكان أبو إسحاق التونسي يقول: هو أحفظ الناس بِالمُدَوَّنة، وأباح له الشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن الفُتيا، والشيخ أبو بكر شيخ عبد الواحد رحمهما الله تعالى.

305 - ومنهم أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن طيبون رحمه الله ورضي عنه:

قال: كان من أَهْلِ الفِقه، والحِفْظ، والعِلْم بالمحل الرفيع، وكان ذا وَرَع حَاجِز، وَدِين مَتِين، وَقُضِلَ وَذَكَاءٌ، وَعُرِضَ عليه القضاء فامتنع منه، وكان شيخه أبو بكر بن عبد الرحمن يقول فيه: أبو حفص يرجى أن يكون إماماً في العلم، توفي رحمه الله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ودفن بباب سلم.

306 - ومنهم أبو علي حسن بن حسن بن حمدون الجلولي المُقْري:

قال: كان من العلماء المعدودين، عالماً بوجوه القراءات عن أبي عبد الله بن سفيان، وكان إماماً فيها وانتفع به خلق كثير.

307 - ومنهم أبو عبد العزيز بن محمد البَكْري المُقْري المعروف بابن أخي عبد الحميد:

قال: كان من كبار أصحاب أبي عبد الله بن سفيان وأفاضلهم، وهو أحد الفقهاء المعدودين مع دين، وفهم، وحسن خلق، وفضل، لم يكن في وقته أعلم بالقراءة منه، أخذ ذلك عنه عَالَمٌ كثير من الناس وانتفعوا به رحمه الله.

308 - ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن رشيق الحافظ المؤرخ:

قال: كان عالماً بالتاريخ والفقه.

قلت: زاد العواني: حافظاً للحديث وَعِلَلِهِ، عارفاً بأسماء رجاله ونقلته، وله مشاركة في سائر العلوم، وتقدم في معرفة الآثارِ وَالسَّيَرِ والأخبار، وعناية كاملة بتقعيد السُّنَنِ والأحاديث المشهورة، حافظاً للقرآن، حسن الصوت به، مجوّد التلاوة، حسن الخط، مدلاً بقلمه وعلمه، نال السُّؤْدَدَ بأدبه وفِطنته، ممن يقول الشعر الحسن، موصوفاً بالمعرفة واليقظة.

قال: وله تواليف في أخبار العلماء والصلحاء ومناقبهم وكراماتهم شرقاً وغرباً، وتواليف في الفقه منها كتابه الذي سماه «المستوعب لزيادات مسائل المبسوط مما ليس في المدونة». وله سماعات في كتب الفقه، وهو كثير المشايخ يروي عن أبي القاسم عبد الخالق بن شبلون، وأبي عمر بن معدي المالكي، وأبي عبد الله محمد بن أبي صُفرة الأندلسي، وأبي محمد الحسن بن عبد الله الأجدابي، وأبي عبد الله محمد بن إدريس الناظور، وأبي القاسم عبد الرحمن التَّجِيبِي التونسي، وَحَجَّ في سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وأخذ عن جماعة من علماء المشرق منهم أبو ذر الهروي وغيره.

309 - ومنهم أبو بكر أحمد بن أبي محمد عبد الله⁽¹⁾ بن أبي زيد:

قال: له مشايخ جلة وروايات كثيرة، وروى كتاب التَّهْذِيب عن مؤلفه أبي القاسم البراذعي.

قلت: وكان البراذعي يرفع بالقاضي أبي بكر هذا وَيُؤَالِي الشَّاءَ عليه.

قال: أخذ عنه الناس، وكان فقيهاً، فاضلاً، ولاه المَعْرُ بن باديس قضاء القيروان، وكان عدلاً في أَحْكَامِهِ، كثير السياسة مُحِبِّاً إلى الناس.

قلت: وكانت توليته القضاء بعد ابن هاشم في سنة خمس وثلاثين وأربعمئة، وكان لما توفي القاضي ابن هاشم، خَلَفَ ولداً خلفاً وكان له أشياخ أحبوا ولايته وَرَأَتْهُ لِحُطَّةِ أَبِيهِ، فأشاروا على السلطان بذلك، ومال السلطان إلى قولهم، وكان خَوَاصُّ من الناس ممن عرف حقيقة هذا الولد، قد عظم الأمر عليه، وتصور سوء المَالِ فيه، وكان محمد بن شرف أشد الناس إنكاراً لِوِلَايَتِهِ لتخلف الرأي وسوء الغلط فيه، قال: فَاسْتَحَرْتُ الله تعالى وأفردتُ النِّيَّةَ لابتغاء وجهه، فجعلتُ شِعْراً أَمْدَحُ السُّلْطَانَ وَأُغَالِطُهُ فيما شاء من توليته، فلما كانت ليلة اجتماع الناس لحضور تَوَلِيَّتِهِ، استأذنتُ على السلطان في إنشاد ذلك فأنشدته على خلوة منه:

لله من يوم أغرَّ سعيد متميز من عصره معدود

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك: 717/4.

قال محمد بن شرف فأنشدته حتى بلغت إلى قولي :

كان القضاء إرثاً فَرَدَّدْتُه شُورَى، ففاز بحقه المردود
يا فضلها من سيرة عَمَرِيَّة هي للعبادِ رضى وللمعبودِ

قال: فلما بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع أكتب السلطان على يده وقد قبضها كالمطرق والمفاجأ بأمر يحتاج إلى الفكرة فيه وتماديت في الإنشاد، والسلطان لم يزل على حاله فيما أحسب، حتى أتممت الشعر، فخجلت للأمر وندمت على التغرير، وبقيت بعد تمام الإنشاد أَتَشَاغَلُ بِطَيِّ الدَّرَجِ الذي الشعر فيه، ثم رفع رأسه وقال لي: أصرف الشَّعْرَ وأعد به غداً ثم قُمْ فأنشده في آخر المجلس، وإياك أن يعلم أحدٌ بما أوجبت لك به، فانصرفت والناس يتواعدون إلى البُكُورِ إلى السلطان لحضورهم تولية ابن هاشم في ظنهم، فلما كان في غد ذلك المساء، حضر النَّاسُ وتهاى ابن هاشم في خلعة القضاء، وتأهب للولاية، فلما استوى المجلس دعا السلطان بـابن أبي زيد هذا، فَقَدَّمَهُ للقضاءِ بَغْتَةً ما علم أحدٌ بالأمر حتى كان، ثم قُمْتُ فأنشدتُ الشَّعْرَ، قال: فقوم يتعجبون من لغته ونسخ النية، وقوم يتعجبون من تضمين الشَّعْرَ للمعنى في وقته، لا يدرون ما السبب، فكان يوماً معجباً سُرَّ الناس به بتولية ابن أبي زيد، وابتهلوا فيه بالدعاء للسلطان، حتى عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بذلك، ولما ولي القضاء على رغم كثير ممن ذكرنا ممن أحب ولاية ولد القاضي ابن هاشم من أشياخه وأتباعه، أداهم ذلك عند ولاية قضائه إلى التصويب عليه بحبائل نَصَبُوهَا، وأكاذيب كَذَبُوهَا، وانتهى ذلك إلى السلطان فأمر بالنداء بِصَبْرَةٍ، والقيروان، والاجتماع بالجامع، وأكَّدَ في أن لا يَتَخَلَّفَ أحدٌ، فاجتمع خَلْقٌ عَظِيمٌ، وحضر القاضي ابن أبي زيد هذا وسائر الفقهاء، ورجال السلطان وخاصته وجنده، وكان من الكلام ما يطول شرحه، وجملته أن سائر الفقهاء؛ أجمعوا على أنه عادلٌ في أحكامه، كاملٌ في أحواله، ليس له جرحَةٌ يعزل بها إلا من شذ من اتباع مَنْ ذكرنا، وجرى بين العوام وسائر الفقهاء بعيداً من مجلس السلطان وعيانه أمر، لولا هَيْبَةُ المكان، وحضور القوَّادِ، لَتَفَاقَمَ الأمرُ، وآلَ إلى سَفْكِ الدِّمَاءِ، أو ما يقرب منه، ثم انجلت تلك الغيابة الناشئة في أَفْقِ الغَيِّ الحاملة لما شاءه الجهل من صواعق الطُّغْيَانِ وَالْبَغْيِ، وأعقبها تأخره عن قضائهم، وقال له السلطان: قد رأينا أن عَزْلَكَ أروحُ لَكَ في دِينِكَ ودنياك، فأخرناك لا لجرحه. وكان تأخيره عن القضاء في آخر شهر رمضان من سنة ستة وثلاثين وأربعمائة.

قال: وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات إذا تذكر من فقدته من أشياخه:

واجزعي لفراق قوم	هم المصابيح والخصون
والأسد والمُزَنُ والرواسي	والأمن والحفظ والسكون
لم تنكرن لنا الليالي	حتى توفقثهم المنون
فكل نار لنا قلوب	وكل ماء لنا عيون

قلت: قال العواني: وتوفي رحمه الله فيما قُدِّرَ بعد الستين وأربعمائة، ودفن داخل القبروان بدار الدفن المعروفة بهم حيث دُفِنَ والدُه رحمه الله عليهما.

310 - ومنهم أبو حفص عمر بن أبي زيد رحمه الله تعالى:

قال: كان فقيهاً صالحاً فاضلاً، سمع على أبي عبد الله محمد بن العباس الأنصاري وجماعة، وهو أخو القاضي أبي بكر المتقدم الذكر.

قلت: توفي سنة ستين وأربعمائة وكان له ولد اسمه عبد الرحمن ويكنى بأبي القاسم، وكان رجلاً صالحاً، فقيهاً، حسن الطريقة والسَّمتِ والهدي، له اعتناء بالعلم، وكان الغالب عليه حفظ الحديث، وله مجلس حفيظ يقرأ عليه فيه الحديث، والفقه، وكان كثير الكتب كلها بخطه، حافظاً لمذهب مالك وأصحابه، قال العواني: وتفقه على أبيه القاضي عمر وتوفي بعده بنحو خمسة عشر عاماً.

قلت: لا أحفظ كون أبيه كان قاضياً، وإنما كان قاضياً أخوه أحمد كما تقدم رحمه الله عليهم.

311 - ومنهم أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي الفقيه المؤرخ:

قال: هو صاحب «رياض النفوس» المشهور بكتاب المالكي في طبقات علماء إفريقية وزهادها، كان أبو بكر فقيهاً، فاضلاً، ثقة، صاحب أبا بكر بن عبد الرحمن، وهو الذي كان يقرأ عليه الميعاد وانتفع به.

قلت: يريد أنه الذي يقرأ بلفظه والناس يسمعون والله أعلم.

قال: وكان هو ممن بقي مع أبي عبد الله محمد بن العباس الخواص، وأبي عبد الله الحسين بن عبد الله الأجدابي، وجماعة من العلماء، بقي بعد خراب القبروان مدة، وكان خرابها في أول رمضان سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

قلت: وسبب خراب القيروان إجابة دعاء الشيخ الواعظ عبد الصمد فانهزم سلطان القيروان مع كثرة عساكره وقلة من جاءه، وذلك أنه كان لعبد الصمد هذا ولد اسمه محمد، وَيُكْنَى بأبي الحسن، ورد على القيروان وكان رجلاً صالحاً، فاضلاً، واعظاً، زاهداً، صُوفِيّاً، عالماً، عاملاً، وكان له مجلس بالجامع الأعظم بالقيروان يُجْتَمَع إليه فيه وَيُسْمَع كلامه، وله لسان فصيح، وقلب قريح كثير الحزن والبكاء والخوف، من أولياء الله عز وجل، المنقطعين إليه، الخائفين الخاشعين المتبتلين القائمين الصائمين، قد ركب طريقة من الزهد والورع والخشية وصدق المقال في الوعظ لم يسلكها في وقته غيره، فطبق ذكره الآفاق وكثر ازدحام الناس إليه في مجلسه لاستماع وعظه، ومالت إليه القلوب والأسماع، وكثرت له الأتباع، حتى حذره السلطان، وخاف على نفسه منه، فاستعار السلطان منه بعض كتبه وأظهر أنه أَحَبَّ مطالعة شيء منها، فأرسل إليه بما أحب منها، فأقامت عنده أياماً ثم أمر بردها، فتصفح الواعظ أوراقاً منها فوجد بينها بطاقة⁽¹⁾ بخط السلطان كأنها نسيها بين أوراق كتابه، فإذا فيها زَعَمْتُ ملوكُ الفُرسِ، وحكماءُ السَّيرِ والسياسة، أن أهل التمس والوعظ، وتأليف العامة، وإقامة المجالس، أضر الأصناف على الملوك وأقبحهم أثراً في الدول، فيجب أن يتدارك أمرهم ويبادر إلى حسم الأذى منهم، فلما قرأ الواعظ أبو الحسن محمد بن عبد الصمد البطاقة، علم أنه أمر استعمل له وقُصِدَ به ونَبِهَ على الرأي فيه. فاستعمل الحج، فخرج وخرج معه عامة وخاصة من أهل القيروان، وأمر له السلطان بِزَادٍ فخرج متوجهاً إلى الحج في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر الله رجب الفرد الحرام سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، ومعه رجال وكلوا به أن يصلوا معه إلى مدينة قابس، ونهى أن يشيَّعه أحد، أو يخاطبه الخطاب، وكانت الرفقة الخارجة إلى مصر قد قرب خروجها فأمر أن ينتظرها بمدينة قابس إلى أن يصحبها، وكوتب عامل قابس بأن لا يدخل إليه أحد هناك، ولا يجتمع عنده اثنان، ولا يخرج من المكان الذي ينزله فيه إلا يوم سفره، فخرج وهو غير آمن على نفسه، وأظهر السلطان ما كان يخفيه من أمره، وصار من ذكره بخير، أو قال فيه جميلاً مَشْخُوصاً⁽²⁾ مذموماً حتى صار كل من كان يُفرط في مَدْحِهِ

(1) في ط و ت: سجادة، والصواب ما أثبتناه تصحيحاً على الكلمة التي أتت بعدها.

(2) مشخوصاً: مُتَجَهِّماً، ومقلقاً.

ومودته، يظهر الإفراط في ذمّه وعداوته، خوفاً على نفسه من السلطان. قال محمد بن شرف: ثُمَّ اتَّصَلَ أَنَّ الْوَاعِظَ لَمَّا فَصَلَ عَنْ مَدِينَةِ قَابَسَ قَتْلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي طَرِيقِهِ ذَلِكَ، قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ شَرَفٍ: لَمَّا قَتَلَ الْوَاعِظُ كَثْرَ التَّظْنِي مِنَ النَّاسِ عَلَى السُّلْطَانِ، أَنَّهُ دَسَّ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْأَمْرِ فَقَوْمٌ يَنْسُبُونَ الدَّسَّ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَقَوْمٌ يَنْفُونَهُ.

قال جعفر بن محمد بن شرف: وبلغني أنه دخل داخل على أبيه أبي الفضل عبد الصمد، وكان واعظاً فوجده في آخر مجلسه من الوعظ بجامع ابن العاص بمصر، فنعى له ابنه أبا الحسن محمد الواعظ الشهيد، وأخبره بسبب قتله.

قال: فَتَعَلَّ قَدَمَهُ فِي الْحَيْنِ، وَهُوَ يُلَبِّي بِالْحَجِّ مِنْ مَكَانِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يَنْصَرَفْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَتَبِعَهُ خَلْقٌ عَظِيمٌ، فَحَجَّ ذَلِكَ الْعَامَ، وَكَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَتَعَلَّقُ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ وَيَصِيحُ وَيَقُولُ: «يَا رَبِّ، الْمَعَزُ عَلَيْكَ بِهِ! يَا رَبِّ عَلَيْكَ يَا بَنَ بَادِيسَ، فَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ الْوَاقِعَةُ بِالْقَيْرَوَانِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنْ حَجِّهِ وَدَعَائِهِ، وَذَلِكَ كَانَ أَصْلَ خَرَابِ الْقَيْرَوَانِ! فَلَمْ يَشْكُ أَحَدٌ فِي إِجَابَةِ دَعَائِهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ تَغْيِيرِ قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ نَقْلِ عِيَاضٍ عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عُلَمَاءِ وَقْتِهِ بِالْقَيْرَوَانِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ الزُّهْدُ، وَأَخَذَ فِي وَعْظِ النَّاسِ إِلَى أَنْ قَالَ فِيهِمْ ابْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ: إِنَّهُ قَصْدُهُ بِذَلِكَ فَاسْتَعْمَلَ الْخُرُوجَ إِلَى الْحَجِّ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ عَادَ فَأَخَذَتْهُ الْفِتْنَةُ بِالْقَيْرَوَانِ، وَهَذَا تَظْهَرُ فِيهِ الْمَخَالَفَةُ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَرَجَعَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

312 - ومنهم محمد بن أبي سعيد بن شرف الأجدابي الأديب الفاضل:

أحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشات الصواب، وتلاعب بالمنثور والمؤزون، تلاعب الريح بأطراف الغصون، خرج من القيروان عند اشتداد فتنة العرب عليها، وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وقدم الأندلس وسكن الميرية⁽¹⁾ وغيرها، وتردد على ملوك الطوائف بها بعد مقارعة أهوال، ومباشرة

(1) مدينة أندلسية أمر بينائها السلطان الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة 344هـ. انظر

عنها كتاب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. للوزير لسان الدين الخطيب ص: 56 -

57، والروض المعطار ص: 537 - 538.

خُطوبٍ طوال، ولا بن شرف هذا عِدَّةٌ تواليف أفاضها بحاراً، وأطلعها شمساً وأقماراً، منها كتابه المرسوم بأعلام الكلام، وكتاب أبكار الأفكار، وغير ذلك من تواليفه التي تشهد بذكائه، وكان من أعقل الناس وأحزمهم، استنهضه ابن رشيق مع منافرة كانت بينهما في أن يجتمعا بالطريق، ويجوزا معاً إلى الأندلس فأنشده ابن رشيق:

مِمَّا يُبْغِضُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلَسِ اسْمَاعِ مَقْتَدِرِ فِيهَا وَمَعْتَضِدِ
أَلْقَابِ مَمْلُوكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الْأَسَدِ
فَأَجَابَهُ ابْنُ شَرْفٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنْ تُرْمِكَ الْغُرْبَةُ فِي مَعْشَرٍ قَدْ جَبَلَ الطَّبْعُ عَلَى بُغْضِهِمْ
فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ
وَلَهُ أَيْضاً رَحِمَهُ اللَّهُ وَبَرْدُ ضَرِيحِهِ قَصِيدَةٌ يَذْكُرُ فِيهِمَا الْقَيْرَوَانَ وَيَنْدِبُهَا:

يَا قَيْرَوَانَ وَدَدْتُ أَنِّي طَائِرٌ فَأَرَاكَ رَوِيَّةً بَاحِثَ مَتَأْمَلِ
يَا لَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ رَأَيْتَكَ فِي الْكُرَى كَيْفَ ارْتِجَاعِ صَبَايَ بَعْدَ تَكْهَلِ
وَإِذَا تَجَدَّدَ لِي أَخٌ وَمِنَادِمٌ جَدَدْتُ ذِكْرَ أَخٍ خَلِيلِ أَوَّلِ
لَا كَثْرَةَ الْإِحْسَانِ تُنْسِي حَسْرَتِي هِيَ هَاتِ تَذْهَبُ عَلَّتِي بِتَعَلُّلِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِهِمْ يَوْمَ الرِّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ
وَلَهُ أَيْضاً فِي قَصِيدَةٍ يَذْكُرُ فِيهَا الْقَيْرَوَانَ:

تَرَى سَيِّئَاتِ الْقَيْرَوَانَ تَعَاظَمَتْ فَجَلَّتْ عَنِ الْغَفْرَانِ وَاللَّهُ غَافِرُ
تَرَاهَا أَصِيبَتْ بِالْكَبَائِرِ وَحَدَّهَا أَلَمْ تَكُ قَدَمًا فِي الْبِلَادِ الْكِبَائِرِ
تَكَشَّفَتْ الْأَسْتَارُ عَنْهُمْ وَرَبَّمَا أَقِيمَتْ سَتُورُ دُونِهِمْ وَسَتَائِرُ
وَلَهُ أَيْضاً رَحِمَهُ اللَّهُ قَصِيدَةٌ أُخْرَى:

كَسَيْتُ قِنَاعَ الشَّيْبِ قَبْلَ أَوَانِهِ وَجَسَمِي عَلَيْهِ لِلشَّبَابِ وَشَاخُ
وَيَا رَبِّ وَجْهَ فِيهِ لِلْعَيْنِ نَزْهَةٌ أَمَانَعُ عَيْنِي مِنْهُ وَهُوَ مَبَاحُ
وَأَهْجَرُهُ وَهُوَ اقْتِرَاحِي مِنَ الْوَرَى وَقَدْ تَهَجَّرَ الْأَمْوَاهُ وَهِيَ قَرَاخُ

وله في هذا كلام طويل، وفيما ذكرناه دلالة عليه، ولأبي عبد الله محمد بن شرف هذا، رواية عن الشيخ أبي الحسن القابسي، وأبي عُمَرَ الفاسي، وذكره الشيخ أبو الوليد الباجي وأثنى عليه ووصفه بالعلم والذكاء، وأن علم الأدب من بعض علومه، رحمة الله عليه ورضوانه عليه.

313 - ومنهم أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدَّارِمِي رحمه الله تعالى:

قال: كان من أهل الفضل والأدب والشعر، وفد على القيروان سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، فتقدم بفضل آدابه عند الكُبرَاءِ، وعرف قدره من الفُقهَاءِ، حكى ذلك ابن رشيْق وقال: إنه أول من أدخل كتاب الثعلبي عندهم، وشهد حصار القيروان معهم، وفي ذلك يقول حين شاهد حروبها وخرابها:

حالت عليَّ القيروان فحالها	عما عهدت العيش فهو منقص
فخرابها في كل يوم زائد	وجنابة المعمور فيها تنقص
إن كان أرخصني الزمان فإنه	أزْدَى إلي بضائعاً لا ترخص
أو كان غير من طباعي موضعي	فالخمر إن تركت وعافا تقرص
كيف الرجوع وطرف حالي عامرُ	وجنّاح آمالي الكسير مقصص
وله أيضاً في ذلك:	

ومعنف لي في المقام ضرورة	بالقيروان وما بها سلطانُ
ألقي الهوان بها، وكم من عزة	قد ساقها نحو الرجال هوانُ
ما الدر ينقص فضله في بحرهِ	أن ليس تعرف قدره الحيتانُ
كلا وليس المِسْكُ يبطل عرفه	إن ضيَّعته بجهلها الغزلانُ
ما عيب ضوء الشمس عند بزوغها	إذ ليس يدرك قدرها العميانُ
والليث لا تنسى استطالة بأسه	إن ضمه في جيشه خفقانُ
أو ما ترى الدنيا بفقد ملكيها	طرفاً ولكن ما له إنسانُ

ثم إن أبا الفضل محمداً هذا لما أفضى أمر القيروان إلى ما أفضى إليه من الخراب، وتغير الأحوال، انتقل عنها إلى سوسة، وأقام بها عشر سنين، ثم انتبذ من

تلك الناحية وركب البحر فنزل بدانية⁽¹⁾ فبعث إليه أميرها مجاهد بلحم، وأربع دقيقتين أول نزوله، فصرفها في وجه رسوله، وَعَجَّلَ الارتحال عنه إلى بلنسية⁽²⁾، فلقي برا وعرف قدره بها، وأكرم مَثَوَاهُ المأمون ابن ذي النون بطليطلة⁽³⁾، وأجزل قراه، وتوسع له ولعبيده وخدمته في البر، وأجرى له ستين مثقالاً في الشهر الواحد سنة أربع وخمسين وتوفي بها منتصف شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة، ووصل المأمون له باستمرار جراته على حاشيته وتلامذته، وتجاوى عن ميراثه، وجعله وصية له إذ لم يوص - لفجأة وفاته رحمه الله ورثي بمراثٍ كثيرة، منها مرثية الحكيم أبو محمد بن خليفة المصري:

سَقَى اللّهُ قَبْرًا حَلَّ فِيهِ أَبُو الْفَضْلِ	سَحَابًا يَسْحُ الْمَزْنَ وَيَلَا عَلَى وَبِلِ
وَكَيْفَ يَسْقِي الْمَزْنَ ⁽⁴⁾ قَبْرًا يَحْلُهُ	وَفِي طِيهِ بَحْرُ الْمَكَارِمِ وَالْفَضْلِ
وَبَدْرُ تَمَامٍ مِنْ تَمِيمٍ فَخَارُهُ	مَلُوكٌ لَهُمْ قَامَ الْمُلُوكُ عَلَى رَجُلٍ
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا آكَلٌ مِنْ نَفُوسِنَا	وَنَحْنُ لَدَيْهِ فِي الْحَقِيقَةِ كَالْأَكْلِ

314 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن جعفر الكوفي رحمه الله تعالى:

قال: كان أوجد أهل زمانه فقهاً، وعلماء، وأدباء، من بيت علم وصلاح وأدب، فقيه القيروان في وقته، وقاضي مدينة صَبْرَةَ وخطيبها، وإمام الجامع الأعظم بها، وكان فصيحاً لساناً، سنياً، مبايناً لأهل البدع، شديداً عليهم، ولما أمر المُعِزُّ بن باديس بلعنة عُبيد الله في الخطب وذلك في يوم عيد الفطر من سنة أربعين وأربعمائة، خطب القاضي محمد بن جعفر هذا فقال بعد ذكر ما جرت العادة به في خطبة الفطر: اللَّهُمَّ وَالْعَنِ الْفَسَقَةَ الْكُفَّارَ الْمُرَائِينَ الْفُجَّارَ أَعْدَاءَ الدِّينِ، وَأَنْصَارَ الشَّيَاطِينِ، الْمُخَالَفِينَ لِأَمْرِكَ وَالنَّاقِضِينَ لِعَهْدِكَ، الْمُتَّبِعِينَ غَيْرَ سَبِيلِكَ، وَالْمُبَدِّلِينَ لِكِتَابِكَ، اللَّهُمَّ

(1) دَانِيَّة: مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة، ومن دانية أبو عمرو الداني المقرئ المعروف بابن الصيرفي له تواليف في القراءات. انظر الروض المعطار ص: 231 - 232.

(2) بَلَنْسِيَّة: تقع شرق الأندلس مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستوٍ من الأرض. انظر: الروض المعطار ص: 97 - 101.

(3) طَلَيْطَلَة: مدينة أندلسية عظيمة القطر كثيرة البشر كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق بن زياد. انظر عنها: الروض المعطار ص: 393 - 395.

(4) الْمَزْنَ: السحاب.

العنهم لَعْنًا وَبِيلًا، واخزهم خَزِيًّا عَرِيضًا طَوِيلًا، اللهم وإن مولانا وسيدنا أبا تمام المَعِزُّ بن باديس بن المنصور القائم بدينك، والناصر لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ، والرافع لِلْوَاءِ أوليائك يقول مصدقاً لكتابك وتابعاً لأمرك، مبايناً لمن غَيَّرَ الدِّينَ، وسلك غير سبيل المرشدين المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ۚ﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ [الكافرون: 1-5]، (هكذا بإسقاط قل من أول السورة وترك لكم دينكم ولي دين لتعلق الأمر بالمراد)، وأمر السلطان خَطِيبَ جامع القبروان، أن يفعل مثل ذلك على المنبر في الجمع في كل خُطْبَةٍ، وهذا دليل على فصاحته ومباينته لأهل البدع ومحبته لأهل السُّنَّةِ، وجرت عليه محنة أعقبها التأخر عن قضائهم، والزهد في جوارهم، وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق:

يا سالكاً بين الأسِنَّةِ والضُّبَا إني أشم عليك رائحة الدَّمِ
يا ليت شِعْري من رقاك بعوده حتى رقيت إلى مكان الأزْقَمِ

منها هذان البيتان صنعهما معرضاً بالقلمضي محمد بن جعفر، فتمت إلى السلطان فكانت سبب محنته، فلما صودر بالمكروه قَرَّ من مدينة القبروان، فما سمع له خبر إلا من مصر، وقرىء سجل القاضي علي بن أحمد البُوني بجامع القبروان بولايته جميع ما كان يتولاه محمد بن جعفر من قضاء مدينة صَبْرَةَ، وزال القضاء عن بني الكوفي، وكانت لهم في ولايته نيف وسبعون سنة، والذي تَوَلَّى القضاء منهم أربعة: أولهم محمد بن إسحاق التميمي، ثم ولده عبد الله بن محمد، ثم ولده جعفر بن عبد الله بن محمد، ثم ولده محمد بن جعفر هذا المعزول، وكانوا من أهل الرِّوَايَةِ والدَّرَايَةِ، والديانة وحسن السيرة في القضاء رحمهم الله، ولم يزل محمد بن جعفر هذا بمصر بعد انصرافه من القبروان، متعرفاً مزيد الحظوة وسمو الرتبة، وولي القضاء بها ولقب قاضي القضاة، ثم تخلَّى عن القضاء وارتحل عن مصر فلم يستقر له قرار إلا بأقصى الشام، فَيُقَالُ إنه توفي هناك بعد السبعين وأربعمئة رحمة الله عليه.

315 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي⁽¹⁾ بن بلال مولده بالقيروان وهي بلد أسلافه:

قال: سمع من أبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عبد الله بن محمد بن الناظور، وأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الليدي وغيرهم.

قلت: منهم أبو عبد الله الحسين بن عبد الله الأجدابي، وأبو القاسم السيوري، وأبو عبد الله محمد المالكي.

قال: ثم رحل إلى المشرق فسمع بمصر من أبي الحسين بن المنير، وبمكة من أبي الحسين بن صخر، وأبي بكر بن علي المطوعي، وأبي ذرّ عبد الله أحمد الهروي، وكان من أهل العلم بالفروع، والأصول، وكتب الحديث بمكة ومصر والقيروان، حدث عنه أبو يحيى سفيان بن العاصي، وأبو علي الصدفي، وأبو الحسن بن مغيث وغيرهم؛ وله تواليف منها: كتاب «تأسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان»، وجزء فيه «مناقب شيخه أبي بكر بن عبد الرحمن وأصحابه».

قلت: وكتاب في «الفقه على مذهب مالك بن أنس»، وكان خروجه من القيروان للتجارة فطاف بلاد المغرب والأندلس، وأخذ الناس عنه هناك كأهل قرطبة وبلنسية والمرية وغير ذلك من البلاد وفتح الله لهم على يديه.

قال: وتوفي بأغمات⁽²⁾ من المغرب الأقصى سنة خمس وثمانين وأربعمائة

(1) ترجم له في: ترتيب المدارك: 112/8 - 113 (طبعة المغرب)، 4/799 - 800 (طبعة بيروت)، الصلة لابن بشكوال ص: 468 رقم (1325)، الديباج المذهب ترجم له ابن فرحون مرتين ص: 369 رقم 500 وص: 401 رقم 538، السعادة الأبدية لابن المؤقت 1/127 رقم 57، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام 4/9، فهرسة ابن خير ص: 387 رقم (1251)، شجرة النور الزكية 1/174 رقم (364).

(2) أغمات: تقع ببلاد المغرب جنوب مدينة مراكش على بُعد 30 كم، كانت تطلق كلمة أغمات حسب البكري عبارة عن مدينتين سهليتين إحداهما تُسمى أغمات إيلان، والأخرى أغمات وريكة، وبينهما مسكن رئيسهم وبها ينزل التجار والغرباء، وأغمات إيلان لا يسكنها غريب وبينهما ثمانية أميال.

ويوجد بها قبر المُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّاذٍ ملك إشبيلية زمن الطوائف، والذي كان قد قبض عليه يوسف بن تاشفين سنة 480 هـ. انظر كتاب المسالك والممالك للبكري 2/338 - 339، معيار الاختيار ص: 78، وصف إفريقيا ص: 135 - 137، الموسوعة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله 1/39، الروض المعطار ص: 46.

وتبعه العواني، وقال عياض: توفي سنة ست⁽¹⁾ ومولده عام ثلاثة عشر⁽²⁾ رحمه الله تعالى.

316 - ومنهم أبو محمد عبد الواحد بن مفرج التالسي:

قال: كان رحمه الله فقيهاً، صالحاً، ورعاً، ذا فهم وذكاء، من جلة طلبة أبي بكر بن عبد الرحمن، مشهور بالصلاح، ودُفِنَ بباب نافع المحدث، مجاوراً لقبر أبي القاسم السيوري من الشرقي رحمه الله تعالى.

317 - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد الرُّبَيعِيُّ⁽³⁾ المعروف باللُّخْمِي رحمه الله تعالى:

أصله من القيروان ونزل صفاقس، تفقه بآبَن مُحَرِّز، وأبي الفضل ابن بنت ابن خلدون، وأبي الطيب، والتونسي، والسيوري؛ وأخذ عنه أبو عبد الله المازري، وأبو الفضل النحوي⁽⁴⁾، وعبد الحميد الصفاقسي وغيرهم؛ وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً ذا حظ من الأدب، والحديث، جيد النظر، حسن الفقه، جَيِّدُ الفهم، وكان فقيه وقته وأبعد الناس صيتاً في بلده، وبقي بعد أصحابه فحاز رئاسة بلاد إفريقية جملة، وطارت فتاويه وكان حسن الخلق، مشهوراً بالفضل، وله تعليق على المدونة سماه «بالتبصرة»⁽⁵⁾ مفيد حسن، وهو مقدم بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال وربما اتبع نظره فخالف المذهب فيما ترجح عنده، فخرجت اختياراته عن قواعد المذهب، ومسجده بصفاقس مشهور، إذا دخله الداخل يرى فيه نوراً زائداً عن غيره من المساجد، وفي زماننا يُدْرَسُ فيه الشيخ الفقيه أبو بكر القَرْقُورِي صاحب الزاوية الغربية منه، فدرس فيه

(1) ست وثمانين وأربعمائة (هجريّة).

(2) يعني ثلاثة عشر وثلاثمائة. ترتيب المدارك: 113 / 8 (طبعة المغرب).

(3) ترجم له في ترتيب المدارك: 109 / 8 (طبعة المغرب)، 797 / 4 (طبعة بيروت)، فهرس ابن عطية ص: 61 و 141، الديباج المذهب ص: 298، وفيات ابن قنفذ ص: 258، وشرف الطالب له أيضاً ص: 58، الحلل السندسية ص: 143، الفكر السامي 250 / 2 - 251، شجرة النور الزكية 173 / 1 رقم 362 وكتاب العمر 682 / 2 - 684.

(4) في ترتيب المدارك في كلا الطبعتين «ابن النحوي».

(5) منه عدة نسخ خطية بخزانة القرويين بفاس منها عدد 367 و 368... للمزيد عن نسخه ومعرفة أمكنتها انظر كتاب العمر 683 / 2.

نحواً من أربعين سنة، وَزُرْتُ قَبْرَهُ مِرَاراً، فرأيت له بركات منها أني لما وليت قضاء قابس زرت قبره وعرفته بأني ماشي لها وأنها موخمة جداً قل أن يسلم من يقيم فيها أياماً يسيرة، ورغبت الله عز وجل بما قرأ وقرىء عليه، وألححتُ بالدعاء والتضرع جداً، وكذلك فعلت عند قبر الشيخ أبي الحسن علي العبدلي بالقيروان، فأجاب الله دعائي وسَلَّمَنِي من مرضها وقد أقمت فيها سبعة أشهر، ولما قرىء قول المدونة في بيوعات الآجال بمنع وضع وتعجل في درس بعض مشيخة التونسيين، لم يذكر أحد من أهل الدرس خلافاً إلا واحداً فقال: هذا هو المشهور، وأجازه ابن القاسم فأنكر عليه فقال: اللّٰخمي حكاه فلما انفصل المجلس نظر أهله كلام اللّٰخمي في بيوعات الآجال فلم يجدوا فيه شيئاً، فلما كان من الغد قالوا له ما ذكرت عن اللّٰخمي غير صحيح، إذ لم يذكره هنا وهو محله، فانفصل الطالب عنهم في غمٍّ شديد، فلما قام من الليل رأى في منامه الشيخ أبا الحسن اللّٰخمي فقال له: يا سيدي نقلت عنك، وَذَكَرَ الْقِصَّةَ وَكُونَ الطلبة نظروا كتابه في بيوع الآجال ولم يجدوا فيه ذلك النقل! فقال له: ذكرته في فصل الخلع فانتبه الطالب فرحاً فقام في ليله ونظر الكتاب فوجده كما نقل، فلما أصبح ذكر ذلك لأهل المجلس واشتهرت فضيلته وفضل الله برؤيته المذكورة. وتوفي رحمه الله تعالى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقبره مزار يعرفه الخاصة والعامة، ولهم فيه اعتقاد تام وحق لهم ذلك.

318 - ومنهم أبو محمد عبد الحميد⁽¹⁾ بن محمد المعروف بابن الصّائغ قيرواني سكن سوسة:

أدرك صغيراً أبا بكر بن عبد الرحمن، وأبا عمران الفاسي، وتفقه على أبي حفص العطار، وابن مخرز، والتونسي، والسيوري، وغيرهم؛ وبه تفقه أبو عبد الله المازري وغيره؛ وأصحابه يُفَضِّلُونَهُ على أبي الحسن اللّٰخمي تفضيلاً كثيراً. وكان فقيهاً نبيلاً فاهيماً فاضلاً أصولياً زاهداً جيد الفقه قوي العارضة محققاً وله تعليق على المدونة أكمل فيه الكتابة التي بقيت على التونسي، ولما أراد المُعِزُّ صاحب المهدية تولية أبي الفضل بن شعلان قضاء المهدية، شرط ابن شعلان أن لا يتقلد ذلك إلا

(1) ترجم له في ترتيب المدارك: 4/ 794 - 796 (طبعة بيروت)، الديباج المذهب ص: 260،

شجرة النور الزكية 1/ 174 رقم 363.

باستجلاب عبد الحميد إلى المهدية ليقوم بِفَتْوَاهَا إذ لا يرى استيفاء أحد من فقهاءها لأمر فجلب له، ولزم المهدية ودارت عليه فتاويها، فلما شقت سوسة على تميم، قبض جماعة فيهم عبد الحميد، فضربه وغرمه خمسمائة⁽¹⁾ دينار، فباع فيها عبد الحميد كتبه، وكان سبب انقباض عبد الحميد عن الفتيا، فلقبه بعد ذلك تميم واعتذر إليه، فلم ينفعه ولزم الانقباض، والتزم داره ولم يفت⁽²⁾ في شيء، وجعل لا يجالس أحداً، وَتَحَيَّلَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى سُوسَةَ لِعِلَّةِ الْمُدَاوَاةِ⁽³⁾ لحسن هوائها، فبقي على حالته تلك ستة أعوام، إلى أن دخل الإفرنج إلى المهدية، واستباحوا أهلها. ودخلوا جُلَّ قصورها⁽⁴⁾ فانكسر بعد ذلك تميم ودائرته، وهان على الناس، فظهر عبد الحميد ورجع إلى حالته الأولى، وأفتى ودرس وانتفع به إلى أن مات رحمه الله.

319 - ومنهم أبو حفص عمر القمودي⁽⁵⁾:

قَيَّرَوَانِي الْأَصْلَ، نَزِيلَ صُفَّاقَسْ⁽⁶⁾، وَكَانَ فَقِيهًا، أَدِيبًا، مُفْتِيًا، مِنْ حُفَّازِ الْمُدَوَّنَةِ وَالْقَائِمِينَ عَلَيْهَا، وَمِنْ حُفَّازِ الشَّعْرِ، أَخَذَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبِي عِمْرَانَ الْفَاسِي، وَصَحَبَ أَبَا الْقَاسِمِ السِّيُورِي.

ذكر بعض أصحابه قال: لما ودّعني الفقيه أبو حفص عمر القمودي أنشدني⁽⁷⁾:

هَيَّجُوا اللَّبِينَ بَرْقًا فُلْمَعِ وَأَثَارُوا دَمْعَ عَيْنِي فَاَنْدَفَعِ
وَدَعُوا قَلْبِي فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَوْقَفُوهُ بَيْنَ يَأْسٍ وَطَمَعِ

(1) في ترتيب المدارك: «ستمائة» دينار 795 / 4.

(2) في ترتيب المدارك: «ولم ينتفع».

(3) في ترتيب المدارك: «المعاونة» 795 / 4.

(4) قال عياض: «وذلك ستة ثمانين» 795 / 4.

(5) ترجم له في: ترتيب المدارك: 798 / 4.

(6) صُفَّاقَسْ: مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان، فهي مدينة تونسية كبيرة. انظر عنها: رحلة التيجاني ص: 68 - 84، وصف إفريقيا ص: 87.

(7) الترجمة نفسها منقولة حرفياً من ترتيب المدارك: 798 / 4.

320 - ومنهم أبو الحسن علي⁽¹⁾ بن عبد الغني المقرئ الفهرري المعروف بالحصري⁽²⁾:

قال: كان إماماً في القراءات السبع، قرأ على أبي بكر عتيق بن أحمد القصري عشر سنين، ختم عليه فيها القراءات السبع تسعين ختمة وهو ابن عشر سنين إلى عشرين سنة، ثم قرأ على أبي علي بن حمدون الجلولي، وأبي محمد عبد العزيز بن محمد، وكان له معرفة بالأدب والشعر، ثم رحل إلى الأندلس عندما خربت القيروان، وأقرأ بها القرآن ثم انتقل إلى طنجة⁽³⁾ فمات بها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ودفن بها، حدثني بقصيدة في القراءات أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال⁽⁴⁾ عن أبي القاسم بن صواب عنه رحمه الله.

321 - ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عمر بن أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله:

قال: كان رحمه الله فقيهاً، عالماً، صالحاً، إمام جامع القيروان، بقية أسلافه الصالحة، مشهور بالفضل والصلاح. توفي رحمه الله في آخر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وأربعمائة.

322 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري⁽⁵⁾ المعروف بالذكي:

صقلي الأصل، وسكن قلعة بني حماد⁽⁶⁾، ثم رحل للمشرق، ودخل العراق،

(1) ترجم له في: جذوة المقتبس ص: 282 رقم 716، بغية الملتبس ص: 372 رقم 1229، الصلة لابن بشكوال ص: 345 رقم 930، شذرات الذهب 3/385، شجرة النور الزكية 1/175 رقم 366.

(2) في ط، وشجرة النور: المصري وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من كتب مترجميه، وت.
(3) في ط: طانجة. والصواب المتداول عندنا بالمغرب لفظاً وكتابة «طنجة» كذا في ت: طنجة.
(4) في ط: شكوال. والصواب ما أثبتناه. وهو صاحب كتاب «الصلة»، وفي ت بشكال وهو سبق قلم.

(5) ترجم في: ترتيب المدارك: 8/101 - 103 (طبعة المغرب)، و4/792 - 793 (طبعة بيروت)، إنباه الرواة 3/73 وفيه «الزكي» وهو خلاف ما في كتب مترجميه بغية الوعاة 1/210 رقم 371، الوافي بالوفيات 4/320 رقم (1868).

(6) قلعة بني حماد: وهي قلعة أبي الطويل من أكبر البلاد قطراً، وأكثرها خلقاً فلما كان خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية، زيتونها كثير، ورمالها حمر. للمزيد انظر المسالك والممالك للبكري 2/226 - 227، الروض المعطار ص: 469 - 470، رحلة التيجاني ص: 115 - 116.

وسكن أصبهان⁽¹⁾ إلى أن مات بها، وعداده فيهم، وكان فقيهاً فاضلاً⁽²⁾ مدركاً نبيلاً، فهيماً⁽³⁾ متقدماً في علم المذهب واللسان، متفنناً في علوم القرآن وغيره⁽⁴⁾. أخذ عن شيوخ بلده، وأخذ بالقبروان عن الشيخ أبي القاسم السيوري وغيره؛ وكان السيوري يقول: إن ابن أبي الفرج أحفظ من رأيت، وكان القاضي أبو عبد الله بن داود يقول: شيخنا الذكي أفقه من أبي عمران الفاسي ومن كل مالكي رأيت حتى فضله على إسماعيل بن إسحاق القاضي، وتفقه عليه بالمغرب؛ أبو الفضل النحوي، والقاضي أبو عبد الله بن داود وألف في علوم القراءات كتاباً كبيراً سماه «الاستيلاء» وله تعليق كبير في المذهب مستحسن خرج على ألف سؤال⁽⁵⁾.

قلت: وسمعت شيخنا أبا مهدي عيسى الغبريني رحمه الله يقول: وقفت عليه، ويعلم الواقف عليه أنه ذكي، عند اسمه رحمه الله، ولما وصل إلى المشرق ودخل بغداد، وجد مذهب مالك قد درس وَقَلَّ طَالِبُهُ، فلم يحصل له بالفقه رئاسة، ورام مع علماء المشرق بالنحو، وعلم لسان العرب، واستصحب القيم بالخلافة بها إذ ذاك الملك العادل أبو الفتح، وأشخصه إلى أصبهان ليدرس فيها الأدب، فذهب علمه بالسنة هناك ضياعاً ولم يأخذه عنه أحد، ويُقال: إن سبب هذا دعاء الشيخ أبي القاسم السيوري عليه، فإنه يُحكى أنه كثيراً ما يسيء الأدب معه، ويتتبع سَقَطَاتِهِ حتى جمع نحو ثلاثين مسألة من سَقَطَاتِهِ ادَّعى عليه الخطأ فأنكرها الشيخ وقال لأصحابه: لا تسمعوا منه فإنه كَذَّاب فأسقط بها وتوفي بأصبهان بعد الخمسمائة سنة بعد أن جرت له بها حروب في مطالبة الغزالي وكان أحد القائمين عليه هناك، لكن حمي منهم فلم يصلوا إليه والله أعلم بالسرائر ولا إله غيره.

(1) إَصْبَهَان: قال الجَمِيرِي في الروض المعطار: ليست هذه الباء بخالصة ولذلك يكتبها بعض الناس بالفاء وهي مكسورة الأول، سميت بإصبهان بن نوح وهو الذي بناها، وقيل سميت إصبهان لأن إصبه بلسان الفرس: البلد، وهان: الفرس، معناه بلد الفرسان. وهي من بلاد فارس، ص: 43.

(2) في المدارك: حافظاً. في كلا الطبعتين.

(3) المدارك: فهما. في كلا الطبعتين.

(4) المدارك: وسائر المعارف.

(5) هذه الترجمة نفسها في المدارك.

قال: ثم انقضت هذه الطبقة بعد الخمسمائة سنة ولم يبق بالقيروان من له اعتناء بتاريخ لاستيلاء مفسدي الإعراب على إفريقية وتخريبها وإجلاء أهلها عنها إلى سائر بلاد المسلمين، وذهاب الشرائع بعدم من ينصرها من الملوك، إلى أن من الله على الناس بظهور دولة الموحّدين⁽¹⁾، فوضحت بها معالم الدين، وسُبل الحق، ورسوم الشرع، فظهر بظهورها بإفريقية العلماء والصلحاء وذلك في سنة الأخماس سنة خمس وخمسين وخمسمائة⁽²⁾ والله تعالى أعلم.

323 - ومنهم أبو زكرياء يحيى بن محمد بن زياد⁽³⁾ بن عوانة القرشي الفقيه الزاهد:

قال: كان رحمه الله أوحده أهل زمانه زُهداً، وعبادة، وورعاً، وتواضعاً، وسلامة صدر، وإخلاص في عبادة، كثير الاتباع للسنة وحفظ آداب الشريعة حتى كان يعد ألفاظه وألفاظه وحركاته من علمه، فيجتهد في إصلاحها وتثقينها على مقتضى الشرع، حدث عنه أنه كان لا يجلس مجلساً إلا وهو مستقبل القبلة، ولا يترك التيامن في عمل يعمل حتى في قتل الحبل وغيره، فإنه كان لا يفتله إلا على اليمين، حكى أن أبا يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني قال له يوماً: رأيت في المنام كان قائلاً يقول لي: الشيخ أبو زكرياء على السنة في كل شيء إلا في شيء واحد! فقال له الشيخ أبو زكرياء: هو كوني إذا سلّمت من الصلاة، لا أنحرف يميناً ولا شمالاً لأنني أكره أن أصرف وجهي عن القبلة! فقال له أبو يوسف: هو الذي قيل لي.

(1) عن الدولة الموحدية ومؤسسها المهدي بن تومرت المتوفى سنة 524هـ. انظر: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أحمد بن خالد الناصري: 2/ 78 - 264، الأنيس المطرب بروض القرطاس ص: 217 - 363، نظم الجمان لابن القطان كتاب مستقل.

(2) الوارد في القرطاس: «ثم دخلت سنة أربع وخمسين (أي 554هـ) في شهر جمادى الأولى منها فتحت تونس وخطب بها لأمر المؤمنين عبد المؤمن، وبعدها بيسير كان فتح المهدي بعد حصارها سبعة أشهر، وفيها فتح عبد المؤمن جميع بلاد إفريقية كلها ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق لها بها منازع. . . وقيل كان تملك عبد المؤمن بن علي المهدي وفتحها يوم عاشوراء من سنة خمس وخمسين» ص: 260، كذا في البيان المغرب ص: 216، والاستقصا ص: 139.

(3) له ترجمة جد مختصرة في شجرة النور الزكية 1/ 210 رقم 465.

قلت: يحمله على أنه كان إماماً بخلاف غيره.

قال: وكنت إذا نظرت إليه وإلى أحواله، كأنك تنظر إلى زُهَّادِ التَّابعين، لا يكادُ يَفْتُرُ لِسَانُهُ مِنْ ذِكْرِ، أو قراءة قُرْآن، أو تعليم عِلْم، أو أمر بمعروف، أو نهْي عن منكر، ولا يصنع شيئاً من الأشياء إلا وهو ذَاكِرٌ لِلَّهِ تعالى، طلب العلم واجتهد وسمع الحديث ورواه، [تدبر القيروان]⁽¹⁾ إلى أن مات بها، وكان من شدة تواضعه يسلم على الصبيان والإماء، ويبدأ كل من لقيه بالسلام، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يهاب أحداً في حق يقوله، ولا يترك شيئاً مما يجب عليه فعله، أو يندب إليه من أجل أحد، وكان يأمر الصبيان بإماطة الأذى عن الطريق، وكان كثير الإشفاق في أمور الآخرة، غافلاً عن أمور الدنيا، مُخْشَوْشاً في طعامه ولباسه، لا يأكل إلا الشعير، ولا يلبس إلا الخشن من الثياب. وأما وَرَعُهُ فكثير؛ كان يُناقِشُ نفسه في حَبَّةِ شعير إذا سقطت في طعامه حتى يُخْرِجَهَا، وكان يسير إلى منزله في الشرف فيحمل منه المباحات على ظهره فيتقوت بها، وكان كثير الصيام، فربما أفطر على عُشْبٍ ينبت في الجامع، ولقد كان انهرش له حائط في داره فمنعه الورع أن يرفعه من الأجر المنقول من خراب القيروان، وقال: لعل بعض أهله أو كلهم في الحياة، وكان مجاب الدعاء، وله كرامات كثيرة، منها ما أخبرنا به أبو عمران موسى بن عبد الله، بن محمد بن هارون القُرَشِي، قال: أخبرني أبي عن جَدِّي، عن محمد بن هارون، وكان مؤذناً بجامع عُقْبَةَ، قال: فتحت الصومعة لأذان الصبح فوجدت بها شيخاً يصلي، فلما سمع حسي خَفَّفَ في صَلَاتِهِ، ثم صعد إلى أعلا الصومعة فَتَبِعْتُهُ لأنني كنت أغلقها من الليل وليس بها أحد، فلما قربت منه مشى على الهواء فقلت له: بالله من تكون؟ وكررت القسم عليه، قال: أنا يحيى بن عوانة، فَأَكْتُمُ عني، فلما أذنت نزلت فوجدته قائماً يصلي عند المحراب، وأخبرني غير واحد أن الأبدال كانوا يأتونه فيخرج معهم إلى خارج البلد فقيل ذلك لوالي القيروان أبي الربيع سليمان بن سعيد، فأمر من يرصدهم إذا اجتمعوا به، فأعلموه باجتماعهم، فخرج إليهم فلما قرب منهم حجبا عنه وعن المتوكلين بهم، فجعلوا يطوفون بهم ويقولون هنا كانوا.

(1) كذا في الأصل، لأن كلمة «التدبر» بعيدة عن السياق. وفي ت مكان المعقوفتين ورد كلمة:

وحكى: الشيخ أبو سعيد خلف ابن أبي شيخ قال: أوصاني أبي عند موته أن أتولى الصلاة عليه، فقلت: نعم، فلما حضرت جنازته نظرت إلى الناس فإذا فيهم الشيخ أبو زكرياء يحيى بن عوانة فقلت له: يا سيدي تقدم فصل على أبي، فقال: لا! أذ الأمانة فتقدمت وصليت عليه، وأخبرني بعض شيوخ القيروان، قال: تخلف لنا ثور من البقر لم يصحب البقر في المرعى فصليت صلاة الصبح وراء الفقيه أبي زكرياء، وأتيت إلى باب البلد ففتح لي وركضت فرسي إلى مكان المرعى فوجدت أبا زكرياء يصلي. فقال لي: ما تريد؟ فأخبرته، فأشار إلى مكان فوجدت الثور فيه. وأخبرني الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت الصقلي، عمن حدثه من الثقات، عن الفقيه أبي زكرياء، قال: خَلَوْتُ يوماً في الجامع، وأغلقت على نفسي جميع أبوابه، وجعلت أتفكر في أمر فإذا برجل خرج من حائط الصومعة فتبعته وعلمت أنه ولي لله فقال لي: يا أبا زكرياء رأيتك وأنت تفكر في كذا، وكذا، فقلت له: أدع لي، فأخذ يدعو إلي فالتفت فلم أراه وما أدري حيث ذهب، انتفع الناس بعلمه وإرشاده، توفي في غرة رمضان سنة تسع وسبعين وخمسمائة ودفن بباب سلم وقبره معروف.

قلت: قال العواني وكان أبو عبد الله محمد والد أبي زكرياء يحيى هذا رجلاً صالحاً، متعبداً، ورعاً، مجتهداً، مُحْشَوْشاً في طعامه ولباسه، مُتَحَيِّزاً عن الناس، معتكفاً على قراءة كتب المواعظ، والرقائق، وأخبار الصالحين، حتى يكاد أنه صرف كل وقته في ذلك، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له: اشتغلت بكلام المخلوقين عن كلام الخالق، فانتبه مذعوراً فقال: لله علي أن لا أترك تلاوة القرآن ليلاً ولا نهاراً ما حييت، فعكف على تلاوة القرآن عما كان بسبيله من قراءة كتب الرقائق وألزم تلاوة القرآن، والنسك، والعبادة، إلى أن توفي وكان محبوباً لم يختلف اثنان في فضله، وكان الناس يَتَبَرَّكُونَ بِلِقَائِهِ ويقولون: إنه كان مُجَابِبَ الدعوة، أخبرني بذلك كله جدي عبد الملك، عن الشيخ العابد أبي يوسف الدهماني، قال: أخبرني بذلك شقيقي الفقيه أبو زكرياء يحيى بن محمد بن عوانة أن والده رأى هذه الرؤيا المذكورة، ويقال: إنه توفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

324 - ومنهم أبو الحجاج يوسف بن حسن المقرئ رحمه الله:

قال: كان من أهل العبادة، والزُّهْدِ، والنُّسْكِ، والصَّلاح، والتهجد، والصيام؛ وكان هجيراً أحياء المساجد الخراب، وعمارته بالصلاة والذكر، وزيارة

قبور الصالحين، وأخذ الورْدَ عندها، وكثيراً ما كان يحيي الليل صلاة بمقبرة البلوية وكان يسمى بالقبرواني «العابد»، وهو الذي عَمَّرَ مَسْجِدَ الأنصار بعد خرابه، وكان يؤم به أخبرني أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت الصقلي، عن أبي سعيد ابن أبي شيخ قال: كنا نجلس بمسجد الأنصار مع الشيخ أبي الحجاج، فربما دخلنا نتحدث بأمور الدنيا ونحن نتوهم أنه لا يستمع إلينا وهو مشغول بالذكر، فلما تفرقنا وقام مَنْ كان في المسجد قال لي: يا أبا سعيد لا تعطل أوقاتك في الفراغ أتدري كم قرأت منذ تحدثت كذا وكذا، ألف ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] قلت له: رأيتك كأنك تنظر إلينا وتشير برأسك فقال متمثلاً:

وَشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى مَا كَانَ مِنْكَ فَأَنْتُمْ شُغْلِي
وَأَدِيمُ نَحْوَ مُحَدَّثِي نَظْرِي إِنْ قَدْ فَهَمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

وأخبرني الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت الصقلي، عن الشيخ أبي علي دهمان بن موسى الزبيدي قال: كنت أصلي على الجنائز مع أبي الحجاج في البُرج الكبير الذي قُرِبَ باب تونس المحدث، فكنت معه يوماً فيه فنظرت إليه، فإذا به قد تغير لونه، وكان من عادته إذا ورد عليه وَارِدٌ يتغير وجهه. قال: ثم خرج فأبطأ فخرجت أطلبه فوجدته قائماً في الهواء وهو يخاطب رجلاً - فأما أبو الحجاج فرأته كله، وأما الذي معه فلم أرَ منه إِلَّا شَبْحُهُ وَظِلُّهُ في الحائط، فلما جاء الشيخ أخبرته بما رأيت فقال لي: ذلك الذي أراد الله أن ترى منه.

وأخبرني أبو زيد عن أبي علي دهمان، قال: أتيت إلى دار الشيخ أبي الحجاج في يوم الجمعة فلم أجده، فتكررتُ إليه مَرَّاتٍ كل ذلك لا أجده، فلما كان قرب الصلاة أتيتُ إلى الجامع فقصدت مَكَانَهُ الذي عادته يصلي فيه الجمعة فلم أجده فيه، فلما أقيمت الصلاة إذا به إلى الجانبي، فصليتُ الجمعة، فلما انقضت الصلاة سألته بالله وَأَلْحَحْتُ عليه في الْقَسَمِ ليخبرني أين كان؟ فقال: كَانَ بَعْضُ إِخْوَانِي بِرَغْوَانَ حضرته الوفاة اليوم، فسرت إليه حتى شهدت موته ودفنه، وجئت من فوري، فلما بلغت جنازته سمعت إقامة الصلاة، فبادرت، وبين جنازته والقبروان أميال. وأخبرني أيضاً عن أبي علي دهمان، قال: كان عند الشيخ أبي الحجاج ضَيْفٌ فدعوتهما إلى منزلي وقدمت لهما طعاماً فيه زيتٌ، فَأَكَلَا الطَّعَامَ ولم يَلِذَا بالزيت، فبقيتُ مُتَفَكِّراً في ذلك، وكنت لا أشتري الزيت إلا ممن أثقُ به، فلما كان من الغد

لقيتُ الذي اشتريْتُ منه الزيت فقال: لا تتصرف في ذلك الزيت، فقد ظهر لي أنه حرام! وَمَنَاقِبُهُ كثيرة. توفي رحمه الله قبل الثمانين وخمسمائة ودفن بإزاء البُهْلُول بن راشد بوصيته بذلك، وقبره معلوم رحمة الله عليه.

325 - ومنهم أبو سعيد خلف بن عوض بن عبد الله المعروف بابن أبي شيخ الزاهد:

قال: كان رحمه الله من أَكَابِرِ الفقراء المجردين، وأفاضل الزاهدين، نزيه النفس، حسن الخُلُق، كثير البَشَاشَةِ، بعيداً من الرِّيَاءِ والتصنع، زاهداً في الجاه، كَثِيرَ التواضع لا يكاد من تواضعه، يتميز عن غيره، وبلغ من زُهْدِهِ أنه كان لا يَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ، وإذا بات بلا عشاء ولا مصباح، يشتد فرحه ويكثر انبساطه، وكان شديد المبالغة في كَثَمِ الفَاقَةِ، وإن فتح له شيء يصرفه للفقراء، وكان واحداً منهم، وربما أخذ منه القوت، وأعطى الباقي، قال لي الحاج أبو سعيد خلف الضراب: دخلتُ المغرب وديار مصر، والشام، والحجاز، والعراق، ولقيت مشايخ هذه البلاد فما رأيتُ أزهد في الدنيا والرئاسة من أبي سعيد ابن أبي شيخ.

وحكى: أبو زيد عبد الرحمن بن ثابت الصقلي قال: كان الشيخ أبو سعيد جَاراً لنا، وكنا نَوَدُّ أن نُدْخِلَ عليه سُرُوراً وَرِفْقاً، وكانت بالقيروان مجاعة شديدة ونحن في غاية السَّعة، بحيث يحتاج إلينا جل أهل القيروان، وأبو سعيد في غاية الفاقة والضرورة، فما اطلعنا قط على حاله، بل كان يُظهر لنا الكِفَايَةَ لما يظهر عليه من البشر والسرور بحاله، وكان يعيش من المَبَاحَاتِ كالبقول، وبزورها ويوثر منها على المساكين، وما أظنه وجبت عليه زكاة الفطر قط، ولم يزل على فَاقَتِهِ حتى مات رحمه الله عليه، صحب الشيخ أبا زكرياء يحيى بن عوانة وأبا الحجاج يوسف بن حسون وانتفع بِصُحْبَتِهِمَا، وَحَجَّ على التوكل والتجريد، وله كرامات كثيرة واطلاعات منها ما حكى لي أن رجلاً من أهل القيروان يقال له: يَخْلُفُ بن ثابت، اشترى زيتاً من قفصة وَجَّهَهُ إلى القيروان، فلما كان في الطريق عرض للقافلة خوف شديد من العرب، فنذر هذا الرجل في نفسه: إن سلمه الله أن يعطي للشيخ أبي سعيد قفيزاً زيتاً من زق، وكان أبلق فيه زيت طيب، فذهب عنهم الخوف، فلما وصل إلى داره أخذ قفيزاً زيتاً من غير ذلك الزق وحمله إلى الشيخ فلما رآه قال له: أَلَيْسَ قد نويت أن يكون هذا الزيت من الزق الأبلق؟ فلم لم توفِ بندرك؟

وحكى: أن بعض أهل القيروان اكتال طعاماً في شكارة⁽¹⁾ على أن يدفعه للشيخ أبي سعيد، فجعله في بيت وقفل عليه واشتغل عنه، فبينما هو يسير ذات يوم، لقيه الشيخ فقال له: أين الطعام الذي جعلته في الشكارة برسمي؟ فقال له: نعم ودفعه إليه. وفضائله كثيرة عَمَّرَ عمراً طويلاً حتى أقعد، ومات رحمه الله بالقيروان سنة أربع عشرة وستمائة رحمة الله عليه.

326 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري المشهور بالدباغ:

قال: هو والدي رحمه الله، كان من كبار العباد، وأفاضل الزهاد، وأهل الجد والاجتهاد، كثير سُرِّد الصوم والصلاة بالليل والناس نيام، مع حزن دائم، وخوف مقلق، وكثرة نحيب وبكاء، وملازمة الجوع والعطش، ساح في البلدان، وخرج عن الأوطان ولقي العباد والبُدلاء والأوتاد. سمعت منه أنه قال: لقيت سبعين شيخاً من شيوخ القوم آخرهم أبو مدين شعيب بن موسى الأندلسي، وأبو عبد الله الهواري، كان مولده في حدود الأربعين وخمسمائة، فلما بلغ عشرين سنة أخذ في سلوك طريق الإرادة ومنهج العبادة، ولم يزل في الجد والاجتهاد حتى مات، ولقد رأيت يتهجد وهو قد ناهز الثمانين حتى يسقط من طول القيام ثم يعود إلى القيام حتى الصباح، وكان يبكي حتى تقرحت عيناه، وربما يَمُرُّ بالآية هي تهجده فيكررها إلى طائفة من الليل، وكان في أكثر شهور رمضان يسدّ عليه الباب فلا يأكل ولا يشرب حتى إلى يوم الفطر.

قلت: محمله على أنه تصلي معه زوجته أو هي مع غيرها بصلاته، وعلى إنما المراد بالباب باب الدار، ليكون معه فيها بئر يتوضأ منها وما يزيل عنه الحدث والله تعالى أعلم.

قال: وكان من أشد الناس صبراً على الجوع، وكان مع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على قلة أنصار الحق، وكان مع زهده في الدنيا أزهد الناس في الجاه وأكثرهم تواضعاً للصغير والكبير، كثير الصَّوْلَة على أهل الظلم ولا سيما الولاء ما داهن أحداً قط، ولا شاب عمله برياء، ولا ادخر مالاً، ولا سعى لطلب رئاسة، ولا أثر على الله أحداً من أهل ولا مال، وله مناقب

(1) شكارة: المحفظة.

كثيرة، وكرامات شهيرة، منها أنه مرَّ على ماجل القيروان وقد جَفَّ منه الماء والناس في عطش شديد فشَقَّ عليه ما الناس فيه، فلما كان بعد ذلك أتى الوادي وامتلاً الماغل، فخرج إليه الناسُ وخرج الشيخ، فرآه مملوءاً ماء والبرك تعوم فيه، فتفكر في ذلك مَلِيّاً ثم غاب عن حِسِّه فلم يشعر، وإذا الشيخ جالس في وسط الماء والناس ينظرون إليه، فتوهموا أنه سقط فبادروا إليه وأخرجوه فوجدوا ثيابه وقدميه لم يبلها ماء البتة، وهذه الحكاية يرويها جمهور أهل القيروان.

وأخبرني أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن المؤدب المعروف بابن شيخ الرباط وغيره من الثقات؛ أَنَّ الشيخ أبا عبد الله كان عندهم في الدار يخلو في غرفة وقد أغلقوا عليه الباب بقفل حَصِينٍ، فصنعوا ليلة سماعاً في أسفل الدار، وحضر فيه طائفة من الصالحين فلم يشعروا إلا والشيخ أبو عبد الله بينهم، فصعدوا إلى الغرفة فوجدوها مُقْفَلَةً كما كانت، وأخبرني الشيخ أبو الحسن بن علي بن يـُخلف اللواتي، أن الشيخ أبا عبد الله استدعى أبا القاسم المازري إلى مكان فقيل إنه رمد! فقال: لا بد من إتيانه فأتوا به يقودونه وعيناه كأنهما علقتان، فبصق الشيخ في عينيه فبرىء من ساعته وعاد إليه نور عينيه. وأخبرني والذي رحمه الله أن أُمِّي اشتهدت عليه وهي حامل بي القشاء في زمن الشتاء، فمشى إلى كدية عند باب الجلادين عادة الناس الجلوس عندها، فوجد فيها أصل قشاء فيه أربعة جروات من القشاء قد امتدوا طولاً.

وأخبرني أبو زيد عبد الرحمن بن سلامة البادسي قال: كنا عند الشيخ أبي عبد الله فاستأذنه قوال في أن يقول شيئاً، قال: فورد على الشيخ واردٌ حال فقام قائماً على قدميه، وكان قد أقعد قبل ذلك بمدة من الزمان وأخبرني أبو زيد أيضاً قال: قال لي الشيخ أبو عبد الله زرت يوماً: قبر الشيخ أبي الحسن القابسي فلما وضعتُ يدي على تربته، تعلق في يدي منها رائحة مسك أذفر بقي في يدي أياماً كثيرة حتى كنتُ أخفي يدي خوفاً من الناس أن يظنوا أنني طيّبت يدي، ومناقبه كثيرة وقد ألفت فيها جزءاً. توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان المكرم سنة ثمان عشرة وستمائة، وحضر جنازته عَالَمٌ من الناس قَلٌّ ما اجتمعوا على جنازة غيره في وقته، وكسروا نَعْشَهُ من كثرة ازدحامهم عليه، وأخذوا تُرَابَ قبره للاستشهاد به، ودفن بمقبرة باب تونس وقبره معلومٌ رحمه الله.

قلت: ظاهره أنه ارتضى أخذهم من تراب قبره، وسمعتُ أنَّ الشيخ الفقيه أبا القاسم العبدوسي الفاسي نزيل تونس، حكى عن والده الشيخ الفقيه ابن عمران موسى، أنه أفتى بجواز ذلك وبوضع اليد على القبر وبمسح وجهه بها على وجهه، والذي شاهدت شيخنا أبا محمد عبد الله الشيببي رحمه الله يفتي بأن ذلك بدعة، وكذلك تقبيل القبر وينهى عن جميع ذلك، وتبعه مفتياً بذلك شيخنا أبو الفضل البرزلي وبه أقول، وقد قال بعض أصحاب الشيخ أبي إسحاق الجبنياني: أتيت بحصيات من المسجد الحرام فقلت للشيخ أبي إسحاق: أتحب أن أعطيك شيئاً منها تسبح به؟ فقال لي: يا أحمق ارمِ بهنَّ فعلى أقل من هذا عبت الحجارة.

قال: وعرفت الشيخ أبا الحسن القابسي بقوله فأعجبه فقهه، واستشهد بقول مالك فيمن يخرج بحصباء المسجد الحرام في نعليه، إن كان قريباً من المسجد الحرام رَدَّها وإن كان بعيداً رمى بها، وما ذكر من كونه ألف في مناقبه جزءاً بحثت عليه غاية البحث، فلم أجده رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا وإياكم ببركاته.

327 - ومنهم أبو يوسف الدهماني:

قال: كان من أعلام طريق الإرادة وكبار مشايخه، وكان له في ابتداء أمره رياضة ومجاهدات وصدق معاملات، سمع الفقه على الشيخ أبي زكرياء بن عوانة ولازم مجلسه وانتفع به، وسمع الحديث على أبي محمد عبد الله بن حوط الله وغيره. ورحل إلى بجاية للقاء الشيخ أبي مدين شعيب بن موسى، ثم رحل إلى الحج سنة خمس وتسعين وخمسماية ولقي الشيخ أبا عبد الله القرشي رضي الله عنه وجماعة من شيوخ المتصوفين، واتفقت له مع الشيخ أبي عبد الله كرامات ينقلها جماعة من العلماء والصلحاء مثل أبي عبد الله القرطبي، وأبي العباس القسطلاني وغيرهم، وذلك أنَّ الشيخ أبا عبد الله القرشي كان قد هجر السماع وحضوره، فلما وصل الشيخ أبو يوسف رغب إليه في ذلك فأجابه إليه وصنع في منزله سماعاً لم يبق مشهور بمصر بالفضل إلا وحضره، فلما طاب السماع أخذ الشيخ أبا يوسف وأراد حال فارتفع⁽¹⁾ عن الأرض، حتى جلس على الهواء وهو مرتفع يطوف في زوايا البيت، قال أبو عبد الله القرطبي: كأني أنظر إلى بياض قدَمَيْهِ في الهواء، ثم قدم إلى القيروان

(1) في الأصل: فارتع. والصواب ما أثبتناه.

فنشر بها الميعاد وهدى الله على يديه أمماً كثيرة من الأعراب والبدو، فنقلهم من اكتساب الحرام والإضرار بالناس، إلى مُلَازِمَةِ الطَّاعَةِ والاشتغال بالعبادات.

وكان رحمه الله كثير الكرامات، والاستجابات، والكلام على الخواطر، والإخبار بالأُمُورِ الْمُغَيَّبَاتِ، روى أبو علي عمر بن عبد الله العالي قال: دخلتُ على الشيخ أبي يوسف يوماً فقال لي: كم عندك من الأولاد؟ فقلت له: ما عندي ولد، قال: تهيا فسيولدُ لك وَلَدٌ يكون اسمه إبراهيم، قال: فَوُلِدَ لي إبراهيم، فجئتُ إلى الشيخ فأعلمته فقال له: تهياً فسيولد لك إسحاق، فولد لي إسحاق. وحكى أيضاً أبو عفيف صالح بن حسن القرشي قال: دخلتُ إلى الشيخ فسألني عن حالي وعيالي فقلت له: عندي أربع بنات وليس عندي ذكر! فقال: وَلِمَ لَمْ تَعْلِمِي؟ فقلت له: أشكوه لك؟ فقال: صدقت، وَمَنْ هو أنا حتى تشكوه إليّ، ثم قال لي: سيولد لك وَلَدٌ ثُمَّ ثاني، وسكت ساعة ثم قال وثالث! فَوُلِدَ لي حسن، ومحمد، وبعد ذلك ولد لي ولد عاش أياماً ومات.

وَحُكِيَ عن الشيخ أبي سعيد ابن أبي شيخ قال: قصدتُ إلى المهدية لزيارة الشيخ أبي يوسف، فلما كنت في الطريق أصابني احتلامٌ في شدة البرد، فلم يمكن استعمال الماء، وَتَلَوْتُ مُرَقَّعَتِي، فصليت بالتَّيَمُّمِ، فلما دَقَّقْتُ البابَ على الشيخ أَخْرَجَ إِلَيَّ ثوباً وقال لي: البس هذا واطرح عنك المرقعة، ثم قال لزوجته: اصنع الماء الحار لأبي سعيد ليغتسل فإنه جُنُبٌ.

وحكى أبو العباس أحمد بن علي الفقيه المعروف بالقردموس قال: كنت بقصر الأجم، وكان هناك وَاِلٍ من قِبَلِ يحيى بن إسحاق الميُورُقي فظلم الناس، ثم امتدت يَدُهُ إلى الحرام وجاهر بذلك، قال: فلما وصلت إلى المهدية قصدتُ إلى الشيخ أبي يوسف فأعلمته بحال ذلك الوالي، وحال الناس معه، فقال لي: يا أحمد أنت عندي ثِقَّةٌ وَقَوْلُكَ مقبولٌ، فإن تحققتَ هذا منه فأعلمني فيني وبين الله عقد أن من جاهر بالمعاصي، وَهَتَكَ حُرُمَاتِ المسلمين إني لا أتركه، فقلت له: قد تحققت ما قلتُ لك، فقال: هذا في عنقك؟ فقلت له: نعم، فقال: قد كفيت أمره، ثم خرجت من عنده فتجهزت للسير إلى الأجم فإذا بالرجل المذكور قد وصل ومعه أعوان الميُورُقي فلما رأته رجعت لأنظر ما يكون من أمره فأمر به فضربت عنقه، ودخلت إلى الشيخ

لأعلمه فقال لي قبل أن أعلمه قد أهلك الله الفاجر متى وجدت من هذه حالته فأعلمني به.

وحكي أن الشيخ أبا يوسف لما وصل إلى الإسكندرية، لقي بها الشيخ الصالح أبا الوليد وكان من الأكابر فمرض الشيخ أبو يوسف، فدخل عليه أبو الوليد فقال له: أنت تموت من مرضك هذا، وأنا أصلي عليك وأدفنك! فقال له أبو يوسف: بل يعافيني الله تعالى من هذا المرض وتموت أنت فأصلي عليك وأدفنك، فبرئ الشيخ أبو يوسف، ومات أبو الوليد فصلى عليه الشيخ ودفنه، وأخبره في هذا النوع كثيرة أفردنا لها كتاباً على حدة، وقد تخرج من أصحابه طائفة إشتهروا بالصلاح والفضل.

قلت: هو مقدار ثلاثة أرباع رسالة الشيخ أبي محمد بن أبي زيد وها أنا أذكر بعض ما فيه من غير ترتيب لكلامه، قال فيه: ولد الشيخ أبو يوسف بالبادية بقرب قرية تسمى المسروقين من حوز القيروان، ونشأ بالبادية والقيروان وقرأ القرآن على أبي عبد الله محمد بن عمر بن جابر رحمه الله، وكان أحب أولاد أبيه إليه حكي عنه أنه قال: سمعتُ والدي يوماً يقول: إن من قال لأبيه: لا، دخل النار، فكان من حبه لي أن لا يصرفني في حاجة خوفاً أن أقول له لا، وقال لي منذ عقدت مع الله هذا العقد: لا أطلبك بحق هو لي لا في الدنيا ولا في الآخرة. وقال: يا رب ما لي على يعقوب ولدي من حق فهو عليه صدقة، وكان رحمه الله منذ مُرَاهَقَتِهِ البلوغ محافظاً على الصلاة، متنزهاً على الفواحش، وكان محباً في ركوب الخيل العتاق، وكان سبب انقطاعه عن العرب أنه قال سرْتُ مرة مع جماعة من بني عَمِّي من عمل القيروان إلى المهدية بنية الجهاد عند نزول الروم عليها في وقعة الجمعة المشهورة، وكان علي دِرْعٌ حَسَنٌ وأنا راكبٌ على فَرَسٍ أَذْهَمَ، فلقينا الشيخ الصالح الولي أبو زكرياء بن الإجماري فنظر إلينا ثم كرر إلي النظر دونهم ثم قبض على رِكَابِي وقال لي: ما اسمك يا فتى؟ فقلت له: يعقوب، فقال: إسأل الله يا فتى أن يفني شبابك في طاعة الله، فثار خاطري لذلك في الحين، وكأنما رَمَانِي بِسَهْمٍ، فخرجت من المهدية وأنا على خلاف ما كنت عليه، ثم وصلت إلى القيروان فتركْتُ رُكُوبَ الخيل، ومكاثرة أهلي، وانقطعتُ إلى عمارة مسجد كان هناك بقربنا، ثم قصدت إلى ميعاد الشيخ الصالح الزاهد الفقيه أبي زكرياء بن عَوَانة رحمه الله، ثم لم يزل ملازماً

لميعاده حتى تعلّم كثيراً من العلم ثم لازم الخير والخِدْمَةَ في المسجد، إلى أن وصل إلى القيروان الشيخ أبو عبد الله البسكري تلميذ أبي الفضل البسكري، وصحبه مدة وانتفع به، ثم ارتفعت أحواله وأخذه في المُجَاهَدَةِ، وسلوك سبيل الرياضة وصحب جماعة من كبار المشايخ وانتفع بِصُحْبَتِهِمْ.

ومن كراماته ما تقدم له في قضية السماع. وقيل لأبي عبد الله القُرشي لِمَ مَنَعْتَ السَّمَاعَ؟ قال: لِمَا فيه من المَقَاصِدِ لغيرِ اللَّهِ، ولما قدم الشيخ أبو يوسف سألَهُ الإِذْنَ فيه وحضوره معه، قال: هذا باب سددناه ومنعناه، فقال له: أنا قادم ولي عليكم كرامة القدوم، فأجابه إلى ذلك، فجعل مجلس سماع حضر فيه اثنا عشر رجلاً من الأكابر، وجمع من الطلبة والمحبين، فلما أخذوا في السماع، تَوَاجَدَ الشيخ أبو يوسف، وارتفع من موضعه في الهواء وقتاً، وقام الشيخ أبو عبد الله القُرشي على قدميه وكان زماناً مُقْعَداً منذ أعوام تقدمت، قال أبو عبد الله القرطبي: فجعلتُ أُمْدُ يَدَيَّ وأنا قائم على صدور قدمي، لعلي ألحق قدم الشيخ أبي يوسف وهو في الهواء فلم أستطع، فدار ذلك البيت جميعه ثم عاد إلى موضعه وأنا أنظر إلى بياض قدميه وهو في الهواء، فكان الشيخ أبو عبد الله يقول: تقولون ذهب الرجال؟ انظروا إلى هذا البدوي، وكان رحمه الله تعالى ركب بَحَرَ الْقُلُزْمِ من مصر إلى جَدَّةَ فَهَاجَ الْبَحْرُ وكان في السفينة طعام السلطان فأراد خدام السفينة أن يلقوا بعض المغاربة ليسلم طعام السلطان فقال لهم الشيخ: اتقوا الله تغرقون المسلمين من أجل الطعام؟ فقالوا نخاف عقوبة السلطان! فقال لهم: ارموا القمح فما نقص منه فعلي ضمانه فقيض الله رجلاً من الغز كان في المركب مع الشيخ فأخذ سيفاً وقال: إن لم تفعلوا ما قال لكم، وإلا قتلت منكم ما أقدرُ عليه، فاتفقوا على أن يكتبوا على الشيخ وثيقة وأشهدوا عليه بذلك، ثم رموا ما أمكنهم، ولطف الله بسلامة المسلمين، فلما وصلوا إلى جَدَّةَ ثقف خدام السلطان خدام السفينة وقالوا: من أين لهذا المغربي ما يؤدي منه؟ ثم أحضروه فقال لهم: تعالوا إلى المركب وكيلا طعامكم، فما نقص فعلي، فساروا وقال كيلا بسم الله الرحمن الرحيم فكالوا جميع طعامهم من الذي بقي، ولم ينقص شيء، هكذا حدثني جَمْعٌ من الفقهاء.

وحدثني بعضهم أنه طلبوا الشيخ، وجدوه مقابلاً للبحر جالساً على ساحله والأمواج تأتي بالقمح شيئاً بعد شيء، حتى كيل لهم جميع ما طلبوه، ثم طلبوا

الشيخ بعد ذلك فلم يجدوه وأهله بجدة إلا بعرفات، وحدثني الحاج أبو بكر بن سليمان ابن القابلة قال: حدثني أحمد بن أبي شواط عن أحمد بن فضل الله قال: دخلت يوماً على الشيخ أبي يوسف وهو بدار قبر الشيخ أبي عمران الفاسي، فوجدته يقرأ في الكتب، وإذا شيخ عليه ثياب خضر وهو جالس على القبر، فلما جلستُ رفع الشيخ رأسه وأطبق الكتب وقال: يا أحمد هل رأيت شيئاً؟ فقلت: نعم، رأيت الفقيه أبا عمران جالساً، فقال: أكرم عليّ يا ولدي ما دمت حياً.

قلت: انظر توجيه هذا بعد في ذكر كرامات الشيخ صالح الصدي.

قال: وأتى فقير إلى زيارة الشيخ أبي مروان المعروف بالنجصلي بمدينة قوبل، فَوَجَدَهُ يصيد الحوت فقال له بعد أن لم عليه وجلس: يا شيخ هكذا تصيد الحوت بسنارة؟ فقال له: يا بني هو ما رأيت، فقال له: لله رجال لو أرادوا هذا الماء حوتاً لكان كذلك، وجعل الفقير يده مراراً في الماء ورمى الحوت على الشط، فلما فعل ذلك قال له الشيخ أبو مروان: وَلِلَّهِ رِجَالٌ لو أرادوا أن يرجع هذا الرمل ذهباً لرجع، وضرب بيده فإذا هو ذهب يَلْمَعُ، ولكن استر علي هذا بهذا، ثم سار الفقير فاجتاز بغیضة في سفره، فإذا برجل راكب على سبع، فقال له: ادن؟ فقال له: ما عندي قوة أدنو بها إليك، ثم لم أره ثم أتيت القيروان فزرتُ بها الشيخ أبا يوسف، فلما دخلتُ عليه قال لي على البديهة: لتهنك الكرامات التي رأيت لله رجال يغرفون الحوت من البحر، والله رجال يقبضون الدنانير من الرمل، والله رجال يركبون السباع، وغير ذلك؛ والله رجال أخذوا هذه الأشياء كُلَّهَا وَطَوَّوْهَا وجلسوا عليها ولم يعرف أحد ما جلسوا عليه.

وقال أبو زكرياء بن هناض: كنتُ عند الشيخ برباط شقانص فرفعتُ مرة قلة بالماء على رأسي، فلما دخلتُ بها من باب القصر احتشمت وقلتُ في نفسي: ادخل هكذا والناس جلوس، وكان الشيخُ يمشي أمامي فعندما خطر لي ذلك انتهرني وقال: امش، كل ما على التراب تراب: واستلقى مرة على قفاه وغاب كأنه ليس بحاضر، فأقسمتُ عليه زوجته أم عمر ليخبرنها، فقال: انخرق لي هذا الحائط فشاهدت الكعبة والأبدال يطوفون بها، فهو الذي أشغلني عنكم، وعمى في آخر عمره، وكان إذا أخذ المصحف نظر فيه وكان يقول: البطل من أصحابي بسبعة آلاف، والذي حصل في الزمان ويكونون تحت اللواء إن شاء الله اثنا عشر ألف.

وقال أبو علي القُورِي: زرت الشيخ أبا يوسف مرة مع أصحاب لي فقال الشيخ: فَصَلُّوا ثَوْباً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا فِينَا مِنْ يَفْصَلٍ وَلَا يَخِيطُ، فَقَالَ يَفْصَلُهُ عَبْدُ الْكَرِيمِ وَيَخِيطُهُ، فَفَصَلَّهُ فِي الْوَقْتِ وَخَاطَهُ مَا تَقَدَّمَتْ لَهُ بِذَلِكَ عَادَةٌ قَطُّ، وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْكَرِيمِ هَذَا: سَافَرْنَا مَعَ الشَّيْخِ مَرَّةً فَاجْتَرْنَا بِقَصْرِ الْكِنَائِسِ فَصَنَعُوا لِلْفُقَرَاءِ طَعَاماً كَثِيراً فَأَكَلُوا وَكُنْتُ لَا أَتَنَاوَلُ بِالنَّهَارِ، ثُمَّ سَرْنَا وَكُنْتُ فِي آخِرِ الرَّفْقَةِ فَلَحَقَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَوْضِعِ وَمَعَهُ إِنَاءٌ فِيهِ شَهْدٌ، وَقَالَ لِي: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ إِلَّا مَا حَمَلْتَهُ حَتَّى تَفْطِرَ مِنْهُ، فَأَخَذْتَهُ مِنْهُ وَجَعَلْتَهُ تَحْتَ ثِيَابِي وَسَرْتُ، وَكَانَ الشَّيْخُ أَمَامَنَا عَنْ بُعْدٍ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ إِذَا مَشَى فِي الطَّرِيقِ يَسْرِعُ وَلَا يَلْتَفِتُ، فَوَقَفَ كَشْفاً مِنْهُ وَقَالَ: أَيْنَ عَبْدُ الْكَرِيمِ؟ فَنُودِيَتْ وَتَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَرْفَعُ شَيْئاً تَحْدِثُكَ نَفْسُكَ، إِنَّكَ تَفْطِرُ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ؟ وَمَنْ لَكَ أَنْكَ تَعِيسُ؟ أَخْرَجَ الَّذِي تَحْتِكَ، فَلَمَّا وَصَلْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ الْمَعْرُوفِ بِمَسْجِدِ ابْنِ غَانِمٍ فَتَحَ اللَّهُ بِشَهِدٍ كَثِيرٍ، فَعَمِلَ فِي حَفْنَةٍ كَبِيرَةٍ وَدَعَانِي فَأَخَذَ بِرَأْسِي وَقَالَ: تَرِيدُ أَنْ أَغْطِسَ السَّاعَةَ رَأْسُكَ فِيهِ! أَرَدْتُ أَنْ تَخْبِيَ إِلَى اللَّيْلِ وَالْخَلْفِ مِنَ اللَّهِ مُوْجُودٍ؟

وقال الشيخ أبو يوسف مُنْكَرَراً عَلَى أَنَاسٍ مَا يَعْرِفُنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، إِنَّمَا كَانَ يَعْرِفُنِي أَخِي أَبُو عَلِيٍّ النَّفْطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ الَّذِي أَتَى عِنْدِي مَرَّةً فَأَرَدْتُ إِقَامَتَهُ وَأَرَادَ السَّفَرَ، فَكَانَ بِنَفْسِهِ يَخْرُجُ خَارِجَ الْبَلَدِ يَطْلُبُ الرَّفْقَةَ فَلَمْ يَجِدْ، فَمَكَثَ قَرِبَ خَمْسَةِ عَشْرِ يَوْماً، فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ تَفْطَنَ وَقَالَ لِي: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ أَتَرْكُنِي أَمْشِي، فَقُلْتُ لَهُ: وَعَوْلْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُ: أَصْلِحْ حَوَائِجَكَ وَأَخْرَجْ خَارِجَ الْبَلَدِ تَجِدُ الرَّفْقَةَ السَّاعَةَ تَأْتِي تَمْشِي مَعَهَا، فَخَرَجْنَا فِي الْوَقْتِ فَإِذَا بِعَسْكَرٍ مُقْبِلٍ إِلَى جِهَةِ سَفَرِهِ، فَمَشَى مَعَ الْعَلَامَاتِ وَالْخَيْلِ آمِناً مَطْمَئِناً، فَكَانَ بَيْنَهُمَا مَحَبَّةٌ وَاحْتِرَامٌ وَتَرَاسُلٌ وَاتِّحَادٌ كَبِيراً، وَقَالَ الشَّيْخُ: كُنْتُ أَتَمْنَى أَنْ يَجْمَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ مَدَّةً فِي مَوْضِعٍ فَقَدَرْتُ أَنْ مَكُنَّا فِي خَبَاءٍ قَرِبَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي سَنَةِ فَتَحَ مَدِينَةَ تُونِسَ حَتَّى فَتَحَتْ فَدَخَلْنَا وَكُنَّا فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي حَقِّنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَطَفَ اللَّهُ بِالْحَالِ وَكَانَ كَذَلِكَ، فَلَمَّا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ قَالَ لِي: رَأَيْتَ فَيْكَ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ تَمْتَخُطُ، وَلَا تَتَشَاءَبُ، وَلَا تَتَمَطَّى، وَلَا تَحْتَلِمُ، فَقُلْتُ لَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ لَكَ نِعَمًا كُنْتَ غَافِلاً عَنِ الشُّكْرِ عَلَيْهَا، وَقَالَتْ أُمُّ عَمْرِو بْنِ زَوْجِ الشَّيْخِ أَبِي يُوسُفَ: لَمَّا أَتَى إِلَيْهِ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ النَّفْطِيُّ أَدْخَلَهُ

البيت ثم قال له الآن: ما مات سيدي ما دمت حيًا، وأمر بغلق الباب وجعل يقول: اصلح الباب حصل الريم خلف الحجاب. وقال أبو علي لما أراد توديعه ما ثم فرقه إنما نحن واحد، ثم عطف عليه وتأوّه وأنشأ يقول:

يا هند إني قد وهبْتُكَ مُهْجَتِي فَنَعِيمُهَا وَعَذَابُهَا سَيَّانِ
كنا نخافُكُمْ، وَنَخْشَى هَجْرُكُمْ أيام فرقتنا ونحنُ اثنانِ
فاليوم روح واحد لا غيره اكرم بروح ضَمَّهَا جَسَدَانِ

ولما توفي الشيخ أبو علي قال الشيخ أبو يوسف يعقوب: نوحى أخلى الديار، وأيتم الصغار، ولا بد أن آخذ بشار أخي أبي علي النفطي! فذكر أن ابن النخيلي سقاه السَّم فكان من ابن النخيلي ما كان قبل موت الشيخ رضي الله عنه، وكان للشيخ أيضاً ضُحبة طويلة، واجتماع مع الشيخ أبي محمد المهدوي بزويلة، وبالمهدية، وغير ذلك كثيراً، ولم يزل بينهما التوادد، والتراسل، من تونس إلى القيروان وغير ذلك حتى توفي رحمة الله عليهما. وكان سفر الشيخ أبي يوسف إلى المشرق بعد أن أتى من عند الشيخ أبي مدين، فسافر من المهدية في البحر بعد عيد الفطر، فَصَلُّوا الجمعة التي سافروا فيها بالإسكندرية، ولحق الرفقة بولده وأهله، فلما جلس مع الأشياخ بمكة، أخبرهم بأخذ ابن عبد الكريم المهدية، فقالوا له: وأصحابنا أتوا وما أخبروا بشيء من ذلك، أتيت على الأرض أو على غيرها؟ قال: ذلك صحيح وأتيت من المهدية بعد عيد الفطر بالأهل والولد فتعجبوا من ذلك، وكان ترك أهله وولده بِجَدَّةَ حين فرّ من الناس لما قيّض الله سلامة المسلمين، ووفى الطعام على يديه وإظهار برسته رضي الله عنه.

ورأت مريم أم يحيى بالمنية من نظر صفاقس في منامها قائلاً يقول لها: سرّ إلى الشيخ أبي زكرياء المعروف بابن هناصر بالمهدية، وبإيعيه قالت: فاستيقظت واستعدت بالله من الشيطان الرجيم ونمت، فعاد إلي ثانية وثالثة وقال لي في الثالثة: ما أنا شيطان، وإنما أنا مَلَكٌ! قالت: فسرت من بلدي إلى المهدية في طلب من ذكر لي، فلما دخلت البلد بقيت حائرة أتوهم من أسأله يدلني على موضعه، فبينما أنا كذلك، إذ فتح باب دار فخرج رجل عليه ثوب وعلى رأسه قلنسوة دون عمة فقال لي - على البديهة - أهلاً ومرحباً بالمرابطة مريم على عدد ما مشيت من منزلك إلى هنا، والذي يخاطبك هو يعقوب الدهماني، والذي خطبت به في منزلك هو عندي

في منزلي، قالت فبقيت متعجبة لكشفه ما خوطبت به في بلدي في منامي ومخاطبته لي باسمي من غير سابق معرفة، فدخلت الدار فوجدت بها زوجة أم يوسف ولم يكن عنده إذ ذاك غيرها، ووجدت الشيخ أبا زكرياء عنده في خدمته وحسبك ما خاطبك به أول ما رأيك وكاشفك بما رأيته في المنام، وعن السؤال أغناك، فقالت: فالزمت نفسي لطاعته من ذلك الزمان إلى الآن، وكان عندها للشيخ أبي يوسف زيادة تعظيم، وهيبة، واحترام، لا ينحصر طول حياته وبعد مماته، وكان لها قرب التسعين أو الثمانين، فكانت لا تجلس دون لحاف ولا تستطيع رفع الكلام عنده ولا النظر إليه، ولا تقرب منه هيبة واحتراماً.

ومرض الشيخ أبو يوسف مرضاً شديداً حتى نُقِلَ أَنَّهُ قد مات، فلما بلغ إليها الخبر، دهشت وأقعدت وسكنت دهرأ لا تستطيع القيام، فلما برىء الشيخ من ذلك المرض وهو الذي قال فيه: بُشِّرْتُ بولدين يزدادان لي وأعيش اثني عشر عاماً فكان كذلك. فلما سمع الشيخ بخبرها سافر سفرة، فلما قرب من موضعها قال: لا يُخبرها أحدٌ بي، حتى أدخل المنزل، فلما دخل قيل لها: الشيخ طالع إليك! فقامت من زمانتها في ساعتها وتلقته خارج باب البيت، وقالت: يا شيخ قيل لي: إنك ميّت فدخلت علي حسرة، فقال لها: يا مريم ولا شيء يحيي ويميت [إلا الله]^(*) فكان لها في الشيخ قصد عظيم، ونية حسنة، واتحاد محبة وفِرَاسَة.

وقال بعضهم: نزل الشيخ عندنا مرّةً بالقَصْرِ، وكنت بالقصر الآخر، فسرت إليه وقلت في نفسي: تَمَنَيْتُ لو أطعمني الشيخ ثلاث لُقَمٍ بيده في فمي! فلما دخلت عليه وجدته في جماعة يتناولون طعاماً، والمرابطة مريم جالسة، فلما رأني قالت للشيخ: ادفع لصاحب الأمانة ما طلب، فأعطاني ثلاث لقم كما خطر في سري. فتعجبت من مطابقتها في ذلك رضي الله عنهما.

ومن كراماتها⁽¹⁾ حدث به بعضهم قال: كنا ليلة عند المُرَابِطَةِ في البيت، فضربت بيدها، فبقينا ننظر فقالت: محمد البرزلي أتى إليّ من قصر زياد والأسد بالجابية أخشى أن يروّعه! وإلا ما يرى منه بأساً! ثم سكنت ساعة وقالت: قوموا

(*) زيادة من الكتاب المحقق ليتم السياق ويصح المعنى وهو ساقط من: ط و ت.

(1) في ط: ومن كرامتهما، والصواب ما أثبتناه من: ت.

افتحوا له الباب، فقمنا وفتحنا له الباب، فوجدناه قرب الباب آت⁽¹⁾، ونظرنا إلى الأسد بالموضع الذي ذكرت لم يتحرك، وقال بعض أصحابنا: خرجت من المهدية ومعني شيء السرجس برسمها، فلما وصلت الغيضة، وحان الليل سمعت خلفي حساً فإذا وقفتُ اتَّحَسَّسُ إليه ينقطع عني، فلم أزل كذلك حتى وصلت، ولا رأيت شيئاً، فلما ضربت الباب وفتح لي، أخرجت رأسها من الطَّاقِ وقلت له: قد وصل! وصل! فقلت لها مَنْ هو؟ قالت الأسد كان خلفك يشيعك فنظرت فإذا هو كما ذكرت، وكانت أم يحيى هذه من خواص الشيخ الأول، وكان يقول أصحابي الأول دخلوا من الباب الذي دخلت منه، حصل لهم مثل ما حصل لي وزيادة.

وحدثني أبو محمد بشر الرياحي قال: كان الشيخ يُخبرنا بعلم كل شيء، ويخاطبنا بما يخطر في سرارنا، وكان يفهم حتى منطق الطير، ولقد كان جالساً يوماً مع الفقراء وبهم فاقة وضرورة فنعم غراباً فأنصت له، ثم زاد فأنصت له، ثم نَعَقَ الثالثة فقال الشيخ: ما أنتم إلا في فاقة، ولكن تأتيكم الدنيا الساعة، فقد أخبر الغراب بذلك! فجاء من الفتوح في الوقت ما كفى الجميع. وحدثني أيضاً قال: كنا مع الشيخ في سفر، فنعم غراباً على حائط خراب، فوقف الشيخ وأنصت، فقلت له: ما هذا يا سيدي؟ فقال قال لي: ما تلقون إن شاء الله إلا الخير، ثم نعم الثانية، فأنصت الشيخ وقال: قال إبراهيم ولدي يكون خطيباً، فكان الأمر كذلك. وحدثني الفقيه أبو عبد الله محمد بن دلف قال: قلت للشيخ لعلك تنظر لولدك إبراهيم في الخطابة؟ فإنه حقيق بها، إذ هي خطة أهل الخير والدين، فقال لي: إن قدر الله بشيء فسوف يكون، وأخبرك أنه كان بقابس، فكنت إذا كاتبته بشيء يجري الله على لساني: إبراهيم الخطيب من قبل هذا! وقد أوقفني إبراهيم ولد الشيخ علي كتب بخط الشيخ له، وعلى عنوانه أبو إسحاق الخطيب، وتاريخ الكتاب فيما ذكر لي قبل أن يكون خطيباً، فقدر الله، وكان خطيباً بجامع القبروان مدة طويلة.

وحدثني معمر الخولاني قال: كانت لي زوجة سيئة الخلق في معاشرتها لي، ولا توافقي على الصلاة، ولا خدمة الصالحين، فأعلمت بذلك الشيخ فقال لي: يا معمر اصبر حتى يموت رضوان فتأخذ زوجته، وكنت واطناً بالمهدية ورضوان هذا

(1) في الأصل وردت كلمة (كذا) أمام كلمة: «آت»، ولم ترد في: ت.

بالقيروان صحيح، ثم بعد عامين، سِرْتُ إلى القيروان فوجدتُ رضوان قد توفي فتزوجت زوجته بعينها. ولم أتزوج عليها إلى الآن نحو الثلاثين سنة. وحدثني أبو زيد عبد الرحمن المأموني قال: لما حججت وبلغت الإسكندرية ماتت رواحلي، وبقيت بالإسكندرية، فبلغ أهلي أنني ميتٌ فجزعوا من ذلك جزعاً شديداً، فقصد أخي إلى الشيخ أبي يوسف بالقيروان، فلما وقع بصره عليه قال له الشيخ: ذكروا أن أخاك عبد الرحمن قد مات؟ فقال له نعم، فقال الشيخ: يوم الجمعة من هذا الأسبوع، تجتمع مع أخيك إن شاء الله؛ ثم إن الشيخ رجع على نفسه باللوم والعتاب وهو يقول: يعقوب يتكلم على الغيب مرتين، ثم سكت وهو منكس رأسه، فاجتمعت مع أخي يوم الجمعة كما قال الشيخ.

وحدثني أبو علي الكسراوي قال: أردت أن أتزوج فاتفق رأي جماعة من الصالحين على امرأة، فشاورت الشيخ فيها فسكت عني، ثم غلب علي الطلب في المرأة فأخبرت الشيخ فقال لي: اتفق رأيهم على تلك المرأة، فما رأيك أنت؟ قلت: ما تأمرني به؟ قال: ليست لك بزوجة، ولو دخلت عليها وبقيت عندك عشرة أعوام، وقد زوجتك طفلة هي الآن تلعب! فقدّر الله أن دخلت بتلك الزوجة فلم أجد من نفسي قوة على النكاح، فبقيت عندي كذلك سنة وستة أشهر واثنى عشر يوماً، ثم إنني فارقتها وهي بِكْرٌ وتزوجت بعد ذلك ابنة عمي وكانت في تلك المدة طفلة وولدت لي منها الأولاد وهي عندي إلى الآن.

وحدثني أبو عيسى زيد الدهماني قال: كنت مع الشيخ فسلم عليه رجل عرفه وَقَبَلَ يده وسأله في الدعاء، فلما انصرف الرجل قال الشيخ: هذا الرجل هو الذي يتزوج زوجتي نعيمة بنت أبي زكرياء بن هناصر بعدي! فلما مات الشيخ تزوجها ذلك الرجل.

وحدثني الواعظ أبو القاسم البجائي قال: كنت بالقيروان فصنعت امرأتي طعاماً بعسل فلما قدمته بين يدي قالت: تمنيت أن لو أكل منه سيدي أبو يوسف، فقلت لها: صار لنا أبو يوسف طفلاً ندعوه في كل وقت، وسكتُ قليلاً ولم آكل، ففرع الباب فقلت: مَنْ هذا؟ قال: يعقوب. قال: فقميت إليه وبادرت الزوجة الحجاب، ورفعت الطعام، فدخل الشيخ وجلس، ثم قال: وأين ما دعوتموني إليه؟ فقلت: ها هو حاضر، وأتيته به، فنظر إليه ورفع لقمة ووضعها وقال لي: امرأتك

أرادت أن آكل من هذا الطعام، ويعقوب أيضاً يريد من يأكل معه، ثم نَقَرَ بأصبعه إلى الأرض وقال: يَا بَرَكَه، ثم نَقَرَ ثانية وقال: يَا بَرَكَه، ثم نَقَرَ ثالثة يا بركة تأتي لدار الواعظ، فما كان إلا قليلاً حتى قرع الباب، ودخلت علينا بركة، وكانت عجوزاً صالحة فقال لها الشيخ: أما سمعت من أول مرة فقالت: يا سيدي سمعت الأولى، والثانية، ولم أعرف إلى أين آتي، إلى أن سمعت في الثالثة دار الواعظ فجئت، ثم أمر بتقديم الطعام، فلما رأيته قالت: يا سيدي لي مدة أشتهي هذا الطعام بعينه، فقال: نعم، كلي، هكذا أردنا.

وحدثني الحاج أبو بكر بن سليمان المعروف بابن القابلة قال: حججت سنة 624 فبينما أنا بالحرم، وإذا بشيخ فسألني عن بلدي؟ فأخبرته أنني من القبروان، فقال لي: من ترك الشيخ أبو يوسف في مكانه؟ فقلت له: نَظُنُّ في ولده إبراهيم خيراً وهو الآن في هذا المركب، فقال لي: صدقت، ما ثم في أولاده إلا هو، ثم قال: يا ولدي كنتم عُمَيَّاناً عنه، فما عرفتموه حتى مات، كان يُصَلِّي المغرب عندكم بالقبروان، والعشاء عندنا بمكة، ويوم مات صَلَّيْنَا عليه بالحرم! وأقيمت بعد ذلك بمكة ثلاثة أشهر فما رأيت ذلك الشيخ من تلك الساعة ولا سمعت له خبراً وأظنه من الأبدال.

وحدثني جماعة من الفقهاء؛ أن الشَّيْخَ مَرَّ يوماً بقصر الكنائس فوصلوا إليه يسلمون عليه، ويشكون ما أصابهم من القحط والجذب وضعف أحوال الناس والبهائم، فَرَقَّ الشَّيْخُ لِشَكْوَاهُمْ حتى بَكَى رَحْمَةً لَهُمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ. وجرت دموعه، قال: فَأَغَاثَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بالمطر الوابل، فقال الشيخ عند ذلك: «لله رجال إذا بَكُوا بَكَتِ السَّمَاءُ لِيُكَائِهِمْ مُوَافَقَةً لَهُمْ».

وحدثني أبو علي فَضْلُ الصَّفَاقِسِيِّ قال: عطشتُ ليلةً عطشاً شديداً، ولم أجد ماءً، ولم أَطِقْ صَبْرًا، فَأَخَذْتُ الْإِنَاءَ ومددت يدي، وقلتُ: يا رب بحرمة سيدي أبي يوسف إلا ما أسقيتني السَّاعَةَ والسماء مصحية، والنجوم تزهر، ويدي ممدودة بالإناء ثم غلب علي غالب حال غيبي عن حِسِّي، فما أدخلت يدي إلا وقبض الله بمطر غزير في الوقت، فوجدتُ المَاجِلَ قد امتلأ حتى رفع الغطاء.

وحدثني أبو زكرياء يحيى بن وتران المزاتي، قال: أخبرني محمد بن سلطان القلاني، قال: كان رجلٌ من العرب يقال له: أبو عَثُورٌ، وكان كثير الفساد، والإذابة

لأهل مكاننا ولغيرنا، وكان له جَاءُ عند أهل سُوسَة، فقال له أهل البلد: لعلك تسيرُ إلى الشيخ يكتُبُ لك كتاباً إلى صاحب سُوسَة لعلَّ الله يكفَّ به عنا ظلم هذا العربي، فلما وصلت إلى القيروان سرْتُ إلى الشيخ أبي يوسف، فلما قرعتُ الباب سمعت الشيخ يقول من قبل أن أتكلم: هذا السلطان⁽¹⁾؟ فقلت نعم، فلما دخلت عليه سألتني عن شأني فأخبرته، فقال لي: يا ولدي ما كتبت لأحدٍ من الوُلاة سَوَاداً في بياض قط، ولكن قد كفيتم مؤونة ذلك الظالم! فبقيت مُتَحَيِّراً في أمري، ولم أَجَسِرُ أن أَرَا جَعَ الشيخ، ثم خرجت من الفور راجعاً إلى أهلي، فلما بلغت المكان بلغني أن العربي المذكور ضُرِبَ في ذلك اليوم برمح مات منه، ضَرَبَهُ به ابن عمِّ له وكفانا الله شَرَّهُ.

وحدثني أبو زكرياء يحيى بن فتوح التوزري قال: قدمت على الشيخ زائراً ومعي أبو علي حسن اللَّمَّطِي، فقال له الشيخ: يا أبا علي بلغني أن في بلدك رجلين يتكلمان فيه، ويقصدانك بالأذى؟ فقلنا له نعم، فقال الشيخ: دعهما أنا أرمي عليهما الشباك من القيروان إن شاء الله تعالى، ثم سكت وَسِرْنَا إلى مَضْجَعِنَا فنزل بَلْطَةَ شَيْطِي لِلنُّصْرَى، فخرج الناسُ جميعاً إليه فضرب أحد الرجلين بسهم فمات منه، وضرب الآخر بحجر على فيه فتهشمت أسنانه، فكان بعد ذلك يخدم أبا علي ويكرمه.

وحدثني أبو علي فضل الصفاقسي قال: كنا بزويلة جلوساً مع الشيخ في مسجد ورجلٌ جندي ينظرُ إلينا من كُوَّةٍ في المسجد، ثم إنَّهُ سار وعاد ينظرُ ثم مضى، وقام الشيخُ وقمنا معه فلما جلس في الدار ساعة دعى بفقير كان عنده فقال له: يا سليمان سر إلى المسجد الذي كنا فيه، وانظر حصره، فمضى الفقير ثم عاد وقال: يا سيدي ما فيه حصر، فبعد ساعة طويلة سمعنا منادياً ينادي على رأسٍ مقطوع: هذا جزاء من فعل كذا فَأَخْرَجَ الشيخُ رَأْسَهُ مِنْ طَاقٍ في الدار، فنظر وقال: هَذَا رَأْسُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الذي كان ينظر إلينا في المسجد، فلما خرجنا أخذ حصر المسجد يشرب عليها أصحابه الخمر ففعل الله به هذا، وتولى الشيخُ أبو يوسف القطابة. حدث الشيخ حزام المدفون بالمرسى قرب مدينة تونس. قال: لما زار الشيخ أبو يوسف، والشيخ

(1) في المحقق: هذا ابن السلطان؟ 226/3 وهو خلاف ما في: ط و ت.

أبو محمد عبد العزيز أبا مَدَيْنَ بِبَجَايَةَ، قال لبعض أصحابهما: احتفظوا بهذين الشيخين، فإنهما تكون لهما القَطَابَةُ سبعة أعوام! فقلت له: يا سيدي لهما شُرْكَةٌ، قال: تكون للأول، فإذا مات يبقى الأمر بعده مقدار ما تخلف بعده، فتوفي الشيخ أبو يوسف بالمحرم من سنة إحدى وعشرين وستمائة وتوفي الشيخ أبو محمد في شهر رجب من ذلك العام.

قلت: ودخل أبو عبد الله السقطي على الشيخ أبي يوسف بتونس، وكنا معه فقال له بعد كلام: يا سيدي أين يكون القُطْبُ؟ قال: يا محمد، وتَسأل أنت عن القُطْبِ؟ لأي شيء تدخل نفسك في هذا؟ ثم قال له: القُطْبُ يكون بمكة، القُطْبُ له عِيَالٌ وَأَوْلَادٌ، ويكون معك يأكل ويشرب! فأخذ السقطي عند ذلك حال شديد بغيبة وانزعاج وتواجد كثير وقت، وسكن أبو يوسف برباط شقانس بالقيروان، ولما مرض الشيخ بعد انقضاء المدة المذكورة، واشتدَّ به الأمر، أراد أولاده دفنه في بعض دُورِهِمْ، أو بقرب قبر الشيخ أبي بكر بن اللباد عند أخيه، وبعض أولاده هناك، ولم يذكر لهم هو شيئاً إلى أن قدر الله أن بعض الصلحاء رأى رؤيا فأتى إليه، وقال: يا سيدي رأيت النبي ﷺ أتى إلى قبر الشيخ، أبي الحسن القابسي وركع ركعتين، ثم سار مستقبلاً إلى طرف المقبرة يعني موضع قبر الشيخ الآن فتوضأ وأنا أصب عليه الماء للوضوء وهو يدلك ذراعيه ويدير الماء بمرفقيه كأنه يعلمني، فلما أكمل الوضوء، قام وصلى ركعتين، ثم انتبهت وقد بنينا بموضع ركوعه محراباً، وعمل لنا كرامة هناك سروراً برؤيته وأتى إلى الشيخ بشيء من ذلك الطعام ففرقه الشيخ قليلاً قليلاً على جميع الأهل والأولاد والفقراء تبركاً بذلك.

فلما انصرف الرجل قال الشيخ لبعض خواصه: الرؤيا التي رأى الرجل صحيحة، وإتيان النبي ﷺ لذلك الموضع يري موضع دفني، وإكمال وضوئه إكمال أجلي. وأنا أموت في هذه المدة فادفنوني بذلك الموضع الذي ركع فيه، واحفروا بئراً للطهارة، أين وصف لكم نبع الماء من وضوئه، فكان كما قال: مات في ذلك الوقت، وَدُفِنَ بالموضع، وَحُفِرَ بئر بسبب ذلك هناك. ولما قال الشيخ ادفنوني بذلك المكان، قال: يا عبد الكريم قم اظفر لنا شيئاً من الحلفاء للقفاف لمرمة دار تكون عند قبري، فصنعت قُفَّتَيْنِ قبل موته، وقال أبو علي يونس ولدُ الشيخ لما رأى الرجل تلك الرؤيا، قال لي الشيخ: عندك مائة دينار تعطيها لي؟ قلت له: وما تصنع بها؟

قال: أحوط بها عليك دائرة تُقِيكَ من نارِ جهنم أبني بها داراً عند قبري إذا مُتَّ، فقلت: نعم، قال: وتفعل؟ قلت: نعم. فلما خرجت آتية بها قال لي: اصبر، وسكت قليلاً، ثم قال لي: اتركها عندك الآن، حتى أنظر ما يكون، فقدر الله تعالى بموته في تلك المدة، وقدر الله ببناء تلك الدار من غير تلك الدراهم على يد بعض أولاده الصغار.

وقال أبو سلام قاسم المازري: كنت نائماً وزوجتي بقربي فأيقظتني وقالت: رأيت رؤيا انتبهت منها مرعوبة، رأيت شجرة من زيتونة عظيمة، قلعت وكأن في كل بلد من البلاد فرع من فروعها، فقلت لها: هذا موت رجل عظيم من الأكابر، وما بإفريقية غير الشيخ أبي يوسف، ورجل أو رجلين، فبينما هي تحدث بذلك إذ قرع الباب، فخرجت إذا بفقير من أصحاب الشيخ يبكي، فقال: يا سيدي توفي الشيخ وأمر أن تغسله فدخلت وأخبرتها وخرجت معه فغسلته وجهزته، وكان ذلك قبل الفجر ليلة عاشوراء في المحرم سنة 621 هـ وعمره اثنان وسبعون عاماً.

وقال أبو محمد خلف الجريدي: سمعتُ النداء بموت الشيخ رضي الله عنه، فخرجتُ من منزلي أسأل متى يصلى عليه فنظرتُ إلى أعلى الجامع الكبير، فرأيتُ خلقاً كثيراً عليهم لباس أبيض، فظننت أنهم أهل البلد اجتمعوا للصلاة عليه، قال: فمشيت قليلاً فنزلت إلى الأزقة فرأيت كذلك، ثم نظرتُ إلى أبراج سور البلد، فرأيتها محشوة بالخلق، فصعدت وأنا أتعجب من كثرة الخلق، فنظرتُ إلى المقابر خارج البلد، فرأيت كذلك خلقاً كثيراً لا يُحصون، فلما سلّم الإمام نظرتُ إلى الجامع وإلى سائر الأمكنة فلم أرَ فيها أحداً فبقيت متعجباً من ذلك.

انتهى الجزء الثالث من معالم الإيمان، ويليه الجزء الرابع وهو الأخير وأوله ترجمة: عبد الله⁽¹⁾ بن سالم بن عبد الملك بن عيسى بن أحمد بن عوانة بن حمود، بن زياد بن علي بن محمد، بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه.

(1) في ط: أبو عبد الله. التصويب من: ت وهو الصواب.

فهرس المحتويات

- 181 - أبو حبيب سعيد بن محمد بن
سَخْنُون رضي الله تعالى عنه 3
- 182 - عروس المؤذن الشهيد المتعبد
المقتول على السنة رحمه الله 3
- 183 - أبو جعفر أحمد بن نصر بن
زياد الهواري البربري رحمه الله 3
- 184 - أبو القاسم محمد بن محمد بن
خالد القَيْسِي المعروف بالطَّرْزِي 7
- 185 - أبو جعفر القَضْرِي 10
- 186 - أبو الفضل يوسف بن نصر
مولي لخم العابد الزاهد الفقيه 12
- يجوز الدعاء على الظالم 15
- زيادة التراب على قبر من قبر آخر تمنع
الميت من سماع الأذان ورؤية زائريه 16
- 187 - الحسن بن محمد القلانسي
الفقيه 16
- 188 - أبو القاسم عبد الوهاب بن
عبد الله المتعبد 16
- 189 - أبو جعفر أحمد بن أبي خالد
الدباغ الزاهد الفقيه واسم أبي خالد
يزيد 18
- التعجب من أكل طعام اليهود 19
- 190 - أبو عبد الله محمد بن سهل
الصوفي 20
- حرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً 21
- 191 - أبو بكر محمد بن محمد بن
اللباد الفقيه رحمه الله 21
- 192 - أبو الفضل عباس بن عيسى بن
- محمد بن عيسى الممسي 27
- 193 - ربيع القطان هو أبو سليمان
ربيع بن سليمان بن عطاء الله 31
- 194 - أبو العرب محمد بن أحمد بن
تميم بن تمام بن تميم التميمي
المؤرخ 36
- 195 - محمد ابن الفتح المؤدب المرجي 41
- 196 - أبو إسحاق إبراهيم بن محمد
القَضْرِي المؤدب 42
- 197 - أبو ميسرة أحمد بن نزار 43
- 198 - أبو عبد الله محمد بن أبي
[المنظور] رحمه الله 47
- 199 - مَرْوَان بن نَضْر بن حَبِيب بن
نَضْر بن مَرْوَان بن عَلْقَمَةَ الأنصاري
العابد أبو عبد الملك رحمه الله
تعالى 50
- 200 - أبو عبد الله محمد بن إسحاق
الجَبَلِي 52
- 201 - أبو علي الحسن علي المؤدب
المكفوف الفقيه الزاهد 53
- 202 - أبو حَفْص عُمَر بن محمد بن
مَسْرُور العَسَّال 55
- 203 - أبو بكر محمد بن سعدون
التميمي إمام الجامع بالقيروان 57
- 204 - أبو بكر محمد ابن الفتح
المؤدب المعروف بابن الصَّوَّاف 59
- 205 - أبو جعفر أحمد بن إسماعيل
الخطيب إمام جامع القيروان 59

- 206 - أبو العباس الفضل بن نضر
الباهي المعروف بابن الرايس 60
- 207 - أبو محمد عبد الله بن هاشم بن
مسرور التَّجِيبِي المعروف بابن
الحَجَّام 61
- 208 - أبو عبد الله محمد بن مسرور
العَسَّال رحمه الله 64
- 209 - عمرو بن مَسْرُور العَسَّال أخو
أبي عبد الله 65
- 210 - هاشم بن مسرور العَسَّال أخو
أبي عبد الله وعمرون 65
- 211 - أبو حفص عمرو بن خيرون
رحمه الله 65
- 212 - أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن
أبي الوليد 65
- 213 - أبو يوسف حجاج بن أبي
يعقوب السرتي رحمه الله 66
- 214 - أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد
السبائي الزاهد 67
- 215 - أبو عبد الله محمد البرانسي
اللبَّاد الصَّامِتُ رحمه الله 79
- 216 - أبو الحسن علي بن محمد بن
مَسْرُور العبَّدي الدَّبَّاغ رحمه الله 80
- 217 - أبو مالك سعد بن مالك الدَّبَّاغ
الصُّوفي رحمه الله تعالى 83
- 218 - أبو القاسم زيَّاد بن يونس
اليخْضبي السدري 84
- 219 - جعفر بن نصيف رحمه الله
ورضي عنه 84
- 220 - أبو الحسن بن نصر الزعفراني
رحمه الله 84
- 221 - أبو محمد عبد الله بن هاشم بن
مَسْرُور القاضي 85
- 222 - أبو عبد الله محمد بن حَارِث بن
أَسَد الخُشَنِي 86
- 223 - أبو القاسم بن سعيد العابد
قريب أحمد بن نصر من أهل القرآن
والتَّهَجُّد 88
- 224 - أبو السرا وَاَصِل بن عبد الله
العابد رحمه الله 89
- 225 - أبو بكر هَبَّةُ الله بن محمد بن
أبي عُقْبَةَ التَّمِيمِي 90
- 225 - أبو محمد عبد الله بن
إسحاق بن التبان رحمه الله 92
- 227 - أبو العباس تميم بن أبي
العرب بن محمد بن أحمد بن تميم 100
- 228 - أبو محمد عبد الله بن سعد
الصَّائغ المعروف بابن التفاحي
رحمه الله 101
- 229 - أبو الأزهر عبد الوارث بن
حسن بن أحمد بن مُعْتَب ابن أخي
الأزهر عبد الوارث 101
- 230 - يونس بن سليمان السَّقَّاء 102
- 231 - أبو سعيد ابن أخي هشام 102
- 232 - أبو بكر عمرو المتعبد 108
- 233 - أبو عبد الله محمد بن حسن
الزويلي السرتي رحمه الله 108
- 234 - أبو عبد الله محمد ابن الشيخ
أبي سعيد ابن أخي هشام 108
- 235 - أبو القاسم بن حمديس القَطَّان
رحمه الله تعالى ورضي عنه 109
- 236 - أبو العباس عبد الله بن
عبد الرحمن الأجدابي المؤرخ 109
- 237 - أبو بكر بن علي بن نضر
الرَّغَفَرَانِي رحمه الله 109
- 238 - أبو عبد الله أحمد الحَيَّاط

- الواعظ، ويعرف بابن نَمْرَة رحمه الله تعالى 110
- 239 - أبو محمد عبد الله بن أبي زيد واسم أبي زيد عبد الرحمن النفزاوي نَسَباً القيرواني مولداً وَمَنْشَأً وَمَذْفَناً .. 111
- 240 - أبو عبد الله محمد صاحب الأَشَانِي المتعبد 124
- 241 - أبو بكر يوسف الخَزَاعِي الْمُتَعَبَّدُ 124
- 242 - أبو القاسم عبد الخالق بن خَلَف بن شَبْلُون رحمه الله 126
- 243 - أبو الحسن علي بن عبد الله القَطَان المعروف بابن الحلاف 127
- 244 - أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الأنصاري ابن أخي مروان 129
- 245 - عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني الجزيري والد الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن 129
- 246 - جابر بن عبد الله بن هاشم 129
- 247 - أبو موسى عيسى بن مَنَاس 130
- 248 - عبد الواحد ابن الشيخ أبي الحسن القابسي 131
- 249 - أبو بكر أحمد بن أبي بكر الزويلي 131
- 250 - أبو جعفر أحمد بن خلف الأجدابي 131
- 251 - عبد الله ابن بنت أبي القاسم ابن شبلون 131
- 252 - أبو القاسم عبد الله ابن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم 132
- 253 - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المهدي 132
- 254 - أبو سعيد خلف بن منصور
- القلال المعتبد خديم الشيخ أبي إسحاق السبائي رحمه الله 132
- 255 - أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن التَّبَّان أخو أبي محمد 132
- 256 - أحمد بن محمد النَّجَّار 133
- 257 - أبو الحسن بن السَّاجِلِي غاسل الموتى 133
- 258 - أبو عبد الله محمد الزيات رحمه الله تعالى 133
- 259 - القاضي أبو محمد عبد الله بن هاشم 133
- 260 - أبو الفضل العراقي المتعبد رحمه الله 134
- 261 - أبو بكر الحَذَاء الزَّاهِد الْمُتَعَبَّد 134
- 262 - أبو محمد عبدون ابن الشيخ أبي محمد التَّبَّان رحمه الله تعالى 135
- 263 - أبو الحسن علي بن حَمْدِيس المتعبد المؤدَّبُ الفاضل 135
- 264 - الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن خَلَف المَعَاوِي المعروف بابن القابسي رحمه الله 136
- 265 - أبو محمد عبد الله بن محمد اللمائي 147
- 266 - أبو عبد الله محمد ابن اللَّحَام إمام الجامع بالقيروان 147
- 267 - الشيخ العارف المحقق أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الْبُكْرِي الصَّقْلِي إمام الحقيقة وشيخ أهل الطَّرِيقَةِ رضي الله عنه 148
- 268 - أبو القاسم خَلَف بن أبي القاسم الْأَزْدِي المعروف بِالْبَرَاذِعِي 150
- 269 - أبو محمد عبد الله بن بهلول رحمه الله 155

- 270 - أبو القاسم عبد الرحمن
الغافقي 155
- 271 - أبو علي حسن بن خلدون
البلوي 155
- 272 - أبو القاسم عبد الرحمن بن
علي بن محمد الكِنَانِي المعروف
بابن الكَاتِب رحمه الله ورضي عنه .. 158
- 273 - أبو سعيد خلف بن محمد
الخلواني 159
- 274 - أبو عبد الله محمد بن سُفْيَان
المُتْرِيء الفقيه 160
- 275 - حربون بن خلفون القُرْشِي وهو
خادم الشيخ أبي الحسن القابسي
رحمه الله 160
- 276 - أبو عبد الله بن أبي صُفْرَةَ بن
أسير التميمي الأندلسي من أهل
المهدية رحمه الله 161
- 277 - أبو العرب محمد بن تميم بن
أبي العرب بن تميم الفقيه رحمه الله
تعالى 161
- 278 - أبو الطيب عبد المنعم بن
خلدون البلوي الفقيه المفتي 161
- 279 - أبو عبد الله محمد بن أبي
مُوسَى بن عيسى بن مناس اللواتي .. 161
- 280 - أبو بكر عَتِيق بن خلف التُّجِيبِي
الواعظ المؤرخ 162
- 281 - أبو القاسم عبد الرحمن
الأضْفَى الزَّاهِد العَابِد 162
- 282 - أبو عمران موسى بن عيسى بن
أبي حاج الغفجومي الفاسي نزيل
القيروان 162
- 283 - أبو حفص عمر بن محمد
الطار 168
- 284 - أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن
عبد الله الخولاني رحمه الله ورضي
عنه 169
- 285 - أبو عبد الله محمد بن العباس
الأنصاري الخواص 173
- 286 - أبو عبد الله الحسين بن
عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي
المؤرخ 173
- 287 - أبو الحسن علي بن محمد ابن
أخي مروان الأنصاري الفقيه 173
- 288 - الشيخ الفاضل أبو طاعة بن
أحمد بن طُولُون 173
- 289 - أبو بكر محمد بن عبد الله
القصري 174
- 290 - أبو علي الحسن بن محمد ابن
الجدود اللواتي الفقيه القاضي رحمه
الله تعالى 174
- 291 - أبو محمد مكي بن أبي طالب
واسمه محمد ويقال حموش بن
محمد بن مختار القَيْسِي اللغوي
النحوي 174
- 292 - أبو بكر بن أبي طاعة 176
- 293 - أبو عبد الله محمد بن عبد الله
المالكي رحمه الله تعالى 176
- 294 - أبو القاسم عبد الرحمن بن
محمد الحَضْرَمِي المعروف بالليدي 178
- 295 - أبو محمد عبد الباري بن حسن
التميمي العابد المؤدب رحمه
الله تعالى 179
- 296 - أبو عبد الله مكي بن عبد الرحمن
الأنصاري الفقيه الصالح 180
- 297 - أبو عمر عثمان بن أبي بكر بن
رشيق رحمه الله تعالى 180

- 298 - أبو إسحاق إبراهيم بن حسن بن يحيى المَعَاوِي التونسي رحمه الله 180
- 299 - أبو بكر عتيق بن أحمد بن إسحاق التميمي المعروف بالقَضْرِي رحمه الله تعالى 184.....
- 300 - أبو بكر عتيق السوسي رحمه الله تعالى 184.....
- 301 - أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث التميمي المعروف بالسيوري رحمه الله آخر طبقة من علماء إفريقية وخاتمة أئمة القرويين 185.
- 302 - أبو الطيب عبد المنعم بن محمد الكِنْدِي رحمه الله تعالى 187.....
- 303 - أبو القاسم بن مُخْرِز 188.....
- 304 - عبد الواحد بن تميم التجيبي الكفيف رحمه الله تعالى 188.....
- 305 - أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن طييون رحمه الله ورضي عنه 189.....
- 306 - أبو علي حسن بن حسن بن حمدون الجلولي المُقْرِي 189.....
- 307 - أبو عبد العزيز بن محمد البَكْرِي المُقْرِي المعروف بابن أخي عبد الحميد 189.....
- 308 - أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن رشيّق الحافظ المؤرخ 189.....
- 309 - أبو بكر أحمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي زيد 190.....
- 310 - أبو حفص عمر بن أبي زيد رحمه الله تعالى 192.....
- 311 - أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي الفقيه المؤرخ 192.....
- 312 - محمد بن أبي سعيد بن شرف الأجدابي الأديب الفاضل 194.....
- 313 - أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدَّارِمِي رحمه الله تعالى 196.....
- 314 - أبو عبد الله محمد بن جعفر الكوفي رحمه الله تعالى 197.....
- 315 - أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال مولده بالقيروان وهي بلد أسلافه 199.....
- 316 - أبو محمد عبد الواحد بن مفرج التالسي 200.....
- 317 - أبو الحسن علي بن محمد الرُبَيْعِي المعروف باللُّخْمِي رحمه الله تعالى 200.....
- 318 - أبو محمد عبد الحميد بن محمد المعروف بابن الصَّائِغ قيرواني سكن سوسة 201.....
- 319 - أبو حفص عمر القمودي 202.....
- 320 - ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الغني المقرئ الفَهْرِي المعروف بالحصري 203.....
- 321 - أبو الطيب عبد المنعم بن عمر بن أبي محمد بن أبي زيد رحمه الله 203.....
- 322 - أبو عبد الله محمد بن أبي الفَرَج المازري المعروف بالذِّكْنِي 203.....
- 323 - أبو زكرياء يحيى بن محمد بن زياد بن عوانة القرشي الفقيه الزاهد 205.
- 324 - أبو الحجاج يوسف بن حسون المقرئ رحمه الله 207.....
- 325 - أبو سعيد خلف بن عوض بن عبد الله المعروف بابن أبي شيخ الزاهد 209
- 326 - أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري المشهور بالدباغ 210.
- 327 - أبو يوسف الدهماني 212.....

MA^ḥĀLIM AL-^ḥĪMĀN FĪ MA^ḥRIFAT AHL AL-QAYRAWĀN

The biographies of those who
inhabited Al-Qayrawan

by

Abu Zayd ^ḥAbdul-Raḥmān Ben Muḥammad
Al-Dabbā^ḥ

Edited by

Dr. ^ḥAbdul-Majīd Al-Ḥayālī

Volume III

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon

مَعَالِمُ الْإِيمَانِ
فِي
مَعْرِفَةِ أَهْلِ الْقُرُونِ

تأليف

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ المتوفى ٦٩٦ هـ

أكله وعلوه عليه

أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى ٨٣٩ هـ

وفي آخره

ذيل معالِمِ الإيمان

المسكت

تكميل الصالحين والأعيان
لعالم الإيمان في أولياء القرون

تأليف

محمد بن صالح بن علي عيسى الكناف

المتوفى ١٢٩٢ هـ

تحقيقه

الدكتور عبد المجيد ضياحي

المجلد الرابع



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

328 - ومنهم عبد الله⁽¹⁾ بن سالم بن عبد الملك بن عيسى بن أحمد بن عوانة بن حمود بن زياد بن علي بن محمد بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه⁽²⁾ :

قال العواني : كان عبد الله هذا رجلاً صالحاً مُنْقِضاً، وكان مَعَاشُهُ في الْحِرَاثَةِ وَالتَّجَارَةِ، وكان شطر ما يحرثه للصدقة يتصدق به على الفقراء، والشطر الثاني لنفقته ونفقة عِيَالِهِ. وكذلك كان دَأْبُهُ في تجارته، جعل مَالاً مُعَيَّناً مِنْ مَالِهِ للضعفاء يَتَجَرُّ بِهِ⁽³⁾ لَهُمْ، وما يتصور منه⁽⁴⁾ من ربح، يَصْرِفُهُ عَلَيْهِمْ في طعامهم، وَمَلْبَسِهِمْ، وضرورياتهم. وكان جَيِّدَ الْمَعَاشِرَةِ لِإِخْوَانِهِ، بَارًّا لِلنَّاسِ، محبوباً فيهم، شديد الاحتمالِ لِلْأَذَى.

أخبرني جَدِّي عبد الملك [أن والده عبد الله]⁽⁵⁾ هذا، تَصَدَّقَ في عام بألف دينار على الفقراء من أَهْلِ السُّتْرِ، يُعْطِي الْأَضْعَفَ فَأَلْأَضْعَفَ حَتَّى نَفِدَ⁽⁶⁾ جَمِيعُ الْأَلْفِ.

(1) في ط: أبو عبد الله، والصواب ما أثبتناه من: ت.

(2) النسبة الواردة في ت هي: «عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عيسى بن أحمد بن عوانة بن حمود بن زياد بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رض)».

(3) ت: فيه. (4) ت: فيه.

(5) سقط من: ت.

(6) في ط: نفذ. والصواب ما أثبتناه، بمعنى فَرَّغَ وَانْقَطَعَ وَفَنِيَ. نقول مثلاً «نَفِدَ زَادُ الْقَوْمِ» أي فني زادهم وانقطع.

وقال: هذه اشتريتُ بها نفسي من الله، ثم تصدق بألف دينار مرة ثانية لم أعلم بذلك. قال: إلا في مرضه الذي مات⁽¹⁾ منه قال لي: يا ولدي كنت أخرجتُ من مالي ألف دينار برسم الصدقة في حال الصَّحَّةِ، وبقيَ منها مائتاً دينار في صندوقي، فَإِنْ أَنَا مِتُّ أَخْرِجْهَا عَلَيَّ من حظك. فقلت له: لو أخرجتُ عَوْضَهَا طَعَاماً عن كفارة إيمان⁽²⁾ كان أصوب. فقال: ما أعلمُ أَنَّ عَلَيَّ يميناً أَكْفَرُهَا. قال: فأخرجتها عنه بعد وفاته سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

329 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الجليل الأزدي رحمه الله تعالى:

قال العواني: كان فقيهاً مُفْتِيّاً، ذاكراً للمسائل، وله عناية بالحديث. أخذ عن أبي سليمان داود بن سليمان بن حوط الله؛ صحيح البخاري، ومسلم والموطأ. وقرأ القرآن بالروايات السبع المشهورة على النِّطَاق، والجياشي، وكان بصيراً بلسان العرب، حافظاً لِلْسُنَّةِ، قَيِّماً بالأشعار الجاهلية، عارفاً بِالْعُرُوضِ وأوزانِ الشُّعْرِ، جَيِّدَ الحفظ⁽³⁾، حسن النقل، راوياً للأخبار، حافظاً لأخبار بلده، حَسَنَ الإيراد لها، مقتنياً للكثير منها، أنيس المجالسة، مَلِيحَ المحادثة، جَمَّ الإفادَةِ، فصيح اللسان⁽⁴⁾، حسن البيان، من أحسن الناس خُلُقاً، وأكثرهم بشاشةً، مع صلاح وانقباض، لا يخرج من منزله إلا لأمر مُؤَكَّد.

لقي محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي بتونس، وكان محمد بن عيسى هذا يُعَظِّمُهُ ويعترف بفضله ونباهته. توفي سنة ست وثلاثين وستمائة وكان مولده سنة خمسين وخمسمائة. ودفن بالقبروان بدار الدفن المعروفة بهم رحمه الله تعالى ورضي عنه.

330 - ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن عبد الجليل المذكور⁽⁵⁾ رحمه الله تعالى:

قال العواني: كان فقيهاً، فاضلاً جليلاً، شاعراً أديباً، نبياً نبيلاً، من أهل العلم، مُقَدِّماً في الدَّرَايَةِ والفهم، عارفاً بالحديث وَوُجُوهِهِ، حافظاً للرأي. نشأ في طلب العلم ومات عليه، من بيت علم، وفضل، ودين، ونَبَاهَةٍ، ورياسة.

(1) ت: توفي.

(2) ت: يمين.

(3) ت: الخط.

(4) ت: الكلام.

(5) المراد بكلمة «المذكور» صاحب ترجمة (329).

سمعتُ جدي عبد الملك⁽¹⁾ يقول: ما رأيت في عصر ابن عبد الجليل رجلاً أجَلَ من ابن عبد الجليل، ولا أعلم منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه. لم ترَ عيني مثله وقاراً، وعِلْماً، وَسَمْتاً. وكان مُتَفَنِّناً في الأدب⁽²⁾، واللغاتِ وروايتهما، مُقَدِّماً في معرفتهما وإتقانتهما. لآزَمَهُ جَدِّي عبد الملك وَصَحْبُهُ كثيراً. وقرأ عليه وانتفع به وذكر لي فِهْرَسَتِهِ⁽³⁾ وأثنى عليه. توفي سنة تسع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

331 - ومنهم أبو الزين محمد بن ثغر الحبيبي رحمه الله:

أصله من العرب، وتاب على يد الشيخ أبي يوسف الدهماني⁽⁴⁾، وكان مشهوراً بالعلم والصلاح.

وكان من أكابر أصحاب الشيخ في القَدَرِ لقوله: قال لي الشيخ: أنتم آخر العشر جئتموني في آخر العمر⁽⁵⁾. [وكان]⁽⁶⁾ يقول: إذا سألتني الفقيرُ بلسانه حَقَّ له أن يُقَرَضَ، وإن سألني بقلبه حَقَّ له أن يُهَجَرَ.

وقال الشيخ جميل: كنتُ بالجامع مستقبلَ القبلة، ذاكراً، فرأيتُ كأن رجلاً دخلوا علي من الحائطِ وجلسوا بِقُرْبِي فأعلمته ذلك، فقال لي: يا ولدي أولئك هم الأبدالُ، وذلك منذ تحدثنا بذلك ما تراهم⁽⁷⁾ من اليوم.

وسمعت الشيخ أبا يوسف يقول: «يا ولدي، القلبُ غَيْبٌ، والحقُّ غَيْبٌ، ولا يُدْرِكُ الغيبُ إلا بالغيبِ».

وقال أيضاً: «لِسَانُ الشَّيْخِ قَلَمُ الْقُدْرَةِ⁽⁸⁾، وقلبُ الفقيرِ لوحُ الْقُدْرَةِ، فما كتب قَلَمُ الْقُدْرَةِ في لَوْحِ الْقُدْرَةِ لَا يُمَحَى».

وقال أيضاً: «إذا رزق الله العبدَ القناعةَ أطلقَ عليه أَلْسِنَةُ الْخَلْقِ [بِالْغِنَا]⁽⁹⁾».

(1) راجع ترجمته عند رقم (342). (2) ت: بالآداب.

(3) ت: فراسته. (4) راجع ترجمته برقم (341).

(5) ت: عمري. (6) ت: وسمعت.

(7) ت: نراهم. (8) ت: بالقدرة.

(9) سقط من المطبوع المحقق 6/4، المكتبة العتيقة تونس.

وقال أيضاً: «إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُ الْفَقِيرِ بِاللَّهِ تَعَالَى خَفَتْ مُؤْنَتُهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ».

وذكر الشيخ أبا الزين جميلاً هذا وقال فيه: «تكون له قاعدة ويفتح الله عليه بدنياً وافرّة وما أغناه عنها».

قال: وسمعتة يقول: «من أظهر كرامةً لغير ضرورة فهو مُبْتَدِعٌ».

قال شيخنا أبو الفضل القاسم البرزلي: ووقع بصره على امرأة [فجأة]⁽¹⁾ فقال: العمى يا جميل. فقال الشيخ أبو يوسف من موضعه: عَمَى الْبَصَرُ لَا عَمَى الْبَصِيرَةِ، فكان كذلك.

قال: ودخل الشيخ أبو يوسف لمطهرة ليغتسل، وأخذ الشيخ جميل يملأ له الماء فقال له الشيخ: يا جميل، لو قيل لك: إن جَنَابَتِي إنما هي من زنا ما تصنع؟ فقال له: يا سيدي ما نزيد فيك إلا اعتقاداً وأقول: سبق في علم الله ذلك فلا بد من إنفاذه وأطلب الله لي ولك التوبة والمغفرة. فقال له: يا جميل، جَمَلَك الله في الدنيا والآخرة. وكانت عجوزٌ تعرف [الشيخ]⁽²⁾ جميلاً وفقراءه، فراود الفقراء الشيخ على أن تكون العجوز في بيت معهم بالزاوية وتطبخ لهم، وتتصرف، وقالوا له: إنها عجوز كبيرة، واحتجوا له ببعض فضائل⁽³⁾ الصحابة رضي الله عنهم من أن عجوزاً كانت تطبخ لهم الشعير وغير ذلك، فلم يفعل. ثم إنه اشترى ذات يوم حوتاً كثيراً⁽⁴⁾ وعمل عشاءهم به، وغسل ذلك الحوت بماء في مَحْبَسٍ، ثم بعد صلاة العشاء أغلق المَاجِلَ⁽⁵⁾ ورفع مفتاحه وأغلق عليهم باب الزاوية، ورفع مفتاحه أيضاً ولا علم عند الفقراء بذلك، فأخذهم عطشٌ شديدٌ ووجدوا المَاجِلَ مغلقاً، وبَابُ الزاوية كذلك، فاضطروا إلى غسالته فشربوها، فلما جاء الشيخ بالغد شكوا له ما أصابهم من العطش، وأنهم اضْطَرُّهُمُ الحال إلى أن شربوا⁽⁶⁾ غسالته، فقال لهم: يا بَنِيَّ إنما هو

(1) سقط من المطبوع المحقق 6/4.

(2) زيادة من: ت.

(3) ط: فضائلي، وفي ت: قضايا، وفي هامش ط، كتب: «لعله قضيا».

(4) في المحقق: كبيراً 7/4.

(5) المَاجِلُ: مُسْتَقْعُ الْمَاءِ. راجع لسان العرب مادة «مجل» 616/11.

(6) ت: بشربوا.

مَثَلُ قَرَبَتِهِ لَكُمْ لِأَجْلِ مُرَاوَدَتِكُمْ إِيَّايَ فِي مُخَالَطَةِ الْعَجُوزِ، فَالْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْصُومٍ⁽¹⁾، إِذَا اضْطَرَّ الْحَالُ يَقْدِمُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَقْدَرَةِ.

قلت: وما ذكره الشيخ صحيح، وقد ذكره الشيخ الفقيه العدل المقرئ⁽²⁾ أبو عبد الله⁽³⁾ محمد بن أحمد البَطْرَنِي⁽⁴⁾، أحد شيوخ تونس، قال: أَخْبَرْتُ عَنْ الشَّيْخِ أَبِي يَوْسُفَ الدِّهْمَانِي قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ الشَّيْخِ الْفَقِيهِ أَبِي زَكَرِيَاءَ [يَحْيَى]⁽⁵⁾ بْنِ عَوَانَةَ، وَكَانَتْ أَمَامَنَا عَجُوزٌ فَقَالَ لِي: أَسْرِعْ فِي مَشِيَّتِكَ يَا يَعْقُوبُ، فَإِنَّ الْمَشِيَّ خَلْفَ الْأَسَدِ، وَلَا الْمَشِيَّ خَلْفَ الْمَرْأَةِ! فَقُلْتُ لَهُ: هِيَ عَجُوزٌ مُسِنَّةٌ. قَالَ: يَا وَلَدِي رُبَّمَا يُوسُّوسُ الشَّيْطَانُ، وَتَتَحَدَّثُ النَّفْسُ وَتَقُولُ: رُبَّمَا كَانَ لَهَا زَمَانٌ وَكَذَا وَكَذَا فَيُضَيِّعُ وَقْتُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ. فَاسْتَحْسَنْتُ ذَلِكَ مِنْهُ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: يَا شَيْخُ أَمَّا يَعْقُوبُ إِذَا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَظْهَرُ لِي كَأَنَّهَا جَمَاجِمٌ وَعِظَامٌ بِأَلِيَّةٍ عَلَى الْمَزَابِلِ مَلْقِيَةٌ⁽⁶⁾. فَتَعْجَبُ مِنْ هَذَا وَقَالَ: يَا وَلَدِي هَذَا شَيْءٌ آخَرُ مَخْصُوصٌ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْخَوَاصُّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ.

وقال الشيخ الفقيه العدل أبو عبد الله محمد بن عثمان بن غانم الحضرمي⁽⁷⁾: [أَخْبَرَنِي الْحَاجُّ يَوْسُفَ الْمَعْرُوفِي]⁽⁸⁾ قَالَ: مَشَيْتُ مَعَ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ سَالِمِ الْقَدِيدِي⁽⁹⁾ إِلَى الْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّرِيقِ، وَإِذَا بامرأة جاءت تُسَلِّمُ

(1) ط: المعصوم. وما أثبتناه من: ت.

(2) في ط، المغربي، التصويب من: ت، وفي نيل الابتهاج، وكفاية المحتاج: وصفه البرزلي في قوله: «بشيخنا الفقيه الراوية المحدث الميسن المقرئ» ولم يرد في كتب مترجميه لفظة «مغربي» وفي الكتاب المحقق «المغربي» أيضاً: 7/4.

(3) في كتب مترجميه: «أبو الحسن». قال ابن قنفذ والعامّة تقول عوض أبي الحسن أبا عبد الله. شرف الطالب ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات ص: 88.

(4) توفي محمد بن أحمد البَطْرَنِي منسوب إلى بَطْرَنَة بفتح الباء، وسكون الطاء، وهي جِصْنٌ من أعمال مرسية بالأندلس، سنة 793 هـ. انظر ترجمته في نيل الابتهاج ص: 461 - 462، كفاية المحتاج 97/2 رقم 494، شذرات الذهب 331/5، ألف سنة من الوفيات ص: 88، ص: 132، ص: 226، وورد ذكره في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني 838/2، شجرة النور الزكية 326/1 رقم 841.

(5) سقط من: ت. (6) في هامش ط: «لعلها ملقاة».

(7) انظر رقم ترجمته (359). (8) ما بين المعقوفتين سقط من: ت.

(9) راجع ترجمته برقم (349).

عليه، فأشار بِكُمِّهِ عليها قبل أن تصله وَنَهَرَ عليها وقال لها: انْضِرْفِي، ثم قال: أتدري يا حاج يوسف من هذه المرأة؟ قلت: لا. قال: هذه جاءت الساعة من تونس وقت⁽¹⁾ التأهيب، وأرادت أن تصلي في جامع عقبة الجمعة. فقلت: وكيف تنهر عليها وهذه صفتها. قال: السلامة منهن سلامة الاعتقاد بالبواطن [ينفع الله ينفعها⁽²⁾ بنيتها]. قرب النساء هي المحنة بعينها، ولو كُنَّ على أي قدم، ونحو ذلك جرت له مع امرأة أُخْرَى، واستدلَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «بَاعِدُوا [بين]⁽³⁾ أَنْفَاسِ النِّسَاءِ عَلَى أَنْفَاسِ الرِّجَالِ»⁽⁴⁾ حسبما يأتي بَسْطُهَا إن شاء الله تعالى.

وَعَوَامُ الْقَبْرِوَانِ عندنا يذكرون: أن أبا سعيد بن محمد المعروف بعود الرطب وزير السلطان المنتصر بالله أصابته حقنة⁽⁵⁾ والإمام على المنبر يوم الجمعة وبجواره فقير عليه مرقعة فحلَّ له كمه فتصور له أنها دار فدخلها وأزال قضاء الحاجة فيها واستنجى وتوضأ ولحق الصلاة وفتشه فلم يجده، وما زال يبحث حتى عرفه أنه الشيخ جميل هذا. فسألت شيخنا حفظه الله تعالى عن ذلك فقال: لا أعرف ذلك من نقل أحد ولا سمعته.

ومشى رحمه الله تعالى لمكة شرفها الله تعالى وجاور بها حتى مات. قال شيخنا أبو الفضل⁽⁶⁾: وقبره مشهور معلوم معظم [بها]⁽⁷⁾ شرفها الله تعالى بباب المعلى، مكتوب اسمه على قبره مع كثرة من فيها من الصحابة والتابعين والصالحين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

(1) في ت: «خرجت وقت».

(2) ما بين المعقوفتين سقط من الكتاب المحقق 8/4.

(3) سقط من: ط، والكتاب المحقق. وهو مثبت في: ت، وكشف الخفاء، والأسرار المرفوعة.

(4) قال المُلَّا علي القاري في كتابه الأسرار المرفوعة: غير ثابت وإنما ذكره ابن الحاج في المدخل في صلاة العيدين، وذكره ابن جماعة في منسكه في طواف النساء من غير سند، ولفظه يروى عن النبي ﷺ: «بَاعِدُوا بَيْنَ أَنْفَاسِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ». الأسرار المرفوعة ص 161 رقم (113)، وكشف الخفاء للعجلوني 1/329 رقم (875)، وكتاب المدخل لابن الحاج 2/283 دار الفكر.

والمراد من هذا الحديث: مخافة اختلاط الرجال بالنساء، لأن مُقَارَبَةَ أَنْفَاسِ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ، يُخَافُ مِنْهَا أَنْ تُشَوِّشَ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ.

(5) الْحُقْنَةُ: انحباس البول. (6) في ت: حفظه الله تعالى.

(7) سقط من: ت.

332 - ومنهم أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي⁽¹⁾ الصوفي رحمه الله تعالى ورضي عنه:

قرأ على الشيخ أبي يوسف الدهماني وغيره من الشيوخ الجلة كأبي زكرياء يحيى بن محمد البرقي الصوفي. قرأ عليه القراءات السبع والحديث وتفقه عليه وقرأ عليه جماعة انتفعوا به. منهم: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري⁽²⁾.

قال العواني: وهو من أجل المشايخ قدراً، وأعلام حالاً، منفرداً بحاله في وقته لا يشاركه فيه أحد من أبناء جنسه ولا يدانيه، من أهل العناية التامة بتقيد الآثار، وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه، والنظر في فهم معانيه.

وله تواليف في علم التصوف ومأخذ شديد. وكان من أهل العلم والمعرفة بالقراءات، حسن الضبط لها، عارفاً لوجهها⁽³⁾ وطرقها. أخذ الناس عنه كثيراً. وكان ديناً فاضلاً صوفياً، صاحب حال وعبادة، ثقة فيما رواه.

أخبرنا عنه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري بجميع ما رواه ووصفه بالعلم، والصلاح، والفضل، والورع، والجلالة.

وكان الفقيه أبو زيد هذا يقول: هو شيخني ومعلمي، وأحد من أنعم الله عليّ بِصُحْبَتِهِ. اختلفتُ إليه كثيراً فلم تَرَ عيني قط مثله نكاً، وفضلاً، وصيانة لنفسه، وانقباضاً عن الناس، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وما رأيت أحفظ منه لأخبار الصالحين وحكاياتهم، حسن الإيراد لها، مُتَقِناً لما قد يحكيه منها، أنيس المجالسة، مليح المحادثة.

قال العواني: فأَيُّ⁽⁴⁾ عُذْرٍ له في ترك التعريف به؟ ومن هو مثله على جلالة قدرهم واشتهار ذكرهم؟

(1) ترجم له في الأعلام 7/4، الجواهر الإكليلية في أعيان علماء ليبيا ص: 101 - 102، إيضاح المكنون 616/1، 702/2، معجم المؤلفين 226/5 - 227، هدية العارفين 1/570، شجرة النور الزكية 244/1 رقم 573، كتاب العمر 2/483 - 486.

(2) انظر ترجمته برقم (350) وهو صاحب التأليف الأول لكتاب معالم الإيمان.

(3) ت: بوجهها.

(4) في ط: بأي. التصويب من: ت.

قلت: وذكر الشيخ⁽¹⁾ أبو زيد⁽²⁾ عبد الرحمن المذكور في الجزء الذي أفرد للشيخ أبي يوسف الدهماني⁽³⁾، قال: حدثني المؤدب أبو سليمان معمر الخولاني قال: كنت جالساً عند الشيخ فأتاه أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي زائراً، فلما مضى قال الشيخ: رأيت الرجال مشرقاً ومغرباً فما رأيت من اجتمع فيه أربع خصال: العلم، والعمل [به]⁽⁴⁾، والزهد، والورع، مثل الفقيه أبي زكريا يحيى بن عوانة، وهذا الشاب إن عاش يكون له نصيب من ذلك يعني به أبا محمد عبد السلام فكان أبو محمد كذلك رحمه الله تعالى.

وقال أبو عبد الله محمد بن عثمان الحضرمي⁽⁵⁾: كان الشيخ أبو علي سالم القديدي⁽⁶⁾ بينه وبين الشيخ أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب محبة عظيمة، وكان أبو علي يزوره وهو بالقيروان ويحضر ميعاده، فإذا قدم عليه من السفر يقوم أبو محمد عبد السلام ويصافحه ويعانقه ويُجْلِسُهُ بإزائه، ويعرف قدره ويقول له: أعطاك الله عز وجل بركة على يدي سيدي الشيخ الصالح الولي أبي هلال السدادي. ولقد سبقنا للشيخ أبي هلال، ولكن ما يأخذ أحد إلا ما قسم الله له، الله يرضينا بالقسمة، يا شيخ أبا علي، أنت أخي وحيبي فإن الأخوة في الله والمحبة لا يشوبها شيء، فالله يجعل ذلك خالصاً [لوجه الله]⁽⁷⁾. ثم قال له أبو علي: يا سيدي إني زرت سيدي أبي هلال في بعض زيارتي فقال لي ذات يوم: يا سالم يا ولدي، يزار بالقيروان الجامع الأعظم جامع عُقْبَةَ، ومقام الشيخ أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب بإذن الله عز وجل، ففرح الشيخ أبو محمد عبد السلام فرحاً شديداً. وسرّه ذلك سروراً شافياً وقال: الحمد لله شهد لي شيخ العارفين سيدي أبو هلال السدادي ثم قال أبو علي: يا سيدي أبا محمد، فمن ذلك اليوم أنا أحبه⁽⁸⁾.

قلت: وسمعت غير واحد ممن نثق بنقله أنه كان يقول لأولاد الشيخ أبي يوسف الدهماني: إذا احتججتم إلى شيء فنادوا عَلَيَّ فإني أسمعكم.

(1) سقط من: ط. الزيادة من: ت.

(2) في ط: أبو عبد الرحمن، والصواب ما أثبتناه من: ت.

(3) انظر ترجمته رقم 341. (4) سقط من: ت.

(5) انظر ترجمته رقم (359). (6) انظر ترجمته رقم (349).

(7) في ت: لوجهه. (8) ت: أحبك.

وكان رجلٌ بالقيروان عنده زوجة يحبها محبة زائدة فوقف سائل عن باب داره بين المغرب والعشاء، فقال لها: ⁽¹⁾ أعطني لقمة لهذا، فقالت: إني أخاف من ظلمة السقيفة، فقال ⁽²⁾: خذها يا بعبوع، وهو يتلاها فانتهرها ⁽³⁾، فلم ترجع، فنادها. فلم تجبه، فوجد الباب مغلقاً. فخرج ففتشها عند الجيران فلم يجدها، فبحث عليها من الغد فلم يذكر أحد أنه رآها، فكاد يذهب عقله لمحبتها لها، فأتى إلى الشيخ أبي محمد عبد السلام هذا، وذكر له ما نزل به. فكتب له كتاباً وقال له: امشِ إلى شباك زواعةً وهو أحد شبابيك القيروان لخروج ماء المطر من سور البلد عند العشاء الآخرة وتراك ترى علامات، وأناساً داخلين فلا تخف ولا تعطه إلا لصاحب العلام الأحمر. [فمضى الرجل] ⁽⁴⁾ وأعطاه له. فلما قرأه قال: أين بعبوع؟ فأحضر بين يديه، فقال له: أزوجة هذا عندك؟ قال: نعم، قال: ألم أقل لكم لا تتعرضوا لأهل القيروان ما دام سيدي أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب بين أظهركم ⁽⁵⁾؟ قال: نعم، ولكن زوجها هو الذي سلطني عليها: بينما أنا طائر بين السماء والأرض، وإذا أنا أسمعهُ يقول: خذها يا بعبوع. فأنا أخذتها بأمره. فقال للرجل: أصحيح ما قال؟ قال: نعم. فردّها إلى موضعها برفق ولا تتعرض لإذائتها بحال. ثم ⁽⁶⁾ قال ⁽⁷⁾ للرجل: سلّم على سيدي الشيخ، وقل له: يا سيدي لا تزال تؤخر العشاء الآخرة كعادتك حتى يلحق آخرنا الصلاة خلفك. وكان الناس لا يعرفون ما سبب تأخيرها عن أول وقتها. فمشى الرجل لداره فوجد زوجته فيها.

وألف الشيخ أبو محمد عبد السلام تأليفاً في الفقه سماه بـ«الوجيز» ⁽⁸⁾، وهو تأليف حسن، وفيه فقه كثير. ونقل منه الشيخ خليل في شرحه على ابن الحاجب.

(1) في ط و ت: بدون ياء.

(2) في ت أمام كلمة فقال، ورود الجملة التالية: «فقال لها: لا تخف، ففعلت ذلك فتركها حتى تومطت السقيفة».

(3) ت: فانتظرها. (4) سقط من: ت.

(5) ت: أظهرهم. (6) سقط من: ت.

(7) ت: وقال.

(8) اسمه الكامل: «الوجيز للتقريب على الطالب النجيب» وهو مختصر في الفقه المالكي ينقل عنه خليل، توجد منه عدة نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس. راجع كتاب العُمُر 485/2.

وجرت عادة شيخنا أبي محمد عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي يضعف نقله، لأنه ينقل بعض مسائل فيه عن كتاب ابن سحنون وغيره، ولا يُؤخذ⁽¹⁾ ذلك لنقل غيره، كقوله: وفي كتاب ابن سحنون إذا أخذ الخماس شيئاً منعه أشهب وابن وهب وأجازه سحنون.

وهذا لا يضعف به، وإنما يُضَعَّفُ نقله إذا نظر كتاب ابن سحنون ولم يوجد ما نقله، مع أنه لا عاصم من ذلك، إلا من عَصَمَهُ اللَّهُ، فكثير من المؤلفين يغلطون في نقل كثير من المسائل وَلَا يُضَعَّفُونَ بذلك، بل يُنْقَلُ كلامهم وينبه على ما فيه.

وألف «شرح الأسماء الحسنى تأليفاً حسناً جداً»⁽²⁾، و«الزهر الأنيق»، في قصة سيدنا يوسف [الصدیق]⁽³⁾ عليه الصلاة والسلام⁽⁴⁾ وتكلم في ذلك بكلام حسن، ويخرج في كلامه لتدقيقات⁽⁵⁾ وإشارات يعلم بذلك فقهه. وأنه كان فريد أهل زمانه ووحيد عصره. وجرت عادتي أني [نأمر]⁽⁶⁾ بالقراءة بدولة من أحد الكتابين بعد التفسير والحديث وقبل دول الفروع [ونتكلم]⁽⁷⁾ على كلام الشيخ، وننوي أني تلميذ معه وقصدي بذلك التبرك بكلامه ونفعي ونفع الحاضرين. والأعمال بالنيات.

قال العواني: وتوفي رحمه الله بالقبروان على رأس السبعين ضحى يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر صفر سنة 646 هـ. ودُفِنَ يوم الجمعة بعده⁽⁸⁾ إثر صلاتها. وتولّى حَمَلُهُ من منزله فُقَرَاؤُهُ وَتَلَامِذَتُهُ حفاة الأقدام، فلما صَلَّيَ عليه، غلبت العامة على نعشه، وحالت بينه وبين تلامذته وفقرائه. وكانت جنازة مشهورة والثناء عليها كثيراً⁽⁹⁾. ودفن بباب تونس، وقبره بمقربة من قبر الشيخ أبي الحسن القابسي.

(1) ط: ولا يُوجَدُ. التصويب من: ت.

(2) اسمه الكامل: «الزهد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» ختمه بقصيدة رائية أولها: «يا زائر القبر قف بالقبر مُعْتَبِراً» منه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى في دار الكتب الوطنية بتونس رقم 1/1246. راجع كتاب العمر 2/484 - 485.

(3) سقط من: ت.

(4) راجع مكان وجود هذا الكتاب: أعيان علماء ليبيا ص: 102، وكتاب العمر 2/485.

(5) ت: تدقيقات.

(6) سقطت من الكتاب المحقق 4/13. (7) سقطت من الكتاب المحقق 4/13.

(8) ت: بعد. (9) ت: جميلاً.

قلت: بل هو بعيدٌ من قبره، وكان حَقُّهُ أن يقول: قبره مجاور للشيخ أبي بكر بن عبد الرحمن وولده، وعند رأسه عمود أزرق. والذي أوقع الله بخاطري أن الدعاء عند قبره مستجاب. [وكان أخوه أبو العباس أحمد بن عبد الغالب من أولياء الله]⁽¹⁾.

قال العواني: كان من ذوي التَّقَى والحِجَى، والصَّيَانَةِ وَالِدِيَانَةِ، والزهد والنزاهة، وَكَثُمِ الْفَاقَةِ، كثير التهجد والصلاة في الأوقات، مع هِمَّةٍ عَايَةٍ، وَرِقَّةٍ قلب، وغزارة دمع. وكان يقصده أهل الصَّلَاحِ والتوبة والإنابة، ويلوذون به، ويلازمون، ويتبركون به ويرغبون في دعائه، وَيُكْثِرُونَ مِنْ مُجَالَسَتِهِ، فَيَعْظُمُهم، ويذكرهم، ويخوفهم العقاب، ويدلهم على طريق النجاة⁽²⁾، وكان حَسَنَ المحادثة، مَلِيحَ المؤانسة، جميلَ الأخلاق، حسنَ اللِّقَاءِ، على وجهه نُورٌ، وعليه قَبُولٌ. وكان كثيراً ما يُنشد هذا البيت:

أنت في غفلةٍ وقلبك سَاهِي ذَهَبَ الْعُمُرُ وَالذُّنُوبُ كَمَا هِي
حدثني غير واحد ممن لِقِيته.

قلت: ليس المراد أنه⁽³⁾ من نظمه بل هو مسبوق به⁽⁴⁾ ولكنه أعجبه⁽⁵⁾ لما دلَّ⁽⁶⁾ عليه. وبعده⁽⁷⁾:

لم⁽⁸⁾ تبادر بتوبةٍ منك حتى صِرْتَ شَيْخاً فَحَبْلُكَ الْيَوْمَ وَاهِي

333 - ومنهم أبو داود عبد السلام بن نصر الكندي العابد الرهداني منسوب إلى بلدة بالجزيرة:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً فاضلاً، من جَلَّةِ المتصوفين، منسوب إلى الزهد والورع، صلباً في دينه، متواضعاً في نفسه، قليل الهيبة للولادة في حق يقوله، لا

(1) سقط من: ت.

(2) في ت و ط: النجات بقاء مبسوطة، والصواب ما أثبتناه.

(3) في ت و ط: أنها، والصواب كما في المحقق: «أنه».

(4) في ت و ط: بها. والصواب ما أثبتناه كما في الكتاب المحقق 14/4.

(5) في ت و ط: أعجبه. راجع ما أشرنا إليه في هامش 3 و4.

(6) في ت و ط: دلت.

(7) وبعده: إشارة للبيت الأول. وفي ت و ط: بعدها.

(8) في ت: «وإن».

تأخذه^(١) في الله لومة لائم، ترك الدنيا من قدره رغبة^(٢) فيما عند الله عز وجل في الدار الآخرة. وكان لا ينام أكثر ليلة لِشُغْلِهِ بِصَلَاتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى مَنَاجَاةِ رَبِّهِ، مُقْتَصِداً فِي مَلْبَسِهِ وَمَطْعَمِهِ، يَتَصَرَّفُ فِي حَوَائِجِهِ لِنَفْسِهِ وَيَتَوَلَّاهَا بِذَاتِهِ، مُؤَيِّداً فِي أُمُورِهِ، مُمَيِّزاً لَزَمَانِهِ، مُحَقِّقاً مِنْ أَهْلِهِ، مُنْقَبِضاً عَلَى السُّلْطَانِ وَأَسْبَابِهِ، جَارِياً عَلَى سَنَنِ الشُّيُوخِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. وَكَانَتْ لَهُ إِجَابَاتٌ مَشْهُورَةٌ، وَفَضَائِلٌ مَعْرُوفَةٌ، وَأَخْبَارٌ مَأْثُورَةٌ.

حدثني [مَنْ نَثَقُ بِهِ]^(٣) جَدِّي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَوَانَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ بَعْضُ الْوَلَاةِ بِالْقَيْرَوَانِ مَمَّنْ يَتَوَلَّى الْأَشْغَالَ الْمَخْزَنِيَّةَ، سَعَى بِي إِلَى الْمَلِكِ وَنَالَنِي مِنْهُ مَكْرُوهٌ، وَعَظُمَتْ إِذَاتِهِ، وَكَثُرَ ظَلَمُهُ لِلنَّاسِ^(٤)، وَامْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَيْهِمْ وَلِسَانُهُ، وَجَاهَرَهُمْ بِذَلِكَ، وَقَدَحَ فِي حَرَمَتِهِمْ. فَأَجْرَيْتُ ذَكَرَهُ عِنْدَ الشَّيْخِ أَبِي دَاوُدَ، وَأَعْلَمْتُهُ بِحَالِ ذَلِكَ الْوَالِي وَحَالِ النَّاسِ مَعَهُ، وَاسْتَبَاحْتَهُ لِأَمْوَالِهِمْ، وَضَرَبَ ظُهُورَهُمْ. فَأَطْرَقَ سَاعَةٌ ثُمَّ قَالَ لِي: قَدْ تَحَقَّقْتَ مَا قُلْتَ؟ [قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ]^(٥)، فَبَسَطَ^(٦) كَفِيهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَجِّلْ عِقُوبَتَهُ وَاكْفِ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهُ، فَأَمَنْتُ عَلَى دَعَائِهِ. فَلَمَّا أُرِدْتُ الْإِنْصِرَافَ قَالَ لِي: قَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْفَاجِرَ وَأَرَاخَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ، فَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا قَلِيلاً وَأُخِذَ وَثُقِفَ وَضُرِبَ بِالسِّيَاطِ إِلَى أَنْ مَاتَ. وَأَخْبَارُهُ فِي إِجَابَةِ الدَّعَاءِ كَثِيرَةٌ، وَفَضَائِلُهُ شَهِيرَةٌ.

قلت: وحدثني مَنْ نَثَقَ بِهِ عَنْ مَنْ حَدَّثَهُ مِنَ الثَّقَاتِ مِنْ تَلَامِذَةِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَهْدُودِيِّ بِزَاوِيَتِهِ بِتُونِسِ الْمَعْرُوفَةِ فِي زَمَانِنَا بَدَارَ أَبِيْنَا عَبْدِ اللَّهِ. وَأَنَّهُ بَقِيَ يَخْدُمُهُ سَبْعَ سِنِينَ مِنْ طَحْنِهِ بِيَدِهِ وَسَقْيِ الْمَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَعَزَمَ عَلَى الْحَجِّ، وَخَرَجَ الشَّيْخُ يُشَيِّعُهُ فَوَصَلَ مَعَهُ لِرَادِسْ^(٧)، وَأَعْطَاهُ دَرَهْمًا وَقَالَ: اْعْمَلْ هَذَا فِي

(١) فِي ت وَ ط: لَا تَخْذُهُ. وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَاهُ.

(٢) ت: زِيَادَةُ كَلِمَةِ «مِنْهُ» أَمَامَ رَغْبَةٍ.

(٣) سَقَطَ مِنْ: ت. (٤) ت: لِلْقَائِدِ.

(٥) سَقَطَ مِنْ: ت. (٦) ت: ثُمَّ بَسَطَ.

(٧) رَادِسْ: قَالَ الْبَكْرِيُّ: وَاسْمُ مَدِينَةِ تُونِسِ فِي الْأَوَّلِ: تَرْشِيشْ، وَيُقَالُ لِبَحْرِهَا بَخْرُ رَادِسْ، وَكَذَلِكَ يُسَمَّى مَرْسَاهَا مَرْسَى رَادِسْ. الْمَسَالِكُ وَالْمَمَالِكُ 211/2.

وَقَالَ الْجَمْعِيُّ فِي كِتَابِهِ الرُّوضُ الْمَعْطَارُ: مَرْسَى رَادِسْ هُوَ مَرْسَى بَحْرِ تُونِسِ وَهَذَا الْاسْمُ إِمَّا لِلْمَرْسَى أَوْ لِلْقَرْيَةِ الْمُطْلَةِ عَلَيْهِ. ص: 265.

وَفِي كِتَابِ وَصْفِ إِفْرِيقِيَا: إِنَّهَا مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ بَنَاهَا الرُّومَانُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ قَرِبَ قَنَاةِ حَلْقِ الْوَادِي، يَسْمِيهَا الْمَغَارِبَةُ «نَابِل» كَانَتْ قَدِيمًا عَامِرَةً بِالسَّكَّانِ وَتَحْضُرَةٌ جَدًّا 82/2.

جيبك وَلَا تَطْرُدْ أَحَدًا مِمَّا يَأْتِيكَ، وَأَنْفِقْ مِنَ الْجِيبِ. فَكَانَ يُدْخِلُ يَدَهُ لَجَيْبِهِ وَيُخْرِجُ الدَّرَاهِمَ.

قال: وأتى إليه أخوان من زَرْزُورَةَ، وهما محمد، وعبد الحميد بعد الغداء، فأمر أهل داره بعمل طعام لهما، فقدمه لهما من غير إدام، إذ لم يكن في الدار أحد⁽¹⁾. وكان الكُوزُ⁽²⁾ معلقاً فقالا: هَلَا صَبَّ لَنَا نُقْطَةً عَلَى هَذَا الْمَرَقِ مِنَ الزَّيْتِ الَّذِي فِي⁽³⁾ الْكُوزِ؟ وَإِذَا بِهِ وَقَعَ وَتَكَسَّرَ، فَبَانَ أَنَّهُ فَارِغٌ، فَقَالَا: انْكَسَرَ الْكُوزُ، فَقَالَ: الْمُتَهَمُ إِنْ لَمْ يُبْرَأْ⁽⁴⁾ نَفْسَهُ مَا يَزَالُ⁽⁵⁾ فِي التَّهْمَةِ. ثُمَّ⁽⁶⁾ حَضَرَ الْعِشَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَتَعَشَّاهُ وَنَامَا، فَرَأَى أَحَدُهُمَا أَنَّهُ تَقْدِمُ يُصَلِّي بِالشَّيْخِ وَقَنْدِيلَ عَلَى رَأْسِهِ، وَرَأَى الْآخَرُ أَنَّ الشَّيْخَ عَقَدَ لَهُ وَأَوْمَأَ لَهُ إِلَى الْقِبْلَةِ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَا أَخْبَرَ كُلُّهُمَا صَاحِبَهُ بِمَا رَأَى وَقَالَا: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ رُؤْيَا صَادِقَةً هُوَ يَعْرِفُنَا بِهَا. فَقَالَ لَهُمَا: إِنَّهَا رُؤْيَا صَادِقَةٌ وَأَنْتُمَا دَخَلْتُمَا الْقَيْرَوَانَ زَوَايَا الشَّيُوخِ مِنْ تَلَمَّسَانَ⁽⁷⁾ إِلَى الْقَيْرَوَانَ، وَقَلْتُمَا: مَا بَقِيَ أَحَدٌ [وَأَنَا مَا أَنَا]⁽⁸⁾ إِلَّا غَدِيرٌ، وَمَنْ تَرَكْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ بِحَرًّا. فَمَشِيَا إِلَى بِلَدِهِمَا فَكَانَا شَيْخَيْنِ وَلَمْ تَزَلْ تَلَامَذْتُهُمَا إِلَى الْآنَ بِذَلِكَ الْمَكَانِ.

ويقال: إِنَّ الشَّيْخَ أَبَا مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَذْكُورَ دَعَا فَقَالَ: اسْأَلِ اللَّهَ يَا عَبْدَ السَّلَامِ⁽⁹⁾ أَنْ يَجْعَلَكَ كَالْغَيْثِ حَيْثُمَا حَلَلْتَ حَلَّتِ الْبَرَكَةُ.

قلت: ووقعت بينه وبين الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ عَبْدِ الْغَالِبِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ⁽¹⁰⁾ مُنَافَسَةً. وَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تَلَامُذَةٌ فَقَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ يَوْمًا فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ مَعَ الشَّيْخِ أَبِي دَاوُدَ؟ فَدَخَلَ إِلَى زَاوِيَتِهِ وَأَمَرَ أَنْ تَجْمَعَ أَنْعَلَةُ أَهْلِهَا فِي حَبْلٍ وَعَمَلُهَا فِي عُنْقِهِ، وَمَشَى وَفَقَرَاؤُهُ خَلْفَهُ لِدَارِ أَبِي دَاوُدَ لِيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِي حَقِّهِ. وَأَوْقَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِ⁽¹¹⁾ أَبِي دَاوُدَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَ كَفَعَلَ

(1) ت: شيء.

(2) الْكُوزُ: هُوَ الْكُوبُ إِذَا كَانَ بِعُرْوَةٍ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُرْوَةٌ فَهُوَ: كُوبٌ. لِسَانُ الْعَرَبِ.

(3) ت: فِي هَذَا.

(4) ط: يَبْدَأُ. التَّصْوِيبُ مِنْ: ت.

(5) ت: يَزُولُ.

(6) ت: وَحَضَرَ.

(7) تَلَمَّسَانَ: مَدِينَةُ جَزَائِرِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، أَزْدَهَرَتْ فِي عَهْدِ الْمُرَابِطِينَ وَأَصْبَحَتْ مَرْكَزًا لِلْعُلُومِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْكَلَامِيَّةِ، كَانَتْ عَاصِمَةَ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ فِي الْقَرْنِ 13 - 16 الْمِيلَادِيِّ. لِلْمَزِيدِ مَعْرِفَةً عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ انْظُرْ وَصْفَ إِفْرِيقِيَا 17/2 - 24.

(8) سَقَطَ مِنَ الْمُحَقِّقِ 16/4.

(9) ت: الشَّيْخُ.

(11) فِي ط: قَلْبِي.

(10) رَاجِعْ تَرْجَمَتَهُ رَقْمَ: (332).

أبي محمد عبد السلام [بن عبد الغالب]⁽¹⁾، وخرج بفقرائه من داره برسم الوصول للشيخ أبي محمد عبد السلام والاستغفار في حقه. فاجتمعا عند القناة التي يخرج منها ماء المطر⁽²⁾ قُبَالَةَ زاوية الشيخ جميل الحبيبي، فتباكيا وتعانقا، وأقاما مع فقرائهما بدار الشيخ أبي داود لقربها من ذلك⁽³⁾ المكان الذي اجتمعا فيه أياماً. ثم انتقلا لزاوية [الشيخ]⁽⁴⁾ أبي محمد ففعلا كذلك. ويقال: إن الدعاء في الموضع الذي اجتمعا فيه مجاب ببركة اجتماعهما.

هذا الذي كنت أسمعه في حال صغري، والذي سمعته الآن ممن نشق به أن سبب اجتماعهما هو أن حامد النفاتي أتى للشيخ أبي محمد وقال له: أنت والشيخ أبو داود شيخا الوقت، ولا يليقُ بكما هذا الذي بينكما، لئن لم تصطلحا لنخرجن بأهلي من هذا البلد، فإنه لا يحل سُكْنَاهَا ما دمتما على هذه الحالة، فَأَثَرُ كَلَامِهِ في قلبه فعمل ما تقدم، وأوقع الله في قلب أبي داود ما تقدم، ولم يعرف شيء فاجتمعا بالمكان المذكور. وتوفي بالقيروان.

قال العواني: سنة 648⁽⁵⁾. وحضر جنازته خلق لم يحضروا غيره في وقته، وكسروا نعشه من كثرة ازدحامهم عليه. وتولت العامة حمله إلى قبره على رقابهم، وَدْفِنَ بِيَاب تُونِس، وَقَبْرُهُ مَزَارٌ.

قلت: وهو قرب قبر الشيخ أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب وعند رأسه عمود أزرق. إذا قدمت على قبره تهابه وإن لم تعرفه. [رضي الله تعالى عنه ونفعنا وإياكم به]⁽⁶⁾.

334 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن موسى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن عوانة الهاشمي الحسيني المقرئ النحوي رحمه الله تعالى:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، فقيهاً، فاضلاً، نحويّاً، لغويّاً، عَرُوضِيّاً، متديناً، متقللاً من الدنيا، يَسْرُدُ الصِّيَامَ، وَيُطِيلُ الْقِيَامَ، كثير التلاوة للقرآن، ممن

(2) في ط: المطهر. التصويب من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(5) كتبت أحرفاً في: ت، ثمان وأربعين وِيسَتْ مائة.

(6) في ت: رحمه الله.

انقطع إلى الله عز وجل ورفض الدنيا، وتجرد لأعمال الآخرة، مجتهداً في ذلك على أقوم طريقة، حسن الخلق، صابراً لمن جفا عليه، قليل المال، صابراً، قانعاً، راضياً باليسير من المطعم والملبس. وصفه بذلك جدي عبد الملك، وروى عنه كثيراً، ولازمه عمراً طويلاً. وكان حافظاً للفقهاء على مذهب مالك وأصحابه. وقرأ القرآن بالروايات السبع ببلده على الفقيه المقرئ أبي إسحاق إبراهيم، بن محمد، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن وثيق. توفي سنة 659هـ⁽¹⁾ منسلخ شوال من العام المذكور. رحمه الله تعالى ورضي عنه أمين.

335 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عيسى بن عبد الرحيم بن عبد العزيز بن عَوَانَةَ الْحَسَنِي :

قال العواني: كان فقيهاً، محدثاً، ثقة، بصيراً بالحديث وَعَلِيهِ، قديم الطلب، وافي الأدب، غني بالعلم وجمعه والاجتهاد فيه، مع صلاح الحال، والتَّعَفُّفِ والانقباض، والتحفظ من الناس، ولم يزل نشر⁽²⁾ العلم ديدنه، والتدريس والاستماع مسافة عمره شأنه. وأقام على حاله ببلده فوق العشرين سنة. فحسده فريق من أهل بلده، لتقصيرهم عن شأنه، حتى أذاهم ذلك إلى التمويه⁽³⁾ عليه بحبائل نصبوها، وأكاذيب كذبوها، ولا غرو فالجاهلون لأهل العلم أعداء. ثم انجلت تلك الغيابة الناشئة في أفق الغي، الحاملة لما شاء الغي، والحسد من صواعق الطغيان والبغي، وأعقبها زهده في جوارهم، وخروجه عن موضع قرارهم. فخرج عنهم إلى تونس فحلّ من أهلها على الترحيب والتكريم، واحتلّ منهم بمراقبة الإفادة والتعليم. وأقام بها سنين عديدة منتصباً للإقراء، ملحوظاً بعين الأكابر والاعتناء.

وكان شيخنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم ابن أبي بكر اليميني [يوالي الثناء عليه بالعلم والحفظ وحسن الإدراك. سمعته غير مرة⁽⁴⁾] يقول: هو أحفظ من لقيت.

وحدثني أيضاً عنه أنه سمعه يقول: عندي مسائل ألفية درستُ فيها ألف مرة.

(1) كتبت أحرفاً. وهكذا في سائر السنوات. (2) ت: بنشر.

(3) ت: التصويب. (4) سقط من: ت.

واستمرّ الفقيه أبو عبد الله محمد على الإقراء بتونس إلى أن كبر سنّه فأب إلى وطنه بالقيروان. ولم يزل مُقيماً بها إلى أن توفي سنة 660هـ. ودُفِنَ بباب تونس رحمه الله تعالى وكان يومه مشهوداً.

سألت جدي عبد الملك عن مبلغ الفقيه أبي عبد الله محمد فقال: دخلت عليه عائداً عليه في مرضه الذي مات فيه فسألته عن حاله، فاستند وأنشدني [هذه الأبيات]⁽¹⁾:

عشنا⁽²⁾ الثمانين وعمر طویل لم يبق للصحة إلا القليل
لا تحسبوني ثاوياً بينكم فقد دنا الموت وأن الرحيل

336 - ومنهم أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن علي بن عتيق الهواري المتعبد:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً فاضلاً، ورعاً متّقشفاً، من المبرزين في العبادة، السالكين طريق الإرادة، كثير الصيام؛ تغرب في البلدان، وخرج عن الأوطان، وصحب العباد والبدلاء والأوتاد. وحجّ حجة الفريضة. ثم أب إلى القيروان فلازم مسجد السبت وعمره بعد خرابه، وانقطع فيه للعبادة. [وكان كثيراً ما يحيي الليل به. ويأتيه الصلحاء]⁽³⁾ فيه للعبادة والإنقطاع إلى الله عز وجل. وكان شديد المبالغة في كتم الفاقة. شُهر بالخير والصلاة والتواضع، والزهد في الدنيا، والرضى منها باليسير، والتقلل منها. وشهدت إجابة دعائه. توفي - رحمه الله تعالى - سنة 660هـ كالذي قبله. ودفن بالمسجد المذكور.

337 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري الصوفي المعروف بالدباغ - رحمه الله تعالى -:

قال العواني: كان - نَصَّرَ⁽⁴⁾ الله وجهه - فقيهاً، صالحاً، فاضلاً، ورعاً،

(1) سقط من: ت. (2) ت: عشر.

(3) سقط من: ت.

(4) في ت و ط: نظر. والصواب: نَصَّرَ. أي جعله ناصراً. وفي اللسان: نَصَّرَ الله وجهه بالتشديد، وأنصَّرَ بمعنى واحد: أي حَسَّنَ وَجْهَهُ.

وفي الحديث «نَصَّرَ الله امرأً سمع مقالتي فوهاها وحفظها...» أخرجه الترمذي في السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع حديث (2658).

ناسكاً، صَوَّاماً، قَوَّاماً، عارفاً بالحديث وطريقه ومعرفة رجاله، حسن الخط، جيد الضبط، من أهل الحفظ والذكاء، عاقلاً، مهيباً، منقبضاً، مقتصداً. وهدى الله على يديه خلقاً كثيراً، مع انقباض عن السلطان، وإقبال على ما يعنيه، ومواظبة على نشر العلم [وبثه]⁽¹⁾، جميل المعاشرة⁽²⁾ لمن صاحبه، حسن اللقاء، مُحَبِّباً إلى الناس؛ بذلك وصفه غير واحدٍ مِمَّنْ لَقِيَهُ وَجَّالَسَهُ. وكان جدِّي عبد الملك يُوالي الثناء عليه وعلى سَلَفِهِ. وقال: كان من أهل الفضل والصلاح والخير مع التقدم في الفهم والأخذ من كل طرف من العلم. من بيت⁽³⁾ طاهر وهدى. هو وأبوه وجده رحمهم الله كلهم على طريقة مُثَلَّى. توفي سنة 661 هـ عقب شهر رمضان المعظم، في يوم الخميس الخامس والعشرين منه. ودفن بباب تونس، وشهد دفنه عالم كثير من الناس رحمه الله.

338 - ومنهم عبد الرحمن بن كامل الزعبي الزاهد العابد - رحمه الله :-

قال العواني: كان رجلاً صالحاً زاهداً ورعاً، صَوَّاماً قَوَّاماً، خاشعاً متبتلاً، ثقة في دينه وعقله. من أصحاب الشيخ، أبي محمد عبد العزيز المهدوي ومن نفع الله به المسلمين. له نور، وعليه قبول، كثير التهجد، شديد الحزن، غزير الدمع. من خيار الناس، تجرّد لأعمال الآخرة، ورفض الدنيا وانقطع إلى الله عز وجل. ولم يزل مجتهداً حتى مات. وكان من أشد الناس صبراً على الجوع، وعلى من جفا عليه، متواضعاً، قليل ذات اليد، صابراً، قانعاً، راضياً باليسير من المطعم والملبس. ما تعرض قط لطلب دنيا، ولا داهن أحداً قط، ولا ادّخر مالاً قط، ولا أثر على الله أحداً من مال ولا أهل. توفي يوم الاثنين الرابع لربيع الأول سنة 662 هـ. وصلى عليه جمع كثير. ودفن بباب تونس - رحمة الله تعالى عليه ورضي عنه ونفع به آمين.

339 - ومنهم أبو علي عمار المعروفي:

قال أبو عبد الله محمد بن عثمان الحضرمي⁽⁴⁾: كان من أصحاب الشيخ أبي

(2) ت: العشرة.

(1) سقط من: ت.

(3) ت، ط: بيته. والصواب ما أثبتناه. (4) انظر ترجمته رقم (359).

هلال السدادي وأبي علي سالم القديدي⁽¹⁾. وكان صَوَاماً [بَكَاءً]⁽²⁾، ويواصل في بعض الأيام.

قال الشيخ أبو علي سالم المذكور: كان عمار أجمل الناس صورةً، وأحسنهم قدراً، لم يكن في وقته أجمل منه.

بينما هو نائم⁽³⁾ إذ أتته امرأة من أحسن الناس وجهاً، فتعلقت به، وراودته عن نفسها، فتأبى عن ذلك، فحلفت له يمينا أنها لا تفارقه حتى يفعل لها ما أرادته منه، فقال لها: إذا عزمْتِ فاصبري حتى أقضي حاجتي، وعمد إلى موسى⁽⁴⁾ كانت عنده وقطع ذكره، فلما رأت المرأة ذلك تركته وغشي عليها، ثم قال سيدي عمار: يا الله، يا سيدي أبا هلال، فانقضّ عليه من الهواء وقال له: ها أنا معك، ورمى بيده على المحل المذكور، فذهب جميع الألم، أو كأنه لم يكن به شيء، وقال له: يا عمار! الناس أخذوا طريق القوم بالتعب، والنَّصَبِ، والاجتهاد، والإخلاص، وأنت أخذتها في ساعة واحدة. ثم قال: انظر يا عمار، قال: فنظرت فإذا بمكة أنظر إليها والأبدال، ثم قال: سلام عليك، فتح الله عليك يا عمار بما فتح على القوم، وسبب هذا كله خدمتك وانقطاعك لسالم.

ومن ذلك ما حدثني به من يُوثَّق⁽⁵⁾ به قال: كان الشيخ أبو علي سالم القديدي جالسا يوماً بباب الزاوية بقديد، ومعه الشيخ أبو علي عمار، وإذا برجل طائر في الهواء فقال له الشيخ: يا عمار يقول هذا الرجل: ما في الساحل من فيه ذوق، وينكر على الجميع يا عمار! قم وعارضه، فقام وعرضه في الهواء وقال له: ما ثمَّ مَنْ علف حصينه إلا أنت، فقال له: لمن أنت؟ فقال له: صاحب سالم وأبي هلال، فقال: داركم دار السيارة والطيارة مسلّم لكم.

ومنها: أنه كان مختصاً بخدمة الشيخ أبي علي سالم [القديدي]⁽⁶⁾، وفوض له النظر في جميع أسبابه، فحدث⁽⁷⁾ له في بعض الأعوام بمنزل العلوين؛ فكان يتردد كثيراً إليها ويعود إلى الشيخ بمنزل قديد، فأخبرني الحاج أبو يعقوب يوسف

(2) سقط من: ت.

(4) ط: موسى.

(6) سقط من: ت.

(1) ترجمته رقم (349).

(3) ت: قائم.

(5) في ط: يثق. والصواب ما أثبتناه.

(7) ت: فجرت.

المعروف أنه صَلَّى الصبح ذات يوم مع أبي علي، قال: فلما قضينا الصلاة ودُرنا حلقة كبيرة لقراءة الحزب، فإذا بحس رجل، فتأملْتُ كلامه، فإذا هو الشيخ أبو علي عمار صَلَّى الصبح بالعلوين، وجاء في ساعته إلى الشيخ، فما أدري ما ألقاه له، فانكشف له الأمر بعد وفاته أنه كان يأتي إلى الشيخ في أي وقت أراد من أي بلد كان.

ومن كراماته رضي الله عنه أن الشيخ أبا علي صَلَّى يوماً في مسجده بقديد بعض الصلوات ومعه الشيخ أبو علي عمار وقرئت المسبعات، فلما انقضت أخذ الشيخ في كرامات [الشيخ]⁽¹⁾ سيدي⁽²⁾ أبي هلال السدادي رحمه الله تعالى ثم المراقبة والخوف من الله عز وجل، فأخذ الشيخ أبا علي عمار حال، وقام إلى سارية من سواري المسجد فاستلها⁽³⁾ من مكانها وشالها ورفعها عن كتفه وقال: والله لولا الحياء من الله لبقيت الأسطوانة معلقة بين السماء والأرض. فقال له الشيخ أبو علي سالم⁽⁴⁾: استر ستر الله عز وجل، فردها إلى موضعها، وتغير الشيخ عليه لذلك، فأقعد ثلاثة أشهر، فجاءت أم أبي علي [عمار]⁽⁵⁾ تشفع عنده في أبي علي عمار، وترغب في تطيب نفسه عليه بعد أن رغب في ذلك خلق كثير، وضمته إلى صدرها، وقالت له: اقبل وسيلتي، يا ولدي وثمرة فؤادي، بالسر الذي أودعك الله ثم بالذي لي عليك من الحق إلا ما طيبت قلبك على عمار، وتعلم أنه أخوك وحبيبك وهو واحد منا. فقال لها: يا والدتي! عمار أخي وحببي كما قلت، أشهدك أنني رضيت عنه، ثم قام إليه وأخذه بيده وشاله فصار قائماً ومشى وما بقي له شيء. وما ذلك إلا أن الشيخ أبا علي أراد منه أن يلزم السر ويثبت ويفتح الله عليه أكثر من ذلك وتغيره عليه إنما كان تغير أدب لا تغير انقطاع. ثم عقد⁽⁶⁾ أبو علي عقداً مع الله عز وجل أنه لا يلبس عمامة ما دام أبو علي سالم حياً ولا يلبس قلنسوة، ولا يجلس على دُكانٍ إذا جلس الشيخ [عليه ولو كان يسع]⁽⁷⁾ عشرة من الناس، ولا يأكل غلة حتى يسبقه الشيخ إلى أكلها فإذا سمع أنه أكل منها حينئذ يأكل منها ولو

(1) سقط من: ت. (2) ت: سيدنا.

(3) في ط: فاستدلها. والمثبت من: ب. (4) ت: عمار.

(5) سقط من: ت. (6) ب: اعتقد.

(7) في ت، ط: «ولو كانت تسع» والصواب ما أثبتناه، لأن الدكان مذكر وليس مؤنثاً.

كان بيلد آخر. ولا مشى مع أبي سالم راكباً قط أدباً معه. وكان إذا نظر [إليه]⁽¹⁾ أبو علي سالم يُطرق رأسه إلى الأرض، ويدوبُ عرقاً، ويرعد مثل الورقة في الريح العاصف، خوفاً وحياءً منه. وكان إذا قام أبو علي سالم بعد صلاة الضحى، يخرج أبو علي عمار خارج باب الزاوية ويجلس ولا يدع أحداً يدخل إليه، ولا ينصرف حتى ينتبه من نومه.

ومنها أن أبا علي عمار أصبح يوماً كسلاناً فقال له أبو علي سالم: ما قصرت البارحة في السبع الذي أضرب بالقرية الفلانية، وسمي قرية من قرى تونس، ضربته يا عمار بيدك على جنبه حتى أثرت فيها وأصبحت زرقاء. فقال له: أتدري يا عمار أنه لما ضربته وصرفته على القرية أنه همهم، لكن ما قصر الرجل الذي أعانك وقال للصيد تأدب مع عمار فانصرف وهو يبصص، فأقبل أبو علي عمار على يد الشيخ يُقبّلها وقال: يا سيدي هكذا كان.

وكان أبو علي عمار كثيراً ما ينشد إذا رأى من الشيخ أبي علي سالم بعض إعراض عنه:

لأية علة ولأي حال ⁽²⁾	صرمت حبال وصلك من حبال
وعوّضت البعاد من التداني	ومرّ الهجر من حلو الوصال
فإن ألك قد جئت عليك ذنباً	ولم أشهر ⁽³⁾ بقول أو فعال
فعاقبني عليه بكل شيء	أردت سوى الصدود فما أبالي

فيعطف عليه الشيخ رحمه الله ويكظم ما عنده عليه من غيظ. وكان غيظه عليه، إنما هو إذا رأى منه إظهار حال من أحوال الرجال، فيكره إظهار ذلك منه، ويحب منه كتمان ذلك لينتقل إلى ما هو أعلى [منه]⁽⁴⁾.

ودخل الشيخان أبو علي سالم، وأبو علي عمار لمدينة تونس، حين حضر الجهاد المذكور فيما يأتي، إلى الصلاة بجامع الزيتونة، فمرّا برجل يبيع السُّكَّر في حانوت، وكان هذا الرجل من أولياء الله تعالى فعرفاه، ووقفوا⁽⁵⁾ عليه، وقالوا له:

(2) في ط: حلول.

(4) سقط من: ت.

(1) زيادة من: ت.

(3) ت: أشعر.

(5) ت: فوقفا.

كيف تبيع هذا الملح؟ فقال لهما: أتلبسا علي وتمزحا، اسكُتا علي لئلا أصبح في الناس وأقول: إن الأولياء يمزحون إنما أنتما فلان وفلان، فطأطأ رؤوسهما وغابا عنه.

ولما نزل الإفرانسي، وشرون لعنهما الله تعالى بتونس، وذلك في سنة 668هـ لجيوش⁽¹⁾ النصراري دَمَرَهُمُ الله تعالى وضاقَ حالُ النَّاسِ، واشتدَّ الأمرُ عَلَى النَّاسِ⁽²⁾، وفزع الناس من كل فجٍّ توجه الشيخان المذكوران في جمع كثير من الناس، فلما وصلوا إلى قرب تونس نزلوا بأريانة، وضربوا خيامهم، فكانوا يمشون كل يوم [منها]⁽³⁾ للجهاد إلى أن انقضت المقاتلة بين المسلمين والنصارى، ووقع الصلح بينهم [وبين]⁽⁴⁾ أمير المؤمنين المستنصر بالله.

ثم حدث بالشيخ أبي علي عَمَّار مرض استرسال ببطنه، فأقام الشيخ أبو علي سالم بسببه هناك أياماً إلى أن مات، فدفنه بها. وقبره اليوم⁽⁵⁾ هناك معروف مشهور يزار ويتبرك به.

قلت: وكنت في أيام قراءتي بتونس نصل إلى أريانة كثير الحوائج، ونكثر من الزيارة إليه وتلاوة القرآن عنده والدعاء. وقبره مزار وعليه حُوطَة. ثم إنهم بنَوْا بجواره بيتاً للصلاة فيه⁽⁶⁾ وليكنّ الوارد من الشمس والبرد والمطر. وعملوا بئراً بقربه للوضوء منه والشرب. أنفق فيما ذكر مال كثير، فقلت لهم: ما سبب هذا الاعتناء؟ قالوا: لما شهدنا من كراماته.

منها: أن المرابط علي بن عبد الله الجعفري أتى إلى قبره وقال: يا سيدي عمار، ضاع لي ثيران وبحثت عليها⁽⁷⁾ غاية البحث بوطن باجة وغيرها وتعبت وأنا لا أبرح عن قبرك حتى أمشي بثيراني، والناس يسمعون، وورقد عنده. فلما قام ليتوضأ ويصلي الصبح داخل البلد، وجد ثيرانه عند حُوطَة الشيخ، فتسامع الناس، وخرجوا إليه من البلد إلى غير ذلك.

(1) ت: بجيوش.

(2) ت: المسلمين.

(3) سقطت من: ت.

(4) في ت: وكان.

(5) زيادة من: ت.

(6) ت، ط: فيها، والصواب ما أثبتناه.

(7) ت، ط: عليهم، والصواب ما أثبتناه.

وكانوا يسألوني عن فضائله، فنقول: وما وقفت له على شيء. ولو كان⁽¹⁾ عندهم علم بما كتبناه لازدادوا تبركاً [وقد كتبت لهم ما ذكرته عنهم ففرحوا بذلك غاية الفرح]⁽²⁾. وجميع أهل أريانة ما يتحركون بحركة حتى يقولوا⁽³⁾: أيا بركة سيدي عمار.

وكنت لما وليت قضاء بآجة، مشيت إليها في الصيف في زمن شدة الحر من سوسة، فجاءت طريقي على أريانة لأنني أعرف⁽⁴⁾ بها بعض الفضلاء، فنزلت عندهم، وكانت معي زوجتي وولدي صغير. فلما عزمنا على السفر إلى بآجة زرت الشيخ قلت⁽⁵⁾: اللهم بما قرأ وقرأ عليه، لا تجعل تزرق علينا شمس إلا من تحت السحاب حتى نصل⁽⁶⁾ لبآجة من شدة الحر. فأجاب الله دعائي ببركته، فما طلعت الشمس من تحت السحاب حتى أشرفنا عليها [نفعنا الله تعالى ببركاته آمين]⁽⁷⁾.

340 - ومنهم أبو يوسف أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن جابر الهواري القاضي: قال العواني: كان فقيهاً فاضلاً، من أهل العناية بالعلم، حافظاً للفقهاء، عالماً بالقضاء، ولي ولاية كبيرة فسار بأحسن سيرة وبأقوم طريقة. وكان محترماً في قضائه، صلباً في الحق، صارماً في أموره كلها.

341 - ومنهم أبو يوسف يعقوب بن خليفة الدهماني الفقيه العابد رحمه الله تعالى: حدثني بعض العُدُول من أصحابنا عن والده عمن حَدَّثَهُ قال: كان عربياً، فأخذه الشيخ أبو يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني وهو طفل صغير، وعلمه القرآن، وأعطاه ابنته مؤمنة، وهي صغيرة. ومشى للمشرق وجاور بالمدينة تسعة أعوام. ولما عمي الشيخ أبو يوسف في آخر عمره فَوَضَّ لولده عمر في جميع أموره، فزوج مؤمنة المذكورة من رجل من القيروان لجهله بأنها ليست محصنة فسمع الشيخ، فقال

(1) في ت و ط: كانوا، والصواب ما أثبتناه.

(2) ما بين المعقوفين سقط من: ط، والكتاب المحقق 27/4 الزيادة من: ت.

(3) في ت و ط: يقول. والصواب بصيغة الجمع كما أثبتنا.

(4) في ت و ط: نعرف. والصواب بصيغة المفرد.

(5) في ط: وقلت. والصواب بدون واو، كما أثبتناه من: ت.

(6) في ت و ط: نصلوا. والصواب ما أثبتناه.

(7) سقط من: ت.

لزوجته: أليس أنَّها مُحَصَّنَةٌ ليعقوب؟ فقالت: ويعقوب له تسعة أعوام، ولعله مات. فقال الشيخ: أتظنون أنه غائب؟ وبهت كأنه متفكر، ثم رفع رأسه ونادى: يا عمر اخرج لابن عمِّك عند باب نافع، فخرج فوجده عند بئر الدراق أشعث أغبر، فأدخله على الشيخ، وسلَّم عليه، وأمر بزوال لباسه. وألبسه لباساً حسناً، وقال له: تراهم هيؤوها لك، فخرج عمر المذكور، وعرف لمن زوجه بالواقع، فرفع يده عنها، وعرض عليه نقده، فقال: هو ضيَّافة مني للوارد، فدخل بها وماتت، وتزوج بامرأة أخرى من بني جرير اسمها: أمة الباري، وتكنى طرخانة فولدت أولاداً منه، فنُسبوا لها إلى الآن.

وقال يوماً في ميَّعاده: إذا كان يوم القيامة يتعلق الشيخ أبو يوسف الدهماني [بي]⁽¹⁾. فتعجبوا من كلامه ولم يفهموا مراده. فقال: أردت أن الخلق يتعلقون يوم القيامة بالحسنات فأنا حسنة من حسناته.

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، فقيهاً، عابداً، فاضلاً، زاهداً، ورعاً، منقبضاً، صواماً، قواماً، من أعلام طريق الإرادة، وكبار مشائخهم، صاحب رياضات ومجاهدات، وصدق ومعاملات، ممَّن يتبرك بلاقائه والأخذ عنه، واختبرت إجابة دعوته، حضر مجلسه جماعة من أصحابنا، ووصفوه بما ذكرناه من حاله. وكان جدي عبد الملك يفضلُه على أصحابه ويقول: كان ديناً منقبضاً، مقبلاً على ما يعنيه ويقربه من الله عزَّ وجل.

وحدثني: أنه دخل عليه يوماً زائراً له في منزله قال: فأنشدني:

ليس المزار على قدر الودا⁽²⁾ دولو كنا كفئين⁽³⁾ لا نزال

وكان يصفه بكثرة التواضع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجد والاجتهاد في العبادة، وحسن منهجه في سلوك طريق الإرادة.

قلت: وقال أبو عبد الله محمد بن عثمان [الحضرمي]⁽⁴⁾: كان إذا لقي الشيخ أبا علي سالم القديدي لا يطلقه لأحد ويرده إلى منزله، ويقول له: يا أخي، يابا علي تجيء إلى القيروان وتنزل عند الفقيه أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب ولا

(1) سقط من: ت.

(2) ت: الودا.

(3) ت: طهر.

(4) ت: لا يزال.

تنزل عندنا، وتعلم أن الموضع موضعك، وتعلم أن لي [إشراق عظيم]⁽¹⁾ في محبة الشيخ أبي هلال السدادي، وأن أحبه لمحبه فيك، فأنا أعتقد أنه أفرغ عليك مُهَجَّتَهُ. والأشياء كُلُّهَا بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الْجُمُعَةُ: 4].

قلت: قال العواني: وتوفي رحمه الله سنة 669 هـ.

قلت: ودفن بالقيروان بباب سلم، وقبره معروف مزار بقرب قبر الشيخ أبي بكر ابن اللباد مكتوب على مَشْهَدِهِ اسمه رحمه الله تعالى ورضي عنه.

342 - ومنهم أبو مروان عبد الملك⁽²⁾ بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عوانة إلى آخر نسب والده المتقدم ذكره:

قال العواني: كان فقيهاً صالحاً، جليلاً فاضلاً، ثقة، عدلاً، عالماً بمذاهب المالكيين، قائماً بالحُجَّةِ عنهم، بصيراً بأقوالهم، واتفاقهم، واختلافهم، ثابت الفهم، حسن الاستنباط، أحد رجال الكمال في وقته، باحتوائه على فنون المعارف، وجمعه لكليات العلوم، وحفظه لِلْسُنَنِ، وأسماء نَقْلَةِ الأخبار، بصيراً⁽³⁾ بأصول الاعتقادات وأصول الفقه، وعلمه بالفرائض والحساب والهندسة، ويجمع إلى ذلك معرفة النحو واللغة، ومعاني الأشعار، وعلم العروض وصيانة البلاغة. ودُعي إلى القضاء ببلده مرتين، فأبى من ذلك واعتذر [واعتفي]⁽⁴⁾ عنه.

وكان شيخنا الفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا الصَّدْفِي - رحمه الله - يُعَظَّمُهُ، وَيَصِفُهُ بِالْأَسْتَبْحَارِ فِي الْعِلْمِ، ويقدمه على كثير من فقهاء عصره. ولقد قال لي في حال رحلتي إليه برسم القراءة عليه: لَمْ تَرَكْتُ جَدَّكَ أبا مروان⁽⁵⁾ وَجِئْتُ إِلَى هُنَا؟ وَاللَّهِ لَا⁽⁶⁾ أَقُولُ فِيهِ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَكَانَ مِنَ الْعُلُومِ بِحَيْثُ يَقْضَى لَهُ فِي كُلِّ عِلْمٍ بِالْجَمِيعِ

(1) في ط: شرقاً عظيماً. التصويب من: ت.

(2) ترجم في: شجرة النور الزكية 1/ 273 رقم (672).

(3) ت: وبصيراً.

(4) في ت: واستغنى. وهو ساقط من: الكتاب المحقق 4/ 30 المكتبة العتيقة تونس.

(5) في ط، والكتاب المحقق طبعة تونس: أبا عمران، والصواب كما هو مثبت في نسخة ت: أبا

مروان. والوارد في عنوان الترجمة: أبو مروان وليس أبو عمران.

(6) ت: ما.

فقلت له: يا سيدي، هو وجَّهني إليك وحَضَّنِي على القراءة عليك والقليل من مثلكم رضي الله عنكم كثير، والمُؤْتَى ما يسر الحظ منكم⁽¹⁾ أثير، ومحل علمكم خطير، ومقامكم كبير، والله يتولَّى منا أحسن⁽²⁾ النيات وأحسن جزاءكم، وينفعنا الله⁽³⁾ في الدنيا والآخرة ببركات دعائكم، إنه منعم كبير.

وكان أبو⁽⁴⁾ مروان كثير الصدقة واسع الكَفِّ بِالْعَطِيَّةِ، له بذلك في الناس أخبارٌ مأثورة وطريق مسلوكة.

ووصلت إليه يوماً بطاقة من عند جاره الفقيه أبي زيد عبد الرحمن الدَّبَّاعِ⁽⁵⁾ يخبره فيها بانهراش⁽⁶⁾ داره ويقرر عنده حق الجوار، ويطلب منه بناء ما انهار من الدار، يقول في أثنائها [هذه الأبيات]⁽⁷⁾:

بنفحة تندی حسينية	تفتح ⁽⁸⁾ للمكروب باب الفرج
تأتي لإصلاح ربوع عفت	لعلَّ ذي الأزيمة أن تَنْفَرَج
وعادة الله بنيل المني	ما ضاق أمرٌ قط إلا انبلج ⁽⁹⁾

فلما قرأ رحمه الله البطاقة وَجَّهَ إلى دارِهِ من الصُّنَّاعِ مَنْ شَهَرَ مِنْهُمْ بِالِاتِّقَانِ والانطباع، فأقبلوا على بنائها مواصلين مساءهم فيها وصباحهم، وموالين غُدُوهُمْ بِرَوَاجِهِمْ، حتى كملت على أحسن الهيئات، وفوق ما أَمَلَ صاحبها فيها من الإرادات.

ولم يزل رحمه الله مستمراً على أفضل ما عُرف به من حَمْدِ الطَّرِيقَةِ، وَبَسْطِ اليدِ بِالصَّدَقَةِ، مستصحباً بعلوِّ الهِمَّةِ، والإكبابِ على نثرِ العِلْمِ والإفَادَةِ، والشُّؤْنِ المهمةِ، إلى أن جرت عليه محنة، وأزعجت المَلِكَ عن وطنه، وغرَّبه عن سَكْنِهِ، وَشَرَّقَ به القَدَرُ، فدخل طرابلس لا يستظهر إلا قميصاً، ولا يستبطن إلا قلباً تقياً، وبطناً خميصاً. وذلك في سنة 638 هـ. فاستقرَّ بها معتقلاً، واستقرَّ مقامه فيها نحو السنتين. ثم إن الملك سرَّحه من ثقافه، واعترف بفضلِه وإعفافه، على رغم الذين سعوا عليه، ورجع إلى بلده.

(2) ت: إحسان.

(4) ت، ط: ابن. والصواب ما أثبتناه.

(6) بانهراش داره: بإسقاط داره وهدمها.

(8) ت: أفتح.

(1) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(5) انظر ترجمته رقم (350).

(7) سقط من: ت.

(9) ت: انفلج.

وكان من المتهجدين بالقرآن ليلاً ونهاراً؛ ولقد رأيته يتَهَجَّدُ، وهو قد نَاهَزَ الثَّمَانِينَ، قائماً على قدميه، وربما يمر بالآية في تَهَجُّدِهِ فيكررها إلى طائفة من الليل.

وكان يتناول شراء حوائجه بنفسه. ولم يزل في الجِدِّ والاجْتِهَادِ، حتى أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ على رأس التسعين من عمره، فتوفي رحمه الله [في]⁽¹⁾ ظهر يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ذي الحجة سنة 676 هـ ودفن يوم الثلاثاء بمقربة من مسجد التوفيق. وتولى الصلاة عليه ولده محمد في جمع لا يُحصون، وكانت جنازته مشهودة. والثناء عليه جميلاً نفعه الله به، وجعله عُنواناً لما أُدْخِرَ لَهُ. وشهرته مغنية عن الإطناب في أوصافه.

وَرَثَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْإِمَامِ [بِقَصِيدَةٍ]⁽²⁾ أُولَاهَا:

أَبَى الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَفْرَقًا فَلَا تَأْخُذْنِ مِنْهُ حَيَاتُكَ مَوْثِقًا
يَمُرُّ زَمَانًا إِنْ حَلَا لَكَ سَاعَةٌ وَيُفْسِدُ بِالتَّفْرِيقِ مَا أَصْلَحَ اللِّقَا
وَيَعْزِلُ إِنْ وَلَّى وَيُكَدِّرُ⁽³⁾ إِنْ صَفَا وَيَمْنَعُ إِنْ أُعْطِيَ وَيُظْمِي إِذَا سَقَا
فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ قَدْ أَتَاكَ لَهُ الضَّنَا وَمِنْ ذِي نَعِيمٍ قَدْ أَتَاكَ لَهُ الشَّقَا
وَكَمْ مِنْ مَسْرَاتٍ فَصَارَتْ مَاتِمًا وَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ فِي سُرُورٍ وَغِبْطَةٍ
وَمَنْ لِأَصُولِ الْفَقْهِ إِنْ جَاءَ سَائِلٌ [بِأَنَّ]⁽⁴⁾ سَلِيمًا لَا تُسَلِّمُهُ الرُّقَى
وَمَنْ لِأَصُولِ الدِّينِ يَحْيِي دِمَارَهَا⁽⁵⁾ لَقَدْ كَانَ نَظَارَ الْقَدِّ كَانَ مَفْلَقَا
وَمَنْ لِعِلْمِ الْفَقْهِ مِنْ بَعْدِ فَقْدِهِ إِذَا سَامَهَا يَوْمًا بِخَيْلٍ مَخْرَقَا⁽⁶⁾
وَمَنْ بَعْدُ لِلْأَثَارِ عِنْدَ خِصَاصَةٍ لَقَدْ كَانَ مَبْدُوءًا [كُلُّ مَا انْتَقَا]⁽⁷⁾
وَمَنْ بَعْدَ ذَاكَ الْحَبْرِ⁽⁸⁾ لِلدِّينِ وَالْدُّنَى لَقَدْ كَانَ فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ مُنْفِقَا
وَمَنْ بَعْدُ لِلْأَخْذِ الْجَمِيلِ بِدِيهَةٍ لَقَدْ كَانَ مِثْلَ الْغَيْثِ يُرْجَى وَيُتَّقَى
لَقَدْ كَانَ زَيْنَ الْقَيْرَوَانِ وَإِنِهَا إِذَا أَرَعَدَ الدَّهْرُ الْأَخُونَ فَأَبْرَقَا
لَزَيْنَ بِلَادِ اللَّهِ غَرْبًا وَمَشْرِقَا

(1) زيادة من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: ويدرك وهو تصحيف للكلمة «ويكدر».

(4) ت: دماؤها.

(5) ت: آيات، وفي ط: آيات.

(6) ت: كان منتقا.

(7) ت: مبخرقا.

(8) ت: الجم.

وذكر العواني جميعها، ولكن في نسخته بخط يده محو، ولم يجد غيرها رحمة الله عليه ورضي عنه.

343 - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن جابر الهواري القاضي رحمه الله: قال [العواني]⁽¹⁾: كان فقيهاً فاضلاً، من أهل العناية بالعلم، حافظاً للفقهاء، عالماً بالقضاء، وليّ ولايات كثيرة، فسار بأحسن سيرة، وأقوم طريقة، وكان مُحْتَرَمًا في قضائه، صلباً في الحق، صارماً في أموره كُلِّهَا، متبركاً بالصالحين. توفي سنة 682هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

344 - ومنهم أبو رَحْمَة غَيْثُ بن قَاسِمِ الحُكَيْمِي المُنْعَبِد:

قال العواني: كان رحمه الله من المحزونين الخائفين، لَا يَكَاذُ يَتَحَدَّثُ إِلَّا بكى، غزير الدمعة، ما رأيتُ أَكْبَرَ مِنْهُ هَيْبَةً، وَلَا أَشَدَّ مِنْ قَلْقِهِ، ذَا تَهَجُّدٍ واجتهادٍ، كثير الصلاة والصيام والقيام، صَامَ حتى نَحَلَ وَعَلَاهُ اضْفِرَارٌ وَشُحُوبٌ، أَغْلَبَ أحواله الخوف والاستكانة. كثير الكد والجِدِّ، كُسِّيَ وجهه وجسمه النور، له شواهد ظاهرة، ودلائل عَجِيبَةٌ، وأحوالٌ صَادِقَةٌ. حَسَنَ الخلق، كثير البشاشة، بعيداً من الرِّبَاءِ والتَّصَنُّعِ، زاهداً في الجاه، كثير التواضع، لَا يَكَاذُ من تواضعه يتميز عن غيره، وَلَا يرى لنفسه قَدْرًا. صحب الشيخ جميل الحبيبي ولازمه، وأخذ عنه وبه انتفع، [ولازمه إلى أن مات]⁽²⁾ وكان من أروع المشايخ وألزمهم لطريق المتقدمين.

قلت: ما ذكره من ملازمته له إلى أن مات، لأن الشَّيْخَ حَجَّ وَجَاوَرَ إلى أن مات كما تقدم. وكان من شُجْعَانِ الْعَرَبِ⁽³⁾، فتاب على يدي الشيخ جميل المذكور، وأدى ما عليه من المظالم، وَمَكَّنَ نَفْسَهُ مِنَ الْقِصَاصِ⁽⁴⁾، فعرفني من نشق

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ط، والكتاب المُحَقَّقُ طبعة تونس. الزيادة من: ت.

(3) المراد بالعرب هم أهل البادية، أما شجعانهم هم أصحاب الجِزَابَةِ أي الذين يقطعون الطريق على النَّاسِ لأخذ أموالهم وأمتعتهم، وَحَدُّ هَؤُلَاءِ قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ وَتَصْلِيْبِهِمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى يَمُوتُوا. لما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: 33].

(4) الْقِصَاصُ: الْحَدُّ. لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: 178].

به عمن حدثه أنه قَطَعَ يد رجل في حال عَمِّهِ⁽¹⁾ من أهل قلعة سِنَانٍ، فمشى إليه وحده وعليه مُرَقَّعَةٌ، فلما وصل قال⁽²⁾: أين فلان؟ فحضر، فقال: أنا غَيْثُ بن قَاسِمٍ الذي قَطَعْتُ يَدَكَ، وَجِئْتُكَ لِتَقْتَصِرَ مِنِّي، فَفَرَحَ بِذَلِكَ هو وجماعته وأوقدوا النَّارَ، وَأَحْضَرُوا الْقَطْرَانَ وَمَغْرُوساً قَاطِعاً لِقَطْعِ يَدِهِ، وهو رضي الله عنه ما تحركت له شَعْرَةٌ، وَلَا تَغْيِيرَ لَوْنٍ⁽³⁾ وجهه، لأنَّ مقصده الخلاص في الدنيا. فقال بعضهم لبعض: هذا رجل تاب [إلى]⁽⁴⁾ الله عز وجل، وقطعنا ليدِه ما فيه فائدة، وإنما يتحدثُ النَّاسُ بِفِعْلِنَا لو قدرنا عليه في حال عَمِّهِ⁽⁵⁾، وفعلنا به ذلك، وأما اليومَ فعارُ بنا. فتركه الرجلُ وعفا عنه وبقي رحمه الله [يتهجَّد]⁽⁶⁾ ويتعبد بزاوية الشيخ جميل بضعة عشر عاماً.

وقال الشيخ أبو علي سالم القديدي: قال لي الشيخ أبو هلال السُّدَّادِي: ما خَلَفَ الشيخ أبو الزين جميل إلا غَيْثٌ.

قلت: وحدثني الشيخ الفقيه العدل أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الطنقي وكان من الصَّالِحِينَ، وممن يشهدُ بين النَّاسِ بِبَاجَةٍ بلا أَجْرٍ، فقال: حدثني من نثَقُ به: أَنَّ الشَّيْخَ الصَّالِحَ أبا عبد الله محمد بن سَخْنُونِ الدُّكَّالِي⁽⁷⁾ لما كان بِسُوسَةَ أَتَى إليه جماعةٌ من أهلها فوجدوه فوق سورها فقالوا له: أما تنظرُ ما النَّاسُ فيه؟! هذا نَجْعٌ⁽⁸⁾ حَكِيمٌ، وصل إلى الزَّرْعِ وَالْجِمَالِ تَأْكُلُ فيه فنطلب منك أن تخرج إليهم، فقال: أَوْ [مَا]⁽⁹⁾ علمتم أني لا أخرج؟ فَأَلْحُوا عليه، فقال: يا غَيْثُ بن قاسم فأخذوا عليه في كلامه هذا ولم يعرفوا له معنى، وإذا بفارسٍ على فَرَسٍ حمراء وبيده قضيب، وهو يركضُ وَيَضْرِبُ النَّاسَ بِقَضِيْبِهِ وَالنَّجْعُ هَارِبٌ منه، حتى أخرجهم من

(1) ت: عَمِّهِ. وَالْعَمُّ هُوَ: التَّحْيِيرُ وَالتَّرْدُدُ فِي الضَّلَالَةِ. لسان العرب مادة «عمه» 519/13. وفي قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

(2) في ت و ط: فقال. والصواب ما أثبتناه.

(3) ت: له. (4) سقط من: ت.

(5) ت: عمه. (6) سقط من: ت.

(7) ترجم له برقم (347).

(8) نجع: النَّجْعَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ: الْمَذْهَبُ فِي طَلَبِ الْكَلَالِ فِي مَوْضِعِهِ. مادة «نجع» لسان العرب لابن منظور 347/8.

(9) سقط من: ت.

جميع الزرع. فنظروا فإذا هو غيث بن قاسم الحكيمي هذا. فهي كرامة للشيخ الدكالي وكرامة للشيخ غيث، إذ سمع قول الشيخ، وبين سوسة والقيروان ستة وثلاثون ميلاً⁽¹⁾ مع كونه عمل المسافة خطوة أو خطوتين.

وبنى داراً خارج القيروان المختصر وسكنها بأهله، وبني المسجد المعروف بمسجد الشيخ ابن عبد الرحمن الحبلي، وبني الناس بجواره يميناً وشمالاً حتى كثر الخلق بربضه، وكان يذُبُّ عن أهله غاية الذب، وإذا غَلَبَهُ أمرٌ استَعَانَ بغيره.

فذكر الشَّيْخُ أبو عبد الله محمد بن عثمان⁽²⁾: أَنَّ الشَّيْخَ الصَّالِحَ أبا رَحمة غيث هذا، جاء إلى الشيخ أبي علي سالم القديدي بزاويته [بقديد]⁽³⁾، فلما سلَّم عليه قال له: ما جاء بك يا أبا حرمة غيث؟ قال: يا سيدي أبا علي سالم، الذئب يدخل الزَّرْبِيَّةَ وأنت في الحياة قال له: وما الأمر؟ قال له: ابن عتيق تحلف في الربض أن يهدمه⁽⁴⁾! يكون هذا وأنت في الحياة! وكان من قواعد أبي عبد الله المستنصر⁽⁵⁾ بالله⁽⁶⁾، قال: لا تخف ما يجري بحمد الله إلا الخير والعافية، فإن عوائد الله بنا جميلة سبحانه لا إله إلا هو، استرح وَأَزِلْ هَذَا التَّعَبَ مِنْ خَاطِرِكَ. وكان ابن عثمان نزل تلك الليلة بمنزل الأجم في محلة كبيرة، فبعث الشيخ له رجلين بعد صلاة العشاء الآخرة وقال لهما: قولاً له يَصِلُ إِلَيَّ غدوةً. فلما وصل إلى باب الزاوية نزل على ظهر جَوَادِهِ ومشى على قدميه حتى وصل إلى الشيخ وَتَمَرَّغَ على قَدَمَيْهِ وقال له: يا سيدي مَا حَاجَتُكَ؟ وَمُعْتَقْدُكَ عامل على زيارتك، فقال له: كيف تعمل على زيارتي وقلبك عامر بالمضرة للناس؟ ثم إنك تَتَحَلَّفُ في أهل الربض، وهذا الشيخ أبو رَحمة بين أظهركم⁽⁷⁾، فإن كنت تحبني فَجِبِّهِ وأكرمه واترك ما خطر لك من ضرر الربض وغيره. فقال: نعم ما تأمرني به بالسمع⁽⁸⁾ والطاعة. فلما رأى إكرامه بالشيخ غيث وقع على رجليه يقبلهما، وعظمه لتعظيم الشيخ سالم له. فقدم الشيخ طعاماً،

(1) الميل يساوي = 1506 مِثْراً. (2) انظر ترجمته رقم 359.

(3) سقط من: ت. (4) ت: يدمه.

(5) ت: المتنصر.

(6) هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الواحد الهتاتني نسبة إلى هَتَاتَةَ قبيلة من البربر بالغرب كان مَلِكاً شَدِيدَ البَاسِ تَمَلَّكَ تونس سنة 647هـ. توفي سنة 675هـ. ترجم له في شذرات الذهب 349/5.

(7) في ت: أظهرهم. (8) ت: فالسمع.

فرغب إليه أن يُطعمه لقمة بيده تبرُّكاً بيده المباركة، ففعل⁽¹⁾ الشيخ ذلك، ثم ودعهما وانصرف. ثم قال الشيخ: يا أبا رحمة لا تعمّر بباطنك غير الله - فإن الله يدافع عنا، قال الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: 38]⁽²⁾. ففرح أبو رحمة وقال له: أنت شيخنا⁽³⁾ وشيخ أهل الطريقة، وما دمت في الحياة ما نرى ببركتك تشويشاً أصلاً، فإن الفقير الجيّد إذا كان في القافلة لم تُنهَب. فالله يُثبِّك علينا وعلى جميع المسلمين. ثم بات عند الشيخ تلك الليلة. فلما أصبح ودّعه وقال له: يا سيدي أبا علي طمّنتنا طمّنك الله، وطمّنت أهل الربض، الله لا ينساها لك. وركب فرسه ورجع فرحاً مسروراً، وما كان مذهب الشيخ أبي علي سالم إلا إدخال المسرات على قلوب الإخوان.

قال العواني: توفي أبو رحمة غيث سنة 684هـ.

قلت: وفيما قاله نظر، لأنني وقفت على رسم وصيته بالشهادة العادلة في مرضه، ولم يقل: الذي مات فيه، مؤرخ بالثالث والعشرين لجمادى الآخرة من سنة 685هـ. وقبره مزار وعليه أنوار، بجبانة باب تونس. وخلف - رحمه الله - لذريته من الربع بظهير السلاطين من الأرض والهناشر للحرث ما لا يقدر⁽⁴⁾ على تعميره بالحرث، فجرت العادة بحرث الناس معهم ويأخذوا⁽⁵⁾ الحكر⁽⁶⁾ منهم، ويختص الفقير منهم بالعشر في زماننا اليوم. وذريته اليوم من الرجال البالغين نحو العشرين [رضي الله عنهم أجمعين]⁽⁷⁾.

345 - ومنهم أبو علي عمر⁽⁸⁾ بن عبد العالي الربعي الفقيه القاضي رحمه الله:

قال العواني: كان رحمه الله فقيهاً، صالحاً، فاضلاً، عدلاً، ذا فهم وذكاء، مشهوراً بالفضل والصلاح. وله مشايخ⁽⁹⁾، وروايات كثيرة. ولي قضاء مدينة القيروان وغيرها من البلدان، فسار في ولايته سيرة قضاء العدل، وجرى على طريق

(1) ت: فقال.

(2) بسورة الحج آية: 36 بترقيم ورش، وبترقيم حفص آية 38.

(3) زيادة الواو من: ت، وساقط من: ط.

(4) الصواب: ما لا يقدر⁽⁴⁾ون.

(5) الصواب: ويأخذون.

(6) من الاحتكار.

(7) سقط من: ت.

(8) في ت: عمر بن إبراهيم.

(9) ت: مشايخ «جُلَّة».

أرباب الديانة. وتوفي رحمه الله تعالى بالقيروان في نصف شعبان سنة 684 هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه.

346 - ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد البلاغ الأندلسي الجباني الزاهد رحمه الله :

قال العواني: كان من أهل العبادة، والتقشف، والورع، والانزواء، والزهادة ورقة القلب، كثير الأخذ على لسانه، قد عطف من عنانه، كثير الصيام والقيام والناس نيام، يمر النهار فلا يأخذ من بطنه، ويمر الليل فلا يأخذ من عينه، مع جد واجتهاد، وتقليل وانقباض، وكآبة وحزن، وتوحيش وإطراق ومخافة. جالسته وشاهدته فما رأيت مثله في وقته في انقطاعه وتجرده، كان حجة على الفقراء. توفي سنة 687 هـ. ودفن بداخل القيروان بدار ابن رحمون. وكان الجمع⁽¹⁾ في جنازته عظيماً، والثناء عليه جميلاً.

قلت: وقبره مزار، والربع الذي بجوار الدار المدفون بها كله يعرف لابن رحمون المذكور رحمه الله تعالى.

347 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سحنون الدكالي:

نزل القيروان واستوطنها، ودرس بها العلم، وأقام فيها مدة كثيرة، واتخذ بها داراً، ثم إنه ارتحل إلى سوسة للرباط لحراسة المسلمين، فلم يزل إلى أن توفي.

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، فاضلاً، عادياً، ناسكاً، صواماً، قواماً، خيراً، عليمًا، نزهاً، ورعاً، عفيفاً، سخيًا، عاملاً، ولياً من أولياء الله، قد جمع مع وقار العلم هيبة أهل الصدق والولاية، من علماء مشايخ القوم، لم يتكلم أحد في التصوف⁽²⁾ مثل كلامه. وكان عالماً بأصول الدين والعلوم الظاهرة والباطنة، وما رأيت في وقته مثله. وكان في غاية الخمول لا يرى لنفسه قدراً.

نشأت على الأخذ عنه والجلوس، فرأيت له براهين كثيرة. وله مناقب كثيرة وكرامات شهيرة، منها: أنني كنت في حال قراءتي عليه، لا أجلس بين يديه إلا على وضوء غالباً، لا سيما إذا قرأت عليه شيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ، فجلست بين

(1) ت: الحمل.

(2) في ط: التصرف، التصويب من: ت.

يديهِ يوماً وكنْتُ على غير وضوء، فقرأتُ عليه شيئاً من الفرائض، ثم أردتُ أن أقرأ شيئاً من الحديث، فقال لي: «يكفيك ما قرأت». فوضعتُ الكتابَ من يدي. فلما انصرف الناس وقام من مَجْلِسِهِ⁽¹⁾ إلى داره، تَبِعْتُهُ على جَرِي عَادَتِي، فلما انتهى إلى الدار، اِلْتَفَتَ إِلَيَّ وأشار لي بالدخول إلى داره، فدخلت، ثم قال لي يا ولدي لم خالفتَ ولم تجرِ على عادتك؟ الحديث لا يُقْرَأُ إلا على طهارة. فقلتُ له: يا سيدي ضاقَ الوَقْتُ على الوُضوءِ وَخِفْتُ فَوَاتَ المِيعَادِ فهذا الذي حملني على ترك الوضوء، ثم انصرفْتُ عنه وعاهدت الله عزَّ وجل أن لا أجلس بين يديه إلا على طهارة.

وأخبرني الشيخ الفقيه القاضي الأعدل أبو زيد عبد الرحمن القطان السوسي قال: دخلتُ عليه يوماً أَعُوذُهُ، فقال لي: يا أبا زيد، عليك بقراءة كُتُبِ الأَحْكَامِ والإكثار من ذلك، فإنك سَتَبْلَى بالقضاء، فكان كذلك. وَلِي ولايات كثيرة، وكان مُسَدِّداً في أَحْكَامِهِ.

وأخبرني جماعة من السوسيين⁽²⁾ أنهم كانوا عنده في داره فقرع عليه⁽³⁾ الباب فأخبر الشيخ أن الفقيه أبا زيد القطان واقف بالباب، فقال الشيخ: قاضي الجماعة؟ فقال له المستأذن: لا يا سيدي، أبو زيد القطان هو، فقال له: نعم إِنْذَنْ له قاضي الجماعة هو، فَعَجِبْنَا من ذلك، فأقام أعواماً ثم إنه أَشْخَصَ إلى تونس وقُدِّمَ بها قاضياً، فَعَلِمْنَا أَنَّ الشيخ كُوْشِفَ لَهُ عَنْ أَمْرِهِ.

وأخبرني بعضهم أن حافظاً كان عندهم أساء معاملته الناس وظلمهم، وأن رجلاً أتى إلى الشيخ وشكا له به، وأنه أخذ له عَسَلًا، فبعثَ الشيخُ للحافظ وقال له: أَعِدْ على هذا المظلومِ عَسَلُهُ، فقابل الرسول بمقابلة سيئة وقال له: أَكَلْتُهُ، ووضع يده على حلقه. فأخبر الرسول الشيخ بذلك، فغضب واحمرَّ وَجْهُهُ وقال: يقطع حلقه إن شاء الله تعالى. فلم تمضِ إلا أيام يسيرة وضربت عنقه.

(1) في ط: مسجده، التصويب من: ت.

(2) السوسيين نسبة إلى سوسة بتونس، وليس سوس المغرب الأقصى.

(3) ت: عليهم.

ذكر بقية أخباره رضي الله عنه

قال أبو عبد الله محمد بن عثمان الحضرمي⁽¹⁾ أتى الشيخ الدكالي زائراً لأبي علي سالم القديدي بمنزل قديد، ففرح به فرحاً شديداً وأقام عنده أياماً، ثم نزع أبو علي سالم طيلساناً [كان عليه]⁽²⁾ وأعطاه له كله. فقال له: ومن الدكالي حتى يلبس خرقاً لمست جسمك؟ ما أقدر على هذا الحق الكبير، ولا أقوم به، وما نحب منك إلا أن تكون⁽³⁾ أنا سالم تلميذ، وأنت أبو هلال. فقال له: ما نحن إلا إخوة، أعطيتك الفاني لننال⁽⁴⁾ الباقي كسوت⁽⁵⁾ ظاهر، لتكسو باطني، فبكى أبو عبد الله الدكالي وخشع، وقال له: بالله لا تفعل، هذا فضل منك واستئناس لقلوب إخوانك، لا عديمناك يا شيخ الفتوة.

وأناه مرة أخرى زائراً، فتوضأ ولم يشعر بأن أبا علي سالم [قبالة ينظر إليه، فلما رفع الدكالي رجله إليها ليغسلها نظر إلى أبي علي سالم]⁽⁶⁾، وهو قبالة وجهه وهو منحني على مرفقه، فقام ووثب وقطع وضوءه، فقال له أبو علي: ما بالك يا سيدنا الشيخ قطعت الوضوء وفي كريم علمكم - نفع الله بكم - أن الوضوء لا يقطعه إنسان إلا إذا خاف الهلاك، أو شيئاً يضره من لصوص أو سباع أو شيء من المخوفات؟ فقال له: يا سيدي أبا علي! وأي شيء⁽⁷⁾ أعظم من هذا الخوف؟ الذئب يثبت قدام الأسد؟ كيف يا سيدي أبا علي الدكالي يرفع قدمه في وجه شيخه [شيخ ومتأدب]⁽⁸⁾ مع أولياء الله تعالى؟ بالله يا سيدي أبا علي بحق من وهبك السر إلا ما فتيت علينا، ولا تؤاخذنا، فإنه لولا فضلك ما صجبتك⁽⁹⁾ أحد ولا يقدر يصحبك. فقال له: إني أحب أن أقتدي بالعلماء، فإنه ما يُعبد الله إلا بالعلم. قال الله العظيم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]. ثم أخذ يؤانسهُ ويلاطفهُ ويقول له: يا سيدي أبا عبد الله ما أنت إلا أخي وحببي

(1) ترجم له برقم (359).

(2) سقط من: ت.

(3) كذا في ط و ت. والصواب: أكون. (4) في ت: لتال.

(5) ت و ط، كسيت. والصواب ما أثبتناه.

(6) ما بين المعقوفتين سقط من: ط، الزيادة من: ت.

(7) سقط من: ت. (8) في ت: شيخ الحقيقة مع ما يتأدب.

(9) ط: صحب. التصويب من: ت.

وبركتي، فيقول له أبو عبد الله الدكالي: لَا تَفْعَلْ، مَا أَنَا نَجِيء إِلَّا نَسْتَرْغِبُ النَّظَرَ⁽¹⁾ في وجهك يرحمني الله بها.

وكان من عادة الشيخ الدكالي زيارته في كل عام⁽²⁾، وكان أبو علي يبعث بالنفقة إليه ويقول له: اعمل الميعاد، واخْتَلِ⁽³⁾ بنفسك، ولا يكون في قلبك شيء من الدنيا نوجه إليك ما يكفيك من النفقة إن شاء الله تعالى. وكان الدكالي لا ينساها لك يا سيدي سالم.

ذكر وفاته رحمه الله تعالى

قال العواني: توفي [الشيخ]⁽⁴⁾ بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثالث عشر من شعبان المكرم سنة 696 هـ. وَصَلَّى عليه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الخطيب بعد صلاة العصر من اليوم الثاني وقبره جبلي مدينة سوسة. وحضر جنازته جمع من الناس. قيل: ما اجتمعوا على جنازة غيره في وقته وكسروا نعشه من كثرة ازدحامهم عليه، وأخذوا من تراب قبره للاستشفاء والتبرك، وقبره هناك يُزَارُ ويتبرك به.

قلت: ظاهره إِسْتِحْسَانُ ما فعلوه من الأخذ من تراب قبره، وتقديم ما فيه.

ولما وليت قَضَاءَ سُوْسَةَ كُنْتُ أَكْثَرُ الزَّيَارَةِ لِقَبْرِهْ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ نُورًا، ووجدت من ذريته عدلين من عدولها: «محمد وسحنون»⁽⁵⁾، فكنت أحبهما، وأكرمهما إكراماً للشيخ - نفعنا الله ببركاته - قال: وللفقيه أبي زكرياء يحيى بن عتيق الهواري فيه قصيدة أولها:

أيا سُوْسَةَ الْغُرَاءِ نُورُكَ يَلْمَعُ	بنور إمام في تُرَابِكَ يَضْجَعُ ⁽⁶⁾
بك العالم المشهور في الناس فضله	إمام جليل القدرِ عالم ⁽⁷⁾ مرفع
له فضل نُسُكِ في العباد وخشية	يقوم بأي الذكر والناس هجع
وذاك ابن سحنون محمدنا الذي	إليه من الأمصار ذا الخلق تفرع

(1) ت: نظرة.

(2) ت: يوم.

(3) ت: واشتغل.

(4) سقط من: ت.

(5) كذا في ط و ت. والصواب: «محمدًا وسحنونًا».

(7) ت: عال.

(6) ت: مُضْجَعُ.

لشمس الضحى والبدر في الأفق يطلع
لقد كان للإسلام كهفاً وملجأ
تَوَفَّقَهُ أَمَلَاكُ الْمُهَيِّمِينَ طَيْباً
مُقِيلَ لَهُ أَعْلَى الْجَنَانِ وَمَرْتَعُ
فِيَا فَوْزٍ مِنْ صَلَّى عَلَيْهِ وَزَارَهُ
فَبِالْفَوْزِ وَالْغُفْرَانِ وَالْخُلْدِ يَظْمَعُ

348 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن يخلف بن أبي بكر بن طريفة الرباوي الزاهد العابد رحمه الله تعالى:

قال العواني: كان من أعلام طريق الإرادة⁽¹⁾، أُوحد أهل وقته في طريقته، وأعلامهم همة وأثحتهم⁽²⁾ ديناً، وأقواهم يقيناً، زاهداً في الدنيا، منقبضاً عن الناس، مائلاً إلى الخمول. قد فاق في الزهد والورع أهل وقته. وكان العمل أملك به، مع حسن هدي، واستقامة طريق، وإظهار نُسْكٍ، وَصِدْقٍ لَهْجَةٍ، وَطَيْبِ أَخْلَاقٍ. وَتَرَكَ الدنيا، وأقبل على الآخرة والعبادة ومجانبة السُّلْطَانِ. وكان من الورعين البكّاءين الخاشعين، على هدي السَّلَفِ الصَّالِحِ. في أحسن عيشة، يلبسُ الخَشِينَ مِنَ الصُّوفِ، ويأكلُ من الشعير مَا يَسُدُّ جُوعَهُ مما يَحْدُثُ بِنَفْسِهِ، يأخذ منه ما يقاتُ به ويتصدق بما فضل منه.

ولقد شاهده في بعض السنين وقد أصاب زرعهُ بَرْدٌ ذَهَبَ بِجَمِيعِهِ ولم يَبْقَ له منه ما يقاتُ به، فكان يخدم بالإجارة مع البناة⁽³⁾، وخدم عندنا يوماً مع البنّائين، فكان يُجْهِدُ نَفْسَهُ فِي الْخِدْمَةِ فيقول له والدي رحمه الله: ارفق [بنفسك]⁽⁴⁾ وَلَا تُكَلِّفْهَا شَطَطاً فِي الْخِدْمَةِ، فيقول له: أنا أجيرٌ، وَلَا يَسْعُنِي أَنْ أَتَرَكَ مِنْ جُهِدِي شَيْئاً، فلما كان آخر النهار الذي يخدم فيه، دفع له مع أجرته عشرة دنانير وقال له: يا سيدي خذ هذه وسّع بها على نفسك، فامتنع من قبولها ولم يأخذ إلا أجرته خاصة.

(1) جاء في الرسالة القشيرية أن الإرادة بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنما سُمِّيَتْ هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مُقَدِّمَةٌ كُلِّ أَمْرٍ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله. الرسالة القشيرية ص: 201 دار الجيل ط II.

(2) كذا في ط، ت. ولا معنى لها في هذا القول، بينما في ت: ورد باللفظ التالي: «وأثحتهم دُنْيَا».

(3) ت و ط: البنات. (4) ساقط من: ت.

ذكر كراماته رضي الله عنه⁽¹⁾

حدثني أبو عبد الله محمد بن شبل عمن حدثه قال: اجتازت امرأة على ثوره وهو يسني عليه في سَانِيَّةٍ، فأعجبها، فقالت: تمنيت أن أكل من لحم قِطْنَةٍ⁽²⁾ هذا الثَّورُ فسمعها⁽³⁾ الشيخ، أو أخبر بذلك، الشُّكُّ مِنِّي في ذلك، فقال لمن حضره: اتبعها حتى تَعْرِفَ دَارَهَا، ففعل ذلك فأمر بذبحه، والحاجة به ضرورة مع كمال فقر الشيخ، وبعث لها منه ما اشتهدت وفرق الباقي، فأصبح الذي يخدم في السَّانِيَّةِ كالمتأسف، وخاف هلاك الزرع لعدم السَّني، فوجد في مجرى⁽⁴⁾ البئر ثوراً على صفة ثور الشيخ سواء، بحيث [إذ]⁽⁵⁾ لو لم يُذْبَحْ ثور الشيخ لشهد في هذا أنه هو، فعلم الشيخ أنه رزق ساقه الله له فأكمل عليه خدمة السانية وبقي عنده.

وقال أبو عبد الله محمد بن عثمان⁽⁶⁾: حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد الرباوي وقصد به تعظيم الشيخ أبي علي سالم القديدي قال: كنت في يوم الجمعة قريباً من التأهيب فقالت لي الزوجة: إملأ لنا القُلَّةَ قبل أن يغلق بابُ الجَلَادِينِ، فقلت لها: نعم أصل إلى موضع ثم آتيك قريباً إن شاء الله، فوقع في نفسي تلك الساعة زيارة الشيخين أبي علي سالم القديدي، وأبي علي عَمَّار⁽⁷⁾ فوصلت في ساعتني إلى قديد فلم أجدهما، فجئت إلى الكنائس فألفيتهما بها، فاجتمعت بأبي علي سالم وسلمت عليه، وَقَدَّمْ لي لَحْماً بَارِداً وَفَطَائِرَ، فقلت له: أين أبو علي عمار أَسَلَّمْ عَلَيْهِ؟ وإذا به قد خرج من الحائط من غير باب! وقال لي: [ما تريد]⁽⁸⁾ يا صاحب السُّوَيْيَّةِ، وكانت لي سوينية كثيراً ما أشتغل بها، فمن ذاك سماني بذلك، فقال لي الشيخ أبو علي: أرى زوجك تقول ما أبطأه عن أن يملأ⁽⁹⁾ لي القُلَّةَ، فسمعتها بأذني، فقال [لي]⁽¹⁰⁾: امض تلحق الصلاة، فإن الإمام قريب أن يطلع

(1) صيغة الترضي سقطت من: ت.

(2) القطنة: ما بين الوركين. القاموس المحيط مادة «قطن» ص: 1104 دار الفكر لبنان.

(3) في ت و ط: فسمعهما. والصواب ورد بصيغة الأفراد كما أثبتناه.

(4) في ت و ط: مجرى.

(5) سقط من: ت.

(6) انظر ترجمته رقم (359).

(7) انظر ترجمته رقم (339).

(8) ت، ط: يملئ.

(9) زيادة من: ت.

(10) سقط من: ت.

يخطب، فجئتُ إلى الجامع ودخلتُ من الباب الغربي وبجسمي تَهْرِيسٌ، فركعت. ثم جلست فأخذتني سِنَّةٌ، وإذا برجل عن يميني فَلَكَزَنِي بِيَدِهِ، فنظرتُ فإذا هو الشيخ أبو علي سالم، ثم لكزني آخر عن يساري، فنظرت فإذا هو الشيخ أبو علي عَمَّار، فقلت: ما ساقني الله تعالى إلى هذا الموضع إلا أني أجلس بين صَيِّدَيْنِ، فعلمت أن الشيخ سالمًا⁽¹⁾ لم تَفُتْهُ الخطبةُ بجامع القيروان، ولولا فضلُ الله تعالى ثم اتساع باطن الشيخ، مَا مَلَكَ أَحَدٌ نَفْسَهُ أن يثبت بين يديه، فإن السِّرَّ الذي أعطاه الله أغناه به عمن سِوَاهُ.

ولما قدم والدي عثمان، وهو ابن أخي الشيخ أبي علي سالم وجماعة من أصحابه من الحج، مَشَى من أهل القيروان وبني جرير برسم تهنئته لقدم ابن أخيه، فساروا في الطريق والشيخ الرباوي ماش على قدميه، فرغب إليه من معه في الركوب، فامتنع من ذلك، فَأَلْحُوا عليه ورغبوه بما أجابهم لذلك. فلما وصلوا إلى قديد فرح بهم [الشيخ]⁽²⁾ وقال للرباوي: يا سيدي أبا عبد الله هات رَجُلَاكَ، فإنني أرى بهما⁽³⁾ أثر الشوك، فلأي شيء لم تتركب؟ فسكت عنه، ثم قال لمن وصل معه: لأي شيء لم تُركبوا سيدي أبا عبد الله؟ فأخبروه أنهم رغبوه في ذلك فامتنع، فقال له الشيخ أبو علي: لأي شيء كان ذلك؟ فأمسك عن الجواب، ثم كرر عليه وأمسك عن الجواب، ثم قال كذلك في الثالثة، فقال له: يا سيدي أبا علي كيف أركب وأنت بجنبي تمشي، أما أستحي من الله عز وجل ونتأدب مع ولي الله تعالى، فَصَمَتَ الشيخ ولم يُعد عليه كلاماً.

قلت: وإنما ذكرت هذا في كرامة الشيخ الرباوي لأن طلب الشيخ أبي علي سالم منه الجواب مراراً يقتضي أن الشيخ أبا علي اعتقد أن الرباوي لم يره كَمَن معه. فهي كرامة لهما معاً والرباوي أخص بها. والله أعلم.

قال العواني: ومن كرامات الشيخ الرباوي أن أبا [علي]⁽⁴⁾ زيد عبد الرحمن الفازازي، كان خرج من تونس بِمَحَلَّةٍ وافرة، وَتَوَاتَرَتْ عنه الأخبار، أنه أَضْمَرَ شَرًّا لأهل القيروان، ففزع جماعة من أهل البلد إلى الشيخ أبي عبد الله وأعلموه بالخبر،

(1) ت، ط: سالم.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: فيهم.

(4) سقط من: ت.

وأن أبا زيد الفازازي وصل إلى قصر الزيت واصلأ إلى القيروان، وأنه عزم على هدم سُورِهَا واستباحة أهلها، فقال لهم الشيخ الرباوي: قد كفاكم الله شره، وأنه لا يتجاوز المكان الذي هو به، فبعد يومين أو ثلاثة⁽¹⁾، وصل من عَرَفَ بموت الفازازي بالموضع الذي كان به، فذهبتُ لأعلمه بذلك، فقال لي: قد أهلك الله الفاجر منذ ثلاثة [أيام]⁽²⁾.

قلت: وسمعت أبا عبد الله محمد بن شبل يحكي عن حدثه أن أهل القيروان، كانوا إذا أتوا إلى الشيخ الرباوي في شأنه يقول: امشوا إلى الشيخ أبي علي سالم القديدي، فيمشون فيشتكون له فيقول لهم: امشوا إلى الشيخ الرباوي. وهكذا حتى نزل المكان المذكور اشتد خوف الناس فأتوا إلى [الشيخ]⁽³⁾ الرباوي، فخرج معهم حتى وصل فوق المزبلة وأخذ ركيزاً وضرب به طلقاً، فجاء واقفاً ودخل فورخُوا بِلُك الساعة، فتبين أن الفازازي كان في أصحابه جالساً فقال: قلبي، قالوا له: ما شأنك؟ قال: وقف علي رجل من صفته كذا وكذا، وضربني بِرَكِيزٍ علي قلبي، فقالوا له: هذه الصفة هي صفة الشيخ الرباوي، وكنا نحذرك⁽⁴⁾ منه. فما زال يقول: قلبي حتى مات.

وقال أبو عبد الله محمد بن عثمان: ذكر للشيخ أبي علي سالم القديدي حديث الفازازي فاهتم لذلك، ثم بعد ذلك ذكر عنده فقال لهم الشيخ أبو علي: قد مات، وهذه روحه صُعد بها، وأشار بأصبعه نحو السماء فورخ ذلك اليوم، فوجد اليوم [الذي]⁽⁵⁾ مات فيه.

قال: ودخل الرباوي يوماً على الشيخ أبي علي، كان من عادته إذا دخل عليه الشيخ الرباوي يقوم إليه ويفرح به، إلا في ذلك اليوم لم يقم له، فوقع في نفس الشيخ الرباوي أنه وقع عند الشيخ أبي علي غيار أوجب ذلك، فقال له: يا شيخ كيف أقوم لك وأنت تعطي يدك وهي ندبة للصغير والكبير يقبلها؟! فقال: يا سيدي نكف عن ذلك. فخرج من الزاوية فلقية رجل، فطلبه أن يقبل يده فامتنع من ذلك، فوقع على رجله يقبلهما، فقال في نفسه: يداي كانا أولى بذلك. فما مشى إلا

(1) في ت: زيادة «أيام» بعد ثلاثة.

(2) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) في ت و ط: نحذرك.

(5) زيادة من: ت، وساقط من: ط.

يَسِيرًا وَإِذَا بَشِيَ لَظْمُهُ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ لَهُ: يَدُكَ فِيهَا رَاحَةٌ لِلنَّاسِ فَلَا تَمْنَعُهَا عَنْ أَحَدٍ. قَالَ: فَرَجَعْتُ لِأُخْبِرَ سَيِّدِي الشَّيْخَ بِمَا جَرَى لِي، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَيْهِ قَالَ لِي قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَهُ: مِنْذُ أَطْلَقُوا يَدَكَ فَلَا تَمْنَعُهَا.

قُلْتُ: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ شَبْلٍ يَحْكِي عَمَّنْ حَدَّثَهُ: أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ الرَّبَاوِيَّ، كَانَ يَرْقِي حَتَّى النِّسَاءَ مِنْ فَوْقِ الْعِبَاءَةِ، فَأَكْثَرَ النَّاسُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ فَتَرَكَ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ بِنِسَاءِ أَهْلِ الْقَيْرَوَانِ دَاءً إِلَى أَنْ تَقُولَ الْمَرْأَةُ لَزَوْجِهَا: إِنْ لَمْ تَمْشِ مَعِيَ لِلشَّيْخِ الرَّبَاوِيِّ وَإِلَّا نَمُوتُ، فَيَمْشِي بِهَا إِلَيْهِ، وَيَجْتَمِعُ عِنْدَ بَابِهِ خَلْقٌ وَهُوَ يَمْتَنِعُ. فَلَمَّا مَشَى لَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ خَرَجَ لَهُ مِنَ السُّورِ رَجُلَانِ قَالَا لَهُ: لِمَ لَمْ تَرُقْ؟ فَأَتَى إِلَى الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ [سَالِمٍ]⁽¹⁾ فَوَجَدَهُ فِي بَابِ الزَّائِيَةِ وَيَدَاهُ مَفْرُوقَتَانِ، فَبَادَرَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ، وَأَعْلَمَهُ بِمَا قَالَا لَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْجِعَ لِمَا كَانَ يَفْعَلُ فَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدِي وَاللَّهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ [أَضَعَ يَدِي]⁽²⁾ عَلَى عِبَاءَةِ امْرَأَةٍ⁽³⁾ وَبَيْنَ أَنْ أَضَعُهَا عَلَى حَائِطٍ.

ذِكْرُ بَقِيَّةِ أَخْبَارِهِ

سَمِعْتُ مِنَ الْقُرَوِيِّينَ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا أَنَّ سُورَ مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ كَانَ غَيْرَ طَوِيلٍ، فَوَقَّفَ الشَّيْخُ فِيهِ وَزَادَ حَتَّى تَحَصَّنَ⁽⁴⁾ الْبَلَدُ كَمَا هِيَ الْيَوْمَ. وَالزِّيَادَةُ الَّتِي زَادَهَا ظَاهِرَةٌ مِنْ دَاخِلِ الْبَلَدِ [بَصْخَرٍ]⁽⁵⁾ فِي وَجْهِ الْحَائِطِ بَقِيَ بَعْضُ ذَلِكَ، وَالْمِيضَاةُ الَّتِي هِيَ خَارِجٌ عَنْ فَصِيلِ بَابِ تُونِسَ اشْتَرَى الشَّيْخُ بِقَعْتِهَا وَبَنَاهَا. وَكَذَلِكَ الْمِيضَاةُ⁽⁶⁾ الْخَارِجَةُ عَنْ بَابِ الْجَلَادِينَ. وَأَمَّا الْمِيضَاةُ⁽⁶⁾ الَّتِي فِي فَصِيلِ بَابِ نَافِعٍ فَبَنَاهَا عَبْدُ اللَّهِ الْمَغْرِبِيُّ الْمَدْفُونُ بِحَوْطَةِ الْقَابَسِيِّ.

قَالَ الْعَوَانِيُّ: وَتَوَفَّى لَيْلَةَ الثَّلَاثَاءِ لِعَشْرِ خُلُونٍ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ 699 هـ وَصَلِّيَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ عِنْدَ الزَّوَالِ قَرِبَ غَدِيرِ الْجَلَادِينَ، وَدُفِنَ بِجَبَانَةِ بَابِ سَلَمِ جَوَارٍ⁽⁷⁾ [قَبْرِ]⁽⁸⁾ عَيْسَى ابْنِ يَعِيشَ الْبَكْرِيِّ مِنَ الْجَبَلِيِّ، وَاجْتَمَعَ بِجَنَازَتِهِ خَلْقٌ⁽⁹⁾ لَا يَحْصُونَ. وَكَانَ

(1) سقط من: ت.

(2) ت: نضع يده.

(3) ت: المرأة.

(4) في ت و ط: تَحَصَّنَتْ.

(5) في ت: فراغ.

(6) في ت و ط: الميضات.

(7) ت: قرب.

(8) سقط من: ت.

(9) ت: أمم.

يومه مشهوداً رحمه الله تعالى، وبرد ضريحه ونفع ببركته. وقبره معلوم يزار ويتبرك به. ورثاه الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عمر بن عتيق بقصيدة منها [قوله رحمه الله تعالى]⁽¹⁾:

شهدنا كراماتٍ له مستفيضةً عليها جميع الخلق بالصدق يُجمعُ
هو القطبُ، هل في القطب شك ومرية؟! فيممه بالأقطار تحظى وتشفع
وذاك الذي أعنيه في النظم منهم إلى المصطفى المختار يدني ويرفع

349 - ومنهم أبو علي سالم ابن أبي عثمان سعيد القديدي بلداً الحضرمي نسباً
القيرواني مسكناً⁽²⁾ آخرأ ومدفنأ:

قال أبو عبد الله [محمد]⁽³⁾ الحضرمي كان [شيخه]⁽⁴⁾ أبو هلال السدادي، وكانت توبته على يده، وسببها ما أخبرني به عن نفسه قال: سافرتُ من بلدي إلى مُنَسْتِيرِ الرباط للصلاة في ليلة عاشوراء، وَغُمِرِي يومئذ ثمانية عشر عاماً، فصليتُ تلك الليلة ما شاء الله، فلما سَلَمْتُ من بعض صَلَاتِي وإذا رجل من أولياء الله عز وجل على يميني لم أعرفه حينئذ فأشار بطرف إحرامه علي وقال لي: يا هذا! هذا الرجل الذي عن يسارك لم يقبل الله منه شيئاً لا صرفاً، ولا عدلاً، لأن له سنبلات في الجنان خاف من البقر [أن]⁽⁵⁾ يأكلهن، فسألتُ الرجل الذي عن يساري، هل عنده تشويش؟ قال: نعم. وخطر ببالي [أنه]⁽⁶⁾ أبو هلال، ثم إنني مشيت إلى منزل بني خيرة من عمل المهدية، فاجتمعت⁽⁷⁾ وأخذوا في عمل السماع ليلاً، فلما طالب وقتهم، دخل علينا رجلٌ نحيف الجسم، قصير القَدِّ، عليه جبة حاكّة بيضاء، وعلى رأسه فُوَيْطَةٌ وَقَلَنْسُوءَةٌ تحتها، وعلى أكتافه فُوَطَةٌ أُخْرَى، فقام من قام من الفقراء وَتَوَاجَدَ، وَدَارَ في وسط القوم، وإذا بنحو الخمسمائة طائر رأيتهم يطفرون في أعالي البيت، ويدورون لدورانه، ثم خرج في ساعته، فخرج لخروجه ما رأيت من الطير، ولم ير ذلك كله غيري، فبقيت مع القوم إلى الصباح، ثم رجعتُ إلى بلدي وأخذت في أَهْبَةِ السَّفَرِ إلى لقائه بقلعة سدادة. فلما وجدته بموضعه مع

(2) ت: مسكنه.

(1) سقط من: ت.

(3) سقط من ط، الزيادة من: ت، انظر ترجمته رقم (359).

(5) سقط من: ت.

(4) سقط من: ت.

(7) في ط على الهامش كلمة «كذا».

(6) سقط من: ت.

جمع من الفقراء الواردين عليه، وهو مشغول ببعض خدمتهم، وعليه لباس غير الذي رأيته فسلمت عليه، وهَجَسَ في نفسي اللباس الذي رأيته عليه قبل، فقام وغاب عنا، ثم عاد⁽¹⁾ وعليه اللباس الذي رأيته ببني خيرة، ثم قال لي: يا سالم! إن الموضع الذي صليت به من رباط المنستير موضع مبارك، منه عرفت الله عز وجل.

وقال لي ذات يوم: يا سالم سِخْتُ كثيراً، وَجَاهَدْتُ كثيراً، وَجُعْتُ كثيراً، وما سعت رجلاي إلا برزقك، ولو خیرت لكنت هذه الطريقة لبعض أولادي، ولكن لم يقض⁽²⁾ ذلك إلا لك، فأقمت عنده أياماً⁽³⁾ يؤانسني، ويحدثني بما جرى له في السَّيَاحَةِ، وما لقي من الأولياء والأبدال، وكنت أكلُ معه دون غيري ممن سبقني إليه. ويقول لي: يا سالم أبشر، ما ينال هذا السرُّ الذي عندي غيرك ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾⁽⁴⁾ [الحديد: 29]. ثم قال: سر إلى أهلك، وأخذ بيدي وسار معي خارج القلعة يُشَيِّعُنِي. وَلَمْ يَفْعَلْ ذلك مع أحد غيري ثم قال لي: سِرْ في حِفْظِ اللَّهِ وَأَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ، واتَّباع كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ ثم أوصيك بإبرار الوالدة فإن معها سر الله عز وجل.

ثم أخذت في العبادة، والمجاهدة، والجوع، وكنت لا أفطر إلا على قدر أوقية من الطعام، فأقمت على ذلك مدة، ثم مشيت، فلما وصلتُ إليه، وجدته على ربوة خارج القلعة فسلمتُ عليه، فقال لي: مرحباً بك يا سالمُ إني في انتظارك منذ أربعة أيام، ولم أكل طعاماً، وأراني الطَّعَامَ الذي عادته يُفطر عليه فكبيتُ عليه، وَقَبَّلْتُ يَدَهُ، وعلمت أني لما⁽⁵⁾ أتحرك لزيارته إلا بخاطره، وعلمت أنه يحبني. ثم اختلى بي وقال لي: ارفق بنفسك يا ولدي، فَإِنَّ دِينَ اللَّهَ يُسَرُّ «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ كَمَا يَحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»^(*). فأقمت عنده أياماً فقال لي: يا سالم امشِ إلى منزلك وافتح زاويةً ينتفع الناس [بها]⁽⁶⁾ على يدك، فقلت له: يا سيدي إني لا أقدرُ على ذلك ولا أطيقه، لأن السَّاجِلَ عَامِرٌ بأولياء الله تعالى وفيه طوائف، وهم

(1) ت: عاود. (2) ت: لم يقض «الله».

(3) ت: يوماً.

(4) بدأت الآية في النسختين بـ «فَإِنَّ الْفَضْلَ» والصواب «وَأَنَّ» كما جاء في الآية.

(5) ت: لا.

(*) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى أحمد والبيهقي من رواية ابن عباس وابن مسعود ورمز له بـ (ض) أي ضعيف.

(6) زيادة من: ت.

كثيرو⁽¹⁾ الامتحان، وما في أهبة⁽²⁾ لذلك، فقال لي: بذلك أمرت، وهذا الذي أمرتك به بإذن⁽³⁾ من الله عز وجل، لا تخف من مخلوق، ولا يخطر ببالك غير الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282] فلما أردت السفر خرج يُشَيِّعُنِي وَوَكَّدَ عَلَيَّ فِي فَتْحِ الزاوية بقديد، وبها يكون مسكني. فلما وصلت إليها فتحت الزاوية بها، واجتمعت علي الإخوان والفقراء، وكنت على قدم التجريد⁽⁴⁾، فليلة أجد ما يأكله الفقراء، وليلة يبيتون وأبيت طاوياً. وكل من يرد معتقداً ابعته لسيدي الشيخ أبي هلال يأخذ بيده، فإذا وصل إليه الفقير يقول [له]⁽⁵⁾: ارجعوا لشيخكم⁽⁶⁾ سالم، فيرجع⁽⁷⁾ إلي، فأقمت على ذلك مدة.

ثم مشيت إليه ومعي أربعون فقيراً. فلما وصلنا إلى قمودة سافر معنا جماعة من الفقراء، فوصلنا إليه نحو سبعين رجلاً ووجدنا عنده وراداً كثيرة فسلمنا عليه، وجلسنا بين يديه، ثم قال لجميع من حضر: سالم شيخكم، من أخذ بيده واعتقده فقد اعتقدني⁽⁸⁾، ومن أحبه فقد أحبني، والذي عندي عند سالم، ثم غاب الشيخ ساعة واصفرَّ وجهه وقال: يا سالم صحبني الأبدال والطيارة والسيارة ما دمت في الحياة ما منهم من يتقدم، فإن العين لا تتعدى الحاجب، وأنت [هو]⁽⁹⁾ الحاجب يا سالم، ثم ودعته، وفعل معي [كما]⁽¹⁰⁾ تقدم. وأخلفت في المشي أنا والفقراء، وأي منزل بتنا فيه يتلقانا أهله ويذبحون الذبائح للفقراء، وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ، ويعتقد منهم من يعتقد، كذلك في كل منزل إلى قديد، فأقمت بالزاوية، [وكثر التلاميذ]⁽¹¹⁾ والمعارف، ووضع الله القبول ببركته، نفع الله به.

(1) ت: كثيرون.

(2) ت: أهلية.

(3) ت: إذن.

(4) التجريد: قال الكلاباذي في كتابه التعرف لمذهب أهل التصوف: معنى التجريد: أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض؛ وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئاً، ولا يطلب على ما ترك منها عوضاً من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره، ولا لسبب سواه، ويتجرد بصره عن ملاحظة المقامات التي يحلها والأحوال التي ينازلها، بمعنى السكون إليها والاعتناق لها. ص: 131 دار الكتب العلمية ط I س 1993.

(5) في هامش ط: كذا.

(6) سقط من: ت.

(7) ت: في عودة.

(8) في ت: زيادة: «ومن زاره فقد زارني».

(9) ت: ما.

(10) سقط من: ت.

(11) ت: وكثير التلميذ.

ثم أتاني جَمْعٌ من الفقراء من منزل بني معروف وغيرهم من عمل المهدية فطلبوني أن أمشي معهم إلى منازلهم، فمشيت معهم فتأب خلق كثير، فلما أردت الانصراف والرجوع إلى أهلي، وإذا بصبيان يلعبون خارج بني معروف، وإذا بشاب يلعب معهم الكورة فلما رأيته لزمت عنان فرسي، وبقيت مطرقاً رأسي ساعة، والفقراء دائرون بي ولم يعلموا ما خطر ببالي، فقالوا: فيم⁽¹⁾ أنت تنظر؟ وفيم أنت متفكر⁽²⁾؟ فقلت: الشاب الذي يصل إلى كتفيه⁽³⁾. فما أتممت كلامي إلا والشاب قد أقبل إلينا وقد خنقته العبرة، وقال: قد جئت تائباً. قال: فقلت له: ما اسمك؟ فقال: عَمَّار! ففرحت به فرحاً عظيماً. ثم جئت إلى منزل قديد وجاء معي.

ثم أخذنا في السفر إلى الشيخ ومعني عمار وجمع وافر، فلما وصلنا وسلّمنا عليه، فرح بنا ودعا لنا، وقال: ما أقصرت، يا سالم بارك الله فيك في إقلاّعك في الفارس، والصيد، الذي حصل في شبكتك. يشير بذلك إلى عمار المعروف في نفع الله به، وقال: يا عمار! قد واخيت بينك وبين سالم، أخدمه يا عمار تنتفع بخدمته، فإن قسمتك على يديه ولا تخالفه أصلاً؛ وكنا حينئذ بين يديه نحواً من ثلاثمائة فقير.

ولما وصلت إلى قديد أطلقت في يد عمار جميع ما أملكه⁽⁴⁾. وكان يوالي عني أسباب الدنيا والتصرف على الفقراء، وأخذ في الاجتهاد والعبادة، والحزن والبكاء، وسرد الصيام، والإقلال من الكلام، وكان لا ينام من الليل إلا قليلاً، فظهرت لنا البركات وإدخال المسرات بسبب ذلك.

قال: فبقيت [بعد ذلك]⁽⁵⁾ أتكرّر لزيارة⁽⁶⁾ الشيخ نفع الله به جملة أعوام. فبينما [نحن]⁽⁷⁾ ذات يوم متوجهين إليه في أثناء بعض الطريق، وإذا برجل على مطية جالس في الهواء⁽⁸⁾ قال لنا: كان الله لكم حافظاً وناصرًا ومُعِيناً، فسألناه: من تكون؟ فقال: أنا أخوكم الخضر، فلما وصلنا إليه، وأقمنا عنده سمعنا منه من

(1) ت: ما.

(2) في ط على الهامش كذا. ولعل الصواب: «تفكر». وفي ت: متفكر.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: ما أملك.

(5) سقط من: ت.

(6) ت: إلى زيارة.

(7) سقط من: ت.

(8) في ط: الهوى، وهو تصحيف لكلمة «الهواء».

الكلام والمذاكرة، مَا لَا أُسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ، ثُمَّ اخْتَلَى بِي وَقَالَ لِي: لَا تَصِلْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ إِلَّا رَاكِباً. وَأَقْسَمَ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ وَأَخَذَ بِيَدِي وَمَشَى مَعِيَ كَثِيراً. [ثُمَّ] ⁽¹⁾ عَانَقَنِي وَضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ سَاعَةً، وَذَكَرَ لِي شَيْئاً لَا أَقْدِرُ [عَلَى وَصْفِهِ] ⁽²⁾ وَلَا أَفْشِيهِ لِمَخْلُوقٍ. ثُمَّ دَعَا لِي وَلِعِمَارٍ كَثِيراً [ثُمَّ] ⁽³⁾ قَالَ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اسْتَوْدَعْتُمْ ⁽⁴⁾ اللَّهَ». وَمَشِينَا حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَنْزَلٍ قَدِيدٍ. وَكَانَ كُلُّ مَنْ يَزُورُهُ يَقُولُ [لَهُ] ⁽⁵⁾! عَلَيْكُمْ بِسَالِمٍ فَإِنَّ الْبَرَكَهَ مَعَهُ. وَمَشِينَا إِلَى قَدِيدٍ.

[ثُمَّ] ⁽⁶⁾ أَقْمَنَا أَيَّاماً، وَمَشَيْتُ ⁽⁷⁾ أَنَا وَعِمَارٌ إِلَى مَنْزَلٍ قَاسِمٍ، بِمَقَرَّبَةٍ مِنْ قَدِيدٍ، فَسَمِعْنَا التَّكْبِيرَ، وَضَجِيجَ الْخَلْقِ، وَإِذَا بِقَائِلٍ يَقُولُ: أَخْرِمُوا ⁽⁸⁾ عَلَى سَيِّدِنَا الشَّيْخِ الصَّالِحِ سَيِّدِنَا أَبِي هَلَالٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَفَعَ [بِهِ] ⁽⁹⁾ - فَعَلِمْتُ قَوْلَهُ: لَا تَصِلْ إِلَيَّ [إِلَّا] ⁽¹⁰⁾ رَاكِباً، أَنِّي لَمْ أَرَهُ ⁽¹¹⁾ حَيًّا، وَلَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَمَشَيْتُ رَاكِباً حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى قَبْرِهَ أَنَا، وَعِمَارٌ، وَالْوَارِدُونَ مَعِيَ، فَأَقَمْتُ عَلَى ⁽¹²⁾ قَبْرِهَ مَعَ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى قَدِيدٍ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدِي فَتْحاً عَظِيماً بِبَرَكَهَةِ الشَّيْخِ، ثُمَّ أَخَذْتُ أَنَا وَعِمَارٌ فِي الْاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْوَالِدَةِ مُجْتَهِدَةً مَعَنَا فِي ذَلِكَ.

ذكر ثناء العلماء عليه

قال أبو عبد الله محمد بن عثمان ⁽¹³⁾: كَانَ شَيْخًا، صَالِحًا، فَاضِلًا، وَرِعًا، وَقَوْرًا، عَابِدًا، نَاسِكًا، يَسْرُدُ الصِّيَامَ، وَيُطِيلُ الْقِيَامَ، وَيَصِلُ ذَوِي الْأَرْحَامِ، [مَنْ أَفْتَى الْمَشَائِخَ] ⁽¹⁴⁾، وَأَحْسَنَهُمْ ⁽¹⁵⁾ حَالًا فِي وَقْتِهِ، وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةً، وَأَتْحَثُهُمْ ⁽¹⁶⁾ دِينًا،

(1) زيادة من: ت.	(2) في ت: «أَنْ أَقُولَهُ».
(3) في ت: «و».	(4) ت: استودعكم.
(5) سقط من: ت.	(6) سقط من: ت.
(7) ت: وطرت.	(8) ت: «حرموا بالصلاة».
(9) زيادة من: ت.	(10) الزيادة من: ت تبعاً للمعنى السابق.
(11) ت: أزره.	(12) ت: عند.
(13) ترجم له برقم (359).	(14) سقط من: ت.
(15) ت: وكان أحسنهم.	(16) كذا في النسختين.

وأكثرهم ورعاً، وتواضعاً، وإشفاقاً، كثير الموالاتة⁽¹⁾ والمعاداة⁽¹⁾ في الله عز وجل. لا تأخذه في الله لومة لائم، كثير الصولة على أهل الظلم، ولا سيما الولاية⁽¹⁾. مَا دَاهَنَ أَحَدًا مِنْهُمْ قَطُّ، ولا أثر على الله أحداً. ولقد قام يصلي بوضوء المغرب في الصبح ثلاثين سنة، ويقول: «النَّوْمُ مَنْ رِيحَهُ مَا رِيحَ شَيْئًا». ولا يصح للرجال ما يصح إلا بقيام الليل إذا وَفَّقَهُ الله لذلك وأعانه عليه.

وقال الشيخ أبو يوسف الدهماني⁽²⁾ لحصين العوني وكان من تلامذته: يا مرابط حصين! تعمى⁽³⁾ في آخر عمرك وتظهر جوهرة في السَّاحِلِ، فقال له: يا سيدي وما هذه الجوهرة؟ فقال له: الشيخ أبو علي سالم القديدي يظهر في حفرة قديد. فكان كما قال الشيخ.

ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه

قال أبو عبد الله محمد بن عثمان: منها أن المؤذن كان⁽⁴⁾ يؤذن للمغرب في الزاوية فَعِنْدَمَا ذَكَرَ⁽⁵⁾: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، وإذا برجلٍ داخلٍ عليه فقال له: [تلبس إلى عادتكَ إلى الساعة]⁽⁶⁾، اطلب الإعانة من الله عز وجل وخذ في الإعانة⁽⁷⁾، لما قال المؤذن: الله أكبر! الله أكبر! رأيتك وأنت بين زمزم والمقام، ووصلت إلينا وهو يقول: حي على الفلاح، وهي خطوة واحدة. قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا خُطْوَةٌ مُؤْمِنٍ»⁽⁸⁾.

(1) في ط و ت. كتبت الكلمات بقاء مبسوطه. والصواب ما أثبتناه.

(2) انظر ترجمته رقم (341).

(3) كتبت في النسختين بألف ممدودة: «تعمى».

(4) في ت و ط: كما، وهو تحريف لكلمة «كان». وفي «ط» هامشياً كتبت قَبَالَتَهَا كلمة «كذا».

(5) ت: قال.

(6) ما بين المعقوفتين سقط من: ت. ولم يرد له معنى في «ط». وبهامشها كلمة «كذا» دليل على غرابتها.

(7) ت: الاجتهاد.

(8) هذا الحديث ورد في كتاب: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة لعلي بن محمد الكناني 402/2 دار الكتب العلمية ط I س 1399 هـ بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، وعبد الله محمد الصديق الغماري. وانظره في السلسلة الضعيفة للألباني 31/3.

ومنها ما أخبرني به الحاج يوسف المعروف في قال: مشيت معه إلى الجامع يوم الجمعة، فبينما نحن في الطريق وإذا بامرأة جاءت تُسَلِّمُ عليه، فأشار بكمه عليها قبل أن تصله وقال لها: انصرفي، فنهروها ثم قال: هل تدري يا حاج يوسف من هذه المرأة؟ قلت: لا، قال: هذه جاءت الساعة من تونس، خَرَجَتْ منها وقت التأهيب⁽¹⁾، وهذه صِفَتْهَا. ثم قال: السلامة منهن، سلامة الاعتقاد بالبواطن، [ينفع الله ينفعها]⁽²⁾ بنيتها. قرب النساء هو⁽³⁾ المحنة بعينها، ولو كُنَّ على أي قَدَم، ثم دخلنا الجامع وإذا بها تُصَلِّي. فَأَرَادَ الْقَيِّمُ أَنْ يُخْرِجَهَا، فقال لي: هذه المرأة هي هذيك، فقلت: سبحان من أطلعك على كُلِّ وَلِيٍّ، وكل صالحة، فقال: «هَذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ اللَّهِ أَطْعَمَ اللَّهُ يُرِيكَ الْعَجَبَ».

ومنها: أنه كان جالساً بخارج قديد بعد صلاة العصر، فإذا شابٌ لم يره أخذ إلى أن جثا على ركبتيه بين يدي الشيخ، وفي وجهه نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، كأنها حرق نار. فقال له الشيخ على البديهة: صليت العصر⁽⁴⁾ مع والدك ووالدتك بمكة، وقال لك: سِرُّ إلى سالم القديدي فإنه إن نظر إلى النقطة التي بوجهك تَبْرَأُ وتزول⁽⁵⁾، قال: نعم، فقال له: سِرُّ إليهما وَسَلِّمْ عليهما، والله يَشْفِيكَ وَيُعَافِيكَ، ما بقي في وجهك منه شيء بفضل الله عز وجل، وما تصلي المغرب⁽⁶⁾ إلا بمكة شَرَّفَهَا الله، فودعه الشاب، وسَارَ من سَاعَتِهِ فلم يَرَهُ أَحَدٌ. فقال الشيخ: والد هذا الشاب من الأبدال، ووالدته أيضاً⁽⁷⁾ عظيمة القدر، صلاحاً⁽⁸⁾، وعلماً، إن قسمة ولدهما على غير أيديهما، فتأدبا مع الله تعالى، ويعلم الله تعالى أن سَالِماً ما هو إلا بالله عز وجل ثُمَّ بركة الفقراء الصادقين. وهذا كُلُّهُ ثمرة الكتاب والسنة، فالكرامة البالغة اتباعهما، يا أولادي! لا يغرنكم هذا تقولون: السيارة والطيارة، الأصل الخاتمة فنسأل الله تعالى أن يتوفّقنا على الإسلام.

(1) التأهيب هو «التهليل» ويكون قبل أذان صلاة الصبح.

(2) ت: ينفعها الله. (3) سقط من: ت.

(4) ت: المغرب.

(5) في ت و ط: «نزول» وهو تصحيف لكلمة «نزول».

(6) في هامش ت: لعله العشاء. (7) كلمة «أيضاً» سقطت من: ت.

(8) ت: صالحة.

ومنها ما سمعته ممّن نثّق به: أن الجراد نزل في بعض الأعوام في بلاد السّاحل في إبان وقت طيّاب الزّرع، وهو حينئذ في غاية الخصابة، ونزل منه بقديد وبالبلاد القريبة منه شيء كثير، فضجّ النّاس لذلك، وضاق ذرّعهم من أجله فاجتمعوا من كل بلد وأتوا إلى الشيخ رحمه الله، فركب وخرج معهم، وخرج معه أبو علي عمّار ماشياً، فقصدوا موضع الجراد، فلما وصلا إليه وقد تراكم بعضه على بعض أشار الشيخ رحمه الله بإحرامه عليه ثلاث مرات لم يزد⁽¹⁾ أكثر من ذلك، ورجع النّاس معه مطمئنين، إن الله صرفه عنهم ببركة الشيخ. فلما أصبح الصباح خرجوا يتفقدون زرّعهم، فلم يجدوا من الجراد شيئاً ولم يضر⁽²⁾ منه سنبلة، وكأن الله ضرب بينه وبين الزرع بسور، فلما رجعوا أخبروا الشيخ بذلك فقال لهم: اشكروا الله عزّ وجل الذي صرّفه عنكم وعافاكم.

ومنها: أنه وقع ببلاد السّاحل، خوفٌ شديدٌ، من سبب عدوّ الدّين في البحر خذله الله، واشتدّ خوفُ أهل سوسة من ذلك، وكانوا يتوقعون [نزولهم]⁽³⁾ كل ليلة ويوم، فاجتمع مع الشيخ الصّالح أبي عبد الله محمد الرباوي، والشيخ الصّالح أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الغالب، واتفق رأيهم على الخروج لذلك، فسمع الناس بخروجهم فاجتمع عليهم خلق كثير من أهل القيروان وأنظارها، وأمرني بالخروج معه لذلك، لأنني كنت إمامه للصلاة، فكنت أصليّ به، فلما وصلنا إلى سوسة نزل الشيخ أبو علي بجنان عبد الوهاب، بعد أن رغبه في ذلك، ونزل الشيخ الرباوي معه فإنه كان لا يفارقه، ونزل الشيخ أبو إسحاق إبراهيم في السبعاب⁽⁴⁾، فاطمأن أهل البلد بذلك وسرّوا⁽⁵⁾ بقُدوم من قدّم عليهم من الصّلحاء المذكورين سروراً عظيماً، فتذاكر الشيخان الأولان ليلة من اللّيلالي حتى قال له أبو علي: هذا العدوّ المخذول قد كفى الله مؤنته وطمأن المسلمين منه، وغداً نرحل إن شاء الله تعالى. ثم قال: يا شيخ أبا عبد الله أنت من السيّارة فعرفني من تعرف من الأولياء، فقال: لا أعرف إلا من أعاشره، فقال له أبو علي: ما يسمى الشيخ شيخاً إلا إذا قدم عليه وليّ عرفه،

(1) زيادة حرف «على» أمام كلمة «يزد» في: ت.

(2) ت: تضر.

(3) ت: «نزول العدو بهم».

(4) ت: السبعات. وبهامش ط: «كذا» بمعنى: «كلمة غير مفهومة».

(5) ت: وساروا.

عاشره أو لم يعاشره، ويعرف موضعه وقبيلته، ومتى نال الولاية، صغيراً أو كبيراً، [وإن لم يره قبل ذلك، فقال له: أما محمد فما وصل إلى ذلك، وإنما أنا أغترِفُ من بركتك نفع الله بك]⁽¹⁾. فلما كان من الغد أخذنا في أهبة الرجيل، فجاء أهلُ سوسة ورغبوا إليهم في الإقامة عندهم، فقال لهم الشيخ: لا بأس عليكم اطمأنوا بالله عز وجل وثقوا [به]⁽²⁾. قال⁽³⁾: فاطمأنوا به لقوله - رحمه الله تعالى - ثم انصرفنا عنهم ولم ينزل الله بعد ذلك سوءاً.

ومنها ما أخبرني به من نثق به قال: أتيت إلى الشيخ زائراً، فسلمت عليه والشيخ في ورده، وإذا برجل دخل⁽⁴⁾ علينا، فسلم على الشيخ وجلس وقال في نفسه: لعل ببركة الشيخ يأتي إلى الزاوية الساعة تين أخضر [ونشبع]⁽⁵⁾ منه. قال: فما استتم كلامه وما خطر له في نفسه، حتى قال له: سيدي⁽⁶⁾ سالم: هل سألت الله العافية والسلامة في الدين والدنيا والآخرة؟ إلا أردت شبعة تين أخضر حتى تنال شهوتك، والذي طلبت قد⁽⁷⁾ وصل إلى ذراع أبي سهل، فما كان يسيراً، وإذا بحمل تين أخضر على دابة، فلما وصل الحمل، ودخل الرجل بالحمل، فسلم على الشيخ فقال له: ما هذا الذي أتيت به؟ قال هدية لك، ثم⁽⁸⁾ قال لي: قم وخذ ما تريد، قال: فأكلت حتى شبعت. ثم قال لي الشيخ: أشبعته؟ قلت: نعم، قال: احمل⁽⁹⁾ منه إلى أهلِكَ ما يأكلونه، فرفعت لهم من التين قدر ما يكفيهم وقبلت يده ثم انصرفت.

ومنها: أني دخلت عليه يوماً قريباً من صلاة الظهر، فلما حان وقت الصلاة وجئت أصلي به على عادتي فقال لي: يا محمد أذن مني، فدنوت منه، فقال لي: تب، فقلت: يا سيدي عرّفني مما أتوب، فقال: لأنك تابعت النظر إلى مُحَرَّم غير أنك لم يخطر لك خاطر سوء، قلت: نعم أستغفر الله وأتوب إليه، وكذتُ أعوم عرقاً حياء منه، فقال: لا بأس عليك يا محمد! أنت إمامنا، والإمام يكون مثل شاة

(2) في ت: بالله.

(4) ت: داخل.

(6) ت: يا سيدي.

(8) سقط من: ت.

(1) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

(7) ت: فقد.

(9) ت: ارفع.

الأضحية سالمة من العيوب. وقال رسول الله ﷺ: «أُئِمَّتْكُمْ»⁽¹⁾ شفاعؤكم»⁽²⁾ ثم قال: تقدّم وصلّ بنا.

ومنها ما حدثني مَنْ نثق به: أن المرباط زيد بن عبد الرحمن الكعبي تاب على يد الشيخ أبي علي، فنال خيراً وكان يتكرر لزيارته في منزل قديد، فبينما هو في الطريق متوجهاً إليه إذ رأى غزالة قريباً من هبيرة فقال: اسأل الله عزّ وجل بركة الشيخ أن يوقف لي هذه الظبية حتى آخذها بيدي وأهديها له، قال: فلم تزل واقفة حتى أخذتها بيدي وجئت بها إليه، فلما رأي قال لي قبل أن أسلم عليه: يا زيد ما هذا الخاطر الذي خطر لك إلى أن قلت ما قلت؟ ما هذا إلا هواك غلب عليك، ومَنْ هو سالم حتى تُقسم ببركته؟ لا سبيل أن تكون لك من عادة، تفعل ما فعلت، أو تقول ما قلت، وتأدب مع الله عزّ وجل وأطلق الغزالة. قال: فأطلقتها⁽³⁾. ثم قال: يا زيد من يحلك في إرعاتها وترويهها، أما هي خلق من خلق الله عزّ وجل، أما تعلم أن الله تعالى يسألك عن ذلك؟ والفقير في ابتدائه يقطع عن نفسه العلائق، ولا يقف مع شيء من هذه الأحوال، ولا يطلب إلا الله عزّ وجل.

قلت: قصد الشيخ بهذا الكلام على طريق الورع، فإن الورع أمرٌ وراء الجواز والله أعلم.

قال: ومنها ما حدثني به مَنْ نثق به من كبار أصحاب الشيخ قال: لما مات أمير المؤمنين المستنصر بالله كثُرَ فسادُ العرب، وحصروا بلاد الساحل، ولما وصلوا إلى بحيرة من الساحل، فزع لذلك أهلُ منزل قديد، وسمعوا أن أهل البلاد اتخذوا خفيراً على زروعهم، فخطر لهم أن يفعلوا ذلك، فشاؤروا الشيخ في ذلك، فخطر بباله أن يوافقهم على ما أرادوه، فلما كان من الغد بعد صلاة الصبح وأهل الحزب جُلُوسٌ للقراءة والذكر في مسجد زاوية قديد، وكان فيهم إمام الشيخ للصلاة وهو الحاج إبراهيم المغربي، فبينما هم يقرؤون ويذكرون الله عزّ وجل إذ رأى إبراهيم المذكور، محراب المسجد قد انشق وخرج منه رجل أبيض الثياب، فقال: يا

(1) في ت و ط: إيمانؤكم، والصواب ما أثبتناه.

(2) تفسير القرطبي 1/ 270 دار الشعب القاهرة ط II س 1372 تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

(3) في النسختين فطلقتها. والصواب ما أثبتناه.

إبراهيم سَلَّمَ على شيخنا أبي علي، وعرفه أن لها خفيراً ثم خفيراً وخرج، فخرج في إثره رجلان مثله، فعرف الشيخ بذلك فحمد الله عز وجل على ذلك وشكره وقال: عوائد الله معنا جميلة، وأصحابنا أعرف منهم أنهم لا يغفلون عنا.

قلت: ومات الإمام المذكور بقديد، فلا منافاة لِمَا تقدّم، فما⁽¹⁾ صَلَّى به مَنْ تقدّم إلا بالقبروان بعد بلوغه أيضاً، فلما بلغ قدمه. كذلك عرف عن نفسه.

قال: ومنها ما حدث به من نثق به، أنه خرج من تونس هو والفقير أبو زيد الأجمي، ومعهما خلق كثير، فبينما هم في أثناء الطريق وإذا بغازية كبيرة [نحو]⁽²⁾، خمسين فارساً، فقال أبو زيد الأجمي: يا سيدي أبو علي إنا نخاف على هؤلاء الناس الذين معنا؟ فقال الشيخ: لا تخف عليهم، منهم من ولي⁽³⁾ عليهم الغفر. [فبغت من كلامه]⁽⁴⁾ فلما وصل⁽⁵⁾ الخيل، نزلوا من على ظهور خيلهم وقبلوا بركابه وقالوا: يا سيدي سالم لك⁽⁶⁾ عندنا خمسون ديناراً، كل واحد منا أوعدك بعشرة دراهم، فإنه نزل بنا حال من الله تعالى ولم يعرف أحد منا صاحبه، فكل منا تاب أنه لا يضر مسلماً، ووعدك كل واحد منا بعشرة دراهم، فكشف الله عنا ما نزل بنا، وهذا كله ببركتك، فأعطوا للشيخ خمسين ديناراً، وعاهدوه⁽⁷⁾ أنهم لا يضرّون مسلماً أبداً. وانصرفوا فقال الفقيه المذكور: أشهد أنك ولي الله، وأن لك باطناً، وأن الله أعطاك التصرف في الغيب.

ومنها ما حدثني به مَنْ نثق به قال: وقعت بين عروة وملول فتنة، وهما قريتان من عمل المهدية، وسبب ذلك أن أهل عروة سرقوا لأهل ملول حوائج وحلياً، واتهموهم بذلك، فأنكر أهل عروة ذلك، فمشى الشيخ الصالح أبو محمد عبد الناظر، وهو من أهل ملول إلى أهل عروة، وتحدث معهم في السرقة، فأنكروها وحلفوا، فضاق [ذرع]⁽⁸⁾ عبد الناظر من ذلك ثم قال: ما لهذه المسألة غير الشيخ أبي علي سالم والفقيه أبي زيد عبد الرحمن الأجمي، فركب وسار إلى الشيخ

(1) ت: فيما.

(2) زيادة من: ت.

(3) الواو سقط من: ت.

(4) سقط من: ت.

(5) في، ط: وصلوا، والصواب ما أثبتناه من: ت.

(6) سقط من: ت.

(7) في ط: وعادوه، التصويب من: ت.

(8) سقط من: ت.

أبي علي⁽¹⁾، وهو بمنزل قديد، فلما وصل إليه وسلّم عليه قال⁽²⁾ له: ما أتى بك يا شيخ أبا محمد؟ فأخبره بالقضية وقال: تأمرني أن أمشي للفقير أبي زيد الأجمي ليؤانسك⁽³⁾؟ قال له: افعل ما تريد، فمشى وأتى به، وسارا جميعاً حتى وصلا إلى قريب القريتين فقال⁽⁴⁾: بأيهما نبدأ؟ فقال الشيخ أبو علي: نبدأ بعروة، فخرج أهل البلد كلهم للقاء الشيخ أبي علي، وحلفوا له⁽⁵⁾ لينزلن عن فرسه، فامتنع من ذلك، فألحوا عليه، فقال: ما ننزل عندكم إلا على شرط أن تطعمونا الجرادق⁽⁶⁾ والعسل، فقالوا: هذا أيسر ما عندنا، وإنما أردنا أن نذبح الدجاج ونكثر من الطعام، ولو أمكننا التقرب إليك بأنفسنا لفعلنا، قال: لا إلا الجرادق والعسل، قالوا: نعم، ثم نزل الشيخ عن فرسه وجلس، ووجه معهم فقيراً من فقرائه، وبيده قطعة ليأخذ فيها العسل، فلما أتوا إلى سرير النحل فتحوا أول بيت من بيوت النحل، فوجدوها دوداً فغلقوها؛ وعمدوا إلى الثانية فلما فتحوها وجدوها فعمدوا إلى الثالثة، فلما فتحوها وجدوا⁽⁷⁾ [فيها] الحوائج والحلي الذي لأهل ملول، فأخذ الفقير الحوائج في طرفه وأتى بها إلى الشيخ أبي علي، فلما وضعها بين يديه قال الفقير أبو زيد الأجمي: يا سيدي أبا علي، لقد أظلمك الله على أمرٍ عظيم، فسُبْحَانَ مَنْ وَهَبَكَ هذا السرّ، فقال الشيخ: يا فقيه أبا زيد تعجب من ذلك، ألمِنَّهُ الله وحده، وما ذاك على الله بعزیز، ثم قال الشيخ عبد الناظر: يا فقيه أبا زيد قال الله العظيم ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4] وَمَا يُسْتَكْتَرُ هذا من الشيخ أبي علي فإنه شيخ الاطلاع والمُكاشَفَةِ والمراقبة، فقال الشيخ أبو علي: لَا تَتَّهِمُونِي فإني أعرف نفسي⁽⁸⁾، وهذا الذي ظهر لنا هو بنيتكم وخَوَاطِرُكُمْ، ثم أخذ أهل منزل عروة [من]⁽⁹⁾ الحياء والجِشْمَةِ [ما أجمعهم]⁽¹⁰⁾، واستحيوا من الشيخ وما وقعوا فيه وقالوا: ما علمنا مَنْ فَعَلَ هذا، فلا تؤاخذنا واجبر كسرنا، فقال [لهم الشيخ]⁽¹¹⁾: توبوا إلى الله عز وجل فتابوا. ثم قال الشيخ: تاب الله علينا أجمعين.

(2) ت: فقال.

(4) ت: فقالوا.

(6) الجرادق: رغيف.

(8) ت: بنفسي.

(10) سقط من: ت.

(1) ت: أبي سالم.

(3) ت: لمؤانسك.

(5) ت: عليه.

(7) زيادة من: ت.

(9) سقط من: ت.

(11) سقط من: ت.

ومنها: أنه أهدي له من المُنْسْتَيَّر حَمْلٍ عَنِيبٍ، وبعثه الذي أهده مع بعض أصحابه، فلما وصل الحمل بالعنب إلى الشيخ، ودخل الرجل يسلم عليه قال له: يا ولدي لأي شيء خُنتَ أمانتكَ وَغَلَبْتُكَ نَفْسُكَ، وتناولت من الحَمْلِ عُنْقُوداً عنباً، وقلت في نفسك: ما يعرف بهذا أحد، والذي يخون في القليل، يخون في الكثير، هلا اشتريت بدرهم عنباً وجعلته زَادَكَ؟ وأخذ يتكلم، وقصد به صاحب العنقود وغيره لحضور جمع كثير من الفقراء، وربما كان مع أحدهم دعوا، وهو أنفس، فكان كلامه أدباً للجميع.

ومنها ما تحدث به الحاج نصر قال: كنتُ أسير في بعض حوائجي، وإذا بغازية⁽¹⁾ كبيرة. فلما وصلوا إليّ، عَرَفُونِي وكانوا يطلبون بعض أقاربي [بطلب]⁽²⁾، فلما قربوا مني قصدوا إليّ بأجمعهم، فقلعوني عن فرسي، وداروا عليّ حلقة واحدة وأرادوا إهْلَاكِ فناديتُ: يا سيدي أبا علي سالم! [أنت الحاضر]⁽³⁾ عند أولادك أينما [كانوا]⁽⁴⁾. وإذا به واقف عند رأسي، فأخذني بين يديه، وفحج عليّ بساقيه وقال لي: لَا تَخَفْ يا نصر يا ولدي، قد دفع الله عنك شرَّهم، ثم أخذ بيدي وسألني⁽⁵⁾ وَرَدَّنِي على فرسي وقال لي: سِرْ إلى أَهْلِكَ. ونظرتُ فلم أَرِ الخيل، وحجبَ الله أَبْصَارَهُمْ عَنِّي، ولم أدر أين ساروا، فوصلت إلى أهلي سالماً ببركته. فلما استرحتُ عند أهلي، جئته زائراً فسلمتُ عليه، فقال لي: يا نصر إِيَّاكَ أَنْ تتحدث بما رأيت لئلا أقاطعك، فعاهدت الله أن لا أتحدث إلا بعد وفاته، فلما توفي تحدثت بذلك.

ومنها ما حدثني مَنْ أثق به: أنه وقف⁽⁶⁾ عليه الشيخ أبو إسحاق الماجوري مع غيره، وجاء خلقٌ كثيرٌ من البوادي بالْفُتُوحِ⁽⁷⁾ والغنم، فامتألت الزاوية، فدخل أبو إسحاق البويطة التي كان يختلي⁽⁸⁾ فيها الشيخان: عمار، والدكالي، فاضطجع فيها، وبقي متفكراً فيما⁽⁹⁾ فتح الله به على الشيخ أبي علي سالم وقال: والله ما هذه إلا

(1) الغازية: هم قطاع الطريق.

(2) زيادة من: ت.

(3) في ت: ما أنت إلا حاضر.

(4) سقط من: ت.

(5) لعل الصواب: سَلَّنِي.

(6) كلمة عامية. وهو ما يُعطى هدية قصد التبرُّك.

(7) في ط: يختفي، التصويب من: ت.

(8) سقط من: ت.

دنيا كبيرة [الصيت والولاية والفتوح]⁽¹⁾، فلما خطر بباله ذلك، وإذا برجل قد خرج له من الحائط كأنه البرق الحائط فقال له: تأدب يا إبراهيم من هذا الخاطر الذي خطر لك اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 59] وعاد إلى الحائط فلم نره. قال: فبقيت أرعد مثل الورقة في يوم ريح شديد، وخفت خوفاً شديداً⁽²⁾ لئلا يسلب حالي، وما قدرتُ أتكلم ولا أتنفس. فبينما أنا كذلك، وإذا بالشيخ أبي علي سالم داخل عليّ وقال لي: يا شيخ أبا إسحاق! ما الخاطر الذي خطر لك؟ وما أوقعك في هذا الأمر؟ فقلت له: يا سيدي، المعذرة أنا تائب! والله ما خطر لي على أنني تعرضت عليك، إلا أنني قلتُ في نفسي: هذا رجلٌ أعطاه الله الدنيا والآخرة، ولكن هذه دنيا واسعة. فقال له الشيخ: تتعرض على فضل الله عز وجل يا أبا إسحاق، وللدنيا عند الله قدر؟ «لو سَوْتُ عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جُرعة ماء»⁽³⁾، بالله إن شاء الله يا إبراهيم، ما عندي الذهب والمدر إلا واحد، ولا عمرت بها باطني قط، ومن يوم اعتقدت سيدي أبا هلال ما في قلبي غيرُ الله عز وجل. وكُلَّمَا تراه آله بين يديّ فنحركها تجيء، ونصرفها لمن يستحقها، وما لنا فيها إلا أجر المناولة، فإله يتقبلُ مِنَّا ويتجاوزُ عنا. ثم أخذني سيدي أبو علي سالم وشالني. فمن ذلك اليوم عاد أبو إسحاق الماجوري بين يدي الشيخ أبي علي كالميت بين يدي الغاسل، وكان أبو علي إسحاق يقول: الشيخ أبو علي سالم جساس القلوب، الله لا يفضحنا معه، بمئه وكَرَمِه آمين.

ومنها: أنه كان المرابط غريب من بني أحمد، مُقْعِداً من صِغَرِهِ، من ركبتيه إلى أسفل، ما يتحرك أصلاً. وكان مجتهداً، صادق الباطن، وعلى قدم التجريد، لم يملك شيئاً من الدنيا، فسار إلى بيت الله الحرام بإذنه، فلما وصل إلى عقبة، وهي عقبة كبيرة، وفيها مشقة كبيرة⁽⁴⁾، ما يجوزها الحجاج إلا عن تعب، وكان راكباً ناقته، فبينما هو منحدر في العقبة المذكورة إذ سقط [من على]⁽⁵⁾ ناقته فقال:

(1) سقط من: ت. (2) ت: عظيماً.

(3) ورد في هذا حديث أخرجه الترمذي في السنن بلفظ: «لو كانت الدنيا تعدلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» من رواية سهل بن سعد. وقال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه. كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل حديث (2320). للمزيد انظر كشف الخفاء للعجلوني 2/ 207 رقم (2107)، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص: 407 رقم (897).

(4) سقط من: ت. (5) في ت: عن.

[بالله]⁽¹⁾ يا سيدي سالم! فإذا الشيخ أبو علي - نفع الله به - تلقاه قبل أن يصل إلى الأرض فقال: لا تخف يا غريب، فغشي عليه لما رآه، وردّه إلى ظهر ناقته. فلما قضى فرضه وزار النبي ﷺ ووصل أهله، جاء زائراً إلى الشيخ أبي علي، فلما وصل إليه تمرغ على⁽²⁾ قدميه، فقال له الشيخ على البديهة: بالله⁽³⁾ إن شاء الله لئن تحدثت بما جرى لك لا عرفتك أبداً. ثم قال: يا سيدي أدع لي، فإني فقير، والفقراء يقصدوني ولا يجدون عندي شيئاً، فقال: يا شيخ⁽⁴⁾ غريب لا تخف، تكثر دُنياك وتوسع، فلا تنسَ حقَّ الله، وأحسن للفقراء يخلف الله عليك. قال الله العظيم: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سَبَأ: 39].

قلت: وقصد غريب بندائه: يا رب ببركة سيدي سالم.

قال: ومنها ما أخبرني به الحاج يونس المزاتي: كان جالساً عنده في البيت الذي فيه⁽⁵⁾ قبره اليوم، وكان به شُكْيَةٌ⁽⁶⁾ فأرخى عليه الستر، فقال له: يا يونس قم، ولا تترك من يدخل علي، قال: فقمْتُ امتثالاً لأمره، فبينما أنا جالسٌ في الزاوية، والشيخ في ورده والستر منسدل⁽⁷⁾ عليه إذا بامرأة في وسط الزاوية عليها نصفُ حَبْلٍ⁽⁸⁾ وتحتَه فوطة، وما علمتُ من أي جهة جاءت، ولا من أي باب دخلت، فسقط ما بيدي وبقيت مبهوتاً لا أقدر أن أتكلّم، وعلمت أن الشيخ لا يدخل عنده أحد من النساء، ولا يقربُ منه أحد، ولا يجسر عليه أصلاً. فقالت: يا هذا الرجل ادخل إلى سيدي الشيخ وقل⁽⁹⁾ له: امرأة تسلم عليك وتقول لك: ادع الله⁽¹⁰⁾ لي لعلَّ الله يرحمني. قال: فدخلت على الشيخ لأعرفه فقال الشيخ بصوت جهير: اذهب يا مكره، قال يونس: فخفت أن أدخل على الشيخ لما سمعت من نهرته، وبقيت واقفاً بالباب، وإذا [بامرأة طائِرة⁽¹¹⁾] ⁽¹²⁾، وما رأيت إلا قدميها، وأنا لا أقدر أن أتكلّم، وقلت: سبحان الله العظيم، قال الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ

(1) زيادة من: ت. وهي ساقط من: ط. (2) ت: إلى.

(3) ت: والله. (4) ت: يا حاج.

(5) ت: فيها. (6) شكية: شكوى.

(7) ت و ط: مستدل. وهو تحريف لكلمة منسدل كما أثبتناه.

(8) الحَبْلُ: هو الحائك الذي تلتحف به المرأة كلياً من رأسها إلى ما تحت كعبيها.

(9) ت: وقال. (10) اسم الجلالة سقط من: ت.

(11) ت: بالمرأة تطير. (12) إسقاط الواو من: ت.

وَالْمُؤْمِنَتُ» [التوبة: 71]، والله ما هذا [إلا]⁽¹⁾ قدم عظيم وحال كبير، هي على هذه الحالة وَيَنْهَرُهَا الشيخ، هذه لا يتبرك بها؟! قلت هذا في نفسي، وإذا الشيخ قال [لي]⁽²⁾: ادخل يا يونس [فدخلت فقال لي يا يونس]⁽³⁾ إيش هذا الخاطر المنحوس الذي [تَحَدَّثْتُ]⁽⁴⁾ به نفسك؟! أما سمعت قول النبي ﷺ: «بَاعِدُوا بَيْنَ أَنْفَاسِ الرِّجَالِ، وَأَنْفَاسِ النِّسَاءِ وَلَوْ كَانَ عِضْوٌ بِالْمَشْرِقِ وَعِضْوٌ بِالْمَغْرِبِ لَحَنَّ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ»⁽⁵⁾ يا يونس أما⁽⁶⁾ تأمن منهن أبدأ، [أغرب ما رأيت]⁽⁷⁾ طيرانها في الهواء⁽⁸⁾، والعصفور يطير في الهواء، والحيوت يمشي في الماء، لا تتعجب من هذه الأحوال، العبد إذا أطاع الله أطاعه كل شيء، وإذا عصى الله عصاه كل شيء. هذه المرأة جاءت [تعمش علينا حتى تعرف]⁽⁹⁾ إن كان تُطْلَعُ على حالها أم لا صلت الصبح في فاس، فلما طلع النهار وخطر لها ما خطر، فطارت في الهواء، فما نزلت إلا في الزاوية. يا يونس! لا تطمئن لهن، وعليك باتباع الكتاب والسنة فهي الكرامة البالغة.

ومنها: أنه لما نزل العدوُّ المخذول بثغر المهدية، واتصل الخبر بذلك إلى الشيخ أبي علي، ففزع⁽¹⁰⁾ في جمع كبير من أهل القيروان، وبني جرير، وغيرهما للجهاد، فوجد⁽¹¹⁾ العدو نازلاً بساحتها، فنزل الشيخ بِقُرَاضَةٍ، إلى أن اجتمع عليه خلق كثير. ثم نهض بهم إلى مقاتلة⁽¹²⁾ العدو خذله الله، فلما أقبل بمن معه على قصر الرباط وهو قريب من المرسى الذي كان بها العدو فر من كان من العدو بالساحل لقتال الناس، وانهزموا مبادرين لما جفاهم، وقتل منهم من قتل، ثم انحازوا عن المرسى بأجفانهم، وأقلعوا بعد أن عاينوا من الرُّعْبِ ما أدهشهم، وأذهلهم عن مقصدهم. ثم خرج أهل المهدية للسلام عليه والتبرك به، واستبشروا

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) سقط من: ط، الزيادة من: ت.

(4) ت: تحدثك.

(5) سبق تخريجه.

(6) سقط من: ت. الألف. وفيه «ما».

(7) ت: استغربت طيرانها.

(8) في ت و ط: الهوى. وهذا تكرر كثيراً والصواب: الهواء، وسوف نصلحه ولا نعود بتكراره

كما سلف.

(9) سقط من: ت.

(10) ت: فزع.

(11) ت: فوجدوا.

(12) ت: مقابلة.

بما دفع الله عنهم من كيد العدو خذله الله، ثم ببركة الشيخ أبي علي وقدمه عليهم، ثم خرج للقاءه [الفقيه]⁽¹⁾ أبو فارس عبد العزيز بن الخيار، وكان والده - رحمه الله - من خواص الشيخ أبي علي، فلما لقيه وَسَلَّمَ عليه، رغب إليه في الدخول إلى المهدية برسم التبرك به، فامتنع من ذلك وقال: إنما جئنا برسم من دفع الله شره، قال الفقيه أبو فارس: فعدت إلى المهدية وتركتُ الشيخ أبا علي أن [لا]⁽²⁾ يرحل من موضعه راجعاً لنأتي⁽³⁾ بطعام صنع للفقراء الذين مع الشيخ، فحملت حملاً من خبز، ولحم مطبوخ بصفر بأوانٍ⁽⁴⁾، فلما جئت به، وجدته راحلاً، فرغبت إليه أن يتصرف في الطعام، فأشار إلى أن يتصرف فيه غيره، فرغبت إليه⁽⁵⁾ أن يتناول منه شيئاً، وذلك قبل أن يراه، وقبل أن أعلمه بما هو، فقال: يا ولدي إني لا أريدُ أن أكل لحمًا طبخ بصفر، فَبُهِتُ لذلك⁽⁶⁾ لكوني، لم أعلمه بما هو، ولا بكيفيته، ولم أطلع عليه. وعلمت أن ذلك من اطلاع الله عز وجل له على ذلك.

ومنها: أن أهل القيروان، كانت عليهم وظائف يؤدونها، فلما سكنها الشيخ أبو علي سالم، ارتفع عنهم ما كانوا يؤدونه من ذلك، ودفع الله [تعالى]⁽⁷⁾ عنهم ببركته أشياء كثيرة.

ولقد قال الحاج عبد الله بن زياد: قال لي بعض الأولياء: ما ذا رحم الله هذه البلدة بقدم شيخنا عليكم⁽⁸⁾. وكان الحاج عبد الله هذا حصل له من خدمته للشيخ أبي علي، ما لا حصل لغيره. وكان الشيخ أبو علي يقول: عبد الله يأتيني بالماء من زمزم كل يوم. ويقول: خلف لنا عبد الله الشيخ أبا علي عمار المعروفي. ولما وصل الشيخ القيروان، أطلق في يده جميع ما يأتيه من الفتوخ، يقول له: تَصَدَّقْ بذلك على من يستحقه، ولا يقبل الشيخ مما يأتيه شيئاً، وما كان قوته وقوت أهله إلا من عمل أيديهم.

ومنها: أنه أتاه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الزواوي⁽⁹⁾، وأخوه أبو يوسف

(1) زيادة من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: لآتي.

(4) ت: في أواني.

(5) ت: منه.

(6) ت: من ذلك.

(7) ت: عليهم.

(8) زيادة من: ت.

(9) في ت و ط: الزاوري، بالراء. والصواب: الزواوي بالواو نسبة لزواوة كما سيأتي.

يعقوب فقالا له: ضاعت غَنَمُنَا ولا تعلم من أخذها، ولا علمنا لها خبراً أصلاً، ولا وقعنا لها على أثر، فأتيناك لتدعو لنا، ولعلَّ الله ببركتك يجمع علينا غنمنا. فقال لهم: لا بأس عليكم، يحفظ الله عليكم غنمكم، إن شاء الله. فقالا: الشيخ شيخ الاطلاع، وَلَعَلَّ الله يجمع علينا غنمنا. وكانا إذ ذاك ساكنين بمنزل الأجم ولم يزاالا بها، فلما صليا العشاء الآخرة قال لهما الشيخ: [يا شيخا زواوة]⁽¹⁾ شَوْشَ عليكما طرف من الدنيا لا قَدْر لها، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ أَنْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ قَلِيلًا﴾ [النساء: 77] فقال له: المال مُعَلَّقٌ بالقلب، فقال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله، ما سلم من الدنيا إلا من سلمه الله عز وجل. ثم قال لهم: قوموا واستريحوا فإذا كان غد⁽²⁾ إن شاء الله، يأتي الفرج من عند الله، ففرحوا بذلك وطمعوا، فلما صليا الصبح مع الشيخ قال [لهم]⁽³⁾: ما نمتم البارحة، فلو حزنتم على دينكم، لحصل لكم المقصد⁽⁴⁾. ثم قال: إِمُضِيَا إِلَى الشَّعْبَةِ الْفُلَانِيَّةِ، سَمَّاها لهما، فإن الغنم مكمنة فيها، فإن الذين ساقوها كمنوها في ذلك الموضع وهي مقيدة بالقدرة بفضل الله حتى تصلاها وتسوقاها، وأعرفكم أن الأذياب دائرون عليها، وما ضرُّوها، ففرحنا، وَتَمَرَّغْنَا عَلَى قَدَمَيْهِ وَقَلْنَا: هذه عادتك معنا ومع غيرنا، تُجَبِّرُ الْمَكْسُورَ. وانصرفنا عنه، وما مشينا بل جَرَيْنَا حتى وصلنا إلى الموضع الذي ذكر لنا، فوجدنا الغنم كما ذكر لنا والأذياب⁽⁵⁾ دائرة بها، وما نقص من الغنم رأس واحد، فَسُقْنَاهَا إِلَى بِلَدِنَا.

ومنها ما أخبرني به من نثَقُ به قال: كُنَّا فِي رِفْقَةٍ مَعَ الشَّيْخِ أَبِي عَلِيٍّ سَالِمٍ، وَنَحْنُ مُتَوَجِّهُونَ لَزِيَارَةِ الشَّيْخِ أَبِي هَلَالٍ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّرِيقِ، إِذْ حَانَتْ صَلَاةُ الظُّهْرِ، فَنَزَلْنَا وَتَوَضَّيْنَا وَقَالَ الشَّيْخُ لِلْإِمَامِ: تَقْدِمُ لِلصَّلَاةِ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ جَمِيعُهُمْ أَنْ يَصْلِيَ هُوَ بِهِمْ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَقَالَ: يَا فَقَرَاءَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ أَصْلِيَ بِكُمْ خُصُوصاً أَوْ عُمُوماً؟ قَالُوا: خُصُوصاً، وَلَمْ يَعْلَمُوا قَدْرَ ذَلِكَ، قَالَ لَهُمْ: نَعَمْ. قَالَ: ثُمَّ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَتَقَدَّمَ الشَّيْخُ، وَكَبَّرَ وَكَبَّرُوا، فَلَمَّا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَسَلَّمُوا وَرَاءَهُ فَالْتَفَتُوا، فَإِذَا هُمْ فِي جَزِيرَةٍ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَلَمْ يَجِدُوا بَرًّا، فَاسْتَقْبَلَ

(1) سقط من: ت.

(2) في ت و ط: غداً.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: المقصود.

(5) الصواب: الذئاب.

الشيخ القِبْلَةُ ولم يكلمهم إلى صلاة العصر وهم في أشد ما يكون من الخوف، وقد نَدِمُوا على ما فعلوا، وكادت أَرْوَاحُهُمْ تُزْهَقُ، ثم أمرهم أن يؤذن المؤذن لصلاة العصر ثم قال للإمام: تقدم تصلي [بنا]⁽¹⁾ فالحُوا عليه أن يُصَلِّيَ هو، فقال لهم: خصوصاً أو عموماً فقالوا: عموماً، قال: قال الله عز وجل: ﴿أَقِمْوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: 72]⁽²⁾ وتقدم بهم الشيخ فَكَبَّرَ، وَكَبَّرُوا، فلما سَلَّمَ وَسَلَّمُوا، خَلَفَهُ، التَفَتَ إليهم الشيخ والتفتوا، فإذا هو في موضعهم الذي كانوا فيه [أولاً]⁽³⁾ قبل صلاة الظهر [فكبروا ثم]⁽⁴⁾ انكبوا على أقدامه وقالوا له: المعذرة، فإننا وقعنا فيما ليس لنا به طَاقَةٌ، وطلبنا ما لا نعرفه، فقال لهم: لا بأس عليكم، ولكن يا فقراء ما يصلح للشيخ أن يجلس على سجادة البيعة للفقراء، حتى تكون الدنيا في يده مثل المرأة، يرى ما يتصرف فيها في المشرق والمغرب. فتابوا وفرحوا بصلاتهم. وقال: اكنموا ذلك، وإلا أُخْلِي صحبتكم، فما تحدثوا به إلا بعد وفاته.

ومنها: ما حدثني به من ثَق به من كبار⁽⁵⁾ أصحابه: أن بَعَثَ بعض فقرائه [إلى حضرة الشرف]⁽⁶⁾ وقال له: يا ولدي، خُذْ هذا الدرهم وَاشْتَرِ⁽⁷⁾ لنا به مَعِزّاً. فَفَرِحَ الفقير بما كلفه به وقال في نفسه: نشترى لسيدي حاجة، ولو كنت نزيد⁽⁸⁾ فيها فوق الثمن. وخرج لذلك، فلما وصل إلى الْحَضْرَةِ، وجد بها قطيعاً من المعز، فنظر وإذا بِجَذَعَةٍ سَمِينَةٍ فقلبها فأعجبته، فقال لصاحبها: كم سَوْتٌ⁽⁹⁾ هذه الجذعة؟ قال له أَخَذَ⁽¹⁰⁾ عَشَرَ دِرْهَمًا. قال: فقلت له: أتبيعها؟ قال: لا، قلت: باثني عشر درهماً، قال: لا، عندك ثلاثة عشر درهماً؟ قلت: نعم. قال: باع الله لك. قال: فلما أعطيته الدرهم الذي أعطاني الشيخ، وأردت أن أُعْذَّ له ما بقي من الثمن. قال لي: يَا مُرَابِطُ، مَنْ شَيْخُكُمْ؟ قلت له: الشيخ أبو علي. قال⁽¹¹⁾: عندي [له]⁽¹²⁾

(1) سقط من: ت.

(2) وردت الآية في ستة عشر موضعاً منها: البقرة 43 و83 و110، النساء 77 و103، الأنعام 72، الأعراف 29، يونس 87.

(4) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(6) سقط من: ت.

(5) ت: كَبَّرَاء.

(8) الصواب: أزيد.

(7) ت و ط: واشترى.

(9) كلمة «سَوْتٌ» عامية تعني: كم ثمنها؟

(10) ت و ط: إحدى.

(12) سقط من: ت.

(11) ت: قال له.

اثنا عشر⁽¹⁾ درهماً وَغَدَةً وَصَلُّهُمْ لَهُ. قلت له: نعم. ثم أخذت في البكاء وانتفضت ووقعت مَغْشِيّاً عَلَيَّ. فلما أَفَقْتُ مشيتُ حتى وصلتُ إلى قَدِيدٍ، فوجدتُ الشيخَ جالساً، فلما وقع بصره عَلَيَّ قال لي: يا فُضُولِي تتفتى علي وتقول: نشترها بزائد الثمن، لنا عنده اثنا عشر⁽¹⁾ درهماً وَغَدَةً، وله عندنا درهم، وأراد الله عز وجل بِبَيْعِهَا بثلاثة عشر درهماً، فبعثتك بالدرهم ليأخذه ويسلمها لك، تُبِّ إلى الله عز وجل، وامثل ما يقالُ لَكَ، وَكُنْ فِطْناً. فَقَبَّلْتُ يديه، ورجليه، وقلت [له]⁽²⁾: يا سيدي فإني على نَيْتِي، قال: لا بأس عليك ثم أنشد يقول رضي الله عنه:

دَعِ الْهَوَى لِأَنَاسٍ يُغْرِفُونَ بِهِ وقد⁽³⁾ مَارَسُوا الْحُبَّ حَتَّى لَانَ أَضْعَبُهُ
بَلَّوْتُ⁽⁴⁾ نَفْسَكَ فِيمَا لَيْسَ تَعْرِفُهُ وَالشَّيْءُ صَغْبٌ عَلَى مَنْ لَا يُجَرِّبُهُ

ومنها ما أخبرني به مَنْ نَثَقَ به قال: كنتُ جالساً عند الشيخ أبي علي، وهو جالس في الزاوية في البيت الشرقي، وَسُبْحَتُهُ في يده، وهو يذكر الله عز وجل، فلما فرغ من ورده قال: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، هذا بعض الإخوان خرج من تونس، ومعه حَمْلٌ في رفقته، فغارت عليهم خيل، فقال: يا سيدي سالم، يؤخذ حملي ولك في الحمل قَدَمٌ لرجلك، وخاف على حملي. فلما وصلت الخيل⁽⁵⁾ وَنَهَبُوا الرَفْقَةَ، وأرادوا أن يأخذوا الحمل قال لهم: لسيدي [أبي علي]⁽⁶⁾ سالم فيه قَدَمٌ، وأنا من تلامذته، فما صدقوه في ذلك. فلما مَدَّوْا أيديهم إلى حملي، عَثَرْتُ فَرَسٌ أَحَدِهِمْ فاندق سَاقُهَا فاعتبروا من ذلك، وردُّوا جميع ما أخذوا، ثم سكت.

قال من سمع ذلك من الشيخ: بَكَرْتُ من الغدِ إلى الزاوية، فلم يصل أحدٌ، [فلما كان اليوم الثالث قدم رجل]⁽⁷⁾ وترامى على قدميه وبكى وقال: ما أَبْرَكُهُ مِنْ قَدَمٍ، كان عَلَيَّ، وعلى الرفقة التي كنت معهم، ثم عَرَّفَهُ الْقِصَّةَ. فقال له [الشيخ]⁽⁸⁾: يا ولدي، هذا الذي جَرَى لَكَ من فَضْلِ اللَّهِ، وَنَيْتُكَ بَلَّغَتْكَ، والقلب لها تأثير في الغيوب، وما أراد الله يكون. قال: فبقيت أتعجب من ذلك، ثم طلبته

(1) زيادة من: ت.

(2) ت: فلمت.

(3) سقط من: ت.

(4) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

(6) سقط من: ت.

(7) سقط من: ت.

(8) سقط من: ت.

(1) ت و ط: اثنا عشرة.

(3) إسقاط الواو من: ت.

(5) ت: الحمل.

(7) في ت: لما كان ثالث يوم.

في الدعاء، وأردت أن أقوم⁽¹⁾، فقال لي: أقلع من باطنك ما كنت عليه، واعتقد أهل الطريق ولا تتعرض بباطنك على أحد. فقلت: إني تائب. وما ذكر له [هذا]⁽²⁾ إلا لكون أنه بين المصدق والمكذب، حين أخبر الشيخ بما أخبر من القصة - رضي الله تعالى عنه ونفع به آمين -.

ومنها: أن المعلم سامي الخياط وابن خالته ثابت، جاءا زائرين إلى الشيخ أبي علي وهو إذ ذاك بمنزل قديد، فلما وصلا إلى المرتع عيا⁽³⁾ ثابت فإذا بالصيد⁽⁴⁾، قال ثابت: ما أظن إلا نركب هذا الصيد ممّا عييت، ثم بدا له، وخافا⁽⁵⁾ منه جميعاً. ولما قرب منهما، أيقنا بالهلاك، فإذا برجلٍ عليه بياضُ حال بينهما وبينه، فيما يريا، فذهب الصيد، وذهب عنهما الخوف الذي كانا يجدانه؛ فلما وصلّا إلى⁽⁶⁾ قديد ودخلا الزاوية وجدا الشيخ جالساً فسَلَّمَا⁽⁷⁾ عليه، فقال الشيخ: يا ثابت، قال له: نعم، قال له: بالله عليك إن شاء الله، لو تَمَّيْتُ⁽⁸⁾ على نيتك بالعزيمة، وأتيت ذلك الكلب إن⁽⁹⁾ جئت إلا⁽¹⁰⁾ راكباً عليه حتى تدخل إلى قديد، لكن بدا لك⁽¹¹⁾، ولكن ما قصر من حال بينكما وبينه خفتما أن⁽¹²⁾ يأكلكما قال: فانكبنا على يديه ورجليه وقلنا: المَعْدَرَة! وما جهد الحضري؟ ما دخلنا هذا البحر، ولا نعرفه، جهدنا إنا محبين معتقدين، قال: لا بأس عليكم كذا أراد الله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [التوبة: 51]. أخبرني بذلك مَنْ نثق به من أصحاب الشيخ.

ومنها: أن بعض تلامذته كان ساكناً ببلاد هواره، وكان فقيراً صابراً. [فبينما⁽¹³⁾ هو] ذات يوم في المسجد يصلي وإذا برجل ينادي⁽¹⁴⁾: [إنَّ أَهْلَ الدَّارِ]⁽¹⁵⁾ ينادونك، فخرج فوجد الزوجة تزايد لها منه ولد، فقالت له: يا رجل،

(1) ت: تقوم.

(2) سقط من: ت.

(3) من العياء، والصواب: عَيِي.

(4) المراد بالعيد هو: الأسد.

(5) ت و ط: خاف، والصواب بالشبهة.

(6) ت، ط: فسَلَّمَا.

(7) ت، ط: فسَلَّمَا.

(8) الصواب: أتممت.

(9) سقط من: ت.

(10) سقط من: ت.

(11) ت: بذلك.

(12) سقط من: ت.

(13) ت: فهو.

(14) ت: قال له.

(15) أهلك.

البيت فارغ، وهذا المولود أتى ولا عندنا نقطة زيت ولا ما نتقوت به، قال الرجل: فضاق ذُرْعِي من ذلك، ولا وجدت لي مخرجاً ولا ملجأً إلا الله عز وجل، فقلت لها: نخرج بعين الله عز وجل، وقصدتُ الإخوان، فما قَدَّر على أيديهم شيء، وكان السعر فيه شدة، فقلتُ: ما بقي غير الالتجاء إلى الله عز وجل، فتوضأتُ ومَشَيْتُ إلى المسجد، وركعت ما قُدِّر، واستقبلت القبلة وأنا متفكر في أمري، ولم يكن في المسجد غيري فإذا بِصُرَّةٍ في خِرْقَةٍ، ولها رائحة⁽¹⁾ طَيِّبَةٍ، وقعت في حِجْرِي، فنظرت يميناً وشمالاً فلم أرَ أحداً، ففتحتُ الصَّرَّةَ، فوجدتُ بها اثني عشر ديناراً جديدة [قال]⁽²⁾: ففرحتُ فرحاً عَظِيماً، وداخِلني من السرور ما لا أَصِفُهُ، وقلتُ: سُبْحَانَكَ يَا رَبَّنَا مَا لِعَطِيَّتِكَ أَقْفَالٌ. فَصَلَّيْتُ ومَشَيْتُ إلى من كلمته ولم يقدر الله على يديه شيء، فلما أتيت بالدراهم، اشتريت منه قفيزاً شعيراً، ونصفاً، ومن القمح ربعاً، وقفيزين زيتاً، واشتريتُ لحماً، وجئت إلى منزلي بما فتح الله علي، فَفَرِحَتِ الزوجة وقالت: مَنْ فَرَّجَ عَلَيْنَا فَرَجَ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَنْ جَبَرَنَا جَبَرَهُ اللَّهُ، مَنْ طَمَأَنَّا طَمَأَنَهُ اللَّهُ [يا رجل]⁽³⁾، انفتح الضوء في عيني، بعد أن استفرغت وهلكت، ثم بعد ذلك زُرْتُ الشَّيْخَ أبا علي، فلما دخلت الزاوية، وجدته جالساً وسَلِّمْتُ عليه فقال لي: من التجأ إلى الله، وَفَوَّضَ أمره إليه، يجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً، ما هذيك الصرة إلا خريقة نظيفة طيبة الرائحة، وما قصر [معك]⁽⁴⁾ مولاها الذي رماها في حِجْرِكَ، فتراميتُ عَلَيْهِ، وَدُهَشْتُ وَبَقَيْتُ بَاهِتاً، وقلت: يا سيدي ماذا حصل لك عند الله عز وجل في إدخال المسرة على من به حاجة وفاقة؟! قال: يا ولدي، الله يتقبل مِنَّا، هذه نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا، ونحنُ فيه آله بين يديه نخرجها، لا سبيل أن تذكر شيئاً من ذلك، قلت: نعم. فما ذكرته حتى مات.

ومنها: أني كنت في⁽⁵⁾ بعض الأيام غبت عن حضوري ميعاد الرقائق. وكنت أقرأ عليه بعض كتب الرقائق وأنا يومئذ حديث عهد بالبلوغ، فلما جئتُ إليه بعد انقضاء [مجلس الرقائق]⁽⁶⁾، سألني عن سبب غيبتني عن ذلك، فما استطعت أن أبدي له عُذْراً، فَضَرَبَنِي بيده المباركة، فَوَقَعَتْ يَدُهُ في بعض ضرباته على خدي،

(1) ت، ط: رِيحَةٌ، كلمة دَارِجِيَّة.

(2) سقط من: ت.

(3) زيادة من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(5) ت: الميعاد.

(6) زيادة من: ت.

وكان ذلك في مجلس خلوته في الزاوية، فسقطت عصية لطيفةً منحنية الطرف من طاقة مرتفعة في الحائط، فلما رآها الشيخ اصفرَّ وجهه⁽¹⁾، وأمسك عن ضربي، ثم قال لي: هذه العصية ألقاها بعض الأبدال⁽²⁾ حين ضربتك ووقعت يدي على [خذك شفقة]⁽³⁾ منه عليك. وسرّه ذلك في جهتي كثيراً، ثم أقبل علي يؤنسني ويرضيني، وأعطاني ثوباً وعمامة، وأقبلت⁽⁴⁾ أقبّل يديه، وأرغب منه الدعاء، وقلت: يا سيدي هذه من بركاتك علي، ونلتُ منك الدعاء، وأرجو من الله عز وجل أن تنال الآخرة؛ فزاده ذلك سروراً ودعا لي، ونهاني أن نعرّف [بذلك أحداً]⁽⁵⁾ من الناس.

ومنها أنه كان إذا صَلَّيْنَا صَلَاةَ الصُّبْحِ يقول: أطفوا القنديل، ثم يقول لي: يا محمد، تأدبوا في قراءة الحزب، وأحضروا بقلوبكم، فإن الأولياء يحضرون معكم ويقرون معكم وأنتم لا ترونهم. فكنا إذا قرأنا وسكت أحدٌ منا، يسمع القراءة كَدَوِيَّ النَّحْلِ بيننا وبين الشيخ، ويدورون حلقة على الشيخ، والله أعلم أنهم أقرب منا إليه، وكان يقول: يحضر معكم سيدي أحمد القطب، ومسكنه بمكة شرفها الله وزادها تعظيماً وتكريماً. ولكنه يتفقدا نفع الله به.

وكان الشيخ يجلس في البيت الشرقي تارة في صدره، وتارة عن يمين الداخل، وتارة عن يسار الداخل. وربما يجلس في أركان الزاوية وفي خلوته التي دفن بها وفي سقيفة الزاوية، فقلت للحاج عبد الله بن زياد في ذلك، فقال: ما تعرّف أحداً إن أخبرتك، قلت له: نعم، قال لي: الله شاهد عليك، قلت: نعم، وَشَدَّدَ عَلَيَّ فِي أَخْذِ الْعَهْدِ فِي كَتْمَانِ ذَلِكَ، فَكْتَمْتُهُ حَتَّى تَوَفَّي. قال لي: يا عبد الله، كل موضع جلس فيه الشيخ نفع الله به وأخذ فيه ورّده جلس فيه الخضر - عليه السلام - وذكر الله فيه، أو قال: صَلَّى فِيهِ، الشُّكُّ مِنِّي.

ومنها: أني كنت جالساً يوماً من الأيام عند الشيخ إلا وباب داره يضرب⁽⁶⁾ فقال: يا محمد قم وانظر ما عندهم، فقمت فقالوا لي: الحمام سقط في الماغل فجئت لأعلمه. فقال قبل أن أخبره: الحمام سقط في الماغل؟ قلت: نعم. فقال:

(1) ت: لونه. (2) ط: أبدال. (3) ت: وجهك مسفقة. (4) ت: فأقبلت. (5) ت: بما جرى لأخيد. (6) ت: ينصرف.

ادخل [بمن يعرفه]⁽¹⁾. فدخلت أنا، والمرابط علي الغساني والمرابط معتوقاً فأنزلنا فيه المرابط معتوقاً، فوجده على عويد قرب الماء، ولم يكن في حائط الماغل قبل ذلك عود، فرفعه، ولم تبتل منه ريشة واحدة، وفرحنا، ثم خرجنا لنعلمه، فقال قبل أن أعرفه: يا محمد! الطيارة والسيارة [والأبدال]⁽²⁾ صبوا فيه من ماء زمزم، [ولا يزال الوارد عليه من الرجال]⁽³⁾، وبركة الأبدال هي التي أوقفت الحمام حتى خرج له عود وقف عليه من القدرة. وكان الماء إذ ذاك قليلاً⁽⁴⁾ لا يكاد يوجد إلا عند قليل من الناس، [ولم يفرغ بحمد الله ماؤه إلى الآن. وهذا الماغل في دار سكناه]⁽⁵⁾.

ومنها: أنه كان جالساً في زاويته بمنزل قديد، وإذا بالمُرابِط إدريس الدرباسي يركض فرسه قريباً⁽⁶⁾ من المغرب، فلما سلّم عليه قال له على البديهة: يا مرابط إدريس جئت قدام⁽⁷⁾ المباركين تعرّفني بهم، ما جلست حتى هيأت عشاءهم بفضل الله تعالى عزّ وجل قال له: قدر المائتين جئنا وفينا ثلاثة وعشرون فارساً، قال له⁽⁸⁾: لو جئتم أهل الأرض كان⁽⁹⁾ فضل الله كثيراً. وكانوا إذ ذاك الشيخ عمر بن الشيخ أبي يوسف الدهماني، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ [أبي عبد الله]⁽¹⁰⁾ عبد السلام بن عبد الغالب، والشيخ أبو رحمة غيث الحكيمي⁽¹¹⁾ ومعهم فضلاء، وجاء معهم بقدر الأربعين حماراً، وبعض الجمال، فرحلوا الفقيه الصالح أبا زيد عبد الرحمن من الأجم إلى القيروان، لأنه تغير مع أهل البلد، فأتوا إليه، فلقبهم، وأضافهم، وذبح لهم رأسين من البقر غير الغنم، وأمر الشيخ عبد الله النفاتي أن يخرج لهم التمر، فأخرج لهم قدر الخمسة أقفزة تمرأ، ثم أمرهم بأكله، ثم أمر بإحضار الطعام، فحضر، ثم وقف على رؤوسهم، وكان الذي يصب الزيت من الجرة الحاج المبارك أبو إسحاق إبراهيم المغربي، وقال الشيخ: صبوا الزيت حتى

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) ت، ط: قليل.

(5) سقط من: ت.

(6) ت، ط: قريب.

(7) ت: بقدّم.

(8) سقط من: ت.

(9) ت: لكان.

(10) ترجمته برقم 332 وردت باسم: أبو محمد، وفي ت: أبي عبد الله محمد.

(11) انظر رقم ترجمته رقم (344).

يدور بدوائر القَصَصَةِ، فلما أكلوا، وتفقدوا الطعام، فما نقص إلا اليسير. وقال الحاج إبراهيم: فوجدتُ بعد ذلك الجرة مَلَّانة كما كانت أول مرة، وقال مفتاح: علفت من الشعير مقدار الثلاثة أقفزة ونصف من رونية فوجدناها مَلَّانة بالشعير كما كانت أول مرة، فرجعتُ إليه لنعلمه⁽¹⁾ بذلك.

فقال: أَسْكُتْ، كُلُّ ما جرى في الزيت والشعير، فبفضل الله تعالى، ثم ببركة الفقراء، وكذلك في التمر، ثم⁽²⁾ ودعوا الشيخ، فقال لهم الشيخ: أنتم أولاد ساداتنا ومشايخنا نفع الله بكم، وأريد منكم الصفح في هذه القضية التي جرت بين الفقيه أبي زيد⁽³⁾ وأصحابه، قالوا: نعم يا شيخنا بعد أن نصل إليه، يقع ما أشرتُم به، فما يتعدى لك أحد [عن مشورتك]⁽⁴⁾، والذي تأمرُ به العمل عليه إن شاء الله تعالى - نفعنا الله بك وبأمثالك - . وساروا إلى قصر الأجم. فلما وصلوا إلى الفقيه أبي زيد جاء أهل البلد ودخلوا عليهم فأجابوهم إلى ذلك وطبَّوا قلبه، وانصرفوا راجعين نفع الله بهم أجمعين.

ومنها ما أخبرني به مَنْ نَثَقَ به قال: كنت جالساً عند الشيخ أبي علي فأخذ في⁽⁵⁾ ورده كعادته، ثم أخذ في كرامات الأولياء، وما يجري بهم⁽⁶⁾ من المكاشفة والمطالعة، ثم قال: حضر سيدي أحمد القطب وقيعة في المنظر⁽⁷⁾، فهزمهم المسلمون ببركة النبي ﷺ، ثم ببركة الأولياء، رضي الله عنهم، ثم اختطف القطب - نفع الله به - رجلاً [من المنظر]⁽⁸⁾ من سرجه، ثم تكلم بكلام لم يفهم، وإذا بالبُدلاء حاضرون معه أتوه في ساعتهم، فقالوا له: يا سيدنا أحمد الشيخ أبو علي سالم ما عنده علم بما جرى لك في اختطافك في هذا الرجل، قال لهم: سبحان الله! ما شلته من السرج حتى رمقني بعينه قبل أن تأتونني، قالوا: هو أهل لكل فضيلة، قال لهم القطب: أخي أبو علي سالم هو شيخ هذا الصنف في وقته، ولا يقدر أحدٌ يتقدم في حياته لما وهبه الله عزَّ وجل، ثم قال: بين المراد والمريد كثير، هذا رجع من الأولياء بلا اجتهاد بل بالعناية السابقة، قال الله عزَّ وجل:

(1) الصواب: لأعلمه.

(2) في ت: وبين.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: من مشورة.

(5) سقط من: ت.

(6) ت: لهم.

(7) سقط من: ت.

(8) سقط من: ت.

﴿يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 105] وما فعل هذا سيدي أحمد نفع الله به إلا بإذن من الله عز وجل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4].

ذكر بقية أخباره

قال أبو عبد الله محمد بن عثمان الحضرمي: كان حجّه في عام ثمانين وستمائة، وكان سفره من منزل قديد في ركب اجتمع فيه⁽¹⁾ جمع من الصلحاء والعلماء والفضلاء، كسيدي الشيخ العالم العامل أبي علي حسن الزبيدي وأخيه الشيخ الصالح أبي علي حسن [والشيخ الصالح⁽²⁾ أبي النور البلطي] والشيخ الصالح أبي محمد عبد الله البرجي، والفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزواوي، ويُسمّى ركبهم ركب المشائخ. ولما صحبهم الشيخ أبو علي سالم واجتمع بهم بوادران فرحوا به، وأكرموه، [فقدموه]⁽³⁾ على أنفسهم لعلمهم بفضله وصلاحه. وكان الشيخ أبو علي حسن الزبيدي لا يمشي إلا خلفه، وإذا قيل له: تأخر عن الناس، حبس دابته إلى أن يدركه الشيخ مع ما هو عليه من العلم والفضل والصلاح.

وحدثني من نثق به أنه قال: لما كانوا في بعض الطريق أدرك أهل الركب عطشٌ عظيم لفقدهم الماء، فاجتمع أشياخ الركب بسيدي أبي علي سالم ورغبوا⁽⁴⁾ إليه [بأن]⁽⁵⁾ يدعو الله - عز وجل - أن يفرج عنهم ويُدَارِكهم برحمته. فتواضع الشيخ وقال: يا سادتي، إنما أنا خادمكم، وما مثلي من يتقدّم بين أيديكم إلا أن تمدّوني بخواطركم، فشدوا عليه في الرغبة، فلجأ إلى الله عز وجل، ودعا، فما ساروا إلا قليلاً وإذا بسحابة لطيفة، فامتدّت وانتشرت، وجاءت بمطر كأفواه القرب، ففرح الناس وشربوا، فاستقوا وملأوا قربهم، وشكروا الله عز وجل على ما أنعم عليهم به في ذلك، فزاد اعتقاد الأشياخ فيه، وكثر تعظيمهم له؛ ولما وصلوا إلى القاهرة،

(1) ت: به.

(2) ما بين المعقوفتين سقط من: ط، الزيادة من: ت.

(3) سقط من: ت. (4) ط: ورغبوا.

(5) سقط من: ت.

اجتمع الأشياخ المذكورون بالشيخ الصالح العالم أبي عبد الله محمد القسطلاني، فنظر إليهم ثم قال: أنتم الكل أشياخ مباركون، وعندكم بركة وزيادة، والذي عند هذا الشيخ أبي علي سالم من الزيادة ما هو عندكم. فقالوا: يا سيدنا عرفنا ذلك وتحققناه ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4].

ولما سافر الشيخ للحج قال لمن يخدمه: إياكم إذا أنفقتم لم⁽¹⁾ تحسبوا شيئاً على من تحسبون. والذي يلزمه نفقتهم ثمانية عشر رجلاً، منهم عبد الله بن زياد، وهو الذي [تقدم على]⁽²⁾ النفقة، إذ من عادته أنه⁽³⁾ لا يمسك درهماً ولا يدفعه أصلاً، وقال له: أوصيك إن لقيت جائعاً فأشبعه⁽⁴⁾، وإن لقيت⁽⁵⁾ عطشاً فأزوه، وإن رأيت عياناً فأخمله على الجمال، وكان عنده خمسة وعشرون رجلاً لرفع الزاد والركوب لمن لا يستطيع أن يمشي. وكان يفطر⁽⁶⁾ كل ليلة عنده الثلاثون والأربعون⁽⁷⁾ [رجلاً]⁽⁸⁾ ويقول له: يا عبد الله! ناشدتك الله، لا تحسب أصلاً، نحيلك على الله، ولا تستكثر في نفسك ما تخرج، فإنه لا ينقص منه شيء بفضل الله عز وجل؛ فكان هذا دأبه حتى وصل مكة. فلما قضى فرضه أمره بصدقة كبيرة وقال له: يا عبد الله، هذا هو إن شاء الله موضع الإقبال، وهنا تتزاحم الرجال.

فلما وصل المدينة على ساكنها الصلاة والسلام أتاه الحاج أبو عثمان سعيد ولد أخيه الصالح أبي سعيد سلامة، وكان حجّ معه قال: نريد أن نشترى ناقتين قال: افعل، فاشتراهما بعشرين ديناراً ذهباً كبيرة، ودفع له ذلك من جيبه. فلما وصلنا إلى القيطون⁽⁹⁾، أدخلت يدي في جيبتي، فإذا بالعشرين ديناراً، فلما رأيته قال لي: اصمت يا سعيد واكتم عني⁽¹⁰⁾، فجئت إليه لأعرفه بيني وبينه، فقال لي في أذني: [يا ولدي]⁽¹¹⁾ يا مسكين، قلت لك: اسكت، العشرين ديناراً، التي اشتريت بها الناقتين صبتها في جيبك، ذلك من فضل الله، وأنا عرفتكم أنه ما ينقص شيء بالله إن شاء الله، إن تحدثت بهذا لا عرفتكم. فما تحدثت بذلك حتى مات.

(1) ت: أن.	(2) ت: قدم.
(3) ت: إذ.	(4) ت: أشبعه.
(5) ت: وإن رأيت.	(6) ت: يفطر عنده.
(7) ط: أربعون.	(8) سقط من: ت.
(9) القيطون: الخيمة.	(10) سقط من: ت.
(11) زيادة من: ت.	

فلما وصلوا إلى منزل قاسم مشى أهل كل⁽¹⁾ بلد من بلاد الساحل إلى بلدهم⁽²⁾، ومشى أهل القيروان إليها. قال الشيخ: يا عبد الله أحسب ما بقي من البركة، فقال: يا سيدي، المال الذي أعطيتني ما نقص منه غير أربعين، [فقال الشيخ]⁽³⁾: سبحان الله، الله أعلم أنها كانت خرجت لغير مستحق. ولما وصل لبلده أمر بصدقة جميع ما تحصل له في حرثه من الطعام على الفقراء والمساكين؛ وكذلك تصدق بجميع غنمه، وكانت قدر ألف رأس، وبجميع بقره، وكانت قدر الستين رأساً⁽⁴⁾. وأشار بأربعة من الخيل⁽⁵⁾، وترك السبب بالحرث وغيره. وبقي على قدم التجريد متوكلاً على الله عز وجل، فإذا فتح الله بهدية أو بشيء أنفق ذلك على الفقراء والزوار ولم يدخر شيئاً، بقي هكذا [إلى أن]⁽⁶⁾ مات. [رحمه الله].

وقد تقدم أن الشيخ الرباوي مشى إليه مع⁽⁷⁾ جماعة هتؤوه فيمن حج من ابن أخيه وغيره، وكان ذلك في عام ستة وثمانين وستمائة، فلما وصلوا إلى القيروان وصل من الغد الشيخ أبو علي، وترك أهله إلى أن وصل بهم من وصل بعد ذلك، واستوطن القيروان.

ورأى بعض الفضلاء في منامه في ليلة صبيحة دخوله النبي ﷺ وهو راكب على فرس داخلاً من باب الخوخة قال: فانتبهت من نومي وقلت: هذا رجل مُتَّبِعٌ للسنّة يدخل القيروان، فصليت الصبح وإذا الناس⁽⁸⁾ يهرعون من كل جانب وهم يقولون: أصبح اليوم [في القيروان]⁽¹⁾ الشيخ أبو علي سالم القديدي، فمشيت نُسَلِّمُ⁽⁹⁾ عليه وأنا فَرِحٌ بما رأيت في المنام، فوجدته جالساً في داره، والدار مملوءة بالناس، فلما صَافَحْتُهُ وَسَلَّمْتُ عليه قلت له: يا سيدي، ادعُ لي، فقال لي في أذني: أما يكفيك ما رأيت الداخل من باب الخوخة، وتحتاج إلى دعاء؟ ثم قال لي: سألتك بالله العظيم أَكُتُمُ هذا ما دمتُ حياً، فعاهدته على ذلك.

(1) زيادة من: ت. (2) ت: بلده.

(3) سقط من: ت. (4) سقط من: ت.

(5) ت، ط: الخبل وهو تصحيف لكلمة: خيل.

(6) ت: حتى. (7) ت: في.

(8) سقط من: ت.

(9) في ط: لا نسلم. التصويب من: ت، والأرجح: لَأَسْلَمَ.

ثم أمر الحاج عبد الله ببناء الزاوية وقال: يا عبد الله! الأبدال، والسيارة والطيارة، نفع الله بهم قسطوها، فكل أساس تحفرونه فيها فهو بتقسيطهم، لا تزيدوا⁽¹⁾ فيه ولا تنقصوا منه يا عبد الله، ما رحلت من قديد إلا بإشارة من تعينت علي طاعته. فقال له: يا سيدي هذا فضل من الله علينا، الذي ساقك الله لهذه البلدة، ونرجو⁽²⁾ من الله، أن يرفع عنها وعننا ببركتك وحلولك كل سوء. وكان إذا أراد أن يحفر ساساً⁽³⁾ يُشير إليه الشيخ⁽⁴⁾ بكيفية وضعه على ما قسطه⁽⁵⁾ الأولياء نفع الله بهم حتى كمل بناؤها.

وقال لي يوماً: يا عبد الله قل للبنايين⁽⁶⁾، وأصحاب الأجرة، يتأدّبوا في أفعالهم وأقوالهم، فإن الأولياء حاضرون معهم ليلاً يتعاقبون⁽⁷⁾ فيما لا يحيطون⁽⁸⁾ به علماً، انصحهم وعرفهم ذلك ففعلت⁽⁹⁾.

ثم إن أهل قديد، وقع عندهم من رحيله واقع عظيم، ومشى منهم جمّع كبير إلى الشيخ أبي عبد الله الدكالي يسألونه أن يرغب إلى الشيخ في العودة⁽¹⁰⁾ إليهم فقال لهم: يا أولادي، لا أستطيع ذلك، لأنني هممت به فكان بيني وبين ذلك سور من حديد. وما أظنه فعل ذلك، إلا لأمر قام عنده لا يستطيع دفعه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 66] ولكن ارجعوا إلى بلدكم، واتبعوا طريقتة في أفعاله الصالحة، فما ترون إلا خيراً، وبركته تلحقكم على القرب والبعد نفع الله به.

وقال في مرضه الذي توفي فيه: عاهدني الطيارة، والسيارة، أنهم لا يفارقون القبر حتى ينفخ إشرا فيل - عليه السلام - في الصور، وإن مات أحد منهم يوصي صاحبه، وهم يتوارثون ذلك إلى قيام الساعة، فتأدّبوا عند القبر، ونظّم من الله عز وجل إن شاء الله ببركة النبي ﷺ، ثم ببركة من عرفنا من الأولياء أن كل من زار التربة بنية صادقة ودعا الله فإن الله يفرج ما نزل به ويقضي حاجته ما خلا المعصية إن شاء الله.

(1) في ت و ط: لا تزيد.	(2) ت: وأرجوا.
(3) ت: ساسها، والصواب أساسها.	(4) ت، ط: الشيخ.
(5) ت، ط: قسطوه.	(6) ت: للبنايين.
(7) ت: يعاقبوا.	(8) ت: يحيط.
(9) ت: ففعل.	(10) في ت، ط: العدة.

وكان يكرر في مرضه هذين البيتين ويستحسنهما [رضي الله تعالى عنه]⁽¹⁾:

وحرمة الودّ ما لي عنكم عوض وليس لي في سواكم بعدكم عرض
ومن حديثي بكم قالوا: به مرض فقلت: لا زال عني ذلك المرض

وقيل له: من يصلي عليك؟ قال: يصلي علي محمد بن عثمان، فإنه كان إمامي في حياتي، وهو الذي يُصلي علي بعد وفاتي. ف قيل له: وأين يُصلي عليك؟ قال: بالجامع الأعظم.

وتوفي رحمه الله تعالى عليه في يوم الجمعة قبل الزوال، لثمان عشرة ليلة خلت من شهر ذي القعدة من عام تسعة وتسعين وستمائة. فلما كان يوم السبت من غداة وفاته - رحمه الله عليه - تسامع الناس بذلك فجاءوا من الأقطار والبلدان، من الساحل وغيره، فاجتمع للصلاة عليه خلق كبير⁽²⁾، فتقدمت للصلاة عليه بعد صلاة العصر بالجامع الأعظم كما أوصى رحمه الله. ثم حمل إلى بيت خلوته من الزاوية، فدفن بها في قبر كان أمر بحفره قبل وفاته بثلاثة أعوام، وكان له مشهد عظيم، ورُثِيَ رحمه الله تعالى بمراثي كثيرة.

وتوفيت والدته أم سلامة، واسمها زينب في اليوم الثاني والعشرين لذي الحجة مكمل عام سبعين وستمائة. وكان حاضراً لوفاتها هو، وأخواه شقيقاه الشيخان الصالحان أبو سعيد سلامة وأبو الظفر غانم، وكان سلامة هذا أكبر أولادها، وبه تُكنى.

قالت⁽³⁾: زوجات الشيخ أبي علي سالم، وكنّ أربعاً: لما جرّدناها من ثيابها للغسل كانت تتقلب لنا كيف نريد، وسترّت نفسها بيدها. ثم جاء أهل الشرف للصلاة عليها. وكانت بلاداً عامرة كبيرة فكبر عليها نحو الستين رجلاً منهم من يكبر فوق المسجد، ومنهم من يكبر في الأرض، والمكبرون يُسمع بعضهم بعضاً حتى كان التكبير يسمع من ثلاثة فراسخ دائرة بقديد، وأن من [لم يصل]⁽⁴⁾ إلى قديد للصلاة، سمع التكبير بقديد عن ثلاثة فراسخ. ولحدها في قبرها الشيخ أبو علي، وحل العقدة التي عند رأسها، وأراد أن يغطي رأسها؛ قال الشيخ: رفعت يدي

(1) إسقاط صيغة الترضي من: ت.

(2) ت: كثير.

(3) ت: قال.

(4) ت، ط: لا وصل.

بذراعها، تشير أن لا أعطي وجهها ولا شعرها، وأن لا يكون بينها وبين التراب حائل، ففعلت ذلك. وقبرها الآن بمسجد الزاوية مشهور يزار ويتبرك به.

وكان الشيخ الصالح أبو محمد [ابن]⁽¹⁾ عبد الناظر المُلُوي، يزورها وأوصى ولده الصالح أبا علي محمد، فكان يزورها وكان يتكرر إليها في كل وقت، وكان يقول: هذه رابعة في وقتها. وكان الصالحون يزورونها من كل مصر ويقولون: إن أم سلامة غفيرة الساحل، والدعاء عندها مستجاب.

ولقد أخبرني من نثق به، وهو الآن خادم المسجد الذي هي به مدفونة قال: دخل علينا رجل برسم الدعاء، وكان جُنُباً، فخرجت له حَيَّة من القبر فطرده من المسجد حتى خرج منه وهو يجري، ثم سلكت إثره حتى أخرجته من الزاوية كلها.

وبركاتها⁽²⁾ كثيرة، وكان من أصابته ضيقة، أو أمرٌ مُهِمٌ، يقصد إلى قبرها ويدعو، ويتضرع⁽³⁾، إلى الله عز وجل ببركتها، فلا يخرج حتى يذهب عنه ما أصابه من الضيقة؛ سمعت ذلك ممن أثق به.

وقال الشيخ أبو هلال السدادي نفعا الله ببركته: يا سالم أخواك اثنان سلامة، وغانم؟ قال: فقلت: نعم! قال: سالم رجل مبارك، وغانم رجل صالح، زَوْجٌ غانماً فإنه يلد من ذريته البركة. فأحسن من ذلك أبو علي سالم أنه لا يولد له، فعطف عليه الشيخ وقال: يا سالم أنت بركة الكل، ما أسعدك عليهم: وما أبركك على كل من يعرفك، اسأل الله تعالى أن يكون لك حيث لا تكون لنفسك.

قلت: قد ذكر أبو عبد الله محمد بن عثمان بن غانم المذكور في فضل الشيخ أبي علي سَفْراً في الغالب⁽⁴⁾ الكبير، وأدخل فيه ما نقلته عنه في الشيوخ الثلاثة أبي عبد الله الدكالي، وأبي عبد الله محمد الرباوي، وأبي علي عمار وغيرهم. وجعل ذلك كرامات له. أخذنا من الكتاب المذكور معظم عيون ما فيه خشية الإطالة. «والأعمال بالنيات».

(1) سقط من: ت. (2) ت، ط: بركاته. والصواب ما أثبتناه.

(3) في ت: يدعوا ويتضرعوا، بصيغة الجمع مع زيادة الألف في يدعوا: في ت و ط.

(4) كذا وردت في: ت، ط.

350 - ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسدي⁽¹⁾
المعروف بالدباغ المؤرخ:

قال العواني: روى عن القاضي أبي زكرياء البرقي، وأكثر الشيوخ عنه ذكر لنا ذلك؛ وروى أيضاً عن القاضي ابن عبد الجليل الأزدي، والقاضي أبي محمد عبد الله ابن برحلة الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عثمان [أبي]⁽²⁾ موسى عيسى⁽³⁾ بن سلامة بن علي الحضرمي، وغيرهم عدة كثيرة تنيف على الثمانين شيخاً. سمعت ذلك منه غير ما مرة.

وكان معتنياً بالآثار، جامعاً لها، كتب بخطه منها كثيراً ورواه؛ وكان أنيس المجالسة، كثير الحكايات، حافظاً للحديث، وكان عارفاً، وله تواليف منها معالم الإيمان في مناقب المشهورين من علماء القيروان، وكتاب تاريخ ملوك الإسلام وكتاب جلاء الأفكار في مناقب الأنصار رضي الله عنهم، إلى غير ذلك من أوضاعه، وكان يقول الشعر، وربما أجاد في بعضه، وكتب على جلاء الأفكار في مناقب الأنصار من تواليفه هذه الأبيات:

كتب جلاء الأفكار في فضل معشر	بهم عزّ دين الله في الشرق والغرب
إلهي فحقّق للأسيدي ما رجا ⁽⁴⁾	بتأليفه واغفر لنا ⁽⁵⁾ سائر الذنب
وبوئه والقاري ومن هو سامع	وكاتبه أعلاً المقامات في القرب

وله أيضاً عفى الله عنه هذه القصيدة يصف فيها نفسه ويذكر فضل الأنصار وانتماءه لهم رضي الله عنهم.

قلت: في النسخة محوٌ كثير، فها أنا أكتب بعض ذلك لكونه لا محو فيه من ذلك:

إني امرؤ ذو همّة ملكية	ما إن لها تحت الكواكب موضع
ما لي إلى غير الفضائل مَسْلَكُ	يوماً ولا دون المعالي منزع

(1) ت: الأزدي. (2) فراغ في: ت.

(3) الواضح من اسم عيسى في ت حرف: «ع».

(4) ت و ط: رجي. (5) ت: له.

أشبهتُ آبائي الكرام فإنهم
ما فيهم إلا بعير شارد
وأبي أسيد بن الحضير كفى به
ذاك الذي نزلت ملائكة السماء
وأضاءت المِنْسَاءُ⁽²⁾ في غَسَقِ
نسب كأن الصبح منه تنفست
مَنْ مُبْلِغِ الْأَنْصَارِ عَنِّي أَنَّنِي
وتوفي سنة تسع وتسعين وستمئة.

قلت: وكان عدلاً، شهادته أكثرية، يرفع على خطه. وداره التي تقدم ذكرها هي الدار المعروفة بخلف الله المنزلي.

قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن شبل رحمه الله تعالى: وسبب تسمية جده الكبير بالدباغ، هو: أنه قدمه قاضي الجماعة، والسلطان، وكتب له الظهير بقضاء بلدة القبروان وبعث له به، فلما عرف أن الظهير يرد عليه في وقت الضحى بَكَرَ - رضي الله عنه - إلى دار الدباغ⁽³⁾، وَعَرَّ حَوَائِجَهُ وَتَحَزَّمَ، ثم أخذ يملأ بالدُّلُو [من بئر الدار]⁽⁴⁾ ويفرغ على الجلود. فلما وصل الرسول بالظهير طلبه في داره، وفي المسجد فلم يجده، وما زال يبحث عليه حتى وجدته فقال له: يا سيدي نُجِبُ الْبِشَارَةِ، فقال [له]⁽⁵⁾: ارجع بظهيرك، وقل لمن بعثك به: وجدته دَبَاغاً، فلا يليق بكم أن تقدموا مَنْ [كانت]⁽⁵⁾ هذه حالته قاضياً على رقاب الناس. فلما عرف من ذكر قالوا: نعرف أنه ما صناعته⁽⁶⁾ دبغ الجلود بحال، وإنما [فعل]⁽⁷⁾ ذلك بقصد الهروب من القضاء لِنَجَاةِ نَفْسِهِ، وقدموا غيره.

(1) ت، ط: يتضلع.

(2) الْمِنْسَاءُ: هي العصا بلغة الحبشة. ورد في هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَهُ﴾ [سَبَا: 14]. عن مجاهد: «تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ» قال: عصاه. تفسير الطبري 357/10 دار الكتب العلمية ط I س 1992.

(3) ت: الدبغ. والمراد بدار الدباغ أي المكان الذي تُدْبَغُ فيه «الجلود».

(4) سقط من: ت. (5) سقط من: ت.

(6) ت: صنعته. (7) زيادة من: ت.

قال شيخنا أبو الفضل البرزلي: وقبره بمقبرة باب تونس بالرَّبْوَةِ التي فيها أسلافه.

قلت: وهو غير معيّن، وسميت مشاهد قبورهم بسلسلة الذهب، فهم قوم جمعوا بين العلم والعمل والورع ونسب الأنصار رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

351 - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي رضي الله عنه:

قال العواني: كان رجلاً⁽¹⁾ صالحاً، صوفياً، فاضلاً، موصوفاً بالخير، ونصر الفقير وحفظ الغريب، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. صحبته مدة من الدهر، فما رأيتُ أَوْسَعَ منه حلماً، ولا أَلْيَنَ خلقاً، ولا أكرم طبعاً، وكان عطوفاً⁽²⁾ على ذوي رحمه، وصولاً لإخوانه، سالم الصدر، عفيف اللسان، شديداً لتغيير المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قلت: وكان خطيباً⁽³⁾ جامع القيروان، رأيت الظهير له بذلك؛ وكان رحمه الله تسبّب في قطع قائد⁽⁴⁾ الصوف إذا دخلت به امرأة خاصة، وكان قبل، يؤدي ربع درهم على كل جَزّة إلى زماننا، فوقع التسبب إلى أن ألحق السلطان أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز الرجال بالنساء فصار مُسَرَّحاً.

قال العواني: وعلى يديه انقطع الخمر من القيروان، وغلق الموضع المعروف ببيعها بعدما كان يبيعها إشهاراً جهاراً، وشرابها عاكفرن عليها ليلاً ونهاراً، وما ذاك إلا ببركته رضي الله عنه وصدق مقاله وحاله.

قلت: لم يبين رحمه الله كيف انقطع على يديه، وبسطه على ما ذكر لي: هو أن رجلاً كافراً التزم دفع مال فيه للمخزن يؤديه كل يوم، أو في العام على أن يبيعه بالقيروان. فخرج له الأمر بذلك فعمد إلى دار بالحومة المسماة اليوم بالنباذية سميت بذلك لبيعه الخمر بها.

وكان يؤتى له في البحر من صقلية إلى سوسة، ثم يؤتى به في البر إلى القيروان.

(2) ت: عطافاً.

(4) ت: فائد.

(1) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

وكتب شيوخنا إلى السلطان بتونس في ابتداء الأمر فأبى أن يقضي [فيه لهم]⁽¹⁾ حاجة، وسد الباب في وجوههم، وقال: هذه تونس وفيها الصالحون يُعمل هذا فيها. فأتى الشيخ إبراهيم هذا إلى قبالة تلك الدار، وجلس هناك في الزقاق، ويقال: إنه كان يَعْمَلُ الميعاد هناك، وأكثر الملازمة لذلك ليلاً ونهاراً، فكان كل من كان يريد دخولها لشربه، أو لشراؤه من الناس، يجد الشيخ ومن معه من أصحابه هناك، فيستحي أن يدخل وهم ينظرون إليه فيرجع، فتعطل الدخول عنده لما ذكر، فاشتكى للسلطان، فقال: وأي شيء نعمل له؟ كتب لي هو وغيره من الشيوخ في ذلك فلم أسعفهم، فقضى هو الحاجة لنفسه، فمشى الرجل، وسد الشيخ باب الدار بيده.

وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن شبل ينقل عن حدثه أن الشيخ إبراهيم لم يختص بذلك بل جميع المشايخ⁽²⁾ اتفقت كلمتهم على ذلك كالشيخ أبي عبد الله محمد الرباوي، وأنهم لازموا ذلك المكان، حتى انصرف الرجل وهو⁽³⁾ لا ينفي ما تقدم، فهو وإن كان المشايخ⁽⁴⁾ شاركوه في ذلك، يكون هو المبتدي لذلك، والمُبَالِغ فيه، فكأنه اختص بالملازمة لذلك المكان.

قال العواني: ثم إن الشيخ أبا إسحاق هذا بلغه عن بعض أهل القيروان كلام عليه، فيه طعن، أداه ذلك إلى الخروج عن البلد، والهروب منه، فَقَلِقَ الناس من ذلك وَوَجَدُوا وجداً شديداً، وتغيظوا على من جنى هذا وقاله بأنواع من المقال القبيح، وإن الناس لمعذورون في الأسف على فقد مثله، فقد انتفع به عالم من الناس، وتاب خلق كثير على يديه.

ثم إن الناس اجتمعوا إليه، وأقسموا عليه، وسألوه الجلوس بالبلد، فأبى فارتحل إلى مدينة تونس مستوطناً بها، فحلّ من أهلها محلّ أهل الإرادة، واحتلّ منها بمرقاة التعليم والإفادة، وجرى له مع السُلْطَانِ كلامٌ طويلٌ جَمِيلٌ، ورغبة في الدُّعَاءِ، فدعا له دعاءً حسناً، ورجالُ السُلْطَانِ يُؤْمِنُونَ على دُعَائِهِ، ثم أمر له بِدَارٍ جَيِّدَةٍ، فأنزل فيها، وأكرم مَثْوَاهُ. وكان الطَّاعِنُ الذي طعن عليه، إنما كان طعنه فيما

(2) ت: المشيخة.

(1) ت: بهم فيه.

(4) ت: المشيخة.

(3) ت: وهذا.

يرجع للسلطان، وبلغ ذلك إلى الملك، فلما رأى إقبال الملك عليه، وإكرامه له، علم أكثر الناس أن بينه وبين الله سريرة حسنة، وأنه ظاهر الخير بين العفاف كريم البيت ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 4].

قلت: يريد أن بعض أهل القيروان كتب للسلطان وهو يقول: ابن غلاب لا يريد أن يكون في القيروان إلا شيخها، ويستقل بها، والسلطنة عقيمة. فسمع الشيخ أن السلطان تأثر لذلك، فثار⁽¹⁾ هو، إلى⁽²⁾ أن ارتحل لتونس برسم الإقامة، وتخوف إن لم يبادر لذلك، فقد يُعاوِدُ الكلامَ فيأمر السلطان بمجيئه إليها وسكنائه بها، وعلى كل حال، فعمي قلب السلطان عليه، فلما حضر مجلسه وظهر منه ما دل الكلام عليه، فكانت كرامة له.

وأزال رضي الله عنه، مَظْلَمَةً كَبِيرَةً، عن أهل تونس على يديه؛ وذلك أن الشيخ كبر حاله بتونس، وكان قَوَادُ السلطان، يكثرون الزيارة إليه ويطلبونه في الدعاء، وتلك المظلمة تُسَمَّى مودة الجراد، وسببها أن الجراد ظهر بقرب تونس، وهو صغير، فخافوا منه على غابتهم أنه يأكلها، فَاسْتَأْجَرُوا أَجْرَاءَ لِنَشِّهِ وإبعاده عنها، وطال أمرهم معه، وأخذوا يكتبون الأجرة حتى سلمت غابتهم، وجمعوا ذلك، فجاءت الإجارة⁽³⁾ خمسين ألف دينار دراهم، وفرضوها عليهم، فلما كان العام الآتي قال بعض الظلمة للسلطان: أدّى أهل تونس في العام الفارط⁽⁴⁾ على غابتهم خمسين ألف⁽⁵⁾ [دينار دراهم]⁽⁶⁾ ولا متكلم فَنَأْخِذْ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فوافقه على ذلك، فبقوا يؤدونها في كل عام، فلما انتقل هذا الشيخ لتونس، ومرض وبريء، جاء يُهَنِّئُهُ بعضُ خواصّ السلطان وقال له: قال لك مَوْلَانَا: وجب علينا الهناء. فقال له: إنكم لا تقدرون على هَنَاءِ الْفُقَرَاءِ. قال: وما هو؟ قال: تزيلون مودة الجراد عن أهل تونس؟ فقال: خاطركم. فمشى إلى السلطان وعرفه بما قال، وتسبب بالكلام الحسن فأزالها السلطان عنهم، فسمع أهل تونس، فازدادوا فيه محبة، فكان مجيئه لتونس بركة على أهلها لزوال هذه المظلمة الكبيرة عنهم، هكذا حدثني به الشيخ أبو عبد الله محمد بن شبل عمن حدثه.

(2) ت: إلا.

(4) ت: الماضي.

(6) سقط من: ت.

(1) ت: فبادر.

(3) ت: الأجرة.

(5) ت: ألفاً.

قال العواني: ثم إن الشيخ أبا إسحاق هذا، أصابه مرضٌ، وغلب عليه بلغم عطل كلامه، وثقل لسانه، وأخبره من بتونس من الأطباء أن القيروان يصلح بها حاله، ويرجى فيها برؤه وأنها أليق بمزاجه، وأن مقامه بتونس عليه ضرر وعرف بذلك السلطان، فأمره بالرجوع إلى القيروان فانصرف إلى وطنه، فاحتفل أهل القيروان في الخروج إليه، وتلقّوه وفرحوا به، ولم يبقَ إلا من لا علم له بقدومه، فصحبوه بالتكبير والتهليل، والدعاء للسلطان؛ ودخل إلى داره على تلك الحال. ثم إنه⁽¹⁾ وقف ودعا دعاءً حسناً، والناس يؤمّنون على دعائه، وكان يوماً بهيجاً حسناً، نَضَجَتْ فيه أفئدة الحاسدين، وسرّت قلوب المؤمنين، وأقام بالقيروان على أفضل حال إلى أن توفي رضي الله عنه بها في الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم سنة أربع وسبعمئة. ودفن بباب تونس بجوار قبر والده رحمة الله عليهما ورضوانه لذيهما.

[قلت: ليس هذا بجواره، بل بالقرب منه من جهة الجوفي بينه وبينه]⁽²⁾.

352 - ومنهم أبو⁽³⁾ عبد السلام بن عثمان بن عبد العالي الربعي:

قال العواني: تفقه على الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن شعيب، ولازمه مدةً طويلة فعظم نفعه به، وأخذ عن الفقيه القاضي العدل أبي زيد عبد الرحمن بن نفيس - رحمه الله - وأجاز له وسمع من الشيخ الفقيه أبي القاسم ابن البر التنوخي وغيرهم. وكان فقيهاً، صالحاً، فاضلاً، من أهل اليقظة⁽⁴⁾ والنباهة، حافظاً للفقه، مشاوراً فيه. وكان على استقامة في طريقته وسيرته، له علم بالحديث، وبَصُرُ بالرجال، واستقضي فسار بأحسن السيرة. وكان صلباً في أحكامه، وأحد من أنعم الله علي به في صُحْبَتِهِ، اختلفت إليه نحو خمسة أعوام في تعليم الحِسَابِ والفرائض. وكان متقدماً في معرفته بهما⁽⁵⁾، وأجازني فيما رواه. وسألته عن مولده، فقال لي: وُلِدْتُ بعد الثلاثين وستمئة بيسير. أخبرني بذلك برباط المنستير في حين توجهه إلى بلد طرابلس قاضياً⁽⁶⁾ بها. [وذلك]⁽⁷⁾ في سنة تسع وسبعمئة، فأدرسته

(1) سقط من: ت. (2) ما بين المعقوفتين زيادة من: ت.

(3) إسقاط «أبو» من: ت. (4) في ط: اليقظة بدون رقة.

(5) ت: لهما. (6) ط: قاضاً.

(7) سقط من: ت.

المنية بها بمقربة من وصوله إليها في أوائل العام المذكور، فاحتفل أهل مدينة طرابلس في الخروج مع جنازته مع واليهم، وحضر جنازته عالم كثير، قال: ما اجتمعوا على جنازة غيره في وقته، وكثر ازدحامهم على نعشه تبركاً به، ودفنه أهل طرابلس ببلدهم، وكان يوماً مشهوداً، وقبره هناك يزار⁽¹⁾ ويتبرك به رحمه الله تعالى ورضي عنه آمين.

353 - ومنهم أبو إسحاق بن محمد الرباوي الصوفي:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، فاضلاً، زاهداً، ورعاً، صوّاماً، قوّاماً، من أكابر الفقراء المتجردين، وأفاضل الزاهدين، ولا يدخر شيئاً، [أخذ مسلك طريقاً]⁽²⁾ والده - رضي الله عنهما - في الزهد، والورع، والبشاشة، ونزاهة النفس، والبعد من الرياء، والتصنع، كثير التواضع، لا يكاد من تواضعه يتميز من غيره، ولا يرى لنفسه قدراً. توفي رحمه الله في شهر ذي القعدة سنة أربعة عشر وسبعمائة.

354 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز الهسكوري عرف المغربي نزيل القيروان وإمام الصلاة والخطبة بجامعها:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، زاهداً، ورعاً، خاشعاً، متبتلاً، صوّاماً، قوّاماً، فاضلاً، من أكابر الصالحين المتقشفين، القانتين المتبتلين المتقين. ممن شهر بالخير، والفضل، والإيثار، وقوام الدين، وتلاوة القرآن. من أهل العفاف والطهارة، مقبول الشهادة، برّاً، صدوقاً يتبرك ببلقائه، وينتفع بدُعائه، حجّ حجة الفريضة عن نفسه، وأتبعها بحجّتين، وزار مع كل حجة زورتين، وجاور عند الروضة سنتين، وكان مُتَقَلِّلاً من الدنيا، زاهداً فيها، راضياً فيها باليسير في قوته وملبسه، كثير الإيثار. [فتح الله على يديه]⁽³⁾ بشيء صرفه على الفقراء، وكان واحداً منهم. وربما أخذ منه القوت وأعطى الباقي. وكان متبعاً للحق، مظهرأ له، ومبغضاً للباطل وحزبه، قامعاً لأهله لا يخاف [في الله]⁽⁴⁾ لومة لائم، وكان شديد المبالغة في كتم الفاقة، وكان يعلم الناس القرآن، ويجتهد في نصحتهم وتأديبهم، وحفظ على يديه الكتاب العزيز جمع وافر من الناس.

(1) سقط من: ت.

(2) ت: «لقد سلك طريقة».

(3) ت: أن فتح الله عليه.

(4) ط: فيه، التصويب من: ت.

وكان كثير الاجتهاد في أفعال البرِّ كلّها؛ أنفق مالا كثيراً في جامع القيروان، بنى القُبَّة العُظْمَى التي على الباب الشرقي من أبواب البيت، أقامها على عمد الرخام، وشقق الرخام، اشتمل أعلاها وأسفلها على نحو الأربعين عموداً ونيّف إنفاقه عليها [ما يزيد]⁽¹⁾ على ألف دينار، وأجرى الجيار على أكثر مجنّبات الجامع، وكان قد تقلع جيارها، وبنى الميضاة التي في قبلي الجامع الأعظم في غربي الموضع المعروف في القديم بدار الإمارة، ودعمها تدعيماً جيداً، وسقفها بالمربع المنجور، وجعل لها أحواضاً من الحجر المنجور برسم الوضوء، وبيوتاً للطهارة فيها أحواض من خارجها، وسعى في تحبّيس حانوت عليها برسم تنويرها، وما تحتاج الميضاة إليه من حبال وأدلية، وغير ذلك من ضروريّاتها، وجعل فيها ماجلاً لخزن الماء العذب. وبنى فصيلاً بباب نافع حفظاً للبلد، وملجأ لمن⁽²⁾ يأتي ليلاً إلى المدينة من القوافل وغيرها، وجعل فيه مسجداً مسقفاً، مصوناً⁽³⁾ بالغلق. وفي قبلته ميضاة كبيرة لغسل الموتى، وحبس عليها أيضاً حانوتاً برسم ما تحتاج إليه الميضاة المذكورة، واشترى جناناً جديداً⁽⁴⁾ بمقربة من مقبرة السيوري رحمه الله ونفع به، جعله مدفناً للمسلمين، وجعل حائطاً على جهتها، وعلى المقبرة المتصلة به، يزيد ارتفاعه على قدّ، ولَبَسَ⁽⁵⁾ بالجير صيانة للقبور عن البهائم وغيرها؛ وجعل في الجنان المحبس ماجلاً لخزن الماء العذب، وجعل له سطحاً ملبساً بالجير لجلب الماء للماجل المذكور. ولما فرغ منه اعتلّ علته التي توفي منها.

قلت: ولا منافاة بين كونه متقللاً من الدنيا، زاهداً فيها، راضياً فيها باليسير في مطعمه، وملبسه، مع ما بعده لحمل ما فعل⁽⁶⁾، إنما هو من عند الله ويده في ذلك عارية [فنسب ما ذكر له لوقوفه، فكأنه أنفق ذلك من عنده]⁽⁷⁾.

ومحمل قوله: وسعى في تحبّيس حانوت على أنه مبني، لا أنه أنشأ بناءه كما أنشأ بناء غيره، ولا يقال: إنما كان متقللاً في قوته وملبسه كما تقدم اللفظ بذلك، ولا يلزم من ذلك أنه لا مال له، لأن قوله: كان شديد المبالغة في كتم الفاقة.

(1) سقط من: ت.

(2) ت: من.

(3) ت و ط: مُصَاناً.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: وَلَبَسَهُ.

(6) ت: فعله.

(7) زيادة من: ت.

قال العواني: وكان رضي الله عنه هذا شأنه في أفعال الخير والبر، ما رأيتُ ممن لقيت من يضاهيه في جميع أحواله، وكنت⁽¹⁾ إذا ذاكرته⁽²⁾ شيئاً من أمور الآخرة يصفرّ وجهه ويغلبه الدمع، فلا يقدر أن يمسكه، وكان قد أثر الدمع في عينيه لكثرة بكائه، وعمي في آخر عمره، ويغلب على ظني أنه إنما عمي من كثرة البكاء، وكان النور بادياً على وجهه.

توفي يوم الأحد بعد صلاة العصر لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول، وقُبر يوم الثلاثاء غرة ربيع الآخر سنة ست عشرة وسبعمائة، وشهده عالم كثير من الناس، ولما خرج نعشه⁽³⁾ ازدحم الناس عليه، حتى صار النعش في أكفهم، إلى أن وصل إلى قبره، ودُفن بباب تونس بالروضة التي فيها الشيخ أبو الحسن القابسي.

قلت: وقبره⁽⁴⁾ هو صاحب اللوح الذي في آخر الحوطة من جهة الجوف، مكتوب [فيها]⁽⁵⁾ اسمه، كما [كانت العادة]⁽⁶⁾ - [رحمه الله ورضي عنه ونفعنا به آمين]⁽⁷⁾ - .

355 - ومنهم أبو سعيد فرج بن عبد الله المسراتي العابد الزاهد:

قال العواني: كان رجلاً⁽⁸⁾ صالحاً، نبلاً، عاقلاً، ورعاً، زاهداً، من القائلين بالحق، العاملين به. وعرفني بذلك جدي عبد الملك⁽⁹⁾، وأخبرني عنه أيضاً أنه حجّ مراراً، وجاور زماناً، وجاهد أعواماً، ولزم الرباط بثغور المسلمين مدة من السنين، حتى أوهنته العبادة والكبر، فالتزم القيروان، وصار جليس بيته، معولاً في معيشته على البقول، وكان يفرغ نفسه للعبادة في شهر رمضان، ويغلق بابه طول نهاره. ويدخل إلى بيته فيقبل على الذكر والصلاة، فلا يتحرك من داره إلا إلى المسجد خاصة لأداء الصلاة، منافساً في فضل الجماعة، فإذا قضاها عاد إلى مكانه، قد عرف إخوانه وقصّاده حاله، فإذا جاء شهر رمضان توقّفوا عن زيارته ومواصلته.

(1) إسقاط الواو من: ت.

(2) ت: ذكرته.

(3) ت: بنعسه.

(4) إسقاط الواو من: ت.

(5) ت: فيه. /

(6) ت: ذكر.

(7) سقط من: ت.

(8) ت: شيخنا.

(9) ترجم له في (342).

وله كرامات:

من ذلك ما أخبرني به جدي عبد الملك قال: كنت جالساً مع الشيخ أبي سعيد فرج بخارج البلد، وبين أيدينا خبز شعير وزيتون، فسمعتة يخاطب رجلاً في الهواء وهو يقول له: خبزٌ وزيتونٌ، فلم أرَ الرجل، وإنما رأيتُ شخصه وظلّه في حائط سور البلد، فقلت للشيخ: ما هذا؟ فقال لي: رجل من الطيارة قال لي: [ما هذا الذي]⁽¹⁾ أنت تأكل؟ فقلت له: خبز شعير وزيتون.

356 - ومنهم أبو مروان عبد الملك بن عبد القاهر الدكالي المغربي الزاهد نزيل القيروان:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، زاهداً، منقبضاً، عاقلاً، مهيباً، ديناً، فاضلاً، ورعاً، مقبلاً على ما يعنيه من أمر دينه، واسع الخلق، حسن اللقاء، مُحَبِّباً إلى الناس، من رآه أحبه على وجهه نور وعليه قبول، وكان الناسُ يجلسون إليه، ويتبركون ببلقائه، ويرغبون في بركة دعائه. حدثني بذلك مَنْ لقيته من أصحابنا ممّن كان يختلف إليه.

وأخبرني جدي عبد الملك: أن أبا مروان الدكالي هذا يقال: إنه ما أفطر يوماً قط إلا أن يكون يوم عيد، وكان لا يبرح من الجامع، ليس له موضع يعرف [به]⁽²⁾ غير الجامع الأعظم، ولا يزال على وضوء، وأنه أصابه مرض في عينيه، فوصف له بعض المترددين إليه الاكتحال بعسل الشَّهْدِ السخن، فلم يوجد بالقيروان عند أحد، فلم تمضِ إلا أيام⁽³⁾ يسيرة، والتمس الشَّهْدِ، فوجد ببعض سقوف الجامع بالقيروان، وأدلهم عليه النحل بدخولها [في السقف]⁽⁴⁾ وخروجها، فقطع للشيخ أبي مروان منه، واكتحل بعسله فشفاه الله وبرئت عيناه، وما رئي شيء من ذلك قط بالجامع قبل شكايته فعلم أن ذلك ببركته.

قلت: ما يوجد في الجامع من مثل هذا كالحمام، فهو للجامع لا لواجده، فمحمل أخذ الشيخ ما ذكر على أن يدفع قيمته وإن قلّ ذلك، وإنما سكنت عنه لوضوحه.

(2) سقط من: ت.

(4) ت: للسقف.

(1) ت: ما.

(3) ت: أياماً.

قال العواني: وفضله كثير، ويقال: إنه كان مجاب الدعوة وَعَمَّرَ عمراً طويلاً رحمه الله.

357 - ومنهم أبو زيد عبد الرحمن عرف بابن شيخ الرباط:

قال العواني: كان رجلاً صالحاً، فاضلاً، موقراً، جليلاً، من أهل الضبط والإتقان، كثير التلاوة للقرآن. من المشهورين للتجريد، محبوباً في أعين الناس، مرفوعاً موقراً عندهم بجميل لقائه لهم، وحسن اعتقادهم له، وله صُحبة بالشيخ أبي محمد عبد العزيز المهدوي واختصاص به، وكان الصُّلَحَاءُ، والزُّهَّادُ، والبُدَلَاءُ، والأوتاد، يقصدونه ويجتمعون عنده. تعرفتُ ذلك من كثير من أصحابه وأهل العناية بهذا الشأن منا.

قلت: ولم يذكر تاريخ وفاته كالأولين رحمه الله ورضي عنه آمين.

358 - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد الملك بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك⁽¹⁾ بن عوانة القرشي الهاشمي الحسيني المؤرخ المتقدم ذكره: ومما كان ينشده [رضي الله تعالى عنه]⁽²⁾:

عتبتُ على الدنيا لتقديم جاهلٍ وتأخير ذي عِلْمٍ فقالت خذِ الحذرا
بنو الجهلِ أبنائِي فإني أُجِلُّهُمُ وذوُوا⁽³⁾ العِلْمِ هم أبناءِ ضرَّتِي⁽⁴⁾ الأخرى

ويعرف هذا وأسلافه بالعواني، منسوبون إلى جدِّهم الأخير المذكور.

وكان رحمه الله فقيهاً، صالحاً، فاضلاً، عدلاً، يشهد بين الناس، وتولى قضاء بلد الحامة وسوسة، ووقفت على ظهيره بهما، وألف تأليفاً في فضائل مشيخة [أهل]⁽⁵⁾ القيروان، وأكثر اعتماده على تأليف أبي زيد عبد الرحمن الدباغ، وسمَّاه أنسُ النُّسَّاكِ المُعَرِّبِ عن فضائلِ علماءِ قِروانِ المغربِ وتأليفاً شرح فيه الشُّقْرَاطِسيَّةَ تأليف الشيخ أبي زكريا يحيى بن علي الفقيه الشُّقْرَاطِسي. فألف عليها ثلاثة أسفار إلى غير ذلك، وكان مع ذلك شاعراً مفلحاً.

(1) زيادة: ابن عيسى أمام بن عبد الملك في: ت.

(2) ت: رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه. (3) ت و ط: بصيغة الإفراد.

(4) ت: ولضرَّتِي. (5) سقط من: ت.

ومات بالقيروان. ودفن بها بجبانة باب سلم قرب مسجد التوفيق بحوطة الشيخ أبي بكر عتيق السوسي⁽¹⁾. وقبره لا يعرفه قَرَابَتُهُ رحمة الله عليه ورضوانه لديه. ومن بعد موته لم يؤلف أحد شيئاً، فبقيت مشيخة إلى سنة 747 هـ لا أجد مَن لحقهم، ولا مَن نقل عنهم بواسطة، وها أنا أذكر من كان بعدهم [بحول الله تعالى وقوته]⁽²⁾.

359 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عثمان بن غانم الحضرمي القديدي:

المؤلف: فضل عم أبيه الشيخ أبي علي سالم بن سعيد الحضرمي القديدي المتقدم ذكره⁽³⁾. وكان رجلاً صالحاً، فاضلاً. وقد تقدم الكلام عليه كان إمام الشيخ أبي علي [سالم]⁽⁴⁾، وأنه هو الذي صَلَّى عليه بوصيته له. وهذا في غاية الكمال في فضله وعدالته. وتولَّى العدالة بالقيروان على صفة ما يذكر: وهو أن جماعة من الفضلاء، اجتمعوا بعد صلاة الجمعة: وأتوا إليه في الجامع، ورغبوا منه أن يقبل الشهادة، فقبل رحمه الله تعالى، فكان يشهد بين الناس بلا أُجْرَةٍ، هكذا عرَفني بعض العدول وغيرهم⁽⁵⁾. وإنما نبهت على هذا لتكون على وثوق فيما نقلت عنه في فضل الشيخ أبي [علي]⁽⁶⁾ سالم وغيره.

ومشى للمشرق للحج فحج ورجع [بلده]⁽⁷⁾ وكان يدعى بالمحجوب، لكونه لا يخرج من زاويته إلا يوم الجمعة، ويدخل من زاويته إلى داره من خُوخَةٍ هُنَاكَ، وَدَارُهُ هي الدَّارُ الكُبْرَى الْمُحَبَّسَةُ على ذريته، وهو الذي حبسها، ووقفتُ على تحبيسه لها مؤرخ، وفيه شهادة الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الرماح، والشيخ الصالح الخطيب أبي إسحاق إبراهيم [بن إسحاق]⁽⁸⁾ الدهماني وغيرهما.

وكان ولده الشيخ الصالح أبو العباس أحمد تَوَلَّى العدالة بالقيروان في حياة والده - رحمه الله تعالى - وهو الذي يأتي ذِكْرُهُ عند ذكرنا بالتعريف للشيخ الصالح أبي الحسن علي العبيدلي.

(1) ترجم له برقم (300) الجزء الثالث.

(2) سقط من: ت.

(3) ترجم له برقم (349) الجزء الرابع.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: وغيره.

(6) سقط من: ت.

(7) الزيادة من: ت.

(8) الزيادة من: ت.

وتوفي أبو عبد الله محمد. ودفن بالزاوية [رحمه الله تعالى ورضي الله عنه ونفعنا به آمين]⁽¹⁾.

360 - ومنهم أبو السرور ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي من بني وائل:

حدثني مَنْ نَثِقُ به عن الشيخ صالح الصَّدْفِي⁽²⁾ أنه قال: كان ميمون الكرفاح من فرسان العرب وشُجْعَانِيهَا، وسببُ تَوَيْتِهِ أنه مَشَى غَازِيَا في مائة فارس لِيُغِيرَ على بلادِ الحِشَّانِ ببلادِ الجريد، فتفرقوا للضيافة ثلاثة أربعة، فقال لسيارته: أنا صَيِّدٌ⁽³⁾، ما تنزل إلا عند صَيِّدٍ، وإذا برجلٍ عليه مُرَقَّعةٌ كأنها سَبَائِكُ الذَّهَبِ فقال: انزل يا عبد، إنك صيد، ما تنزل إلا عند صَيِّدٍ، وكساه ما سَتَرَهُ به فيقال: إنه أبو العباس أحمد الخضر، فجاء [إلى]⁽⁴⁾ الشيخ أبي رحمة غيث⁽⁵⁾ [بن]⁽⁶⁾ قاسم الحكيم⁽⁷⁾، وكان⁽⁸⁾ من تلامذته، فجاء شهرُ رمضانَ فَاخْتَلَى فَقَرَأُوهُ للعبادة، وكان يعملُ لكل واحد منهم خُبْزَةً كُلَّ ليلةٍ؛ فلما فرغ الشهر⁽⁹⁾ قال: يا فقراء! مَنْ فَضَّلَ له شيءٌ فَلْيَأْتِ به. فأتى واحدٌ بخمسة، وآخر بأكثر، وآخر بأقل، وأتى الشيخُ غيث بثلاثين خُبْزَةً، وأتى ميمون بتسعة [عشر خبزة]⁽¹⁰⁾، فقال له: يا عبد أردت أن تكون بدايتك نهايتك⁽¹⁰⁾.

وحدثني مَنْ نَثِقُ به قال: كان ميمون هذا، زمن جهاد العدو في أيام المستنصر صغير السن في عممه، وظهرت له شجاعة زائدة. [وقال]⁽¹¹⁾ السلطان: مَنْ يكون ذلك الفارس؟ قيل⁽¹²⁾: ميمون، فكانت له شهر تامة، فلما تاب كبر حاله.

وكان يملكُ بلاداً، وهناشر⁽¹³⁾ حول القيروان بالظهير منه لِلْعَوَسَجِ، وواد الملح، وبحيرة شعبة وخشم الكلب، وذراع التمار، وذراع الأسريف، والقرجانية من عمالة سوسة ومعهم اليوم فيها شركاء، وسببه أنه أراد الدخول للبلد، فأصاب فيها

(2) ترجم له برقم (375).

(4) سقط من: ت.

(6) سقط من: ت.

(8) ت: فكان.

(10) سقط من: ت.

(12) ت: قال.

(1) سقط من: ت.

(3) بمعنى أنا «أسد».

(5) سقط من: ت.

(7) ترجم له برقم (344).

(9) ت: الشيخ.

(11) في ت: كان.

(13) الهناشير: البساتين والأجنة.

طيناً كثيراً، فرفعه بعض المرابطين من السَّرج من جماعة حكيم⁽¹⁾، فوهب له ربعها، واشترى الربع الآخر من بعض حَفْدَةِ الشيخ ميمون.

وبعث حفيده الشيخ الحاج أبو العباس أحمد ظهراوات⁽²⁾ أكثر الأماكن المذكورة لسلطان وقتها⁽³⁾؛ أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز وقال له: هي الآن بيد غيرنا من العرب، فأنت أولى لها⁽⁴⁾ من تخليصها [لنا فقال السلطان لمن حضره: الناس يأخذون مني وأنا نأخذ]⁽⁵⁾ من عند سيدي أحمد ميمون وقال لمن هي بيده: مَنْ كان عنده منكم ظهير أقدم من هذه الظهراوات، سلمت له ما بيده وإلا بيت المال أولى بها.

وقال الشيخ صالح الصَّدْفِي: كنت أجوز عليه جالساً بمكان فأقول له: أراك قعدت اليوم هاهنا! فيقول لي: قال لي البارحة رسول الله ﷺ تسليمًا في المنام: اجلس هنا.

ودعا لولده محمد، وأبي العباس أحمد المذكور، ولذريته بالكفاف، فأجيب دعاؤه إلى الآن.

وكان رجل من أهل تونس له مائة دينار ذهباً على رَجُلٍ من العرب اسمه ميمون الدرباسي، فاجتاز عليه ميمون الكرفاح هذا في حال عممه، فنادى رَجُلٌ: يا ميمون! فقال التونسي [يسمى ميمون]⁽⁶⁾: هذا غويمي فظن⁽⁷⁾ أَنَّهُ صاحبه، فمسك بِعِنَانِ فَرَسِهِ وقال له: أعطني⁽⁸⁾ المائة دينار ذهباً التي⁽⁹⁾ لي عليك، فقال له: ومن أين ذلك؟ فذكر له ما تقدم، فأعطاه مائة [دينار]⁽⁹⁾ كانت عنده، ثم جاء الأول التونسي ليعطيه ذلك، فقال له: أنا تَخَلَّصْتُ منك، وذكر له الموطن، فسأل: من يعمل هذا من العرب؟ فقليل له: ما يعمل هذا [من العرب]⁽¹⁰⁾ إلا ميمون الكرفاح، فبحث عن الأمر فوجده كذلك، فقال: يا عرب أنا كافيت⁽¹¹⁾ على هذه الفعلة بالقلعة الصغيرة التي على وجه سُوسَة، فلم يقبلها.

(1) ترجم له برقم (344).

(2) مُفَرَّدَةٌ: ظهير، والظهير يهדרه السلطان قَعْدَ تنظيم وتسير أحوال الرعية.

(3) ت: وقتنا. (4) ت: به.

(5) سقط من: ت. (6) زيادة من: ت.

(7) ت: وأظن. (8) ت، ط: أعطيني.

(9) سقط من: ت. (10) سقط من: ت.

(11) ط: كفيته.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن شبل رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ ميمون الكرفاح في زرعه بالهناشر، وإذا بمراطين أتوا من ناحية تونس فتعرض لهم، فوجد فيهم الشيخ أبو عبد الله محمد المغربي شيخ تونس، جاء برسم زيارة قبور الصالحين، فسلم عليه وقال: يا سيدي السبقية⁽¹⁾ لها حق، فنحب أن تضيف عندي، فأجابه إلى ذلك. وسمع شيوخ القيروان وعمالها وشيوخ الساحل بوصوله فبادروا للسلام عليه، وقام ميمون لضيافتهم⁽²⁾.

وكان الشيخ المغربي يمشي كل يوم والناس خلفه، حتى يقف على أصل سور القيروان القديم الشارف على قبر الشيخ أبي زمعة [البلوي]⁽³⁾، صاحب رسول الله ﷺ ويرجع حتى قال: يا فقراء الآن، إذن لكم في زيارته، فنزل ونزلوا معه من ذلك المكان المعتلى لزيارته، فزاره، ثم زار مشيخة القيروان، ومشى إلى تونس.

وحدثني من ثقب به عن الشيخ صالح الصّدفي أنه قال: ذبح ستة عشر رأساً من البقر خلاف الغنم، وأنفق سبعين ديناراً دراهم في الخضرة والأبزار ونحو ذلك؛ ولما عزم على المشي لتونس قال له ميمون: ما تمشي حتى يأذن الله بالرعْد، والبرق، وتصب المطر كأفواه القرب، حتى تعلم⁽⁴⁾ أن في القيروان رجلاً يسد الخلّة، ويُبْرِئ العِلَّةَ بإذن الله تعالى، فأذن له، فكان كما قال. فقال له: يا ميمون غرقت الناس! فقال له: لا تُضْحَى⁽⁵⁾ حتى تسلم أن في القيروان رجلاً، وكرر له ما تقدم، فسلم له وقال: نعم. فارتفعت المطر بإذن الله تعالى.

وسمعتُ الشيخ ابن شبل يقول: لما رجع لتونس مشى معه الشيخ ميمون، فقال ميمون في نفسه يوماً: ما كان أنفقته⁽⁶⁾ للشيخ، وما تركت للعيال شيئاً، وكانت له⁽⁷⁾ زوجتان [إحداهما حَامِلٌ]⁽⁸⁾، فلا أدري أولدت أم لا، فأخذ الشيخ المغربي كفيه⁽⁹⁾، ووضع إحداهما على صدغه الأيمن، والأخرى على [صدغِهِ]⁽¹⁰⁾ الأيسر، وقال: انظر يا ميمون! فأبصر داره بالقيروان، وإذا هي مملوءة بكل خير، ووراء

(2) ت: بضيافتهم.

(4) ت: نعلم.

(6) ت، ط: نفقته.

(8) سقط من: ت.

(10) زيادة من: ت.

(1) المراد به: الأسبقية.

(3) سقط من: ت.

(5) تُضْحَى من: الصحو.

(7) ت: عنده.

(9) ت: كفه.

فرسه مهرة. وقال: إن الناس قالوا: إن ميمون الكرفاح مشى مع المغربي لتونس وترك عياله بلا شيء لأن الذي كان عنده أنفقه⁽¹⁾ عليه.

قلت: فالشيخ ميمون، أظهر له كرامة بصب المطر ورفها، والشيخ المغربي [أظهر]⁽²⁾ لميمون⁽³⁾ الكرفاح داره وما فيها.

وإحدى زوجتيه ملوكة بنت عبد[الوهاب]⁽⁴⁾. وسبب تزويجها أن والدها بات متحيراً فيمن يزوجه، فرأى النبي ﷺ في النوم وقال له: زوجها ميموناً ابن زيد الكرفاح فلم يجده في المغرب، فقصد لتونس فقبل له: إنه بالقيروان، فقد جاءنا زائراً. فقصدته الرجل، فلما رآه بادره بأن قال له: خطبة النبي ﷺ فزوجه بها، ومنها تناسلت ذريته، وتعبدت معه.

وسمعت ممن نثق به أن الشيخ مات بتونس وأقبر بها، ورفع أولاده. وكان عرض عليه الضيافة لصعوده لتونس أولاد عبد الرحيم من بني وائل، فوعدهم⁽⁵⁾ إذا رجع⁽⁶⁾، فلما وصل أولاده به ميتاً، وهو على البغلة، قصدت البغلة لخيامهم، فباتوا عندهم، فكثرت مواشيهم وذرائعهم إلى الآن، وقبره بقرب ربض القيروان وعليه سارية وهو مزار للخاصة والعامة.

ولحق رجلاً من أهل القيروان فاقه «فأتى» إلى قبره وشكى له، كأنه حي فإذا هو بثمانية⁽⁷⁾ فأخذها، ثم صار يلقي ثمانية⁽⁸⁾ كل يوم في ذلك [الموضع]⁽⁹⁾ ثم طال الأمر، فتحدث بذلك فلم يجدها بعد. انتهى.

361 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي ثم الرماح:

تَفَقَّه بالقيروان على تلامذة الشيخ أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب. ثم مشى إلى تونس، فقرأ بها على الشيخ أبي القاسم بن زيتون، هكذا قال شيخنا أبو الفضل البرزلي، ووجدت بخط الشيخ أبي عبد الله محمد بن مهدي، ثم قرأ على

(1) في ط: نفقه. (2) سقط من: ت.

(3) ت: ميمون. (4) سقط من: ت.

(5) ت: فأوعدهم. (6) ت: إذا رجعوا.

(7) ثمانية: مكيال. (8) ت: ثمنيته.

(9) ت: اليوم.

الشيخ أبي محمد عبد الله الزواوي، وظاهر كتبه أنه لم يقرأ على ابن زيتون، وهذا أولى، لأنه قرأ عليه.

وكان عالماً، ثقة، مفتياً عاملاً، أفقه أهل زمانه، سخيّاً، مسارعاً لقضاء الحوائج، حسن الخلق، وطيب الأكناف، مجتهداً في تعليم العلم بكرة وعشياً، وفي قيام الليل بجامع القيروان [يشهد بين الناس بلا أجره. غطى ذكره بالقيروان]⁽¹⁾ من كان بتونس.

قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن شبل الرياحي الدعيجي: قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد الرماح: لما كنت أقرأ بتونس قلّ ما بيدي، حتى كنت أمشي في الأزقة برسم أن أرى ورق بقل ملقى على باب دار فأرفعه، فإذا وجدت شيئاً منه أقف حتى يتباعد من يكون هناك من المارين وأخذه، وأعمله في محفظتي خفية⁽²⁾ من الناس، وآتي إلى المدرسة، وأغسله في بيتي، خفية من الطلبة، وأطبخه وأفوحه حتى يظن الطلبة المجاورون⁽³⁾، أنه لحم طبخته فبقيت [على]⁽⁴⁾ هذا مدة هو أكثر قوتي، حتى اصفرّ لوني وتغيّر حالي، فكلم الطلبة الشيخ أن يعين لهم واحداً يقرؤون عليه دول الميعاد فقال: انظروا فذكرت عنده، فقال: اقرؤوا عليه، فصاروا يقرؤون علي دولهم، فنذكر لهم ما نعرفه من الأقوال؛ فكثر تعلّمهم، واجتهادهم بسبب ذلك، فإذا سمع الشيخ في نقلهم قولاً غريباً، أو مسألة غريبة يقول: من ذكر هذا؟ فنَعَزُّوه لِنَاقِلِهِ، فاستغرب نقلي وحفظي، وعلم أن كثرة سكوتي فيما مضى ليس هو على جهل.

فقال لي بواب المدرسة يوماً: حاجتي بمفتاح البيت، فأعطيته⁽⁵⁾ له وخرجت لقضاء حاجتي، [واعتقادي أنه يكنس لي البيت، لأننا ألقنا منه ذلك، فلما قضيت حاجتي]⁽⁶⁾ ورجعت أعطاني المفتاح فحللت⁽⁷⁾ البيت ودخلت، وإذا في وسط البيت ثوب وجبة ملف⁽⁸⁾ معلقان في مسمار، وإحرام⁽⁹⁾، وعمامة في مسمار آخر، وكسوة

-
- (1) سقط من: ت. (2) ت: خيفة.
 (3) ت، ط: المجاورون. (4) ت: محل.
 (5) ط: فَعَطَيْتُهُ، وهو كلام عامي. (6) سقط من: ت.
 (7) ت، ط: حَلَيْتُ. كلام عامي. (8) سقط من: ت.
 (9) في ط: وحرام، والمثبت من: ت. وكلاهما جائز الاستعمال والنطق به والإحرام هو ما يلبسه المحرم أثناء الحج أو العمرة.

أخرى مثل ذلك سواء، وقنطار سميذ ونصف قنطار فحماً أو العكس، ولحم مقطع، ونصف لحم مُعَلَّق وعليها دراهم، وغير ذلك من حوائج البيت. فقلت: [أظن]⁽¹⁾ هذا⁽²⁾ البيت ليس هو⁽³⁾ بيتي فخرجت منه⁽⁴⁾ وأخذت أعد⁽⁵⁾ البيوت، فتحقت أنها هي، فقلت للبواب⁽⁶⁾: ما هذا؟ فقال لي: يقول لك الشيخ: كنت أولاً⁽⁶⁾ جاهلاً بك وبحالك، فلا سبيل أن⁽⁶⁾ تَتَشَوَّش من شيء لا من طعام، ولا من غيره؛ فمن ذلك اليوم⁽⁶⁾ يا ولدي فتح الله علي بالدنيا إلى الآن.

وتمادى على تعلم العلم وتعليمه، حتى رجع إلى القيروان مدرسها ومفتيها.

ذكر سيرته في تدريسه وما يتعلق بذلك

سمعتُ شيخنا الفقيه، العدل، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن أبي القاسم يقول: إنه كان يعمل الميعاد بجامع القيروان بُكْرَةً وَعَشِيًّا، فكان يقرأ فيه بُكْرَةً إلى أذان الظهر، ثم يجلس بعد صلاة العصر، فيقرأ عليه حينئذ دولة في مسلم، والبخاري، والموطأ، والشَّفا، والسيرة، والملخص. وكان صاحبُ السَّيرة أبو⁽⁷⁾ مهدي عيسى بن مرزوق الصميلي. وكان صَوْتُهُ حسناً. وكان يقرأ عليه في بكرة النهار، مع⁽⁸⁾ جملة من الناس دولة في التهذيب. ويقرأ عليه في آخره⁽⁹⁾، دولة في تأليف أبي الفرج الجوزي المسمى بالموارد العذب، يقرأها الفقيه أبو عبد الله محمد الذهبي، وكان ذا صوت حسن، [وذلك]⁽¹⁰⁾ بعد صلاة العصر بعد قراءة ما ذكر. وما رئي [بعد]⁽¹¹⁾ مثل ميعاده بعد صلاة العصر، يَخْضَرُهُ أولياءُ اللَّهِ تعالى، وكان الذي يدعو بعد فراغ الميعاد، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم، بن إسحاق الدهماني، رَجَاءَ قَبُولِ دُعَائِهِ لِصَلَاحِهِ ودينه.

(2) ت: هذه.

(4) ت، ط: منها.

(6) سقط من: ت.

(8) ط: ومع.

(10) ت: وكان.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: هي.

(5) ت، ط: نَعُدُّ.

(7) ط: أبا.

(9) ت: في آخر عُمره.

(11) زيادة من: ت.

وكان شيخنا أبو الفضل⁽¹⁾ البرزلي يقول: إنه دَرَسَ بجامع القيروان ستين سنة؛ وقال مرة: خمسين سنة، وهو الذي سمع من الشيخ أبي عبد الله محمد الشقانصي المذكور مثله من⁽²⁾ أبي بكر بن يعقوب الضاعني، قال: لما مات الرماح، وجرده للغسل أبو عبد الله محمد النخلي، وجد تحت رأسه إحراماً مما يلي رأسه فبكى ولده الفقيه العدل أبو عبد الله محمد، فقال له: أَتَبْكِي عليه، وهو دَرَسَ العلم بجامع القيروان خمسين سنة؟ فقال: ما بكيت لموته، ولكن فَرَعَ الاعتقاد بعده، ذلك الإحرام الذي ترى، أخذه من الشيخ علي العبيدلي⁽³⁾ لاعتقاده فيه، فعمله مما يلي رأسه تبركاً بأثره، وهو ما قرأ إلا عليه، فهو حَسَنَةٌ من حَسَنَاتِهِ.

وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الشطي مفتي فاس، وصل مع السلطان أبي الحسن إفريقية، ودخل تونس، ورأى مشيختها، وحضر مجلس ابن عبد السلام، وذلك أن السلطان المذكور، أمر بإحضار جميع الناس، عند مُدَرِّسٍ من المُدَرِّسِينَ يوماً، حتى يحضر عنده⁽⁴⁾ جميعهم، ولا يغيب أحدٌ لآ فَقَهَاءَ ولا غيرهم، فابتدوا⁽⁵⁾ بابن عبد السلام فالتمت له جميع الناس، ومرض بمرض الوباء من الفور ومات فلم يحضر عنده⁽⁶⁾ أحد، فكان مما علم له ذلك؛ وانكس السلطان على القيروان، وأخذ الأعراب محلته، فدخل القيروان فبقي الشطي [معه]⁽⁷⁾ فيها معه مدة، فقليل للشيخ أبي عبد الله [محمد]⁽⁸⁾ الشطي: مَنْ رَأَيْتَ بإفريقية؟ قال: ما رأيت فيها أفقه من [الفقيه]⁽⁹⁾ الرماح بالقيروان فقليل له: فابن عبد السلام؟ فقال⁽¹⁰⁾: لا ابن عبد السلام ولا غيره.

وقال أبو عبد الله محمد بن شبل: لما طالت حياة الشيخ الرماح وكثرت طلبته جداً، أمر طلبته الكبار أن يعملوا⁽¹¹⁾ المواعيد، فامثلوا أمره في ذلك، فكان الشيخ أبو الحسن علي العبيدلي يعمل ميعاداً بُكْرَةً بزاويته المعروفة إلى الآن، يقرئ فيه

(1) في ت: زيادة: أبو القاسم أمام كلمة «أبو الفضل».

(2) ت: عن.

(3) انظر ترجمته برقم (362).

(4) ت: عند.

(5) الصواب: فابتدؤوا.

(6) الصواب: عنده.

(7) زيادة من: ت.

(8) سقط من: ت.

(9) زيادة من: ت.

(10) ت: قال.

(11) ط: يعلموا.

التفسير، والحديث، والفروع، وكذلك موسى بن عيسى المناري⁽¹⁾، وأبو محمد عبد الله الحجاجي⁽²⁾ وأبو عبد الله محمد القلال⁽³⁾. وأمر جماعة آخرين يجلسون في غير ذلك الوقت، لإقراء النحو، والفرائض، والحساب، وغير⁽⁴⁾ ذلك، فكان في القيروان في زمانه بميعاده ستة عشر ميعاداً، على صفة ما ذكر؛ وكان المدرسون الأولون، يحضرون عند الشيخ بزاويته بعد صلاة الجمعة، وجلوسه للفتوى، ويذكر كل إنسان منهم ما أشكل عليه في ميعاده في تلك الجمعة من مُعارضة مسألة بمسألة، ليطلب الفرق بينهما ونحو ذلك، ويتكلمون حتى يزول ما التبس على كل واحد منهم.

ذكر كراماته

حدثني مَمْن نَثِقُ⁽⁵⁾ به من نقل بعض العدول، أن الشَّيْخَ الرِّمَّاحَ، ذبح لأهل داره شاة⁽⁶⁾ وعملوا عشاءهم فُتَاتاً، فلما حضر الطعام، تَنَهَّدَتْ زَوْجَتُهُ فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَيِّدِي تَذَكَّرْتُ وَلَدِي مُحَمَّدًا، أَنْ لَوْ كَانَ حَاضِرًا لِأَكُلَ مِنْ⁽⁷⁾ هَذَا الطَّعَامِ، وَكَانَ قَدْ حَجَّ، فَقَالَ لَهَا: اعْمَلِي سَهْمَهُ حَتَّى لَوْ كَانَ حَاضِرًا [لَأَكُلَ سَهْمَهُ]⁽⁸⁾، فَأَخَذْتُ مَنَدِيلًا، وَعَمَلْتُ فِيهِ فَطِيرَتَيْنِ وَلَحْمَتَيْنِ، وَنَاوَلْتُ ذَلِكَ لَهُ وَخَرَجَ، وَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَعْطِي ذَلِكَ لِبَعْضِ الْفُقَرَاءِ، وَيَهْبُ ثَوَابَ ذَلِكَ لَوْلَدِي، وَجَاءَ بَعْدَ بُرْهَةِ يَسِيرَةٍ، وَحَضَرَ الْعِشَاءَ، وَغَفَلْتُ عَنِ الْمَنَدِيلِ، فَلَمَّا جَاءَ وَلَدِي وَحَلَلْتُ⁽⁹⁾ رَحْلَهُ، وَجَدْتُ الْمَنَدِيلَ فِيهِ، فَسَأَلْتُهُ عَنْهُ، فَقَالَ: كُنْتُ فِي الدَّرْبِ أَمْشِي فِي وَقْتِ كَذَا وَكَذَا، فَتَزَلَّ عَلَيَّ مِنَ الْجَوِّ فَأَخَذْتُهُ، فَوَجَدْتُ فِيهِ فَطِيرَتَيْنِ وَلَحْمَتَيْنِ سَخَانًا، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا، فَقُلْتُ لَهُ: الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَيْكَ وَالِدُكَ، وَذَكَرْتُ لَهُ الْقِصَّةَ.

وحدثني من يُوثِقُ به، عن الشيخ أبي سعيد مَخْلُوف الدكالي، وكان من الصَّالِحِينَ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقِيمُ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِ شَيْخِنَا أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

(1) انظر ترجمته رقم (363).

(2) في ت و ط: الحجاب، والصواب: الحجاجي، انظر ترجمته رقم (365).

(3) انظر ترجمته رقم (366). (4) ت: نحو.

(5) ت: يوثق. (6) ط: شاة.

(7) سقط من: ت. (8) ت: لأكله.

(9) ت: حليت، وفي ط: حَلَلْنَا.

محمد الشيببي ويمشي بين يده بالفنار في الظلام، من مسجده إلى داره، بعد صلاة العشاء الآخرة، لتأخر الشيخ لاشتغاله مع من يجود عليه، قال: أعطى الشيخ أبو عبد الله محمد الرماح لبعض أصحابه ويعرف بِالْمِرْصَاوِي طَاساً فيه شيء من الرَّفِيسَةِ⁽¹⁾ وقال لي⁽²⁾: امش بهذا إلى روضة الشيخ أبي زمعة البلوي⁽³⁾ فالذي يخرج لك منها أعطه له، قال: فلما وصلتُ خرج إلي رجل أشعث عليه مسوح⁽⁴⁾ من شعر، وقال لي: أعطني الذي أعطاك الشيخ، فناولته الطَّاسَ وقلتُ له: ادع لي، فقال: أماننا الله وإياك على الإسلام، فجئتُ إلى الشيخ، وطلبت منه أن يعرفني به، فقال لي: ما نعرفك به⁽⁵⁾ إلا أن تحلف لي، أنك ما تعرف أحداً حتى نموت، فقلت: نعم، وحلفت له، فقال: ذلك رجل بعثه رجل مريض بمكة انتهى ذلك⁽⁶⁾، فأتى اليوم من مكة، وعملتُ بسببه ما رفعته له.

[فقلتُ واعجباً هذا حال المُرسَلِ، فكيف يكون حال المرسل]⁽⁷⁾.

ذكر بقية أخباره رضي الله تعالى عنه

ذكر أنه أصاب القيروان في زمانه شِدَّة، وكانت عنده ثلاث مَطَامِيرَ مملوءة شعيراً، فأمر من كتب له فقراء القيروان، وأمر الشيخ بحلها، وفرق جميعها على الفقراء والمساكين، ثم إنه دخل لداره فقالت له⁽⁸⁾ زوجته: ما بقي في الدار عندنا طعام، فقال لها: لو عرفتني كان أخذنا من جملة الفقراء ربع شعير كواحد منهم، وانشرح، وقال: الحمد لله نشترى من السوق طعامنا⁽⁹⁾ مع جملة الناس.

وسمعتُ من أبي عبد الله محمد بن شبل: أنه كان كثير الصدقة، وكان ولده أبو عبد الله محمد يعيط عليه في ذلك، فكان يخفي عنه، يعني ما يريد أن يتصدق به، فربما يعمل الدراهم بين نعله ورجله، فإذا تباعد من الناس⁽¹⁰⁾ أزال تلك الدراهم وأعطاهم للفقراء.

(1) الرَّفِيسَةُ: تصنع من الرَّغِيفِ حَيْثُ يقطع قِطْعاً صغيرة، ثم يصب عليه المرق.

(2) ت: له. (3) سقط من: ت.

(4) ت: مسح. (5) سقط من: ت.

(6) ت: رفسة. (7) زيادة من: ت.

(8) سقط من: ت. (9) ت: طعاماً.

(10) ت: الدار.

وحدثني أبو بكر بن يعقوب الضاعني قال: لما مات الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الدهماني، إمام الجامع وخطيبه المتقدم ذكره، قال الناس: لا يتقدم يصلي بالجامع إلا الشيخ الرماح، فكلموه في ذلك، فقال: حتى تشاوروا سيدي علي العبيدلي⁽¹⁾، فشاوروه فقال: لا، لأنه لا يميز بين الظاء والضاد فعرف بذلك الشيخ فأتى إليه وقال: يا أبا الحسن! نقرأ عليك، وتعلمني؟ فقال: أجل، قال⁽²⁾: فدار بين يديه فقرأ عليه وهو يردّ عليه مراراً، فلم يستطع، فقال: إن لَكُنَّةَ لِسَانِي تمنعني من ذلك، وقد علمت أنه إذا كان لعجز أنه⁽³⁾ لا يقدح في الإمامة، فوافق عليه، ورفعنا قضيته إلى تونس فجاء تقديمه.

ونحو هذا سمعت من الشيخ أبي عبد الله محمد الشقنصي. وذلك يدلّ أنهما حملاً قول من فصل هذا التفصيل على التفسير، لقول الشيخين أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، تمنع إمامته مُطْلَقاً؛ وكان الشيخُ العبيدلي لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما ظهر له أولاً منعُ إمامته، صرح بذلك، وما استحيا من شيخه، ولما ظهر له، وجه صواب بإمامته رجع إليه، ولا يزال الناس بخير ما رجعوا إلى الحق بعد تبينه لهم. ولما كان الشيخُ الرماح يعلم ما كان⁽⁴⁾ عليه العبيدلي من الصلاح، قال: حتى تشاوروه بلفظ سيدي مع كونه حسنة من حسناته.

وسمعت شيخنا أبا محمد عبد الله الشيبني - رحمه الله تعالى - يقول: كان الشيخ الرماح إذا كان زمن العيد، يعمل طعاماً ضخماً وَيُنَادِي عليه قائدُ الموضع وخدامه والأمناء، وخدامهم وغيرهم؛ فقبل له في ذلك، فقال: أنا رجل مُبْتَلَى بقضاءِ حوائجِ النَّاسِ، فإذا طلب مِنِّي إنسانُ قِضَاءَ حاجة، ويمكن قضاؤها من عند خديم الخديم، هو أيسر عليّ من الخديم، وإذا لم يمكن قضاؤها إلا من عند القائد هو أيسر عليّ من البعث إلى السلطان بتونس، وكذلك الأمناء، ولو كانت كل مسألة لا أقضيها إلا من عند القائد لصعب قضاء بعض المسائل لكثرة ما على يديه، وأحرى السلطان، فما كان يبعث له⁽⁵⁾ إلا في أمر مهم.

(1) ترجم له برقم (362).

(2) سقط من: ت.

(3) ت: فلا.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: إليه.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن شبيل: تبت في حال صغري، وكان عمي خنفر من شيوخ رياح، وكانوا ينزلون منزلتهم على بلد الحضرمين، ونحوها من عمالة القيروان، ولهم بلاد، وهناشير، يأخذون أحكازها، وأعشارها، بأمر السلطان، وكنت سيف عمي، فلما تبت حبس عليه الراعي ونحوه فضلاً عن غيرهم، فبلغني ذلك، فشق علي، فأتيت إلى الشيخ الرماح وقلت له: حفظك الله، محمد بن شبيل جاء يعلمك أنه ينكت التوبة، ويرجع عامياً عما كان عليه⁽¹⁾، فاعتقد كلامي على ظاهره، فتفجع عليّ وقال: لا يا بُني، فبسطت له الواقع، فقال لي: يكون عملك⁽²⁾ على أن تفعل ذلك في الظاهر، وقلبك مُصِرٌّ على التوبة، وتمشي حتى توقف الحرمة له. ثم⁽³⁾ ترجع في الظاهر تائباً كالباطن. وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينشد هذه الأبيات وهي:

ولي فرسٌ بالشرِّ لِلسَّـرِّ مُسْرَجٌ	ولي فرسٌ بالخيرِ للخيرِ ملجَمٌ
وَمَنْ شَاءَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مُقَوِّمٌ	وَمَنْ شَاءَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مُقَوِّمٌ
ولكنني أرضى به حينَ أحوَجُ	وما كنتُ أرضى الذَّلَّ خِلاً وَصَاحِباً
فالذلُّ للحرِّ أقبح وأسفح ⁽⁴⁾	فإن قالت أصحابي ففيه سماحة

قال: فركبتُ فرسي من الغد، أو⁽⁵⁾ حصّاني، ولبستُ لباسي في الغم، وعملتُ بيدي رمحاً، وتنقبت، فبينما هم في ميعاد العرب، وهم يتكلمون فسمعت سفاهة بعضهم [على عمي]⁽⁶⁾، وما شعروا بي، حتى قربت منهم، فالتفتوا إليّ وقالوا: هذه ركة ابن شبيل، لولا أنه تاب، فرجعت عليهم وتكلمت وقلت: أفعّل! وأفعّل! فظن عمي أنني نقضت التوبة، فنزل عن فرسه وصار يهجم عليّ ويقول: لا يا ولدي، فلما أوقفت حرمة كما كانت أولاً، أعلمت عمي بفتوى الشيخ لي ورجعت.

وقال شيخنا أبو محمد عبد الله الشيببي⁽⁷⁾: حضر الشيخ الرماح والعبيدلي لأكل طعام وليمة عرس. فدنوا⁽⁸⁾ على الطعام مع أناس قليلين، فلما أكلوا بعض الطعام، ورد عليهم أناس فجلسوا معهم، فقال الشيخ الرماح على طريق الانبساط:

(1) سقط من: ت. (2) ت: عليك.

(3) ت: و. (4) ت: وأسمع.

(5) ت: و. (6) ت: عليه.

(7) ترجم له برقم (381).

(8) ت: فدنيا.

عالت الفريضة فقال العبيدلي: أيتكلم بكلام العلماء في هذا المكان، لا آكل هذا الطعام. وقام وخرج، فقام الفقيه أبو عبد الله محمد ولد الشيخ الرماح وقال لوالده: أهكذا يمثل بك في هذا المجلس! وأنت شيخه، وعليك تعلّم العلم، ولولاك ما ظهر؟ فقال له: المشي إلى مكة يُلزمُني. وكان قد حجّ قبل، [ثم قال له]⁽¹⁾: لا أرضى عليك، حتى تمشي وتعرفه بما قلت، ويبعث لي بأنه سامحك⁽²⁾، فمشى إليه وقال: يا سيدي لما قلت ما قلت، وخرجت، أخذتني الحميّة عن والدي فقلت: كذا، وكذا، وحلف والدي بكذا، حتى تسامحني، فقال له: أنت في حلّ، وبعث الشيخ بأنه سامحه.

وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الرماح يُفتي بجواز شركة الخماس بالقبروان لكمال⁽³⁾ ضرورتهم، إذ لا يجدون أجيراً بحال، وفعله في حرثه فأخذ خماساً، وتبعه مفتيها بذلك شيخنا أبو محمد الشبيبي، وكان في زمانه يعطي للخماس قفيزاً شعيراً وسباطاً⁽⁴⁾، وتبعه مفتيها بذلك شيخنا أبو الفضل البرزلي لما تولى الفتوى بعده بالقبروان، وجميع التونسيين يفتون بتحريم ذلك، وإن وقعت شركته فإنما هو أجير خاصة. وإذا فرّعنا على الثاني فمن فعل ذلك فليس بجرحه في شهادته ولا في إمامته. بذلك أشار شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الوردغمي في قبوله لقول الشيخ أبي محمد عبد السلام بن عبد الغالب في وجيزه.

ذكر وفاته وما يتعلق بذلك

دخل بعض الصالحين عليه في مرضه الذي مات فيه، فوجده مُتَوَسِّداً حَجَراً، وتحتَه حَصِيرَ حلفاء قديمة، فقال لولده أبي عبد الله محمد: يا ولدي أهكذا تترك الشيخ؟ فقال له: كل ما نفرش له ونرفه به، يتركني حتى نغيب عنه ثم يزيله من تحتَه، ونجده هكذا، فكلّمته في ذلك، فقال لي: يا بني ما نحب نلقى الله إلا وأنا بهذه الحالة.

(1) سقط من: ت.

(2) في ت، زيادة: ويسامحني.

(3) ت: لتكمال.

(4) سُبَّاطاً: جِذَاءً، أو نَعْلًا.

وتوفي - رحمه الله - بالطاعون سنة 749 هـ. وصلى عليه جمعٌ عظيم، ودُفِنَ بداره⁽¹⁾ على قارعة الطريق بقرب الجامع الأعظم، وعمل من جهة الطريق؛ ثلاث شبابيك من العود، فغالب الحال، كل من يجوز يرحم عليه ومن لا يعجز⁽²⁾ يدخل داره للقراءة عليه والترحيم⁽³⁾، والتبرك به [رحمة الله عليه]⁽⁴⁾.

362 - ومنهم أبو الحسن علي بن عبد الله بن عياش العبدلي رحمه الله⁽⁵⁾:

أصله من العرب، وجاء إلى القيروان كبيراً، فتعلم العلم⁽⁶⁾⁽⁷⁾ والقرآن، وقرأ على الشيخ الرماح كما تقدم؛ وكان فقيهاً، صالحاً، ناسكاً، ورعاً، مهاباً. لا ينظر لوجه سلطان ونحوه؛ وكان⁽⁸⁾ ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، كثير الخوف من الله عز وجل.

سمعتُ شيخنا [أبا محمد عبد الله]⁽⁹⁾ الشيبيني يقول: كان العبدلي إذا دخل المحراب يدخله بوجهه وإذا انفتل⁽¹⁰⁾ رجع بوجه آخر. وكان إذا حجَّ يعمل الميعاد فإذا فرغ منه أخذ الركب في الرحيل.

وكان من اعتقاد الناس فيه، تتوب البوادي على يديه، ولا يقبلُ توبتهم حتى يُخرجوا ما عندهم من⁽¹¹⁾ المظالم التي عليهم ويبقى من يتوب هو وعياله بلا شيء فيلحقهم الضيق في ابتداء الأمر، فإذا تاب الأول يصنع به هكذا، فإذا تاب آخر⁽¹²⁾، أخرج ماله عنه، وأعطى ماله كله، أو بعضه لمن قبله، وهكذا.

وكان فقراؤه الذين يعرفونه بزاويته وغيرها نحو ستين رجلاً؛ هكذا سمعت الشيخ أبا عبد الله محمد الشقنصي يقول: وسمعت الشيخ أبا عبد الله محمد بن

-
- (1) ت: بدار.
(2) ت: يجير.
(3) ت: الترحم.
(4) سقط من: ت.
(5) ترجم له في: تراجم المؤلفين 351/3، معجم المؤلفين 139/7، هدية العارفين 719/1، شجرة النور الزكية 302/1 رقم 767، كتاب العمر 749/2 - 750، المعيار: 139/6.
(6) ت: بها.
(7) إسقاط الواو من: ت.
(8) سقط من: ت.
(9) في ط، والكتاب المحقق: [أبا عبد الله محمد]، والصواب ما أثبتناه من: ت، وترجمته رقم (381).
(10) ت: فإذا سلم وانفتل.
(11) ت، ط: في.
(12) ت: الآخر.

شبل يقول: نحو سبعين، وليس هذا باختلاف، وإنما كل منهما تكلم⁽¹⁾ على ما رأى.

وكانت حارة الشيخ تسمى؛ بحارة المرابطين، لسكنى من ذكر بها، فهي تسمى بهذا الاسم إلى زماننا، وكان إذا تزوج واحد منهم، أو زوج لا يشهد في عقد نكاحه، إلا أصحاب الشيخ، ولا يشهد عند العدول المعينين لأنهم عندهم ليسوا بعدول لما يسمعون عليهم من كلام الناس، فشق هذا على قاضي الوقت والعدول، فأتى الشيخ الفقيه أبو الحسن علي الشريف شهر العواني، وكلم الشيخ في ذلك، فقال: أصحابي هم العدول فلا يعقدون نكاحاً بالمعينين بحال. فما زال يُلاطفه حتى قال له: يا سيدي تجمع بين الحالين، يحضر عدول القاضي وخواص أصحابكم، فعندكم أنتم إنما انعقد النكاح بالخواص من أصحابكم، وعند القاضي إنما انعقد بعدوله، فوافقه على ذلك بعد توقف، ولو تمادى رحمه الله على تمتعه من ذلك لنفذ ذلك.

وكان رحمه الله تعالى يخرج بأصحابه في الصيف للمُنستير، ومعهم آلة الحرب ويمشي على المكامن، ويمشي للأشياء في الربيع، مَوْضِعٌ معروف بوطن القيروان، ليفرج خاطر الفقراء، ولا يأكل لأهل القرى شيئاً غير أولاد عبد العالي بالسقي، وكانت فيه بلدة، ثم خلت، ثم عمرت اليوم.

وكان رحمه الله تعالى في غاية اتباع السنة، قال الشيخ أبو عبد الله محمد الشقانصي: دخل بعض طلبته ليجود عليه مع أصحابه، وقد رآه إمتخط بيمينه، فلما وصلت إليه الدولة، وأراد أن يقرأ أسكته، فقال الطالب: لعل له شغلاً أراد أن يقوم له، فتمادى على عادته، فلما كان من الغد، فعل مثل ذلك، فعلم ذلك⁽²⁾ الطالب حينئذ⁽²⁾ أنه ارتكب ذنباً، وأعلم الشيخ به وما عرفه ما هو، فبعث من يختبر الشيخ ما سبب غضبه عليه، فقال الشيخ لمن وصل إليه [ما عرف ذنبه]⁽³⁾ عاد؟ قال: لا، قال: ذنبه أني رأيته امتخط بيمينه، وقد قال رسول الله ﷺ: «اليمنى لأطهاركم

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) زيادة من: ت.

واليسرى لأقذاركم»⁽¹⁾ فهو قد خالف السُّنَّة، ومن خالف السُّنَّة كيف يقرأ عَلَيَّ؟! فما زال الرجل يلاطف الشيخ، حتى رضي عنه. قال: وكذلك فعل بطالب آخر رفع نَعْلَهُ بِيَمِينِهِ.

ذكر هروبه من السلطان ونحوه وذبه على⁽²⁾ الناس عند المهمات

[بما]⁽³⁾ يُذكر أنه كان - رحمه الله تعالى - لا يرى وجه السلطان، ولا قائد، ولا قاض، لما سمع عن القضاة مِنْ أَخْذِهِمْ مُرْتَبَهُمْ من القائد وغير ذلك؛ ولما وصل أبو يحيى أبو بكر أمير إفريقية القيروان بمحلته وصل⁽⁴⁾ إليه الشيخ⁽⁵⁾ أبو عبد الله محمد الرماح والناس، فقال: هل في القيروان من يُزار؟ فقالوا له: نعم⁽⁶⁾ الشيخ العبيدلي، فهم بالمشي [إلى منزله]⁽⁷⁾ ف قيل له: إنه لا يفتح لك الباب ولا ينظر إليك، فعمل على الاجتماع به في الليل، فأتاه⁽⁸⁾ هو وقائده ابن⁽⁹⁾ سيد الناس، وقال شيخنا [أبو الفضل]⁽¹⁰⁾ البرزلي: بل قائده ابن الحكيم⁽¹¹⁾ فدق الباب، فقالت امرأة وهي خلف الباب: مَنْ هذا؟ فقال لها: قولي للشيخ أميرك بالباب ينتظرك، فلم يخرج له، فتعوذ⁽¹²⁾، وقرأ بلسان عال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59] فأجابه الشيخ، وكان يُصَلِّي، بلسان عالٍ حتى سمعا [قوله تعالى]⁽¹³⁾: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

(1) الحديث ورد باللفظ التالي «إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَنَفَّسْ فِي الْإِنَاءِ، وَإِذَا أَتَى الْخَلَاءَ فَلَا يَمَسُّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ وَلَا يَتَمَسَّحُ بِيَمِينِهِ» أخرجه البخاري في الصحيح من رواية عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، كتاب الوضوء، باب النهي عن الاستنجاء باليمين، حديث (153)، وطرفه في (154) و(5630)، ومسلم في الصحيح، كتاب الطهارة (18) باب النهي عن الاستنجاء باليمين، حديث (267)، والترمذي في السنن، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهة الاستنجاء باليسين حديث (15) بلفظ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يَمَسَّ الرَّجُلُ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ»، وأبو داود في السنن، كتاب الطهارة، باب كراهية مس الذكر باليمين في الاستبراء حديث (31).

(2) ت: عن. (3) زيادة من: ت.

(4) ط: موصل، ت: ووصل. والصواب ما أثبتناه.

(5) سقط من: ت. (6) سقط من: ت.

(7) ت: إليه. (8) ت.

(9) ت، ط: أبي. (10) سقط من: ت.

(11) ت: محمد بن الحكيم. (12) ت: وتعوذ.

(13) سقط من: ت.

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١﴾ [الحَجَّ: 41] ولم يخرج، فقال: لا بد لي من رُؤْيَيْهِ، فقليل له: إنك لا تراه إلا يوم الجمعة لخروجه للصلاة، فوقف في مكان، فلما رأى الشيخ تَرَجَّلَ عن جَوَادِهِ، فانفتل^(١) الشيخ بوجهه إلى حائط السور ولم ينظر إليه، فقال له: يا سيدي أَحِبُّ مِنْكَ أَنْ تَدْعُو لِي، فقال له: قال رسول الله ﷺ: «اللهم من وَلِيَّ أَمْرٍ من أُمُورِ أُمَّتِي فَشَقَّ عَلَيْهِمُ فَاشْتُقْ، اللهم عليه. ومن وَلِيَّ أَمْرٍ من أُمُورِ أُمَّتِي فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»^(٢). فركب ولم يرَ له وجهاً^(٣)، وقيل: إنما لحقه بعد خروج الشيخ من صلاة الجمعة خلف زاوية الشيخ جميل الحبيبي، وكان هذا أقرب، وحضر لمشهد هذا اليوم؛ الشيخ الصالح العدل أبو العباس أحمد ابن الشيخ المؤلف العدل أبي عبد الله محمد بن عثمان بن غانم الحضرمي، فقال في نفسه: هذا رجل بدوي انظر كيف أعطاه الله ولم ينظر للسلطان وجهاً، ونحن أصحابُ طريقة، وزوايا، عرفنا السلطان، وأخذنا^(٤) مرتبه، وتملقنا له، ولا يليق بنا ذلك، فرجع إلى داره مُنْكَسِراً، فأخذَ جُبَّةَ خَادِمِهِ، وعباءتها وعمل منها مُرَقَّعَةً لِبِسَهَا عَلَى جَسَدِهِ، ثم^(٥) انقطع عن السلطان وغيره؛ ولزم المحراب حتى مات رحمه الله تعالى.

قال شيخنا أبو عبد الله محمد الشيببي: وَإِنَّمَا حَسُنَ مِنَ الشَّيْخِ هَذَا، لَأَنَّ الشَّيْخَ الرَّمَاحَ، كَانَتْ حَوَائِجُ الْخَلْقِ تَقْضَى عَلَى يَدَيْهِ، فَلِذَلِكَ حَسُنَ مِنَ الْعَبِيدِ الْهِرُوبِ عَمَّنْ ذَكَرَ. وَلَوْ مَاتَ الشَّيْخُ^(٦) الرَّمَاحُ قَبْلَهُ، وَاضْطُرَّتِ النَّاسُ إِلَيْهِ، لَوَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَغْيِرَ طَرِيقَهُ وَيَسْلُكَ طَرِيقَ شَيْخِهِ الرَّمَاحَ، لِيَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: وَمَعَ هَذَا فَقَدْ^(٧) رُئِيَ الشَّيْخُ كَأَنَّهُ فِي قَبْرِهِ، وَهُوَ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَفِي رِجْلَيْهِ وَرَمٌ، فَقَالَ الْمَعْبَرُ: ذَلِكَ الْوَرَمُ، كَوْنُهُ كَانَ لَا يَتَسَارَعُ لِقَضَاءِ

(١) ت: وانفتل.

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر... حديث (١٨٢٨) من رواية عائشة رضي الله تعالى عنها، ولفظ الحديث: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَّ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْتُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَّ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ».

(٣) ت: ط: وجه.

(٤) ت: وأخذ.

(٥) ت: و.

(٦) سقط من: ت.

(٧) ت: قد.

حوائج الملهوفين، ويقول للمظلوم: اختر الدينار الوزن، وادفعه فيما طلبت به تجده بين يديك في عرصات القيامة.

ولما دخل السلطان أبو الحسن القيروان، قال الشيخ العبيدلي للشيخ الرماح: اتركني أخطب بموضعك وأصلي حتى أسمع ما يلزمه، فأبى عليه طلباً للهدنة⁽¹⁾.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد الشقانصي: وكان الشيخ الفقيه الورفلي من أهل قابس ينزل عنده الشيخ العبيدلي إذا مشى للحج. فتولّى الشيخ الورفلي بعد ذلك قضاء القيروان، فلم يصل إليه⁽²⁾، فطلب هو أن يصل إلى الشيخ، فأبى عليه، فبعث له في ذلك، فقال للرسول: قل له، لكونه قاضياً، فأجابه: إني إنما توليت مكرهاً وحلف له على ذلك. فقال للرسول: قل له: اعمل الحق تعزل، فأقام الحق، وضرب نائب القائد بموجب شرعي، وقائده ابن أبي الربيع، فتركه القائد ليوم الجمعة وفزع عليه بخدمته، وهرب خدام القاضي، وأتى له لداره. وكان يسكن قرب الجامع الأعظم، بالدار المعروفة للقضاة، فتحصّن بالجامع، ودخل فيه، وأغلق بابه عليه، فسلمه الله تعالى منه، فخرج العبيدلي بأصحابه يدعو في جبابن القيروان. وقال: لا أسكن بلدة جرى فيها هذا المنكر، وكتب الشيخ الرماح لقاضي الجماعة وللسلطان وللشيخ الزبيدي وعرف كلاً منهم بالواقع، وبخروج الشيخ العبيدلي. وكتب [أيضاً]⁽³⁾ القائد يعرف السلطان بضرب القاضي لخدمته، وكتب أيضاً لقائد الأئمة محمد بن عبد الحكيم⁽⁴⁾ الذي كان يعتمد عليه. وبقي الناس ينتظرون ما يجيء من الأمر. فجاء رسول السلطان، وأخذ القائد، وكتبه، ورفع له لتونس. فلما وصل به لقيه قائد الأئمة المذكور فقال: بعثناك للقيروان قائداً، وأرحناك من تعب السفر في المحلة، فظلمت القاضي، وفزعت عليه حتى خرج العبيدلي يدعو على مولانا أبي يحيى الذي قدّمك. ثم⁽⁵⁾ أمر من معه بقتله، فقتلوه بالرماح، ثم جاء قائد ومعه قاضي وقالوا للسلطان: القاضي الورفلي لا يقدر عليه، فلما خرج معزولاً خرج العبيدلي وشيعه.

(1) ت: للعشرة.

(2) ت: عليه.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: عبد الكريم، ولقد سبق ذكر محمد بن عبد الحكيم مراراً.

(5) ت: و.

وهكذا كان الشيخ العبيدلي، إذا غلب الشيخ [الرماح]⁽¹⁾، وكثر ظلم القائد الذي يكون يخرج العبيدلي بفقرائه فيسمع القائد فيخاف أن يعزل، فيجيء إلى الشيخ الرماح ذليلاً⁽²⁾، فيقول له: لا قدرة لي على شيء إلا أن تتوب وترد جميع المظالم إلى أهلها وتخرج إلى الشيخ وتهجم عليه، فيفعل ذلك.

وقيل له يوماً: إِنَّ الْفُقَرَاءَ جِيءَ لَهُمْ بِخِرْفَانٍ، فَكَلَّمَهُمُ الْخَدِيمُ فِي الْقَائِدِ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: خُذْ هَذِهِ السُّكَّيْنِ، وَامْشِ لِلْبَابِ، وَادْخُلْ بِالْخِرْفَانِ، فَإِذَا رَدَّكَ وَقَالَ لَكَ: حَتَّى تُعْطِيَ الْقَائِدَ، فَقُلْ لَهُ: أَحْلَالٌ هُوَ؟ فَإِنْ قَالَ لَكَ: هُوَ حَلَالٌ، فَاقْتُلْهُ، وَبِعْثْ مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقْبَلَانِ فِي⁽³⁾ الشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَا عَلَى قَوْلِ الْخَدِيمِ بِذَلِكَ، فَلَمَّا وَصَلُوا لِلْبَابِ وَوَقَعَ مَا ذَكَرَ إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ: أَحْلَالٌ هُوَ؟ وَنَظَرَ لِمَنْ مَعَهُ قَالَ: أَرَادَ أَنْ يُكْفِّرَنِي، أَدْخَلَ بِخِرْفَانِكَ.

ذكر كراماته رضي الله عنه

حدثني أبو بكر بن يعقوب الضاعني قال: خرج العبيدلي مع جماعة من أصحابه لجبل ماكوض، جرت العادة يَتَعَبَّدُ فِيهِ⁽⁴⁾، ويجتمع فيه الأولياء، وهو بالجزيرة على شاطئ البحر، فأغارت⁽⁵⁾ خيل عليه، وعلى أصحابه، فجرّدوا بَعْضُهُمْ: فَقِيلَ لِلْخَيْلِ: هَذَا الشَّيْخُ الْعَبِيدَلِيُّ، فَاعْتَذَرُوا بِأَنَّهُ لَا عِلْمَ عَنْهُمْ بِهِ، وَرَدُّوا مَا أَخَذُوا إِلَّا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: هَذَا الْفَارِسُ أَخَذَ لِي سَبْعَةَ دَنَانِيرَ ذَهَبًا: وَأَنْكَرَ الْفَارِسُ ذَلِكَ إِنْكَارًا تَامًا وَقَالَ: نَحْلِفُ؟ قَالَ لَهُ الشَّيْخُ: لَا تَحْلِفْ إِلَّا عَلَى يَدِ الْحَاكِمِ، وَلَيْسَ هُوَ هُنَا، وَلَكِنَّ الْفُقَرَاءَ يُعَلِّمُونَكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ، وَيُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ مَرَّتَيْنِ، هَذَا حَقُّهُمْ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَا غَانِمُ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ غَانِمٌ سَالِمًا⁽⁶⁾ [فَسَلِّمْ]⁽⁷⁾ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا، فَاهْتِكِ السُّتْرَ وَعَجِّلْ. فَقَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ الشَّيْخُ وَأَصْحَابُهُ: آمِينَ، وَكَرَّرَهَا ثَانِيًا وَقَالُوا: آمِينَ. وَانْصَرَفَ الشَّيْخُ وَأَصْحَابُهُ. وَكَانَ غَانِمٌ هَذَا قَتَلَ وَالِدَ فَارِسٍ مَعَهُ فِي الْخَيْلِ، وَعَفَا عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ وَلَدُ الْمَقْتُولِ: يَا ابْنَ عَمِّي

(1) ت: ليلاً.

(2) ت: به.

(3) ت: سالم.

(1) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(5) ط، ت: فغارت.

(7) سقط من: ت.

فَضَحْتَنَا بَيْنَ الْعَرَبِ، [وَالنَّاسِ يَقُولُونَ]⁽¹⁾ : إِنَّ الْفُلَانِيَّيْنَ، أَخَذُوا الشَّيْخَ الْعَبِيدَلِيَّ وَهُوَ شَيْخُ إِفْرِيقِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ : وَأَيَّ فُضُولٍ أَدْخَلَكَ فِي هَذَا؟ فَتَعَالَى مَعَهُ فِي الْكَلَامِ، فَضَرَبَ الْفَارَسَ غَانِمًا بِمِزْرَاقِهِ⁽²⁾ فَقَتَلَهُ، وَفَتَشُوا جَيْبَهُ فَوَجَدُوا السَّبْعَةَ دَنَانِيرَ فِيهِ. فَلَحَقُوا الشَّيْخَ وَأَعْلَمُوهُ بِمَوْتِهِ، وَأَعْطَوْا لَصَاحِبِ الدَّنَانِيرِ دَنَانِيرَهُ، فَبَلَغَ الْخَبْرَ لِمَشِيخَةِ الْقُرَوِيِّينَ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَطِيبُ الْمَتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ : إِنَّ الشَّيْخَ الْعَبِيدَلِيَّ لَمْ يَرِدْ أَنْ يَفْضَحَ السِّرَ الَّذِي عِنْدَهُ، مِنْ كَوْنِهِ يَدْعُو عَلَيْهِ فَيَجَابُ دَعَاؤُهُ، فَجَعَلَ⁽³⁾ الْعَرَبِيَّ يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ يُؤْمِنُ فَقَصَدَ إِخْفَاءَ الْكِرَامَةِ.

وَحَدَّثَنِي الْحَاجُّ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ مَرْغَمٍ الْعَبِيدَلِيَّ، يَعْرِفُ بِثَعْلَبٍ، عَنِ الشَّيْخِ عَبْدِ النَّازِرِ بْنِ سَلِيمِ الْمَاطُوسِيِّ⁽⁴⁾ قَالَ : سَهَرْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي لَنَعْرِفَ مَا يَعْمَلُهُ الشَّيْخُ الْعَبِيدَلِيَّ فِيهَا، فَلَمَّا بَقِيَ السُّدُسُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، خَرَجَ مِنْ دَارِهِ وَاتَّبَعْتُهُ خُفْيَةً، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَابٍ نَافِعٍ أَحَدِ أَبْوَابِ مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ التَّفَتُّ فَرَأَنِي فَهَجَمَتْ عَلَيْهِ وَقَلَّتْ لَهُ : يَا سَيِّدِي لَا⁽⁵⁾ أَبُوحَ بِسِرِّكَ حَتَّى تَمُوتَ، فَاَنْفَتَحَ لَهُ الْبَابُ الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي، وَالثَّلَاثُ، وَأَنَا مَعَهُ، وَأَتَى إِلَى الْحَوِطَةِ الَّتِي فِيهَا قَبْرُ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ⁽⁶⁾ السِّيُورِيِّ⁽⁷⁾ وَإِذَا شَابٌ اسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لَهُ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ وَانصَرَفَ. ثُمَّ ثَانِي كَذَلِكَ، ثُمَّ ثَالِثٌ [كَذَلِكَ، وَإِذَا بِالْمُؤَذِّنِ يُؤَذِّنُ فَقَالَ : مَا بَعْدَ هَذَا إِلَّا التَّصْبِيحُ، فَقَامَ]⁽⁸⁾ وَدَخَلَ وَأَنَا مَعَهُ.

قُلْتُ : وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الشَّقَانَصِيُّ قَالَ : كَانَ الْعَبِيدَلِيَّ يَأْتِي إِلَى بَابٍ نَافِعٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَيَنْفَتَحُ لَهُ، وَيُخْرِجُ مَعَهُ أَصْحَابَهُ تِسْعَةً، وَيُصَلُّونَ بَعْضُ اللَّيْلِ فِي الْمَسْجِدِ الشَّارِفِ عَلَى السَّبِيحَةِ حَتَّى مَاتَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْفَى أَشْخَاصَهُمْ عَنِ النَّاسِ لِأَنَّ الْبَابَ تَحْتَ صَوْمَعَةِ جَامِعِ الْقَيْرَوَانِ فَأَخْفَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُؤَذِّنِينَ وَغَيْرِهِمْ.

(1) ت : «يقول العرب والناس».

(2) المِزْرَاقُ : مِنَ الرِّمَاحِ وَهُوَ رِمَحٌ قَصِيرٌ وَهُوَ أَخْفَى مِنَ الْعَنْزَةِ، وَقَدْ زَرَقَهُ بِالْمِزْرَاقِ زَرْقًا إِذَا طَعَنَهُ أَوْ رَمَاهُ بِهِ. مَادَّةُ «زَرْقَ» لِسَانُ الْعَرَبِ 139/10.

(3) ت : فَعَمِلَ. (4) تَرْجَمَ لَهُ بِرَقْمٍ (373).

(5) ت : لَا. (6) ط، ت : لَمَّا.

(7) ت : الْقَاسِمُ. (8) ت : «وَجَلَسَ» أَمَامَ كَلِمَةِ السِّيُورِيِّ.

وقال الحاج ثعلب المذكور: قال الفقيه أبو عبد الله محمد الجذامي، وكان سكن [القيروان]⁽¹⁾ مدة، ثم سكن الهوارب، وتولى قضاء جبل وسلات. وكان من الصالحين. قال: كنا نجود على الشيخ العبيدلي بعد صلاة العشاء الآخرة، وإذا برجل دخل على الشيخ فقال: إن عجون السلطان من أولاد أبي يحيى [بن]⁽²⁾ بكر دخل القيروان، وأن الناس خافوا منه أن يقيم عندهم، فقال: انصرفوا. وغلق الباب، فلما بقي السدس الأخير من الليل جئنا للقراءة عليه، فقال: عجون⁽³⁾ خرج أم لا؟ فقلنا: ما نعرف، فقال: إن رجلاً يقرأ عليه المؤمن من الجان، قالوا له: ما تريد نعمل لعجون⁽⁴⁾ أنقتله أم نخرجه؟ فقال: أخرجه، والغالب أنه يخرج، فظهر أنه سرى بليل، وأصبح في بعض قرى الساحل، وقال لأهل ذلك الموضع: سلموا على الشيخ العبيدلي وقلوا له: بلدة أنت فيها نزاحمك [ما نزاحمك]⁽⁵⁾ فيها؟ فعرفنا أن الرجل الذي ذكر هو نفسه.

قال: وقال لي أبو عبد الله الجذامي المذكور: مرض الشيخ العبيدلي فأشفق⁽⁶⁾ الناس أن يموت من مرض⁽⁷⁾ ذلك، فدخلت عليه أنا، والحاج عبد الرحمن الشيعي، والحاج أبو بكر الكثري، فقال أحدهما: يا سيدي رجل رأى في منامه أن السلطان أخذك والناس خافوا عليك، فقال: أنعمكم ولا تعرفوا بي حتى نموت؟ قلنا: نعم! قال: أطلعني الله على ما مضى من عمري وما بقي وأنا ما نموت من هذه المرضة⁽⁸⁾ حتى نحج فكان ذلك.

قلت: وحديثي بعض أصحابنا العدول، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن أبي الرجال الربيعي، عمّن حدّثه ممّن نثق به عن الحاج إبراهيم ابن أبي الرجال المذكور، وهو ممّن حجّ مع الشيخ العبيدلي، [وكان يحضر]⁽⁹⁾ ميعاده، قال: حضرته يوماً، فكان عنده في الدول الكلام على منع اتخاذ الأواني من الذهب والفضة، فتكلّم على المسألة بما قاله العلماء، ثم قال لأهل المجلس: يا هؤلاء إن

(1) سقط من: ت.	(2) سقط من: ت.
(3) سقط من: ت.	(4) ت: عزوز.
(5) زيادة من: ت.	(6) ت، ط: شفق.
(7) ت: مرضه.	(8) المَرَضَةُ كلمة عامية.
(9) ت: ويحضر.	

رجلاً منكم عنده آنية من الفضة، فليكسرها، قال: فأتيت إلى زوجتي وقلت لها: اكسري البويقله⁽¹⁾ التي عندك لابنتك، وكانت من الفضة يستعمل فيها بل الصمغ للزينة، فقالت: لا أفعل، وغلبتني، فحضرت من الغد، فأعاد الكلام وقال: إن لم يكسرها الرجل الذي عنده فنعينه، فأتيت إلى زوجتي⁽²⁾ وكسرتها، وحضرت الميعاد، فسكت، ولم يعاود الكلام عليها.

وحدثني الحاج ثعلب عن الفقيه الجذامي المذكور قال: تغير الشيخ العبدلي يوماً، وهو في طريق المشرق فسئل عن ذلك، فقال: إن فلاناً دخل داري. فأرخ⁽³⁾ [اليوم الذي قال فيه ذلك الكلام]⁽⁴⁾، فظهر أن الأمر كذلك، فأتى له الرجل وقال له⁽⁵⁾: [إنما وقعت]⁽⁶⁾ عرصة في داركم فدخلت داركم بالشهادة⁽⁷⁾ العادلة حتى أصلحتها وخرجت.

وقال لي: ورد عليه رجل أسود أحمر العينين، كرية المنظر، فسلم ورد عليه الشيخ⁽⁸⁾ السلام وحيّاه، وانصرف. فقال لي: يا جذامي الحق ذلك، وتبرك به، وأعطه درهماً قديماً، فقلت له: وأين هو؟ قال: في الموضع الفلاني. قال⁽⁹⁾: فقصدت إليه فوجدته فيه وأعطيته الدرهم، فأخذه بعد أن قلت له: ما أعطاك⁽¹⁰⁾ إياه إلا الله تعالى، وأعطاني درهماً جديداً، وقال لي: أقبل، وإن قلت: درهم جديد في درهم قديم لا يجوز، لأنا نقول: الزائد صدقة. فأتيت إلى الشيخ فقال لي: لقيته وأعطاك درهماً؟ فقلت: نعم، فقال [احتفظ]⁽¹¹⁾ عليه.

قلت: والدرهم القديم هو أربعة أخماس الجديد يومئذ.

وقال لي أبو بكر الضاعني: كان العبدلي لا يدخل داراً فيها كلب. فضافنا مرة ببلدنا المنية، فقال والدي لما حضر الطعام: اربطوا الكلب لئلا يراه الشيخ، فربطناه في بيت التبن، وأدخلنا الشيخ فأصبح الكلب ميتاً من غير أن ينخنق⁽¹²⁾.

(1) البُويقلَةُ تصغير «بُوقال» ضرب من الكيزان. لسان العرب مادة «بقل» 62/11.

(2) ت: الزوجة.

(3) ط: فورخ، وفي ت: فورخ.

(4) ت: يوم أن قاله.

(5) ت: إنه.

(6) ت: وقت.

(7) ت: بالشهاد.

(8) سقط من: ت.

(9) سقط من: ت.

(10) ت: ما أعطيتك.

(11) ت: استحفظ.

(12) ت: يتحقق.

قال ثعلب: وقال لي أبو عبد الله محمد بن كامل المهبدي: سمعت الشيخ العبيدلي يقول: من العلماء مَنْ إذا سُئِلَ عن شيء يحضر الله له لوحاً بين يديه فيقرأ منه ما لا يدري⁽¹⁾. ومنهم مَنْ يضع الله على لسانه الحكمة فيتكلم بها. قلت له: وأيّما أفضل؟ فقليل⁽²⁾: كثير ما بين النظر والكلام. فأشار إلى الثاني أفضل.

قلت: يريد لأنه بلا واسطة والله تعالى أعلم.

ذكر بقية أخباره

قال الشيخ أبو عبد الله محمد الشقانسني: كان الشيخ العبيدلي إذا خرج من الميعاد يدخل بيتاً، وذلك بزاويته، فجلس يوماً أبو مهدي عيسى بن مرزوق الصميلي⁽³⁾، وكان من خواص أصحابه بقرب بابها، فسمع العبيدلي يقول بقلب قريح: «واغوثة من النار». فلما سمع كلامه صاح بالبكاء، والعويل، فخرج له العبيدلي فقال له⁽⁴⁾: ما شأنك؟ قال: يا سيدي، كيف لا أبكي، وقد سمعتُ منك وأنت تقول بقلب قريح: «واغوثة من النار»! وأنت قدوتنا [وفعلك فعل حسن صالح]⁽⁵⁾، فكيف بنا؟ فقال: أو تعتقد هذا؟ فأنا ما نعتقد هذا في بحال، وهل ثم أحد يشهد معك بهذا؟ فقال: نعم، وأتى له برجال من خيار أصحابه، فشهدوا بأن فعله الصالح كما قال، فقال: الحمد لله. ما كنت نعتقد هذا. وقد قال رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض ولعل وعسى»⁽⁶⁾.

قلت: هذا الحديث هو في صحيح مسلم في الجنائز وكرر عليه السلام ما تقدم ثلاثاً. فقال بعض أهل العلم: في تكراره ثلاثاً، إشارة إلى القرون الثلاثة التي قال

(1) ت، ط: ما لا تدري.

(2) ت: فقال.

(3) ترجم له برقم (370).

(4) سقط من: ت.

(5) زيادة من: ت.

(6) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت حديث

(1367) من رواية أنس بن مالك، وأخرجه أيضاً في كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز

حديث (2642)، ومسلم في الصحيح، في كتاب الجنائز (20) باب فيمن يُثنى عليه خير أو

شر من الموتى حديث (949) ص: 452.

فيها عليه السلام: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»⁽¹⁾. والصحيح قول غيره إنه باق إلى يوم القيامة. وإنما كرره عليه السلام ثلاثاً تأكيداً على عادته في ذلك. وهذا هو اختيار الشيخ وإنما أتى له عيسى الصميلي برجال من خيار أصحابه لقول نصر بن أحمد الداودي معناه عند الفقهاء: إذا أثنى عليه أهل الفضل والصدق، لأنَّ الفسقة قد يُثْنُونَ على الفاسق فلا يدخل في الحديث، وكذلك ذمُّ الأعداء.

قال الشيخ الشقنصي: وكان العبيدلي صلى بالناس إماماً في زاويته فقرأ يوماً في صلاة الصبح سورة الصَّف فلما قرأ قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصَّف: 2، 3] بَكَى وَأَبْكَى مِنْ خَلْفِهِ، فَقَدِمَ مِنْ يَوْمئِذٍ الْفقيه أبا عبد الله محمد القابسي يصلي بالمسجد المذكور، وإذا خرج لِلسَّفَرِ يُقَدِّمُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ يَصْلِي خَلِيفَةً بِنِ حَمْزَةِ اللّوَاتِي⁽²⁾.

وقال أبو عبد الله محمد بن شبل: سافر مرة لتونس، فأدركته صلاة المغرب داخل تونس عند باب من أبوابها المسمى بباب برج مورقي، فدخل مسجداً هو ومر حضره، فقال لإمامه: نحن ضيِّفانُ عليك، والضَّيْفُ لَهُ حَقُّ الضَّيَافَةِ، فَضَيَّافَتُنَا عِنْدَكَ اللَّيْلَةَ تَهَبُ لَنَا الْإِمَامَةَ، ففعل، فقدم يصلي بهم خليفة المذكور.

قلت: وهذا الذي فعل الشيخ المذكور⁽³⁾ اتبع فيه قول أبي الوليد بن رشد. قال شَيْخُنَا الشقنصي: ولما سمع أهل تونس بقدومه عليهم أتوا إليه بقصد التبرك. ومن جملتهم الشيخ الفقيه العدل الورع أبو الحسن المنتصر دخل عليه وَصَافَحَهُ، وَالشيخ العبيدلي جالس في مكانه ولم يقم له، فلما خرج فعل كذلك⁽⁴⁾، ولم يزل بمكانه، فقال بعض أصحاب [الشيخ]⁽⁵⁾ المنتصر: يا سيدي، هذا الرجل ما قام لك، لا أولاً، ولا آخرأ، ولا مشى معك حتى لباب الدار، ما هذا؟ قال: هو ممَّن يأخذ كتابه باليمين⁽⁶⁾، ولكنه رجل بدوي ما رباه الشيوخ.

(1) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الشهادات، باب لا يَشْهَدُ عَلَى شَهَادَةِ جُورٍ إِذَا أُشْهِدَ حَدِيث (2651) من رواية عمران بن حُصَيْنٍ، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حديث (2535) ص: 1327. وأخرجه مسلم من عدة طرق وروايات مختلفة انظرها في نفس الباب.

(2) انظر ترجمته رقم (368). (3) سقط من: ت.

(4) ت: ذلك. (5) زيادة من: ت.

(6) ت: يمينه.

وذكر شيخنا أبو عبد الله محمد بن عرفة هذا والذي قبله، وجعل عوض قوله: ممن يأخذ كتابه بيمينه، هو رجل صالح. قال: وعمل والذي طعاماً قليلاً، فناده⁽¹⁾، فوجد معه خلقاً كثيراً، فأكل منه جميعهم وفضل من الطعام.

قال شيخنا الشقانسى: وقال له بعض أصحابه: يا سيدي أنت تُفتي بأن الحرقوص لمعة؟! قال: صحيح، قال له: اتصل بنا أن زوجتكم مريم تفعل ذلك! قال: ما عندي من ذلك علم، وما رأيت شيئاً فدخل الدار وخرج وقال: نعم، وجدتها فعلت ذلك، وأعلمتها أنه لمعة. فهو من اشتغاله رحمه الله تعالى بما هو فيه لم ير ذلك في وجهها.

وعرفت عن شيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة أنه أفتى بأنه ليس لمعة.

قال شيخنا الشقانسى: وكانت زوجته المذكورة تُداوي للأولاد، فلما بلغه ذلك لأُمها، فقالت: يا سيدي، وكيف لا أرغب أن يكون لي ولد [منك؟! قال لها: قد اختار الله تعالى أن لا يكون لي ولد]⁽²⁾، فما ولدت شيئاً.

وقال الحاج ثعلب: سمعت الحاج عبد الغني الشعيثي يقول: اختلفت الشيوخ في مسألة، وهي: أيما أفضل قبول الهدية، أو الأخذ من الزكاة؟ فقال الشيخ العبيدلي: قبول الهدية أفضل. وخالفه الشيوخ في ذلك: أبو عبد الله الرماح، وأبو العباس أحمد الدباغ، وأبو عبد الله محمد القلال، وأبو عمران موسى المناري، وأبو الحسن علي العواني، وأبو إسحاق إبراهيم الخطيب، واحتج العبيدلي بفعله - عليه السلام - من أنه كان⁽³⁾ يقبل الهدية ولا يأخذ الزكاة. وأجابه الآخرون بأن [قبول]⁽⁴⁾ الهدية في حقنا موقوفة على ثلاثة شروط: حلية المال، وطيب نفس صاحبه، وحصول ما يظن المعطي في المعطى. والزكاة⁽⁵⁾ شرط واحد وهو الفقر.

قال أبو بكر الضاعني: وعمل عبد الواحد الحنضلي طعاماً ونادى عليه أربعة: أبا عبد الله محمد الرماح، وأبا الحسن علي العبيدلي، وخليفة اللواتي المتقدم ذكره،

(2) سقط من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(1) ت: وناده.

(3) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

وعمر الحسيني. فقال خليفة وعمر: نحن صيام. فقال صاحب الطعام: وأنا عملته إلا من أجلهما لِكَمَالِ قَدْرِهِمَا⁽¹⁾ فقال الشيخ⁽²⁾ العبدلي: بِكُمْ تشتري فطورهما؟ قال: بثلاثة أقفزة قَمْحاً، قفيزان للفقراء، وقفيز [ما لك فيه حكم. فأمرهما]⁽³⁾ بأن يغسلا أيديهما ويأكلا، ففعلا. فأوصل من الفور بعد الأكل قفيزاً لدار الشيخ العبدلي، وقفيزين للفقراء، ففرقهما الشيخ. الذي فعله تَبَعَ فيه قول عيسى بن مسكين لصديقه، وقد دخل عليه وهو يأكل طعاماً، وقال: إني صائم، قال: «إدخالك السرور على أخيك المسلم أفضل من صيامك»⁽⁴⁾. ولم يأمره بقضائه.

قال عياض: وقضاؤه واجب، وإنما لم يذكره لوضوحه.

وكان شيخنا أبو الفضل البرزلي لا يرتضيه وتحيله على نفيه، كقول الشافعي. وهذا لا يقدح في قوله⁽⁵⁾: كان مُتَوَرَّعاً، لأنه لم يستعمله في نفسه.

واختلف الشيخان الرماح والعبدلي. هل يجوز التخطي⁽⁶⁾ حال⁽⁷⁾ نزول الإمام على المنبر في خطبة الجمعة أم لا؟

وكان شيخنا البرزلي المذكور، إذا نقل قوليهما ما يعرف⁽⁸⁾ عزوماً لكل واحد منهما، وهو الذي قصدت.

وأجرى شيخنا أبو عبد الله محمد بن عرفة القولين فيها من نقل ابن العربي قولي مالك في جواز الكلام حينئذ.

وكذلك اختلف هل يجوز أن يصلي الوتر جالساً اختياراً أم لا؟ فأفتى الشيخ الرماح بجواز ذلك، وأفتى الشيخ العبدلي بمنعه.

وكذلك اختلف فيه المتأخرون من التونسيين، فأفتى بعضهم بالأول، وأخذه من قول المدونة: جائز أن يصليه المسافر على دابته حيث ما توجهت إن كان سافراً لقصر فيه الصلاة.

(1) ط: فقدرهما، وفي ت: فقرهما.

(2) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: صومك.

(5) ت: قولي.

(6) ط: القخطي.

(7) ت: حالة.

(8) ت: لا.

ورده ابن هارون بأن للمسافر خصوصيات ليست⁽¹⁾ لغيره. وأفتى بعضهم بالمنع، وأخذه من قولها: لا يصلى في الكعبة الفريضة، ولا الوتر، ولا ركعتي الفجر. فقد سَوَّى بين الفريضة، والوتر، فيما ذكره، فيلزم اطراده، وهو ضعيف، لأنه يلزم عليه أن الفجر لا يُصَلَّى جالساً اختياراً، لأنه قرَّنه بالفريضة والوتر، ولا قائل به، وإذا فرعنا على الأول فيختلف في جواز صلاته إيماء على ثلاثة أقوال، ثالثها يجوز في المرض دون الصحة قياساً على النافلة والله أعلم.

وألف العبيدلي كتاباً⁽²⁾ في الفقه، أصل مستقل، وعقيدة في التوحيد.

وتوفي قبل وفاة شيخه الرماح بنحو عام. وكان يومه يوماً مشهوداً بباب تونس. وقبره مزار - رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بركاته آمين - .

363 - ومنهم أبو عمران موسى بن عيسى⁽³⁾ المناري⁽⁴⁾ رضي الله عنه⁽⁵⁾:

قد تقدم⁽⁶⁾ أنه قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد الرماح، وقرأ عليه شيخنا أبو عبد الله محمد الشيببي وغيره؛ ولم يكن له رحلة لتونس لأنه كان [هو]⁽⁷⁾ الشيخ العبيدلي لا يطلبان خطة غير تعلم العلم. وكان فقيهاً، صالحاً، واعظاً، مجتهداً في تعلم العلم، ناسكاً، ورعاً، بارعاً في [العلم]⁽⁸⁾ و[الفقه، ثقة في نقله، جيد الذهن، حسن العبارة.

سمعت شيخنا أبا محمد الشيببي يقول: كان يتكلم بالوعظ، فلا يَحْضُرُ ميعاده أحدٌ من أهل الدنيا، لكثرة ما يتكلم به في الوعظ.

وكان الشيخ أبو عبد الله محمد الرماح يأتي لموضعه برسم الزيارة له فيقول: يا سيدي إنا نأتيك لمكانك، فيقول له: لا يا أبا عمران إنا نأتيك. ويطلبه في الدعاء. وكذلك كان يفعل بالشيخ العبيدلي وما كان يفعل ذلك لأحد من أصحابه غيرهما.

(1) ت: ما ليس. (2) ت: تأليفاً.

(3) انظر عنه: كتاب العمر 2/ 760 - 761.

(4) المناري: نسبة إلى المنارة قرية بعمل المُنْستير من الساحل: العمر 2/ 760.

(5) صيغة الترضي سقطت من: ت. (6) أي عند ترجمة الرماح رقم 361.

(7) سقط من: ت. (8) سقط من: ت.

وكان أبو عمران موسى هذا يخرج من القيروان للمسجد المعروف الآن بمسجد علي، الكائن على يمين المار بجبانة الشيخ أبي الحسن القاسبي وهو مسجد الشيخ أبي إسحاق السبائي، هو وبعض خواصه، ويصلي بهم النافلة جهراً بقدر العشرين حزباً ونحوها، ويرجع.

وسمعت أنه دخله يوماً وعليه ثياب بيض ليصلي فيه فأغارت⁽¹⁾ عليه خيل فدخلوا المسجد فلم يروه، وأعمى الله أبصارهم.

وبعث له الأمير أبو يحيى أبو بكر لما وصل بمحلته القيروان دراهم نحو صاع ليأخذها، ففرّقها عند باب داره على الفقراء والمساكين ولم يُدْخِلْ دَارَهُ منها شيئاً سوى درهماً واحداً، أشك فيه هل أخذ به أهل داره لحماً لما ألح عليه بعض أولاده في ذلك أم لا، وكان الذي عَرَّفَنِي بذلك؛ وَلَدُهُ أبو زكرياء يحيى، فَشَكَّكْتُ فيما قال لي في الدرهم المذكور، هل [أنفقه ولده]⁽²⁾ أم لا؟.

وكان إذا رأى ولداً صغيراً يزور الجبانة، يَحُثُّهُ على الخير، وعلى حضور الميعاد.

وسمعتُ شيخنا أبا محمد الشيبني يقول: ورد رجلٌ على الجبانة الغربية بالليل، وهي جبانة باب سلم، وبقي يصيح، فسمعه أهل القيروان فبكروا له، فوجدوا رجلاً أشعث، أغبر، عليه غرارة، وبيده سبحة فقالوا: هذا سائح، فأدخلوه القيروان، وأسكنوه في بُرْجٍ في سور البلد يعرف بِبُرْجِ بُوْشْطِيلَةَ⁽³⁾، وبَيَّضُوهُ له، وافتتنت به الناس مدةً، وأكثروا الكلام عنه في إظهار الكرامات، فبعث ورآه الشيخ أبو عمران موسى [المناري]⁽⁴⁾، فأتى له به، فتكلّم معه في الكرامات، فقال: الكرامات تَحْضُرُ وَتَغِيْبُ، فتكلّم معه في التوحيد، فوجده جاهلاً، ثم إنه⁽⁵⁾ أحضر له إبريقاً فيه ماء وقال له⁽⁵⁾: تَوْضِئْ قَدَامِي، قال: وَلَمْ؟ قال: إِمَّا أَنْ [تَتَعَلَّمَ مِنِّي]⁽⁶⁾ أَوْ نَعَلِّمَكَ، فتَوْضِئْ⁽⁵⁾ فوجده لا يعرف شيئاً من نقل الماء وغيره، فقال لمن حضره: اذهبوا به، وأخرجوه من القيروان. فلما خرجوا به وجدوا العامة على باب الدار، فنزعوه من أيديهم وقالوا⁽⁷⁾: لا يحب الفقهاء أن يكون واحد معهم، وردّوه إلى مكانه، فمشى

(1) ت، ط: فغارت. وهذا تكرر مراراً. (2) نفقة لداره.

(3) ت: العسال. (4) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت. (6) ت: نتعلم منك.

(7) إسقاط الواو من: ت.

إلى الشيخ الرماح وقال: هذا يجري في وسط⁽¹⁾ القبروان، وأنت فيها! وبسط له حاله، فبعث إلى القائد وهو يأمره بنفيه. فقال: لا أفعل، ولعله يكون صالحاً كما يقول الناس فيدعو علي فنهلك، فأنا لا تأمر ولا ننهي، فبعث وراء الأمناء وأمرهم بذلك، ففعلوا، فلما وصل لربض⁽²⁾ أولاد أبي رحمة غيث الحكيمي، أخذه أهل الربض من أيديهم، وأدخلوه المسجد المعروف بمسجد الزيتونة عندهم، والتّموا⁽³⁾ عليه، فبعث لهم الشيخ الرماح بانصرافه، ففعلوا ذلك، وأعطاه الناس حوائج كثيرة لا اعتقادهم فيه، فأخذوا يفتشون⁽⁴⁾ على حوائجهم في البرج الذي كان فيه. وتبين بعد ذلك أنه زبال بتونس، يَكْنُسُ تحت الخيل، فكان ممّا عرف له ذلك.

وكان رحمه الله يجيز السماع، فيعمل له في زاويته بخواص أصحابه، وكانوا تسعة، ولا يحضر معهم أحد، ولا يعمل لهم طعاماً في غالب الحال، وكان هو يحضر معهم في خَلْوَةٍ وحده، ولا يشطّحُ منهم إلا واحداً إذا غلب عليه وأراد الحال، وسلم له أهل عصره ذلك، هكذا كنت أسمع في القديم.

ثم سمعت من شيخنا أبي عبد الله محمد الشيببي⁽⁵⁾ أن الشيخ أبا عبد الله محمد القلال كان ينكره عليه ويقول: إنه بدعة ولو على الصفة المذكورة، ووضع على أول تهذيب الشيخ أبي سعيد البراذعي سِفْراً في القالب الصغير من أوله إلى القصر، فورد على القبروان تأليف الشيخ أبي حامد الغزالي المسمى بالإحياء. فنظره، وترك التأليف. واشتغل بعمل الميعاد ساعة، والتفرغ للعبادة حتى مات.

هكذا سمعت من شيخنا أبي محمد الشيببي ويا ليتة - رحمه الله - لم يفعل ذلك ولو تمادى على تأليفه لكان أفضل له لحفظه في نقل المذهب وحسن فكرته، ولكن ذلك الذي قدّر له. ونقلت عنه في شرح التهذيب وغيره ما يدلّ على ذلك.

وهو القائل في البدويين الجاهلين معاً بالحرز إن شرى أحدهما من صاحبه السقيطة وغيرها جزافاً: إنه جائز، ورُئي أن الجاهلين كالعاملين، وأفتى الشيخ أبو القاسم الغبريني بتونس بمنع ذلك.

(1) سقط من: ت. (2) ت: لربط.

(3) بمعنى: التأموا، وفي ت: واتلمذوا. (4) في ط: يفتش، وفي ت: يفتشوا.

(5) ت: الشقانصي.

قال شيخنا أبو الفضل البرزلي، فقلت له: إن أبا عمران موسى المناري كان يُجيزه فقال لي: ما نعرف هذا من يكون، فقلت له: إنه لم يصل إلى تونس، وهو فقيه مدرك.

وترك رحمه الله أولاداً خمسة، كلهم صلحاء، منهم: الشيخ الفقيه العدل أبو العباس أحمد، وهو الذي كان يقرأ على شيخنا أبي محمد الشيباني العشر، وحديث مسلم، ودولة في الرقائق. ويحضر مع ذلك دول التهذيب، ودرس بعد موت الشيخ بمسجد ولده⁽¹⁾ وهو المعروف بمسجد أبي علي حسن بن خلدون البلوي. وقرأت عليه فيه مدة، ومنهم أبو زكرياء يحيى المذكور. ظهرت له كرامات مع العرب، انتفع الناس به في حرثهم زمن غفلة العرب، فبظهور كراماته خافوه، فكانت له حرمة هائلة.

فحدثني رحمه الله تعالى بسؤالي له عما جرى له لما كان عند أولاد أبي عيسى شاوية كبيرة، فأخذ يحدثني⁽²⁾ وهو مستحشم. قال: كان أولاد أبي عيسى يعطوننا زكاة مواشيهم، أظنه قال: ما يُباع بنحو التسعين ديناراً ذهباً، أخذها أنا وإخوتي، ومنها يمشي حالنا، وكان لهم اعتقاد في والدنا وذريته. فكنت عندهم ففاضت⁽³⁾ عليهم حجري بخيلهم، ورجالهم، ونجعهم، فغلبوهم، وسلبوهم، وأخذوا مواشيهم، وكان معي بعض نساء ورجال قليلون، فأرادوا أخذهم فاستغاثوا بي فتحرك خاطري، فأخذت مزراقاً وعملتُ عليها عمامتي علامة، وركضتُ في أثر الخيل بمن معي، فهرب من كان أمامنا من الخيل، وتركوا الغنائم⁽⁴⁾. [قال: ثم إننا زدنا]⁽⁵⁾ في أثرهم، وتحايا الناس وأعطوا بالأعقاب، ولا من يصد، حتى ردت الناس جميع مواشيهم، وأخذوا نجعهم، وقتل من العرب جماعة يزيدون على عشرة، فقليل للخيل: ما هروبكم مع كثرتمكم؟ وما وراءكم أحد إلا من هو كالعدم؟ قالوا: لما رفع ذلك العلم رأينا تلك الأماكن كلها مملوءة خيلاً ورجالاً، ففررنا بأنفسنا قاصدين سلامة رقابنا، ورأينا الخيل ليست تشبه خيل إفريقية، واشتهرت هذه الكرامة فظهر بها ما بعد.

(1) ت: والده.

(2) ت: يكلمني.

(3) ط: فهاضت.

(4) ت: الغنم.

(5) ت: فزدنا.

فحدثني مَنْ نَشَقُّ بِهِ قَالَ: كُنْتُ مَعَهُ فِي بَحِيرَةٍ لَوَاتَةٍ عِنْدَ الزَّرْعِ، وَإِذَا بِالشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ زَكْرِيَاءَ الْمَدَافِعِيِّ وَهُوَ يَرْكُضُ مَعَ خَيْلٍ لَهُ⁽¹⁾، فَسَلَّمَ عَلَى الشَّيْخِ، فَقَالَ لَهُ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَ: سُرِقَ لَنَا الْبَارِحَةُ جَمَالٌ مِنْ نَزَلَتْنَا فَنَحْنُ نَفْتِشُ عَلَيْهَا [لَعَلَّنَا]⁽²⁾ نُدْرِكُهَا، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ أَبُو زَكْرِيَاءَ: اقْصِدْ هَذَا الْمَكَانَ، تَجِدُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَشَارَ بِأَصْبَعِهِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ يَعَايِنُهَا فِيهِ، فَرَكَضَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَشَارَ لَهُ بِهِ، فَمَا كَانَ إِلَّا زَمَنًا يَسِيرًا، وَإِذَا هُوَ أَتَى بِهَا. وَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَهَا مَعْقُولَةً فِي مَكَانٍ مَنخَفُضٍ مِنَ الْأَرْضِ.

وَتَوَفَّى أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بِالْقَبْرَوَانِ لَيْلًا. وَقِيلَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ: مَنْ يَغْسِلُكَ؟ قَالَ: الْحَاجُّ عَلِيُّ بْنُ قَائِدِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ فِي وَسْلَاتٍ قَالَ: يَجِيءُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَرَأَى تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْحَاجُّ عَلِيُّ الْمَذْكُورُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّهُ صُومَعَةٌ جَامِعُ الْقَبْرَوَانِ سَقَطَتْ. فَتَأَوَّلَهَا أَنَّهُ الشَّيْخُ مُوسَى مَاتَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ⁽³⁾ أَعْلَى مِنْهُ عَلَى مَا ظَهَرَ لَهُ. فَسَرَى بَقِيَّةَ لَيْلِهِ، وَبَعَثُوا لَهُ رَجُلًا عِنْدَ فَتْحِ الْبَابِ، فَتَلَّاقِيًا عِنْدَ بَابِ الْبَلَدِ.

وَدُفِنَ بِبَابِ تُونِسَ فِي رُبُوعٍ هُنَاكَ دُونَ مَقْبَرَةِ الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْقَاسِي. وَدُفِنَ بِهَا أَوْلَادُهُ الْخَمْسَةُ، وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ.

وَكَانَ أَوْلَادُ أَوْلَادِهِ صُلَحَاءَ، وَتَعَلَّمَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْعِلْمَ سَنِينَ، وَمَاتُوا فِي حَالِ طَلَبِهِمْ.

وَدُفِنَ فِي تِلْكَ الرُّبُوعَةِ جَمَاعَةٌ مِمَّنْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ الشَّيْخَ فِي رُبُوعَةٍ لَطِيفَةٍ احْتَوَتْ عَلَى عُلَمَاءَ، وَصُلَحَاءَ، وَأَفَاضِلَ، مِنْهُمْ؛ الشَّيْخُ الْفَقِيهَ الْعَدْلُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْضَلِيِّ، وَكَانَ يَشْهَدُ بَيْنَ النَّاسِ بِبَلَاءِ أَجْرَةٍ، وَيَقْرَأُ خَتَمَةً مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ. وَجَرَتْ عَادَتِي نَكْثَرُ مِنَ الزِّيَارَةِ لَهُمْ وَمِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَنَنُوي ثَوَابَهُ لَهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ⁽⁴⁾.

364 - وَمِنْهُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْأَنْصَارِيُّ شَهْرُ الدَّبَاغِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ شَيْخُنَا الْبُرْزُلِيُّ: لَا أَتَحَقَّقُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ الرَّمَاحِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُعَاصِرًا لَهُ أَوْ قَرِيبًا.

(1) ت: معه.

(2) ت: إن كان.

(3) ت: ليس «فيها».

(4) إسقاط صيغة الترضي من: ت.

وقطع شيخنا ابن شبل بأنه كان معاصراً له، والذي كنت نفهم من كلامه، أنه قرأ عليه، وكان فقيهاً صالحاً ورعاً، له كرامات وبراهين، وكان يعمل الميعاد بالمسجد⁽¹⁾ المعروف بمسجد الدباغ المعروف به وبأسلافه.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن شبل: كنت يوماً في ميعاده، فقام ولده بعد⁽²⁾ [أن]⁽³⁾ سمع بعض دول الميعاد، وخرج وعليه فروة مسجفة وهو يمشي متبخرأً، فقلت في نفسي: هذا ولد الشيخ! هلاً كان كذا وكذا! فأجابني والده على الفور بلسان عال⁽⁴⁾: ألم⁽⁵⁾ يقل الله عز وجل للنبي ﷺ في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القَصص: 56] وَمَنْ يَكُونُ أَحْمَدُ الدَّبَاغُ؟

قال: وقال له رجل: ناشدتك الله إلا ما عرفتني برجل من أهل الجنة من أهل القيروان، فلامه على قوله ثم قال له: إذا كان من الغد بُكْرَةً فالذي يجلس عند السارية فهو من أهل الجنة، إشارة منه لسارية محدودة تحت صومعة الجامع على يمين الداخل للمسجد، فجلس عليها في الوقت رجل مختل العقل.

وحدثني الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن زردوم بن غيث الحكيمي، عن الشيخ الصالح سلام بن محمد الجيفري، عن صدقة اليفرني، وكان من الصالحين، أنه دخل على الشيخ أبي العباس أحمد هذا فقال له: يا صدقة، هذه البلد ما فيها⁽⁶⁾ رمان ولا سفرجل ولا ليم⁽⁷⁾، فخرج صدقة من الفور، ولبس مرقعة⁽⁸⁾ من خوف العرب، ومشى لتونس على رجله ولم يعرفه، واشترى من ذلك ما ملأ قُفَّتَيْنِ، وعملهما على عاتقه واحدة من قدام، والأخرى من وراء، وخرج. قال: فلما خرجت من تونس، وجدت خيلاً من العرب، وعندهم فرس لا راكب عليها، فقالوا لي: اركب عليها⁽⁹⁾، واحمل عليها رحلك، فأبيت، فألحوا علي وتوعدوني إن لم أفعل، ففعلت ما قالوا، حتى وصلت معهم القيروان، فنزلت، ودخلت على الشيخ كما أنا، وسلمت عليه، فرد علي السلام وبادرني بقوله: يا صدقة، من أين ركوبك الخيل؟ فقلت: من الموضع الذي رأيتهم.

(1) ت: في المسجد.

(2) محو في: ت.

(3) زيادة من: ت.

(4) ت، ط: عالي.

(5) ت: لم.

(6) ت: ما فيها «اليوم» زيادة اليوم.

(7) ليم: البرتقال.

(8) ت: مرقعته.

(9) سقط من: ت.

«وحدثني الأمين أبو العباس أحمد بن محمد بن مالوش الحضرمي صاحب الأحباس⁽¹⁾ بالقيروان، قال: حدثني والدي عن والدته أنها قالت: رفعت للشيخ أبي العباس أحمد الدباغ طاساً مملوءاً باللبن من داري، فلما وصلت المسجد المعروف بمسجد ابن عزار وهو موضع ممر الناس سقط من يدي إلى الأرض، ولم ينكس، ولم يتبدد منه شيء، فقلت إليه رأى الناس وجهي فما رأي أحد، وسترني الله ورفعته صحيحاً بلبنه فلما وصلت إليه بادرني وقال لي ما رأي أحد وجهك، فهو رضي الله عنه كاشفاً بالواقع، ومن بركته لم يتبدد ما في الطاس من اللبن بتلك الواقعة فضلاً عن كسره».

وهذه الحكاية مثلها ما روي أن الشيخ أبا يوسف الدهماني قال لميمون، وكان من الأجناد، تاب على يديه بالمهدية: استقي الماء. فملاً قلّة من خارج البلد، وأتى بها على رأسه، فلما دخل رأى أصحابه جلوساً بالأسطوان داخل الباب فخجل، فسقطت القلّة من فوق رأسه إلى الأرض، ولم تنكسر، ولم يتبدد منها نقطة ماء، ورفعها وسار، فلما دخل على الشيخ أبي يوسف قال: يا ميمون، خجلت لما رأيت أصحابك، حتى سقطت القلّة من على رأسك.

وحجّ أبو العباس أحمد الدباغ، وتوفي بالقيروان، ودفن بباب تونس في الربوة التي فيها⁽²⁾ سلف له - رضي الله تعالى عنهم⁽³⁾ - .

365 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن زيد الحجاجي رضي الله عنه⁽³⁾:

قد تقدم أنه قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد الرماح، وقرأ عليه شيخنا أبو محمد الشيباني، بعد قراءته على الرماح. ارتحل لتونس فقرأ بها على الشيخ أبي علي ابن قداح، وكان الشيخ أبو علي هذا قاضي الجماعة بتونس، وكان رقيق القلب، فقدّم في ولايته نحو الخمسين⁽⁴⁾ عدلاً دفعة واحدة توسعة على الناس. وقدم بكل مدينة عدولاً من الأربعة إلى الخمسة أو نحو ذلك؛ فقليل له في ذلك فقال: إذا كان الطالب يأتي إلينا ويترك زوجته إن كان متزوجاً ويرضى⁽⁵⁾ بالغربة والصبر على

(1) سقط من: ط، والكتاب المحقق، الزيادة من: ت.

(2) ت: فيها «من».

(3) إسقاط صيغة الترضي من: ت.

(4) ت: خمسين.

(5) إسقاط الواو من: ت.

القمل، والبرغوث، والبقر، ويخدم بيده من طبخ وغيره، وهو مجتهد في العلم، فإذا لم يقدمه في خطة تليق به من شهادة، أو قضاء، أو نحو ذلك؛ يطلع ولده لصناعة الحدادين، فقدم جماعة من القرويين مع جملة من قدم في المدن منهم الشيخ أبو محمد عبد الله هذا، فقال في نفسه: كثرة الشهود لا يرضى بهم الشيخ أبو عبد الله محمد⁽¹⁾ الهواري، وإذا⁽²⁾ مات ابن قداح يتولى عوضه ابن عبد السلام فيما يظهر، وقد يعزل الجميع. فمشى إليه وقال: يا سيدي - حفظكم الله تعالى - إن الشيخ أبا علي ابن قداح قدَّمَنِي للشهادة بالقيروان، وأنا جئتُ أشاورك، فإن أمرتني بالقبول والمشي لبلدي فعلت وإلا⁽³⁾ لا⁽³⁾ نقبل، فقال له: وأي شيء عل، هذا ولست بقاض⁽⁴⁾ ولا لي نظر، فقال: لا بد من ذلك فلا أمشي إلا بإذنك. فلما رأى منه الحقيقة قال له: افعل.

ومات بعد ذلك ابن قداح وتولى عوضه ابن عبد السلام، فمشى أهل المدن لتهنئته، فلما دخل عليه أبو محمد الحجاجي هذا⁽⁵⁾ مع جماعة القرويين، وسلموا عليه وهنؤوه، التفت إليه وقال له: لِمَ تَعِبْتَ أليس أنك وادعتني لما مشيت؟ وعزل أكثر من قدَّمهُ ابن قداح ولم يعرض له، هكذا عرفني الشيخ أبو عبد الله محمد الشقانسى فكان⁽⁶⁾ الحجاجي شاهداً، ومدرساً، ومُفْتِياً بلسانه، وبخطه⁽⁷⁾.

قال شيخنا البرزلي: وإنما عبّرت بما ذكرته لقول بعض أصحابنا القضاة: إنما كان يفتي بلسانه على ما كنت نسمع، فسألت شيخنا المذكور ثانياً فقال: من⁽⁸⁾ تقدم، ومن⁽⁸⁾ حَفِظَ مُقَدِّمٌ على مَنْ لم⁽⁹⁾ يحفظ، ولا سيما مع كبر سنه وثقته. وكان الحجاجي ربما يجلسُ بعد صلاة العصر عند الحَلَفَا، فقبل له في ذلك، فقال: إذا كنتُ قريباً من الأسواق كل من تنزل به⁽¹⁰⁾ مسألة في صلاته أو صرفه أو نحو ذلك لا ييخل من الوصول إلي يسأل، وهذا من رفقه بخلق الله.

(1) ت: محمد [ابن عبد السلام]. (2) ت: ومهما.

(3) ت: لم.

(4) القاض تكتب بالياء في النسختين، سوف لا أتعرض بالتنبيه إليها كل مرة، وقد سلف أن تركناها كما كُتِبَتْ.

(5) سقط من: ت. (6) ت: فقال.

(7) ت: وخطه.

(8) ط: ما. التصويب من: ت، لأن ما تكون لغير العاقل، ومن تكون للعاقل.

(9) ط: لا. (10) ت: له.

وكان يعمل الميعاد بُكْرَةً في المسجد المعروف بمسجد [الدباغ المتقدم ذكره، وبالعشي]⁽¹⁾ في المسجد المعروف بمسجد الداروني لكونه قريباً من داره.

وتوفي بالقيروان، ودفن بباب تونس في ربوة دون⁽²⁾ مقبرة القابسي كالمناري وكلاهما مزار رحمهما الله تعالى ورضي عنهم آمين⁽³⁾.

366 - ومنهم أبو عبد الرحمن⁽⁴⁾ محمد بن عبد الرحمن القرشي عرف القلال رحمه الله :

قد تقدم أنه قرأ على الشيخ الرماح، وقرأ عليه [شيخنا]⁽⁵⁾ أبو محمد الشيببي⁽⁶⁾ ثم بعد قراءته على [الشيخ]⁽⁷⁾ الرماح، ارتحل لتونس فقرأ بها على الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام.

وكان فقيهاً، حافظاً، مدركاً، مدرساً، عدلاً.

وحدثني الشيخ الفقيه⁽⁸⁾ العدل؛ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الطنقي، وكان ممن قرأ على ابن عبد السلام، قال: تولى أبو عبد الله محمد القلال قضاء تبرسق، وما أخذ منها مرتباً، وذلك أنه وجد خواصها الموحدين⁽⁹⁾ في رأسهم فساد، فيعارضونه في تنفيذه الأحكام الشرعية، فدخلت عليه فوجدته متغيراً⁽¹⁰⁾ فقلت له: ما هذا؟ قال: كتبت لشيخنا ابن عبد السلام وعرفته بأفعال الموحدين. وطلبت منه كتاباً من عند السلطان لتتقوى به عليهم، فبعث لي: عاشرهم ما استطعت، فأنا ما وجدت من يُعِينِي، فأنا أمشي من بلدكم. وخرج بعد.

وتولى بعد قضاء الحامّة وأهلها، برابر وفي رؤوسهم فساد، وقلة أدب، فحكم فيها مدة ثم⁽¹¹⁾ انصرف عنها، واستوطن بلدة القيروان حتى مات.

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) في ت: رحمه الله ونفعنا به.

(4) ت: أبو عبد الله.

(5) زيادة من: ت.

(6) ترجم له برقم 381.

(7) زيادة من: ت.

(8) ط: الفقير التصويب من: ت.

(9) ت: الموحدون. والمراد بها الدولة الموحدية التي أسس إمارتها بالمغرب الأقصى المهدي بن تومرت المتوفى سنة 523هـ.

(10) ت: مغيراً.

(11) ت: و.

وسمعت شيخنا أبا محمد الشيباني يقول: كان الشيخ أبو عبد الله محمد القلال، ربما أنه يشتغل عن نظر دول الميعاد، فيعلمه⁽¹⁾ من غير نظر، ويعتمد فيه على حفظه لابن الحاجب، فإذا خُولِفَ فيما ينقله بجلب كلامه، وكان يفهمه فهماً جيداً، ويتكلم عليه بزيادات واعتراضات.

وكنا نظن أن تأليف ابن عبد السلام عنده، فلما مات لم يوجد في تركته: فعلمنا أنه من حفظه، وحسن ذهنه.

ومسجده معروف. وتوفي بالقيروان، ودفن بباب تونس بقرب قبر الشيخ أبي الحسن القابسي، وقبره معروف عند بعض الخاصة مكتوب⁽²⁾ اسمه [على⁽³⁾ مشهده] رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا وإياكم به.

367 - ومنهم أبو سعيد خلف الله بن إسماعيل الحكيمي رحمه الله:

قرأ على الشيخ الرماح، وكان من الطلبة النبلاء، وعليه تفقه القاضي أبو عبد الله محمد بن فندار⁽⁴⁾ وأخوه شقيقه أبو يوسف يعقوب.

وكان محسوداً لحذقه، وعمل فيه [رسم]⁽⁵⁾ مجرح حسداً. وأتى إلى الشيخ الرماح وقال: قطعوا ظهري، وطلب منه أن يمشي إلى القاضي لئلا يشبه عليه، فوصل للقاضي من فوره، فقال له: فات أمره، وأثبت عليه، فخرج، فوجده على باب الدار أين تركه، فقال: فات الأمر ولكنه لا يسوى⁽⁶⁾ شيئاً، وتنازل الرئاسة، فمشى لتونس، وقرأ بها على الشيخ ابن عبد السلام، وولاه قضاء تبرسق بأثر انصراف الفقيه أبي عبد الله محمد القلال. قال الفقيه أبو يوسف يعقوب المذكور: وجرى له مثل ما جرى للفقيه المذكور ولم يأخذ منها مرتباً. ثم⁽⁷⁾ أدركه الوباء⁽⁸⁾، وتابعوا حتى لم يبق منهم أحد ببركة دعاء الشيخين عليهم.

(1) ت: فيعلمه.

(2) ت، ط: مكتوباً.

(3) ط: عليه، التصويب من: ت.

(4) ترجم له برقم (380).

(5) زيادة من: ت.

(6) الصواب: لا يساوي. وفي النسختين كتبت بالعامية فقد تركناها على أصلها.

(7) ت: و.

(8) في ت أمام كلمة الوباء العبارة التالية: «بها قبل عزله فمات، ودفناه في بلدنا، طنقة بلد مرابطين من عمل تبرسق، وقبره معروف عندنا، ومات الموحدون ودرجاتهم في ذلك الوباء».

ومات في العام الذي مات فيه شيخه الرماح بالوباء المذكور [رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفع به]⁽¹⁾.

368 - ومنهم أبو سعيد خليفة بن حمزة اللواتي رحمه الله :

قد تقدم أنه كان إمام الشيخ العبيدلي في السفر، وكان من خواص أصحابه، وهو الذي جلس في موضعه⁽²⁾ لتعليم العلم على ما بلغني.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد الشقانصي : ولما مات العبيدلي قالوا⁽³⁾ : من يتقدم علينا؟ فاجتمع خواص أصحابه التسعة الذين كانوا يخرجون معه في الليل من باب نافع، وقالوا : نصل⁽⁴⁾ للباب في الليل، فالذي يفتح له الباب ويخرج أصحابه معه، نقدمه علينا ففعلوا ذلك، وتقدم واحد بعد واحد للباب، فلم يفتح⁽⁵⁾ حتى جاءه خليفة المذكور⁽⁶⁾، فانفتح له [الباب]⁽⁷⁾ فأراد⁽⁸⁾ أصحابه الخروج معه، فانطبق الباب دونهم، فعلموا أنه أعلى منهم، وأن المشيخة يتركونها⁽⁹⁾ شوري بينهم. فكانت إذا وقعت بالقيروان مسألة مهمة، يجتمعون بسببها، ويتكلمون كيف يكون العمل فيها.

وليس هو خليفة اللواتي صاحب الهناشر وإنما [هو]⁽¹⁰⁾ غيره متأخر عنه.

وقبره بباب تونس على شفير الماغل الذي لا ماء فيه من جهة الشرق بقرب حوطة الشيخ الحاج أبي العباس أحمد بن مهيب⁽¹¹⁾ وبأزائه قبر، على كل واحد منهما مشهد لطيف لا كتابة فيه عليهما، فقبر خليفة هذا هو قبلي الموضع، والآخر منهما هو قبره، وفي قبة القبرين بكثير قبر عليه لوح لا كتب فيه⁽¹²⁾، وهو قبر الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عون الشيعي.

وكان من تلامذة الشيخ العبيدلي، وحج تسع عشرة حجة، وكان يحج عاماً ويجاور عاماً رحمه الله.

(2) ت : مرضه .

(4) ت : نصلوا .

(6) سقط من : ت .

(8) ط : فأرادوا .

(10) سقط من : ت .

(12) ط : فيها .

(1) سقط من : ت .

(3) ت : قال .

(5) ت : يفتح .

(7) زيادة من : ت .

(9) ت : يتركوها .

(11) ت : نهيب .

369 - ومنهم أبو الحسن علي بن حسن بن عبد الله الشريف يعرف بالعواني :

قرأ على الشيخ الرماح وقرأ بتونس على الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري، وقرأ القراءات السبع على الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد العظيم، بن صالح الهواري الوسلاتي الأصل، التونسي المولد، وعليه تفقه شيخنا أبو محمد الشيباني.

وكان فقيهاً، صالحاً، ناسكاً، سخيّاً، مجتهداً في تعلّم العلم.

وكان يُدرّسُ بالمسجد المعروف بالمسجد المعلق على الحلفاويين، وتولّى العدالة بالقيروان، والقضاء بها والفتيا، والإمامة بالجامع الأعظم، الصلوات الخمس والخطبة.

قال أبو محمد عبد الله الشيباني : وكان يناديني، فأصعد لعلوه، فيأتي بإناء الطعام في يده اليمنى، وإناء الماء في اليسرى.

وبعث ورائي مرة، وأحضر شاهدين معي، ومشى بي إلى الدار المعروفة بدار محمد بن حمص⁽¹⁾، فوهبني إياها، وحزنتها، وكانت داراً معتبرة، فباعها بثمانين ديناراً ذهباً، وانتفع بثمانها.

وبلغني عمن نثق به، أنه أعطاه مرة أخرى اثنين وثلاثين ديناراً⁽²⁾ ذهباً دفعة واحدة وقال: هذه لقطتها لك من وجوه، فأخذها، فهو ومن قرأ عليه حسنة من حسناته، لأنه أعانته على قدر جهده بما ذكر، وعليه تفقه، ودرّس في مرضه في حياته بإذنه، وذلك أن العرب⁽³⁾ في زمانه حكموا في القيروان مدة لضعف السلطنة بتونس، فجاءه الخبر منها، بأنه يخاف عليك من العرب فخرج منها مستخفياً⁽⁴⁾ لربض أولاد بني⁽⁵⁾ رحمة غيث الحكيمي، فوصل إليه زائراً، فوجده في غرفة فسأله عن الميعاد، فأخبره ببطالتهم لفقده، فقال: لا سبيل لذلك، اجلس في موضعي، واقرأ عليك أصحابنا ففعل ذلك، وامتلأ أصحابنا إلى ما أمر به الشيخ، فلما أمن على نفسه مما⁽⁶⁾ ذكر دخل القيروان، ورجع لدرسه كما كان.

(1) ت: حبر. (2) ط: دينار.

(3) المراد بالعرب كما ورد في الكتاب كله، هم أهل البدو. ويسمون: بالأعراب.

(4) ط: مستخف. (5) ت: أبي.

(6) ت: ممن.

وقال لي والدي رحمه الله: جئتُ إلى الشيخ أبي الحسن علي⁽¹⁾ العواني فسألته عن مسألة في شركة الزرع فاشتكلت عليه فقال لي: امشِ إلى الشيخ أبي محمد الشيببي وأثنى علي⁽²⁾. فلما وصلت إليه، تكلم معه في المسألة، فلَمَّا اتفقا على الجواب فيها أفتاني بذلك.

وقال شيخنا الشيببي: كان رحمه الله تعالى يُكثِرُ في درسه الحكايات المقتضية للحال⁽³⁾، [وكنْتَ نتزاهد]⁽⁴⁾ فيها ونقول: إن احتجت إليها أنقلها من الكتب، فلما جلستُ للتدريس، لم أجد أكثرها، فَنَدِمْتُ على عَدَمِ كُتُبِي لها.

وقال بعضُ أصحاب الشيخ أبي الحسن: يا سيدي أريدُ منك قضاء حاجة قال: ما هي؟ قال: إذا اجتمع عندك خواصُّ البلد لأمرٍ ما مِنْ قَائِدٍ وشهود⁽⁵⁾ عدول وأمناء وغيرهم، تأذن لي أن أجوز إليك ونشَقَّ وسطهم ونقول لك في أذنك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] فتقول لي: صدقت، فنقول لك: ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾ [الإخلاص: 2]، فتقول لي: صدقت، وهكذا إلى آخرها؛ فيعتقد الحاضرون أن لي جاهاً عندك، فنعظم في أعينهم، لنقضي بذلك حوائج الناس، وأنت تعلم أني لا آخذ [على ذلك]⁽⁶⁾ ديناراً ولا درهماً. فأجابه إلى ذلك ولم يعلم بذلك أحد إلى أن مات.

وحبَسَ رحمه الله تعالى داراً معتبرة تساوي⁽⁷⁾ في زماننا اليوم مائتي دينار ذهباً لسكنى الفقراء، والطلبة بها ممن يقرأ القرآن والعلم.

وقال أبو عبد الله محمد ابن شبل: دخلت يوماً⁽⁸⁾ زاويته في حياته، فوجدت فيها بعض شيوخ العرب يتحدثون معه، وكلب سلوقي، بارك في وسط الزاوية، فقلت في نفسي: الشيوخ يعملون الزوايا ليصطادوا بها صالحاً، وهذا عملها للكلاب، فلما دخلت عليه بَادَرَنِي بقوله⁽⁹⁾: أخذنا بالكلب حانوتاً للصبيغ يكون حُبساً على الجامع، يريد أنه أخذه من عند العرب الذين معه لكون القبروان كانت لهم فبقي الحانوت إلى الجامع إلى الآن.

(1) ت: به.

(2) ت: فكنت نتزاهد.

(3) ت: بذلك لا.

(4) سقط من: ت.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: للمحل.

(5) سقط من: ت.

(7) ت، ط: تسوى وهي بالعامية.

(9) ت: قال لي.

وأخذت في زمانه القيروان شدة، أَتْبَاعٌ⁽¹⁾ قفيز الشعير بستة⁽²⁾ دنانير ذهباً، فاحتاج الناس إلى الطعام الذي عنده، فاشترى ببعضه دواوين معتبرة من كتب العلم مثل ابن عطية، والفخر ابن الخطيب، ومسلم، والإكمال، والنواوي، والقُرطبي، وابن يونس، واللخمي، والنوادر وغير ذلك مما يطول تعدادها؛ وأوصى بتحبيسها على من ينظر فيها بزاويته المذكورة لعدم وجود من يوقف⁽³⁾ في ذلك، إذ لم يحبس عليها ما يحمل ذلك، واستفتى في إخراجها لطلبة القرويين زمن القراءة، [وترد إلى خزانتها]⁽⁴⁾ بالزاوية بعد فراغ الشتوة، فأفتى الشيخ أبو الحسن أحمد بن حيدرة بإخراجها أخذاً من قول المدونة، فنفذ ذلك وانتفع الناس بها انتفاعاً تاماً إلى زماننا اليوم، وغالب الظن أنها تبقى، أو بعضها إلى يوم القيامة. ومن يعمل خلاف ذلك ويضيع منها كتاباً، أو يهمل في جناب الزاوية، أو⁽⁵⁾ قلة بنائها وما تحتاج إليه من الحصر والزيت، فالله حسيبه وَيَتَوَلَّى الانتقام منه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: 227] لأنه حَبَسَ عليها أرضاً، وَحَانُوتاً، لِأَجْرَائِهَا وما يقوم بها.

وَسَكَّنْتُ في زاويته في حال صغري مع جماعة من أصحابنا الطلبة، فجربوا فيها أن من يعمل ما لا يليق شرعاً مختفياً عن الناس، فإنه يخرج منها على الفور لسبب عمله، فهو يخرج في الظاهر لسبب ظاهر، لا يستحق به الخروج، وفي الحقيقة؛ إنما أصل خروجه ما فعله خَفِيَّةٌ مما لا يجوز ذلك كرامة للشيخ سلام الله عليه.

وكان في زمانه تولى القيروان قَائِدٌ يقال له أبو القاسم بن يغيث، فدخلها وعليه جُبَّةٌ صُوفٍ صِبَاغُ اللَّهِ، وإحرام صُوفٍ يلبسه لام أَلَيْفٍ، لأنه كان من كبار الموحدين وفي يده سُبْحَةٌ، فأظهر فيها العدل، وإذا جاء أحد يتحاكم في درهم أو نحوه، يؤديه من عنده، ويحضر الميعاد، ويزور الصالحين من الأحياء والأموات، ثم لما بقي على هذا مدة من الزمان طلب أن يعمل فيه رسماً بسيرته، فتأبى الشيخ أبو الحسن القاضي⁽⁶⁾ هذا عن ذلك، ثم أَلْحُوا عليه في ذلك، فأذن لهم، فكتب فيه رسماً

(1) كلمة أَتْبَاعٌ: عامية والصواب: بيع.

(2) ط: فسته. (3) ت: يقف.

(4) ت: وتسترد لخزانتها. (5) ت: في.

(6) ت: العواني.

بسيرته، وأطنبوا فيه، وشهد فيه العدول، وبعث به. قال شيخنا⁽¹⁾ الشيببي: ولما مشى الرِّقَاصُ⁽²⁾ به أميالاً يسيرة، أخذ في الظلم، وصار في زيادة، وكثر ظلمه جِدًّا، ولا بقي شيء من ذلك الذي كان يصنع، فأتوا إلى الشيخ أبي الحسن وطلبوا منه أن يعمل فيه⁽³⁾ رسماً بسيرته الآن فقال: كيف يسمع منا هذا الأمس شكرناه، واليوم نذمه. فلما طال أمره، وهو في زيادة في ظلمه، كتب فيه الشيخ لتونس وبسط فعله أولاً وثانياً حتى قال في كتابه:

صَلَّى وَصَامَ لِذَيْنِ كَانَ يَظْلُبُهُ لَمَّا قَضَى الدِّينَ لَا صَلَّى وَلَا صَامَا

ومع هذا فلم يعزل عنهم إلا بعد موت الشيخ أبي الحسن.

وسبب ظلمه وعدم سماع الكتب فيه، أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن تافراجين لما وصل السلطان أبو الحسن إلى⁽³⁾ القيروان عَيَّطُ⁽⁴⁾ عوامها عليه ولما لم يثبت أبو الحسن في إفريقية، وكان ابن تافراجين هو الأصل، وسلطان وقته أبو إسحاق إبراهيم صغير السن، وهو الذي سَلَطَنَهُ، وكان حاكماً عليه، أخذ في أذية أهل القيروان سنين، فبعث هذا القائد لغرض ذلك، وَلَمَّا بعث وصل الرسول الذي بعث بسيرته الحسنة، ورأى شهادتهم فيه، قال: اغتروا، وأنا عرفت ما خرج من يدي لهم، إذ هو عارفٌ بصنعة الظلم.

وسبب عَزْلِهِ عنهم، أن السلطان إبراهيم لما وصل القيروان مع شيخ العرب خالد بن حمزة الليلي هارباً قدام السلطان أبي عنان لكونه وصل قسنطينة عَيَّطُ⁽⁵⁾ الناس على القائد المذكور، فعزله عنهم، ورفعهم معه، وقدم غيره. ولما وصلت الأبروطة في البحر لتونس، خرج ابن تافراجين للمهدية ليتحصن بها، ثم لما رجع أبو عنان من قسنطينة، لم يقدر أن يثبت من بتونس ممن بعث إليهما فرجعا معاً إلى تونس.

وأبو الحسن هذا هو القائل: فيما يصل إلى الثوب من طين المطر، إنه إذا جَفَفَ⁽⁶⁾ أنه يجري في غسله وعدمه قولان من الخلاف في الحِجَامَةِ إذا بَرِئَتْ، ففي

(1) سقط من: ت.

(2) الرقاص: المبعوث.

(3) سقط من: ت.

(4) عَيَّطُ: كلمة عامية تعني نَادَتْ، وَصَاحَتْ.

(5) سقط من: ت.

(6) ت: خفف.

المدونة: أنه يغسل، وفي خارجها قول آخر: أنه لا يغسل ويكفي مسحه أولاً⁽¹⁾.
وقيل: ما ذكره شَيْخُنَا أبو محمد الشيباني، وشيخنا البرزلي. ويرد بأن هناك في
المحل مسحاً قام مقام الغسل، فأشبهه مسح السيف الصقيل وهنا عري عن ذلك.
والله أعلم.

وأشار ابن عبد السلام إلى أنه يتخرج على الخلاف في المضطر لأكل الميتة
هل يقتصر على ما يسد به الرمق⁽²⁾ أو يشبع ويتزود؟ ويرد بأن زوال المانع هنا إنما
يشبهه وجود غير الميتة، والله أعلم. وإنما احتاج ابن عبد السلام إلى ما ذكره لقول
شيخه أبي يحيى أبي بكر ابن جماعة لا نصّ في ذلك، وليس كثوب ذي السلس بعد
برئه لأن البول أشد.

وكلامهم هذا يدل على أنهم لم يقفوا على قول أبي حفص العطار، إنما كان
يعنى عن ماء المطر في الطرق⁽³⁾ مدة ثلاثة أيام من نزوله، أو رواه خلاف المذهب.
وتوفي الشيخ أبو الحسن بالقيروان، بعد أن مرض أياماً [مات]⁽⁴⁾ في سجوده
في صلاة العشاء الآخرة في أواسط شهر ربيع الأول سنة 758 هـ ودفن بزاويته [رحمه
الله تعالى ورضي عنه ونفعنا ببركاته]⁽⁵⁾.

370 - ومنهم أبو مهدي عيسى بن مرزوق الصميلي رحمه الله:

قد تقدم به قرأ على الشيخ الرماح السيرة والتهذيب، وكان أيضاً من خواصّ
الشيخ العبيدلي.

وكذلك استمرّ العمل عندنا بإقراء السيرة في المواعيد؛ فكانت تقرأ على شيخنا
أبي محمد الشيباني، وتلميذه أبي الفضل البرزلي، وكذلك كانت تقرأ عليه في درسه
بتونس. وأما شَيْخُنَا أبو مهدي الغبريني، فكنت لا أرى أحداً يقرأها عليه، فيحتمل
أن يكون⁽⁶⁾ لم يطلبه أحد على قراءتها، ويحتمل أن يكون لقول مالك في ابن
إسحاق مؤلفها: إنه رجل كذوب، ونحن نفينا من المدينة.

(1) سقط من: ت.

(2) ت: رmqه.

(3) سقط من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(5) سقط من: ت.

(6) ت: أمام كلمة يكون: لأنه.

قال الشيخ الشقانسى: كان عيسى الصميلي يجيء ما بين المغرب والعشاء، ويقوم آخر الليل، وَيُصَلِّي من صلاة الظهر إلى العصر، ومشى للمشرق، وجاور بمكة، وجاور إحدى عشرة⁽¹⁾ حَجَّةً، وأشك في زيادة حجة أخرى وبعث لأصحابه بالقيروان وهو يقول: ما زلت نبحث في الآثار والأخبار حتى وجدت أن القيروان رابعة الثلاث: المدينة، ومكة، وبيت المقدس، ثم القيروان.

وخرج السيد العبيدلي مرة بأصحابه إلى المنستير برسم الرباط والمشي على المكامن. فمر ذات يوم بقديد وفيها ماء كثير، وعليها نُورٌ ونبات، فوقف الشيخ عليها كأنها أعجبت، وكأنه أراد الشُّرْبَ منها، وكانت صعبة، فرمى عيسى الصميلي هذا في الغدير نفسه بحوائجه، ورفع الماء بيديه⁽²⁾، وشرب الشيخ. فتعجب المرابطون، فطلع من الغدير، وقد ابتلت حوائجه، فقصد الشيخ مؤانسته، فأخذ يمشي معه، وتأخر بقية أصحابه، فقال له العبيدلي وهو يعصر حوائجه: أتعرف شيئاً من غنى القبائل؟ فقال: لا. فقال له: أنا أعرف: ما فيكم يا قبائل من يفعل فعائل، فأشار له الشيخ إلى أن فعلك هذا، ما يفعله أصحابك يغبطه في ذلك. وتوفي بمكة - رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفع به -.

371 - ومنهم أبو يحيى أبو بكر بن علي بن أبي بكر الفاسي:

قرأ بالقيروان، ثم ارتحل لتونس، وكان عالماً فاضلاً، وتولى العدالة ببلده القيروان وكان يشهد بين الناس بالأجرة، وكان من الشهود الذين قدم الشيخ أبو علي ابن قداح، وأراد قاضي القيروان عزله مع غيره، فسلم بسبب كتبه للشيخ أبي عبد الله محمد [ابن عبد السلام]⁽³⁾ على ما بلغني.

وسمعت شيخنا البرزلي يقول عنه: شاهد القيروان في زماننا، إذا صح له أقل من عشرة دراهم في اليوم لم يأكل من دينه، وإذا صح له أكثر من عشرة دراهم أكل من دينه، ويتردد له النظر إذا صحت له عشرة دراهم.

قلت: والذي أقول به، وشاهدته من نفسي، ومن أصحابنا، أن من لا يتحفظ قد يأكل من دينه، ولو لم يصح في اليوم إلا درهم واحد، ومن يتحفظ يسلم، ولو صح له أكثر من عشرة دراهم في اليوم.

(2) ت: بيده.

(1) ت، ط: عشر.

(3) سقط من: ت.

وحدثني من نثقُ به: أن الشيخ أبا يحيى هذا، تولى قضاء تُوزَر، والمهدية، وصفاقس، وبنزرت، وسوسة مرتين، والجزيرة، وبلدة القيروان، إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة سنة 761 هـ وَصَلَّى عليه من الغد، ودفن بدار الشيخ أبي عمران الفاسي قبالة الداخل من باب الدار تحت الطَّاقَة الْمُقَابِلَة القبلي الموضع بقصد التبرك، وليس هو من ذريته رحمه الله.

372 - ومنهم أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي عرف البربري رحمه الله:

كان رجلاً صالحاً، فاضلاً، سخيّاً⁽¹⁾، مسارعاً لقضاء حوائج الناس عند العرب والقَوَادِ وغيرها؛ واشتهر في زمانه شهرة تامة.

وكان شيخنا أبو محمد الشيبني واقفاً في قضاء حوائج النَّاسِ، ويحقر وقوفه إذا ذُكر أبا الربيع سليمان هذا، ويقول: كان في أيامه ظُلُمُ القَوَادِ أكثر من زماننا، فكان إذا وصلت له قضية المظلوم مشى للقائد بنفسه، ويكلمه فيها، فإن وجده منشرحاً قضاها له، ويتكرر له في بقية النهار في ذلك، فيتماذى على قضاء الحوائج له. وتارة يجده مغضباً فإذا أتاه في القضية⁽²⁾ الأولى يصيح القائد، ويقول: بدأ في هذا اليوم، ويُصعب عليه، فيخرج غير مقضي الحاجة، فترفع له شكية [أخرى]⁽³⁾ ويطلب منه الوصول إليه لقضائها، فيدخل بإطلاق وجهه ويسلم، ويجلس، ثم يتكلم فيها فيقع له منه مثل ما تقدم، فإذا خرج ورفعت له شكية ثالثة يفعل كذلك، ويصد القائد في وجهه. ثم تقع أخرى، فيرجع إليه، فيكثر صياح القائد وَعِيَّاطُهُ؛ وتارة تكون المسائل أكثر، وتارة أقل، فإذا فعل ما تقدم، ذكره يتركه حتى يفرغ من غضبه، فيقول له ما معناه: يا مسكين. أنا لو كنت ما نجىء إلا إليك، لما لم تقض لي الحاجة الأولى ما نرجع لك ثانياً، ولكن قضاء الحوائج ما هو إلا من الله وأنت سبب خاصة، وقضاء الحاجة تخفيف عنك، فأنا لما رددتني أولاً الله ردني، فلا أزال أطلب قضاء الحوائج منه حتى يقبلني⁽⁴⁾، ثم يلقي إليه⁽⁵⁾ بعض ترغيب بما معناه: إذا لم تخرج عن المألوف، تشكر وتطول إقامتك، إلى غير ذلك من الكلام، فيرجع

(1) سقط من: ت.

(2) ت: الليلة.

(3) زيادة من: ت.

(4) ت: يملني.

(5) ت: بين يديه.

ويقبل عليه، ويقضي له تلك الحاجة، فينتقل معه التي قبلها فيقضيها، وهكذا حتى يقضي جميع حوائج ذلك اليوم. وهكذا دأبه رحمه الله تعالى.

ذكر محنته رحمه الله تعالى

كان لما عظم حاله، وكبر جاهه، حسد وعمل فيه وفي صاحبه الشيخ أبي حفص عمر بن بركات الكناني، رسم بالشهادة العادلة بأنهما زكراويا المذهب، خارجان عن اعتقاد أهل السنة، وبُعث به لتونس لقاضي الجماعة بها أبي علي بن عبد الرفيق، فرفعه للخليفة أبي إسحاق إبراهيم، وكان الشيخ أبو محمد عبد الله بن تافراجين بين يديه كأنه هو السلطان فوقف في المسألة، وبعث له ولصاحبه بالوصول.

قال شيخنا ابن شبل: فزار قبور مشيخة القيروان خارج البلد وداخلها، وأكثر من الدعاء عندهم ليفرج الله عنهما ما نزل بهما، ثم خرجت معهما إلى قبور مشيخة الساحل، فلما وصلنا إلى قبر الشيخ أبي إسحاق الجبنياني، وسلمنا ورحمنا. قال الشيخ أبو الربيع: يا سيدي أنا رجل غريب، وردت على القيروان، نطعم الطعام، ونذب عن أهلها وعن وطنها، فحسبنا وعمل في رسم وفي صاحبي هذا بكذا وكذا بالباطل، اللهم يا رب بما قرأ هذا الشيخ وما قرئ عليه فرج عني، واجعل من أمرنا فرجاً ومخرجاً. وكان دُعاؤه وتضرعه بالعلي، وهو يبكي وينتحب، وينصرف عن القبور، ويرجع ويكرر ذلك الكلام، ويقول: يا شيخ ما نقصد غير فعل ذلك مراراً.

فلما انصرفنا من عنده، وقصدنا لجهة القيروان، وإذا بمخبر أخبرنا أن ابن تافراجين وصل إلى المهديّة لِيَتَحَصَّنَ فِيهَا، لأن تونس وصلت إليها أبروطة في البحر من عند صاحب المغرب لما وصل قسنطينة، وهو أبو عنان، فقال: نصل إليه لثلاث يلو منا بعد ذلك إذا بلغه خبرنا، فلما قربنا من باب المهديّة احتوشتنا الخدام لكونه مضطراً للإعلام، فأدخلونا عليه فقال: من أين؟ قال له: أنا سليمان البربري، وهذا عمر الكِنَانِي الذي بعثت لنا بالوصول، فقال: لا يمكنني غير ذلك، فإن قاضي الجماعة أوقفنا على رسم فيكما، كما قد علمتم. فكان من كلام الشيخ سليمان أن قال له: لا تخف من هذا الذي أنت فيه، الذين وصلوا لتونس لا يمكنون فيها

وينصرفون عن قرب، وترجع لتونس في يوم كذا من شهر كذا. فقال له: اعرف ما تقول. قال له⁽¹⁾: نعم، وودعناه، وانصرفنا، ورجعنا إلى القيروان.

ثم مشينا لتونس، ووصلنا لدار القاضي [فقال الشيخ سليمان والشيخ عمر]⁽²⁾: نحن على مذهب أهل السنة والجماعة، فأمر بِثِقَافِهِمَا عَمَلًا بالرسم فمكثا فيه أزيد من شهرين، فغارت خيل على تونس فأخذوا مواشيهم، ومن ذلك بغلة القاضي. فقبل لابن تافراجين، وقد كان رجع لتونس في الوقت الذي ذكره له: لا يرد ما أخذه العرب إلا سليمان البربري، وأبو حفص⁽³⁾ عمر الكناني⁽⁴⁾، فبعث للقاضي⁽⁵⁾ في إطلاقهما، فأطلقهما. فلما وصلا⁽⁶⁾ إلى العرب فرحوا بهما فرحاً شديداً وَتَوَجَّوْهُمُ فيما خرجوا بسببه، وردوا لهم جميع ما أخذوه إلا بغلة القاضي فلم يجداها، فقالا: لا يصدقنا القاضي في أننا لم نجدها. فما زالوا يبحثون عليها حتى وجدوها وخلصوها، وكبر حالهما بتونس، وأنزلهما ابن تافراجين عنده، وأمره إذا خرج يركب⁽⁷⁾ هو وصاحبه معه⁽⁸⁾ ويكون أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله⁽⁹⁾ لِيُعْظَمَا فِي عُيُونِ الْفُقَهَاءِ بِتُونُسَ.

وكان شيخنا الشيببي يُثْنِي عليهما الثناء التام، ومشى يوماً يزور الحاج عطاء الله بن محمد السُّلَمِي فزرتة معه، فجاء⁽¹⁰⁾ طريقه على زاوية الشيخ سليمان⁽¹¹⁾، فخرج لقبره ووقف عليه من الشباك الخارج عن الزاوية ودعا عنده.

وكذلك كان الشيخان؛ أبو عبد الله محمد بن شبل، والشيخ العدل أبو عبد الله محمد [بن أحمد بن أبي⁽¹²⁾ القاسم] الشقانسِي، يثنيان عليهما كثيراً، ويذكران أن ما شهد عليهما به لا أصل له.

وعرّفني من نثق به، أن الشيخ أبا سمير عبيد بن يعيش الغرياني، كان إذا غلبه أمر يأتي إلى قبره بالليل، ويذكر له ما نزل به، وكأنه يحدث من هو حي، فيفرج الله عنه.

(1) سقط من: ت.	(2) ت: وقال الشيخان سليمان وعمر.
(3) ت: أبو علي.	(4) سقط من: ت.
(5) ت: القاضي.	(6) ت: وصل.
(7) ت: أن يركبه.	(8) سقط من: ت.
(9) ت: يساره.	(10) ت: فجاءت.
(11) زيادة: هذا أمام كلمة؛ سليمان.	(12) زيادة من: ت.

وقال شيخنا الفقيه أبو علي منصور، بن محمد، بن منصور المزوغي: زرت قبره يوماً، فوجدتُ على رأس سارية قبره ربيعة⁽¹⁾ ذهب، وَسَعَتْ بها على نفسي. وزرته يوماً آخر، يوم دُخولي بزوجتي، وأنا مهتمٌ في دخولي بلا دينار، ففتح الله علي بدينارين ذهباً.

وزرته يوماً آخر، وانصرفْتُ من عند قبره في يوم مَطَرٍ، وطين شديد، فوجدت ربيعة على دكانة مسجد المعلق.

وزرته يوماً آخر⁽²⁾ وقد كانت ضاعت لي ثمينة في الحانوت الذي نوثق فيه⁽³⁾. وكان يومٌ مَطَرٌ شديد، فأُتيت نتفقد القَطْرَ خوفاً منه على عقود الناس، فلما فتحت الحانوت، وجدت الثمينة بعينها بعد التفتيش الكثير قبل ذلك.

قال: والشيخان من الأكابر، لا شك في فضلهما، فإن أعمالهما كانت خالصة لوجه الله تعالى.

وبنى زاوية بالقيروان من ماله، وَحَبَسَهَا على من يسكنها⁽⁴⁾ من قراء القرآن وطلبة العلم، وهي متسعة منسرحة لا مثل لها بالقيروان.

وانجرَّ ذكر زاويته في مجلس أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز منذ أيام قليلة بحضرة شيخنا أبي يوسف يعقوب الزعبي⁽⁵⁾ قاضي الجماعة، فقال: أنا خدمت فيها في حال صغري حَتَّى أَثَرَتِ القُفَّةُ على⁽⁶⁾ كفي.

وكذلك خدم فيها الشيخ المفتي سيدي أبو القاسم البرُّزلي.

ووصل إليها في حال بنائها قائد القيروان أبو عبد الله محمد الباغي، والبنّاؤون⁽⁷⁾ فيها، فوجد أجرتهم ديناراً ذهباً فدفعه لهم، فلما كان بِالْعِشِيِّ أعطاهم الشيخُ أَجْرَتَهُمْ ديناراً، فقالوا⁽⁸⁾ له: أخذنا من عند القائد، فقال: لا أبني زاويتي إلا من مالي، وما أعطاكم رزق ساقه الله لكم.

(1) ربيعة: صندوق صغير.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: به.

(4) ت: يسكن بها.

(5) انظر ترجمته رقم (374).

(6) ت: في.

(7) ت: والبناات.

(8) ت، ط: فقال.

وقال الفقيه أبو الفضل قاسم ابن المؤدب حسن الكندي: رأيت الشيخ في منامي، وقال لي: قل لولدي محمد: لا يتكلم مع أحد ممن يسكن الزاوية فإنها تصفي لِنَفْسِهَا، قال ولده أبو عبد الله محمد: فعلت على قوله. وإذا بالفقيه الذي كثر كلامنا معه، حتى وصلنا للقاضي رافعاً حوائجهم، فقلت له: ما هذا؟ فقال: نمشي لتونس نقرأ بها، فمشى وأراحنا الله منه وما دخلها بعد.

وهي زاوية مباركة سكنتها أشهراً متعددة.

ومنها خرج الحاج عطاء الله المذكور لزاويته بناها.

وبزاوية الشيخ سليمان اليوم بضعة وثلاثون رجلاً، بعضهم يقرأ القرآن، وبعضهم يقرأ⁽¹⁾ العلم، متجردين⁽²⁾ على بساط الفقر، وحالهم يمشي ببركة الشيخ نفعنا الله به.

وحدثني أبو عمران موسى بن أبي الحسن علي الأنصاري، عرف البقري. عن الأمين الحاج قاسم الصائم قال: ورد علينا رجل، فعلت على ضيافته، وكان الطعام غالياً، فكلَّمْتُ قَائِدَ البلد عثمان المديوني في ذلك، فأعطاني نصف قفيز قمحاً، وعملت منه ضيافته، ومشيت إليه، فوجدته عند أبي الربيع سليمان هذا، وكان من أصحابه فناديته واستحييت، فحلفتُ على الشيخ ما تمشي إلا معي، فساعفني، فقلت في نفسي: طعامُ القائد الغالب، أنه غير مخلص، فإن كان صالحاً فليرجع، فقال لي: أنا مشيتُ على يمينك، وامض بصاحبك، ورجع عني.

وتوفي بالقيروان سنة 766هـ، ودفن بزاويته. وقبره مزار رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

373 - ومنهم أبو محمد عبد الناظر بن سليم الماطوسي رحمه الله تعالى:

كان من تلامذة الشيخ العبدلي، وكان صالحاً، فاضلاً، مجتهداً في عبادة الله، مشغلاً بما يعنيه، يعيش بالفلاحة، وكان قليل الأكل.

حدثني سلامة بن مسلم الراشدي عن أبيه، قال: رأيتُ الشيخ أبا محمد عبد الناظر قليل الأكل، فقلت له في ذلك، فقال: صرت اليوم أكثر من أكل

(1) سقط من: ت.

(2) ت: متجردون.

الطعام، وكنت قبل هذا على خلاف ذلك، لو مِتُّ قبل هذا، لكان أجمل لي.
جاورت اثني عشر عاماً بمدينة النبي ﷺ، وُصِمْتُ رمضانَ على ثلاثين تمرة نأكل
عند الفطر تمرة واحدة، ونشرب عليها شربة ماء.

وحدثني مرزوق بن حسين الهراغي، وكان شريكه في الزرع، قال: بينما هو
معنا في النادر، وإذا برجال وردوا فقالوا: يا سيدي رأيناك فوق الجبل، فأخذ يُموُّه
عليهم، قال: وتحدث أخواه أحمد وحميد بحضرته وهو ساكت، قالوا: سافرنا معه
بجمال نحمل⁽¹⁾ عليها التمر وغيره من بلاد الجريد، فأغارت⁽²⁾ علينا في رجوعنا⁽³⁾
خيل من بني حمد، فقال: بركوا الجمال، وأخذ يشير بقضيب في يده يميناً وشمالاً،
فجعل الخيل يقولون: هنا كانت القافلة ومعهم فارس على حصان أبيض، فأعمى
الله تعالى بصائرهم عنا، وكانت امرأة، عندها كلب اسمه حديد، معنا في القافلة
المذكورة، فقال له: يا حديد بيني وبينك الله، إن تبعني من هذا الموضع نقتلك،
فانصرف، ولم يرجع، فبكت المرأة على كلبها، فقال لها: الساعة يفتح الله لك
بكلبة خير منه وأبرك، فلما كان في العشي. وإذا بكلبة حمراء، فقال لها: يا مرابطة
اقبضها واعمل في رقبتها حبلًا، ففعلت.

وحدثني مرزوق المذكور: وكان عنده وعند أخويه المذكورين غنم في
المهادبة، فغزاهم حجري بنجعهم، فأخذوا الغنم. وكان الشيخ يفتش في المرعى
لها، فأخذوا غنمه مع غنم غيره، فسمع الشيخ، فضرب الطبل، وكان يلبس عمامة
كبيرة، فأتى فأخذها له محمد بن شُوذْب، فكان الخيل الذين أخذوا غنمه، إذا
ساقوها لشور نجعهم وقفت، وإذا ساقوها لشور أهلها مشت، فقالوا للراعي: لمن
هذه الغنم؟ فقال: للشيخ عبد الناظر، فقالوا: هذه الغنم ما تطيب لنا، وانصرفوا
عنها ورجع بها الراعي سالمة.

وأما العمامة فأعطاه ابن شُوذْب لعجوز عملتها في الغرفة، ثم إنها لما نصبت
البيت، وأخذت تجر الغرفة فما قدرت عليها، فنظرت إليها فوجدت فيها تنيراً
فصاحت، فجاءها النجع يركض، فعرفتهم، فنظروا، فوجدوا تنيراً كما قالت، فقال

(1) ت: فحملوا.

(2) ت، ط: فغاروا.

(3) ط: روجوعنا.

الشيخ: هي عمامتي. فقالوا: إن كانت هي عمامتك فخذها. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم وأخذها ولبسها وظهر ما ثم تنير بحال، [ثم]⁽¹⁾ قال: اللهم ابن شوذب أفقره وأطل عمره، فرأيتَه جاوز المائة والعشرين عاماً ولا يجد ما يرحل عليه إلا عارية.

قال: وكنا إذا عرّنا عرمة النادر نحضر [العساس]⁽²⁾ عليها خوفاً من العرب، فيقول: امشوا وبيتوا عند أهليكم، لها صائن يصونها.

وحدثني عبد المولى الجياشي، وكان من تلامذته، قال⁽³⁾: نزلت خيل من العرب في سانيّتي ليرعوا خيلهم فيها، فكلّمته في أن يمشي لهم ولَحَيْثُ⁽⁴⁾ عليه في ذلك، فسار معي، فلما أشرفنا عليهم قال: يا عبد المولى، لو كانت لك قدرة على شيء تعمله فيهم ما تصنع؟ قلت: ما تخلي منهم من يمر، فقال الشيخ: يا رعيان الخيل اغدوا، فمرت كل فرس على رأسها، وتبع كل واحدة صاحبها، وقال: امش لموضعك ما صارت تلحقك منهم مضرة.

وقال سلامة ابن مسلم المذكور عن والده، عمن حدثه قال: مشيت لفاس فلقيني شيخ كبير فقال لي: من أين؟ فقلت له: من القيروان، فقال: أمات الشيخ عبد الناظر؟ قلت: نعم، قال: منذ كم؟ قلت: منذ ثلاث سنين. قال: صدقت كان يصلي العشاء الآخرة عندنا والصبح بمكة.

وتوفي أبو محمد عبد الناظر بالقيروان بعد موت الشيخ أبي الربيع سليمان قبله في العام المذكور، وهو عام ستة وستين وسبعمائة، ودفن بباب تونس بجوار شيخه العبدلي، رأسه عند رجليه بتقديم سير، على رأسه عمود أبيض وقبره مزار رحمه الله تعالى ونفع به.

374 - ومنهم أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزعبي رحمه الله:

كان من سكان بلد العلوين من عمالة القيروان، بينهما ثمانية عشر ميلاً؛ وكان واقفاً في ضيافة كل مَنْ يَرِدُ من ضعيف وقوي ببلده المذكور، وكان صالحاً، ناسكاً، سَخِيّاً. يذُبُّ عن الناس في زروعهم وغيرها، مسموع الكلام عند عرب إفريقية وغيرهم.

(1) ت: و.

(2) زيادة من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) لَحَيْثُ: كلمة عامية بمعنى أَلَحَّثُ.

قال شيخنا أبو عبد الله الشيباني على ما بلغني ممن نثق به وقرأ عليه: حَجَجْتُ معه، فكنْتُ أَتَغَدَّى وَأَتَعَشَى معه حتى وصلت مدينة النبي ﷺ راجعاً، فعملت على المجاورة، ونَوَيْتُ أَنِّي لَا أَرْجِعُ إِلَى الْقَيْرَوَانِ أَبَداً لما شاهدته من تعب شيخنا أبي الحسن علي الشريف عرف العواني في وقوفه وذبه عن الناس، فكلمني القرويون على أن أمشي معهم، فأبيت، فأتى إليَّ يعقوب المذكور وراودني في المشي معه، فأبيت. فقال: تجيء وأنت كاره، ويكون منك عبد الله ويدخل عليك يعقوب ولا تكاد تراه، فجاورت سنة.

ثم بعد أن حَجَجْتُ ضاقت نفسي، وسافرت، وما زلت هكذا حتى وصلت إلى الحامّة، وأردت الإقامة فيها، فلم يتأت لي ذلك، فعملت على المشي إلى القيروان، فلم أجد رفقة إلا للعلوين مع قافلة من أهلها، فمشيت معهم فدخلت معهم⁽¹⁾ للعلوين، فوجدت الشيخ في سقيفة داره، ففرح بي فرحاً شديداً، وقام عني ودخل داره، وأتى بحوائجه التي كانت عليه، ولبس عليه عباءة وقال لي: تقيم عندنا؟ فأقمت عنده⁽²⁾ مدة.

ثم إنني أردت المشي إلى القيروان، فرأيت في المنام فقال لي: أردت أن تمشي إلى القيروان؟ قلت: نعم. قال: على بركة الله، فمشيت من الغد، فلما وصلت قرب الجبانة الغربية من القيروان، ناولني رجل من أهل القافلة ثلاثة دنانير ذهباً ونصف دينار، وسواراً أو سوارين، الشك من الناقل لي ذلك، وقال لي: يقول لك: والله ما تسلفُ ذلك إلا سلفاً ومعهم خمسة عشر، أو أربعة عشر حماراً محملة بالطعام، من ذلك ثلاثة أقفزة قمحاً والباقي شعيراً، وكان الغلاء فدخلت بذهب وحلي، وقمح، وشعير، وكسوة، ووجدت شيخنا أبا الحسن العواني قد مات.

فمشيت لتونس، وقرأت بها على الشيخ أبي عبد الله السكوني، ورجعت إلى القيروان فعملت فيها الميعاد، ودخل علي الشيخ يعقوب الميعاد، فأجلسته بجواري فقال: إن أردت حضوري عندك فلا تفعل هذا فصار يحضر من جملة الناس كما قال: يدخل عليك يعقوب ولا تكاد تراه.

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

وحدثني أبو عبد الله محمد، بن محمد، بن صباح العباسي قال: حدثني عبد الله - بكسر الدال - ابن عبد الله البونشي النجار من سكان بني جرير، قال: بينما أنا أمشي بهنشير ضريسة فوق بلد البطمة، وإذا برجل عليه ثوب، وجبة خضراء وإحرام، وفي كفه مصحف، فمشينا جميعاً وإذا بخيل طلعا من الوادي المسمى بمرق الليل فنظرْتُ لهم، فقال: ما شأنك؟ فقلتُ: هذه خيل! فقال لي: هل معك شيء من الدنيا؟ قلت: قيراط جديد. قال: ارمه، فرميته، فوصلوا فسلبوه، حقي لم يبق إلا مئزر في وسطه، فأرادوا زواله، فقال لهم: الشريعة تمنع هذا، وإذا بهم وقفوا في مكانهم، فقال لي: خذ الحوائج من عندهم حاجة حاجة، فقلت ذلك وهم على حالهم، ثم أتينا على غدير فتوضأنا منها ووجدت القيراط قدامي.

وجاء شوره في غير شوري فقلت له: يا سيدي، تمشي معي لبني جرير نتبرك به، فأبى. فلما أكثرْتُ عليه، قال: نزول حقنة في هذا البئر يشير إلى مكان منخفض من الأرض كان أصله بئراً، فنزل فأبْطَى⁽¹⁾ عليّ، فجئت إلى المكان المشار إليه، فلم أجد أحداً، فوصلت لبني جرير، وعرفت الشيخ صالح الصَّدْفِي⁽²⁾ بذلك، فقال لي: ذلك رجل من أهل فاس جاء يتبرك بالشيخ يعقوب الزعبي بالعلوين.

وحدثني مَنْ نثق به عن الفقيه الحاج أبي عمران موسى الزواغي قال: بينما أنا، والشيخ يعقوب في بلد الضرمين في حال عمارتها، وإذا هو اغترق في الكلام، فصار يقول: شدوا أرواحكم، أجاد وليداتي فَقُلْتُ: ما شأنك؟ قال: مساكين أهل البطمة، فتبين أن في تلك الساعة أغارت⁽³⁾ خيل على أهلها، وأخذوا حيوانهم، وأظردوا معهم، وأشفقوا أنهم يربطونهم، فأعانهم الله وغلبوهم، وفكّوا حيوانهم.

وكانت السنة التي تعرف سنة كبار القفيز، لغلاء الطعام، كان عنده مطمورة تسع ثلاثمائة قفيز، فرفع فقراؤه ما فيها بإذنه، ثم وصل ذباب غربي طرابلس، فطلبوا الطعام، فقال: افتحوا المظمور، قالوا: كنسناها ولا بقي فيها شيء، فقال: حَلُّوْهَا، وصاح عليهم، فحلُّوها، فوجدوها ملآنة، فأعطاهَا لِمَنْ ذُكِرَ باطلاً قاصداً استئلافهم حتى لا يقع منهم غارة على القيروان ووطنها.

(2) ترجم له في (375).

(1) بمعنى: أبطأ.

(3) ت، ط: غارت.

وحدثني مَنْ نَثِقَ به: أن رجلين اجتازا بأرض من هنشير الحلفاويين، وقد شربت من الوادي⁽¹⁾ في زمن خوف العرب، فخاف إن هما حرثاها [يأت مَنْ يمنعهما مما يفتح الله به فيها]⁽²⁾. فقال أحدهما لصاحبه: نعمل⁽³⁾ للشيخ يعقوب الزعبي ثلث ما نصيب فيها رجاء بركته، فحرثاها ولم يلحقهما [في ذلك]⁽⁴⁾ بأس، ولم يعلما الشيخ بذلك. ثم وصلا للزرع بعد ذلك، فوجداه طَيِّباً إلى⁽⁵⁾ غاية، فمشى أحدهما إليه، فنفس أن رآه بادره بقوله له: لعلّ الزرع طيب، قال له: نعم. قال: ونعطيك مَنْ يمنعك من المضرة؟ قال الحاكي: وما كنت رأيت قط.

وقال الفقيه الحاج⁽⁶⁾ أبو عمران موسى المذكور: اجتمعت مع الشيخ صالح الصَّدْفِي والشيخ يعقوب الزعبي في زاويته، فقال يعقوب المذكور: يا سيدي صالح، أين القطب اليوم؟ قال: بإفريقية، قال: في المصورات⁽⁷⁾ أو في القرى؟ [قال: في القرى]⁽⁸⁾. قال: ما دليلك؟ قال: إفريقية طريق شمس، وجراد، وعرب، وبرد، والطعام فيها بعشرين درهماً القفيز. قال: في أي القرى هو؟ قال: تسكت أو نقول أنت هو.

وحدثني الفقيه أبو الحسن علي بن أبي القاسم القرشي الآجوري⁽⁹⁾، [شهر القاسمي: أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن عيسى الآجري]⁽¹⁰⁾ لما سافر للحج ووصل إلى طرابلس قال: السلام عليك يا سيدي يعقوب، خرجنا من عمالتك لعمالة غيرك.

وقاتل⁽¹¹⁾ رجل من بلد العلوين رجلاً رياحياً، فجاء أخو المقتول ووقف على الشيخ يعقوب في مرضه، وقال: ما نقتل في أخي إلا أنت، أو عبد الله بن عبد الكريم من خيار مرابطي البلد، فلاطفه الشيخ حتى انصرف. ثم جاء مرة أخرى ووقع مثل ذلك. ثم جاء مرة أخرى، وَكَرَّرَ الرجل كلامه، فقال له: انصرف يا ولدي ما يؤذّن الظهر حتى يفرج الله، فما أذّن الظهر حتى قتله رجلاً، ضربه أحدهما بحسام والآخر بمزراق عند باب البلد.

(1) ت: بالوادي.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: تعملوا.

(4) سقط من: ت.

(5) زيادة من: ت.

(6) لعل الصواب: المصورات. بالسين.

(7) سقط من: ت.

(8) زيادة من: ت.

(9) سقط من: ت.

(10) سقط من: ت.

(11) ت: وقتل.

وحدثني الشيخ أبو علي حسن يعرف بالبيار، قال: تذكر يوماً الشيخ يعقوب الزعبي أنه يموت ولم يدر مَنْ يقف بمكانه من العلوين، هل الشيخ عامر ابن أخيه محمد، وكان لما⁽¹⁾ كبير مال له، أو غيره؟ فقال: يا عامر ارفع [رفع]⁽²⁾ شاة من غنمك، وكانت نصاباً أو أقل، وربع قفيز قمحاً، وشكوة من لبن، للشيخ صالح الصدفي لتزوره⁽³⁾ معي لبني جرير، فلما وصلا إلى البلد، ودخلا عليه، قال: يا سيدي أتى لك عامر بشاة من غنمه، وربع قفيز قمحاً من قمحه، وبشكوة لبن هديّة، قال: مقبول، ثم قال: يا عامر، أعطيتني شاة، يكون عندك مائة، مائتان، ألف، ألفان، ثلاثة آلاف، فضل الله عميم، وأعطيتني ربع قفيز، يكون عندك قفيز [مائة]⁽⁴⁾ شعيراً، مائتان، ألف، ألفان، ثلاثة آلاف، فضل الله عميم. قال الشيخ يعقوب: فعلمت أنه هو⁽⁵⁾ الذي يخلفني بعدي.

قلت: فكان كما قال، قام مقامه بزيادة، فإن الشيخ يعقوب لم يكن كسبه متّسعاً هكذا، ولكن كانت عنده بركة تامة، فكسب الشيخ عامر مثل ما قال الصّدفي أو أكثر.

وكانت البقر عنده مع ذلك بالميلين⁽⁶⁾، فعرفني من نثق به قال: كنت راعي بقره، فقال: كان عنده من البقر المقاقيز⁽⁷⁾ مائتان. وكان ربما يضيف في اليوم بما قيمته مائة دينار ذهباً فأكثر، ويقدم الطعام على قدر بيتات الناس، فأهل التمر واللبن يخصصهم بذلك، وهكذا.

ولقد حدثني مَنْ نثق به أنه قال: جاوز⁽⁸⁾ على بلده في بكرة النهار، نجع⁽⁹⁾ بني علي، فدخل لزاويته الصغير، والكبير، منهم فأكلوا وانصرفوا، ثم وردت عليه محلة السلطان أبي فارس عبد العزيز بغربها في بقية اليوم، ونزلوا بجواره، وكان اعتدّ لها، فأكلوا وانصرفوا، ما شبهتهم إلا كأنهم وردوا على بحر النيل، فشرّبوا منه وانصرفوا، وذلك كله ببركة الشيخ صالح الصّدفي، واعتقاد الشيخ يعقوب فيه.

(1) سقط من: ت.

(2) زيادة من: ت.

(3) ت: بالمن.

(4) ت: جاز.

(1) ت: لا.

(3) ت: وتزوره.

(5) سقط من: ت.

(7) ت: المكايز (بالكاف).

(9) ت: من بني.

وتوفي الشيخ يعقوب ببلده العلوين، وصلى عليه بالقيروان، ودفن بالجبانة الغربية، وقبره مزار وهو بجوار الشيخ عامر المذكور رحمه الله تعالى ورضي عنه، ونفع به آمين.

375 - ومنهم أبو عفيف صالح بن عبد العالي الصدفي رحمه الله:

كان رحمه الله تعالى تابعاً للكتاب والسنة، وكان والده رحمه الله مؤاخياً للشيخ أبي عبد الله محمد بن يخلق الرباوي وساح أربعة عشر عاماً، وترك ولده صالحاً هذا صغير السن، فأتى إليه سليمان المقرئ، وكان من أصحاب والده، وطلب من والدته أن يمشي به إلى السياحة، فاعتذرت بصغر سنه، فقال لها: أنا رأيت شيئاً لا يسعه عقلك ما نمشي إلا به، فمكته منه.

وحدثني من نثق به عن الشيخ صالح أنه قال: كان يمشي بالليل ويكمن بالنهار، لأجل حرارة الشمس في الصيف، وكانت حركته بإذن يكون قاصداً لمكان ثم ينتقل لآخر، فبينما نحن نمشي فإذا بصيد⁽¹⁾ يَهْدِرُ فَخْفَتُهُ، وبقيت نرعد⁽²⁾ فقال لي: ما شأنك؟ قلت: أنظر ما حلّ بي، فقال لي: امسكه إلي ونذبحه ونشوي لك قلبه، تنقلب الشجاعة التي فيه فيك، فقلت له: لا قدرة لي على هذا، فقال لي: الزم نفسك أيّنا أقوى حالاً أنا أو أنت؟ واستفتح الأذان، فلم أره⁽³⁾.

قلت: إن كان أراد بقوله: ونشوي لك قلبه، أي لتأكله، وهو الأقرب يكون مذهبه أن أكل الصيد المفترس مكروه لا محرّم، وفعل المكروه عند الضرورة جائز ابتداءً، والضرورة هنا كونه انقلاب شجاعته فيه لضرورته للسياسة، والله أعلم.

[ثم]⁽⁴⁾ قال الشيخ صالح بأثر كلامه الأول، والتفت وإذا بشيء من ناحية المشرق كأنها دارة القمر، فسألته عنها، فقال: ما رأيت شيئاً، وذلك يدل على أنك تعرف رجلاً بالساحل على شاطئ البحر، فكان الشيخ أبا حيا⁽⁵⁾ عياش الطلبي رضي الله تعالى عنه.

(1) الصيد الأسد. وقد سبق بيانه. (2) بمعنى: أرعد.

(3) ت: نره. (4) سقط من: ت.

(5) في ط، ت: أبا حيا كما كتبت، ولعل الصواب: أبي يحيى.

ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه

حدثني الحاج عبيد بن محمد بن عمر الحببي، عن شيخه أبي عبد الله محمد الجديدي قال: كان إذا حضر الطعام عند زوجة الشيخ عياش، تقول له زوجته أم ولده عبد العزيز: يا سيدي، اشتهيتُ سيدي صالح الصَّدْفِي يحضرُ لهذا الطعام. فيقوم وينادي: يا صالح، ثلاثاً، فما تملس البازين إلا وهو حاضر، وبين طبلبة بلد الشيخ عياش، وبني جرير بلد صالح الصَّدْفِي مسيرة يومين.

وحدثني مَنْ نَثَقُ به قال: جاء الشيخ صالح الصَّدْفِي إلى الشيخ يعقوب الزعبي فقال له يعقوب: يا سيدي صالح، حداد الرواحي وكيل الشيخ عمر بن حمزة الليلي، قد آذى الشيخ عبد الرحمن بن يحيى الطرخاني. فقال له: وما قدرت له على شيء. قال: لا، فقال له: فأنا أعمل به هكذا، وطعن بيده في الهواء ثلاثاً، فَتَبَيَّنَ أَنْ حَدَّاداً الْمَذْكُورَ، قال في تلك الساعة: طُعِنْتُ فِي بَطْنِي، فما زال يصيحُ: بَطْنِي! بَطْنِي! حتى أصبحَ مَيِّتاً. وكان بروحاء بني جرير، وبينها وبين العلوين كذا، وحدثني الحاج إبراهيم بن ميمون الهواري خديم قصر المنستير قال: مشيت إلى بلد الجريد نأتي بالمال الذي للقصر من غلة أحباس هناك عليه، فلما وصلت للجبانة الغربية بالقيروان في حال رجوعي بالمال أغارت عليّ خيل من صبرة، فجاء⁽¹⁾ طريقي على قبر الشيخ أبي عثمان سعيد بن الحداد، وتماديتُ وبقيتُ نستغيث بالأحياء، والأموات، حتى وصلتُ قبراً، ووصفه، وهو الذي يقول الناس اليوم: إنه قبر الشيخ أبي القاسم بن محرز، وإذا أنا بفارسٍ لِحَقْنِي من قُدَّامٍ، ووضع رمحه على رأسي، وقال لأصحابه: الآن رأيته واقفاً عند هذا الصنيم، يعني عمود القبر، وساروا عني ولم يروني ووصلت سالماً. وكان الخوفُ إلى ربضها، فلما وصلتُ لجامع الزيتونة بربضها، إذا بشيخ جالس مستقبل القبلة تحت المسجد فقال: يا إبراهيم، حَيَّرْتَ الْأَحْيَاءَ، وَالْأَمْوَاتَ، لا الأحياء تجزي ولا الأموات تجزي، أعطني خريفة من دراهمك التي أعطتك المرأة، لا من دراهم الفقراء، وأنت في صف الفقراء حتى تصل لِلْمُنْسْتِيرِ، فَأَعْطَيْتُهُ ذَلِكَ، فلما وصلتُ لِلْمُنْسْتِيرِ سالماً قال لي شيخ الفقراء بالقصر أبو محمد عبد الله الرياحي: أتعرفُ الشَّيْخَ الذي وجدتُ عند جامع

(1) ت: فجاءت.

الزيتونة؟ قلت: لا. قال: ذلك الشيخ صالح الصَّدْفِي، نَجَّاكَ اللَّهُ من تلك الخيل بِبَرَكَتِهِ.

وحدثني الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن زردوم بن غيث الحكيمي قال: ورد علينا الشيخ صالح الصدفي في بلاد القصيبة، فقلت له: يا سيدي، هلكت البهائم، والرجال من السني على الزرع، وأردنا أن تصب المطر ببركتك. فقال: اشترؤا مني ذلك، فقلت: بِكُمْ؟ قال: تذبحون شاة، وتعملونها على قصعة طعام، وتأتوا بها إلى المسجد، وتصب المطر إن شاء الله تعالى قال: وكانت السماء مصحية، فلما [جئنا بالطعام صبّت] ⁽¹⁾ المطر كأفواه القرب: وما سنى أحد بعد ذلك.

وحدثني عمر بن أبي بكر المديوني من أهل بني جرير، قال: نزل الجراد ببني جرير، وعمّ زرع الناس، ومن جملةهم زرعي، أخذ الناس يحصدون زرعهم أخضر، فأتيت إلى الشيخ وعرفته بذلك، وبأني نأخذ ⁽²⁾ الحصادة، ومشيت عنه، فناداني، فرجعت إليه مبادراً. فقال لي: أعزمت على أخذ الحصادة؟ قلت: نعم. قال: امش، فانصرف عنه مبادراً، فلما مشيت خطوات ناداني، فقال لي مثل ما تقدم، ثم لما انصرف عنه، ناداني فأتيت له وأنا أمشي على مهل، فقال لي: نراك تمشي على مهل. فقلت له: إن خاطرك ما طاب على ذلك؟ وما أردت إلا أكله خيفة وأنا محتاج، فقال لي: امش إلى زرعك، وقل له: يا جيش الله، قال لك صالح الصَّدْفِي: إرْحَلْ بإذن الله، فوجدت الحصادة عن يميني، وعن شمالي يحصدون، فاستحييت أن أعلي صوتي، فقلت له ما ذكر لي برطوبة وأنا أنظره في الزرع، فطار الجراد من زرعي وما حصده حتى طاب.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن صباح المتقدم قال: جاءه عبد الله بن عبد الرحيم وكان عدلاً من بني عمه، فقال له: عيينا من خدمة السّانية، وعييت البهائم، فقال له: هات ويبة من طعام تشرب سانيتك، فأناه بنصفها [وكان الشيخ ⁽³⁾ رقوداً في القمر] وإذا بالوادي جاء على غفلة، وجرت العادة لا يأتي إلا إذا ظبّت الأمطارُ

(2) ت: جئت.

(1) سقط من: ت.

(3) زيادة من: ت.

على أَعَالِيهِ، وفزعت الناس تسقي زرعها، فشرب له من سَانِيَتِهِ نصفها، فقال له: لو جبت الوَيْبَةَ بكَمَالِهَا، لشربت السَّانِيَةَ كُلَّهَا. قال: وبينما أنا عنده إذ جاءه رجل. وقال⁽¹⁾: يا سيدي لك عندي نَعْجَةٌ، فقال له: من أين؟ قال: بينما أنا في ثنية وإذا بصيد⁽²⁾ قرب مني صوته، فقلت: يا رب إن سَلَمْتَنِي منه فليسدي صالح نَعْجَةٌ، وإذا بِحَسٍّ رجل بيده عُكَّازٌ يجره على الأرض، وما نرى أحداً. فعلمت أنه حَالٌ بيني وبينه.

وحدَّثني الحاج مبارك بن سالم الهيشوي⁽³⁾، عن الشيخ عبد العزيز بن عياش المذكور، قال: خرج معي من القيروان الشيخ أبو عبد الله محمد الجديدي برسم زيارة الشيخ صالح الصَّدْفِي، وما كنتُ رأيته قَطُّ، فلما وصلنا بني جرير وإذا برجل خرج، فلما رآه أبو عبد الله محمد نزل له، واعتقادي أنه غيره، وبقيت راكباً فأومأ إليّ بيده، ونكس رأسه شيئاً خفيفاً، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فكأنه أشار إلى ما انتهى إليه حاله من توسعة الدنيا عليه، ووقوفه لضيافة الناس، كما تقدم في الشيخ عامر الزعبي، وزيادة أن من وصل إليه، أمِنَ من السلطان ولو كان عليه للمخزن ألف دينار [ذهباً]⁽⁴⁾ وأكثر⁽⁵⁾، حسبما يأتي بعد بأبسط من هذا.

وحدَّثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عزاز⁽⁶⁾ المرادي قال: نزل الجراد ببني جرير، وكانت عندي بحيرة ونزل بها كغيرها، وإذا بالشيخ صالح ماراً فأخذت بطيخة قدر صاع ونصف وقلت له: يا سيدي تقبل هذه مني [بسلامة]⁽⁷⁾ هذه البحيرة؟ قال: نعم، وأخذها ورحل الجراد منها من الفور، وأكل ما عند الناس فبعت البطيخة منها بدرهم.

وقال: وقال لي يوماً أعندك شيء من المسلي قلت: نعم، عندي من الغنم والبقر⁽⁸⁾. فقال لي: امشِ لزوجك وقل لها تعمل بَرَكُوْكَشاً⁽⁹⁾ بالمسلي الغنمي. فعرفتُها، فبادرت لذلك، فأتيته بالعشاء وقلت له: حضر ما طلبت. فقال: الآن وقت

(1) ت: فقال.

(2) بصيد: بأسد.

(3) في ت: الهيشري، بالراء.

(4) زيادة من: ت.

(5) ت: فأكثر.

(6) ت: عزاز.

(7) سقط من: ت.

(8) ت: الغنمي والبقر.

(9) بَرَكُوْكَش: يستعمل من الكسكوس واللبن.

الوضوء، ولكن امشٍ لأحمد الغريب الذي يقرأ القرآن في الكتابِ الفلاني فارفعه يأكله، فقلت له: تمشي أنت وهو؟ قال: لا. فمشيت بالرجل⁽¹⁾، فلما رأى الطعام قال: لا إله إلا الله ما قدر إلا أنني أكون في ميزانك، قلت له: كيف؟ قال لي: ثلاث نوب⁽²⁾ ما أكلت طعاماً، فأكل حتى شبع.

وحدثني أبو عبد الله محمد ابن صبح المذكور قال: قال لي الشيخ: بينما رجلان يمشيان وإذا الصيد⁽³⁾ عرض لهما، فتقدم المتأخر، وتأخر المتقدم، وقال له من تقدم: إن كان أمرت بشيء فافعل وإلا فاذهب بسلام. وإذا رجل من رجله كأنها خف بعير منفوخ، وبقي يدور وَيُكْشِكُسُ⁽⁴⁾ فإذا في خُفه عمود انتفخت رجله منها فأزالا له العمود، وقدحا الزناد، وذوبا الشحم، وعملاه على رحله وانصرف.

قال: ولقيت بعد ذلك أبا الحسن علي المريجزى وكان من السباح، واستوطن بعد ذلك جبل وسلات، وتزوج به. وقال لي: كنت أنا والشيخ صالح الصدفي في سفر، وكنتُ أنا متقدماً⁽⁵⁾، وهو متأخر، وإذا بصيد عرض لنا⁽⁶⁾ فتأخرت أنا وتقدم هو، وذكر القصة بعينها.

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن شبل: صب⁽⁷⁾ المطر عندنا بالقيروان، وكان عندي ثور بالشاوية في إفريقية على مسيرة أيام، فشكوت للشيخ صالح وقلت له: ما عندي بهيمة نحرث عليها، فقال لي: يَمْشِي اللّهُ الْحَالُ [فبعد أيام قلائل]⁽⁸⁾ وإذا بالشاوية قربت من القيروان، وجاب⁽⁹⁾ لي رجل الثور وحرثت عليه وقلت له: كيف جرى لكم؟ قال: خرجنا يوماً بُكرة من التَّرْعَةِ⁽¹⁰⁾، فوجدنا رجلاً ميتاً، فرحلنا⁽¹¹⁾ لثلاث نهم به، حتى وصلنا إلى هاهنا، فبحشنا عن القضية فما وجدنا لها جرة.

(1) ت: للرجل.

(2) النوب. الوجبات وهي وجبة الفطور، والغداء، والعشاء.

(3) ت: بصيد. المراد به الأسد، والصيد بلغة الطرابلس هو الأسد. انظر صفوة من انتشر ترجمة رقم 108 بتحقيقنا.

(4) الصواب: يُكْشِكُسُ. وهي لغة عامية، يُعْنَى بها الغضب.

(5) ت، ط: متقدم. (6) سقط من: ت.

(7) ت: صبت. وهي كلمة عامية بمعنى: أمطرت، وهطلت.

(8) سقط من: ت. (9) جاب: كلمة عامية بمعنى: جاء.

(10) كلمة عامية، المراد به: المنفذ. (11) ت: فجعلنا.

وكان يوماً⁽¹⁾ يمشي مع أصحابه ببني جرير، وإذا هو قال لأصحابه: كَبُرُوا، فَكَبَّرَ، وَكَبُرُوا بعده، حتى كَبُرُوا أربعاً، وَسَلَّمْ وَسَلَّمُوا، فظهر الأمرُ أَنَّ تِلْكَ الساعة صلي فيها على الشيخ أبي الضياء بنور بملول مسيرة نحو يومين.

وحدثني الشيخ أبو الحسن علي⁽²⁾، يعرف بالبيار المتقدم ذكره، وكان من الصالحين. وكان⁽³⁾ مَمَّنْ⁽⁴⁾ يُطْلَبُ منه الدعاء، قال: قال رجل في مجلس الشيخ الصالح: تمنيت من رأى أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب في المنام، فقال له: اشترِ مني رؤيتهما في اليقظة، فاشترى منه ذلك بعشرة دنانير ذهباً. وأظنه قال: وعمل له أجلاً معلوماً، فمشى الرجل وباع غلة جَنَانِهِ بالقيروان شيئاً فشيئاً، حتى جمع صرف العشرة دنانير ثمينات. وأتى إلى الشيخ في وقت القائلة واستأذن عليه فأذن له، فطلع له في غرفته وعدّها له، فلما حصلت⁽⁵⁾ بيده، قال: يا سيدي، هذا الذي علي؟ فقال له: من عَقَبَكَ في الدَّرَجِ⁽⁶⁾، وأنت طالع لي؟ قال: رجلان. قال: هما أبو بكر وعمر، وإذا بالشيخ أبي عبد الله محمد الجديدي طلع له وقال له: أعطني الثمينات، فإني أحوج منك بها على⁽⁷⁾ الفقراء [الذين]⁽⁸⁾ بالزاوية لأنه لا زوجة لك ولا أولاد، قال: نعم ما أخذتها إلا لك وأعطائها له.

وحدثني أبو عبد الله محمد ابن صبح المذكور، من الفقيه أبي القاسم ابن المؤدب حسن الكندي، وكان مُعَبِّراً للرؤيا في زمانه لم يكن بإفريقية مثله فيه.

وعن الفقيه الحاج أبي عمران موسى بن محمد الزواغي، وكان من الصالحين، وحج أربع حَجَجٍ ومات بتروجة. قال: لا معا، كان الشيخ يعقوب بن أبي القاسم الزعبي، إذا رأى الشيخ صالحاً ينزل له عن فرسه ولو عن⁽⁹⁾ بعد، فقل له: هذا حُسْنُ ظن منك به، فقال: وَمَنْ هو مثله؟ تأتي إليه وتحط حملك عليه فما تمشي إلا وأنت رابح.

(1) مستدركة في هامش: ت.

(2) ت: أبو الحسن علي.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: وممن.

(5) ت: تحصلت.

(6) ط: الدروج. والصواب ما أثبتناه من: ت.

(7) ت: إلى.

(8) سقط من: ت.

(9) ت: من.

وقد كان⁽¹⁾ لشيخ مهلهل محمد بن طالب بن مهلهل وأخوه يحيى قصدا أن يأتيا إلي، فاهتممت بِعَدَمِ قُدْرَتِي عَلَى مَا يَكْفِيهِمَا مِنَ الطَّعَامِ لكَثْرَةِ مَنْ يَأْتِي مَعَهُمَا مِنَ الْعَرَبِ، وَإِذَا بِالشَّيْخِ صَالِحٍ [الصَّدْفِي]⁽²⁾ فَقَالَ لِي: نَرَاكَ مَقْبُوضاً، فَعَرَفْتُهُ بِذَلِكَ. فَقَالَ لِي: يَكْفِيكَ اللَّهُ مَوُوتَتُهُمْ، فَكَانَ كَذَلِكَ. فَقَالَ لِي: يَا يَعْقُوبُ، الْخَيْلَ الَّذِي تَرَى عِنْدَ الزَّيْتُونَةِ قِبْلَةَ الْبَلَدِ غَدَاً فَاخْرُجْ لَهُمْ وَتَبَرَّكَ بِهِمْ، فَخَرَجْتُ مِنَ الْغَدِ وَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ، فَتَبَرَّكَتُ بِهِمْ وَانصرفت⁽³⁾.

قلت: وكذلك حدّثني بهذه الحكاية الحاج عبيد المذكور بنحو هذا جاء الشيخ صالح للشيخ يعقوب الزعبي فقال له: تحب أن ترى النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر بالحياة؟ قال: نعم. قال: اشترِ مِنِّي، قال: نعم. فاشترى منه ذلك بدنانير دفعها له، وقال له: إذا كان غداً⁽⁴⁾، تمشي للزيتونة التي قبله البلد، فالثلاثة الذين⁽⁵⁾ [يردون]⁽⁶⁾ عليك [على الخيل]⁽⁷⁾ هم، فأتوا إليه، وتبرك بهم.

قلت: ومثل هذا ما حكاه الشيخ أبو زيد عبد الرحمن الدباغ فيما تقدم حيث⁽⁸⁾ قال: حدّثني الحاج أبو بكر بن سليمان بن القابلة قال: حدّثني أحمد بن أبي سواط، عن أحمد بن فضل الله قال: دخلت يوماً على الشيخ أبي يوسف الدهماني وهو بدار قرب الشيخ أبي عمران الفاسي، فوجدته يقرأ في الكتاب، وإذا بالشيخ⁽⁹⁾ عليه ثياب خضر وهو جالس في القبر، فلما جلستُ رفع الشيخ رأسه وأطبّق الكتاب وقال: يا أحمد، هل رأيت شيئاً؟ قلت: نعم، رأيت الفقيه أبا عمران جالساً، فقال: أَكُتُمُ عَلَيَّ يَا وَلَدِي مَا دُمْتُ حَيًّا.

وسئِلَ الشيخ الفقيه المحدث أبو القاسم بن موسى العبدوسي الفاسي: كيف تحمل هذه الكرامة؟ فأجاب على ما بلغني بأنه: لا مانع من أن يحيي الله أبا عمران بجسده، كما كان في الدنيا، وما أجاب به هو الجواب عما قبله.

(1) ت: كان «ولد».

(2) سقط من: ت.

(3) ت: وانصرف.

(4) في ط، ت: غداً، والصواب: غد، اسم كان.

(5) ت، ط: الذي.

(6) في ط: يريدون، التصويب من: ت، وفيها: يردوا.

(7) زيادة من: ت.

(8) سقط من: ت.

(9) ت: بشيخ.

وقال محمد بن صُبح: كنت مع الشيخ صالح جالساً في المسجد المعروف بمسجد نمصان من بني جرير، والميضاة⁽¹⁾ يخرج منها ماء⁽²⁾ من وضوء الناس، وإذا العصافير⁽³⁾ تتساقط عليه كأنها الثَّبن من كثرتها من العطش، فقال: انظر يا محمد، الله، الله تَمَزَّقَ قلبي من عطش هذا الطير، فما كان إلا شيء يسير. ونحن في المسجد وإذا بمطر كأفواه القرب، حتى إمتلأت كل حُفرة.

وكان الشيخ صالح إذا وعده أحد بشيء يأتي إليه ويقول: هات ما عندك، ويبين له مقداره.

وحدثني الفقيه أبو الحسن علي القرشي شهر القاسمي عن يثق به؛ أن السلطان أحمد لما حرك قسنطينة على إفريقية قال الشيخ صالح للشيخ يعقوب الزعبي: هذا السلطان نتركه يدخل إفريقية أو نرده؟ قال له: النظر نظرك. قال: نتركه يدخلها، ويجعل الله في ذريته بركة، فكان كذلك، وجعل الله في ذريته بركة.

وكان يقول لمن يعرف أنه يدخل عليه مسرة: تعمل لي طعاماً من صفته كذا وكذا، فإذا عمله يأكل منه لقمة، أو لقمتين ويقوم، فقل له في ذلك: كان تأكل أكثر لئلا تقع عليه كسرة فقال: أنا نقدر نأكل السميد، واللحم السمين ما نريد، ولكن أهل داره لهم شهوة في الطعام الذي عمله لي، فندخل عليه مسرة بأكل لقمة أو لقمتين وعلى⁽⁴⁾ أهل الدار بأكلهم⁽⁵⁾ [ذلك]⁽⁶⁾ الطعام.

وتوفي رحمه الله تعالى ببني جرير سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة، وصلي عليه بها، ودفن بالقيروان بجبانة باب سلم وقبره مَزُورٌ رحمه الله ونفع به.

376 - ومنهم أبو محمد عبد الكريم بن إسماعيل الأرنبى:

كان رجلاً صالحاً معتقداً، يزوره الناس بقصد التبرك به والدعاء لهم، ومن جملتهم الشيخ أبو عبد الله محمد الجديدي، وكان كل من يَرِدُ عليه من الفقراء والإخوان يقدم لهم خبزاً شعيراً، تعمله زوجته في التنور، ويجعل الله له فيه بركة.

وعرفني من نَثَقُ به أنه كَانَ يقول: غط التنور، وأدخل يدك، وأخرج.

(1) ت، ط: والميضات.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: بالعصافير.

(4) ت: وعلى «تلك».

(5) ت، ط: يأكلهم.

(6) زيادة من: ت.

واجتمع عنده عشرة مَن يقرأ القرآن كلهم من العرب، وإذا بجماعة من أهل القيروان قالوا: يا سيدي هذا الزرع قرب طيابه⁽¹⁾، وهؤلاء بنو علي نزلوا الطارف، ونخاف أنهم يجوسوا الزرع، فنطلب منك أنك تدعو لنا بانصرافهم [عنا]⁽²⁾ فقال: إذا كان عشرة على قلب واحد، وواحد على قلب آخر مَن يغلب؟ قالوا: العشرة يحبون وصولهم ليجتمعوا بأهاليهم، وينتفعوا من عندهم، فما كان إلا يسير وإذا بنجعهم اجتاز من تحت سور البلد فخرج الطلبة ورأوا أهاليهم وانتفعوا منهم، وانصرف العرب كأنهم جافلون⁽³⁾. وما ذكر أحد أنه أخذت له سنبلة ولا أدى⁽⁴⁾ غفراً، فكان مما علم له ذلك⁽⁵⁾.

وحدثني مَن نثق به قال: زاره جماعة من أهل بني تميم فقال لي: على كل واحد غفر خريربة، وذلك أنكم سرتهم في الليلة الفلانية ونزل بكم خوف وضيق فقلتم: إن فرج الله عنا هذا الخوف فلعبد الكريم ما ذكرته، وقد أزاله الله عنكم، فأعطوه ذلك.

وتوفي رحمه الله تعالى بالقيروان، ودفن بداخلها بقرب سورها القبلي وبمقربة من الجامع الأعظم، وقبره مزار رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفع به.

377 - ومنهم أبو محمد عبد الحميد بن محمد الشيشي رحمه الله:

كان يحضر ميعاد شيخنا أبي محمد الشيببي يُجلسه عن يساره بحواره، بينه وبينه سارية. وكان من الصالحين. ومن أولياء الله المتقين.

وكان سمي⁽⁶⁾ الشرك الأبيض، يريدون بذلك أن الشرك الأبيض يخفى على الطير فلا يراه كالأسود، فغالب الحال حصول الطير فيه، فكذلك الشيخ مهما دار به أحد من الظلمة بحُرْمته، أو تعرُّضه لقضاء حاجة فلم يقضها له إلا انعطف.

وله كرامات متعددة:

منها: أنه جاء يتشفع في إطلاق رجل أخذه قائد البلد في باطل وسجنه، فوجده في باب تونس فكلمه، فأبى أن يطلقه له، فأعاد عليه الكلام، فلم يفعل،

(1) طيابه، كلمة عامية، بمعنى نضجه. (2) زيادة من: ت.

(3) ت، ط: جافلين. (4) ت: ودى.

(5) سقط من: ت. (6) ت: يسمى.

فدار الكلام بينهما حتى قال له القائد: أنا عبد الله ابن الحجر، يشير إلى أن الحجر صلب لا يقاربه⁽¹⁾ أحد، فقال له: والنار تأكل الحجر، فأخذته أكلة بين كتفيه من الفور، فبقي يصيح ويستغيث، وبادر لمداواتها بتونس، فمات بسببها، وهذه الحكاية تنقل عنه نقلاً متواتراً.

ومنها: ما حدثني به إبراهيم بن مفتاح المسراتي عن والده قال: سافرنا مع ولده محمد، عرف بوعبدة، وعندنا جمال نحمل عليها صُوفاً وَخِرْفَاناً، فأغارت علينا خيل بالخرازية على نحو سبعة أميال من القيروان، وهي من بلد المنية أبعد، وكان الشيخ يسكن بالموضعين فأخذوا ما ذكر، فقال لهم: أنا ابن عبد الحميد الشنيشي، فلم يصدقوه وأرادوا⁽²⁾ نزع ما عليه، ومن جملته فرو مسجف. فنادى: يا عبد الحميد يا والدي، وكان حينئذ في القيروان، وإذا به يَرْكُضُ وبيده عُكَّاز، وهو يُعَيِّطُ⁽³⁾ عليهم وقال: كيف استغاث بي ولم تُغيثوه، وبقي كل فرس في موضعه مُصَبِّراً بصاحبه، وكلّ مَنْ أخذ له شيء أخذه بنفسه من عنده. ثم عفا⁽⁴⁾ عنهم وساروا.

ومنها: ما حدثني به والدي⁽⁵⁾ داود، عن مريم بنت عبد المغيث، قالت: كان أبو القاسم والد الشيخ زوجي مشى للحج، فكلّمني الشيخ أن نعمل⁽⁶⁾ له طعاماً يفطر عليه، فطبخت له دجاجة، وفطّرتُ له فطيرات، وقلت⁽⁷⁾ في نفسي: تمنيت أن لو صاب زوجي هذا الطعام، فلما أكلته قال الشيخ: يا مريم أنا ضافني ضيف عزيز، فأعمل هذا الطعام في منديل. فقلت له: كل أنت يا سيدي هذا وأنا أعمل له. قال: لا. ففعلت ما أمرني به، وسهوت عن المنديل، حتى جاء زوجي أبو القاسم ففتحت رحله، وإذا أنا بالمنديل فقلت له: ما هذا؟ قال لي: وصلّني فيه شهوتك، ووالدي هو الذي أوصلني ذلك، ولا تعرفي أحداً.

ومنها: ما حدثني به غير واحد، أنه كان يذكر عنه إذا أتى من بلده المنية برسم صلاة الجمعة في جامع القيروان ربما يغلق الباب عليه قبل وصوله، فيرى في الجامع مع الناس يصلي الجمعة.

(1) ت: لا يقاويه.

(2) ت: فأرادوا.

(3) يُعَيِّطُ: يصيح وينادي، كلمة عامية وقد سبق الإشارة إليها مراراً.

(4) ت، ط: عفى.

(5) ت: ولده.

(6) ط: يعمل، التصويب من: ت.

(7) ت: فقلت.

ومنها: ما حدثني به الأمين قاسم⁽¹⁾، والأمين محمد عرف عاشور اليخضبي، عن والده قال: اشتريتُ تيناً أخضر، وأوصلته للدار، ثم جئتُ إلى الشيخ أبي محمد الشيببي وكلمته في الأكل منه، فأمرني أن ننادي الشيخ عبد الحميد الشنيشي، والشيخ سلام بن محمد الجيفري من الميعاد، فكلمتهما لما قرب خروجهما منه، فلما هبطا من دكانة المسجد قلت في نفسي: ترى من أكبر، هذان الشيخان أو الشيببي؟ وكان عبد الحميد بيده عكاز⁽²⁾ يتكئ عليه من كبر سنه، فقال: يا محمد إذا كان رجل بيده مزيرقة لطيفة، وقابله رجل آخر بيده رمح كبير من هو الذي يغلب؟ قلت: الثاني، قال: أنا وهذا مثل الأول، والشيخ الشيببي مثل الثاني. ثم وصل الشيخ الشيببي، فلما قدمت لهم التين قلت في نفسي: تمنيت أن أكون يوم القيامة رابع الثلاثة، فلما مدّ⁽³⁾ الشيببي يده للأكل، أمسك عبد الحميد يده عليها وقال له: قال صاحب هذا التين: نحب أن نكون رابع الثلاثة، فقال له: خلنا نأكل أنت تتلاهى، قال: ما نم تلاهى، ثم التفت إلي وقال لي: يا محمد إن كان عياء فيك نُسيبك الشيببي فأنا أحملك على عنقي...

ومنها ما حدثني به الحاج مبارك الهيشري قال: خرجنا للصلاة على الشيخ عبد الحميد وهو في النعش، تحدث رجل جيد من أهل المُنستير قال: كانت لي في أهل القيروان محبةٌ لما أسمع عن أهلها، فَوَصَلْتُهَا لبيع كتان، فرأيت تصرف أهل سوق الرهادرية فأطنبت في الذم في أهل القيروان في بلدي. فبينما أنا في اليقظة في داري وإذا الباب يضرب فقلت: مَنْ هذا؟ قال: اخرج. قال⁽⁴⁾: فخرجت، وإذا أنا برجل طويل أبيض عليه جبة بيضاء جربية وعمامة وإحرام صوف وبيده عُكَّاز، فعمله تحت حلقي، وهو ما زال خارج الباب⁽⁵⁾ وقال لي: ما هذا الذي ورطت أهل القيروان الأحياء والأموات، وما سبقتُ إلا رحمة لك، لئلا يأتيك غيري؟ فارتيمتُ على رجليه وقلت: يا سيدي، أنا تائب. وتوسلت له⁽⁶⁾: مَنْ تكون؟ قال: أنا عبد الرحمن الشنيشي، وأنا⁽⁷⁾ ما جئتُك إلا رحمة لك، وما ذكر من الصفة واللباس هي صفته ولباسه.

(1) ت: بن.

(2) سقط من: ت.

(3) ت، ط: مر، والصواب بالدال.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: البلد.

(6) ت: إليه.

(7) سقط من: ت.

ومنها: ما حدثني به أيضاً عن الفقيه أبي الحسن علي ابن مطر الآجري، أنه قال: جئت معه من المنية إلى القيروان وهو راكب على حمار، فنزل وبال وركب الحمار، وما أطل تنشفه، فقلت: لعل الشيخ به سلس⁽¹⁾ فلذلك⁽²⁾ لم يبالغ فيه، فقال لي: بالحفاظ أنا يا فقيه علي.

ومنها: ما حدثني به أيضاً قال: أقسم رجل على الشيخ أبي عبد الله محمد الجديدي لِيُخْبِرَهُ بِالْقُطْبِ فنثر في وجهه، ثم قال له: امش إلى الجامع، وكان يوم الجمعة، فالذي تلقى فيه هو القطب، قال: فبكرت، فوجدت الباب مردوداً، فدخلت فوجدت الشيخ عبد الحميد يمشي في مجنباته، فوصلت إليه وتبركت به.

وجاز عبد الحميد علي حانوت أحمد بن تاجلت بالعطارين وفيه الجديدي، فنزل وسلم عليه وقال: ونعم، يا أبا عبد الله، لكن تفشي السر.

ومنها: ما ذكره لي الأمين أبو الحسن علي الرماح، قال: اجتاز علي من العطارين، وأنا في الحانوت، عبد الحميد [الشنيشي]⁽³⁾ فحقرتة في نفسي وقلت: هذا الذي يعتقد الناس [فيه]⁽³⁾، فانعطف علي وقال: يا أبا الحسن، ما حسن أحد الظن في تبنة إلا انتفع بها.

وتوفي بالقيروان، [ودفن]⁽³⁾ بباب تونس، وقبره مزار، نفع الله به [في الدنيا والآخرة]⁽³⁾.

378 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر الفاسي المذكور:

قرأ على شيخنا الشيبيني⁽⁴⁾ بالقيروان، ثم ارتحل لتونس، فقرأ بها على قاضي الجماعة أبي علي عمر بن عبد الرافع، وعليه اعتماده بها، وقرأ أيضاً على الشيخ أبي القاسم أحمد بن أحمد الغبريني، وكان مُفْتِيّاً بها. وقرأ عليه الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ميمون الهواري يعرف بالمنستير، وولده هو الذي تقدم ذكره، حيث أغارت عليه خيل، والفقيه القاضي [أبو العباس]⁽⁵⁾ أحمد بن إبراهيم التوزاني، والفقيه أبو الحسن علي بن إبراهيم القرشي شهر القاسمي وغيرهم؛ وأول

(1) سلس: قطرات البول التي تخرج رغماً. (2) ت: فلذا.

(3) سقط من: ت. (4) انظر ترجمته برقم 381.

(5) زيادة من: ت.

ما قرأت عليه، وكان عالماً، صالحاً، ورعاً، لا يأكل إلا من ربح ورثه في غالب الحال.

وَتَوَلَّى العدالة بالقيروان، وهو صغير السن، وسببه؛ لما مات والده أبو يحيى خاف الأمين أبو عبد الله محمد بن فندار [أن]⁽¹⁾ يقدمه شيخ تونس عدلاً ببلده، فمشى ودخل على الشيخ أبي العباس بن حيدرة، وكان إذ ذاك قاضي الأنكحة، فقال له: أمات أبو يحيى الفاسي؟ فقال: نعم، وولده محمد إختلّ وصار يمشي حافياً، وكذا وكذا، ولا يصلح لعدالة، فمشى إلى قاضي الجماعة أبي علي عمر⁽²⁾ المذكور، وعرفه بقوله، وارتهن له فيه، فقدمه، هكذا عرفني من ثق به.

والذي سمعت من شيخنا البرزلي: إنما⁽³⁾ مشيه وكلامه إنما هو للشيخ أبي القاسم الغبريني، فبعث لقاضي الجماعة، وهو يقول له: اجبر قلب الفقيه أبي عبد الله محمد الفاسي بتقديمه شاهداً فقدمه، وليس هذا باختلاف، لأن توليته بالباطل، كما مشى لقاضي الأنكحة مشى للمفتي، فكل تكلم بما عرف، وإنما⁽⁴⁾ لم يمش لقاضي الأنكحة، بل لقاضي الجماعة لعلمه أنه لا يسمع كلامه فيه.

ثم تولى قضاء بلده القيروان بعد سنين، فسار فيها سيرة العدل التام. وكانت له صَوْلَةٌ، بحيث إذا وصل أحد بقرب زقاق داره هابه، وما زلتُ نهايه بعد موته بسنين، وكنتُ قرأت عليه عاماً ومات رحمه الله.

وكنتُ أقرأ عليه دولة في الرسالة، وأنقل عليها، ونخرج من عنده بأثر قراءة دولتي، وأنقل على دولة أخرى من الرسالة، وأقرأها على شيخنا أبي محمد الشيباني، لأنه كان يطوّل بالوعظ، وبقراءة الرقائق عليه، ونحفظ شيئاً من تأليف أبي عمر بن الحاجب كل يوم، وكان يتفرس أن أكون شيئاً، فحدثني عمّي أبو سعيد خليفة ابن ناجي أنه كان يقول له: إن بقي ابن أخيك أبو القاسم يقرأ يكون منه مالك الصغير.

وكان بينه وبين الشيخ الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل بن فندار المرادي مباحدة، ولكل واحد منهما أتباع، وسببه أن الفقيه ابن فندار كان

(2) اسم عمر سقط من: ت.

(4) ت: وأبا.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: أن.

قاضياً بالقيروان قبله، ثم تولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد يعرف بالتمام، ثم تولى بعده الفقيه أبو عبد الله محمد⁽¹⁾ الفاسي هذا، ف وقعت نفرة بسبب ذلك.

فحدثني الأمين أبو العباس أحمد بن مالوش قال: كان من جملة أتباع الفقيه ابن فندار عزوز البراق الصائغ، فأتيت أنا وهو بفضة للطبع بطابع الفقهاء، فنظر فضتي وكنت يومئذ صائغاً. وقال⁽²⁾: هذه طيبة، ونظر فضة عزوز المذكور، فقال: هذه غير طيبة، فقال عزوز: بل طيبة، وألح في ذلك. فقال: اجلس وأمر من يحمها، فظهرت أنها غير طيبة، فقلت في نفسي: يضربه ضرباً يكون موته منه، لأنه من خواص فلان، وهذه عشرة بينة، تكون سبباً مع علمي، أنه قوي في الأدب، فأخذ يقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 40 و 41]، ثم أخذ يكرر ذلك، ثم قال له: انصرف، ولا تعد لهذا، ولم يعترض⁽³⁾ لأدبه.

ومشى مرة لتونس في أيام قراءتي⁽⁴⁾ بها فأدركه المبيت في بلد الحَمَّامَات⁽⁵⁾، بلدة لطيفة على شاطئ البحر، وما زال عدو الله⁽⁶⁾ ينزل بها، وبقر بها جبل يمتنع⁽⁷⁾ أهلها به، فنزل عن حصانه، ودخل المسجد، ووجد القاضي والشهود فيه، فعرض عليه الشهود الضيافة فقال لهم القاضي أبو عبد الله محمد بن معطي، وكان مثل والده، تولى قضاء بلاد متعددة: أنا أولى به، فهو ضيفي.

فاتكل العدول عليه، ولم ير القاضي بعد⁽⁸⁾، وبقي حصانه على باب المسجد، وبقي هو بلا عشاء كحصانه، وأهل القيروان ما ألفوا بحراً لبُعدهم عنه⁽⁹⁾، فخاف أن أبروطة من عدو الدين تنزل بالبلد، ويأخذونه أسيراً، فبقي ساهراً الليل كله، وأكثر من قراءة القرآن، وهو خائف ثم⁽¹⁰⁾ سافر من الغد إلى تونس، وبينهما ثمانية وأربعون ميلاً⁽¹¹⁾، فما وصل هو وحصانه إلا على تعب من العياء والجوع. [وقد

(1) سقط من: ت.

(2) ت: فقال.

(3) ت: يتعرض.

(4) ت: قراءته.

(5) مدينة حديثة بناها المسلمون وأحاطوها بأسوار متينة تقع على بُعد خمسين ميلاً من تونس. وصف إفريقيا ص: 83.

(7) ت: يتمنع.

(6) ت: عدو الدين.

(9) ت، ط: عند، والصواب ما أثبتناه.

(8) ت: من بعد.

(11) ميل واحد يساوي = 1506 م.

(10) ت: و.

عزّ⁽¹⁾ عليه فعل القاضي المذكور، فلما دخل على شيخه القاضي أبي علي عمر بن عبد الرفيّع، عرفه بما وقع له، فطلع للسلطان من فوره وقال له: تعلم أن الفقيه أبا يحيى الفاسي مات في خدمتكم، وتولى قضاء بلاد متعددة، ومن جملتها الجزيرة قال: صح. قال: وولده أبو عبد الله محمد من طلبتنا الحذاق، بات في الحمامات إحدى بلاد الجزيرة، وبسط له ما تقدم ذكره وقال له: مثل هذا القاضي الذي هذا فعله لا يتولى على الدماء والفروج، فعزله السلطان، ونزل بعزلته، وبعثها له بسبب فعله، فهذا شؤم الشيخ.

وكنت مع أصحابنا يوماً في الميعاد نقرأ عليه في المسجد المجاور لبئر روضة وإذا بقائد البلد يحيى بن حيون جاء [وهو]⁽²⁾ يصيح يقول: أبو القاسم بن غيث الحكيمي جاءني لباب البلد لنسرح له زيتاً من القائد، فأبيت عليه، فعمل يده في فقال له: اجلس حتى نسمع كلامك فلم يفعل، فخرج وهو يتكلم بما لا يعني، وإذا بالحاج أبو القاسم⁽³⁾ المذكور جاء ووجهه ملطخ بالدماء، وكذلك ثيابه، وقال: يا سيدي حَفِظَكَ اللَّهُ، أنت تعلم أن أولاد غيث، لا يُؤذُونَ قَائِداً في ربضنا، وجئت بقافلة جمال زيتاً، فاختلط لي جمل مع أهل البلد، فوصل إلى الباب فجئت لنخرج به، فأبى، فعرفت القائد، فأبى عليّ، فلاطفته، فبينما أنا أكلمه إذ رفع شيئاً ذكره وضربني به، فأصابني هذا، فخرج وسأل فوجد الأمر كما قال الحاج، فكتب كتاباً للسلطان أبي العباس أحمد وبسط له تلك⁽⁴⁾ القضية كما وقعت، ومشى به الحاج المذكور فجاء بعزلته ورفع مكبولاً، وبقيت البلاد بلا قائد أشهراً عدة، وأجزى القاضي غاية الإجزاء، وكان زمن شدة فكان لا يقدر أحد أن يتعرض لأحد بمكروه، لا ليلاً، ولا نهاراً.

ودخل عليه شيخنا البُرْزُلي، وشيخنا أبو يوسف يعقوب الزعبي للسلام عليه، فلما خرجا⁽⁵⁾ قال لمن حضره: الأول مُفْتِي بلده، والثاني قاضيها، [فكان كذلك]⁽⁶⁾.

(2) سقط من: ت.

(1) في ت: وَعَزَّ.

(3) ت: ابن القاسم، وفي ط: قاسم، والصواب ما أثبتناه بناء على ما تقدم وهو: أبو القاسم ابن غيث الحكيمي.

(5) ت: خرجنا.

(4) سقط من: ت.

(6) زيادة من: ت.

وتوفي رحمه الله تعالى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 777هـ [ودفن يوم الخميس]⁽¹⁾.

وكان اشترى بيتاً لطيفة مجاورة⁽²⁾ لدار الشيخ ابن أبي زيد بعشرة دنانير ذهباً، وأوصى أن يدفن فيها ومن يموت من أقاربه. ثم⁽³⁾ حلّ بابها من جهة مقصورة الشيخ أبي محمد، فجاء قبره قبلة قبر الشيخ أبي محمد، ليس بينه وبينه إلا قبر، وحائط دار الشيخ.

ودُفن بجواره أولاده:

منهم الفقيه أبو العباس أحمد وكان عدلاً ببلده ثم عزل، والفقيه أبو محمد⁽⁴⁾ وكان عدلاً ببلده، وتولى القضاء بسوسة، وكان عدلاً في أحكامه، وما شهد [عليه]⁽⁵⁾ به بعض عدول سوسة ومرابطها أحمد بن محمد بن ميمون الكرفاح لم يثبت عند شيخنا أبي مهدي عيسى الغبريني فلم يعزله عنهم، وعزل الشهود، وكانوا أربعة حتى طال الزمان، وطلب الاستعفاء لنفسه فاستعفى بذلك.

ووليت قضاءها بعده بلية فوجدت كلما كتبوا فيه ما له أصل. والفقيه كان قوي العارضة كوالده، فأخذتهم الحمية، وشهدوا فيه، ولم يشاوروا شيخنا أبا مهدي قاضي الجماعة، وبعثوا بما كتبوا لأمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز فعزلهم.

والشيخ المرابط أحمد بن ميمون [الكرفاح]⁽⁶⁾ المذكور⁽⁷⁾، لا شك في صلاحه، وهو لم يعين⁽⁸⁾ ما شهد به، ولكن الشهود أكثروا من القول فيه عنده⁽⁹⁾. وهو محل شكواهم، فشهد فيه من علمه بذلك.

وبعد انصرافه من سوسة، عرض عليه شيخنا أبو مهدي قضاء قابس، فأبى لوخمها، وأمرني شيخنا أبو مهدي برد ثلاثة من العدول بضرب⁽¹⁰⁾ ولايتي، والرابع كاتب الوثيقة عزله شيخنا؛ أبو مهدي رحمه الله في سقيفته بجرجة⁽¹¹⁾، لما ذكر؛ فما

(2) صَوَابُهُ: لطيفاً مجاوراً.

(4) ت: أبو عبد الله محمد.

(6) زيادة من: ت بناء على ما سبق. وهو ثابت.

(8) ت: يعاين.

(9) ط: عندهم، والصواب «عنده» تبعاً للسياق كما في: ت.

(11) في ط: يحرجه، التصويب من: ت.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: و.

(5) زيادة من: ت.

(7) سقط من: ت.

(10) ت: بقرب.

رجع إلا بعد سنة من بعد ولايتي، ومحاولة منّي فيه، وشهادة الشهود بأنه قد⁽¹⁾ انتقلت حالته، فحينئذ رد⁽²⁾ أمره إلي وأشهدت برجوعه.

379 - ومنهم أبو سعيد خليفة بن ناجي التنوخي هو عمي شقيق والدي:

وكان من الصالحين الخاشعين البكّائين، فكان رقيق القلب، غزير الدمع، كثير الإشفاق، رفيقاً بالناس، مُحسناً إليهم، حفظ القرآن وهو كبير السن، وكان من أصحاب الشيخ موسى بن عيسى المناري⁽³⁾ ومن خواص الشيخ أبي زيد بن يوسف المليلي، شهر العمشاء، ولزم ميعاد شيخنا الشيبني حتى مات. فكان إذا سمع الوعظ يبكي [كثيراً]⁽⁴⁾.

وكان كثيراً⁽⁵⁾ يخرج مع الشيخ أبي عمران المذكور إذا خرج بالنهار ليصلي النافلة بالمسجد المعروف بمسجد علي جهراً.

ولقد صَلَّى معه ليلة من ليالي رمضان بعد صلاة التراويح فاستقبح أبو عمران ببعض خواص أصحابه الصلاة، فقرأ في الركعة الأولى بعد أم القرآن القرآن كله، وقرأ في الركعة الثانية بعد أم القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، فجلس في الركعة الأولى من كان خلفه لطول وقوفه عدى خليفة المذكور.

وقال عمّي أحمد: لما حججت مع الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد اليزليتي قال لي: يا حاج أحمد، ما تعرفون قيمة أخيكم خليفة ابن ناجي إلا في عرصات القيامة.

وقالت لي والدتي: أخذ ليلة من الليالي يقرأ القرآن، وأنت صغير السن، فمرت به آية وعيد، فبكى بُكاءً شديداً وَصَاحَ، فلما طلع النهار قلت له: مثلك يبكي ذلك البكاء، وأنت من الصالحين! فقال لي ما معناه: من وراء النار كيف لا يبكي؟ ولا تعرفي أحداً بما ترى مني حتى نموت.

وقال أبو عبد الله محمد بن زروق التميمي: كنت إذا قرأت عليه القرآن، لا يزال يبكي حتى نفرغ.

(2) ت: أدى.

(4) زيادة من: ت.

(1) سقط من: ت.

(3) انظر ترجمته برقم 363.

(5) ت: ربما.

وَصَلَّى يوماً معنا الصبح خلف الفقيه سعيد الطاعي بمسجد الدَّبَّاع، فلما أن سمعه يقول: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ۞ فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ نَعِيرٌ ۞ [الواقعة: 88، 89] زعق زَغَقَةً كَادَتْ نَفْسُهُ أَنْ تَخْرُجَ، ودهش جميع من كان في الصلاة.

وحفظ عليه القرآن جماعة من أصحابنا، يكتبون أَلْوَاخَهُمْ في المكتب عند غيره، ويقرؤون أحزابهم عليه، وكان لا زوجة له، ومن جملتهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبيد الهبيي، وأبو عبد الله محمد بن زروق المذكور، وأصله من العرب، والفقيه أبو العباس أحمد المحرسي، ومن جملتهم أنا ومن يكون فقيراً منهم يحسن إليه ببعض ماله.

ولما وصلتُ سورة طه، وأنا شاق أمرني أن نبدأ نعرض عليه ما نقرأ فأبيت، وقلت: حتى نصل سورة البقرة كغيري، فأعطاني درهماً وقال لي: إذا حفظت هذه السورة أعطيك درهماً آخر، وبقي إذا فرغت سورتي يعطيني درهماً حتى حفظت سُوراً ترك عني ذلك، فحفظت من ذلك إلى سورة البقرة، ولا علم لمؤدبي بذلك، وهو الشيخ الفقيه أبو محمد عبد السلام يعرف بالصفاقسي، فلما أكملت سورة البقرة أمرني بمعاودتها جرياً على العادة، وإني نصير من الآن نعرض أحزابي عليه فاجتاز عمي رحمه الله فنظر لوحه وكأنه فطن، إذ لم يفعل ذلك فيما مضى، فوجد فيه أول سورة البقرة، فعرف المؤدب بحفظي لما ذكر، فتعجب^(١) المؤدب من ذلك وفرح به، وكتبت في لَوْحِي بعد محوه أول سورة الأنبياء، ولما كثرت أحزابي كنتُ أعرض عليه خمسة أحزاب بعد الغد، أو خمسة أحزاب بعد العشاء إلى أذان العشاء الآخرة في الظلام، فضربني ليلة من الليالي بِكَفِّهِ على إحدى خَدَيَّيْ لَأَنِّي توقفت في كلمة بعد كلمة، ولا نعتقد أنه ضربني غير تلك الليلة، فبقيت أقرأ وأنا أبكي فوقفت والدتي رحمها الله على باب البيت من خارج، وبكت لبكائي، فلما سمع بكاءها أسكتني وقال: يا عائشة أنتِ التي عملتِ له هذا، أخرجتِه معك للزرع فبقي عن أسواره غائباً على أزيد من شهر، وطلبت منك أن لا تفعلِي ذلك فأبيت عليّ وقلت: لا أقدر على فراقه، ولولا هذا ما يخصه شيء، فقالت: يا سيدي وبكائي عليه لوجه

(١) ت: فعجب.

آخر، وهو كونه طفلاً صغيراً، يقرأ في الظلام كل ليلة، ولم تتركني نشعل المصباح فيما مضى. فأمرها بشعله فيما يأتي. هذا الذي سمعته.

وقالت لي والدتي: لما خرج يصلي العشاء الآخرة حينئذ، وخرجت وراءه لأغلق الباب، قال لي: أوصيك بالصبر، فإنه يتغرب عنك غربة طويلة لقراءة العلم بتونس، ويتولى قضاء بلاد متعددة. فكانت تقول لي ذلك مذ كنت صغيراً وأنا أبعد ذلك، لأنّ والدي وجدي وقرابتنا لم يكونوا بهذه⁽¹⁾ الطريقة، فكان كما قال رحمه الله: قرأت بتونس أربعة عشر عاماً، وتغربت عنها في البلاد للقضاء، فوليت قضاء جربة، ثم قابس، ثم سوسة، ثم باجة، وماتت، فكنْتُ لا آتيها إلا زائراً، وإذا انصرفت من بلد حتى أبعث⁽²⁾ لأخرى، ثم بعد موتها قدمت في بلد الأربص ثم تيسّة⁽³⁾ ولا أدري ما وراء ذلك.

وكان كثير الإحسان، وكثير ما يخص بركاته طلبة العلم، لما يعلم من فقرهم وصلاحهم وعدم سؤالهم، كالشيخ ابن قائد، فحدثني من نثق به من أصحابنا⁽⁴⁾: أنه أعطاه يوماً قفيزاً شعيراً، وكان الغلاء، وقال له: أوصله للدار الفلانية، ولا تعرف صاحبها أنه من عندي، وإن لم تجده فلا تعرف أهل داره [أنه من عندي]⁽⁵⁾ وفرغ الطعام وجيب⁽⁶⁾ التليس، ففعلت ذلك وقلت له: تركت بجوارك من هو ضعيف، وتبعث إلى رجل عليه لباس حسن! فقال لي: هو من جملة الفقراء⁽⁷⁾، ولا يملك غير ما رأيت، يتجمل به لحضور الميعاد. وعرفت أنه هو وأهل داره في غاية ما يكون من الفاقة، وهو لا يتسوّل فهو أولى من الذي يتسول.

وأعطاني يوماً ذراهم وأنا صغير السن، وقال لي: إمش للفقير ساسي إمام جامع الزيتونة بالربض، واجذبه بطرف رداءه من خلفه، فإذا التفت إليك فأعطيه ذلك، ثم⁽⁸⁾ اهرب عنه حتى لا يعرفك ففعلت ذلك، وقصد به التخفي في صدقته، وما عرفت ذلك حتى كبرت.

(2) ط: نبعث.

(4) ت: أصحابه.

(6) كلمة عامية، بمعنى إئت.

(8) ت: و.

(1) ت: بأهل هذه.

(3) تيسّة.

(5) سقط من: ت.

(7) ت: حملة القرآن.

ولقيه يوماً عباس بن أحمد الزياتي⁽¹⁾، وكان من خواصّ الشيخ أبي عبد الله محمد الجديدي، وببده نعمة سميّة يوم عرفة، فقال له⁽²⁾: يا أبا سعيد، اشترت ضحيتك وأنت لا زوجة لك ولا أولاد، وأنا صاحب عيال ولا عندي ما نشترى به نعمة، فأعطاه إياها.

وقال الفقيه [أبو محمد عبد الله]⁽³⁾ ابن زروق المذكور: أقللت مرة حتى رهنّت سُبْحَتِي وغيرها، فاجتاز عَلَيَّ أبو سعيد خليفة ابن ناجي، فأشار إلي فجئت إليه، فمشيت معه خطوات، وإذا هو عمل في كَفِّي دَرَاهِمَ كثيرة، ومشى [عني]⁽⁴⁾، فوسعت بها على نفسي وخلصت حوائجي.

وقال لي الشيخ أبو عبد الله محمد ابن قائد: أَعْطَانِي يوماً دَرَاهِمَ وقال لي: هذه زكاة، فخذها لنفسك، وناولني دراهم كثيرة غيرها وقال: فرقها على يَدَيْكَ للفقراء والمساكين، وعرفني من نثق به أَنَّ مِقْدَارَ الدنانير ستة عشر ديناراً ذهباً.

وكان الشيخ صالح أبو زيد بن يوسف المليلي المذكور إذا اجتمع عنده الفقراء يأمره، إذا حضر بأن يدفع من عنده ما يشتري لهم به من السفنج أو غيرها ما يكفيهم لعلمه بطيب نفسه. وقال شيخنا الشيبني: أنا شاهدت ذلك وليس عندي رجل أستدل عليه، ونعلم طيب نفسه هكذا.

وكان أبو زيد هذا مقعداً، يختم القرآن في كُلِّ يوم، وكان من الصالحين، وقبره معلوم خارج حوطة⁽⁵⁾ الشيخ أبي زمعة البلوي صاحب رسول الله ﷺ من غريبه.

وكان أبو سعيد هذا يُحْسِنُ للمرأة الضعيفة التي لا زوج لها بأن يسلفها الدنانير ونحوها، لتشتري به صوف وترد له مثل ذلك من ثمن كسيات ذلك الصوف، ولولا فِعْلُهُ ذلك، لتعذر عليها شراؤه فيحصل له بذلك أجر عظيم، ومن لا يثقُ بها يأخذ منها رَهْناً فيما أعطاهَا.

(2) سقط من: ت.

(4) ت: معي.

(1) ط: الزياتي.

(3) ت: أبو عبد الله محمد.

(5) ت: روضة.

وكان رحمه الله يتفرس في من الصغر أن أكون شيئاً؛ فلم يمت حتى رأى ذلك عن قريب، وذلك أنه لما مات شيخنا الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفاسي المذكور وتولى عوضه قاضياً الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد ابن قليل الهم بادر بنفس وصوله إلى القيروان أن عمل الميعاد فيها بكرة، فحضره معظم أصحابنا ثم ينصرفون إذا فرغوا لمواعيدهم فحضرته، فكان أول يوم حضوري لم أجد موضعاً أجلس فيه من كثرتهم، فجلست خلفهم فتكلمت كثيراً ثم سألت بعض الطلبة الحاضرين عن إمام أحدث وهو راع فرفع رأسه⁽¹⁾ ليستخلف لهم بعد رفعه، فاقتدوا به في ذلك الرفع، ثم استخلف لهم، فلم يحضر القاضي ولا جميعهم جواباً.

فقلت: في بطلانها قولان قال ابن الحاجب⁽²⁾: فإن رفعوا مقتدين لم تبطل على الأصح كالرافع قبل إمامه غلطاً، فقالوا: ما قبل⁽³⁾ هذا فلعلها ليست المسألة؟ فجلبت لهم ذلك ناجزاً، وكان عمي رحمه الله تعالى حاضراً لذلك. [وكننت]⁽⁴⁾ إذ ذاك ابن خمسة عشر سنة⁽⁵⁾، ولي في الميعاد سنة وزيادة أشهر، وكنت حفظت في ذلك جملة من ابن الحاجب، حتى جرت الضحايا، فلما خرجت من الميعاد ناداني عمي، فدخلت معه داره، وكانت مجاورة للمسجد الذي فيه الميعاد المذكور، وهو مسجد الدباغ، فقبل رأسي وقال: ثبت عندي قول القاضي أبي عبد الله محمد الفاسي: فإن⁽⁶⁾ عاش ابن أخيك سيكون منه مالك الصغير.

وقال عامر بن أبي عامر البياتي: كانت عندي غنم، ولم تكن داري حصينة، فعملت على بعض فلل زرباً خوفاً من الشراق، وكنت أعس عليها بالليل، وكنت مجاوراً للشيخ خليفة ابن ناجي، فبينما أنا نائم إذ أحسست⁽⁷⁾ بشيء نزل فوق السطح، فاستيقظت ورفعت رأسي وإذا بطيرين⁽⁸⁾ شبه بلا رجلين، فطيرتهما، واعتقدت بأنهما⁽⁹⁾ أتيا برسم أخذ الزرب لعشهما ونمت. فرجعا مرة أخرى كما تقدم. ثم [في]⁽¹⁰⁾ الثالثة قالوا لي: ما نحن بطيور، إنما نحن أناس أتينا من أرض

-
- (1) ت: «ونيته» أمام كلمة رأسه. (2) ت: ابن ناجي.
 (3) ت: قال. (4) سقط من: ت.
 (5) ت: عاماً. (6) ت: إن.
 (7) ط: إذا أحسست، وفي ت: حَسَسْتُ. (8) الصواب بطائرين.
 (9) ت: أنهما. (10) سقط من: ت.

بعيدة برسم الصلاة مع خليفة ابن ناجي، وغالب ظني إنما قالوا له [ذلك]⁽¹⁾ وهو نائم، فأتى⁽²⁾ من الغد وعرفه كما عرف الناس، وأخذ يَتَمَرَّغُ على رِجْلَيْهِ، فأخذ يموه عليه⁽³⁾.

وأخذ أبو سعيد المذكور في بناء المسجد المعروف من يومئذ إلى الآن بمسجد أولاد ناجي، فسمى به وبإخوته إذ كان والدي رحمه الله تعالى الباني⁽⁴⁾ المعلم بلا أجرة، وكان عمي خليفة يدفع إجارة الأجراء⁽⁵⁾ وما يحتاج إليه البناء من ماله، ومال أخيه سالم، إذ كُنَّا مُتَفَاوِضِينَ؛ وأعان فيه أيضاً عامر المذكور بشيء يسير كطعام الأجراء، وأوصى بِثُلْثِ ماله على يد أخيه سالم، فعمله أو بعضه في الدار الشرقية المفتحة برابعة قبلية غير نافذة بصدرها، تُعْرَفُ بدار القُبَّة لبعض العوانيين تجاه المسجد المعروف بمسجد الدباغ، وهي الأولى على يسار الداخل عليها وحبسها على الميضاة الملاصقة للمسجد المعروف بمسجد ابن طرخانة، يعنون به يعقوب ابن خليفة الدهماني وإنما خصها بتلك الميضاة لأنها مقصودة لكثرة من يتوضأ به من زاوية الشيخ الجديد وغيرها.

وتوفي رحمه الله بالقيروان، وَصَلَّى عليه شَيْخُنَا الشَّيْبِي وحضر دفنه. وَدُفِنَ بجبانة باب تونس قرب الماغل، وعليه عمود لطيف أبيض.

ورأيت في منامي بعد موته بسنين الفقيه المُقَرِّىء أبا الحسن علي ابن خليفة التوازي ويعرف⁽⁶⁾ بصكوع بعد موته، وكان يقرأ القرآن بلسان عال في جامع الزيتونة من تونس، فقلت له: أمات عمي سالم على الإسلام؟ فقال: نعم، قلت: وَعَمِّي خليفة؟ فقال: هو عندنا [مزار]⁽⁷⁾ [رَحِمَهُ اللهُ تعالى ونفع به آمين]⁽⁸⁾.

380 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الجليل بن فندار المرادي رحمه الله:

قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد الرماح ابن الجلاب وهو صغير السن. وارتحل لتونس، وقرأ بها على ابن عبد السلام، ثم رجع إلى القيروان، وكان يعملُ

(1) زيادة من: ت.

(2) ت: فأتى «لَهُ».

(3) ت: عنده.

(4) ط: الباني.

(5) زيادة «غيره» أمام كلمة الأجراء في: ت. (6) إسقاط الواو من: ت.

(7) زيادة من: ت.

(8) سقط من: ت.

الميعاد بمسجد ابن عبد الجليل الأزدي⁽¹⁾ إلا يوم الجمعة، فيعمله بالمسجد المعروف بمسجد الكتاني لا تساعه.

وقرأ عليه أبو عبد الله محمد الجديدي⁽²⁾، وأبو عبد الله محمد البزيتي، وأبو علي منصور بن محمد بن منصور المزوغي، وأبو العباس أحمد النحالي، وأبو حفص عمر بن إبراهيم الدهماني، وأبو القاسم بن محمد، يعرف بابن نعيمة، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن يعقوب الضاعني، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن هلال القمودي يعرف بدينار، وغيرهم.

وكان لا يحفظ إلا اليسير من القرآن، ولم يكن عنده علم بالعربية إلا لسانه يساعده، وإذا أشكل عليه حَرَفٌ جَزَمَهُ بظرافة، بحيث لا يقع عليه عتب، وكان لا يقرئ التفسير، وقرئ البخاري مع دول التهذيب وغيرها.

وكان أعرف الناس بمذهب مالك، ليس فوقه أحد⁽³⁾ بإفريقية إلا مفتي تونس خاصة في علمي.

وقال لي الفقيه أبو إسحاق القناتي، وكان عارفاً: مشيت إلى بلاد الجريد فكل ما⁽⁴⁾ سألوني عنه أجبتهم فيه، إلا مسألة واحدة توقفت فيها إذ لم يحضرني فيها جواب، وهي: رجل قال لزوجته: أقالك الله، فلما قدمت القيروان لم أصل إلى أهلي حتى وصلت شيخنا أبا محمد عبد الله الشيبني فسألته عنها، فقال: كان بعض أشياخي يحكي فيها خلافاً، ولكن امش إلى الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن فندار واسأله عنها، وما يعرفك⁽⁵⁾ به تعرفني، قال: فدخلت عليه وسألته عنها، فقال: هذه مسألة اختلفوا فيها، فقل يلزمه طلبة واحدة، قاله ابن عبد الحكم، وأخذ كتاباً من بين يديه وورقه، وقرأ المسألة كما قال، وكأنه كان ينظر فيها، وقيل: فأتيت إلى شيخنا المذكور، وعرفته بذلك، فشكره على ذلك.

قلت: وتولى [رحمه الله]⁽⁶⁾ قضاء بلده القيروان، وكان [من الذي]⁽⁷⁾ ولاه الفقيه أبو عبد الله محمد بن خلف الله لما ولي قضاء الجماعة بتونس، وكان يخرج

(1) ترجم له برقم 329.

(2) ترجم له برقم (382).

(3) ت: أحفظ.

(4) ط: فكلما.

(5) ت: يعلمك.

(6) زيادة من: ت.

(7) سقط من: ت.

بِالْمَحَلَّةِ لِبِلَادِ الْجَرِيدِ بِلَادِهِ، لضعف السَّلْطَنَةِ. فكان عندهم ليس بِعَدْلٍ، فأخذ شيوخُ تُونُسَ على قَبُولِ الْفَقِيهِ ابْنِ فَنْدَارِ الْقَضَاءِ لِمَا وَلَّاهُ فَبَغْضَوْهُ. فلما عزل أَعْرَضُوا عَنْهُ، وكانوا يسمعون كلامَ الْغَيْرِ فِيهِ، ولم يقدم في غيرها.

وكان صاحبه أبو بكر الضاعني يقول للسلطان أبي العباس أحمد: الْفَقِيهِ ابْنُ فَنْدَارِ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا. وأهل تُونُسَ حَسَدُوهُ، فَاجْتَاَزَ السُّلْطَانُ بِمَحَلَّتِهِ عَلَى الْقَيْرَوَانِ قَاصِداً بِلَادَ الْجَرِيدِ لِأَنَّهُ كَانَ مُنَافِقاً عَلَيْهِ فَنَزَلَ قِبْلَتَهَا، فخرج أولاد الشيخ أبي يوسف الدهماني وحدهم، وأولاد الشيخ غيث الحكيمي كذلك، والقديديون كذلك، وهكذا. ولم يرضوا أن يخرجوا مع شيخنا أبي محمد الشيببي، فخرج وحده مع رجلين من أصحابه، طالباً للخمول، ولحقته أنا وبعض أصحابنا، فوجدناه لم يأذن بالدخول لأحد، فلما جلس الشيخ في خباء وإذا بقائل يقول: يدخل⁽¹⁾ سيدي أبو محمد الشيببي وحده، فدخل، ثم دخل الناس بعده، فتبين أن السُّلْطَانَ بِهِ بَعْضُ مَرَضٍ، وَكَانَ يَعْتَقِدُهُ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَرْقِيَهُ، فَرَقَاهُ قَبْلَ دُخُولِ النَّاسِ. ودخلت مع جملة الناس في آخرهم لصغر سني مع كثرة الخواص، فجعل الشيخ يعرف بالناس. فمن جملة قوله: هذا الْفَقِيهِ ابْنُ فَنْدَارِ فَقِيهِ بِلَدِهَا⁽²⁾ وعالمها وكذا وكذا، فلما أخذ السلطان قفصة⁽³⁾ عزل قاضيها، وبعث الظهير بقضائها لأبي عبد الله محمد بن فندار، ولم يشاور شيوخ تُونُسَ، وعمل على كلام شيخنا الشيببي، إذ هو كالمُفْتِي مع كَمَالِ شُهْرَتِهِ فِي الصَّلَاحِ، ومع سبْقِيَةِ كَلَامِ أَبِي بَكْرٍ الْمَذْكُورِ.

وبقي في قفصة مدة، ولم يمش لها بزوجة، ولم يتزوج بها، فأتى زائراً لبَلَدِهِ، وهو مريض، ومات بقرب وصوله قبل انصداع فجر ليلة الاثنين الموفي ثلاثين لمحررم سنة 702⁽⁴⁾. ولما حضرت الصلاة عليه قال الشيخ الْفَقِيهِ الْخَطِيبُ الْعَدْلُ أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرِو الدَّهْمَانِيِّ لَشَيْخِنَا الشَّيْبِيِّ: صَلِّ عَلَيْهِ، قَالَ لَهُ: صَلِّ أَنْتَ عَلَيْهِ، فَأَنْتَ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، فَكَانَ هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَدَفَنَ بِدَارِهِ دَاخِلَ الْقَيْرَوَانِ.

(1) سقط من: ت. (2) ت: بلدنا.

(3) قَفْصَةٌ: مدينة تونسية قديمة، فتحها المسلمون على يد عقبة بن نافع كانت تحت وطأة الرومان. للمزيد انظر وصف إفريقيا 2/ 143، المسالك والممالك للبكري 223/2 - 224.

(4) ت: 782.

381 - ومنهم أبو محمد عبد الله (بكسر الدال) ابن محمد بن يوسف البلوي الشيببي:

كان⁽¹⁾ قد تقدم أنه قرأ على الشيخ أبي الحسن علي الشريف، عرف العواني، وكان اعتماده عليه⁽²⁾، وقرأ أيضاً على أبي عمران موسى المناري، وأبي محمد عبد الله الحجابي، وأبي عبد الله محمد القلال، وارتحل لتونس، فقرأ بها زمناً يسيراً على الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد السكوني.

وقرأ عليه خلق كثير وانتفعوا به، كشيخنا البرزلي، وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الفاسي، وأبي يوسف يعقوب الزعبي، وأبي العباس أحمد بن عفيف القمودي، وأبي حفص عمر بن إبراهيم المسراتي، وأبي العباس أحمد الترهوني، وأبي محمد بن عبد الله بن علي الشريف، عرف التكوذي، وأبي عبد الله محمد بن محمد بن مسعود الكنائسي، وأبي عبد الله محمد بن علي القيسي الرماح، وأبي العباس أحمد بن محمد بن يونس الغساني، يعرف بابن قطانية، وأبي العباس أحمد بن موسى المناري، وغيرهم؛ وكل من قرأ عليه وحضر ميعاده من العامة، يجد عنه زيادة ببركته مع ما يرجو في الآخرة.

فحدثني الشيخ العدل الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن يوسف الترهوني المتقدم ذكره، قال: حدثني من يوثق به أنه رُئي في منامه كأن قائلاً يقول له: «كُلْ مَنْ قَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ الشَّيْبِيِّ فَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وقال شيخنا البرزلي: ما رأيت بإفريقية ولا بالمشرق [مثله]⁽³⁾.

وكان سافر للحج في حياة شيخه العواني وجاور بالمدينة سنة، وعمل على الإقامة هناك. وهرب من القيروان لما يقال: الواقف فيها لقضاء حوائج الناس من التعب، فكلّمه الشيخ يعقوب الزعبي في المشي معه للقيروان، فأبى، فألح عليه، وهو يتمادى على الهروب، فقال: تجيء وأنت كاره، ويكون منك عبد الله، فكان كذلك حسبما تقدم بسطه، فهو حجّ حجتين.

(1) سقط من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) زيادة من: ت.

ولما وصل لبلده، وجد شَيْخَهُ العواني قد مات، وجلس للتدريس أبو الحسن علي بن حسن الريابي، يعرف بابن أبي قيراط، في مسجد الحضريين، فحضرت عنده يومئذ، فعظماني، فاستحييت من حضوري عنده. فمشيت لتونس فقرأت بها على من تقدم [ذكره]⁽¹⁾.

قلت: والشيخ أبو الحسن هذا كان فقيهاً، حَازِقاً، ثقة، كنتُ أقرأ عليه ابن الحاجب في توابع الأَنْكِحَةِ فَيُفَسِّرُ لي تَفْسِيراً حَسَناً، لا يغلط في شيء من غير أن لا يطالع شرحه بحال، ولم يكن عنده.

وأما شيخنا أبو محمد الشيببي فكان عالماً، عاملاً، ورعاً، واعظاً، فصيحاً، ثبَتاً، ثقة⁽²⁾، سخيّاً، على قدر حاله، له قَبُولٌ حسن، ووجه حسن. لا يمشي في سوق ولا غيره، وإنما هو من مسجده لداره، إلا لأمر مُهِمٍّ، كزيارة مَنْ يمرض من أصحابه، أو صلاة على جنازة استئذن عليها، أو لصلاة الجمعة.

فكان من يلقاه في غالب الحال يبوس⁽³⁾ يده، ويتبرك به، ويقبل هو رأسه ويسأله عن حاله وحال والده، فكان محبوباً في الناس.

ودرس العلم فيما ذكر لي بعض أصحابنا نحو خمسة وثلاثين عاماً، وقرأت عليه نحو ربع رسالة أبي محمد بن أبي زيد، وجملة من ابن الْحَاجِبِ مقدار ما قرأت في شَتَوَتِي⁽⁴⁾، وبعض أخرى⁽⁵⁾.

ومات رحمه الله تعالى.

قال شيخنا البُرْزُلِي: كان يجلس في أيام قراءتنا عليه في مسجد المعلق من قرب طلوع الشمس إلى أذان الظهر، نقرأ عليه في الزمن المذكور عشرين دولة.

قلت: وصفة مِيعَادِهِ في زماننا أَنَّ الشَّيْخَ كَانَ يُصَلِّي الصُّبْحَ في مسجد دار الشيخ ابن أبي زيد. وينوب عنه في مسجده في هذا الوقت تلميذه الفقيه أبو عبد الله محمد الظريسي⁽⁶⁾، ويكر بذلك، فإذا صَلَّى أتى جماعة من أصحابنا المجتهدين في تلاوة

(1) سقط من: ت. (2) سقط من: ت.

(3) يَبُوسُ: كلمة عامية بمعنى يُقْبَلُ. (4) المراد به فصل الشتاء.

(5) كلمة غير تامة لعله يريد بها «مصادر أخرى».

(6) ت: الضريس.

القرآن، فيقرؤون نحو أربعة أحزاب أو خمسة أحزاب⁽¹⁾، فإذا جاء الشيخ سكتوا، وقد امتلأ المسجد حينئذ بالعامّة. فيقرأ عليه عشر من القرآن، فينقل عليه كلام ابن عطية، وغيره كالثعالبي، ويتكلّم عليه بالوعظ بما يليق بالمحل، ويجلب لذلك ما يليق من حكايات الصالحين. ويطول الكلام جدّاً وهو لا ينظر إلا أمامه، ويقرأ عليه [دولة]⁽²⁾ في مسلم، وربما يعظّ عليه⁽³⁾ أيضاً، ودولة في سيرة ابن إسحاق⁽⁴⁾ ودولتان في الرقائق، وربما يزيد ثالثة، وعند فراغ هذا يحضر الطلبة المبتدئون، أصحاب الرسالة، والجلّاب، وابن الحاجب، فيقرؤون متصلاً بما ذكر، وكانوا نحو الخمسة عشر، ودولة⁽⁵⁾ ابن الحاجب كانت دولتي وأنقل عليها تأليف ابن عبد السلام، فغالب الحال إذا كنت أقرأها يؤذن الظهر ونخرج حينئذ مع من ذكر. وعند شروعي في دولتي يحضر الطلبة الكبار نحو العشرة فيقرؤون دول⁽⁶⁾ التهذيب، فيفرغون منها عند صلاة الظهر، فيخرج الشيخ ونخرج، فينال شيئاً من الطعام، ثم يُفتي بخطه فيما يُعطاه وهو في الميعاد، ويتوضأ ويصلي بالناس في مسجده الظهر قرب أذان العصر، ويجلس لمن يجود عليه من طلبة المدينة إلى أذان المغرب، فإذا صَلَّى المغرب، جلس لتجويد الغرباء الذين في الزوايا، كزوايا الشيخ ابن عبد الله محمد الجديدي، فيجودون⁽⁷⁾ عليه إلى صلاة العشاء الآخرة، ويتأخّر بالصلاة فيها، ويخرج حينئذ للدار، ويمشي قدامه الشيخ أبو سعيد مخلوف اللوكاتي بفنار فيه مصباح، ليرى أين يمشي. وكل سؤال يأتيه من بعد صلاة الظهر، يفتي فيه بالليل مع نظره دول الميعاد، ويناوله بكرة.

وكانت الفتوى سهلة عليه وموفقاً⁽⁸⁾ فيها على البديهة، ومن ذلك أنه سُئل: هل يجوز أن يؤمّ الناس من يأخذ المال من الظلمة قراضاً أم لا؟ فأجاب منصب الإمامة منصب⁽⁹⁾ عال، والإمام شفيع لمن خلفه، ولا يكون الإمام ذا وجهة عند المشفوع إليه، إلا إذا كان واقفاً عند أمره ونهيه.

(1) سقط من: ت. (2) زيادة من: ت.

(3) ط: إليه.

(4) في ت و ط: ابن إسحاق وهو تصحيف لكلمة: ابن إسحاق.

(5) إسقاط الواو من: ت. (6) ت: أول.

(7) ت: فيجود. (8) ت، ط: موفق.

(9) سقط من: ت.

ويجلسُ يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة في الجامع الأعظم للفتوى لمن يسأله بلسانه فتدور عليه حلقة كبيرة، كعادة المفتي وكان [رحمه الله تعالى]⁽¹⁾ فصيح اللسان، كلما يتكلم في ميعاده، يفهم عليه، وإذا حضرَ مَجْلِسُهُ⁽²⁾ طالَحَ يوماً واحداً، تاب إن وفقه الله.

وكان بعضُ أَصْحَابِنَا يقول لي: ما يمنعني من الزنا إلا الشيخ، يشير إلي بَوَغْظِهِ، وَمَا خَصَّهُ إِلَّا أَنْ يَقُول: هذا فعلُ كذا، وكذا.

أو إذا تاب عَرَبِيٌّ⁽³⁾ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَخَضَرَ⁽⁴⁾ الميعاد، بالغ ذلك اليوم في الوعظ بما يليق به، حتى يتركه من أهل النار، فيمشي ذلك الرجل وقد زاد خوفه وكثر نَدْمُهُ، وإذا كان من الغَدِ دَاوَاهُ فَيَكْثُرُ فِي وَعْظِهِ من الترجي فيقول مثلاً: «من تاب تاب الله عليه، وغفر له ذنبه». وَيَجْلُبُ ما يليقُ بذلك من حكايات الصالحين، [والوصف والله يقصر عن حاله]^(*) في هذا، وأنا حَسَنَةٌ من حَسَنَاتِهِ فيه، فإني تعلمتُ ذلك منه.

وكان إذا كان يقرأ التفسير والحديث، ويتكلم فيهما⁽⁵⁾ بالوعظ، لا ينظر إلا أمامه كما تقدم. وفي مسجده رضي الله عنه⁽⁶⁾ طَاقَتَانِ كبيرتان للضوء، ربما يرفعُ بصره إليهما وهو على حاله يتكلم فيقول في أثناء كلامه: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يفعل ذلك مرتين أو ثلاثة في كل يوم، دون بقية دائر الدول. فغلب على كل ظن من فطن بهذا أنه رضي الله عنه⁽⁴⁾، يرى الطيارة يدخلون لدرسه ويخرجون، ويسلمون عليه، فيراهم ويسمعهم دون غيره من الحاضرين، إذ كان رَدُّهُ للسلام لا يوافق سلام أحد من أهل الدرس في خروجه أو في⁽⁷⁾ دخوله.

وَبِسِيرَتِهِ في ميعاده ووعظه، كثر تعظيم الناس له دون غيره كَمَنْ تقدمت الإشارة إليه.

-
- (1) سقط من: ت. (2) ت: درسه.
 (3) من الأعراب، أهل بدو. (4) في ت و ط: حذر.
 (*) ما بين المعقوفتين سقط من: ت.
 (5) ت، ط: فيها. والصواب ما أثبتناه. (6) صيغة الترضي سقط من: ت.
 (7) «في» سقطت من: ت.

وكان يعمل معه الميعاد أيضاً تلميذه الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفاسي، وأما الفقيه علي بن أبي قيراط فلم يطل تدريسه فترك ذلك. وكذلك الفقيه الخطيب إبراهيم الدهماني المتقدم ذكره عمل الميعاد مدة⁽¹⁾، ثم تركه أيضاً.

ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه

كنا نقرأ عليه يوماً وقد خرجت العامة، وإذا برجل من البادية قصير القَد. عليه بُرْنُوسٌ أزرق، وبيده سُبْحَة، وَمَا كُنَّا رَأَيْنَاهُ قَطْ، فسأل من شيخنا أبي محمد الشيباني توصية الشيخ أبي زكرياء يحيى بن موسى بن عيسى المناري عليه في أن يواسيه من الزكاة التي يأخذ من جماعته، فنكسَ الشيخُ رأسه إلى الأرض لما سمع كلامه ثم رفعه، وقال: يَا مُرَابِطُ، مَنْ يَمُوتُ يَرْجِعُ حَيًّا؟ قال: لا.

فقال: وَلَمْ؟ قال: لأنني رأيت من يموت من أقاربنا وغيرهم، لا يرجع حياً. فقال له الشيخ: ينتظرون قدوم بقية الخلق ثم يُحْشَرُونَ، فلم يقبل كلام الشيخ فبقي الشيخ يلاطفه ويؤانسّه، فوجد جهله مركباً، فانتهى حاله إلى أن قال له: أتعرف عندي زوجة؟ قال: نعم نسمع أربعاً⁽²⁾، قال: الطلاق يلزمي، ما الأمر إلا كما قلت لك، لا بد من بَعْثِ الخلق من قبورهم إلى الحشر، حتى يمشي فريقٌ إلى الجنة وفريقٌ إلى السَّعِيرِ. فانطلق حينئذٍ وَجْهَهُ وقال: يا سيدي ما بعد هذا شيء، أنا أو من بما ذكرت. وكدر عليه، حتى فهمنا إيمانه بما لفظ به، ووعدّه الشيخ بقضاء حاجته.

ورأى الشيخ أنه تعين عليه الحلف بما ذكر رجاء السلامة، فهو إنما حلف للضرورة، وهكذا كان العلماء يَدْخُلُ عليهم الكافر وعليه زي الصالحين ولا يخرج إلا مسلماً، كما جرى للشيخ أبي القاسم القشيري⁽³⁾ في نحو هذا [رحمه الله ورضي عنه]⁽⁴⁾.

وحدثني الأمين قاسم، بن الأمين محمد، عرف عاشور اليخُصبي عن والده قال: كانت لي مطمور⁽⁵⁾ شعيراً ببلد الحرمين، وكان إذ ذاك بستة دنانير ذهباً القفيز

(2) ت، ط: أربع، أي أربع نسوة.

(4) سقط من: ت.

(5) حفرة مُبَلَّطَةٌ يخزن فيها الزرع والحبوب بأنواعه.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: الجندي.

شعيراً. فبلغني أن العرب دارت على البلد ليأخذوا ما فيها، فأتيتُ إلى الشيخ الشيببي، وكلمته أن يكتب كتاباً لهم، فقال: خَلَّهَا يَأْكُلَهَا في هذه السنة من هو مستحق بها، فعز بي ذلك، ومشيتُ غَضْبَاناً لِدَارِي، ثم خرجتُ نصف الليل لِدَارِ الشيخ ابن أبي زيد، وكان يخدمها، فلما قربت منها وإذا بالشيخ الشيببي جاء من جهة زنيقة المذبوح، وحوائج في حضنه، وهو مغتير الحالة فقلت له: أين كنت؟ قال: أنت ما تترك الشيطان ينام؟ فمشينا في هذا الليل ورحلناهم عن البلد، فجاء الخبرُ من الغد، أن العرب رحلت نصف الليل من غير سبب في الظاهر، فلما جئت إليه [في مسجده]⁽¹⁾، ودخلتُ من الباب، رَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَيَّ وقال [لي]⁽²⁾ قبل أن أخبره: أبت النفسُ أَنْ تَظْمَنَنَّ، ابعث إلى شعيرك⁽³⁾ من يَجِيبُهُ⁽⁴⁾.

وحدثني الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي علي الهواري قال: عَزَمْتُ على أن أمشي مع بعض العرب، وأمكث⁽⁵⁾ عندهم مدةً لكي ينفعوني بشيء من الدنيا، فشق علي ترك القراءة على الشيخ، فقلت: أمشي إليه وأشاوره إذا أردت أن نقرأ، فلما فرغ الذي قبلي من تجويده⁽⁶⁾ قال: إقرأ شيء بلا شيء لا شيء، ولا يرضى به إلا من لا هو شيء، فقرأت وتركت السفر معهم.

وحدثني الحاج أبو القاسم ثعلب قال: لما تبت [أخذت]⁽⁷⁾ في مقاتلة المحاربين⁽⁸⁾، واجتمع عَلَيَّ خَلْقٌ لِقَتَالِهِمْ، وانتفع الناسُ بي، فلما كان الوباءُ بإفريقية [مات]⁽⁹⁾ لي عشرة من الأولاد بجبل وولات، فقلت في نفسي: نترك ما أنا فيه، ونسكنُ القيروان، ونحضر الميعاد، ونجتهد في العبادة، ونترك بَوَسَ⁽¹⁰⁾ الرُّكْبَةِ، ففعلت ذلك، وكنتُ أَكْثَرُ من الذكر بعد صلاة الصبح، والعشاء الآخرة، فخرجتُ يوماً لِأُصَلِّيَ على جنازة بعض الأصحاب، فأدركتُ الشيخ أبا محمد الشيببي فقال

(1) ت: لمسجده.

(2) زيادة من: ت.

(3) ت: لشعيرك.

(4) كلمة عامية، بمعنى يأتي به.

(5) إسقاط الواو من: ت.

(6) في ت: «أردت أن أكلمه فقال لي».

(7) سقط من: ت.

(8) المحاربين أصحاب الجِرابَةِ وهم قَطَاغُ الطريق.

(9) سقط من: ط، والكتاب المحقق، الزيادة من: ت: تبعاً لسياق الكلام الآتي، قول الشيخ أبا

محمد الشيببي فقال لي: «عزّ عليك موت أولادك»؟.

(10) أَلْبُوسُ بالعامية، ومعناه: التقييل.

لي: عَزَّ عليك موت أولادك؟ قلت: نعم. قال لي: إذا كانوا عند السلطان أما تفرح؟ قلت: نعم. قال: إنهم في كفالة [سيدنا]⁽¹⁾ إبراهيم عليه السلام. وإن الشيطان يأتي للإنسان من جهة الفقه، ويقول له: أنت تبت لله أو لبوس الركبة واليد، أما علمت أن العبد إذا ذكر الله بُكْرَةً وعَشِيًّا، يغفر له ما بين الطرفين؟ أو ما تعلم أن جِهَادَ المحاربين جهاد؟ فجاهدهم، فإن مت مت شهيداً، وإن عِشْتَ عِشْتَ سَعِيداً، فرجعت لما كنت فيه.

وحدثني مَنْ نَثِقُ به من شركائه في الحرث، قال: أتانا عطاء الله الحجري يطلب⁽²⁾ غفراً على زرعنا بالهوارية يطلب فروة ومزراقاً [لها حلية]⁽³⁾ فقال لي الشيخ: اشتر له فروة وقل له: المزراق تأخذها في إفريقية. فأخذ الفروة ومشى لبلاد إفريقية، فوقع قتال في الفحص فَضْرِبَ بركيز فقال: مت. [فقال له]⁽⁴⁾ أصحابه: هذا جرح خفيف ما يقتل أحداً⁽⁵⁾. قال: إن الشيببي طلبت منه مزراقاً وَأَلْحَحْتُ⁽⁶⁾ عليه فيها، فقال: تأخذها من بلاد إفريقية، فهو أشار لموتي، فمات من ذلك.

وحدثني من نَثِقُ به من شركائه أيضاً قال: شَارَكْتُه في قطانية في البئر المسمى ببئر عَجْرُودَ ببلد أبي خلالة، فلما طابت القطانية، وكان زمن شدة، القفيز منها بأربعة دنانير ذهباً، فأتى جيش من حجري برسم تحويسها، يزيدون على مائة رجل، وعرفوا أنها له، والتزم رجل [منهم]⁽⁷⁾ بالشيخ أنه إذا قام عليهم يمسكه ولا ينفسه حتى ينصرف أصحابه، ويعملوا له سَهْماً معهم فجاء رجلٌ وَعَرَّفَ الشيخ بذلك، وأتوا في أول الليل، فلما قربوا منها، بقوا باركين، ما قَدَّرَ أحد [منهم]⁽⁸⁾ يقوم، والرجل دخل القطانية وهو عامل إذا وصل إليه الشيخ يمسكه، فبنفس دخوله عَمِي، فلما طلع النهار، وتبين أمرهم، وحضر لذلك الحاج أبو العباس أحمد بن هيب المشرقي، وذلك بعد توبته، وكان من فُرْسَانِ العرب وَشُجْعَانِهَا. ودفع مَرَّةً واحدة لانكسار العرب التي هو معها، فكسر مَحَلَّةَ السلطان، ومن معه من العرب وحده، وذلك أنه كان ذلك اليوم عليه ثياب بيض، لكونه يدخل على زوجته في الليلة

(1) زيادة من: ت.

(2) ت: فطلب.

(3) سقط من: ت.

(4) ط: فقالوا، التصويب.

(5) ت، ط: أحد.

(6) ت، ط: لَحَيْتُ. كلمة عامية.

(7) زيادة من: ت.

(8) زيادة من: ت.

المقبلة، فوكل به خيل حتى لا يترك يدخل القتال ليلاً⁽¹⁾ فيخرج فيتعطل عن زوجته، فلما انكسرت عَرَبُهُ، واشتغل كُلُّ بنفسه، فدفع وحده، فوقع من سببه مَا ذُكِرَ.

ومن فضل الله عليه، أنه ما قتل أحداً من بني آدم، وإنما تجيء ضربته في الرجل⁽²⁾ ويسلم، أو في فرس كذلك، أو تموت.

ولازم الخير والعبادة والميعاد والسخاء حتى مات. وقبره مزار بجبانة باب تونس قرب الماجل.

قال⁽³⁾: فتشفع فيهم عند الشيخ بأن يعفو عنهم، فقبل شفاعته، وقال لهم: قوموا ولا تعودوا وتوبوا. وقال لهم⁽³⁾: هذا الذي عَمِيَ أطعموه بَسِيسَةً بالزيت، وادهنوا عينيه بالزيت، وأعطوه ويبتين قطانية ففعلوا ما أمرهم به، فمشى الرجل إلى أهله، ينظر ببصره ولا يقوده أحد.

وأتى جيش من حجري أيضاً برسم قطانية، له شركة فيها بسقي ساعد، وذلك بعد طيابها، فَلَمَّا وصلوا لها بالليل برسم تحويسها ذكر أنهم أصابوا⁽⁴⁾ بحراً دائراً⁽⁵⁾ بها، فجلسوا في مكانهم حتى طلع الفجر⁽⁶⁾، فلم يجدوا بحراً، ووجدوا القطانية كما رأوها بالنهار، فسألوا: لِمَنْ هي؟ فقبل لهم: إنها للشيخ الشيببي. فأتوا إليه وعرفوه، وطلبوه⁽⁷⁾ الصَّفْحَ عنهم.

وكان الشيخ لَهُ زَرْعٌ ببلد الجفنة، وكانت عمرت على يديه بعد أن كانت خالية، وكان أَهْلُهَا يقفون للعرب، والشيخ يذب عنهم، فأتى محمد الحجري يطلب غفراً منها، وشَدَّدَ في ذلك، فأتوا به إلى الشيخ، فقال له: ارفق بالناس، فقال في بعض كلامه: والله إن لم تأمرهم يعطونني⁽⁸⁾ ثوباً ما نحوس إلا الزرع فقال لهم: أعطوه ثوب عمره.

وجاء آخر يسمى؛ محمد النعماني يطلب [غفراً]⁽⁹⁾، فقال: يا سيدي أنا مضطر

(1) زيادة من: ت.	(2) ت: رجل.
(3) سقط من: ت.	(4) ت: صابوا.
(5) ت: دائرة.	(6) ت: النهار.
(7) ت: وطلبوا منه.	(8) ت: يعطوني.
(9) زيادة من: ت.	

لِسَبَّاطٍ⁽¹⁾ نعمله في رجلي نصل به إلى أهلي، لأنهم تباعدوا عني، فقال لهم الشيخ: أعطوه ذلك، وانصرفا فأغارت عليهما خيل بالشرف قبله قديد، فأخذوا صاحب الثوب وقتلوه، لأنه عدو لهم. وأرادوا قتل الآخر، فأخذ الله على أبصارهم، فلم يروه، وهو ينادي يا بركة سيدي الشيببي، ووصل إلى أهله سالماً.

وطلبت منه ابن عبد السلام، فقال لي: ابن عبد السلام في الجنة وأنت تطلبه في الأرض، فقلت: إنما أردت تأليفه، فقال لي صاحبنا الفقيه القاضي أبو الحسن علي بن عقبة: هذه كرامة للشيخ.

وكذلك رأى مرة خطي في أول نسخي لابن عبد السلام، فقال لي: هذا إذا كبرت، لا تراه لِدِقَّةِ حُرُوفِهِ، فقال لي الفقيه علي المذكور: وهذه أيضاً كرامة له، فالله أعلم أنك ما تموت حتى يقع لك ذلك⁽²⁾.

وبينما نحن نقرأ عليه، وإذا بمحمد الغساني دخل وهو يبكي ويتحب فقال له: ما شأنك؟ فقال [له]⁽³⁾: يا سيدي سرق لي البارحة كل ما نَمْلِكُ، وذكر حوائج كثيرة، وقيل له: امشٍ للقائد وقل [له]⁽⁴⁾ هل⁽⁵⁾: يضرب لك من تتهمة بالسوط، وأنا جئتُ أشاورك، فقال له: لا تتهم أحداً حتى يُضرب بسببك، ونرجو من الله تعالى أن حوائجك ترجع لك، فعمل على قوله وانصرف، ثم جاء بعد أيام قلائل وهو يبكي من الفرح، وأعلمه برجوع جميع ما ضاع له.

وظهرت له كرامات بعد موته:

منها: أن أبا علي حسناً ابن الحاج عيسى، عرف القدة، كانت علوة بنت الشيخ عند ولده قاسم، فمشى حسن هذا تاجراً إلى توزر إحدى بلاد الجريد، فكتب قائد القيروان أحمد بن ظافر للسلطان أبي العباس أحمد، وهو يقول له: إن فلاناً مشى لأبي يحيى بن يملول صاحب توزر، وكان منافقاً عليه، ورفع له سُروجاً، وكذا وكذا، فكتب له يأخذه فأخذه وسجنه في دهليز تحت الأرض، وَقَلَعَ رُخَامَ داره بغير مُوجِبٍ شَرْعِيٍّ، ورفع له لتونس، لرياض أبي يحيى زكرياء شقيق السلطان، وكان

(1) السباط: كلمة عامية المراد به: الحذاء أو النعل.

(2) ت: هذا.

(3) سقط من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(5) سقطت من: ت.

السُّلْطَانُ عَلَى مَدِينَةِ قَفْصَةَ يَحْصِرُهَا فِي نِفَاقِهَا الثَّانِي، فَكُتِبَ مِنَ الْقَيْرَوَانِ لَهُ بِأَن مَّا كُتِبَ لَكُمْ الْقَائِدُ⁽¹⁾ لَا أَصِلُ لَهُ، وَتَشْفَعُ فِيهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ لِكَلَامِ أَحَدٍ.

وكان حسن هذا، لا يعتقد أكثر الناس أنه يحفظ القرآن قبل ذلك، فكان يختم كل يوم ختمة بصوت حسن، سمع الناس بعض تلاوته في بكرة النهار، لأن الموضع المسجون فيه في وسط الرحبة المقابلة لسوق الزياتين، وكانت ابنة الشيخ على ما بلغني، تمشي لقبر أبيها بدار الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد وتبكي لخراب دار⁽²⁾ سكنها، وسجن والد زوجها، فخرج السلطان يوماً [من داره]⁽³⁾ وهو متغير وقال: رأيتُ البارحة في منامي الشيخ الشيببي رحمه الله تعالى وقال لي: أذيتني في نسبي، أطلقه، وأمر علي بن عبد السلام ابن الشيخ أبي رحمة غيث بن قاسم الحكيمي يمشي مبادراً للقيروان بكتاب في إطلاقه، فأطلق بعد وصوله، ولما رجع السلطان لتونس، ولم يقدر على أخذ قَفْصَةَ لِحْصَنِهَا، وفساد العرب، مشى حَسَنُ المذكور، وَتَشَفَّعَ فِي رَدِّ رِخَامِهِ بِشَيْخِنَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عُرْفَةَ الْوَرْغَمِي، فَقَبِلَ السُّلْطَانُ شَفَاعَتَهُ، وَرَدَّهُ لِلْقَيْرَوَانِ عَلَى جَمَالٍ، وَوَدَى الْقَائِدُ كِرَاءَهَا أَدْباً لَهُ، لَكُونَهُ تَعْرِضُ إِلَى مَنْ يَنْتَمِي لِلشَّيْخِ الشَّيْبِيِّ بِالْبَاطِلِ، وَكَانَ تَسَبُّبٌ فِي أَخْذِ الرِّخَامِ بِأَن حَسَنَ المذكور اختلسه من خَرَابِ حَمَّامٍ لِلْمَخْزَنِ، وَلَمْ يَثْبُتْ مَا ذَكَرَهُ بِحَالٍ.

ومنها: أنه لما مات صار يُصَلَّى بدار الشيخ أبي محمد بعده الفقيه أبو عبد الله محمد الضريسي المذكور قبل زوج ابنته المذكورة بعد موت زوجها فصلّى بها سنين متطاولة ومات في هذه المدة القريبة.

وطلب الفقيه عبد السلام بن محمد بن عبد الغالب المسراتي من قاضي القيروان حينئذ، أن يقدمه بالدار المذكورة، فقال بحضرة العُدُولِ: إنه لا يصلح لها إلا هو، وأذن له في إعمال رسم بأنه أهل لذلك، وكان كلامه أنه يقتضي أنه يقدمه فوراً، ثم ورد من الفور الفقيه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد الشيببي، وطلب أن يقدمه بالدار المذكورة، لأنها دار والده، فأذن له في إعمال رسم بأنه أهل لذلك، وَقَدَّمَهُ يُصَلَّى فِيهَا، وَقَدَّمَ السُّلْطَانُ أَبُو فَارِسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَبْدِ السَّلَامِ

(1) ت: أمام كلمة القائد: فيه.

(2) زيادة من: ت.

(3) زيادة من: ت.

المذكور، ولم يذكر له أن القاضي قدّم ولد الشيخ، ثم لما برز تقديم السلطان تمادى على ما فعل، ولم يلتفت إلى تقديم القاضي. فلما جاء ولد الشيخ من تونس مشى ليصلي إماماً بالدار المذكورة، وأراد التقدم، وأراد الفقيه عبد السلام التقدم، وتنازعا، فحدثني من نثق به ممن حضر؛ أن⁽¹⁾ عمّ الفقيه عبد السلام هذا وغيره؛ تعصّبوا عليه، ومنعوه، وضربوه، بالآجر وغير ذلك.

ووصلت القضية للسلطان فتمادى على تقديمه، فصلى بها من قدّمه أشهراً؛ فنقل عنه نقلاً متواتراً أنه صلى الظهر بالدار، وجلس ينتظر صلاة العصر، فنام يسيراً كأنه بين اليقظة والنام، وكأنه رأى الشيخ الشبيبي [خرج من]⁽²⁾ المقصورة التي هو مدفون بها، وأتاه وهو في المسجد، وطعنه بأصبعه في صدره فانتبه، وقد وجعه ومرض، وتمادى مرضه إلى أن مات، وصلى ولد الشيخ بالدار المذكورة من غير معارض، لا من السلطان، ولا من غيره.

ذكر جملة من أخباره

لما وصل السلطان أبو العباس أحمد إلى القيروان في أول سفرة سافرها من تونس قاصداً بلاد الجريد، وهرع الناس له في السلام عليه خارج القيروان، وكان الشيخ إذا قيل له: تخرج للسلام عليه؟ قال: إنا ندعو له، حتى قيل له: إنه بجامع القيروان، فخرج له، فلما مشى يسيراً، وجد السلطان آتياً له، فأراد أن يُزيل إحرامه من فوق عمامته، عملاً بالعادة، فحلف له: لا فعلت. فقال له: أين نجلس؟ فقال له: بدار الشيخ أبي محمد بن أبي زيد. وكان مسجده أقرب منها، فدخل هو وأخوه شقيقه زكريا وطالبان اثنان وغلقوا الباب، فعرفني أحد الطالبين أن السلطان قال له: وما كان رآه قبل: يا سيدي طلبت منك أن تكون قاضياً فأبيت، وقبلت عذرَكَ، وعملت [لك]⁽³⁾ ربيعة فلم تقبل، فأنا أعمل لك نصف دينار كل يوم، لأن عندك عيلاً كثيرة [وقد]⁽⁴⁾ وسمعت أنك تخرج وتحرك للعرب، فقال له الشيخ: أما خروجي للعرب فلا بد منه ولو لم يكن لي زرع، لأنني نذبتُ عن الناس. وأما كوني

(1) في ط: ابن، التصويب من: ت.

(2) ط: خارج، التصويب من: ت، وهو سياق تام.

(3) ت: بعد ذلك. (4) زيادة من: ت.

أخذ⁽¹⁾ منك فلا أفعل، ولو كان عندي مال أعنتك به، ولو كانت في شجاعة، لقاتلت معك المحاربين، فأنا لا أعطيك مالا، ولا أقاتل معك بنفسي، وأخذ منك، وبركة هذا الشيخ لا أفعل. فلما خرج السلطان قال: هذا الشيخ ما رأيت مثله، كنت جاهلاً به. فأخذ أبو القاسم ثعلب يشكر، وهو من فرسان العرب المعدودة وخيارها، مع كونه تائباً من قديم الزمان، وكذلك فعل غيره من شيوخ العرب، ولما وصل بلاد الجريد، وأخذ قفصة، وتوزر، وجد كتبه عند كل شيخ من شيوخ البلاد وهو يعظهم⁽²⁾، ويعلمهم بأن طاعته واجبة، فزاد فيه محبة وقال: هذا رجل أفعاله لله تعالى، فكان كل ما يقع بالقيروان من أمر مخزني، ويكتب فيه، يأتي جواب السلطان بما يطلبه منه.

وكان [الشيخ]⁽³⁾ رحمه الله تعالى عنده أربع نسوة، وجارية ولدت منه، وكان حاله أولاً يمشي بفتوحات من البادية وغيرهم؛ ثم صبت المطر في القيروان أياماً متوالية، حتى تهدم كثير من دورها، فصارت تلك السنة تسمى بسنة النوة. فلما صلى الصبح يوماً بمسجد دار الشيخ أبي محمد، انتقل منه لكونه قطر، وأتى للبيت [الذي فيه]⁽⁴⁾ قبر الشيخ، وصار يجلس عن يمين الداخل ومعه طالبان يجودان عليه، فلما فرغا قال لهما: أتسمعان شيئاً؟ قالا: لا. قال: إني سمعت صوتاً من ذلك المكان يقول لي: احرث، يفتح الله عليك. فأشار لمكان خارج المقصورة من جهة الجوف. حدثني بهذا الحديث⁽⁵⁾ أحدهما. فحرث في تلك السنة فأصاب⁽⁶⁾ زرعاً كثيراً، ووجد عليه من الدين مقدار ثلاثمائة وخمسين ديناراً ذهباً، من ذلك خمسة وثلاثون ديناراً من الصفة لعامر بن عبيد العباسي شهر الخشني، فجمع له ذلك من ثمن الزيت الذي يشعل به [المصباح]⁽⁷⁾ لزوجاته. فبدأ به وأعطاه وأدى⁽⁸⁾ أكثر دينه الباقي من حرثه ذلك العام لغلاء الطعام، وما زال يحرث إلى أن مات وترك بحيرة البطيخ، باعوا منها بعد موته بمائة وستين ديناراً ذهباً، وأدوا⁽⁹⁾ ذلك في دين عليه، وجعل الله فيها بركة.

(1) ت: نأخذ. (2) ط: يعظهم، وفي ت: يعظهم.

(3) سقط من: ت. (4) ت، ط: التي فيها.

(5) في ت: عنه. (6) ت، ط: فصاب.

(7) زيادة من: ت. (8) ت: وودي. ط: وودا.

(9) ت: ودوا. ط: وودوا.

وكان أبو العباس أحمد⁽¹⁾ بن مسوى بن تاجلت النفوسي من أخيار⁽²⁾ أصحابه، ومن المتسارعين لقضاء حوائجه. فحدثني الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأنصاري، شهر بابن فرطوط، قال: كان أحمد بن تاجلت يُحسِنُ للشيخ كثيراً، فاشترى له مرة مقطوعاً فصل له منه ثوبين، ومرة أخرى اشترى له قدسياً كشفاً في الصيف، وكانت بينه وبينه محاسبة، فلما جاء الصيف طلب الشيخ بأن⁽³⁾ يعطيه بها شعيراً، وكانت تزيد على ستة عشر ديناراً ذهباً، فقال: إنما أعطيتها، حين أعطيتها بنية أن لا أخذها، فقبل ذلك منه.

قال: وأعطاني الشيخ مرة ديناراً لآخذ به فوطه فما وجدتها إلا بدينار وربع، فعرفته، فقال: نعم. فلما جئته⁽⁴⁾ بعد تبسم وقال: هيأت⁽⁵⁾ لك ربيعة. وإذا برجل قبائلي يصيح ويستغيث بالله، ويطلب ربيعة يفك بها حماره من العرب فأعطيتها⁽⁶⁾ له ثم أعطاني أخرى.

قال: وكان أكثر الديون التي تركبت⁽⁷⁾ عليه، إنما هو من إعطائه للطلبة.

قلت: وجرت عادته يُعطي لعبد الرحيم بن كامل الرُعيني أربعة أقفزة شعيراً في الصيف من الطعام الذي يصيب في حرثه؛ فجاءه مرة قبل الإبان، وقال له: إنَّ أهل الدار طلبوا منك أن تأخذ لهم فرقاً على قفيز من الذي عودتهم به ليشتروا⁽⁸⁾ بثمانه صوفاً. فقال له⁽⁹⁾: نعم يا أبا محمد، وبعثني إلى أحمد بن تاجلت معه وقال لي: قل له يعطيه علي قفيزاً سلماً⁽¹⁰⁾ والعهد عليّ. ففعل ذلك، وهكذا تكون مكارم الأخلاق.

وخرج⁽¹¹⁾ مرة لحضور درس قطانية له ببلد الجفنة، وكان زمن شدة، القفيز منها بستة دنانير ذهباً، فخرج جماعة من أصحابنا ولحقوه منهم: الفقيه أبو عبد الله محمد الزنوني برسم رجاء نواله لجري عاداتهم، فطالت إقامتهم لانتظار فراغ الأندُر،

(1) ت: بن أحمد.

(2) ت: أن.

(3) ط: هيئت، ت: هييت.

(4) ت: تتركب.

(5) سقط من: ت.

(6) ت: وحضر.

(7) ت: خيار.

(8) سقط من: ت.

(9) ط: فعطيتها.

(10) ت: يشتروا.

(11) ت: سلفاً.

فاشتاق الفقيه المذكور أهله، ورأى الشيخ أعطى لغلامه ستّ دواب محملة بها، والعادة أن الحمار يرفع ثلاثة أرباع فقال في نفسه: أنا أتبع الغلام حتى إذا وصل إلى القيروان، نأخذ بعضها. فلما وصل أخذ ثلاثة بهائم وقال له: امش بالباقي لدار الشيخ، فأبى وقال: إنما أمرني بجميع وصولها إلى أهلها. وألح معه في ذلك فضربه وساق جميعها، وفرغها في موضعه.

ومشى الغلام للشيخ فعرفه بذلك، ورجع الفقيه بالبهايم فارغة قال: فأتيتُ الشيخ وأنا مُستَحْشِمٌ فيما فعلتُ، فأقبل علي قبولاً تاماً وقال: يا فقيه، أبا محمد، أنت أحوج مني بذلك⁽¹⁾: وما أنا نسعى إلا لكم، والقطانية تحتاج إلى التزويج⁽²⁾. وأنا⁽³⁾ وهبت لك الغلام، فخذ بيده وبعه، وأنفق ثمنه عليها، فقلت له: قبلت، وأنا أعدته إليك لحاجتك له.

ذكر محنته التي جرت عليه في ابتداء أمره رضي الله تعالى عنه⁽⁴⁾

وسببها: أن رجلاً أدخل من الباب متاعه سرقة خوفاً من أن يُطلب بالقائد، فظهر عليه الشرطي الواقف في الباب، فخاف الرجل أن يضرب بالسوط، فهرب لداخل البلد فأتبعه الشرطي حتى دخل الرجل دار الشيخ أبي محمد، فأتبعه الشرطي بجرأته⁽⁵⁾ حتى دخل وراءه خلف نسائه، وهن وراء المنسج، فعرف الشيخ بذلك، وهو في ميعاده، وعظم عليه بعض تلامذته هذا الواقع حتى أزعجه، فكتب لقائد البلد عترة المديوني، وهو يعرفه بالواقع، وحلف له في كتابه بالمشي إلى مكة إن لم تضرب الشرطي سياطاً، وإلا نرحل من القيروان. فلما وصله لم يعمل بما كتب له. وكتب للسلطان أبي إسحاق إبراهيم بما معناه: هذا الشيببي يعارضني في أمور المخزن، وبسط الكتاب بذلك، وعمل كتاب الشيخ له في وسط كتابه، وبعث به إليه، فجاء الأمرُ بخروج الشيخ من القيروان، فلم يقدر أحد يأتي إليه رسولاً عن القائد بالتعريف بهذا الأمر⁽⁶⁾ إلا أخو عترة، وكان ممن يحضر ميعاده، فأتى إليه

(1) ت: بالذي أخذت.

(2) ت: الجواز.

(3) ت: فانا.

(4) صيغة الترضي سقطت من: ت.

(5) ط: بجرأته. التصويب من: ت.

(6) سقط من: ت.

ووجده وهو خارج لداره لكونه فرغ من الميعاد وقال⁽¹⁾ له: أمروا - نصرهم الله - بخروجكم من القيروان. قال الشيخ: وكانت بي حُقنة حينئذ، فأردت زوالها، ولبس ثياب السفر، فلم يتركني وقال: تلبس حوائجك على باب الدار، فخرجت معه حتى أوصلني⁽²⁾ خارج البلد، فسبق إلي أولاد أبي رحمة غيث الحكيمي دون أبي الحسن علي بن أبي يوسف الدهماني صاحب الزاوية، فمشيت معهم إلى رَبَضِهِمْ، وذهبت عليّ تلك الحقنة حتى صليت العشاء الآخرة بوضوء صلاة الصبح. ومشى لتونس ومشى معه الشيخ الصالح أبو زيد بن يوسف العمشاء المتقدم ذكره، وكان خديمه، وكان مقعداً ومن الصالحين، وكان⁽³⁾ يختم القرآن كل يوم، وقوته في الشهر وبيّة من الشعير، وإنما تكلّف المشي معه مع عذره لشهرته عند [شيوخ]⁽⁴⁾ تونس، فقصدا مع من مشى معهما لزاوية الشيخ أبي علي حسن⁽⁴⁾ الزبيدي المعروفة بدار أبناء⁽⁵⁾ عبد الله، وعرفوا أبا علي بالواقع. وكان هو بتونس [له مقام]⁽⁶⁾، فطلع للسلطان، وذكر المسألة فتكلم السلطان وتمم حاجبه أبو عبد الله [محمد]⁽⁶⁾ بن تفراجين، فقال لهما: هو رجل عالم صالح، وقد امتلأ قلبه، فكتب بما كتب، وطلع من الغد بالشيخ أبي محمد، فلما سلّم على السلطان، وجلس، قام الحاجب المذكور وقال⁽⁷⁾: يا فقيه إذا خرجت من القيروان تنطبق السماء على الأرض، فقال له الشيخ أبو حسن علي: والله ما نزيده حرفاً، إني أخاف عليك من دُعَائِهِ، فسكت. وكتب للشيخ أبي محمد أمراً بدخوله القيروان.

قال الشيخ: فأتيت إلى باب البلد، باب تونس وأردت الدخول، فقال لي خالد المذكور: لا تدخل إلا بإذن، فأين الأمر؟ فبقيت واقفاً حتى وصل من كان معي إذ كان في آخر الناس.

قلت: فرأيت خالداً المذكور في أيام [السلطان]⁽⁸⁾ أبي العباس أحمد يأتي إلى أخذ مرتبه بالقيروان فيصعب من له النظر فيه، فيأتي إلى الشيخ ويتملق بين يديه

(1) ت: فقال.

(2) ت: وصلني.

(3) ت: فكان.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: أينما.

(6) سقط من: ت.

(7) ت: فقال.

(8) زيادة من: ت.

ويقول: يا سيدي تكلمهم في دفع مرتبي لعلي أنصرف إلى تونس، فيقول [له]⁽¹⁾ الشيخ: نعم. ويقبل عليه كأنه أخوه جاءه من سفر بعيد؛ فسبحان المعز المذل.

ذكر بقية أخباره

كان رحمه الله تعالى كثير الكتب للناس فيما يحتاجون إليه، ويبالغ في الكتب، فانتفع الناس بكتبه في حياته وبعد موته.

فمن ذلك أن تلميذه الشيخ أبا العباس أحمد بن عبد الله الشريف. ويعرف⁽²⁾ بالعواني، طلب منه أن يكتب لشيخ الحامة بمواساته، فكتب له فيه، فقال الشيخ: هذا الفقيه ارتهن لنا فيه⁽³⁾ الشيخ الشيباني لشكره فيه، فبعث لتونس وطلب من السلطان أبي العباس أحمد أن يُقَدِّمَهُ قَاضِيًا، فقدمه بظهيره وبكتب قاضي الجماعة له، فأقام بها مُدَّةً، وأتى من عنده بنحو المائة دينار ذهباً، وكسوة نفيسة.

ومن ذلك أنه كتب للفقيه عبد السلام بن محمد بن عبد الغالب المتقدم ذكره بما معناه: أنه فقير محتاج لمن يعينه، وبسط القول فيه. فكان ينتفع بكتاب الشيخ. فلما مات عمل تحته رسماً مشهوداً بالعدالة بأن ما ذكر أعلاه خط الشيخ، وكان يأخذ بسببه من عند السلطان أبي فارس عبد العزيز خمسةً دنانير ذهباً في كُلِّ عام، وهو أحد من⁽⁴⁾ أُعْطِيَ لِلسُّلْطَانِ فِي حَقِّهِ فِي تَقْدِمِهِ لِلإِمَامَةِ فِي دَارِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ.

وكان رحمه الله تعالى إذا لم يعرف اسمَ والد المكتوب له يقول: ابن الشيخ المرحوم المثاب، الصائر إلى حُسْنِ مآب.

وكان إذا مرض أحد من طلبته يزوره، وإن كان مبتدئاً، فمرضت مرة زارني فيها وزارني معه خلق لما تقدم من أنه كان لا يمشي⁽⁵⁾ معه في مجامع الناس إلا من ضرورة، فإذا رُئي يقال: أين هو ماش؟ فيقال: يزور فلاناً فيكثر تابعوه⁽⁶⁾ لمحبة الناس فيه، فدخل والدي الدار، فوجده فيها مع من معه، ففرح والدي غاية الفرح، وأدخل علي أيضاً بزيارته سروراً عظيماً وتقوى قلبي بحسن دعائه.

(1) زيادة من: ت.

(2) إسقاط الواو من: ت.

(3) زيادة من: ت.

(4) ت: ما.

(5) ت: يمشي.

(6) ت، ط: تابعة.

وقد كان شريكى في دولتي في رسالة ابن أبي زيد أبو محرز محفوظ الأبى فمرض، وكان يسكن بزاوية الشيخ الجديدى، فعرفني أنه زاره ولم يكن دخل⁽¹⁾ الزاوية فيما مضى، وأن الشيخ المذكور صاحب الزاوية فرح بقدومه فرحاً شديداً.

وألّف رحمه الله تعالى شرحاً على الرسالة، جامعاً حسناً نحو سِفْرَيْنِ في القَالِبِ الصغير، وَكُرَاسَةً سَمَّاها شُرُوطُ التَّكْلِيفِ، وفيها فرائض الصلاة، وسننها، وفضائلها وغير ذلك من ضروريات فرض العين؛ فينتفع المرابطون بها إذ هي تُخْرِجُهُمْ من قَيْدِ الْجَهَالَةِ، وله تقايد في النحو مفيدة، وله وضعٌ حَسَنٌ على الحبسية في حرف نافع وغير ذلك.

ذكر وفاته رحمه الله تعالى وما يتعلق بذلك

حدثني الحاج مبارك بن سالم الهيشري قال: حضرت مياعده يوماً فجلستُ بإزاء السارية الملتصقة له عن يساره، ودنوت منه حتى كادت حوائجي تقع على حوائجه. فتكلم في وعظه وصاح كعادته ثم أدخل رأسه تحته، فسمعتة يقول بكلام خفي لم يسمعه غيري: اللهم اقبضني إليك. وكرر ذلك ثلاثاً، فما رجع للميعاد بعد، ومرض من الفور ومات.

وكانت وفاته رحمه الله يوم السبت في الثاني عشر من صفر سنة 782هـ، ودفن صبيحة يوم الأحد من الغد. وما رأيت أحداً يبكى عليه بعد موته مثلما بكى الخلق عليه خاصتهم، وعامتهم، وينتحبون⁽²⁾ في الأزقة وعلى باب داره، وذلك لحسن أخلاقه، ووعظه، ونفعه لهم، ولو بالدعاء⁽³⁾.

وكان القائد أبو عبد الله محمد بن زغمار بيده سيف مسلول⁽⁴⁾، وهو خلف نَعْشِهِ في بعض خدامه، وكان مُهَاباً، ولولا هو، لَكَسَّرُوا نَعْشَهُ من ازدحامهم عليه، وكان القائد يبكي ويدعو على من قطع بينه وبينه، وذلك جرت العادة بأن القائد لا يخالف ما يقول الشيخ، وذلك لما كبر حاله. فلما وصل هذا القائد قال له بعض شياطين الإنس: إن قبلت شفاعة الشيببي تكن محجوره⁽⁵⁾ فما كأنك قائد، فقبل

(1) ت: داخل.

(2) ت: فينتحبون.

(3) في ت، زيادة: «فقط، أو بوضع شهادته في أمر حفيف».

(4) ت: مسلوت.

(5) ت، ط: محجورة.

كلامه، وسد الباب في وجه الشيخ، فكان إذا جاء أحد يشتكي [له]⁽¹⁾ بمظلمة يقول له: ادع على القائد، وأنا أؤمّن على دُعائك، هذا الذي أقدر عليه. فلما أكثر من الظلم، كتب الشيخ فيه إلى السلطان أبي العباس أحمد ويّين له ظلمه، وطلب منه أن يُريح الناس من ظلمه، ومرض الشيخ من الفور ومات. فجاء جواب السلطان له: عزلنا لكم ابن زغمار كما طلبتم؛ فبعد مدة مشى هذا ابن زغمار لما في رأسه من العُتُو، إذ كان شجاعاً ببعض السلاطين، وقصد أخذ قسنطينة. فأتى به بالليل إلى جنان أظنه جنان أخيه عبد الله، وكان بالبلد، وبعث له وقال: هذا فلان تقومون معه، ونقتل ابن السلطان الذي في البلد وتملكون إفريقية منها. فقال له: نعم نمشي نكلم بعض الخواص، فقال: افعل. فقال بعد خروجه في نفسه: لا أدري هل⁽²⁾ يصح من هذا شيء أم لا؟ ونخاف إن لم نبادر بإعلان سُلطانتنا، ويقوم أخي ويؤخذ، نقتل أنا معه ولا نصدق في أن ليس لي علم منه، فعرف سلطانه فخرج له، وأخذه، وقطع رأسه مع من ذكر، وبعثه مع أخيه المذكور لتونس؛ فلما وضع بين يدي السلطان أبي العباس أحمد قال: هذه كرامة للشيخ⁽³⁾ الشيببي، هو الذي جاء لنا برأسه، ولم يرجع أخوه إلى قسنطينة وسكن تونس جبراً.

ودفن الشيخ أبو محمد بدار الشيخ أبي محمد بن أبي زيد رحمهما [الله]⁽⁴⁾ في مقصّورته قدام بابها لوجود قبر هناك مزور، أعلم به من أعدده لنفسه، وهو الأمين عاشور المتقدم ذكره. فرجح الشيخ على نفسه، وكان المعروف لعاشور به من أعدده لنفسه وهو أبو الحسن علي، ويعرف بالمجهام من ذرية الشيخ أبي محمد بن أبي زيد، فمشى لفاس على جري عادته للمشي هناك بقصد الإحسان إليه. فكان يمشي في سنة ويأتي بكساوي⁽⁵⁾ ودراهم كثيرة، ويقم بالقيروان سنة فحضر أجله بالمغرب.

وكان الشيخ رحمه الله تعالى إذا صلى الصبح بمسجد دار الشيخ [ابن أبي زيد]⁽⁶⁾، فإذا سلّم⁽⁷⁾ انفتل عن يساره، قال لي الشيخ أبو عبد الله محمد الدلاجي، وكان من الصالحين: وما رأيته انفتل عن يمينه قط، ووقع في نفسي أنه تعظيم للشيخ

(1) سقط من: ت.

(2) ت: ما.

(3) ت: سيدي.

(4) سقط من: ط، الزيادة من: ت.

(5) يريد بها: الأكسية.

(6) ت: أبي محمد.

(7) زيادة من: ت.

ابن أبي زيد، لأنه لو فعل ذلك، لأعطى البيت الذي فيه قبره بظهره، فكان من تعظيمه له أن دفن⁽¹⁾ بمقصورته.

382 - ومنهم أبو عبد الله محمد [بن عبد الله]⁽²⁾ بن العزيز السبائي عرف الجديدي:

كان يحفظ بعض القرآن. وقرأ البخاري على الشيخ [القاضي]⁽³⁾ أبي عبد الله محمد بن فندار سنين، فختمه عليه مرة، ووصل في الختمة الأخرى إلى الضحايا منه، ثم سافر القاضي لِقَفْصَةٍ، ولما جاء منها تمادى به المرض إلى أن مات.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد⁽³⁾ بن شبل: كنت جالساً يوماً مع الشيخ صالح الصدفي، وإذا بصبيان يلعبون، فأخذ الشيخ ينظر، فقلت له: ما هذا؟ قال لي: انظر يا محمد ذلك الطفل، فأشار إلى طفل صغير يلعب مع الأولاد عرياناً، وقال لي: هو شيخك، وهو آخر شيوخ القبروان. فكأنني أبعدت ذلك، فقال لي: ويقول لك إذا استأذنت عليه: ارجع، فسألت عن الولد فقيل لي: إنه محمد الجديدي، وإنه يتيم لا أب له. [ثم إنه]⁽³⁾ كبر⁽⁴⁾ وشرع في الخير، وصارت له زاوية عامرة بالفُقراء⁽⁵⁾، ونسيت كلام من ذكر، فجئت ليلة من الليالي واستأذنت عليه وهو في بيت خلوته كعادتي، فقال لي: ارجع، فرجعت وأنا أبكي وأقول⁽⁶⁾: ما عرفت ذنبي، فرجعت في الليلة المقبلة فقال لي مثل ذلك، فرجعت على الوصف المتقدم، ورجعت في الليلة الثالثة، واستأذنت فأذن لي، وعقدت يدي وراء ظهري وجثوت بين يديه على ركبتني، فقال لي: ارفع رأسك؟ فقلت له: والله ما نرفع رأسي حتى نعرف⁽⁷⁾ ذنبي، فقال لي: ذنبك من كثرة لغطه وقع سقطه. يشير لفعلي ذلك⁽⁸⁾ أني كنت نجلِسُ خارج باب تونس تحت فصيله، وتدورُ الناس علي، ونتكلم بحكايات الصالحين وغير ذلك، فوقع لي معه ما أشار به الشيخ صالح.

وكان الشيخ عبد الناظر بن سليم الماطوسي يمسحُ على رأس الجديدي وهو صغير ويقول: ماذا في هذا الرأس من حكمة.

(1) ت: يدفن.

(2) سقط من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) ت: وكبر.

(5) أي الزهاد والعباد من المتصوفة.

(6) ونقول.

(7) ت: نعلم.

(8) ت: ذاك وذاك.

وأول ما اجتمعت⁽¹⁾ عليه الفقراء لقراءة القرآن بزاوية الشيخ أبي الحسن علي العواني، ثم انتقل لزاوية الشيخ أبي الربيع سليمان البربري، ثم انتقل لدار الأمين أبي العباس أحمد بن مالوش وبقي فيها مدة.

فحدثني الحاج مبارك الهيشري، عن الشيخ أبي عبد الله محمد الجديدي قال: رأيت في منامي كأن قائلاً يقول لي: اعمل زاوية، فاستيقظت وجلستُ وقلت: القيروان مملوءة بالزوايا، زاوية الشيخ أبي يوسف الدهماني، وزاوية الشيخ أبي علي سالم القديدي، وزاوية الشيخ سليمان البربري، وزاوية الشيخ أبي الحسن علي العواني، إلى غير ذلك؛ فرقدتُ فوقف علي وقال لي مثل ذلك، فاستيقظت وقلت [مثل]⁽²⁾ ما تقدم وزدت. كان الشيخ عبد الهادي إذا جاء للقيروان ينزلُ عند الشيخ أبي زمعة [البلوي]⁽³⁾ صاحب رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ ويقول: القيروان بلد صيوده⁽⁵⁾ ونمت⁽⁶⁾ فقال لي: اعمل زاوية، ومد السماط والحال يمشي، وإلا تلزمك العقوبة فعملت الزاوية.

وحدثني الأمين أبو العباس أحمد المذكور قال: لما أراد الشيخ الانتقال من داري، عزم على شراء دار تعرف بالفقيه القاضي⁽⁷⁾ أبي زكريا بن تُجَانَة، فرأى الشيخ أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني، وكان من خواص أصحاب الشيخ الجديدي في منامه [سيدنا]⁽⁸⁾ علي بن أبي طالب [رضي الله عنه]⁽⁹⁾ وكرم الله وجهه ورضي عنه، وجاء به لباب الدار التي هي الآن زاوية الجديدي، وقال له: هذه دارك، فاشترها الجديدي. فهي زاوية أسست بإذن [من الله]⁽¹⁰⁾ هكذا. ولذلك جعل الله فيها بركة.

وكان يطلب للفقراء بنفسه على أبواب الديار بين المغرب، والعشاء، بِالْحَلَّابِ⁽¹¹⁾ في يده فلما كثروا صار معه غيره [ثم رفع بنفسه هو عن ذلك]⁽¹²⁾.

(1) ت: ما جمع. (2) زيادة من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) في ت، أمام التصلية على رسول الله ﷺ ورود الكلمة التالية: «خارج القبروان».

(5) ت: صيود، بمعنى أسود. (6) سقط من: ت.

(7) زيادة من: ت. (8) سقط من: ت.

(9) صيغة الترضي زيادة من: ت. (10) سقط من: ت.

(11) الحلاب: صخر يصنع غالباً من العود، ويسمى «بِالْعَبُوقِ».

(12) زيادة من: ت.

وصار الفقراء لهم رجال معدّون لذلك، ثم ترك ذلك، ومشى حالها بأوسع من ذلك.

قال الحاج مبارك المذكور وسببه أن الحاسدين كانوا يقولون: لو جاءت شدة انفضح الجديدي، فلما كانت سنة، وكان القفيز شعيراً بأربعة دنانير ذهباً، ترك ذلك ووسع الله تعالى الحال، وكان في ذلك الزمان تسعين فأقل. وكان يشتري للفقراء خمسين فروة في كل عام، ومثل ذلك عُبَايْنُ⁽¹⁾، ومثل ذلك شَمَائِلُ، وأحارم، من صوف. فَالشَّمَائِلُ للأطفال، وَالْأَحَارِمُ لِلْكِبَارِ. ومن المدوس والشواشي [كذلك]⁽²⁾، ودوارتين⁽³⁾ للعشاء كل ليلة، ويعطي لِقَلَاءِ الشَّعِيرِ في كل عام اثني عشر ديناراً [ذهباً]⁽⁴⁾.

وكان لا يدخل أحد يقرأ في الزاوية إلا بإذن منه، فالذي يصرف أكثر من الذي يدخل.

وكان لا يأكل مما يأتي للفقراء، وإنما يأكل من الذي يأتيه لنفسه، وينفق الباقي للفقراء وأصحابه، قال: وكان إذا اهتم من أمر يسر الله فيه على أيسر ما يكون.

من ذلك أنه جرت عادته، يعمل لأهل الزاوية في شعبان قصعة رفيس وعادته يعملها بالزبد والعسل، ويعمل ثلاثة أرباع القفيز دقيقاً، فيرفس الدقيق والتمر والعسل، وقال: كيف نعمل في الزبد وهذا العام مجذب، لا يوجد عندنا؟! فإذا برجل يقال له: محمد عرف بُورُوَيْسُ أتى بِكِرْشَيْنِ مملوئين زُبْداً على حمار وقال لي: جئتُ بها إلى الشيخ من قمودة، وهي مسيرة يومين من القيروان، فأعلمته فُسْرَ بذلك، وعمل الرفيسة في قصعة، وبقيت ثلاثة أيام في وسط الزاوية، ومن يدخل يأكل منها بَرَّانِي وَدَخْلَانِي⁽⁵⁾.

وشاهدت منه أنه إذا عزم نيته على وصول زيد أو عمرو يوقع الله في نفس ذلك الرجل الوصول إليه، فيصل إليه على الفور من غير تعب⁽⁶⁾ أحد.

(1) الْعُبَايْنُ: كلمة عامية، ومعناها: العباءة. (2) سقط من: ت.

(3) الدوارة بالعامية، وهي: أحشاء وأمعاء الكبش وتشمل: الرئة، والكبد، والأمعاء.

(4) سقط من: ت.

(5) بَرَّانِي وَدَخْلَانِي: كلمة عامية، المراد بها: أهل البلد وغيرهم.

(6) ت: بعث.

من ذلك أنه أتى من سفرة سافرهما، فدخل وجلس في الصف الأول ينتظر الصلاة، وكنت أنا في طرفه الآخر، فوقع في نفسي أنه يكلمني، فأتيت إليه وقربت منه، فقال: إذا صليت فاخرج وأتني بِسَرَجٍ من عند غيث، ففعلت ذلك.

ذكر كرامته رضي الله عنه

حدثني الحاج عبيد بن محمد بن عمر الحبيبي قال: كنت مع الشيخ الجديد بزاويته بالمهدية، وإذا بالصياح، فذكروا أن ربيب⁽¹⁾ قائد المهدية أبي القاسم بن حمدان تأسر⁽²⁾ مع اثنين بقرب شط المهدية، فلما كان في أول الليل، ضرب الباب وليس معه غيري، فخرجت أنظر من يكون الضارب، وإذا بالقائد جاء بنسائه، وطلب مني المشورة عليه فشاورته، فأذن له في الدخول، فدخل مع من ذكر، فقال: الهجيم على الفقراء في ولدي، فقال: وأنا لي جُهدٌ. فقال: نحن هجمنا ولا⁽³⁾ نمشي إلا بقضاء الحاجة، فقال: امش، ويجيئك وَلَدُكَ بعد ثلاثة أيام، وإذا بالولد جاء في الميجال⁽⁴⁾، فسئل الولد فقال: ما لي سبب عدا، أنه جاءني رجلان بعد أن وصلت لِصِقْلِيَّةٍ في جوف الليل، وقال⁽⁵⁾ لي: أي اهرب معنا، فمشيتُ معهما، فَلَمَّا طَلَعَ النَّهَارُ ونحنُ على ظهر البحر، قال⁽⁶⁾ لي: صاحبنا الذي تواعدنا معه غيرك، فقلت: أنا صاحبكم والبركة، فقدموا⁽⁷⁾ مرسى المهدية التي أخذتُ منها، فأعطى القائد للشيخ ثلاثين ديناراً ذهباً، فقال: له أنا ما نأخذ دنانير، ولكن هذا الخراب تبيعه لهذه الزاوية لأنه للمخزن، فاشتراه منه بثمانية وعشرين ديناراً من الصفة، ودفعها له بمعاينة الشهود، وأخذ بالدينارين الباقيين خِرْفَاناً وَخُبْزاً للفقراء.

والزاوية المشار إليها، هو اشتراها، وهي دارٌ كبيرة، وأخرى لطيفةٌ بخمسة وسبعين ديناراً من الصفة، ثم بنى⁽⁷⁾ بها⁽⁸⁾ بعد.

(1) تأسر، بمعنى: أسيراً.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: وما.

(4) كلمة ميجال عامية المراد بها في الوقت المحدد للموعد.

(6) ت: فدقوا.

(5) ت: قالوا: بإسقاط الواو.

(8) سقط من: ت.

(7) ط: بنا، وفي ت: بناها.

قال: وحدثني الحاج عيسى المغربي وكان بالزاوية عندنا قال: دخلت لفندق البقل، وإذا بالشيخ الجديدي جالس مع أطفال السوق، وبعضهم يطلقون الفصوص فقلت في نفسي: هذا الشيخ شيخ الزاوية، كيف يجلس مع سفلة الناس؟ فلما أردت أن نصلي وردي ما قدرت عليه، ولا على ذلك من الأذكار وكسلت ونمت فرأيت في منامي رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعلي بن أبي طالب، فقال: يا علي حَمَلُ عيسى، فحملني كما يُحْمَلُ الطفلُ في المكتب، وضربني رسول الله ﷺ بيده مائة سوط، وقال لي لا تعرض على الجديدي فإن مادته من عندنا، فاستيقظت وأنا نُكْمَدُ رجلي.

فلما كان بكرة جلست في الزقاق قرب المسجد البراني، بنية أن أخبره⁽¹⁾ فلما برز من الشوكة الكائنة هناك بادرني وقال لي: أكلت البارحة سويطات⁽²⁾؟، وكانت دعة⁽³⁾.

قال: ومشى الشيخ الجديدي لِلْمُنْشِيرِ، فمشيتُ معه أنا وإسماعيل بن أحمد الشرفي، وكان من خواص أصحابه، فقلت أنا: يا سيدي يعقوب الزعبي، ما في الوجود إلا هو، فهو صاحب الوقت، فقال إسماعيل المذكور: لا إلا سيدي داود صاحب الجزيرة، فقال الشيخ: قيمتم قيامة الزوج، أنهى ما وصل إليه داود أنه يسمع تسبيح ملائكة سماء الدنيا، ولو رأيت من يسمع تسبيح ملائكة حملة العرش لقيتمتم قيامة أكثر.

وحدثني الحاج مبارك المذكور، قال: وقع في نفسي ونحن ننتظر الصلاة جماعة في زاويته - الوقوف بين يدي الله عز وجل، وكيف يكون الخلاص، وإذا بتدفيف على ظهري مرات فالتفت فإذا هو قال لي: لا تخف فأنت ولدي.

قال: ولما كانت زمن⁽⁴⁾ الشدة المشار إليها، أتى بِتَمْرِ يسيرٍ فرَّقه على الفقراء، تمرتين لكل إنسان، حتى بقيت أنا، والفقير سلامة الوشلائي، فأعطاني تمرتين، وأعطاه هو واحدة، فقال: وزدني أنا أخرى كأصحابي، فقال له: أنت أخذت ثمرة أخرى أكلتها قرب الجامع، فسأله فقال: كان ذلك، أعطاني رجل ثمرة أكلتها في ذلك المكان.

(1) ت: أخبره.

(2) سويطات: المراد به الضرب بالسوط.

(3) دعة: كثيرة، وهي لغة عامية.

(4) ت: سنة.

قال: ودخل علينا يوماً وبجوارى رجل، فنزل إلى الشيخ وهو داخل ويمكن النظر منه، فوضع الشيخ مداسه، [وأتى بدبوز]⁽¹⁾، وضرب ذلك الرجل بها ضربة قوية كما تضرب البهيمة، ولم يتكلم لا هو، ولا الرجل، فسألتُ الرجل عن ذلك، فقال: لما نظرت إليه وقع في نفسي ما نستحق أكثر من هذا.

قال: ووقعت فتنة بين بلد البقالطة وطبلبة، فمات اثنان من البقالطة، وواحد من طبلبة، فمشى الشيخ الجديدى يصلح بينهم وسمع شيوخ الساحل به، فاجتمعوا معه، فاتفقت كلمتهم على أن وَجَّهَ الصُّلْحَ سَدُّ رَجُلٍ⁽²⁾ في رجل ويعطون⁽³⁾ لورثة الرجل الآخر مائة دينار ذهباً، فأبى البَقَالِطَةُ فراودهم الشيخ. فأبوا إلا أكثر، فخرج الشيخ وقال: قوموا الفتنة، ما صارت تقوم، وسمع من كان أقرب مِنِّي للشيخ أنه قال: والمائة دينار أنتم تودونها، فظهر بعد ذلك أن حجري غارت على بقرهم، ففدوها بمائة دينار ذهباً ولم تقم بينهم فتنة إلى الآن.

وحدثني الأمين أحمد بن مالوش قال: كنتُ مع الشيخ الجديدى في دار أبي عمران موسى بن علي البقري في الليل مع الفقراء لعمل السماع، وكان الشيخ هو الأستاذ، فقال لي: يا أحمد اخرج لدارك، فتغافلت، فأعاد عليّ الكلام وانتهرني، فخرجتُ وضربتُ حلقة الباب، ففتحت لي الزوجة، فقالت⁽⁴⁾ لي: حسيت السارق وهو نازل شيئاً فشيئاً، حتى حَسَيْتُ⁽⁵⁾ نفسه حاذى الشمسة، وهو نازل فلما ضربت الحلقة رجع من حيث نزل.

وحدثني الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الكنانى، عرف الجنان، قال: مشيت لبلد باجه، فبعت رحلي طيباً، وأخذتُ في الرجوع، وكان الخوفُ من العرب فقلت في نفسي: إن سلمني الله، فللشيخ الجديدى عندي نصف دينار ذهباً، وما تكلمت به⁽⁶⁾ مع أحد، فوصلت سالمأ، فحين أن وصلت للدار، وإذا أنا بالباب يُضْرَبُ فقلت: من هذا؟ قال: يا فليحي، قالت لي أمي: هذا الشيخ الجديدى، فأخذتُ نصف دينار، وعملته في جيبى، وخرجت له، فسلم عليّ، ولم أعطه شيئاً⁽⁷⁾

(1) ت: وإذا بدبوس.

(2) إسقاط الراء من: ت، ط.

(3) ت: ويعطى.

(4) ت: فقال.

(5) بمعنى أحسست.

(6) سقط من: ت.

(7) زيادة من: ت.

فقال لي: نخرج خارج البلد، فخرجنا من باب الجلادين حتى وصلنا المصلى، فجلسنا وأعطيناها بظهرنا، واستقبلنا القبلة، فقال لي: نحب فتوح السلامة، فقلتُ له: الضيافة على الوارد؟! فقال لي: والجالس من أين يجئه؟ فقلت: نعطي درهماً جديداً؟ فقال: لا، فقلت: خريبة؟ فقال: لا، فما زال يدرجني حتى قلت: نصف دينار، وإن كان تريد نزيد. فقال: لا، هذا مُتَاعِنًا⁽¹⁾ فلا نزيد شيئاً.

قال: وتكلمتُ مع والدتي، فحلفتُ أنني لا آكل طعاماً عندكم، فخرجتُ وما دخلتُ لها داراً، ولحقني غيار كبير⁽²⁾، فبقيت ثلاثة أيام بلياليها ما أكلت شيئاً عدا زبيبات يسيرات وجدتهن في مسجد، وجعت جوعاً شديداً، وكان زمن رمضان، وما عرفتُ أحداً من أصحابي بذلك، فجاءني عبيد الغرياني، وقال لي: الشيخ الجديد بعثني وراءك، وكان حينئذ بزاوية العواني، فوصلت إليه، فقدم لي فطيرتين وشهداً فأكلت ذلك، والتفتُ إلى رجل من أصحابي مشى معي وصاح عليه وقال له: تأكلون وتتركون أصحابكم⁽³⁾ فاعتذر بأن ما عنده علم بحاله، وبعث معي عبيداً لوالدتي يطيب قلبها.

وقال الشيخ الفقيه العدل أبو عبد الله محمد بن أبي زيد صاحب قصر المنستير: على ما بلغني من قُضَاة بَلَدِهِ عن الشيخ الجديد، قال: خرجتُ للقاء المشايخ في البلدان في ابتداء أمري، وكنتُ شاورتُ والدتي فأبت علي، فأول شيخ لقيتُ قال لي: ارجع إلي أُمِّكَ، قبل أن أعلمه بعدم رضاها، وكذلك الثاني والثالث، وما رجعت إليها حتى كَلَّمَنِي الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ بذلك، يشيرُ لكثرة أمر الشيوخ له بذلك.

وحدثني من نثقُ به، عن الشيخ صولة الليلي قال: مشيتُ للسلطان أبي العباس أحمد، فأخذت عادتي، وأعطاني عَوَايِدَ العرب نفرقتها على يدي، فصَحَّ لي [مال كثير]⁽⁴⁾، فأخذت مائة دينار ذهباً، وعملتُها في خريطة في جَنِيبي، وأضمرت في خاطري أنها للشيخ الجديد، وَمَا عَرَفْتُ أَحداً بذلك، فلما وصلنا وإذا بِالنَّجَعِ قرب القيروان، قلت: أمشي وأتقرب إليها⁽⁵⁾ لعلني أرى بعض المرابطين أبعثها معه له،

(1) أمتاعنا كلمة عامية، بمعنى: لنا. (2) ت: كثير.

(3) ط: أصحابكم، وفي ت: صحبكم بصيغة الإفراد.

(4) ت: مالا كثيراً، وفي ط: مالٌ كَثُرَ. (5) ت: لها.

فلم أجد أحداً، فرأيت رجلاً على فرناقة⁽¹⁾ عالية وهو جالس، فقلت: أمشي لذلك الرجل وأبعثها معه، فلما وصلت إليه وجدته هو، فنزلت وسلمت عليه، فقال لي: أبطأت علي، فقلت له: ما الأمر؟ فقال لي: ما نطول معك، أعطني المائة دينار التي هي في جيبك في خريطة فأخرجتها له.

وكان الشيخ صولة هذا نافع في ابتداء أمره على السلطان أبي العباس أحمد، فجاء الشيخ الجديد لينزلته، فوجدهم في الرحيل، فلما نزلوا من رحيلهم ونصبوا بيوتهم وبقي⁽²⁾ بيت الشيخ صولة [المذكور]⁽³⁾ لم تنصب، قال لزوجته الحاجة: ما لك؟ فقالت: لا أنصبها إلا أن توقف لنا أنت عمودها، فقال: نعم. فأخذ بيده العمود الوسطاني وأوقفه بيده، وقصدت الحاجة [بذلك أن]⁽³⁾ يكون⁽⁴⁾ زوجها شيخ العرب، بحيث لا يجري عليه شيء، وكان صولة في هذا غائباً فلما ورد قال له: امش للسلطان واخدمه، فقال له: كيف أمشي⁽⁵⁾، وأنا فعلت [كذا وكذا؟]⁽⁶⁾ قال: امش ولا تخف، فمشى للسلطان وأتى له⁽⁷⁾ على غفلته، فقبل عليه، وبقي شيخ العرب لا يساويه أحد، حتى مات بتونس، ودُفن بدار الشيخ محمد بن خلف، وكان إذا توعدده أحد من المرابطين يقول له: الشيخ الجديد أقام لي عمود البيت، فلا أخاف، فكان كما ظنه ببركة الشيخ، وكان يعطي زكاة إبله للزاوية ما يبيعون في كل عام نحو تسعين ديناراً ذهباً إلى غير ذلك.

فإن قلت: أما ما يعطى من زكاة ماله، فواضح قبوله، وأما ما سوى ذلك كالمائة دينار السابقة فما وجه جوازه.

قلت: أجاب هو رحمه الله عن ذلك في حياته على ما بلغني بأن قال: الواجب على السلطان أن يعطي ذلك بيده من بيت المال، فلما لم يفعل ذلك أخذناه على يد شرار الناس.

وكرامات الشيخ الجديد، تحمل التأليف وما ذكرناه يدل على ما بقي منها.

(1) الفَرْنَقَةُ: المكان المرتفع.

(2) ت، ط: بقيت. والصواب كما أثبتناه لأن البيت مذكر.

(3) سقط من: ت. (4) ت: ليكون.

(5) ت: أمشي «له». (6) ت: وفعلت.

(7) ت: فاتاه.

ذكر بقية أخباره

لما مات شيخنا الشيببي، أخذ الشيخ الجديد في أُهْبَةِ السَّفرِ للمشرق برسم الحج، فكلّم الشيخ عبيد الغرياني في أن يتقدم على الزاوية المذكورة فأبى، فحدثني الشيخ عبيد المذكور، قال: لما هربتُ من التقديم عليها غاية الهروب، قال لي: يا عبيد، إنا ما نقدمك على عمارتها، وإنما نقدمك على حَلَّهَا وَغَلَقِهَا، فإن جاءك أحدٌ فتحتّها له، وإلاّ غَلَقْتَهَا وأنا إن كانت نيتي فيها صالحة فحالتها يزيد على ما هي عليه الآن، وإن كانت نيتي إنما هو لنأكل بها [فأنا مشى حلي بها]⁽¹⁾ ومشيت عنها. فسهل علي ذلك، وقبلت التقديم، ففيها اليوم مائة وخمسون إنساناً صغاراً، وكباراً بين طلبة يتعلمون العلم، وَقُرَاءٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وهم الأكثر، ومائة نفس، عيالات الرجال الذين يَخْدُمُونَ الزاوية دخلاً وخرجاً، وجاءني طَبَّاحُ الزاوية في أول الليل وقال لي: ما بقي في الزاوية شيءٌ لا من طعام، ولا من إدام، ولا من حَطَبٍ ولا من غير ذلك؛ عدا ما يأكلونه غداً. قال: فَتَشَوَّشْتُ من ذلك، وكان السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد بالجريد، فوصل من الغد القيروان، ونزل بها، فاحتجت لأن أخرج أن أسلم عليه، فلما وصلتُ إليه، وإذا برجلٍ يقول: الشعيرُ الذي بعث المرابط عامر الزعبي، أبت الخيلُ أن تأكلهُ لِقَدَمِهِ، فتكلم الحاسدون وقالوا: هالاً⁽²⁾ بَعَثَ شَعِيرًا طَيِّبًا أبيض؟ فقلت له: سيدي عامر الزعبي، نفعمكم الله ببركته، ما يعرف أبيض من غيره، وإنما هو أمر بشعير، وما قصد ما بعث لكم بعينه، وهذا الشعيرُ يصلح للفقراء يعملونه بَسِيسَةً. فقال: أعطوا ذلك لسيدي عبيد، فوضعوا لي ستة عشر قفيزاً، وقلت للسلطان: قربتم من تونس، فأهل المحلة ينادون الديار، يعني بذلك إشارة لدخولهم لتونس، فقال: نعم ينادون بذلك، وَأَمَرَ أن يُعْطَى لي ما في خزانته من سَمِيدٍ وَزَبِيبٍ وجلوز، وغير ذلك؛ فوضعوا لي ما فيها مع بعض ما عند خواصّ القَوَادِ. وسمع فقراء القيروان بذلك، فأتوني، وأعطيت لكل واحد منهم وية سَمِيدٍ فأقل. ورفعت لأهل الزاوية من ذلك ما أكلوا منه شهراً كاملاً، كُلُّ ذلك ببركة صاحبها.

(2) ت، ط: هَلْ لَأ.

(1) سقط من: ت.

وقال الحاج مبارك الهيشري: سمعت الشيخ الجديدي لما عزم على الحج يقول: أزعجني للسفر موت الشيخ الشيببي، وذلك أنه كان يسدُّ عَنِّي [الباب] ⁽¹⁾ الذي كان فيه، يعني به من قضاء حوائج الناس ⁽²⁾ على يديه من السُّلْطَانِ، وَالْقَوَادِ، والعرب وغيرهم، واليوم إن امتنعت من الوقوف، يتكلم الناس، وإن وقفت فيه، دخلت البحر، وأنت يا مبارك إن جاء بك الله تَجِيءُ، فحججت بعده بعام مع جماعة من أصحابنا فوجدناه، فعمل لنا خُبْزاً، ولحمًا، وأكلناه، واختلى بي في بيت، وسألني عن الصغير والكبير، وقال لي: رأيتُ في منامي كأنني وجدتُك عند باب الحرم، فأخذت بيدك ودخلت بك الحرم، فعلمتُ أنك تَجِيءُ، ووعدنا أنه يمشي معنا لإفريقية وعمل الزاد، وفرحنا فرحاً شديداً، واشتريتُ ناقة مكية، فصكتني على جنبي الأيمن، فكسرت لي ضلعة، وأمرتهم بالرحيل، وجئت إلى الشيخ، فوجدته في مسجد الخيف مع رَجُلَيْنِ، فأخذت ناحية، فأتاني وعرفته، فأدخل ⁽³⁾ يده تحتي وَرَقَانِي ⁽⁴⁾، وَذَلِكَ ذَلِكَ الْمَحَلُّ حتى برئت من الفور، وقال لي: امش، ما أنا مخلي لنفسي، كنت عازماً فما خليت، وكنا رفعنا له مائة وسبعين ديناراً ذهباً، منها من عند الشيخ صولة سبعون، فما أخذ منها شيئاً وفرقها على أهل الحرم.

قال: وكان إذا جاء لِلطَّوَافِ، يطوفُ معه جميع الحاضرين رجالاً ونساءً، يستغنمون الطواف معه، وَحَجَّ ثلاث حَجَجٍ، وكان يقول: إذا مت هُنا، هو أحسن لأصحابي.

قلت: فكان كما قال. وقد تقرر مما تقدم أولاً، أن زاويته بناها على أساس، فعلي بن أبي طالب أمر بشرائها ورسول الله ﷺ. قال: مادته منا، فما زالت في زيادة لا في عدد من يسكنها، ولا في حرمتها، فجرت العادة بعد موت الشيخ أن من وصلها وعليه طلب مخزني ولو ألف دينار ذهباً، فإنه لا يتعرض له القواد ولو هرب من سجنهم.

ثم جاء بعض القَوَادِ، فذكر عنه أنه أمر خُدَّامَهُ بإخراج رجل هرب إليها من سجنه يوم العيد لخروج من فيها لصلاة العيد، ثم بعد صلاة العيد، خاف القائد على

(1) زيادة من: ت.

(2) ت: الخلق.

(3) ت: فدخل.

(4) من الرقية.

نفسه من الواقف في الزاوية وهو أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ عبيد ومن يعينه، فأتي بالرجل ورده إليها، واعتذر أنه ما أمر بشيء، فصاح أهل الزاوية عليه، ويقال: إنهم رموه ببعض حجر، وكتب للسلطان أبي فارس عبد العزيز، وكتب الشيخ المفتي أبو علي عمر المَسْرَاتِي على ما بلغني له، وهو يعرفه بالواقع، فسمعت أنه جاء الجواب بأن من قرب من الزاوية، لا يتعرض له ولو لم يدخلها، ومن تعرض له تلزمه⁽¹⁾ العقوبة. وشاع عند الناس أنه من المسجد المعروف بمسجد ابن عزاز، وجعل الله في الزاوية المذكورة بركة من مَبْدَاهَا إلى الآن وفي صاحبها.

ومن⁽²⁾ بركتها؛ أَنَّ الشَّيْخَ الفقيه المذكور⁽³⁾ كان من أصحابه، وتعلم العلم بالقيروان على شيخنا الشيبسي كما تقدم، ومشى لتونس فقرأ بها على شيخنا ابن عرفة أربعة أعوام خاصة، ومشى الشيخ الجديد، وأتى به إلى الزاوية، فكان مدرستها، فصار يعمل الميعاد بمسجد بقربها لما اضطرت الناس إليه، يعرف بمسجد ابن طرخانة يعنون بذلك يعقوب بن خليفة، ثم تولى الفتيا.

ومن حسناتها الفقيه المكرم، المجتهد، أبو علي حسن بن عبد الله اللواتي عرف الحلفاوي، فحدثني الحاج مبارك المذكور، أنه جاء للزاوية وهو طفل صغير، فقرأ بها حتى حفظ القرآن، وقرأ العلم، وصار إلى ما صار إليه من تدريس العلم وانتفع⁽⁴⁾ الناس به في السؤال والصلح بين الناس.

وكذلك الفقيه أبو الحسن علي بن عُقْبَةَ الوَسْلَاتِي، قرأ القرآن بها، وتعلم العلم بالقيروان، وهو ساكن بها، وانتقل لتونس فقرأ بها على شيخنا ابن عَرَفَةَ سنين كثيرة، وتولى قضاء بلد المنستير وانصرف منها، ورجع يعمل الميعاد بالقيروان حتى مات.

وَكُلُّ بلدة من عمالة القيروان غالب الحال، أن فقيها قرأ بالزاوية، وكذلك كثير ممن قرأ فيها بالبادية، ويصل إليها الناس للقراءة من أقصى المغرب.

(1) ت: لزمته.

(2) ت: فمن.

(3) المراد بالشيخ الفقيه المذكور هو: أبو علي عمر المَسْرَاتِي.

(4) ت: وانتفاع.

والشيخ الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي زيد، صاحب قصر المنستير المتقدم ذكره، وهو من أصحابه قديماً، سلك في قصر المنستير طريق الشيخ ابتداء ودواماً⁽¹⁾، وعنده من الفقراء نحو المائة، وزاد أنه جمع لهم من الربع ما يقوم بهم أو يقارب.

وكذلك الشيخ الصالح أبو فارس عبد العزيز ابن الشيخ الصالح عياش المتقدم ذكره قبل هذا من خواص الشيخ أيضاً، ومن⁽²⁾ فقراء زاويته، وهو بزاويته بطبلبة من عمل المهدية في خير كبير، وناس يقرؤون القرآن، ويأكلون عليه، وكثيراً ما يعين زاوية شيخه الجديد بالطعام الكثير، وخصوصاً عند الحاجة، وكل من يرُدُّ عليه من جميع الناس، يضيفه ويحلف له، ولو كانت محلة السلطان، وعربها يقوم بها، وكل ما يكتب للسلطان غالب الحال، تقضي فيه الحاجة، وكل من يهرب إليه من قواد السلطان وشيوخ العرب وصل⁽³⁾ الأمان، ويكتب فيهم فيجيئه الجواب بما يريد.

وكذلك الشيخ أبو بكر القرقوري⁽⁴⁾ بصفاقس كان من تلامذته، وقرأ العلم بالقيروان على شيخنا الشيبلي، وسلك طريق الشيخ الجديد في زاويته، ففيها خلق [كثير]⁽⁵⁾ من الناس، وزاد بأنه يعمل الميعاد في مسجد الشيخ أبي الحسن علي الربيعي المعروف باللخمي لأنه فقيه عراف، مُوَفَّقٌ للجواب.

فجميع تلك الأوطان، والعمالات، عامرة بفقرائهم، وطلبتهم، والجميع حسنة من حسنات الشيخ الجديد نفع الله الجميع به.

وحدثني الشيخ الصالح أبو علي سالم بن أبي القاسم القرشي ويعرف⁽⁶⁾ بالقاسمي شقيق علي المتقدم ذكره، عمن حدثه قال: خرج أبو بكر القرقوري⁽⁷⁾ هذا، وعبد العزيز بن عياش، ومحمد بن أبي زيد، وغيرهم في حال صغرهم خارج القيروان لتفريج خواطرهم، وكان معهم الشيخ الجديد، وأخذوا يمزحون [ويلعبون

(1) ت: انتهاء.

(2) محو في: ت.

(3) ت: وصلوا.

(4) ت: الكركوري.

(5) سقط من: ت.

(6) الواو سقط من «ويعرف»، في: ت.

(7) ذكر هنا بالقاف في ت، خلاف ما مرَّ، أنه ورد «بالكاف».

فقال لهم الشيخ الجديدي⁽¹⁾: أنا نحكم بينكم، فأنت يا أبا بكر، وليتك قيادة ضفّاقس، وعملها، فقف بمن معك، وأنت يا محمد بن أبي زيد، فقد وَلَّيْتُكَ قيادة المُسْتِير وعملها، فقف بمن معك. ولم يتفطنوا حينئذ لما قال، فتبين بعد ذلك⁽¹⁾ أن كل واحد منهم هو شيخ ما حَدَّ لَهُ.

ولما مرض الشيخ الجديدي، تزوج امرأة وأعطاهما في جملة نقدتها خاتمه، ومات بعد ثلاثة أيام ولم يصبها، وأبت أن تبيع الخاتم المذكور لمن سألها ذلك التماساً لبركة الشيخ.

ومات في أواخر عام⁽²⁾ ستة وثمانين وسبعمائة أو في أوائل سنة⁽³⁾ سبع [وثمانين وسبعمائة]⁽⁴⁾. ودفن هو والشيخ جميل الحبيبي بباب المعلا، وقبراهما مزاران⁽⁵⁾.

383 - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن يونس الغساني عرف بابن قطانية:

قد تقدم أنه قرأ على شيخنا أبي محمد الشيبني ولم تكن له قراءة بتونس. وكان رحمه الله تعالى صالحاً عالماً هُوَّيْنًا⁽⁶⁾، غلب عليه معرفة التهذيب المعرفة التامة، وكان يقيد ما سمعه في حواشي تهذيبه ولم ينتفع غيره بما كتب إذ لم يجزه غيره لكثرتة.

ولما مات شيخنا أبو محمد الشيبني رحمه الله تعالى، جلس مجلسه للتدريس، وهو [مسجد الشيخ في القديم]⁽⁷⁾، وحضر جماعة من خواص أصحابنا عنده فبقي فيه مدة، ثم سافر إلى بلاد الحامة، فكان فيها مُفْتِيّاً بِلِسَانِهِ، أقام فيها مدة، ثم رجع لبلده، ولم يعمل ميعاداً بعد، لكونه أُصِيبَ في عَقْلِهِ حتى مات.

وَسُئِلَ وهو بالقبروان عمن اشترى من غاصب غنماً وذبحها وأخذ في بيعها:

هل يسوغ الشراء من لحمها أم لا؟

(2) ت: سنة.

(4) سقط من: ت.

(6) ت: هوناً.

(1) سقط من: ت.

(3) ت: عام.

(5) ت: مزار.

(7) سقط من: ت.

فأجاب بجوازه، لأنه لما ذبحها ترتبت في ذمته، وشنع ذلك عليه، وكان ذلك في ابتداء قراءتي، وتشنيعهم عليه إن كان من سدّ هذا الباب على⁽¹⁾ العامة لئلا يتمادوا على الشراء من الغاصب مطلقاً فواضح، وإلا فما أفتى به الشيخ هو ظاهر قول مالك في المدونة في كتاب الغصب؛ وأخذ مثله من قول ابن القاسم في المجموعة إن طحن الغاصب القمح فإنه فوت وعليه مثل القمح، وفي سماع يحيى عن ابن القاسم: أن ربها مخير بين أخذ قيمتها أو أخذها بعينها على ما هي عليه. فعلى هذا لا يجوز بيعها.

وكذلك أفتى فيما إذا نقل الغاصب الطعام المغصوب لبلد على مذهب ابن القاسم، واختاره شيخنا أبو مهدي عيسى الغبريني، ولم يرتض تشنيعهم عليه فيها على ما بلغني، ولم يبلغه ما أفتى به أولاً وبه أقول.

وتوفي رحمه الله تعالى بالقيروان، ودُفِنَ بجبانة المرباط أبي يوسف الدهماني المجاورة لسور البلد من جهة الجوف [رحمه الله تعالى ورضي عنه]⁽²⁾.

384 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد المدلجي⁽³⁾ عرف المزالي:

كان رجلاً صالحاً، عابداً، زاهداً، يأكل من خِذْمَتِهِ للفلاحة بالحرث والسقي والسني، وغير ذلك. لا يعمل وغير ذلك حتى كبر سنه، وضعف بصره، فلزمه المسجد ببلده الشفاف من عمل مدينة القيروان.

وله كرامات متعددة حدثني بها من نثق به:

منها: أنه حَجَّ من بلده سعيد ابن خليفة التُّوزَانِي فطبخت زوجته لحماً، وعملت فطائر، وجعلت ذلك في منديل، فأخذه الشيخ أبو عبد الله محمد هذا ولم يعلمها⁽⁴⁾، وكان ذلك يوم عرفة، فعرفه الحاج سعيد في الطواف فقال له: اسكت يا حاج سعيد ولا تعلم بي أحداً، وناوله المنديل بما فيه، وعرفه أن أهله بخير، فلما وصل أخفى المنديل حتى حضرته الوفاة، قال لزوجته: أتعرفين هذا المنديل؟ قالت: نعم، ومدّه⁽⁵⁾ لي، وفيه فطائر، فأعلمها بما تقدم، وكان الشيخ حياً.

(1) ت: من. (2) سقط من: ت.

(3) ت: المذحجي. (4) ت: يعملها.

(5) ت، ط: مدّ، والصواب ما أثبتناه.

وقال الشيخ الحاج أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الكرفاح: لما حَجَّ عياش ابن الشيخ أبي فارس بن عبد العزيز الطلبي شاع أنه لما⁽¹⁾ مات بالمشرق، وبكت الناس عليه، ووقع العزاء فيه، وصلت إلى الشيخ المزالي، فسَلِّمت عليه فقال لي: سلِّم على الشيخ عبد العزيز، وقل له: لا بأس على ولدك وأنه بخير، فعَرَفته، فأخذ كلامه بالقَبُولِ، ودخل إلى الدار، وقال لأهله: بدلوا بالفرح، فإنه أخبرني من هو ثقة أنه بالحياة، فكان كذلك.

وكان بلال ابن أخيه أحمد ربطه العرب، ورموا عليه أربعين ديناراً ذهباً، وكانوا ببلد الضرمين، فخرج الشيخ من⁽²⁾ مسجد بلده، إلى قبلة ليسخن بالشمس، وإذا ببلال داخل فقالوا له: بكم فديت، فقال: ما افتديت⁽³⁾ بشيء، ولكن عمي مَدَّ لي العكاز⁽⁴⁾، فعملتُ يدي فيه وجذبتني إليه.

وأتاه رجلٌ طلب منه أن يمشي معه لزرعه، لأن رجلاً أسود من العرب برك فيه جملة وهو يحصد بمنجله فمشى معه، فكلمه⁽⁵⁾ في أن يخرج فأبى، فضرب سَبَّابَةً يَدِهِ الْيُسْرَى بمنجله، فأزاله فسقط الرجلُ إلى الأرض من وجع ما نزل به وانصرف خائِباً.

وأتى أناسٌ من العرب لِبِئْرِهِ⁽⁶⁾ وكان قليل⁽⁷⁾ الماء، وأخذوا يملؤون منه⁽⁸⁾ بأديلتهم، فقال لهم: الآبار هنا كثيرة، ونحن مضطرون لهذا الماء، فأبوا، وتمادوا، فوقع رجلٌ منهم في البئر، فصاحوا وأخذوا يهجمون على الشيخ فقال: لا تخافوا عليه، ارفعوه صحيحاً، وانصرفوا، فكان كما قال.

وَطَابَ زَرْعُ سَانِيَّتِهِ، وكان زمن غلاء، فقال أهل بلد المهران: نحصدها بالليل⁽⁹⁾، ونأكلها، فوصلوا إليها فلم يجدوها، فعلوا ذلك ثلاث مرات في ثلاث ليال وهم لا يجدونها، فأتوا إليه وأعلموه وتابوا. والنقل عنه في هذا الباب كثير جداً.

(1) زيادة من: ت.

(2) سقط من: ت.

(3) ت: فديت.

(4) ط: الكعاز لعله خطأ مطبعي.

(5) ت: فكلّم.

(6) ت، ط: لبيره.

(7) ط: وكانت وقليلة، التصويب من: ت.

(8) ط: منها.

(9) ت، ط: بالليل.

وتوفي رحمه الله ببلده، وصلى عليه بها بعد أن اجتمع⁽¹⁾ عليه خلق كثير⁽²⁾. وجيء به إلى القيروان، فاعتقد أهلها أنه لم يصل عليه، فخرجوا، ومن جملتهم شيخنا البرزلي على ما بلغني، وكان يومئذ مُفتياً، فطلب القائد منه أن يصلي عليه جماعة، فلم يفته [بذلك]⁽³⁾ فلما دفن صلى عليه⁽⁴⁾ القائد وحده، وهو أحمد بن ظافر لكونه كان يعتقده اعتقاداً تاماً. وكان كثير الزيارة له، لما يسمع من كراماته. ودفن بباب سلم. وقبره مزار [رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به آمين]⁽⁴⁾.

385 - ومنهم أبو العباس أحمد بن سلامة الموساوي عرف النحالي [رحمه الله]⁽⁴⁾:

منسوب إلى بلده نحالة من جبل وسلات. قد تقدم أنه قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد بن فندار، وكان من كبار طلبته، ثم ارتحل لتونس وقرأ بها على شيخنا ابن عرفة سنين، وقدمه قاضياً بجبل وسلات، فحكم به حتى مات. وكان عدلاً في أحكامه وله أخلاق حسنة.

وقرأت عليه الفقه بالقيروان في داره مع غيري قبل رحلته لتونس زائراً في حال قراءتي بها، فعملت له طعاماً، وسرتُ للموضع الذي نزل به، وجاء معي لأكله، فبينما نحن في الطريق فقال لي: ما تقول في شهادة الفهم هل يعول عليها أم لا؟ فلم يحضرنني نص، إذ لم أنقلها فيما مضى، ولا سمعتها من غيره، فأخذت أقول: الذي يظهر لي⁽⁵⁾ كذا. فقال لي⁽⁵⁾: ما يقول هذا إلا مَنْ لم يقف على نص عليها، وقد نصَّ عليها القاضي أبو الوليد بن رشد في بيانه، وذَكَرَ فيها خلافاً. فشكرته على ذلك، لأنه قصد اختباري بها هل أنا حافظ أم لا؟

وقد كان رحمه الله تعالى يقول لي: ما زلت نعرف قيمتك من صغرك من اليوم الذي حضرت فيه معنا على الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد ابن قليل الهم، وجلبتُ كلام ابن الحاجب في مسألة الاستخلاف، ولا حضرنا نصَّ فيها، وما كان في الميعاد أصغر منك سناً.

(2) سقط من: ت.

(4) سقط من: ت.

(1) ت، ط: اجتمعت.

(3) زيادة من: ت.

(5) سقط من: ت.

ولما اشتهر بالعلم، إخترته المنية فمات بالقيروان، ودُفن بباب تونس بجوار حوطة الشيخ الحسن القابسي من جهة الغربي، ووجدت قبره قد دثر، فأمرت⁽¹⁾ من جده [رحمه الله تعالى ورضي عنه]⁽²⁾.

386 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن هلال القمودي عرف دينار:

قد تقدم أنه قرأ على الفقيه أبي عبد الله محمد بن فندار، وارتحل لتونس فقرأ به على شيخنا ابن عرفة، وكان حافظاً لمسائل التهذيب تأليف أبي سعيد البراذعي، فإذا قال الشيخ ابن عرفة في درسه في مسألة غريبة جلبت في غير محلها، أين هذه في المدونة؟ بادر الفقيه دينار هذا إلى ذكر موضعها، وجلب لفظها على الصواب. وكان⁽³⁾ مما عرف له ذلك.

وتوفي رحمه الله تعالى سنة خمس أو ست وتسعين وسبعمائة وقد ناف عن الأربعين سنة يسير، ولو عاش لغلب على الظن سبقيته لنا فيما تقدمنا فيه من قضاء، وشهادة، وغيرهما؛ لكبر سنّه وبسبق قراءته بتونس، فقد كان أظهر منا بها. فأراحه الله سبحانه وتعالى من كثرة الحساب.

وَصَلَّى⁽⁴⁾ عليه شيخنا القاضي الفقيه أبو يوسف يعقوب الزعبي. ودفن بباب سلم في حوطة الشيخ أبي عثمان سعيد بن الحدا بقصد التبرك. وقبره معروف [رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به آمين]⁽⁵⁾.

387 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد البزليتي رحمه الله:

قد تقدم أنه قرأ على الشيخ أبي عبد الله محمد بن فندار. ثم ارتحل لتونس فقرأ بها على شيخنا [أبي عبد الله محمد]⁽⁵⁾ ابن عرفة حتى مات. وكان عالماً، صالحاً، ناسكاً، ورعاً، ذا سمت حسن، وقافاً بالليل، نفاعاً لخلق الله من عند السلطان وغيره، ولا يبخل بجاهه، فكان كل من يعرفه أو يقصده، يتسبب له فيما يليق به من قضاء، أو عدالة، أو إمامة مسجد، أو أخذ دراهم من حُس على الفقراء أو غير ذلك؛ وكان كلامه مقبولاً، وكان للناس فيه غاية

(2) سقط من: ت.

(4) ط: وَصَلَّى.

(1) ت: وأمرت.

(3) ت: فكان.

(5) سقط من: ت.

الاعتقاد، وكان السلطان أبو فارس يأتي إليه بقصد زيارته، ويعطيه المال الكثير يفرقه على يديه للفقراء والمساكين، وكذلك خَوَاصُّ السلطان يعتقدونه كُلُّهُمْ.

وحدثني بعض العُدُول قال: كان الشيخ ابن عرفة إذا عَزَمَ على أن يُبْطَلَ الميعاد يوماً، يبعث له في ليلة ذلك اليوم من يعلمه بذلك حتى لا يتعب.

وكان مع كمال فقره، عنده زوجة تسكن مع أبويها، وهو يسكن علواً⁽¹⁾ من قديم الزمان يلازمه، فكل من يقصده يجده ويضيفه من القرويين وغيرهم؛ فجرت العادة يتعشى عنده من الواحد إلى العشرة، وحضرتُ عنده ليلة من الليالي فَتَعَشَّيْتُ عنده من طعام أتى له به أَهْلُهُ، وهو بازين من شعير بالمسلي، فما أكلتُ في ذلك الوقت أذكي منه، وهكذا جرت عادةُ أهله ببعث عشاءه إليه.

وقال الفقيه عتيق بن عبد الحق الشقنصي: قال لي الشيخ ابن عرفة: يا عتيق، كم أنتم اليوم عند الفقيه البزليتي؟ قلت: كذا، قال: ما غداؤكم وعشاؤكم؟ قلت: كذا. قال: كلُّ من عنده؟ قلت: نعم، في هذا الزمان، قال: فهل رأيته يخرج الدراهم من تحت⁽²⁾ السجادة؟ قلت: لا، قال: فمن أين هذا إذن؟!

وكان الفقيه دينار المتقدم ذِكْرُهُ من خواصّه، ومن الملازمين لعلوه ليلاً ونهاراً، وكان قدّم للعدالة بتونس، وَلَمْ يَرْضَ أن يجلس في الحانوت، فكان يشهد في موضعه لله عزّ وجل بلا أجره.

وقد صعد له رجلان في علوه للشهادة، فسمّعهما ومَدَّا له الوثيقة ليشهد فيها، فقال: ما عندي محبرة ولا قلم، فمشيا ليأتيانه بذلك⁽²⁾ فقال أحدهما لصاحبه⁽²⁾: وما نعتقد أن في الوجود رجلاً⁽²⁾ مثله، هذا عدل تونس وما⁽³⁾ عنده في موضعه محبرة.

وكان شيخنا الغبريني، لَا يُقَدِّمُ أحداً لقضاءٍ، ولا لشهادةٍ، إلا بموافقة الشيخ ابن عرفة، فلما أراد تقديمي للقضاء شاوره، فقال له: ما أعرفه، وإنما أعرف فلاناً وفلاناً، وكلاهما من طلبته، وكنت ما حضرت عنده قط، فقال له: الذي يحفظ تأليفك، وما يحدد النظر فيه على الدول إلا نظر فيه لحفظه استحق⁽⁴⁾ هذا⁽⁵⁾ أن

(1) سقط من: ت.

(2) ت: أيستحق.

(1) ت: علوي.

(3) ت: ولا.

(5) سقط من: ت.

يقدم عليهما؟ قال: نعم، قال: ذلك ابن ناجي، قال له: افعل. ثم إنه بعث بعد صلاة العشاء الأخيرة للشيخ أبي عبد الله اليزليتي هذا، وسأله عن كلام شيخنا أبي مهدي، ولم يعينه له، فقال: صحيح هو أحسن منهما، فتأخر تقديمي حتى حضرت يوماً، وتكلمت من حفظي دون مطالعة دُولِهِمْ بكلام كثير، وكان اليزليتي حاضراً، فمشى خلف الشيخ، ودخل عليه سقيفته، وقال له: حفظكم الله تعالى، كنتم سألتموني عن فلان، وفلان، وابن ناجي، فرجحتكم عليهما. قال: صحيح. [قال]⁽¹⁾ فالذي حضر اليوم عندكم هو ابن ناجي. قال: ما شهدت به حق، وتقدمت بعد تقريره لجربة قاضياً.

[ثم إن الشيخ اليزليتي]⁽²⁾ اخترمته المنية⁽³⁾. ولو عاش كانت طريقته الإمامة بجامع الزيتونة صلاة وخطبة لا يزاحمه أحد في ذلك. وتوفي رحمه الله تعالى بتونس سنة 800 في أوائل شهر رمضان رحمه الله تعالى [ورضي عنه ونفع به]⁽²⁾.

388 - ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي الشريف عرف التكوذي⁽⁴⁾ رحمه الله:

قد تقدم أنه قرأ على شيخنا الشيبلي، ثم قرى على شيخنا البرزلي، ثم ارتحل لتونس، فقرأ بها على شيخنا أبي عبد الله محمد ابن عرفة سنين.

وكان عالماً، صالحاً، خاشعاً، ذا سميت حسن، يُطْلَبُ مِنْهُ الدُّعَاءُ مِنْ صِغَرِهِ.

وقدم من تونس مدرساً ببلدة القيروان، فجلس في المسجد المعروف بمسجد أبي عبد الله محمد القلال لِقُرْبِهِ مِنْ دَارِهِ، فكثرت حضور الطلبة والناس عنده، لكونه كان يتكلم بالوعظ على التفسير، والرقائق بكلام حسن.

ومات في زمانه الفقيه الخطيب؛ أبو إسحاق إبراهيم، بن عمر الدهماني، فخطب القاضي يومئذ أبو العباس أحمد الصَّنْهَاجِي أَشْهُراً عِوَضَهُ، ورجا أن يخرج له الظهير بذلك، وأظنه كان السلطان أبو العباس أحمد مسافراً عن تونس. ثم أراد السفر لأهله بتونس فأراد أن ينوب عوضه الفقيه ديناراً المتقدم ذكره، فقبل له: تخاف أن يستقل بالخطبة لمحبة شيخنا ابن عرفة فيه، وما جاء إلا زائراً. فبدا له فيه، ثم جئت في تلك المدة من تونس زائراً، وأتيْتُ للسلام عليه، فقال له من

(2) سقط من: ت.

(4) ت: الكمودي.

(1) زيادة من: ت.

(3) ت: الوفاة رحمه الله تعالى.

حضر: قدّمه للنيابة عنك⁽¹⁾ فإنه سبقت له الخطبة قبل رحلته لتونس بجامع الزيتونة بالربض، فبلغني أنه قيل له: كان يخطب في كل جمعة بخطبة جديدة، فإن نيته يُطلبُ عليه النَّاسُ، فتخاف أنه يرجح عنك، فاختر الفقيه أبا محمد عبد الله هذا، فقدمه نائباً عنه، فلما رجع إلى القيروان بعد غيبته مدة من أشهر مكَّنه الخطيب من خطبته، ومشى لتونس، فتكلم له مَنْ نَابَ عَنْهُ بأنه يقدم خطيباً، وكان السلطان أعطاه قبل ذلك ثمانين ديناراً ذهباً، وكسوة، ومرة أخرى نحو ذلك بعد تقديمه. ليأخذ المرتب المعروف على الإمامة بالجامع صلاةً وخطبةً ليستعين به، وذلك ثلاثة أرباع ثمن الدينار لكل يوم، فقدمه السلطان المذكور على ما ذكر، وكنت حينئذ بتونس، وعرضت لي بالقيروان حاجة ضرورة، فلما وصلتُ إليها مشيتُ لأُسلمَ على القاضي، فقال لي: سَمِعْنَا أَنَّ الشَّرِيفَ قَدَّمَ خَطِيباً وَإِمَاماً وَلَا صَحَّ عِنْدَنَا، قلت له: تقدم، وَخَرَجَ لَهُ الظَّهِيرُ، فَضَجَرَ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الضَّجَرِ حِينَئِذٍ، وَوَصَلَ وَصَلَّى بِالْجَامِعِ الْخُطْبَةَ وَسَائِرَ الصَّلَوَاتِ، فَكُتِبَ فِيهِ رِسْماً بِمَا يَقْتَضِي تَجْرِيعَهُ⁽²⁾، وَبَعَثَ بِهِ لِلْسلْطَانِ، فَمَشَى هُوَ لَهُ، لَكُونَهُ كَانَ مَسَافِراً، وَعَرَفَهُ وَقَالَ: أَوْ مَنْ نَابَ عَنْهُ: يَا مَوْلَانَا، لَمَّا أَنَّ قَدَمَنِي الْقَاضِي نَائِباً صَلَّى مَعِي⁽³⁾ جَمِيعَ النَّاسِ وَلَا مَتَكَلَّمٍ، وَالْيَوْمَ لَمَّا قَدَمْتُمُونِي بِظَهِيرِكُمُ الْكَرِيمِ، عَمَلُوا فِي رِسْمٍ، وَعُلُوُّ النَّظَرِ لَكُمْ، فَلَمَّا وَصَلَ الرَّسْمَ وَفِيهِ شَاهِدَانِ، فَعَرَفْتَ أَنَّ السُّلْطَانَ كَتَبَ تَحْتَهُ: لَا عَمَلَ عَلَى شَهَادَتِهِمَا، لَثُبَتْ عِدَاوَتُهُمَا لَهُ عِنْدِي، فَبَقِيَ يَصْلِي مَدَّةً. وَلَمْ يَصَلِّ شَيْخَنَا الْفَقِيهَ الْقَاضِي الْمَفْتِي أَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبَ الزَّعْبِي وَرَاءَهُ، وَصَلَّى فِي دَارِهِ ظَهراً أَرْبَعاً، فَسَمِعْتُ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا سَمِيرَ عُبَيْدَ الْغُرَيَانِي قَالَ لَهُ: هَذَا لَا يَلِيقُ بِكَ، إِمَّا أَنْ تَصْلِيَ خَلْفَهُ، وَأَعِدِ الظُّهْرَ أَرْبَعاً، وَإِمَّا أَنْ تَخْرُجَ لِلرَّبْضِ⁽⁴⁾، وَتَصْلِيَ الْجُمُعَةَ، فَاخْتَارَ الثَّانِي، فَكَانَ يَخْرُجُ وَيَصْلِي مَأْمُوماً، وَمَاتَ السُّلْطَانُ، وَتَقَدَّمَ عَوْضُهُ وَلَدَهُ أَبُو فَارَسَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَكُتِبَ لَهُ فِيهِ رِسْماً بِشَهَادَةِ شَهِدٍ فِيهِ غَيْرُ الْعُدُولِ، وَأُثْبِتَهُ الْقَاضِي بِمَا يَقْتَضِي عَزْلُهُ، فَلَمْ يَعْمَلْ عَلَيْهِ⁽⁵⁾،

(1) سقط من: ت.

(2) ت: تخريجه.

(3) ت: وراء.

(4) في ت و ط: الربض. والصواب بدون رقة، فَرُبُّشُ الشَّيْءِ وسطه، وَرَبْضُهُ: نواحيه. ومنه قيل: ربض المدينة. راجع أدب الكاتب لابن قتيبة ص: 208، دار الكتب العلمية، بيروت ط1 س1988.

(5) سقط من: ت.

لأنه يعرفه المعرفة التامة، لكونه حضر جهاد المهدية معه، فرأى زيه وطريقه. وكثر الكلام.

والحاصل أنه لم يعزل، حتى مشى شَيْخُنَا أبو يوسف المذكور لتونس، وعرف شيخنا ابن عرفة بحاله، فحينئذ طلع للسلطان وقال له: ثَبَّتْ عندي موجب عزله، فعزله.

ورئي أحد الشاهدين اللذين شهدا فيه وزكيا بعد موته، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا موقوفٌ في شهادتي على سيدي عبد الله الشريف، وطلب من الرائي في أن يطالبه بأن يسمح له، فطلبته فعفا عنه وسامحه، وعرفت عن الثاني بأنه اعترف أنه شهد بزور، ثم سألت قبل كتب هذا بيوم، فأفهمني أن الأمر كما قيل لي⁽¹⁾ عنه في قديم الزمان، ثم ما كان إلا يسيراً وقدمه السلطان قاضياً بصفاقس، وبقي بها مدة من سنين، وعزل ورجع إلى بلده [القيروان]⁽²⁾ كما كان يعمل الميعاد بها.

واخترمته المنية وتوفي بها في أواخر⁽³⁾ سنة⁽⁴⁾ 803 هـ، ودفن بجبانة المرباط [أبى]⁽⁵⁾ يوسف الدهماني [رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفع به آمين]⁽⁶⁾.

389 - ومنهم أبو الفضل قاسم بن محمد نعيسى عرف بابن نعيمة:

قد تقدم أنه قرأ على الشيخ ابن فندار، وقرأ أيضاً على شيخه الشيببي، وقرأ بتونس على شيخنا ابن عرفة مدة حتى قدّم عدلاً، ومدرساً، ببلده القيروان.

وكان فقيهاً، حافظاً، لَا يَلْحَقُهُ أَحَدٌ من أصحابنا، ولولا تأليف شيخنا ابن عرفة الذي ألف ما لحقناه، ولا قاربناه.

وعمل فيه رسماً في مدة قضائه شيخنا بالقيروان، إِذْ صَارَ يومئذ مُفْتِياً، وقاضياً بها بما يقتضي أنه مجرح، فعزله بجرحه وقاسى محنة بسبب ذلك وغيره.

(1) ت: له. (2) سقط من: ت.

(3) ت: آخر. (4) ت: عام.

(5) سقط من: ت، وفي ط: أبو. والصواب ما أثبتناه.

(6) سقط من: ت.

وعلم أنه لا يوافق إلا سفره مع السلطان أمير المؤمنين؛ أبي فارس عبد العزيز فخرج معه وكان يصلي به، ويحكم بين الناس، واشتهر، فشاوره لسفر الحج، فأذن له وأعانه، فمات في رجوعه بوادي الصفراء في غرة محرم سنة 804هـ، ولو وصل لرجع إلى مكانه، أو كان عدلاً بتونس، فإن العدالة جارية في زماننا الذي يصلي بأمر المؤمنين إذا سافر، ويحكم بين الناس يكون عدلاً بتونس، ويتقدم في غيرها بما يستحقه من خطبة أو تدريس أو غير ذلك، فالله سبحانه يُسَامِحُ الجميع، ويعفو بفضله آمين.

390 - ومنهم أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني رحمه الله:

قد تقدم أنه من خواص الشيخ الجديد الذي خلفه في مكانه على زاويته، وكان يحفظ بعض القرآن. وكان شيخاً، فاضلاً، صالحاً، نفاعاً لخلق الله تعالى، له خلق حسن. وكان يقول: ما اهتممت قط من غداء ولا عشاء.

وكان الجديد يقول: عبيد⁽¹⁾ رجلنا⁽²⁾ دنيا وأخرى، وكان يتصرف فيه تصرف المالك في ملكه.

وحدثني الحاج مبارك بن سالم الهيشري قال: قال لي الشيخ الجديد: رأيت في منامي، كأني في مقدم سفينة وعبيد الغرياني في مؤخرها فتأولت أنني أموت وهو يرثني.

فقلتُ بعد ذلك لعبيد المذكور: كيف كانت معرفتك؟ قال: جئت من جبل غريان لقصر المنستير، وكان فيه الشيخ عمر بن محفوظ الغرياني فأقمت عنده أزيد من عام، فرأيت في منامي: كأن قائلاً يقول لي: ما يفتح الله عليك إلا على يد سيدي محمد الجديد فقيمني ثلاث مرات، ثم في الرابعة رأيت صفته⁽³⁾ وحاله، وما عرفت أين هو؟ فقصدت الجديدين الذين [هم]⁽⁴⁾ في بلدة محقة، فلم نر صفته فيهم، فقلت: سبحان الله، هذا الذي جاءني شيطان، ثم قلت: بعد أن حصلت هاهنا ندخل القيروان، ونزور من بها، ثم⁽⁵⁾ دخلتُ من باب تونس، وإذا أنا بصبيان

(1) المراد به: صاحب الترجمة.

(2) ت: راجلنا.

(3) ت: صيغته.

(4) سقط من: ت.

(5) ت: فلما.

يلعبون، ورجلٌ خلفهم قاصدٌ⁽¹⁾ لجهة الباب، فعرفت أنه صاحبي، فقلت لصبي: مَنْ يكون ذلك الرجل؟ فقال: سيدي محمد الجديدي، فجئت إليه وقابلني وقابلته وقال لي: جئت وأخذ بيدي ومشى معي لموضعه.

وهذا الذي ذكره خلاف ما حدثني به [مَنْ نثق به]⁽²⁾ من خواصه قال: كنت أرعى غنماً لوالدي فباعها، فعزمتُ على السفر لِلْمُنَسْتِيرِ برسم الشيخ عمر بن محفوظ، وقصدته لأنه من موضعنا ومن جماعتنا، فأذن لي وَوَدَّعَنِي من طرابلس، ووصلت لِلْمُنَسْتِيرِ، فبقيت عنده مدة؛ ثم ورد علينا الشيخ الجديدي، فنفس⁽³⁾ رؤيتي له، مال قلبي إليه، فتركته حتى خرج ولحقته، فأمر بردي، وكنت صغيراً، فأبيت ومشيت⁽⁴⁾ صحبته.

قلت: فهو رضي الله عنه كان رعى الغنم في صغره، والغنم خلق ضعيف، فمن رعاها، كان رفيقاً بخلق الله، وكذلك هو كان لما تولى عوض الشيخ في الزاوية رحيماً بمن فيها وغيرهم.

فحدثني الفقيه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ سليمان النفوسي البربري قال: جئتُ من قَفْصَةِ بَزِيت وزيتون فيه، فلقيني الشيخ عبيد الغرياني، فقال لي: جئت لي مطراً زيتاً وشيئاً من الزيتون فيه، وأوصلته لداره، فوصلني من عنده بسببه سبعة أمتار زيتاً، ودينار⁽⁵⁾ ذهباً، وأخذتُ من تَمْرِ الفقراءِ ثلاثة أحمال تمرأ بالدين إلى أجل، فلما حَلَّ الْأَجَلُ قال لي: أنت من الفقراء، لا تعط لمن باعها شيئاً، فعرفتُ من باعني ذلك، فلم يعد إليّ.

واجتاز علي عبيد المذكور، وَنَاوَلَنِي صَرَّةً، فوجدتُ فيها عشرة دنانير ذهباً، فاعتقدت أنه وضعها عندي حتى يأخذها، فلما طال أمرها، كلمته فيها، فقال لي: هن لك⁽⁶⁾. كنت عند السلطان فكلّمته عليك فأعطاني ذلك قال⁽⁷⁾: فبقيت لي عادة أخذها⁽⁸⁾ في كل سنة [وبقيت أخذها]⁽⁹⁾ سنين.

(1) ت، ط: قاصداً. (2) سقط من: ت.

(3) ت: بنفس. (4) ت: فمشيت.

(5) ت: وديناراً. (6) ت: لكمز.

(7) سقط من: ت. (8) ت: أخذتها.

(9) سقط من: ت.

وهذا الذي فعله معه لوجهين: أحدهما ما تقدم من إعطائه المطر [له]⁽¹⁾، فهو كافأه على قدره، والثاني⁽²⁾ أنه بلغني أن الشيخ عبيد مرض في ابتداء أمره في زاويته في حَيَاة⁽³⁾ الشيخ سليمان المذكور، فأتى إليه وقال: يَا عُبيد أنت تقول: مرضتُ وأنا غريب في هذا المكان، تمشي معي للدار تمرض عندي، فما زال معه حتى رفعه، وَمَرَّضَهُ حتى بَرِيَء، فأراد بفعله هذا مع وَلَدِهِ المكافأة لفعل والده⁽⁴⁾ وعلى كل حال فهكذا كان الناس.

ذكر كراماته رضي الله عنه

حدثني الشيخُ الفقيه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح المفتي أبي علي عمر ابن إبراهيم المسراتي قال: حدثنا⁽⁵⁾ السلطان أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز قال: كان الشيخ عثمان الغرياني عندنا بتونس يتكلم⁽⁶⁾، وكذلك كان الشيخ عبيد الغرياني. ولما حَاصَرْتُ أخي عمر بمدينة صفاقس، ورد علينا ونحن نَتَعَشَّى، فقلت له: بسم الله، قال: لا، حتى تشرب فرسي، ويعلق عليها علفها، فأمرت من أتى لها بالماء، وشربتُ قدامه، وأتى بالشعير، وعلَّق عليها علفها بحضرته، ودنا معنا فأكل ما تيسَّر، ثم قال: نعم يا سيدي، أنتم أولادُ مولانا أبي العباس أحمد، فيكم الخير، والبركة، والشفقة، والرأفة؛ وجئت من فضلك أن ترحم أخاك عمر. فقلت له: يا سيدي، لو كنت أعلم أن فيه مصلحة لخلق الله لأجبتك فيما طلبتني فيه، وهو ممن يخشى منه على الناس، وسكت إخواني فاستشهدتُ بهم، فصدقوني، فقال: وأنا يا أخي ما جرى إلا خير، زرتُ قبر سيدي عيسى بن مسكين وتبركت به، وقلت: اللهم بحقك يا رب العالمين، وبجاه سيدنا عيسى بن مسكين انصر أمير المؤمنين [ثم قال⁽⁷⁾: و]سلام عليكم. فكلمناه في المبيت عندنا، فقال: لا. ومشى عند الفقيه عبد الله ابن قليل الهم. واعتقادي أنه مقيم عنده⁽⁷⁾ فسألته عنه من الغد فقال: يرحمك الرحمن ما قام إلا يسيراً، ومشى ونحن في المجلس، ولا لي

(1) زيادة من: ت.

(2) إسقاط الواو من: ت.

(3) ط: حياتي، التصويب من: ت.

(4) ط: فوالده. والصواب ما أثبتناه من: ت.

(5) ت: حدثني.

(6) يتكلم، بمعنى يُخَبِّرُ بالمُعَيَّيات.

(7) سقط من: ت.

في أهل صفاقس طميعة، ولا لي معهم حديث، وإذا هم بعثوا لي وقالوا لي: تأخذه ونحل لك البلد، فكان كذلك، فأنزلوه لي مكتفياً من فوق⁽¹⁾ سور البلد، فهو أشار لي بنصر الله لي عليه.

وحدثني مَنْ نثق به؛ أن أمير المؤمنين المذكور، لما سافر بِمَحَلَّتِهِ من تونس بعد، ووصل إلى عَمَالَةِ قَابِسْ، وكانت مدينة تورز، وقفصة، وطرابلس، نافق أهلها عليه، وشاع أنه متوجه إلى طرابلس، فبعث كتاباً إلى الشيخ عبيد المذكور، فوجده الرسول بغابة سفاية على نحو سبعة عشر ميلاً من القيروان في خدمة شجر بها للفقراء، فإذا به بعد حمد الله:

هذه سُحْبٌ سَحَبْتُ، هذه مَطَرٌ صَبَبْتُ، فما تمشى الرجل إلا أين حَبَبْتُ، بعثت لك وأنا بتونس [لتجيء]⁽²⁾ فلم تفعل، وجزت عليك من القيروان فما جئت، والسلام عليكم.

فلما قرأه، لم يجد مِخْبَرَةً وَقَلَمًا، فأخذ عُوداً من الأرض، وكتب من حُمُومِ البُرْمَةِ تحت خَطِّ السُّلْطَانِ:

إذا كثرت⁽³⁾ المحبة ثبتت، يا من جميع الفقراء له حَبَبْتُ، وَرِيَاخُ السَّعَادَةِ له هَبَبْتُ، وحصون أعدائه من أجله انْهَدَّتْ، والسلامُ على جميع المؤمنين، وعلى أمير المؤمنين، وافعل الخير تجد الخير، ولا بد من الاجتماع إن شاء الله، ولا ترد ابن نزار، لئلا يبقى علي وعليك [العار]⁽⁴⁾، و[دعاء كالأمطار.

يُشِيرُ إلى رجلٍ يقالُ له [علي]⁽⁵⁾ بن نزار، كان في ديوان باب القيروان كاتباً، فَضَيَّقَ على الناس بالباطل الغير المألوف، فأمر قائد البلد أن يَعْزِلَهُ، فمشى للسلطان وَكَلَّمَهُ في رَدِّهِ، فأوعده بذلك، فسمع الشيخ بذلك، فكتب بما ذكر، وكان السلطان طوعه، فلم يرده إلى الآن، فلما قرأ السلطان خطه قال: يا إخواني، اُمْنُوا على هذا الدعاء، وقرأه عليهم جهراً.

(1) كلمة «فوق» مستدركة في هامش: ت. (2) ما بين المعقوفتين زيادة من: ت.

(3) ت: غبت. (4) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

وعرج لبلد تُوزَر، وترك طريق طرابلس ووصلها في أربعة أيام، وحصرها، وظن شيخها أبو يحيى أنه يمنع، فخانه بعض أهل بلده، فما عنده خبر إلا والسلطان دخلها، وَمَكَّنَهُ اللَّهُ منه، وقتله صبراً، وأراح الله المسلمين منه.

وحدثني من نثق به عن حدثه أنه قال: كُنَّا معه في الغابة المذكورة، وهو يلقم في شجر الزيتون، فقال لمن يُعِينُهُ⁽¹⁾ في ذلك: اضربوا في رأس ابن يملول، فأرخت⁽²⁾ تلك الساعة واليوم، فتبين أنه الوقت الذي قتله فيه السلطان.

ثم مشى السلطان بإثر ذلك إلى قَفْصَةٍ، وكانت حصينةً جداً، وكان حَصَرَهَا السلطان أبو يحيى أبو بكر ستة أشهر، ومنعت، فلما رحل عنها لحقه شيخها بمفاتيح البلد، وردَّ شيخها إليها، وحصرها ولد ولده أبو العباس أحمد بن محمد في زمانه وأخذها، ثم نافق أهلها بعد سنين، وحصرها مدة، ومُنعت بسبب أن الشيخ صولة الليلي شَوَّشَ عليه وكان مريضاً. فأعان الله ولده أبا فارس المذكور، وأخذها قهراً، وقتل شيخها وغيره؛ ورأى من المصلحة هدم سورها، فهدمه إلى الأرض، وبنى بأنقاضه قصبة لِقَوَادِهِ.

وحصر أبو فارس بمحلته قبل أخذها لما ذكر جبل أوراس وهو جبل حصين جداً، يسكنه الخوارج، ووقعت مُقَاتَلَةٌ كبيرة. قال شيخنا البرزلي: كان في ذلك الوقت عندي الشيخ عبيد بتونس ضيفاً، فأبطأ عليّ في إتيانه للعشاء إلى قرب العشاء الآخرة، وكان في الأرض أثر طين، وإذا هو داخل وفي ساقيه بعض تنجيس، وهو حَافٍ. فقلت له: أبطأت، فقال: لولا رجالُ الحق حضروا للسلطان، لما نجا من أهل الجبل، لكن سلمه الله، فظن أنه الوقت الذي كرره فيه، ومات بعض، والناس متعددون، وسلم هو والناس، وانفصل عنهم⁽³⁾.

وحدثني مَنْ نثق به أيضاً أنه قال: كنت بزاوية الشيخ الجديد بعد موته، وقد كان قدم عليها الشيخ عبيد الغرياني، وقد أتى للزاوية بجمال عليها تَمَرٌ من بلاد الجريد، وحضر رجلٌ من أبناء الدنيا، فطلب الشيخ أن يعطيه منه ليدفعه لأهله، فقال له الشيخ: إنما هو للفقراء، وأنت لست بفقير، فقال له: يحكم بيني وبينك

(1) ت: يعينه.

(2) ت: فورخت.

(3) في ط قبالة كلمة «كنت بزاوية» على الهامش ورود لفظة «كذا بالأصل».

ذلك المصحف، نأخذ الفأل منه، ويقرأه الفقيه علينا، فقام الرجل وأخذه وحلّه، وعمل يده على ورقة من وسطه، وأعطاني لأقرأها [فإذا أولها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: 60] فلم يعطه شيئاً⁽¹⁾.

قلت: وهذا يدل على أن مذهبه جواز أخذ الفأل من المصحف، ومثله حكى عياض في مداركه عن أبي محمد عبد الله بن محمد الجميني الطليطلي، قال: كان يستحسن الفأل من المصحف التماساً للبركة، فضرب مرة وقد أراد ركوب البحر فخرج له. ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24] قال: فترك وركبه غيري، فغرقوا بأجمعهم. وقبله عياض بسكوته عنه. وهو خلاف فتوى أبي بكر الطرطوشي⁽²⁾ بأنه من الأزام.

وحدثني الحاج أبو العباس أحمد ابن ساكن السلمي عرف البرجي، قال: نزلت على حمّاري بطرف الجبانة الغربية بالقيروان، ومشيت لبُرج العباد، وهو قريب، إذ كان مفتاحه بيدي، دخلته لكي أخلو فيه، وإذا خرجت نغلقه، فخرجت منه على الفور، فلم أجد الحمار، وبحثت عنه بحثاً شديداً فلم أجده، ومشيت للشيخ عبيد الغرياني وكلمته في ذلك، فقال لي: يرجع إليك، فكلمته في الخروج إليه لنفتش عليه مراراً، وهو يأبى حتى قال لي في المرة الأخيرة⁽³⁾: اخرج غداً، فخرجت فوصلنا العرب بعد يومين، فلما وصلنا بها وجدت حمّاري، فأتوني مبادرين لأخذه فأبيت عليهم، وقالوا: والله ما أخرجناه.

قلت: واجتاز عليّ الشيخ عبيد المذكور بين المغرب والعشاء وأنا جالس على دُكّانة دار سُكّناي، فقمْتُ إليه وقبّلت بيده، ومشيت معه، فقال [لي]⁽⁴⁾: امشِ لتونس، وتعلم العلم بها، فلم أقبل كلامه، لأن غالب الحال إنما يمشي لها من

(1) ما بين المعقوفتين سقط من: ت.

(2) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المعروف بالطرطوشي، ويعرف أيضاً بابن أبي رندقة وهو صاحب كتاب الحوادث والبدع، وكتاب سراج الملوك وغيرها من الكتب المخطوطة والمطبوعة ولد سنة 451 هـ وتوفي سنة 520 هـ / 1126 م بالإسكندرية مصر. ترجم في: الصلة لابن بشكوال ص: 449 رقم 1272، بغية الملتبس ص: 117 رقم 295، الديباج المذهب ص: 371 - 373، حسن المحاضرة 1/ 376 - 377.

(3) في ط: الآخرة، التصويب من: ت. (4) سقط من: ت.

الطلبة من يريد القضاء والشهادة، أو هما معاً. وكنت في ذلك الزمان، لا أريدُ ذلك، وإنما غَرَضِي تعلّم العلم وتعليمه، وكنت يومئذٍ أعمل الميعاد بالعَشِيِّ، وأقرأ على شيخنا الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد ابن قليل الهم بكرة مع جماعة من أصحابنا، وذلك بعد انصراف شيخنا البُرْزُلي لتونس، وكنت أقولُ في نفسي: إذا مات من هو أكبر مني، يحتاج الناس إليّ فأقريء التفسير، والحديث، بكرة فلا أفقر أن أمشي لتونس، فأعاد الشيخ علي كلامه مرة ثانية وثالثة، وألح علي في ذلك، وقال: لا يخرج الخير⁽¹⁾ إلا من تونس، فوقع كلامه بتكرره في قلبي. [وَحَاكَ فيه]⁽²⁾ فتحرك خاطري للمشي لتونس، فكان في إشارته بركة عظيمة، فأقمت فيها أربعة عشر عاماً مجتهداً في الفروع ليلاً ونهاراً، أَتَعَلَّمُ وَأُعَلِّمُ، حتى خرجتُ قاضياً، وخطيباً بجزيرة جَرَبَة. فأقمتُ فيها ثلاثة أعوام وخمسة أشهر. وخرجتُ زائراً، ورأيتُ من الصَّوَابِ استعفائي منها. فطلبت ذلك من شيخنا أبي مهدي عيسى الغبريني رحمه الله فوافق على ذلك⁽³⁾. [شيخنا]⁽⁴⁾ ومشيتُ إلى بلدي القيروان فسكنتها سنة، أعمل فيها الميعاد من قراءة التفسير وغيره؛ وأتكلم على الناس بالمواعظ، وحكايات الصالحين، فسأل الشيخ أبو علي حسن البيار الشيخ عبيد أن⁽⁵⁾ يكلم السلطان في أن يعمل لي مُرْتَباً حتى لا أخرج من القيروان، فتكلما في ذلك فخرج الظهير بقضاء قابس، فمشى إليه وعرفه⁽⁶⁾، وقال له: من هذا خِفْنَا عليه، ولو كان له راتب ينفق [ما خرج من القيروان]⁽⁷⁾. فقال له: أرايت إن سبق في سابق علم الله أنه يتولى بلاداً وأوطاناً أتقفصه أنت في القيروان؟ فعلمت أنني لما أشار إليه، فكان كذلك.

وحدثني مَنْ نثق به عن حدثه عنه، قال: كنت في ابتداء أمري كُوشِف لي عن دور القيروان فنرى ما يتصرف أهلها بداخلها من مكاني. بقيت على هذا أياماً، فجلستُ في الحفاويين مع أناس، فاغتاب⁽⁸⁾ بعضهم، فأنصتُ له، فزال عني⁽⁹⁾

(1) ت: الخبر.

(2) زيادة من: ت.

(3) سقط من: ت.

(4) زيادة من: ت.

(5) ت: في أن.

(6) سقط من: ت.

(7) في ت: «منه ما مشى لخارج القيروان».

(8) في ط: اغتاب. وهو خطأ مطبعي.

(9) سقط من: ت.

ذلك، وحججت⁽¹⁾ عنه، فمشيت لزاوية⁽²⁾ الشيخ أبي الحسن علي⁽³⁾ العواني، وكنا بها نسكن مع شيخنا الجديد⁽³⁾ وأنا متغير لما وقع مني، إذ دخل علينا [شيخنا]⁽⁴⁾ المذكور فضربني ضرباً وجيعاً.

ومن كراماته ما نقل عنه غير واحد: أن الباب إذا كان مُغْلَقاً يَنْحَلُّ لَهُ، فإن كان خارج البيت أو الدار انحَلَّ له، ودخل، وإن كان في البيت وأغلق عليه فإنه ينحل له ويخرج.

فمن ذلك ما حدث به بعض أصحابه قال: أتيت أنا وهو من خارج القبروان، وخفت غلق باب البلد، فلما قربنا لَقِينَا رَجُلًا، فقال: غلق الباب، فتمادى وهو يسير على فَرَسِهِ ولم يرجع، فوجدنا البابَ محلولاً وليس فيه أحد، فتعجبت، فلما صرنا داخل الباب، وهو باب تونس، وإذا الناس في مَمَرٍ البابِ جلوسٌ كعادتهم، فقال بعضهم: من أين دخل سيدي عبيد والباب مغلق؟! فلما دخل على شيخه الجديد قال له: ما أبطأك ونحن ننتظرك.

وكذلك قال بعضهم: أتيتُ معه بعد غلق الباب من جهة ديار القلّال، فلما وصل لسور البلد وإذا لا سور أمامه، فدخلنا من ذلك المكان البلد.

وحدثني أبو محمد عَبْدُ اللَّهِ بكسر الدال، بن سعيد الهنزوتي عن حدثه قال: قلت له: يا سيدي عبيد، كان شيخ العرب صولة بن خالد بن حمزة الليلي، أقام السلطان أبا العباس أحمد على قفصة لما كان يحصرها، وهذا ولده [أمير المؤمنين]⁽⁵⁾ أبو فارس عبد العزيز تسلط عليه⁽⁶⁾ عوضه ونخاف عليه منه، فقال له⁽⁷⁾: لا تخف عليه، فإن القُطْبَ جمع بينهما، يشير بذلك على نفسه، والله أعلم. ولم يقع بينهما شيء حتى مات صولة مع طول حياته.

وتوفي الشيخ عبيد عام خمسة وثمانمائة ودفن بالزاوية، وقبره مزار رحمه الله تعالى [ورضي عنه ونفع به آمين]⁽⁷⁾.

(2) ت: لزيارة.

(4) زيادة من: ت.

(6) ت: من.

(1) ت: وحجبت.

(3) سقط من: ت.

(5) سقط من: ت.

(7) سقط من: ت.

391 - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن قايد الإسماعيلي :

مولده بالقيروان، وكان من أصحاب الشيخ أبي زيد، ثم من خَوَاصِّ شيخنا الشيبلي.

وكان حافظاً للقرآن، وكان معتقداً، يَرِدُ عليه البوادي للزيارة والتوبة كثيراً، ويدعو لهم، وله قَبُولٌ وتري في حسنة.

قال ولده الفقيه أبو الحسن علي: كان والدي رحمه الله إذا سمع وعظاً أو ذكراً يصيبه ما أصاب الأولين من كمال ذوقه.

قال: ومكث لا يخرج من داره من حين توفي شيخه الشيبلي إلى أن مات⁽¹⁾ عند صلاة الجمعة.

وقال له رجل: يا سيدي، أَرِنَا رَجُلًا صَالِحًا يدعو لنا؟ قال: اخرجوا لجامع الزيتونة بالربض، تجدوا به رجلاً صَالِحًا فَتَبَرَّكُوا بِهِ. قال: فلما وصلنا للجامع المذكور وجدنا فيه رجلاً، فَبَادَرْنَا بِأَن قَالَ: قولوا لسيدي محمد: لما دخلنا عليك أردت أن تُخْرِجَنَا من هذا الجامع.

وأتى ولده علي بضيف معه للعشاء، فلما رأى والده وجهه في ضوء المصباح صاح عليه بالخروج، فخرج ولم يَتَعَشَّ.

وقال لولده: اجتاز رجل من الطيارة على دواره⁽²⁾ فنزل عنده ببيته ليصلي فريضةً حضر وَقْتُهَا، [وطلب منه شيئاً]⁽³⁾ من الماء، من قَرْبَةٍ ليتوضأ به، فلم يُعْطَهُ. فدعا عليه بفقد عقله، قال ولده المذكور: [اجتمعت]⁽⁴⁾ بالرجل ببني جرير، فقال لي بَعْضُ من حَضَرَ: طلبه رجلٌ صالح في ماء يتوضأ به فأبى، فدعا عليه بفقد عقله، فأجيب دعاؤه فيه.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن محمد⁽⁵⁾ الربيعي، شهر القشيلي. وكان تلميذاً ملازماً له، قال: شَاوَرْتُهُ يوماً في المشي لموضعي قرب المغرب، فقال: لا، حتى

(1) ت: توفي.

(2) دواره. المراد به نسبته لِلدَّوَارِ، الذي هو مجموعة من البيوتات تقع في البادية مقابل «الْحَي» بالمدينة.

(3) ت: «وطلبه في شيء».

(4) في ت: فاجتمعت بعد ذلك.

(5) ت: أحمد.

تَفْطَرُ عندنا، فأبيت عليه وانصرفت، وغرضي [بذلك]⁽¹⁾ الشفقة عليه، فلما وصلتُ باب تونس، وسمعتُ المؤذن يقيم الصلاة لصلاة المغرب في جامع⁽²⁾ أبي ميسرة، فرمت الدخول للصلاة فلم أستطع، ورمت الجواز لموضعي فما قدرت، وَحَسَّيْتُ⁽³⁾ كَأَن في قلبي جمرة من نار، وعرفت أنني أوتيت من جهة الشيخ، فرجعتُ له مُبَادِرًا، فوجدته في باب الدار، فلما رأيَني بادرني بأن قال: لولا أنك جِئْتَ لأحرقت مكانك، وصليت معه المغرب.

قال: وجرت عادتي إذا أراد أن ينام نُغْطِيهِ ولا ننصرف عنه، حتى ينام ونسمع غطيته، وحينئذ أنصرفُ للركن الآخر معه، فعملت ليلة من الليالي كذلك، فلما أخذت مضجعي قلت في نفسي: نتمنى عليه أن لو أراني الكعبة، وإذا هو استيقظ من نومه كأنه مرعوب⁽⁴⁾، وقال: يا سيدي عبد الله، إن كان تعرفني الله تعالى نتعارف، وإن كان لرؤية الكعبة فما يعرف بعضنا بعضاً. فقلت له: يا سيدي، أنا تائب، ولا تؤاخذاني فإني صغير السن.

وكان ولده أبو الحسن علي من الصالحين، وظهرت له كرامات وهو الذي تقدم ذكْرُهُ، وأنه الذي عَسَلَ الشَّيْخُ أبا عمران موسى المناري، وذلك أنه رأى في منامه بجبل وِشَلَاتْ، كأن صومعة جامع القيروان سقطت، فقال في نفسه لما استيقظ: ما هو إلا سيدي موسى توفي، لأنه لا أرفعُ منه، فسرى في بقية ليله.

وكان أبو عمران موسى المذكور لما حضرته الوفاة أوصى أن لا يغسله إلا الحاج علي بن قائد، فقبل له: إنه في وسلات، قال: يجيء إن شاء الله تعالى فبعثوا له بُكْرَةً لأنه مات بالليل، فاجتمعوا بباب البلد.

وتوفي أبو عبد الله محمد أواسط جمادى الأولى سنة 808 هـ ودفن بالجبانة الغربية وقبره مزار رحمة الله تعالى عليه ورضوانه لديه آمين آمين.

قد نجز بحمد الله وحسن عونه الجزء الرابع وبه انتهى كامل
كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان والحمد لله أولاً
وآخرأً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

(1) سقط من: ت. (2) ت: جامع.

(3) حسيت كلمة عامة المراد بها: أَحْسَسْتُ.

(4) ت: مرعب.

المصادر والمراجع

- أ -

- إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك لمحمد بن أبي بكر القيسي، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، ط I، س 1995.
- أخبار الفقهاء والمحدثين للحافظ أبي عبد الله محمد بن حارث الخُشني القيرواني، وضع حواشيه سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 1999.
- الأخبار الموضوعة للملا علي القاري، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، س 1406هـ / 1986م.
- أدب الكاتب لابن قتيبة، دار الكتب العلمية - بيروت، ط I س 1988م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد، دار الإعلام ط I السنة 1423هـ / 2002م، عمان - الأردن.
- أسدُ الغابة في تمييز الصحابة لابن الأثير، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب لمحمد البيروتي الشافعي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط I السنة 1997، بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- الأعلام لخير الدين الزركلي، الطبعة 3، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
- الإكمال لابن ماكولا، دار الكتب العلمية، الطبعة I س 1411هـ، بيروت.

- ب -

- برنامج التّجبيي، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا.
- برنامج الوادي آشي لمحمد بن جابر الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، س 1982.

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم التلمساني ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي، تحقيق د. روية السويقي، دار الكتب العلمية ط I السنة 1997.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت - لبنان.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، وليفي بروفسال، دار الثقافة، لبنان.

- ت -

- تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، السنة 1413هـ/ 1992م.
- تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، السنة 1978م.
- تاريخ الثقات للعجلي، تخريج وتعليق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 1984م.
- تاريخ خليفة بن خياط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط I س 1995.
- التاريخ الصغير للبخاري، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، مكتبة التراث، القاهرة، الطبعة I السنة 1976م / 1396م.
- تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية السنة 1988م.
- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، تحقيق روية عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1997.
- التاريخ الكبير للبخاري، تحقيق هاشم الندوي، دار الفكر.
- تجريد أسماء الصحابة لشمس الدين الذهبي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان.
- تقريب التهذيب لابن حجر، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة I السنة 1993م، بيروت - لبنان.

- تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان لمحمد بن صالح عيسى الكنانى، تحقيق محمد العنابى، المكتبة العتيقة، تونس، السنة 1970.
- تهذيب التهذيب لابن حجر، الطبعة I، دار صادر، بيروت - لبنان.
- تهذيب الكمال للمزى، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى السنة 1998م، بيروت - لبنان.
- توشيح الديباج وحلية الابتهاج لبدر الدين القرافى، تحقيق أحمد الشتيوى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة I س 1983م.

- ث -

- الثقات لمحمد بن حبان التميمى البستى. وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، وتركي فرحان المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 1419هـ / 1998م.

- ج -

- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير لجلال الدين السيوطى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1410هـ / 1990م.
- جامع كرامات الأولياء للنبهانى، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، السنة 1408هـ / 1988م.
- جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس للإمام أبى محمد الحميدى، تحقيق د. روحية عبد الرحمن السويفى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ / 1997م.
- الجرح والتعديل للحافظ أبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة I س 1953م.
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم، دار الكتب العلمية، بيروت، السنة 1418هـ / 1998م.
- الجواهر الإكليلية فى أعيان علماء ليبيا من المالكية لناصر الدين محمد الشريف، دار البيارق، عمان - الأردن، ط I س 1999م.

- ح -

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1418هـ / 1997م.
- الحلل السندسية فى الأخبار التونسية لمحمد الأندلسى الوزير السراج، تحقيق

- محمد الحبيب الوصيلة، الدار التونسية للنشر، 1970م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة II، 1967م.

- خ -

- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للإمام الحافظ صفي الدين الخزرجي، تحقيق مجدي منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 1422هـ / 2001م.

- د -

- درة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي، تحقيق د. محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة - مصر.
- الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر النمري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، دراسة وتحقيق مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، السنة 1996م، بيروت - لبنان.

- ذ -

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لعلي بن بسام السنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط I س 1979م.

- ر -

- رحلة التجاني لعبد الله بن أحمد التجاني، قدّم لها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1981م.
- رحلة العبدري لمحمد بن محمد بن علي، تحقيق علي إبراهيم كردي، ط I السنة 1419هـ / 1999م، دار سعد الدين، دمشق - سوريا.
- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الرابعة، بيروت - لبنان، السنة 1406هـ / 1986م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، السنة 1975، الطبعة I.

- الرياض المستطابة ليحيى العامري اليمني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مؤسسة المعارف، بيروت، الطبعة II السنة 1988م.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية لأبي بكر عبد الله المالكي، تحقيق بشير البكوشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة II السنة 1994م.

- ز -

- الزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر العسقلاني، شرح وتعليق سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى السنة 1988م.

- س -

- سنن ابن ماجه، دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، السنة 1994م.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد الترمذي، مراجعة محمد بن جميل العطار، دار الفكر، بيروت، السنة 1414هـ / 1994م.
- سنن الدارمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- السنن الكبرى للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالث س 1985م.

- ش -

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف، خرّج حواشيه وعلّق عليه د. عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، السنة 1424هـ / 2003م.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث، بيروت.
- شرف الطالب في أسنى المطالب لأحمد بن قنفذ، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب، الرباط، السنة 1976م.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق محمد سعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 1410هـ.

- ص -

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد القلقشندي، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، الطبعة I السنة 1978م.
- صحيح البخاري، تخريج وضبط صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 2002.
- صحيح مسلم، دار ابن رجب، الطبعة I السنة 2002م في مجلد واحد.
- صفة الصفوة لابن الجوزي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
- الصلة لابن بشكوال، اعتنى به ووضع فهرسه د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة I السنة 2003م.

- ض -

- الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1406هـ / 1986م.
- ضعيف سنن أبي داود للألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة I السنة 1412هـ / 1991م.
- ضعيف سنن الترمذي للألباني، علّق عليه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، السنة 1411هـ / 1991م.
- الضوء اللامع للسخاوي، مكتبة القدسي 1303 - 1355، جزء 12، القاهرة - مصر.

- ط -

- طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، السنة 1417هـ / 1996م.
- طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن تميم القيرواني، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباقي، الطبعة II السنة 1985م، الدار التونسية.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، السنة 1997م.
- طبقات المفسرين لمحمد بن علي الداودي، ضبطه ووضع حواشيه عبد السلام عبد المعين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 2002م.

- ع -

- العبر في خبر من غبر للإمام الذهبي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول،

- دار الكتب العلمية، بيروت، ط I س 1985م.
- العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر.
- علماء إفريقية لمحمد بن حارث بن أسد الخشني، اعتنى به وصححه عزت العطار الحسيني، مكتبة المثنى، بغداد، ومكتبة الخانجي القاهرة - مصر، السنة 1372هـ.

- ف -

- فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت، س 1978م.
- فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، س 1995م.
- الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1405هـ / 1985م.
- فضائل إفريقية في الآثار والأحاديث الموضوعة لمحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، السنة 1403هـ.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد الحجوي الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 1416هـ / 1995م.
- فهرسة ابن خير الأشبيلي لمحمد بن خير بن عمر بن خليفة، وضع حواشيه محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط I س 1998م.
- فهرس ابن عطية للإمام أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة II السنة 1983م.
- فهرس الفهارس والأثبت لعبد الحي الكتاني، دار الغرب الإسلامي، لبنان، الطبعة II السنة 1402هـ / 1982م.
- الفوائد لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، السنة 1996.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني، تحقيق محمد عوض، دار الكتاب العربي، ط I السنة 1986م.

- ق -

- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I السنة 1998م.

- القاموس المحيط للفيروز آبادي، دار الفكر، بيروت، س 1995م.

- ك -

- الكاشف للذهبي، توثيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 1418هـ / 1997م.

- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت 1982.

- الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي الجرجاني، تحقيق يحيى مختار غفراوي، دار الفكر، بيروت، ط III س 1988م.

- كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين لحسن حسني عبد الوهاب، مراجعة محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة I السنة 1990م.

- كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، السنة 1996م.

- كشف الظنون لحاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

- كفاية المحتاج لأحمد بابا التنبكتي، تحقيق محمد مطيع، مطبعة دار فضالة بإشراف وزارة الأوقاف، المغرب، السنة 2000م.

- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي طبعة دائرة المعارف النظامية حيدر آباد 1312هـ.

- ل -

- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت - لبنان.

- لفظ الفرائد لأحمد ابن القاضي المكناسي، تحقيق د. محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، الرباط - المغرب، السنة 1396هـ / 1976م.

- م -

- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث، بيروت 1987.

- المسالك والممالك لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، السنة 2003م / 1424هـ.

- المستدرک للحاكم، دار الكتب العلمية، الطبعة I السنة 1990م.

- مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة I س 1993م.

- مسند أبي عوانة، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة I السنة 1998م.
- مسند الشهاب لمحمد بن سلامة القضاعي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة II السنة 1407هـ / 1986م.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، السنة 1409هـ، الرياض.
- مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة II السنة 1403هـ، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة 1415هـ.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت - لبنان.
- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد شكور، محمود الحاج أمير، المكتب الإسلامي، دار عمان، بيروت، الطبعة I السنة 1985م.
- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة II السنة 1983م.
- معجم المؤلفي لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث، بيروت.
- معجم المطبوعات العربية والمعرية، جمعه ورتبه يوسف إلياس سركيس، مكتبة الثقافة الدينية، لبنان.
- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للوزير لسان الدين ابن الخطيب، مطبعة أكدال، المغرب، السنة 1977م.
- المغرب، للصدیق بن العربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة III السنة 1404هـ / 1984م، بيروت - لبنان.
- المقاصد الحسنة للسخاوي، تحقيق محمد عثمان الخت، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، السنة 1994.
- مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط I السنة 1413هـ / 1992م.
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، السنة 1989م / 1409هـ.
- الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، دار الفكر، بيروت.

- الموطأ للإمام مالك، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، الطبعة الثالثة، السنة 1996م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة I السنة 1963م / 1382هـ.
- ن -
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، السنة 1413هـ / 1992م.
- نفح الطيب للمقري التلمساني، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان.
- نهاية الأرب للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة I، طرابلس - ليبيا، السنة 1989م.
- ه -
- هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا بن محمد البغدادي، وكالة المعارف، إستانبول، السنة 1955م.
- و -
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، دار النشر فرانز شتايز، الطبعة II س 1974م.
- وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، السنة 1983م، بيروت - لبنان.
- وفيات الونشريسي لأحمد الونشريسي مطبوع ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب، الرباط، السنة 1976م.
- ي -
- يتيمة الدهر، للثعالبي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1934م.

فهرس المحتويات

- 328 - عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عيسى بن أحمد بن عوانة بن حمود بن زياد بن علي بن محمد بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه 3
- 329 - أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الجليل الأزدي رحمه الله تعالى 4
- 330 - أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن عبد الجليل المذكور رحمه الله تعالى 4
- 331 - أبو الزين محمد بن ثغر الحبيبي رحمه الله 5
- 332 - أبو محمد عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي الصوفي رحمه الله تعالى ورضي عنه 9
- 333 - أبو داود عبد السلام بن نصر الكندي العابد الرهداني منسوب إلى بلدة بالجزيرة 13
- 334 - أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن موسى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن عوانة الهاشمي الحسيني المقرئ النحوي رحمه الله تعالى 16
- 335 - أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عيسى بن عبد الرحيم بن عبد العزيز بن عوانة الحسني .. 17
- 336 - أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن علي بن عتيق الهواري المتعبد 18
- 337 - أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري الصوفي المعروف بالدباغ - رحمه الله تعالى - 18
- 338 - عبد الرحمن بن كامل الزعبي الزاهد العابد - رحمه الله - 19
- 339 - أبو علي عمار المعروف 19
- 340 - أبو يوسف أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن جابر الهواري القاضي 24
- 341 - أبو يوسف يعقوب بن خليفة الدهماني الفقيه العابد رحمه الله تعالى 24
- 342 - أبو مروان عبد الملك بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عوانة إلى آخر نسب والده المتقدم ذكره 26
- 343 - أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن جابر الهواري القاضي رحمه الله 29
- 344 - أبو رحة غيث بن قاسم الحكيمي المتعبد 29
- 345 - أبو علي عمر بن عبد العالي الربيعي الفقيه القاضي رحمه الله 32
- 346 - أبو الحسن علي بن أحمد البلاغ الأندلسي الجباني الزاهد رحمه الله 33
- 347 - أبو عبد الله محمد بن سحنون الدكالي 33
- ذكر بقية أخباره رضي الله عنه 35
- ذكر وفاته رحمه الله تعالى 36
- 348 - أبو عبد الله محمد بن يخلف بن أبي بكر بن طريفة الرباوي الزاهد العابد رحمه الله تعالى 37
- ذكر كراماته رضي الله عنه 38
- ذكر بقية أخباره 41

- 349 - أبو علي سالم ابن أبي عثمان سعيد القديدي بلداً الحضرمي نسباً القيرواني مسكناً
 42 آخرأ ومدفنأ
 46 ذكر ثناء العلماء عليه
 47 ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه
 67 ذكر بقية أخباره
 350 - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري الأسدي المعروف بالدباغ المؤرخ
 73
 351 - أبو إسحاق إبراهيم بن عبد السلام بن عبد الغالب المسراتي رضي الله عنه
 75
 352 - أبو عبد السلام بن عثمان بن عبد العالي الربيعي
 78
 353 - أبو إسحاق بن محمد الرباوي الصوفي
 79
 354 - أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز الهسكوري عرف المغربي نزيل القيروان وإمام
 79 الصلاة والخطبة بجامعها
 355 - أبو سعيد فرج بن عبد الله المسراتي العابد الزاهد
 81
 356 - أبو مروان عبد الملك بن عبد القاهر الدكالي المغربي الزاهد نزيل القيروان
 82
 357 - أبو زيد عبد الرحمن عرف بابن شيخ الرباط
 83
 358 - أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد الملك بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن
 83 عوانة القرشي الهاشمي الحسيني المؤرخ المتقدم ذكره
 359 - أبو عبد الله محمد بن عثمان بن غانم الحضرمي القديدي
 84
 360 - أبو السرور ميمون بن زيد الكرفاح الوائلي من بني وائل
 85
 361 - أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي ثم الرماح
 88
 90 ذكر سيرته في تدريسه وما يتعلق بذلك
 92 ذكر كراماته
 93 ذكر بقية أخباره رضي الله تعالى عنه
 96 ذكر وفاته وما يتعلق بذلك
 362 - أبو الحسن علي بن عبد الله بن عياش العبيدلي رحمه الله
 97
 99 ذكر هروبه من السلطان ونحوه وذبه على الناس عند المهمات
 102 ذكر كراماته رضي الله عنه
 106 ذكر بقية أخباره
 363 - أبو عمران موسى بن عيسى المناري رضي الله عنه
 110
 364 - أبو العباس أحمد الأنصاري شهر الدباغ رحمه الله
 114
 365 - أبو محمد عبد الله بن محمد بن زيد الحجاجي رضي الله عنه
 116
 366 - أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن القرشي عرف القلال رحمه الله
 118
 367 - أبو سعيد خلف الله بن إسماعيل الحكيمي رحمه الله
 119
 368 - أبو سعيد خليفة بن حمزة اللواتي رحمه الله
 120

- 369- أبو الحسن علي بن حسن بن عبد الله الشريف يعرف بالعواني 121
- 370- أبو مهدي عيسى بن مرزوق الصميلي رحمه الله 125
- 371- أبو يحيى أبو بكر بن علي بن أبي بكر الفاسي 126
- 372- أبو الربيع سليمان بن سالم النفوسي عرف البربري رحمه الله 127
- ذكر محنته رحمه الله تعالى 128
- 373- أبو محمد عبد الناظر بن سليم الماطوسي رحمه الله تعالى 131
- 374- أبو يوسف يعقوب بن أبي القاسم الزعبي رحمه الله 133
- 375- أبو عفيف صالح بن عبد العالي الصدفي رحمه الله 138
- ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه 139
- 376- أبو محمد عبد الكريم بن إسماعيل الأرني 145
- 377- أبو محمد عبد الحميد بن محمد الشنشي رحمه الله 146
- 378- أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر الفاسي المذكور 149
- 379- أبو سعيد خليفة بن ناجي التنوخي هو عمي شقيق والدي 154
- 380- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الجليل بن فندار المرادي رحمه الله 159
- 381- أبو محمد عبد الله (بكسر الدال) ابن محمد بن يوسف البلوي الشيبني 162
- ذكر كراماته رضي الله تعالى عنه 166
- ذكر جملة من أخباره 172
- ذكر محنته التي جرت عليه في ابتداء أمره رضي الله تعالى عنه 175
- ذكر بقية أخباره 177
- ذكر وفاته رحمه الله تعالى وما يتعلق بذلك 178
- 382- أبو عبد الله محمد [بن عبد الله] بن العزيز السبائي عرف الجديدي 180
- ذكر كرامته رضي الله عنه 183
- ذكر بقية أخباره 188
- 383- أبو العباس أحمد بن محمد بن يونس الغساني عرف بابن قطانية 192
- 384- أبو عبد الله محمد بن أحمد المدلجي عرف المزالي 193
- 385- أبو العباس أحمد بن سلامة الموساوي عرف النحالي [رحمه الله] 195
- 386- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن هلال القمودي عرف دينار 196
- 387- أبو عبد الله محمد بن أحمد اليزليتي رحمه الله 196
- 388- أبو محمد عبد الله بن علي الشريف عرف التكوذي رحمه الله 198
- 389- أبو الفضل قاسم بن محمد نعيسي عرف بابن نعيمة 200
- 390- أبو سمير عبيد بن يعيش الغرياني رحمه الله 201
- ذكر كراماته رضي الله عنه 203
- 391- أبو عبد الله محمد بن علي بن قايد الإسماعيلي 209

MA^ʿĀLIM AL-ʾĪMĀN FĪ MA^ʿRIFAT AHL AL-QAYRAWĀN

The biographies of those who
inhabited Al-Qayrawan

by

Abu Zayd ʿAbdul-Raḥmān Ben Muḥammad
Al-Dabbāḡ

‘

Edited by

Dr. ʿAbdul-Majīd Al-Ḥayālī



Volume IV

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon

به كُتِباً. قال أبو بكر المالكي: «وصل إلى سُوسَةَ برسم زيارة يحيى⁽¹⁾ بن عمر، فوجده أَلْفَ كِتَابٍ فلم يجد ما يشتري به رَقّاً^(*) يكتبه فيه، فباع قميصه الذي كان عليه، واشترى بشمه رُقُوقاً، وَكَتَبَ الْكِتَابَ، وقابله وأتى به إلى القبروان»⁽²⁾.

قال: وتوفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

قلت: وقال عياض: سنة اثنين وعشرين. وقال أبو بكر بن عتيق والعواني:

سنة ثلاث وعشرين.

قال: ودفن بباب سَلَمَ على قارعة الطريق خلف المَصْلَى، وكان قبره قد انْقَعَرَ لكثرة الأمطار، فظهرت رجلاه بعد أربعين سنة وفيها أثر شِرَاكٍ نَعْلِهِ لم يتغير رحمة الله عليه.

قلت: وقال العواني بعد أربع عشرة سنة: والمنقول عنه جعفر بن نظيف قال: فَأَبِثْ قَبْرَهُ فَقُلْتُ لأَكْشِفَنَّ مِنْ عِنْدِ رَجُلِهِ، فَكَشَفْتُ فظَهَرَتْ لِي رِجْلُهُ وفيها أثر شِرَاكِهِ النَّعْلِ، وأراد بقوله لأَكْشِفَنَّ أَي يرفع الحَجَرَ الواقع عليه ليبينه به فيرى رجله من غير قصد لا أنه قصد التَّعَمُّدَ لنظر بعض جَسَدِهِ والله أعلم.

186 - ومنهم أبو الفضل يوسف بن نصر⁽³⁾ مولى لخم⁽⁴⁾ العابد الزاهد الفقيه⁽⁵⁾:

قال: سمع من يحيى بن عمر، وَفَرَاتٍ بن محمد.

قلت: زاد المالكي وغيرهما فكان حقه أن يقول ذلك.

قال: وقرأ عليه أبو الغصن الخادم، وكان من العلماء العارفين بالله، غلب عليه الزُهْدُ، والتَّفَكُّرُ، والنصيحة، ممن لا تأخذه في الله لَوْمَةٌ لأَنَّهُ؛ كثير العبادة، وخرج من القيروان إلى قصر أبي الجَعْفِدِ، ثم منه إلى قصر سَهْلٍ فَلَا زَمَةَ متعبداً به

(1) يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي سبق ترجمته في معالم الإيمان من الجزء الثاني رقم ترجمته (142).

(*) الرَّقُّ: الصَّحِيفَةُ البيضاء، وهو جلد رقيق. لسان العرب مادة «رقق» 10/123 ومنه قوله تعالى في سورة الطور آية (3): ﴿وَأَنْظُرْ ۖ وَكَتَبُكَ تَتْلُوهُ ۖ﴾ في رَفٍّ مُنْتَبِهٍ ﴿٣﴾.

(2) الرياض: 197/2.

(3) في الرياض: مسرور 234/2.

(4) في الرياض: «نجم الصيرفي» 234/2.

(5) ترجم له في الرياض: 234/2 - 251، شجرة النور الزكية: 1/124 رقم 197.